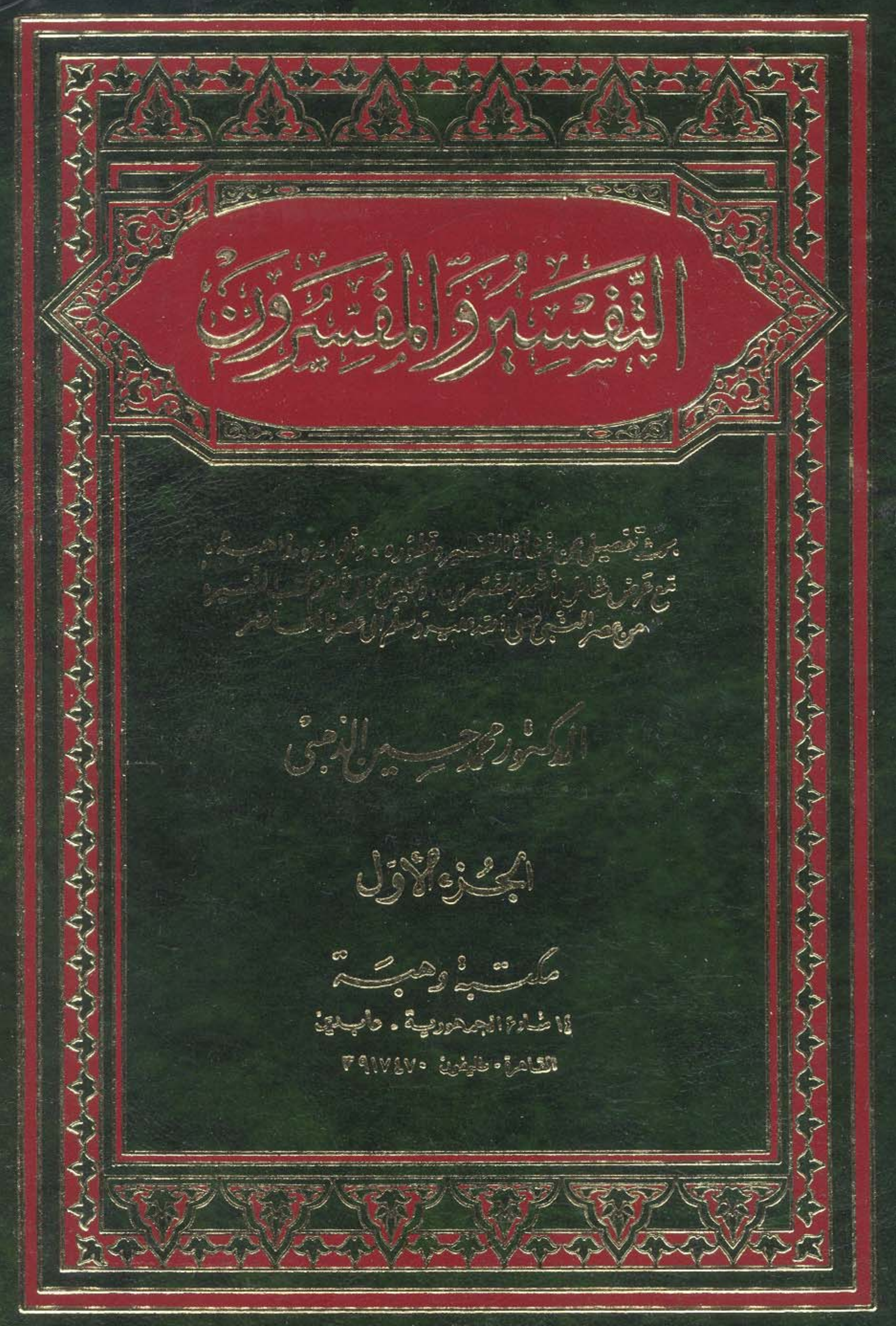

التفسير والمفسرون
بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره، وألوانه ومذاهبه،
مع عرض شامل لأشهر المفسرين، وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر
الدكتور محمد حسين الذهبي
الجزء الأول
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره . وألوانه ومذاهبه .
مع عرض شامل لأشهر المفسرين . وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

تأليف
الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم الكتاب

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . .

والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، الذى أرسله ربه شاهدا ومبشرا ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وبعـــــد . . .

فقد مرَّ على الإنسانية حين من الدهر وهى تتخبط فى مَهْمَهٍ من الضلال متسع الأرجاء، وتسير في غمرة من الأوهام، ومضطرب فسيح من فوضى الأخلاق وتنازع الأهواء، ثم أراد الله لهذه الإنسانية المعذبة أن ترقى بروح من أمره وتسعد بوحى السماء، فأرسل إليها على حين فترة من الرسل رسولا صنعه الله على عينه، واختاره أمينا علي وحيه، فطلع عليها بنوره وهدْيه، كما يطلع البدر على المسافر البادى بعد أن افتقده فى الليلة الظلماء.

ذلك هو محمد بن عبد الله ـ عليه صلاة الله وسلامه – نبى الرحمة، ومبدد الظلمة، وكاشف الغمة.

أرسله الله إلى هذه الإنسانية الشقية المعذَّبة، ليزيل شقوتها، ويضع عنها إصرها والأغلال التى فى أعناقها، وأنزل عليه كتابا – يهدى به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم – وجعل له منه معجزة باهرة، شاهدة على صدق دعوته مؤيدة لحقية رسالته، فكان القرآن هو الهداية والحجة، هداية الخلق وحجة الرسول.

لم يكد هذا القرآن الكريم يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم، وتملَّك عليهم حسهم ومشاعرهم، ولم يعرض عنه إلا نفر قليل، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها، ثم لم يلبث أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع الكفر، وأقام المسلمون صرح الحق مشيدا على أنقاض الباطل.

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم، الذى جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب الإنسانية وشفاء ما فى الصدور، وأيقنوا بصدق الله حيث يصف القرآن فيقول: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩] .. وبصدق الرسول حيث يصف القرآن

فيقول هو أيضا: « فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلُق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم » (١).

صدَّق المسلمون هذا، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه، فراحوا يثوِّرون (٢) القرآن ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر، وأخذوا يتدبرون فى آياته ليأخذوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا وخير الآخرة.

وكان القوم عربا خلصا، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهما لا تعكره عجمة، ولا يشوبه تكدير، ولا يشوهه شئ من قبح الابتداع، وتحكُم العقيدة الزائفة الفاسدة.

وكان للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية التى دقَّت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، إذ كانوا يرجعون فى مثل ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيكشف لهم ما دقَّ عن أفهامهم، ويُجَلىِّ لهم ما خفى عن إدراكهم، وهو الذى عليه البيان كما أن عليه البلاغ، والله تعالى يقول له وعنه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٤].

ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفاته، ويعملون به على بيِّنة من هَدْيه وضيائه، فكانوا من أجل ذلك أعزَّاء لا يقبلون الذل، أقوياء لا يعرفون الضعف، كرماء لا يرضون الضيم، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول.

ثم خَلَف من بعدهم خَلْفٌ تفرَّقوا فى الدين شيعًا، وأحدثوا فيه بَدعا وبدعًا، وكانت فتن كقطع الليل المظلم، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولا نجاة من شرِّها إلا بالتمسك بالقرآن، وهو الحبل الذى طرفه بيد الله وطرفه بأيديهم.

وكان من بين المسلمين من أهمل هداية القرآن، وركب رأسه فى طريق الغواية، فلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذى سلكه سَلَفه الصالح فى فهم القرآن الكريم

---

(١) الترمذى: ٢/ ١٤٩.

(٢) أى ينقرون عنه ويبحثون عن معانيه.

والأخذ به، فأخذ يتأوَّل القرآن على غير تأويله، وسلك في شرح نصوصه طريقا ملتوية، فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول ، وكان الذى رمى به فى هذه الطريق الملتوية التى باعدت بينه وبين هداية القرآن، هو تسلط العقيدة على عقله وقلبه، وسمعه وبصره، فحاول أن يأخذ من القرآن شاهدا على صدق بدعته، وتحايل على نصوصه الصريحة لتكون دعامة يقيم عليها أصول عقيدته ونزعته، فحرَّف القرآن عن مواضعه، وفسَّر ألفاظه على تحمل ما لا تدل عليه، فكان من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير!!

وكان بجوار هذا الفريق من المسلمين، فريق آخر منهم، برع في علوم حدثت في الملة، ولم يكن للعرب بها عهد من قبل، فحاولوا أن يصلوا بينها وبين القرآن، وأن يربطوا بين ما عندهم من قواعد ونظريات وبين ما فى القرآن من أصول وأحكام وعقائد، وتم لهم ذلك على اختلاف بينهم فى الدوافع والحوافز على هذا العمل، منهم من قصد حذق هذه العلوم وترويجها علي حساب القرآن، ومنهم من أراد خدمة الدين وتفهم القرآن على ضوء هذه العلوم، وأخيرا خرج هذا الفريق على الناس بتفاسير كثيرة، فيها خير وشر، وبينها تفاوت فى المنهج، واختلاف في طريقة الشرح ووسيلة البيان.

وكان من وراء هؤلاء وهؤلاء فريق التحف الإسلام وتبطَّن الكفر، يحمل بين فكَّيه لسانا مسلما، وبين جنبيه قلبا كافرا مظلما، يحرص كل الحرص على أن يطفئ نور الإسلام ويهدم عز المسلمين، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السئ، من أن يتناول القرآن بالتحريف والتبديل، والتأويل الفاسد الذى لا يقوم على أساس من الدين، ولا يستند إلى أصل من اللغة، ولا يرتكز على دليل من العقل... وأخيرا خرج هؤلاء أيضا علي الناس بتأويلات فيها سخف ظاهر وكفر صريح، خفى على عقول بعض الأغمار الجهلة، ولكن لم يجد إلي قلوب عقلاء المسلمين سبيلاً، ولم يلق من نفوسهم رواجا ولا قبولا، بل وكان منهم من أفرغ همه لدحض هذه التأويلات، وأعمل لسانه وقلمه لإبطال هذه الشبهات، فوقى الله بهم المسلمين من شر، وحفظ بهم الإسلام من ضر، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

خلف لنا هؤلاء جميعا - مسلمون وأشباه مسلمين، مبتدعون وغير مبتدعين - كتبا كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، كل كتاب منها يحمل طابع صاحبه، ويتأثر بمذهب مؤلفه، ويتلون باللون العلمى الذى يروج فى العصر الذى أُلِّفَ فيه، ويغلب على غيره من النواحى العلمية لكاتبه، وعنى المسلمون بدراسة بعض هذه الكتب،

وقلَّ اهتمامهم ببعض آخر منها، فأحببت أن أُقدِّم للمكتبة الإسلامية كتاباً يعتبر باكورة إنتاجي في التأليف [١] عنوانه:

«التفسير والمفسِّرون»

وهو كتاب يبحث عن نشأة التفسير وتطوره، وعن مناهج المفسِّرين وطرائقهم في شرح كتاب الله تعالى، وعن ألوان التفسير عند أشهر طوائف المسلمين ومَن ينتسبون إلى الإسلام، وعن ألوان التفسير في هذا العصر الحديث... وراعيت أن أُضَمِّن هذا الكتاب بعض البحوث التي تدور حول التفسير، من تطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه، وما يجب أن يكون عليه المفسِّر عندما يحاول فهم القرآن أو كتابة التفسير، وما إلي ذلك من بحوثٍ يطول ذكرها، ويجدها القارئ مفصَّلة مُسْهَبة في هذا الكتاب.

ورجوت من وراء هذا العمل أن أُنبه المسلمين إلى هذا التراث التفسيرى، الذى اكتظت به المكتبة الإسلامية على سعتها وطول عهدها، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها، وألا يقصروا حياتهم على دراسة كتب طائفة واحدة أو طائفتين، دون مَن عداهما من طوائف كان لها في التفسير أثر يُذكر فيشكر أو لا يشكر.

ورجوت أيضا أن يكون لعشاق التفسير من وراء هذا المجهود موسوعة تكشف لهم عن مناهج أشهر المفسِّرين وطرائقهم التى يسيرون عليها في شرحهم لكتاب الله تعالى، ليكون من يريد أن يتصفح تفسيرا منها على بصيرة من الكتاب الذى يريد أن يقرأه، وعلى بيِّنة من لونه ومنهجه، حتي لا يغترّ بباطل أو ينخدع بسراب.

وفى اعتقادى أن في هذا الموضوع جدة وطرافة، جدة: إذ لم أُسْبق إليه إلا بمحاولات بسيطة غير شاملة، وطرافة: إذ يعطى القارئ صورا متنوعة عن لون من التفكير الإسلامي في عصوره المختلفة، ويكشف له عن أفكار وأفهام تفسيرية، فيها غرابة وطرافة، وحق وباطل، وإنصاف واعتساف، ومحاورة شيقة، وجدل عنيف.

وقد رتبت الكتاب على مقدمة، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة، فقد جعلتها على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في معني التفسير والتأويل والفرق بينهما.

المبحث الثاني: في تفسير القرآن بغير لغته.

المبحث الثالث: في اختلاف العلماء فى التفسير، هل هو من قبيل التصورات، أو من قبيل التصديقات؟

---

(١) تقدم المؤلف بهذا البحث للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن والحديث سنة ١٩٤٦.

وأما الباب الأول: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الأولى من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى ، عن التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: فى فهم النبى ﷺ والصحابة للقرآن الكريم، وأهم مصادر التفسير فى هذه المرحلة.

الفصل الثانى: في الكلام عن المفسرين من الصحابة.

الفصل الثالث: فى قيمة التفسير المأثور عن الصحابة.

الفصل الرابع: فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة.

وأما الباب الثانى: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثانية من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى عن التفسير فى عهد التابعين، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: فى ابتداء هذه المرحلة، ومصادر التفسير فى عصر التابعين، ومدارس التفسير التى قامت فيه.

الفصل الثانى: فى قيمة التفسير المأثور عن التابعين.

الفصل الثالث: فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة.

الفصل الرابع: فى الخلاف بين السلف فى التفسير.

وأما الباب الثالث: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثالثة من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى، عن التفسير فى عصور التدوين، وهى تبدأ من العصر العباسي، وتمتد إلى عصرنا الحاضر، وقد رتّبت هذا الباب على ثمانية فصول:

الفصل الأول: فى التفسير بالمأثور وما يتعلق به من مباحث، كتطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه.

الفصل الثانى: فى التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث، كالعلوم التى يحتاج إليها المفسر، والمنهج الذى يجب عليه أن ينهجه فى تفسيره حتى يكون بمأمن من الخطأ.

الفصل الثالث: فى أهم كتب التفسير بالرأى الجائز.

الفصل الرابع: فى التفسير بالرأى المذموم، أو بعبارة أخرى، تفسير الفرق المبتدعة وهم: المعتزلة – الإمامية الإثنا عشرية – الباطنية القدامى، وهم الإمامية الإسماعيلية – الباطنية المحدثون، وهم: البابية والبهائية - الزيدية - الخوارج.

الفصل الخامس: فى تفسير الصوفية.

الفصل الساس: فى تفسير الفلاسفة.

الفصل السابع: في تفسير الفقهاء.

الفصل الثامن: فى التفسير العلمى.

وأما الخاتمة.. فقد جعلتها عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث، وقصرت الكلام على أهم ألوان التفسير فى هذا العصر وهى:

أولا- اللون العلمى.

ثانيا - اللون المذهبى.

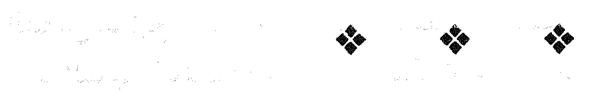
ثالثا - اللون الإلحادى.

رابعا - اللون الأدبى الاجتماعى.

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يسدد خطانا، ويحقق رجاءنا، إنه سميع مجيب، وهو حسبى ونعم الوكيل..

حدائق حلوان فى ١٨ المحرم سنة ١٣٩٦ هـ
(أول يوليه سنة ١٩٧٦م)

محمد حسين الذهبى



مقدمــــــة

- معنى التفسير والتأويل.
- الفرق بين التفسير والتأويل.
- تفسير القرآن بغير لغته.
- هل تفسير القرآن من قبيل التصوّرات... أو من قبيل التصديقات؟

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما

التفسير فى اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ [الفرقان:٣٣] ... وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال فى القاموس: «الفسر: الإبانة وكشف المغطي كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر» (١).

وقال فى لسان العرب: «الفسر: البيان، وفسَّر الشئ يُفسِّره - بالكسر وَيفسُره - بالضم فسرا. وفسَّره أبانه. والتفسير مثله.... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل...»(٢)

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: «... ويطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرَّيته لينطلق فى حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجرى»(٣)

ومن هنا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة فى الكشف الحسِّى، وفى الكشف عن المعانى المعقولة، واستعماله فى الثانى أكثر من استعماله فى الأول.

التفسير فى الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التى يُتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويُكفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلف له التعريف، فيذكر فى ذلك علوما أُخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات.. وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلَّفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرَّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

---

(١) الجزء الثانى ص ١١٠. (٢) الجزء السادس ص ٣٦١. (٣) الجزء الأول ص ١٣.

فقد عرفه أبو حيان فى البحر المحيط بأنه: «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك».

ثم خرَّج التعريف فقال: فقولنا: «علم»، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: «يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن»، هذا هو علم القراءات، وقولنا: «ومدلولاتها» أى مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: «وأحكامها الإفرادية والتركيبية»، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان وعلم البديع، وقولنا: «ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: «وتتمات لذلك»، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن، ونحو ذلك» .(١)

وعرَّفه الزركشي بأنه: «علم يُفهم به كتاب الله المنزل علي نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه (٢)» وعرفه بعضهم بأنه: «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية». (٣)

والناظر لأول وهلة فى هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان فى علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعني يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة ﴿ **وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما ومُلْكا كبيرا** ﴾ [الإنسان: ٢٠] - بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ: «ومَلِكا كبيرا» - بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة ﴿ **حتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢] - بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ: «يطَّهرن» - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضا باختلاف الرسم القرآنى فى المصحف، فمثلا قوله تعالي: ﴿ **أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا** ﴾ [الملك: ٢٢] - بوصل «أمَّن»، يغاير فى المعنى: ﴿ **أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** ﴾ [النساء: ١٠٩] - بفصلها، فإن المفصولة تفيد معنى «بل» دون الموصولة.

وعرَّفه بعضهم بأنه: «علم نزول الآيات، وشئونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها ومدنيها، ومُحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجملها ومُفسَّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها» (٤).

---

(١) الجزء الأول ص ١٣- ١٤ .
(٢) الاتقان : ٢ / ١٧٤ .
(٣) منهج الفرقان: ٢ / ٦ .
(٤) الإتقان: ٢ / ١٧٤ .

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد.

والتأويل في اللغة: التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال فى القاموس: «آل إليه أولا ومآلا: رجع، وعنه: ارتد... ثم قال: وأوَّل الكلام تأويلا وتأوله: دبّره وقدّره وفسره، والتأويل: عبارة الرؤيا» (١)

وقال فى لسان العرب: «الأول: الرجوع، آل الشئ يؤول أولا ومآلا رجع، وآول الشئ: رجعه، وألت عن الشئ: ارتددت، وفى الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أى: ولا رجع إلى خير... ثم قال: وأول الكلام وتأوله: دبره وقدره. وأوله وتأوله: فسَّره... إلخ». (٢)

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذا من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعانى.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة وهى السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه فى موضعه - قال الزمخشرى فى أساس البلاغة: «آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم، أى سائس محتكم». (٣)

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد فى كثير من آياته على معان مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٧] .. فهو فى هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. وقوله في سورة النساء: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾ [النساء: ٥٩].. فهو فى هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير. وقوله في سورة الأعراف: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله في سورة يونس: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ [يونس: ٣٩].. فهو فى الآيتين بمعنى وقوع المخبر به.. وقوله فى سورة يوسف: ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** ﴾ [يوسف: ٦].. وقوله: ﴿ **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ [يوسف: ٣٧]: وقوله فيها ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٤٤].. وقوله فيها ﴿ **أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ [يوسف: ٤٥] وقوله: ﴿ **هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ** ﴾ [يوسف: ١٠٠] فالمراد به فى كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا. وقوله في سورة الكهف: ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف: ٧٨]

---

(١) الجزء الثالث ص ٣٣١. (٢) الجزء ١٣ ص ٣٣ - ٣٤. (٣) الجزء الأول ص ١٥.

وقوله أيضا : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف:٨٢] فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التى أتي بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

● **التأويل فى الاصطلاح:**

١ ـ التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: «إن العلماء يعلمون تأويله» يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا» وبقوله: «اختلف أهل التأويل فى هذه الآية».... ونحو ذلك فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا، كان تأويله نفس الشئ المخبر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل فى القلب، واللسان ، وله الوجود الذهنى واللفظى والرسمى، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا فى نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التى نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى.

٢ ـ التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدِّثة والمتصوفة:

التأويل عند هؤلاء جميعا: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف. فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث – أو هذا النص – مؤول أو محمول على كذا. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالمتأول مطالَب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادعى أنه المراد.

الأمر الثانى: أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلاّ كان تأويلا فاسداً، أو تلاعبا بالنصوص.

قال في جمع الجوامع وشرحه: «التأويل حمل الظاهر علي المحتمل المرجوح، فإن حُمل عليه لدليل فصحيح، أو لما يظن دليلا فى الواقع ففاسد، أو لا شئ فلعب لا تأويل» .(١)

---

(١) الجزء الثانى ص ٥٦.

وهذا أيضا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات، فمنهم من ذم التأويل ومنعه، ومنهم من مدحه وأوجبه [١]

وستطلع عند الكلام على الفرق بين التفسير والتأويل على معان أخرى اشتهرت على ألسنة المتأخرين.

● الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما:

اختلف العلماء فى بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافا نتجت عنه أقوال كثيرة، وكأن التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصي حله على كثير من الناس إلا من سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: «نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه» [٢]. وليس بعيدا أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول: «وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب» [٣].

وهذه هي أقوال العلماء أبسطها بين يدى القارئ ليقف علي مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمي ويرضيه:

١ - قال أبو عبيدة وطائفة معه: «التفسير والتأويل بمعنى واحد» [٤] فهما مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ - قال الراغب الأصفهانى: «التفسير أعم من التأويل وأكثر ما يستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا والتأويل يستعمل أكثره فى الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل فى الجمل، فالتفسير إما أن يستعمل فى غريب الألفاظ كـ«البحيرة والسائبة والوصيلة» أو فى تبيين المراد وشرحه كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ [سورة البقرة:٤٣] .. وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى في سورة التوبة ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾ [التوبة: ٣٧] وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا**﴾ [البقرة:١٨٩].

---

(١) لخصنا هذا الموضوع من «الإكليل فى المتشابه والتأويل» للعلامة ابن تيمية: ٢/ ١٥-١٧ من مجموعة الرسائل الكبرى له. وانظر مقالته فى القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدبيرية.

(٢) الإتقان: ٢/١٧٣.

(٣) التفسير: معالم حياته.. منهجه اليوم ص ٦.

(٤) الإتقان ٢/١٧٣.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاما، ومرة خاصا، نحو «الكفر» المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة، وإما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل فى الجد والوجد والوجود» .(١)

٣ – قال الماتوردى: «التفسير: القطع علي أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح،وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله» (٢)، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ – قال أبو طالب الثعلبى: «التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا، كتفسير «الصراط» بالطريق، والصَّيِّب» بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] .. تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه،وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة» (٣) وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥ – قال البغوى ووافقه الكواشي : «التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها» (٤) بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦ – قال بعضهم: «التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية» (٥)، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ – التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبه إلى هذا الرأى الأخير العلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع: «وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه – ما سمعتها وما لم تسمعها –

---

(١) مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ بآخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار. (٢) الإتقان: ٢/ ١٧٣ .

(٣) الإتقان: ٢/ ١٧٣ . (٤) تفسير البغوى: ١/ ١٨ . (٥) الإتقان: ٢/ ١٧٣ .

مخالف للعُرْف اليوم، إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانية، تنكشف من سجف العبارات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك.

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك فى مرية من رد هذه الأقوال. أو بوجه ما، فلا أراك ترضى إلا أن فى كل كشف إرجاعا، وفى كل إرجاع كشفا، فافهم» . (١)

هذه هى أهم الأقوال فى الفَرْق بين التفسير والتأويل. وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التطويل.

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم.

وأما التأويل.. فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعانى من كل ذلك. قال الزركشى: « وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد فى المنقول، وعلى النظر فى المستنبط» . (٢)



(١) الألوسى: ١/ ٥

(٢) الإتقان: ٢/ ١٨٣.

المبحث الثانى

تفسير القرآن بغير لغته

تفسير القرآن بغير لغته، أو الترجمة التفسيرية للقرآن، بحث نرى من الواجب علينا أن نعرض له، لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب، وقبل الخوض فيه يحسن بنا أن نمهد له بعجالة موجزة تكشف عن معنى الترجمة وأقسامها، ثم نتكلم عما يدخل منها تحت التفسير وما لا يدخل، فنقول: الترجمة تطلق فى اللغة على معنيين:

الأول: نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجَم، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة.

الثانى: تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى.

قال فى تاج العروس: «والترجمان المفسر للسان، وقد ترجمه عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر. وقال الجوهرى: وقيل: نقله من لغة إلى لغة أخرى» (١)

وعلي هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين: ترجمة حرفية، وترجمة معنوية أو تفسيرية.

أما الترجمة الحرفية: فهى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجَم.

وأما الترجمة التفسيرية: فهى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نعرض لما يجوز من نوعى الترجمة بالنسبة للقرآن وما لا يجوز، ولا لمقالات العلماء المتقدمين والمتأخرين، ولكن غرضنا الذى نريد أن نكشف عنه ونوضحه هو: أى نوعىِ الترجمة داخل تحت التفسير؟ أهو الترجمة الحرفية؟ أم الترجمة التفسيرية؟ أم هما معاً؟ فنقول:

● **الترجمة الحرفية للقرآن:**

الترجمة الحرفية للقرآن: إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل، أما الترجمة الحرفية بالمثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمّله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها

---

(١) الجزء الثامن ص ٢١١.

البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز، وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين:

أولهما: كونه آية دالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزا للبشر، لا يقدرون على الإتيان بمثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك.

وثانيهما: هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم.

أما الغرض الأول، وهو كونه آية علي صدق النبي ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقا، فإن القرآن - وإن كان الإعجاز فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل، وغير ذلك مما عد من وجوه إعجازه - إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه علي ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقا، فإنّ اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فيها غيرها من اللغات، وإذن فلو تُرجم القرآن ترجمة حرفية - وهذا محال - لضاعت خواص القرآن البلاغية، ولنزل من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله علي محمد ﷺ.

وأما الغرض الثانى، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوي عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية، ونجد هذا كثيرا فى استنباطات الأئمة المجتهدين، وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا. والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية، ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غيره من سائر اللغات.

ومما تقدم يعلم: أن الترجمة الحرفية للقرآن، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه، لما يترتب عليها من ضياع الغرض الأول برمته، وفوات شطر من الغرض الثانى.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وهذا أمر ممكن، وهو وإن جاز فى كلام البشر، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز، لأن فيه من فاعله إهدارا لنظم القرآن وإخلالا بمعناه، وانتهاكا لحرمته، فضلا عن كونه فعلا لا تدعو إليه ضرورة.

● الترجمة الحرفية ليست تفسيرا للقرآن:

اتضح لنا مما سبق معنى الترجمة الحرفية بقسميها، وأقمنا الدليل بما يناسب المقام على عدم إمكان الترجمة الحرفية بالمثل، وعدم جواز الترجمة الحرفية بغير المثل، وإن كانت ممكنة، ولكن بقى بعد ذلك هذا السؤال: هل الترجمة الحرفية بقسميها - على فرض إمكانها فى الأول وجوازها فى الثانى - تسمى تفسيرا للقرآن بغير لغته؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير؟

وللجواب عن هذا نقول:

إن الترجمة الحرفية بالمثل، تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم الأصل بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفردات الأصل وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى البلاغية، والأحكام التشريعية. وتقدم لنا أيضا أن هذه الترجمة بالنسبة للقرآن غير ممكنة، وعلى فرض إمكانها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته، لأنها عبارة عن هيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين: المترجَم منها والمترجَم إليها. وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام، كما يحتاج العربي الذي نزل بلغته إلي تفسيره والكشف عن أسراره وأحكامه، ضرورة أن هذه الترجمة لا شرح فيها ولا بيان، وإنما فيها إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه، ونقل معني الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل، فقد تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم القرآن حذوا بحذو، بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وتقدم لنا أن هذا غير جائز بالنسبة للقرآن وعلي فرض جوازها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه فى تأدية بعض معناه، وليس فى ذلك شيء من الكشف والبيان، لا شرح مدلول، ولا بيان مجمل، ولا تقييد مطلق، ولا استنباط أحكام، ولا توجيه معان، ولا غير ذلك من الأمور التى اشتمل عليها التفسير المتعارَف.

● الترجمة التفسيرية للقرآن:

الترجمة التفسيرية أو المعنوية، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه، وذلك بأن نفهم المعنى الذى يراد من الأصل، ثم نأتى له بتركيب من اللغة المترجَم إليها يؤديه على وفق الغرض الذى سيق له.

وعلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية، ولإيضاح هذا الفرق نقول:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ [الإسراء:٢٩] ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدى المعني الذى قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ، ويقول فى نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن ، لأنه مثير للضحك علي فاعله والسخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ. أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير، مصوَّرين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب إلف من يتكلم بها. ومن هذا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية ،يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

إذا عُلم هذا، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التى نزل بها.

وحيث اتفقت كلمة المسلمين، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية، بدون إحاطة بجميع مراد الله، فإنَّا لا نشك فى أن الترجمة التفسيرية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضاً، لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير، لا لعبارة الأصل القرآنى، فإذا كان التفسير مشتملاً على بيان معنى الأصل وشرحه، بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه إلى الحل، وبيان مراده كذلك، وتفصيل معناه فيما يحتاج للتفصيل، وتوجيه مسائله فيما يحتاج للتوجيه، وتقرير دلائله فيما يحتاج للتقرير، ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره، كانت الترجمة التفسيرية أيضاً مشتملة على هذا كله، لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن.

وقصارى القول: إن فى كل من التفسير وترجمته بيان ناحية أو أكثر من نواحى القرآن التى لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربى مبين، وليس فى واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحلال نظم محل نظم القرآن بل نظم القرآن باق معهما، دال على معانيه من جميع نواحيه.

● الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية:

لو تأملنا أدنى تأمل، لوجدنا أنه يمكن أن يُفرَّق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين:

الجهة الأولى: اختلاف اللغتين. فلغة التفسير تكون بلغة الأصل، كما هو المتعارف المشهور، بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى.

الجهة الثانية: يمكن لقارىء التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبَّه عليه وأصلحه. ولو فرض أنه لم يتنبه لما فى التفسير من خطأ تنبَّه له قارىء آخر، أما قارىء الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك، لجهله بنظم القرآن ودلالته، بل كل ما يفهمه ويعتقده، أن هذه الترجمة التى يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن.

● شروط الترجمة التفسيرية:

تفسير القرآن الكريم من العلوم التى فُرِض على الأمة تعلمها، والترجمة التفسيرية تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضاً من الأمور التى فُرِضت على الأمة، بل هى آكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة، كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين، وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يفهمون لغة العرب، وأيضاً حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشِّرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة وتعاليم فاسدة، ليُظهروا القرآن لمن لم يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه، وكثيراً ما علت الأصوات بالشكوى من هذه التراجم الفاسدة، لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوافر وتُراعَى، لتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة مقبولة، وإليك هذه الشروط:

أولاً ــ أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يُعوَّلُ عليها إلا إذا كانت مستمَدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية، فلا بد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك، أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن، أو اعتمد على تفسير ليس مستمَداً من تلك الأصول، فلا تجوز ترجمته ولا يُعتد بها، كما لا يُعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمَداً من تلك المناهل، معتمداً على هذه الأصول.

ثانياً ــ أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن، وهذا شرط فى المفسِّر أيضاً، فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلَّطت على

تفكيره، فإذا بالمفسَّر وقد فُسِّر طبقاً لهواه، وإذا بالمُترجَم وقد تُرْجِم وفقاً لميوله، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه.

ثالثاً – أن يكون المترجِم عالماً باللغتين، المترجَم منها والمترجَم إليها، خبيراً بأسرارهما، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما.

رابعاً – أن يكتب القرآن أولاً، ثم يؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن.

هذه هى الشروط التى يجب مراعاتها لمن يريد أن يُفسِّر القرآن بغير لغته، تفسيراً يسلم من كل نقد يُوجَّه، وعيب يُلتمَس (١).

❖ ❖ ❖

---

(١) المراجع: المدخل المنير ص ٤١ – إلى النهاية، ومجلة نور الإسلام «الأزهر» السنة الثالثة ص ٥٧ – ٦٥، ومنهج الفرقان: ٢ / ٧١ – ٩٠

المبحث الثالث

هل تفسير القرآن من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات ؟

اختلف العلماء فى علم التفسير: هل هو من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات؟ فذهب بعضهم إلى أنه من قبيل التصورات، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظ القرآن، وذلك كله تعاريف لفظية، وقد صرَّح بهذا الحكيم على المطوَّل حيث قال: «وما قالوا من أن لكل علم مسائل فإنما هو فى العلوم الحكمية، وأما العلوم الشرعية والأدبية فلا يتأتى فى جميعها ذلك، فإن علم اللغة ليس إلا ذكر الألفاظ ومفهوماتها، وكذلك التفسير والحديث» (١).

وذهب السيد: إلى أن التفسير من قبيل التصديقات، لأنه يتضمن الحكم على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى، وعلى هذا يكون التفسير ـ عبارة عن مسائل جزئية، مثل قولنا: ﴿ **يَا أَيُّها النَّاس** ﴾ خطاب لأهل مكة، و ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا** ﴾ خطاب لأهل المدينة، والاسم، معناه: الدال على المسمى، والله، معناه: الذات الأقدس، والرحمن، معناه: الحسن... وغير ذلك، ولا شك أن هذه قضايا جزئية (٢).



(١) ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) انظر: اللؤلؤ المنظوم فى مبادىء العلوم ص ١٦٠ - ١٦١

البــــاب الأول

المرحلة الأولى للتفسير
(التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه)

- فهْمُ النبىِّ ﷺ والصحابة للقرآن.
- المفسرون من الصحابة.
- قيمة التفسير المـأثور عن الصحابة.
- مميزات التفسير فى هذه المرحلة.

الفصل الأول

فهْمُ النبىِّ ﷺ والصحابة للقرآن

● **تمهيد :**

نزل القرآن الكريم على نبى أُمِّى، وقوم أُمِّيين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحِكَم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلاً مما يجرى هذا المجرى، وكان كلامهم مشتملاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب.

وجرياً على سُنَّة الله تعالى فى إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم فى كلامهم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٤] .. فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلةً، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عُرِّبت وأُخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال. ومن قائل: إنها عربية بحتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كِلا القولين فهذه الألفاظ لا تُخرِج القرآن عن كونه عربياً.

استعمل القرآن فى أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، وعلى نمط العرب فى كلامهم. غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربى، بمعانيه الرائعة التى افتنَّ بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

● **فهْمُ النبى ﷺ والصحابة للقرآن:**

وكان طبيعياً أن يفهم النبي ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبى ﷺ القرآن فى جملته، أى بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد فى معرفته من أُمور أُخرى يُرجَع إليها.

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب،

وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه» [١] ، نعم لا أظن الحق معه فى ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم كانوا يفهمونه فى مفرداته وتراكيبه، وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلَّفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعانى ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

● **تفاوت الصحابة فى فهم القرآن:**

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا فى درجة واحدة بالنسبة لفهم معانى القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون فى معرفة المعانى التى وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضَيْر فى هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أُمَّة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذى ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: «أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١] .. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر»[٢] .. وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ: ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ**﴾ [النحل: ٤٧] ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوُّف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّجْلُ منها تامكاً قَرِداً ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعة السَّفَنُ [٣]

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنتَ لا أدرى ما ﴿**فَاطِرِ السَّمَوَاتِ**﴾ حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها» [٤] .

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى «الأبّ» ومعنى «التَخوُّف»، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس – وهو ترجمان القرآن – لا يظهر له معنى «فاطر» إلا بعد

---

(١) ص ٤٨٩ . (٢) الإتقان: ٢ /١١٣ .

(٣) الموافقات: ٢ /٨٧ – ٨٨ .. والتامك: السنام. والقرد: الذى تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام. والنبع: شجر للقسى والسهام. والسفن: كل ما يُنحت به غيره.

(٤) الإتقان: ٢ /١١٣

سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم – مثلاً – أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ أنه تعداد للنعَم التى أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصلاً ما دام المراد واضحاً جلياً (١).

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخارى، من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .. وبلغ من أمره أن أخذ عقالاً أبيض وعقالاً أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بشأنه، فعرَّض بقلة فهمه، وأفهمه المراد (٢).

الحق أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – كانوا يتفاوتون فى القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع – كما تقدَّم – إلى اختلافهم فى أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم، فمنهم مَن كان واسع الاطلاع فيها ملمًّا بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن كان يلازم النبى ﷺ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا فى درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافاً عظيماً.

قال مسروق: « جالستُ أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ – يعنى الغدير – فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم » (٣).

هذا.. وقد قال ابن قتيبة – وهو ممن تقدَّم على ابن خلدون بقرون –: « إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض » (٤). ويظهر أن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرَّح به فيما أورده بعد عبارته السابقة بقليل حيث قال: « وكان النبى ﷺ يُبيِّن المجمل، ويُميِّز الناسخ من المنسوخ، ويُعرِّفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه » .. (٥). وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم فى معرفة معانى القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا فى كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول ﷺ.

---

(١) انظر ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر فى سؤاله عن معنى الأبّ فى سورة عم من تفسيره لجزء عم ص ٢١

(٢) الحديث عند البخارى فى باب التفسير: ٨/١٢٧ من فتح البارى.

(٣) مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى لكلية الشريعة ص ٨٤

(٤) التفسير – معالم حياته – منهجه اليوم ص ٦، نقلاً عن المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص٨.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٩ .

مصادر التفسير فى هذا العصر

كان الصحابة فى هذا العصر يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول : القرآن الكريم.

الثانى : النبى ﷺ.

الثالث : الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الرابع : أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ونوضح كل مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول:

● **المصدر الأول - القرآن الكريم:**

الناظر فى القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. وما أُوجزَ فى مكان قد يُبْسَط فى مكان آخر، وما أُجْمِلَ فى موضع قد يُبيَّن فى موضع آخر، وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى، وما كان عاماً فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أُخرى.

لهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجَزاً، وبما جاء مُبيَّناً على فهم ما جاء مُجْمَلاً، وليحمل المُطْلَق على المقيَّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسَّر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعانى كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا، فمن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُشرح ما جاء موجَزاً فى القرآن بما جاء فى موضع آخر مُسْهَباً، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة فى بعض المواضع، وجاءت مُسْهَبة مطوَّلة فى موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت مُوجَزة فى بعض المواضع، وجاءت مُسْهَبة مُفصَّلة فى موضع آخر.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل المجمَل على المبيَّن ليُفسَّر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾ [غافر: ٢٨] بأنه العذاب الأدنى المُعجَّل فى الدنيا، لقوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ﴾ [غافر: ٧٧] .. ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٢٧] بأهل الكتاب لقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ** ﴾ [النساء: ٤٤] .. ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ**

من رَّبِّه كلمات﴾ [البقرة: ٣٧] فسَّرتها آية الأعراف: ﴿قالا ربَّنا ظَلَمْنَا أنفسنا وإن لَّمْ تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الْخَاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣] .. ومنه قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُه الأبْصَار﴾ [الأنعام:١٠٣] فسَّرتها آية: ﴿إلَىٰ ربِّها ناظرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿أُحلَّتْ لَكُم بَهيمَةُ الأنْعَام إلاَّ ما يُتْلَىٰ عَلَيْكُم﴾ [المائدة: ١] .. فسرتها آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَة﴾ [المائدة: ٣].

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المُطْلق على المُقيَّد، والعام على الخاص، فمن الأول: ما نقله الغزالى عن أكثر الشافعية من حمل الـمُطْلق على المُقيَّد فى صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثَّل له بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدى مُقَيَّدة فى الوضوء بالغاية فى قوله تعالى: ﴿فاغْسلُوا وُجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلَى الْمَرَافِق﴾ [المائدة: ٦] .. ومطلقة في التيمم فى قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بوُجُوهكُمْ وأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦] .. فقيدت فى التيمم بالمرافق أيضاً (١)، ومن أمثلته أيضاً عند بعض العلماء: آية الظِّهَار مع آية القتل، ففى كفَّارة الظِّهَار يقول الله تعالى: ﴿فتَحْرِيرُ رَقَبَة﴾ [المجادلة: ٣] .. وفى كفَّارة القتل، يقول: ﴿فتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَة﴾ [النساء:٩٢] .. فيُحمل المطلق فى الآية الأولى على المُقيَّد فى الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء (٢).

ومن الثانى: نفي الخُلَّة والشفاعة على وجهة العموم فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أنفقُوا ممَّا رزقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أن يَأْتِي يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون﴾ [البقرة: ٢٥٤] .. وقد استثنى الله تعالى المتقين من نفى الخلة فى قوله: ﴿الأَخلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِين﴾ [الزخرف: ٦٧] .. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوات لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاَّ من بَعْد أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لمَن يَشَاءُ ويَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] .. ومثل قوله تعالى: ﴿من يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِه﴾ [النساء: ١٢٣] .. فإن ما فيها من عموم خُصِّص بمثل قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِير﴾ [الشورى: ٣٠] ..

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الجمع بين ما يُتوهم أنه مختلف، كخلق آدم من تراب فى بعض الآيات، ومن طين فى غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التى مَرَّ بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ وتتفق فى المعنى، فقراءة ابن مسعود رضى الله عنه: «أو

---

(١) مسلم الثبوت وشرحه: ١/ ٣٦١.

(٢) جمع الجوامع وشرحه: ٢/ ٥٤ والمستصفى: ٢/ ١٨٥

يكون لك بيت من ذهب» تفسِّر لفظ الزخرف فى القراءة المشهورة: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] .. وبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ والمعني، وإحدي القراءتين تُعيِّن المراد من القراءة الأخرى، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] .. وفسَّرتها القراءة الأخرى: «فامضوا إلى ذكر الله»، لأن السعى عبارة عن المشى السريع، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب.

وبعض القراءات تختلف بالزيادة والنقصان، وتكون الزيادة فى إحدى القراءتين مفسِّرة للمجمل فى القراءة التى لا زيادة فيها، فمن ذلك: القراءة المنسوبة لابن عباس: «ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج» .. فسَّرت القراءة الأخرى التى لا زيادة فيها (١)، وأزالت الشك من قلوب بعض الناس الذين كانوا يتحرَّجون من الصفق فى أسواق الحج.. والقراءة المنسوبة لسعد بن أبى وقاص: «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السُّدُس» .. فسَّرت القراءة الأخرى (٢) التى لا تعرض فيها لنوع الأخوة.

وهنا تختلف أنظار العلماء فى مثل هذه القراءات فقال بعض المتأخرين: إنها من أوجه القراءات، وقال غيرهم: إنها ليست قرآناً، بل هى من قبيل التفسير، وهذا هو الصواب: لأن الصحابة كانوا يفسِّرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن فظنها بعض الناس - لتطاول الزمن عليها - من أوجه القراءات التى صحَّت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه أصحابه.

ومما يؤيد أن القراءات مرجع مهم من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، ما روى عن مجاهد أنه قال: «لو كنتُ قرأتُ قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجتُ أن أسأله عن كثير مما سألته عنه» (٣).

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة فى تعرف بعض معانى القرآن، وليس هذا عملاً آلياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبير والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة.

ومن أجل هذا نستطيع أن نوافق الأستاذ جولدزيهر على ما قاله فى كتابه «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» من أن: «المرحلة الأولى لتفسير القرآن والنواة التى بدأ

---

(١) يشير إلى الآية (١٩٨) من سورة البقرة. (٢) يشير إلى الآية (١٢) من سورة النساء.
(٣) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى: ١/١٦٣

بها، تتركز فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها. وبعبارة أوضح: فى قراءاته، ففى هذه الأشكال المختلفة، نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير» (١) .. نعم نستطيع أن نوافقه على أن المرحلة الأولى للتفسير تتركز فى القرآن نفسه على معنى رد متشابهه إلى محكمه، وحمل مجمله على مبينه، وعامه على خاصه، ومطلقه على مقيده.. إلخ، كما تتركز في بعض قراءاته المتواترة. وما كان من قراءات غير متواترة فلا يُعوَّلُ عليها باعتبارها قرآناً، وإن عُوِّل على بعض منها باعتبارها تفسيراً للنص القرآنى، نعم.. نستطيع أن نوافقه على هذا إن أراده، ولكن لا نستطيع أن نوافقه على ما يرمى إليه من إلحاد فى آيات الله، وما يهدف إليه من اتهام المسلمين بالتساهل فى قبول القراءات، وذلك حيث يقول فى صفحة (١ ، ٢) من الكتاب نفسه: «وقد تسامح المسلمون فى هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على قدم المساواة بالرغم مما قد يفرض من أن الله تعالى قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفاً وحرفاً، وأن مثله من الكلام المحفوظ فى اللوح والذى تنزَّل به المَلَك على الرسول المختار يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد» أ هـ.

كما لا نستطيع أن نوافقه على ما نسبه إلى الصحابة من أنهم هم الذين أحدثوا هذه القراءات جميعاً، ونفى كونها من كلام الله، وعلَّل ما ذهب إليه بعلل واهية لا تقوم إلا على أوهام تخيلها فظنها حقائق، وذلك حيث يقول فى صفحة (٦) بعد أن ساق هذه الآية: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الفتح: ٨ - ٩] .. قال: «قرأ بعضهم بدلاً من «وتعزروه» بالراء: «وتعززوه» بالزاى، من العزة والتشريف، وإنى أرى فى الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة - وإن كنت لا أجزم بذلك - أن شيئاً من التفكير فى تصور أن الله قد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك، حقاً إنه قد جاءت في القرآن آيات بهذا المعنى - سورة الحج (٤٠) ومحمد (٧) والحشر (٨) وغيرها - بَيْد أن اللفظ المستعمل فى هذه الآيات - وهو «نصر» - يقوم على أساس أخلاقى تهذيبى، وليس كالتعبير بلفظ «عزَّر» وهى الكلمة المتفقة مع اللفظ العبرى «عزار»، والتعبير بـ «عزَّر» تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية» ا هـ.

فهذا الكاتب دفعه إلى رأيه الذى رآه ولم يقطع به كما هى عادته، جهله بأساليب العرب وأفانينها فى البلاغة، فالعرب لا يفهمون من قوله تعالى: ﴿ **وَتُعَزِّرُوهُ** ﴾ - بالراء - معنى النصرة المادية، بل أول ما تصل هذه الكلمة إلى أسماعهم يعلمون أن الله يريد منهم نصر دينه ونصر رسوله، وكثير من مثل هذه العبارات وارد فى القرآن، وما

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم: ١ / ١

ذكره من التفرقة بين لفظ: «نصر» ولفظ: «عزَّر» من أن الأول يقوم على أساس أخلاقى تهذيبي، والثانى يقوم على أساس من المساعدة المادية، لا يقوم على أساس من الفقه اللغوى.

ويقول الكاتب فى صفحة (١٩، ٢٠) من الكتاب نفسه: «وأحب أن أهتم هنا ببعض ما ذكرته من هذه القراءات، لما فيه من طابع خاص ذى مبادىء جوهرية، فبعض هذه الاختلافات ترجع أسبابها إلى الخوف من أن تُنسب إلى الله ورسوله عبارات قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجوه النظر الخاصة ما يمس الذات الإلهية العالية أو الرسول، أو مما يرى أنه غير لائق بالمقام. وهنا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب هذه الأفكار التنزيهية».

ثم ضرب لذلك أمثلة فقال: «فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾[آل عمران:١٨].. فقد فهم أن هناك ما يصطدم بشهادة الله نفسه على قدم المساواة مع الملائكة وأولى العلم فقرأ بعضهم: «شهداء الله» وبهذا يكون الكلام ملتئما مع الآية المتقدمة: «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، شهداء الله: أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم» ا.هـ.

والمتأمل أدنى تأمل يرى أن هذا الوهم الذى ادَّعى حصوله من القراءة الأولى لا يمكن أن يدور بخلد عاقل، ولم نر أحدا من العلماء خطر له هذا الإيهام، فشهادة الله مع الملائكة لا غبار عليها، ولا تفيد مساواته لمن ذكروا معه.

ويقول فى صفحة (٢١، ٢٢): وفى سورة العنكبوت ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢، ٣] فقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ قد يوحى إلى النفس أن الله قد علم ذلك أولا عند الفتنة كأنه لم يكن يعلم بذلك فى الأزل، ويظهر أن مثل هذا الظن قد أدى إلى قراءة على والزهرى: «فَلَيُعلِمَنَّ» من الإعلام، بمعنى: فليُعَرِّفَنَّ اللهُ الناس أخلاق هؤلاء وهؤلاء، أو بمعنى لَيَسِمَنَّهم بعلامة يُعرفون بها، من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها. وزرقة العيون عند العرب علامة على القبح والغدر، وأحيانا على الحسد» ا.هـ.

وللرد على هذا نقول: إن الله تعالى لا يعلم الشئ موجودا إلا بعد وجوده، فتعلق علمه بالحادث باعتبار أنه حدث حادث، وهذا لا ينافى كونه عالما من الأزل بالشئ قبل وقوعه، فالكاتب ظن أن العلم المترتب على الفتنة هو العلم الأزلى، ونسى علم الانكشاف والظهور، فبنى على هذا أن من قرأ: «فليُعلمن» من الإعلام، قرأ بها فرارا مما تفيده القراءة الأولى، وهذا قول باطل، ولا يخفى على صحابة رسول الله ﷺ أن

فتنة الله لمن يشاء من عباده يراد منها أن يظهر للناس في الخارج ما اشتمل عليه علمه من الأزل، فكيف يعقل أنهم عدلوا عن قراءة «فليعلَمن» من العلم إلى قراءة «فليُعلمن» من الإعلام لمجرد هذا الوهم الباطل؟.. اللَّهم إن الكاتب لا يريد إلا أن يوقع في أذهان الناس أن القران كان عُرْضة للتبديل والتحريف من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد ساق الكاتب أمثلة كثيرة فى كتابه، كلها من هذا القبيل ولهذا الغرض بدون أن يُفرِّق بين قراءة متواترة وقراءة شاذة، ولو أنه علم ما اشترطه المسلمون لصحة القراءة وقبولها من تواترها عن صاحب الرسالة. أو صحة السند وموافقة العربية وموافقة الرسم العثماني، لما صار إلى هذا الرأي الباطل، ولما نسب إلى الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا التحريف والتبديل فى كتاب ضمن الله حفظه فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر:٩].

● **المصدر الثاني ـ النبي ﷺ:**

المصدر الثاني الذى كان يرجع إليه الصحابة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله ﷺ، فكان الواحد منهم إذا أُشكلت عليه آيةمن كتاب الله، رجع إلى رسول الله ﷺ فى تفسيرها، ، فيبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤] .. وكما نبَّهَ على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول ﷺ أنه قال: «ألا وإني أوتيتُ الكتابَ ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحَرِّموه».... الحديث (١).

والذى يرجع إلى كتب السُّنَّة يجد أنها قد أفردت بابا من الأبواب التى اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك:

ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».

وما رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الصلاة الوسطي صلاة العصر».

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على الناس فقالوا:

---

(١) تفسير القرطبى: ١/ ٣٧.

يا رسول الله؛ وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك».

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علي المنبر: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠].. ألا وإن القوة الرمى».

وما أخرجه الترمذى عن على قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر».

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أُبَيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦].. قال: «لا إله إلا الله».

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن نوقش الحساب عُذِّب» قلت: أليس يقول الله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] قال: «ليس ذلك بالحساب.. ولكن ذلك العرض».

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة] [(١)]

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله ﷺ:

● الوضع على رسول الله ﷺ فى التفسير:

غير أن القُصاص والوضاع زادوا فى هذا النوع من التفسير كثيرا، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤] فقال: «القنطار ألف أوقية»، وما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ «القنطار أثنا عشر ألف أوقية». [(٢)]

فمثل هذا التناقض فى مقدار وزن القنطار، لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ﷺ، ولهذا رد العلماء كثيرا مما ورد من التفسير منسوبا إلى رسول الله ﷺ، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى» ومراده من قوله هذا - كما نقل عن المحققين من أتباعه - أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة [(٣)] لا كما استظهره الأستاذ أحمد أمين حيث يقول: «وظاهر هذه الجملة أن

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٩١، ٢٠٥.

(٢) فجر الإسلام (ص٤٢٥)، وقد حقق الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.. ﴾ ... إلخ (آل عمران: ١٤). أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ حديث فى تحديد القنطار، وما ورد من ذلك فموقوف على بعض الصحابة.

(٣) الإتقان ٢/ ١٧٨.

الأحاديث التى وردت فى التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر - كما قال بعضهم - أنه يريد الأحاديث المرفوعة إلي النبى ﷺ في التفسير. أما الأحاديث المنقولة عن الصحابة والتابعين فلا وجه لإنكارها، وقد اعترف هو نفسه ببعضها » (١).

وحيث يقول: « إن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتا، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب، فقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: « ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى » (٢).

نعم .. ليس الأمر كما استظهره صاحب « ضحى الإسلام » و « فجر الإسلام، لأنه مما لا شك فيه أن النبى ﷺ صحَّت عنه أحاديث فى التفسير، والإمام أحمد نفسه معترف بها، فكيف يعقل أن الإمام أحمد يريد من عبارته السابقة نفى الصحة عن جميع الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ فى التفسير؟ - وظنى أن الأستاذ أراد بالبعض المذكور، المحققين من أصحاب الإمام أحمد، غاية الأمر أنه حمل كلامهم على غير ما أرادوا فوقع فى هذا الخطأ، والعجب أنه نقل عن « الإتقان » فى هامش فجر الإسلام (ص ٢٤٥) ما استظهرناه من كلام المحققين من أتباع الإمام أحمد.

واعترف فى فجر الإسلام (ص ٢٤٥)، وضحى الإسلام (الجزء الثانى ص ١٣٨): بأنه قد صح عن رسول الله ﷺ تفسيرات لبعض ما أُشكل من القرآن، وإن كان قد اضطرب فى كلامه فجعل ما ورد من التفسير عن رسول الله ﷺ بالغا حد الكثرة، حيث قال فى فجر الإسلام (ص ٢٤٥): « وهذا النوع كثير: وردت منه أبواب فى كتب الصحاح الستة، وزاد فيه القُصَّاص والوُضَّاع كثيرا »، ثم عاد فى ضحى الإسلام (جـ: ٢ ص ١٣٨): فجعل ما ورد عن الرسول ﷺ من التفسير بالغا حد القلَّة حيث قال: « وما روى عن الرسول ﷺ فى ذلك قليل، حتى روي عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبى ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تُعَد، علَّمهنَّ إياه جبريل »، وفاته أن الحديث مطعون فيه، فذكره دليلا عن مُدَّعاة ولم يُعقِّب عليه، مع أنه أحال على الطبرى في نقل الحديث، والطبرى وضَّح علته، وتأوله على فرض الصحة كما سنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

● هل تناول النبي ﷺ القرآن كله بالبيان؟

قد يقول قائل: إن الله تعالي يقول فى سورة النحل: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل :٤٤] .. فهل بين رسول الله ﷺ لأصحابه القرآن كله، أفرادا وتركيبا، وما يتبع ذلك من بيان الأحكام؟ أو أنه بين لهم

---

(١) ضحى الإسلام: ٢ / ١٤١. (٢) فجر الإسلام ص ٢٤٥.

بعضه وسكت عن بعضه الآخر؟ ثم على أى وجه كان هذا البيان من الرسول ﷺ لأصحابه؟ . وللجواب عن هذا نقول:

● المقدار الذى بيَّنه رسول الله ﷺ من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء فى المقدار الذى بينه النبى ﷺ من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية (١) .

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ لم يبين لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخوَيِّى والسيوطى(٢) وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

● أدلة من قال بأن النبى ﷺ بيَّن كل معاني القرآن:

أولا: قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾..

والبيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بيَّن الرسول ﷺ ألفاظه كلها، فلابد أن يكون قد بين كل معانيه أيضا، وإلا كان مقصِّرا فى البيان الذى كُلِّف به من الله.

ثانيا: ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى(٣) أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا»، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ «البقرة» ثمان سنوات، والذى حمل الصحابة على هذا ما جاء فى كتاب الله تعالى من قوله: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [سورة ص:٢٩].. وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وقوله: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف:٢] .. وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك من غيره.

---

(١) انظر مقالته فى مقدمته فى أصول التفسير ص ٥.

(٢) انظر ما نقله السيوطى عن الخويِّى فى الإتقان: ٢/ ١٧٤ وما ارتضاه السيوطى فى الإتقان: ٢/ ١٧٩.

(٣) هو عبد الله بن حبيب التابعى المقرئ (المتوفى سنة ٧٢ هـ) وهو غير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى (المتوفى سنة ٤١٢هـ).

فهذه الآثار تدل على أن الصحابه تعلموا من رسول الله ﷺ معانى القرآن كلها، كما تعلموا الفاظه.

ثالثا: قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكتاب الله الذى فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة؟

رابعا: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أنه قال: «من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها»، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه.(١)

- **أدلة من قال بأن النبى ﷺ لم يبيِّن لأصحابه إلا القليل من معانى القرآن:**

استدل أصحاب هذا الرأي بما يأتى:

أولا: ما أخرجه البزار عن عائشة قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيًا بعدد، علمه إياهن جبريل».(٢)

ثانيا: قالوا: إن بيان النبى ﷺ لكل معانى القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا فى آى قلائل، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد فى جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده فى كتابه.(٣)

ثالثا: قالوا: لو كان رسول الله ﷺ بيَّن لأصحابه كل معانى القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» فائدة، لأنه يلزم من بيان رسول الله ﷺ لأصحابه كل معانى القرآن استواؤهم فى معرفة تأويله، فكيف يخصص ابن عباس بهذا الدعاء؟(٤)

- **مغالاة الفريقين:**

ومن يتأمل فيما تقدم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما على طرفى نقيض، ورأيي أن كل فريق منهم مبالغ فى رأيه. وما استند إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة على المدعى.

- **مناقشة أدلة الفريق الأول:**

فاستدلال ابن تيمية ومن معه على رأيهم بقوله تعالى: ﴿ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ**

---

(١) استخلصنا هذه الأدلة من مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص٥، ٦ومن الإتقان: ٢/ ٢٠٥

(٢) القرطبى: ١/ ٣١، ورواية الطبرى فى تفسيره: ١/ ٢١: «.. إلا آيًا تعد»، وفى ضحى الإسلام: ٢/ ١٣٨ بلفظ: «.. إلا آيات تعد»..

(٣) انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن الخويِّى: ٢/ ١٧٤. (٤) انظر القرطبى: ١/ ٣٣٠.

إِلَيْهِمْ ﴾ استدلال غير صحيح، لأن الرسول ﷺ - بمقتضى كونه مأمورا بالبيان - كان يبيِّن لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه، ماأشكل منها وما لم يشكل.

وأما استدلالهم بما روى عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، فهو استدلال لا ينتج المدعى، لأن غاية ما يفيده، أنهم كانوا لايجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبى ﷺ أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

وأما الدليل الثالث، فكل ما يدل عليه: هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه، شأن أى كتاب يقرؤه قوم، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبى ﷺ فى كل لفظ منه.

وأما الدليل الرابع، فلا يدل أيضا، لأن وفاة النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يبين لهم كل معانى القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لابد من الرجوع فيها إلى النبى ﷺ، شأن غيرها من مشكلات القرآن.

● **مناقشة أدلة الفريق الثانى:**

وأما استدلال أصحاب الرأى الثانى بحديث عائشة، فهو استدلال باطل، لأن الحديث منكر غريب، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيرى، وهو مطعون فيه، قال البخارى: «لا يتابع فى حديثه» وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: «منكر الحديث»، وقال فيه ابن جرير الطبرى: «إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار» و على فرض صحة الحديث فهو محمول - كما قال أبو حيان- على مغيبات القرآن، وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله (١). وفى معناه ما قاله ابن جرير (٢) وما قاله ابن عطية (٣).

وأما الدليل الثانى، فلا يدل أيضا على ندرة ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام فى التفسير، إذ أن دعوة إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة، وأما ما قيل من أن النبى ﷺ لم يؤمر بالتنصيص على المراد فى جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس فى آيات القرآن فليس بشئ، إذ أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان، وقد يشكل الكثير على أصحابه فليزمه البيان، ولو فرض أن القرآن أشكل كله على الصحابة ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام أن يمتنع

---

(١) البحر المحيط: ١/١٣.
(٢) فى تفسيره: ١/٢٩.
(٣) ونقله عنه القرطبى فى تفسيره: ١/٣١.

عن بيان كل آية منه، بمقتضى أمر الله له فى الآية: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ .

وأما الدليل الثالث، فلو سلمنا أنه يدل على أن النبى ﷺ لم يفسر كل معانى القرآن. فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى.

● **اختيارنا فى المسألة:**

والرأى الذى تميل إليه النفس - بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق فى دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى - هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول ﷺ بيَّن الكثير من معانى القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبيِّن كل معانى القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير، قال «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء. وتفسير لا يعلمه إلا الله» .(١)

وبدهى أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسِّر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذى لا يعذر أحد بجهله، لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه، وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات الى أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما إلي ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به.

هذا.. وإن مما يؤيد أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يفسر كل معانى القرآن، أن الصحابة رضون الله عليهم أجمعين، وقع بينهم الاختلاف فى تأويل بغض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله ﷺ ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص.

بقى بعد هذا أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال، وهو: على أى وجه كان بيان رسول الله ﷺ للقرآن؟ فنقول:

إن الناظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد فيهما ما يدل على أن رسول الله ﷺ وظيفته البيان لكتاب الله، أو بعبارة أخرى، ما يدل على أن مركز السنة النبوية من القرآن، مركز المبيِّن من المبيَّن.

---

(١) تفسير ابن جرير: ١/ ٢٥ .

فمن القرآن، قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

ومن السنة، ما رواه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه» (١).

فقوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه» معناه أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى وأوتى من البيان مثله، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب. فيعم ويخص، ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن. ويحتمل وجها آخر: وهو أنه أوتى من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وأما قوله: «يوشك رجل شبعان..» »إلخ، فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنة التى سنها الرسول ﷺ وليس لها ذكر فى القرآن، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا (٢)، وروي الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: «كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك» (٣)، وروي الأوزاعى عن مكحول قال: «القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن» (٤).

● **أوجه بيان السنة للكتاب:**

وإذ قد اتضح لنا من الآية والحديث والآثار مقدار ارتباط السنة بالكتاب ارتباط المبيِّن بالمبيَّن فلنبين بعد ذلك أوجه هذا البيان فنقول:

الوجه الأول: بيان المجمل فى القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، **فمن الأول**: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج. ولذا قال: «خذوا عنى مناسككم»، وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى».

وقد روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: «إنك أحمق، أتجد

---

(١) القرطبى: ١/ ٣٧ - ٣٨.
(٢) انظر القرطبى: ١/ ٣٧ - ٣٨.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٩.
(٤) نفس المرجع: ١/ ٣٩.

الظهر فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة، ونحو ذلك ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسرا؟ إن كتاب الله تعالي أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا» (١)

* **ومن الثاني**: تفسيره - ﷺ - للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾ [البقرة:١٨٧] بأنه بياض النهار وسواد الليل.

* **و من الثالث**: تخصيصه - ﷺ - الظلم فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام:٨٢] بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتي قال: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبى ﷺ: « ليس بذلك، إنما هو الشرك ».

* **ومن الرابع**: تقييده اليد فى قوله تعالى: ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة:٣٨]. باليمين.

الوجة الثانى: بيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان: ﴿ **الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ باليهود و﴿ **الضَّالِّينَ** ﴾ بالنصارى. وكبيان قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ** ﴾ [البقرة:٢٥] بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة، وكبيان قوله تعالي: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعيرة.

الوجة الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء فى القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحصن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين، وغير هذا كثير يوجد فى كتب الفروع.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يبين رسول الله ﷺ أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله عليه الصلاة والسلام: « لا وصية لوارث » بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها وحديث: (البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام) بيان منه أيضا لنسخ حكم آية ﴿ **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ** ﴾ [النساء:١٥].. وغير هذا كثير.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتى السنة موافقة لما جاء به

---

(١) القرطبى: ١/ ٣٩ .

الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته. وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿**لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾ [النساء: ٢٩].. وقوله عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» فإنه موافق لقوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [النساء:١٩].

● **المصدر الثالث من مصادر التفسير فى عصر الصحابة - الاجتهاد وقوة الاستنباط:**

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خلّص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضى الله عنه.

● **أدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:**

وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آى القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأى والاجتهاد، مستعينا على ذلك بما يأتى:

أولا: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانيا: معرفة عادات العرب.

ثالثا: معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعا: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب. ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم، فمثلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾ [التوبة: ٣٧].. وقوله: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا**﴾ [البقرة:١٨٩] لايمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب فى الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين علي فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم

كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها» (١) وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن» (٢) وقال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين علي فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب(٣).

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن يدق معناه، ويخفى المراد منه، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظا من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بذلك حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال: «قلت لعلى رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحى إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر» (٤)

هذه هى أدوات الفهم والاستنباط التى استعان بها الصحابة على فهم كثير من آيات القرآن، وهذا هو مبلغ أثرها فى الكشف عن غوامضه وأسراره.

● **تفاوت الصحابة فى فهم معانى القرآن:**

غير أن الصحابة رضون الله عليهم أجمعين، كانوا متفاوتين فى معرفتهم بهذه الأدوات، فلم يكونوا جميعا فى مرتبة واحدة، السبب الذى من أجله اختلفوا فى فهم بعض معانى القرآن، وإن كان اختلافا يسيرا بالنسبة لاختلاف التابعين ومن يليهم.

ومن أمثلة هذا الاختلاف: ما روى من أن عمر استعمل قدامة بن مظعون علي البحرين فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول، فقال عمر: يا قدامة إنى جالدك، قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تجلدنى، قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**﴾ [المائدة: ٩٣]. فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله ﷺ بدرا، وأحدا، والخندق، والمشاهد. فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال

---

(١) منهج الفرقان: ١ / ٣٦ .
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٣) منهج الفرقان: ١ / ٣٦ .
(٤) البخارى فى باب الجهاد: ٤ / ٦٩

ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين، لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠].. قال عمر: صدقت..(١)

وما روى من أن الصحابة فرحوا حينما نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] لظنهم أنها مجرد إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعى النبي ﷺ، وقد كان مصيبا فى ذلك، إذ لم يعش النبى ﷺ بعدها إلا أحدا وثمانين يوما كما روى»(٢).

وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم فما رأيت أنه دعانى فيهم إلا ليريهم، فقال ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئا فقال لى: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول»(٣).

● المصدر الرابع من مصادر التفسير فى هذا العصر - أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

المصدر الرابع للتفسير في عهد الصحابة هم أهل الكتاب من اليهود والنصاري، وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة فى بعض المسائل، وبالأخص فى قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت فى الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجا يخالف منهج التوراةوالإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائما تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - يرجعون في استيفاء هذه القصص التى لم يتعرض لها

---

(١) فجر الإسلام ص٢٤٢ - ٢٤٤. (٢) الموافقات: ٣ / ٣٨٤.
(٣) البخارى فى باب التفسير: ٨ / ٥١٩ من فتح البارى.

القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل في دينهم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شي عن رسول الله ﷺ، لأنه لو ثبت شئ في ذلك عن رسول الله ﷺ ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.

● **أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة:**

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، إنما كان مصدرا ضيقا محدودا، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل، وكان طبيعيا أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم، ويصونوا القرآن عن أن يخضع في فهم معانيه لشئ مما جاء ذكره في هذه الكتب التي لعبت فيها أيدي المحرفين، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن، أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافي مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه، ووراء هذا وذاك ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا النوع كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ويتوقفون فيه، فلا يحكمون عليه بصدق ولا بكذب، امتثالا لقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا...» الآية.

وسنوفق بمشيئة الله تعالى بين هذا الحديث وحديث: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج..» ونذكر مدى تأثير اليهودية والنصرانية على التفسير في أدواره المختلفة من لدن عصر الصحابة إلى عصر التدوين، وذلك عند الكلام عن التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.



الفصل الثانى

المفسِّرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد.

● **أشهر المفسّرين من الصحابة:**

وقد عد السيوطى رحمه الله فى «الإتقان» مَن اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم : الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك من تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء : كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، غير أن ما نقل عنهم فى التفسير قليل جدا، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول فى القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولا، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم فى التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون علي أسراره ، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم فى التفسير غير كبيرة.

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه فى التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم فى دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية فى التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلى بن أبى طالب أيضا فى التفسير، هذه الصفات هى : قوتهم فى اللغة العربية،وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبى ﷺ مخالطة مكّنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى

من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبى عليه الصلاة والسلام فى شبابه. لوفاة النبى عليه الصلاة والسلام وهو فى سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.

أما باقى العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلَّت عنهم الرواية ولم يصلوا فى التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام فى شأن أبى بكر، وعمر، وعثمان، وزيد بن ثابت، وأبى موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، ونتكلم عن علىّ، وابن عباس، وابن مسعود، وأُبَىّ بن كعب، نظراً لكثرة الرواية عنهم فى التفسير، كثرة غذَّت مدارس الأمصار على اختلافها وكثرتها.

ولو أنَّا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم علىّ بن أبى طالب، ثم أُبَىّ بن كعب، وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة، بما يتناسب مع مشربه فى التفسير ومنحاه الذى نحاه فيه:

١ - عبد الله بن عباس

● **ترجمته:**

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لُبابه الكبرى بنت الحارث بن حَزَن الهلالية. وُلدَ والنبى عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشعْب بمكة. فأتىَ به النبى عليه الصلاة والسلام فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبى عليه الصلاة والسلام فى صغره، لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وتُوفى رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفن بها، وتولى وضعه فى قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات والله اليوم حَبْرُ هذه الأمة.

● **مبلغه من العلم:**

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعانى كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة فى الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه فى مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقول

له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خُلقاً، وأفقههم فى كتاب الله. وقال فى شأنه: ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سئولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شىء يقول: لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضي الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتابه «أسد الغابة» عن عبيد الله بن عتبة قال: «إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه» قال عبيد الله: وعمر هو عمر فى حذقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه وقال: لمَ يُدخل هذا معنا وإنَّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قوله: ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لى: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾.. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول». وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: «نعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس». وقال فيه عطاء: «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع». وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل، وما رأيتُ أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً». وقيل لطاووس: لزمتَ هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركتَ الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: إنى رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس». وروى الأعمش عن أبى وائل قال: «استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة - وفى رواية: سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا» وكان علىّ بن أبى طالب يُثنى على تفسير ابن عباس ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وبالجملة.. فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويُعلِّم، ولم يشتغل

بالإمارة إلا قليلاً لَمَّا استعمله عليّ على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع فى نواح علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضى الله عنهما: «ابن عباس أعلم أمَّة محمد بما نزل على محمد» (١).

● **أسباب نبوغه:**

ونستطيع أن نُرجع هذه الشهرة العلمية، وهذا النبوغ الواسع الفيَّاض، إلى أسباب نجملها فيما يلى:

أولاً: دعاء النبى ﷺ له بقوله: «اللَّهم علِّمه الكتاب والحكمة»، وفى رواية أخرى: «اللَّهم فقِّه فى الدين، وعلِّمه التأويل»، والذى يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحاً فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثانياً: نشأته فى بيت النبوة، وملازمته لرسول الله ﷺ من عهد التمييز، فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التى نزلت فيها آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله ﷺ، وتحدَّث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: «وجدتُ عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنتُ لآتى الرجلَ فأجده نائماً، لو شئتُ أن يُوقَظ لى لأُوقظ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف».

رابعاً: حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذى يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربى.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه لملامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق فى جانبه، وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه همة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بمبلغ علمه، فقد روى أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ [الأنبياء: ٣٠].. فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرنى، فذهب

(١) انظر أسد الغابة: ٣٠/١٩٢ - ١٩٥

فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنه أوتىَ علماً.

هذه هى أهم الأسباب التى ترجع إليها شهرة ابن عباس فى التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقَّادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين.

● **قيمة ابن عباس فى تفسير القرآن :**

تتبين قيمة ابن عباس في التفسير، من قول تلميذه مجاهد: «إنه إذا فسَّرَ الشىء رأيتَ عليه النور»، ومن قول علىّ رضى الله عنه يُثنى عليه فى تفسيره: «كأنما ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق»، ومن قول ابن عمر: «ابن عباس أعلم أمَّة محمد بما نزل على محمد»، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه في فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجَّه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى. ففى قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أى الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشراً؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذى هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: «قال يهودى بالكوفة – وأنا أتجهز للحج – إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب – يعنى ابن عباس – فسائله عن ذلك، فلما قدمتُ مكة سألتُ ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ النبى إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمتُ العراق فلقيتُ اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أُنزِلَ على موسى، هذا والله العالِم (١).

وهذا عمر رضى الله عنه يسأل الصحابه عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جواباً مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفى هذا يروى الطبرى: «أن عمر سأل الناس عن هذه الآية – يعنى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ [البقرة: ٢٦٦] ، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إنى أجد فى نفسى منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحوَل ههنا، لِمَ تحقِّر نفسك؟ قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله عَزَّ وجل فقال: أيودُّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه

---

(١) تفسير ابن جرير : ٤٣/٢٠

بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه» (١).

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا مَن نفحه الله بنفحة من روحه، وكثيراً ما ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل المُلْهَم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه علىّ رضى الله عنه، الأمر الذى جعل الصحابة يُقدِّرون ابن عباس ويثقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس. استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غذَّت بعلمها الأمصار المختلفة، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجاباً وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرَّح الزركشى بأن قول ابن عباس مُقدَّمٌ على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم فى التفسير (٢).

● رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله ﷺ، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة فى ذلك بمعرفة أسباب النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن. وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع التى أُجْملت فى القرآن وفُصِّلت فى التوراة أو الإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق: إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيِّقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

● اتهام الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب:

وإنَّا لنجد فى كتاب «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» مبلغ اتهام مؤلفه «جولدزيهر» لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفاً ما ورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم» ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك.

---

(١) تفسير ابن جرير: ٣/٤٧

(٢) الإتقان: ٢/١٨٣

قال: «وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى، الذى اثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام، ويختم التوراة فى ستة، يقرؤها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالَغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة.

«ومن بين المراجع العلمية المفضَّلة عند ابن عباس، نجد أيضاً كعب الأحبار اليهودى، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه فى أقواله حذَّر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب، ورُفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.. ولم تكن التعاليم الكثيرة التى أمكن أن يستقيها ابن عباس، والتى اعتبرها من تلك الأمور التى يُرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية، فقد كان يسأل كعباً عن التفسير الصحيح لأُم القرآن وللمرجان مثلاً، وقد رأى الناس فى هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم - على العموم - في القرآن وفى كلام الرسول (ﷺ) وما فيهما من المعانى الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم» اهـ (١).

هذه هى عبارة الأستاذ «جولدزيهر» في كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأى، حيث يقول فى «فجر الإسلام»: «وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الإسلام، فتسرَّب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. رُوى أن النبى ﷺ قال: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يُصدِّقونهم وينقلون عنهم» (٢).

فالأستاذ «جولدزيهر»، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يأبهوا لنهى الرسول ﷺ، فصدَّقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير فى التفسير، وأن اللون اليهودى قد صبغ مدارس التفسير القديمة، وبالأخص مدرسة ابن عباس بسبب اتصالهم بمن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب.

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ - ٦٧ (٢) فجر الإسلام ص ٢٤٨.

● **رد هذا الاتهام :**

والحق أن هذا غلو فى الرأى، وبُعدٌ عن الصواب، فابن عباس – كما قلت آنفاً – وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس العقيدة. أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يُروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يُحكِّمون دينهم وعقلهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدَّقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقَّفوا فيه. وبهذا المسلك يكون الصحابة – رضوان الله عليهم – قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: « حدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج »، وقوله: « لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم » فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار، لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: « فإن فيهم أعاجيب ». والثانى محمول على ما إذا كان المُخْبَر به من قِبَلهم محتملاً، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه، لأنه ربما كان صدقاً فى نفس الأمر فيكون فى التكذيب به حَرَج، وربما كان كذباً فى نفس الأمر فيكون فى التصديق به حَرَج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، كما أفاده ابن حجر ونبَّه عليه الشافعى رضى الله عنه [(١)] – وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات فى التفسير.

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضي الله عنه لنفسه أن يُحدِّث عن بنى إسرائيل بمثل هذا التوسع الذى يجعله مخالفاً لأمر رسول الله ﷺ وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيراً على ذلك، فقد روى البخارى فى صحيحه عنه أنه قال: « يا معشر المسلمين؛ تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أُنزلَ على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله، وغيَّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿ **هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ [البقرة: ٧٩] .. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولاَ واللهِ ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذى أُنزلَ عليكم » [(٢)] .

● **رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم :**

كان ابن عباس رضى الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم، ليُستعان به على فهم معانى

---

(١) فتح البارى : ٨ / ١٢٠
(٢) البخارى فى كتاب الشهادات : ٥ / ١٨٥ من فتح البارى.

الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوَّف الرَّحل منها تامكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعة السَّفِنُ

فيقول عمر رضى الله عنه لأصحابه: «عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم» (١).

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسئل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد رُوى عنه الشيء الكثير من ذلك، وأوعب ما رُوى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتى مسألة، أخرج بعضها ابن الأنبارى فى كتاب «الوقف والابتداء»، وأخرج الطبرانى بعضها الآخر فى معجمه الكبير، وقد ذكر السيوطى فى «الإتقان» بسنده مبدأ هذا الحوار الذى كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها، فقال: «بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإنَّ الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرنى عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧]؟ قال: العزون: حلق الرفاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا؟

قال: أخبرنى عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؟ قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

إلى آخر المسائل وأجوبتها (٢)، وهى تدل على قوة ابن عباس فى معرفته بلغة العرب، وإلمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله - بحق - إمام التفسير

---

(١) القصة فى الموافقات: ٢ / ٨٨ وليس فيها ما يعارض ما جاء عن عمر من أنه لما سأل عن «الأبّ» رجع إلى نفسه وقال: إنَّ هذا لهو التكلف يا عمر، لأن الآية التى معنا يتوقف فهم معناها على معرفة معنى التخوُّف، بخلاف الآية الأخرى، فإن المعنى الذى يُراد منها لا يتوقف على معرفة معنى «الأبّ».

(٢) وهى فى الإتقان: ١ / ١٢٠.

فى عهد الصحابة، ومرجع المفسِّرين فى الأعصر التالية للعصر الذى وُجِد فيه، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل فى شأنه: «إنه هو الذى أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن» (١).

هذا وقد بيَّن لنا ابن عباس رضى الله عنه، مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية فى التفسير، وحضَّ عليها من أراد أن يتعرف غريب القرآن، فقد روى أبو بكر بن الأنبارى عنه أنه قال: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه» (٢).

وروى ابن الأنبارى عنه أيضاً أنه قال: «إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب» (٣).

فابن عباس رضى الله عنه كان يرى رأى عمر فى ضرورة الرجوع إلى الشعر الجاهلى، للاستعانة به على فهم غريب القرآن، بل وكان أكثر الصحابة إلماماً بهذه الناحية وتطبيقاً لها.

وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومَن يليهم، إلى أن حدثت خصومة بين متورعى الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن (٤)، وقالوا: كيف يجوز أن يُحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم فى القرآن والحديث.

والحق أن هذه الخصومة التى جَدَّت فى الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأى، من جعل الشعر أصلاً للقرآن، بل هو فى الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٥].. ولهذا لم يتحرج المفسِّرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلى للاستشهاد به على المعنى الذى يذهبون إليه في فهم كلام الله تعالى.

● **الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:**

رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنه فى التفسير ما لا يُحصَى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضي الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذى جعل نُقَّاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التى جاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدَّلوا العُدول،

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٩.

(٢) الإتقان: ١/١١٩. (٣) الإتقان: ١/١١٩.

(٤) ومن هؤلاء الإمام النيسابورى صاحب التفسير المشهور، فقد صرَّح بذلك فى مقدمة تفسيره: ١/٦.

وجرَّحوا الضُعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أُبيِّن مبلغها من الصحة أو الضعف، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضى الله عنه. وهذه هى أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهذه هى أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه: «إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً (١)». وقال الحافظ ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يُعلِّقه عن ابن عباس» (٢).

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبى صالح. ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعلىّ بن أبى طلحة.

● **طعن بعض النُقَّاد على هذه الطريق:**

ولقد حاول بعض النُقَّاد أن يُقلل من قدر هذه الطريق فقال: «إن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير» (٣) وعلى هذا فهى طريق منقطعة لا يُركَن إليها، ولا يُعوَّل عليها.

وقد استغل هذا القول الأستاذ «جولدزيهر» في كتابه «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» فقال: «صرَّح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل – علىّ بن أبى طلحة – لم يسمع التفسير الذى تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى فى صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له» اهـ (٤).

● **تفنيد هذا الطعن:**

ويظهر لنا أن الأستاذ «جولدزيهر»، جهل أو تجاهل ما رَدَّ به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذى لا قيمة له، فقد فنَّد ابن حجر هذا النقد بقوله: «بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك» (٥).

وقال صاحب إيثار الحق: «وقال الذهبى فى الميزان: وقد روى – يعنى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ممتعاً، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن

---

(١) الإتقان: ٢/١٨٨.
(٢) الإتقان: ٢/١٨٨.
(٣) الإتقان: ٢/١٨٨.
(٤) صفحة ٧٧.
(٥) الإتقان: ٢/١٨٨.

ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يُقبل» [١] . وجملة القول: فهذه أصح الطرق فى التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخارى لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفى، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخَرِّج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهى طريق جيدة وإسنادها حسن، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً، وأخرج الطبرانى منها فى معجمه الكبير.

رابعها: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، تارة عن أبى مالك، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السدى مُختلَف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعى شيعى [٢] . وقال السيوطى: «روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى» [٣] . وابن جرير يُورد فى تفسيره كثيراً من تفسير السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس، ولم يخرِّج منه ابن أبى حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يُخَرِّج أصح ما ورد.

خامسها: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهى تحتاج إلى دقة فى البحث، ليُعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذُكِرَ فى كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز فى روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جرير هذا جماعة كثيرة، منهم بكر بن سهل الدمياطى، عن عبد الغنى بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر ابن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر. ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار. ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءاً وهو صحيح متفق عليه.

سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأنه وإن وَثَّقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحَّاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبى حاتم. وإن كان من رواية جويبر عن

---

(١) إيثار الحق ص ١٥٩. (٢) إيثار الحق ص ١٥٩. (٣) الإتقان: ٢/ ١٨٨.

الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبر شديد الضعف متروك، ولم يُخَرِّج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خرَّجها ابن مردويه، وأبو الشيخ ابن حبان.

سابعها: طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس بواه، وربما حَسَّن له الترمذى. وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيراً.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى، وهو المفسِّر الذى يُنسب إلى الشافعى أنه قال فيه: «إن الناس عيال عليه فى التفسير» [١] ومع ذلك فقد ضَعَّفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما. وقد كذَّبه غير واحد، ولم يُوثِّقه أحد، واشتُهر عنه التجسيم والتشبيه [٢]، وتكلم عنه السيوطى. فقال: «إن الكلبى يُفَضَّل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية» [٣] وقد سُئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: «لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه» – يعنى التفسير – [٤] وقال أحمد بن حنبل: لا يعجبنى أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً [٥]. وبالجملة فإن مَن استحسن تفسير مقاتل كان يُضَعِّفه ويقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة» [٦].

تاسعها: طريق محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، وهذه أوهى الطرق. والكلبى مشهور بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع كما قال ابن عدى فى الكامل، ومع ذلك فإن وجد من قال: رضوه فى التفسير، فقد وجد من قال: أجمعوا علي ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع [٧]. وممن يروى عن الكلبى، محمد بن مروان السدى الصغير، وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهذا قال السيوطى فى الإتقان: «فإن انضم إلى ذلك – أى طريق الكلبى – رواية محمد بن مروان السدى الصغير، فهى سلسلة الكذب» [٨] وقال السيوطى أيضا فى كتابه الدر المنثور (جـ ٦ ص ٤٢٣): «الكلبى: اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شئ حدثتكم عن أبى صالح كذب.. ومع ضعف الكلبى فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفا، وهو محمد بن مروان السدى الصغير» وكثيرا ما يخرج من هذه الطريق الثعلبى والواحدى.

---

(١) وفيات الأعيان: ٢/ ٥٦٧ (٢) إيثار الحق ص ١٥٩
(٣) الإتقان: ٢/ ١٨٩ (٤) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ١١١
(٥) المرجع السابق: ٢/ ١١١ (٦) التفسير – معالم حياته – منهجه اليوم ص ٩..
(٧) التفسير – معالم حياته – منهجه اليوم ص ٩. (٨) الإتقان: ٢/ ١٨٩.

هذه هى أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها، وقد عرفت قيمة كل طريق منها، ومن اعتمد عليها فيما جمع من التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه.

● التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته:

هذا .. وقد نسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير في التفسير، وطبع في مصر مرارا باسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى الشافعى، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعت علي هذا التفسير، فوجدت جامعه يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند: «أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروى، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازى، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروى، قال: أخبرنا على ابن إسحاق السمرقندى، عن محمد بن مروان، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس».

وعند تفسير أول سورة البقرة، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله ابن المبارك، قال: حدثنا على بن إسحاق السمرقندى عن محمد بن مروان عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

وفى مبدأ كل سورة يقول: وبإسناده عن ابن عباس.

.... وهكذا يظهر لنا جليا، أن جميع ما روى عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدى الصغير، عن محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدم. وحسبنا فى التعقيب على هذا ما روى من طريق ابن عبد الحكم قال: «سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث» (١) وهذا الخبر - إن صح عن الشافعي - يدلنا على مدار ما كان عليه الوضاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس، وليس أدل على ذلك، من أنك تلمس التناقض ظاهرا بين أقوال فى التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه. وسيأتي - عند الكلام عن الوضع في التفسير - أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيئا من قيمته العلمية فى الغالب، وإنما الشئ الذى لا قيمة له فيه، هو نسبته إلى ابن عباس.

● أسباب الوضع على ابن عباس:

ويبدو أن السر فى كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وضع على غيره، أضف إلى ذلك أن

---

(١) الإتقان ٢ / ١٨٩.

ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم.. وسنعرض إلى أسباب الوضع فى التفسير، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه، عند الكلام على منشأ الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

٢ - عبد الله بن مسعود

● **ترجمته:**

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مضر، ويكنى بأبى عبد الرحمن الهذلى، وأمه أم عبد بنت عبدود، من هذيل، وكان ينسب إليها أحيانا فيقال ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيرا، شديد الأُدْمة، أسلم قديما. روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - «لقد رأيتنى سادس ستة ما علي ظهر الأرض مسلم غيرنا» وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشا بعد رسول الله ﷺ، وأوذى في الله من أجل ذلك، ولما أسلم عبد الله بن مسعود أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه فى أكثر شئونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه من أهل بيت رسول الله ﷺ ففى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: «قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له» وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدرا، وأحدا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ وهو الذي أجهز علي أبي جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمرا أحدا دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد». وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة فى آخر عمره، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع ليلا، تنفيذا لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعا وستين سنة.

● **مبلغه من العلم:**

كان ابن مسعودمن أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال: «قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ سورة النساء»، قال: قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: : «إني أحب أن

أسمعه من غيري »، فقرأت عليه حتي بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] فاضت عيناه - ﷺ » وكان رسول الله ﷺ يقول: « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد ». وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتز به، حتى أنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف فى عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال فى هذا: « يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر »؟ - يريد زيد بن ثابت - وعن مسروق أنه قال: « انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر، وعلى، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: علىّ، وعبد الله »، وقيل لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السمت والدل والهدْى من رسول الله ﷺ نأخذ عنه، فقال: « لا نعلم أحدا أقرب سمتا ولا هديا برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة ».

ولما سيره عمر رضى الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها: « إنى قد بعثت عمار ابن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبدالله على نفسى ».

وقد أقام رضى الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم فى الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص، ولما قدم على الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلا أحسن خلقا، ولا أرفق تعليما، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من ابن مسعود قال على: « أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم »؟ قالو: نعم، قال: « اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا وأفضل ».

ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويقدمه على غيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده (١)

● **قيمة ابن مسعود فى التفسير:**

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن »، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار

---

(١) انظر ترجمة ابن مسعود في أُسد الغابة ٣ / ٢٥٦ - ٢٦٠ .

حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: «قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»، وهذا الأثر يدل علي إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقى عنتا ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وروى أبو نعيم في الحلية عن أبي البحتري قال: قالوا لعلى: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علما، وقال عقبة بن عامر: ما أدرى أحدا أعلم منه بما نزل على محمد بن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. وصح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فىِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، فإن أصحاب رسول الله ﷺ لم ينكروا عليه ذلك، بل وتحدثوا بمكانته فى العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعلل ذلك أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه، بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول، الأمر الذى جعله أوفر حظا فى الأخذ عن الرسول ﷺ وأعظم نصيبا من الاغتراف من منهل النبوة الفياض، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: ما ترك بعده مثله، لهى شهادة منه علي مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله ﷺ، وبالجملة فابن مسعود كما قيل: أعم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة، بصير بكتاب الله.

● الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر من روى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضي الله عنه، قال السيوطى في الإتقان: وأما ابن مسعود فقد روى عنه أكثر مما روى عن على [1]، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظرا لوجوده بينهم،

---

(١) الإتقان: ٢/١٨٧.

يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواته مسروق بن الأجدع الهمدانى، وعلقمة بن قيس النخعى، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه. وسيأتى الكلام على هؤلاء جميعا - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير فى عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهى إلى ابن مسعود، نجدها مبثوثة فى كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف فى رجاله، أو الانقطاع في إسناده، وقد تتبع العلماء النقاد هذه الروايات، كما تتبعوا غيرها بالنقد تجريحا وتعديلا وهذه هى أشهر الطرق عن ابن مسعود:

- **أولا**: طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه.

- **ثانيا**: طريق مجاهد، عن أبى معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضا طريق صحيحة لا يعتريها الضعف. وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه أيضا.

- **ثالثا**: طريق الأعمش، عن أبى وائل، عن ابن مسعود، وهذه أيضا طريق صحيحة يخرج البخارى منها، وكفى بتخريج البخارى شاهدا على صحتها وصحة ما سبق.

- **رابعا**: طريق السدى الكبير، عن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود وهذه الطريق يخرج منهاالحاكم فى مستدركه، ويصحح ما يخرجه وابن جرير يخرج منها فى تفسيره كثيرا، ،وقد علمت فيما مضى قيمة السدى الكبير فى باب الرواية.

- **خامسا**: طريق أبى روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود. وابن جرير. يخرج منها فى تفسيره أيضا. وهذه الطريق غير مرضية، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهى طريق منقطعة.

٣- على بن أبي طالب

● **ترجمته**:

هو أبو الحسن، علي بن أبى طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره على ابنته فاطمة، وذريته ﷺ منها. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو أول هاشمى ولد من هاشميين. ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بنى هاشم، وهو أول من أسلم من الأحداث وصدق برسول الله ﷺ هاجرإلي المدينة. وموقفه من الهجرة مشهور، قيل: ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧].. وقد شهد على المشاهد كلها إلا تبوك، فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله فى الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء فى مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» ثم أعطاها لعلى رضى الله

عنه، وآخاه رسول الله ﷺ لما آخى بين أصحابه وقال له: «أنت أخي فى الدنيا والآخرة» وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره، فمن ورع فى الدين، إلى زهد فى الدنيا، إلى قرابة وصهر برسول الله ﷺ. إلى علم جم وفضل غزير، وقد توفى رحمه الله فى رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولا بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

● **مبلغه من العلم:**

كان رضي الله عنه بحرا في العلم وكان قوى الحجة، سليم الاستنباط، أوتى الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، و كان ذا عقل قضائى ناضج، وبصره نافذة إلى بواطن الأمور، وكثيرا ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، ودعا له بقوله: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه»، فكان موفقا ومسددا، فيصلا فى المعضلات، حتى ضرب به المثل فقيل: «قضية ولا أبا حسن لها»، ولا عجب، فقد تربى فى بيت النبوة، وتغذى بلبان معارفها وعمته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب. وقيل لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من على؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إذا ثبت لنا الشئ عن على لم نعدل عنه إلى غيره».

والذى يرجع إلى أقضية على رضى الله عنه وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وهب عقلا ناضجا، وبصيرة نافذة وحظا وافرا من العلم وقوة البيان.(١)

● **مكانته من التفسير:**

جمع على رضى الله عنه إلى مهارته فى القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبي طالب».

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على رضى الله عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربى وهب لى قلبا عقولا، ولسانا سئولا».

وعن أبي الطفيل قال: «شهدت عليا يخطب وهو يقول: سلونى فوالله لا تسألونى عن شئ إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل، أم فى جبل».

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ١٦ - ٤٠.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، إلا وله ظهر وبطن، وإن على بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن».

وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيد فيهم.

● **الرواية عن على ومبلغها من الصحة:**

كثرت الرواية فى التفسير عن على رضى الله عنه، كثرة جاوزت الحد، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النقاد، وجعلهم يتبعون الرواية عنه بالبحث والتحقيق، ليميزوا ما صح من غيره.

وما صح عن على فى التفسير قليل بالنسبة لما وضع عليه، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة، الذين أسرفوا فى حبه فاختلقوا عليه ما هو برئ منه، إما ترويجا لمذهبهم وتدعيما له، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق فى نسبة الأقوال العلمية إليه يعلى من قدره، ويرفع من شأنه العلمى. وأظن أن ما نسب إلى علي من قوله: «لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت» لا أصل له، اللهم إلا فى أوهام الشيعة، الذين يغالون فى حبه، ويتجاوزون الحد فى مدحه. ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضاع بالكذب عليه، تلك الناحية هى نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تكسب الموضوع قبولا، وتعطيه رواجا وذيوعا على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على عليٍّ رضي الله عنه أفسدت الكثير من علمه، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا علي ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلمانى وشريح، وغيرهما. وهذه أهم الطرق عن على فى التفسير:

أولا: طريق هشام: عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلمانى، عن على. طريق صحيحة، يخرج منها البخارى وغيره.

ثانيا: طريق ابن أبي الحسين، عن أبى الطفيل، عن على. وهذه طريق صحيحة، يخرج منها ابن عيينة فى تفسيره.

ثالثا: طريق الزهرى، عن على زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه على.، وهذه طريق صحيحة جدا. حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقا(١)، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقتين السابقتين نظرا لما ألصقه الضعفاء، والكذابون بزين العابدين من الروايات الباطلة.

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص٩.

٤ ـ أُبَى بن كعب

● ترجمته:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل[١] أبى بن كعب بن قيس، الأنصارى الخزرجى، شهد العقبة وبدرا، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضى الله عنه فقال: «أُبى سيد المسلمين» وقد أختلف فى وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

● مبلغه من العلم:

كان أبى بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ وقد قال فيه ﷺ «وأقرؤهم أبي بن كعب»، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبى ﷺ فقد أخرج الترمذى بسنده إلى أَنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «إن النبى ﷺ قال لأبى بن كعب: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ قال: آلله سمانى لك؟ قال: نعم، فجعل أُبى يبكى».

وفى رواية أنه قيل لأُبى: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو يقول: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٨]. وروى الشعبى عن مسروق قال: «كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، وعلى، وعبد الله، وأبى، وزيد، وأبو موسى».[٢]

● مكانته فى التفسير:

كان أبى بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعانى كتاب الله، هو أنه كان حبرا من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومقدم القرآن ومؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ، لهذا كله عد أبى بن كعب من المكثرين فى التفسير، الذين يعتد بما صح عنهم، ويعول على تفسيرهم.

● الرواية عنه فى التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن أبى بن كعب فى التفسير وتعددت طرقها، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد، فعدلوا وجرحوا، لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه ـ وهذه هى أشهر الطرق عنه:

---

(١) كناه النبى ﷺ بالأولى، وعمر بالثانية.

(٢) انظر أسد الغابة: ١/ ٤٩ ـ ٥١.

أولا : طريق أى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبى رضى الله عنه. وهذه طريق صحيحة، وقد ورد عن أبى نسخه كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازي بهذا الإسناد إلي أُبي ، وقد خرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيرا، وأخرج الحاكم منها أيضا فى مستدركه، والإمام أحمد من مسنده.

ثانيا : طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه ، وهذه يخرج منها الإمام أحمد فى مسنده، وهى على شرط الحسن، لأن عبد الله بن محمد بن عقيل وإن كان صدوقا تكلم فيه من جهة حفظه، قال الترمذى فى سننه: « عبد الله بن محمد بن عقيل، هو صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، والحميدى، يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال محمد – يعنى البخارى – : وهو مقارب الحديث، ونص الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد على أن حديثه حسن». (١)



(١) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص ١٨٠، وميزان الاعتدال: ٢ / ٦٨.

الفصل الثالث

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم فى المستدرك: أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبى ﷺ، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول فى المستدرك: «ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند» (١) ولكن قيد ابن الصلاح والنووى، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأى فيه، قال ابن الصلاح فى مقدمته ص (٢٤): « ما قيل من أن تفسير الصحابى حديث مسند، فإنما ذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابى، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلاّ عن النبى ﷺ ولا مدخل للرأى فيه، كقول جابر رضى الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتي امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].... الآية فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على إضافة شئ إلى الرسول ﷺ فمعدودة فى الموقوفات».

ولكنا نجد الحاكم نفسه قد صرح فى «معرفة علوم الحديث» بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كامل بسنده عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٩] ... قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحما على عظم، قال: فهذا وأشباهه يعد فى تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند، فإنما نقوله فى غير هذا النوع...»، ثم أورد حديث جابر فى قصة اليهود وقال: « فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف، فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند»(٢).

فالحاكم قيَّد في (معرفة علوم الحديث) ما أطلق في (المستدرك)، فاعتمد الناس ما قيَّد، وتركوا ما أطلق. وعلَّل السيوطي في (التدريب) إطلاق الحاكم بأنه كان حريصا علي جمع الصحيح في (المستدرك) حتي أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع، ثم اعترض بعد ذلك علي الحاكم، حيث عَدَّ الحديث المذكور عن أبي هريرة من الموقوف،

---

(١) تدريب الراوى ص٦٤.

(٢) تدريب الراوى ص٦٥، ومعرفة علوم الحديث ص ١٩-٢٠.

وليس كذلك؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وهذا لا مدخل للرأي فيه، فهو من قبيل المرفوع (١).

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج:

أولا: تفسير الصحابى له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

ثانيا: ما حكم عليه أنه من قبيل المرفرع لا يجوز رده اتفاقا، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثا: ما حكم عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق. إلي أن الموقوف على الصحابى من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لما لم يرفعه، علم بأنه اجتهد فيه، والمجتهد يخطئ ويصيب، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه، لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم إن فسروا برأيهم فرأيهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولبركة الصحبة والتخلق بأخلاق النبوة، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشى فى «البرهان»: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبى ﷺ، أو الصحابة أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثانى ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه» (٢)

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره: «... وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصموا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم» (٣)

وهذا الرأى الأخير هو الذى تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب لما ذُكر.



---

(١) تدريب الراوى ص ٦٥. (٢) الإتقان: ٢ / ١٨٣. (٣) الجزء الأول ص١٣.

الفصل الرابع

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولا: لم يفسر القرآن جميعه، وإنما فسر بعض منه، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة، فكان التفسير يتزايد تبعا لتزايد هذا الغموض إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

ثانيا: قلة الاختلاف بينهم فى فهم معانيه، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثا: كانوا كثيرا ما يكتفون بالمعنى الإجمالى، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلا، فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى: ﴿ **وَفَاكِهَةً وَأَبًّا** ﴾[عبس: ٣١].. أنه تعداد لنعم الله تعالى علي عباده.

رابعا: الاقتصار على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم: ﴿ **غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ** ﴾ [المائدة:٣].. أى غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فمما عرفوه من أسباب النزول.

خامسا: ندرة الاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء فى كتاب الله، نظرا لاتحادهم فى العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبى لم يقم إلا بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم.

سادسا: لم يدوَّن شئ من التفسير فى هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى. نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير فى مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التى نزل بها من عند الله تعالى.

سابعا: اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءا منه وفرعا من فروعه، ولم يتخذ التفسير له شكلا منظما، بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة، كما كان الشأن فى رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث ميراث، بجانب حديث فى تفسير آية.... وهكذا.

وليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه بل جمعه الفيروز آبادي ونسبه إليه، معتمدا فى ذلك على رواية واهية، هي رواية محمد ابن مروان السدى، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس وهذه هى سلسلة الكذب كما قيل.

❖ ❖ ❖

الباب الثـانى

المرحلة الثانية للتفسير
(التفسير فى عصر التابعين)

- ابتداء هذه المرحلة .
- مصادر التفسير فى هذا العصر .
- مدارس التفسير التي قامت فيه .
- قيمة التفسير المأثور عن التابعى .
- مميزات التفسير فى هذه المرحلة .
- الخلاف بين السلف فى التفسير .

الفصــل الأول

التفسير فى عصر التابعين

● **ابتداء هذه المرحلة:**

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم.

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضا بالتفسير أعلام من التابعين، تكلَّموا فى التفسير، ووضحوا لمعاصريهم خفى معانيه.

● **مصادر التفسير في هذا العصر:**

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه، وعلى مارووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيرا من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد ولم يصل إلى علمهم شئ فيها عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة، وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعا، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن ... وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث.

● **مدارس التفسير فى عصر التابعين:**

فتح الله على المسلمين كثيرا من بلاد العالم فى حياة رسول الله ﷺ، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعا فى بلد واحد من بلاد المس لمين بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزَّعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك.

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التى رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت فى هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هى أشهر مدارس التفسير فى الأمصار فى هذا العهد.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبى الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود،ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة فى التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذى أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب» (١)

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث، وعن أشهر المفسِّرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة. فأقول وبالله التوفيق:

أولا: مدرسة التفسير بمكة

- **قيامها علي ابن عباس:**

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ،فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

- **أشهر رجالها:**

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليمانى، وعطاء بن أبى رباح. وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته فى التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه:

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ١٥ .

١ ـ سعيد بن جبير

● **ترجمته:**

هو أبو محمد ـ أو أبو عبد الله – سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى، مولاهم. كان حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال سمع جماعة من أئمة الصحابة. روى عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما.

● **مكانته فى التفسير:**

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم فى التفسير والحديث و الفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضا، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه(١) وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، يدلنا على ذلك ما جاء عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال: «كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبدا» (٢)، ولاشك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع فى معرفة معانى القرآن وأسراره، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول فى التفسير برأيه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان: من أن رجلا سأل سعيدا أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقى أحب إلى من ذلك(٣) ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألمَّ بما عندهم من النواحى التي برزوا فيها، فقد قال خصيف: « كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب. وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير». (٤)

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه،و يحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شئ: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ – يعنى سعيد بن جبير – ويروى عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما علي ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلي علمه، ويري بعض العلماء أنه مقدم على مجاهد وطاووس فى العلم، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير.

هذا وقد وثق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير، فقال أبو القاسم الطبرى: هو ثقة حجة، إمام على المسلمين. وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: كان عبدا فاضلا ورعا. وهو مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة.

وقد قتل فى شعبان سنة ٩٥ هـ (خمس وتسعين من الهجرة)، وهو ابن تسع

---

(١) وفيات الأعيان: ١/ ٣٦٤.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٦٥.
(٣) نفس المرجع: ١/ ٣٦٥.
(٤) المرجع نفسه: ١/ ٣٦٥.

وأربعين سنة ، قال أبو الشيخ: قتله الحجاج صبرا. وله مناظرة قبل قتله مع الحجاج، تدل على قوة يقينه، وثبات إيمانه، وثقته بالله، فرضى الله عنه وأرضاه.(١)

٢ ـ مجاهد بن جبر

• ترجمته:

هو مجاهد بن جبر، المكى، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومى، مولى السائب ابن أبى السائب. كان أحد الأعلام الأثبات. ولد سنة ٢١هـ (إحدى وعشرين من الهجرة) فى خلافة عمر بن الخطاب. وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة ١٠٤ هـ (أربع ومائة) على الأشهر، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

• مكانته فى التفسير:

كان مجاهد ـ رحمه الله ـ أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه فى التفسير(٢)، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما، ونجد البخارى رضى الله عنه فى كتاب التفسير من الجامع الصحيح، ينقل لنا كثيرا من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخارى على ثقته وعدالته، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهدا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة(٣). وروى عنه أيضا أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟(٤) ولا تعارض بين هاتين الروايتين، لأن الإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط، ودقة التجويد، وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلبا لتفسيره، ومعرفة ما دق من أسراره، وخفى من معانيه. كما تشعر بذلك ألفاظ الرواية. وعن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله(٥) وروى عبد السلام بن حرب عن مصعب قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء. وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد. وقال ابن سعد: كان ثقة، فقيها، عالما، كثير الحديث. وقال ابن حبان: كان فقيها ورعا، عابدا متقنا. وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى بكر الحنفى قال: سمعت سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به(٦) وكان رحمه الله جيد الحفظ، وقد حدَّث بهذا عن نفسه

---

(١) تهذيب التهذيب: ٤/١٣ ـ ١٤.
(٢) فجر الإسلام ص٢٥١.
(٣) ميزان الاعتدال: ٣/٩.
(٤) تهذيب التهذيب: ١٠/٤٢.
(٥) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٨.
(٦) تفسير ابن جرير: ١/٣٠.

فقال: قال لى ابن عمر: وددت أن نافعا يحفظ حفظك(١) . وقال الذهبى فى الميزان، وفي آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كل هذه شهادات من العلماء النقاد تشهد بعلو مكانته في التفسير.

ولكن مع هذا كله، كان بعض العلماء لا يأخذ تفسيره، فقد روى الذهبى فى ميزانه: أن أبا بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مُخَالَفْ؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ - كما هى رواية ابن سعد - قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب.

هذا هو كل ما أخذ على تفسيره ولكن لم نر أحدا طعن عليه فى صدقه وعدالته، وجملة القول فإن مجاهدا ثقة بلا مدافعة، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حبر الأمة ابن عباس. الذى شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله ﷺ.

● **مجاهد والتفسير العقلى:**

وكان مجاهد - رضى الله عنه - يعطى عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التى يبدو ظاهرها بعيدا، فإذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءا معترفا به ومقررا لدى المعتزلة فى تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ماجاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عمليا فى مواضع كثيرة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ [البقرة: ٦٥] نجده يقول - كما يروى عنه ابن جرير: «مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا» ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقبا عليه: وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف.. ثم يمضى فى تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية. (٢)

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى في هاتين الآيتين: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بقوله: «تنتظر الثواب

---

(١) ميزان الاعتدال: ٣ / ٩.

(٢) تفسير الطبرى: ١ / ٢٣٥.

من ربها، لا يراه من خلقه شئ» (١) وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئا قويا للمعتزلة فيما ذهوا إليه فى مسألة رؤية الله تعالى.

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد، هو الذى جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول فى القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله فى القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة فى الرأى، فقد روى عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبى: أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبى ثم قال: إنى إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم.

ومهما يكن من شئ، فمجاهد رضى الله عنه إمام فى التفسير غير مدافع، وليس فى إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته. أو يقلل من مكانته (٢).

٣ ـ عكرمة

● **ترجمته:**

هو أبو عبد الله عكرمة البربرى المدنى مولى ابن عباس (أصله من البربر بالمغرب) روى عن مولاه، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة، وغيرهم.

● **اختلاف العلماء فى توثيقه:**

وقد اختلف العلماء فى توثيقه، فكان منهم من لا يثق به ولا يروى له، وكان منهم من يوثقه ويروى له.

● **مطاعن من لا يوثقونه:**

وإنا لنجد العلماء الذين لم يثقوا بعكرمة، يصفونه بالجرأة على العلم ويقولون: إنه كان يدعى معرفة كل شئ فى القرآن ويزيدون على ذلك فيتهمونه بالكذب على مولاه ابن عباس، وبعد هذا كله، يتهمونه بأنه كان يرى رأى الخوارج، ويزعم أن مولاه كان كذلك، وقد نقل ابن حجر فى « تهذيب التهذيب » كل هذه التهم ونسبها لقائليها، فمن ذلك: ما رواه شعبة عن عمرو بن مرة قال: سأل رجل ابن المسيب عن آية من القرآن، فقال: لا تسألنى عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شئ – يعنى عكرمة. وحكى إبراهيم بن ميسرة أن طاووسا قال: لو أن مولى ابن عباس اتقى الله وكف من حديثه لشدت إليه المطايا، وروى أبو خلف الجزار عن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول لنافع: اتق الله.. ويحك يا نافع، ولا تكذب على كما كذب

---

(١) تفسير الطبرى: ٢٩ / ١٢٠.

(٢) انظر ترجمة مجاهد فى تهذيب التهذيب: ١٠ / ٤٢ـ ٤٤.

عكرمة على ابن عباس. وروى أن سعيد بن المسيب قال مثل ذلك لمولاه، وروى ابن سعد: أن على بن عبد الله كان يوثقه علي باب الكنيف ويقول: إن هذا يكذب على أبى.

ثم بعد ذلك كله يصورون للناس مبلغ كراهة معاصريه له فيقولون: إنه مات هو وكثير عزة في يوم واحد، فلم يشهد جنازته أحد، أما كثير فقد شيعه خلق كثير..

• تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه:

هذا الذى تقدم هو بعض الروايات التى رواها من لا يثق بعدالة عكرمة، وكلها تُهمٌ باطلة لا تقوم على أساس، فعكرمة مولى ابن عباس، كان يلازمه ،ويخالطه، فلا يضيره كثرة الرواية عنه، لأن هذا أمر طبيعى، ولا يمكن أن يعد افتراء على العلم وافتياتا على الرواية، لأن كثرة الرواية ليست من المطاعن التى توجه إلى الراوى وتذهب بعدالته، فهذا أبو هريرة قال الناس عنه فى عصره: أكثر أبو هريرة، فبين لهم سبب إكثاره من الرواية عن رسول الله ﷺ، وهو أنه كان يلازم النبى ﷺ على ملء بطنه ، ولا شئ يشغله كما شغل غيره من الصحابة بالصفق فى الأسواق، فهل ذهبت عدالة أبى هريرة وفقدنا الثقة به لكثرة روايته؟ اللهم لا.

ثم إن هذا الاتهام لم يخف على عكرمة، بل كان يبلغه عن متهميه فيود لو أنه ووجه به ليفنده، فقد روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبوننى، يكذبوننى من خلفى، أفلا يُكذبوننى فى وجهى؟ فإذا كذَّبونى فى وجهى فقد والله كَذَّبونى... ثم نراه يستشهد ببعض أصحابه على صدقه فيما يروى عن مولاه، فعن عثمان بن حكيم قال: كنت جالساً مع أبى أُمامة سهل بن حنيف، إذ جاء عكرمة فقال: يا أبا أُمامة، أُذكِّركَ الله، هل سمعت ابن عباس يقول: ما حَدَّثكم عكرمة عنى فصدِّقوه فإنه لم يكذب علىَّ؟ فقال أبو أمامة: نعم.

هذا هو رد عِكرمة على متهميه بالكذب وتفنيده لما نُسب إليه من الافتراء على مولاه.

وأما ما رواه ابن سعد: من أن علىّ بن عبد الله بن عباس كان يُوْثِقه على باب الكنيف ويقول: إن هذا يكذب على أبى، فإنه مردود بما رواه ابن حجر فى تهذيب التهذيب: من أن ابن عباس مات وعكرمة على الرق، فباعه ولده علىّ بن عبد الله بن عباس، من خالد بن يزيد بن معاوية، بأربعة آلاف دينار، فأتى عكرمة مولاه علياً فقال له: ما خير لك، بعتَ علم أبيك بأربعة آلاف؟ فاستقاله فأقاله فأعتقه».

ثم نجد بعد هذا أن ما روى عن ابن عمر لا يصح، لأنه من رواية يحيى البكَّاء، ويحيى البكَّاء متروك الحديث، ومن المحال أن يُجرَّح العَدْل بكلام المجروح(١).

(١) مقدمة فتح البارى: ٢/ ١٥٠

وأما ما قيل من أنه توفى هو وكثيِّر الشاعر فى يوم واحد فلم يشهد أحد جنازته، بخلاف كثير فقد شيَّعه الكثير من الناس، فلسنا نعلم نصيب هذا القول من الصحة، ولعل ذلك على فرض صحته - كما يقول ابن حجر - كان بسبب تطلب الأمير له وتغيبه عنه حتى مات. وليس صحيحاً ما قيل من أن هذا يرجع إلى تحقير المولى إزاء تشريف الحر (١).

ويحقق ابن حجر بعد هذا: أن ما نُقل من أنهم شهدوا جنازة كثيرة وتركوا عكرمة، لم يثبت، لأن ناقله لم يُسَم.

وأما ما رُمى به من الميل للخوارج، فافتراء عليه، ولا يكاد يتفق مع سلوكه فى حياته، قال ابن حجر: «فأما البدعة، فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه، لأنه لم يكن داعية، مع أنها لم تثبت عليه» (٢).

● **شهادات الموثِّقين له :**

ولو أننا تتبعنا أقوال المنصفين، الذين عرفوا حقيقة هذا التابعى الجليل، لوجدناه رجلاً ثبتاً، لا يُتهم فى عدالته، وكل ما قيل فى شأنه من التهم لا يُراد به إلا أن يفقد الناس ثقتهم به وركونهم إليه. وإليك ما قاله بعض علماء الجرح والتعديل لتقف على عدالة الرجل وصدق روايته...

قال المروزى: قلت لأحمد: يُحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم يُحتج به. وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع فى عكرمة، وفى حماد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام. وقال العجلى فيه: مكى تابعى ثقة، برىء مما يرميه به الناس من الحرورية. وقال البخارى: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة. وقد وَثَّقه النسائى وأخرج له فى كتابه السنن، كما أخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، وكان مسلم بن الحجاج من أسوئهم رأياً فيه، ثم عدله بعد ما جَرَّحه. وقال المروزى: أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل الحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، وابن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو ثور، ولقد سألت إسحاق بن راهويه عن الاحتجاج بحديثه فقال: عكرمة عندنا إمام الدنيا - تَعَجَّبَ من سؤالى إياه!

وبعد... فهل هناك من يُقَدَّم على البخارى ومسلم وجميع مَن ذكرت من علماء الرواية فى باب التعديل والتجريح؟، وإذا كان هؤلاء هم أعلم الناس بالرجال، فهل نقبل تجريح مَن عداهم ونترك توثيقهم؟

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٧٥. (٢) مقدمة فتح البارى: ٢/١٤٨.

الحق أن عكرمة تابعى موثوق بعدالته ودينه، وكل ما رُمِىَ به كذب واختلاق !!

● **مبلغه من العلم ومكانته فى التفسير :**

هذا وإن عكرمة رضى الله عنه، كان على مبلغ عظيم من العلم، وعلى مكانة عالية من التفسير خاصة، وقد شهد له العلماء بذلك، فقال ابن حبان : كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن. وقال : عمرو بن دينار : دفع إلىّ جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول : هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه. وكان الشعبى يقول : ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال حبيب بن أبى ثابت : اجتمع عندى خمسة : طاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، فأقبل مجاهد وسعيد ابن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسَّرها لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول : أُنَزلت آية كذا فى كذا، وأُنزلت آية كذا فى كذا. وقال يحيى بن أيوب المصرى : سألنى ابن جريج : هل كتبتم عن عكرمة؟ فقلت : لا، قال : فاتكم ثلثا العلم.

هذا بعض ما قيل في عكرمة، مما يشهد لمكانته فى العلم عامة، وفى التفسير خاصة، ولا عجب، فإن ملازمته لمولاه ابن عباس، ومبالغة مولاه فى تعليمه إلى درجة أنه كان يضع فى رجله الكبل (١)، ويعلمه القرآن والسنن، جعلته ينهل من معينه الفيَّاض، ويأخذ عنه علمه الغزير، بل نجد أكثر من هذا فيما يرويه ابن حجر فى تهذيب التهذيب، من أن عكرمة بيَّن لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن، قال : روى داود بن أبى هند عن عكرمة قال : قرأ ابن عباس هذه الآية : ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .. قال ابن عباس : لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال : فما زلت أُبيَّن له حتى عرف أنهم نجوا فكسانى حُلَّة »، وهذا الخبر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه، وعلى مقدار إعجابه بعلمه، وتقديره لفهمه.

وجملة القول : فإن عكرمة أمين فى روايته، مُقدَّم فى عمله، مبرز فى فهمه لكتاب الله... وكيف لا يكون كذلك وهو وارث علم ابن عباس؟

توفى رحمه الله سنة ١٠٤ هـ (أربع ومائة من الهجرة) ، فرضى الله عنه وأرضاه(٢) .

* * *

---

(١) الكبل : القيد .

(٢) انظر تهذيب التهذيب : ٧ / ٢٦٣ - ٢٧٣ .

٤ - طاووس بن كيسان اليمانى

● **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان، اليمانى الحميرى الجندى (١) مولى بحير ابن ريسان، وقيل مولى همدان. وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، ورُوى عنه أنه قال : جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى، ويرجع ذلك إلى مجالسته لكثير من الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم، ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه فى التفسير أكثر مما يأخذ عن غيره منهم، ولهذا عددناه من تلاميذ ابن عباس، وذكرناه فى رجال مدرسته بمكة.

ولقد كان طاووس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس فقال فيه : إنى لأظن طاووساً من أهل الجنة، وقال فيه عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاووس. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين : إنه ثقة. وقال ابن حبان : كان من عُبَّاد أهل اليمن ومن سادات التابعين، وكان مستجاب الدعوة، وحج أربعين حجة. وقال الذهبى : كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ١٠٦ هـ (ست ومائة من الهجرة) (٢) .

٥ - عطاء بن أبى رباح

● **ترجمته :**

هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح، المكى القرشى مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين (٢٧ هـ)، وتوفى سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة (١١٤ هـ) على أرجح الأقوال. كان - رحمه الله - أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك.

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم وحدَّث عن نفسه : أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً كثير الحديث. وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه : تجتمعون إلىَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟. وقال فيه أبو حنيفة : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفى. وقال الأوزاعى : مات عطاء يوم مان وهو أرضى أهل الأرض عند الناس. وقال سلمة بن كهيل : ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة : عطاء، ومجاهد، وطاووس. وقال ابن حبان : كان من سادات التابعين فقهاً، وعلماً، وورعاً، وفضلاً (٣) . وهو عند أصحاب الكتب الستة.

---

(١) الجندى - بفتح الجيم والنون - نسبة إلى بلد باليمن كان يسكنها.
(٢) أنظر تهذيب التهذيب : ٥/٨ - ١٠
(٣) أنظر تهذيب التهذيب : ٧/١٩٩ - ٢٠٣

• **مكانته فى التفسير :**

كل ما تقدم من أقوال العلماء فى عطاء يشهد لمكانته العلمية على وجه العموم ويدل على مبلغ ثقته وصدقه، وليس أدل على ذلك من شهادة أستاذه ابن عباس له بذلك، ونجد شهرة عطاء على غيره من أصحاب ابن عباس، تتجلى فى معرفته بمناسك الحج، ولهذا قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير. وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. وإذا نحن تتبعنا الرواة عن ابن عباس نجد أن عطاء بن أبى رباح لم يُكثر من الرواية عنه كما أكثر غيره، ونجد مجاهداً وسعيد بن جبير يسبقانه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله، ولكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير، ولعل إقلاله فى التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأى، فقد قال عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدرى، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إنى أستحى من الله أن يُدَانَ فى الأرض برأيى.

ثانيا : مدرسة التفسير بالمدينة

• **قيامها على أُبَىّ بن كعب :**

كان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها ولم يتحوَّلوا عنها كما تحوَّل كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسِّرين من الصحابة. ونستطيع أن نقول: إن قيام هذه المدرسة كان على أُبَىّ بن كعب، الذى يُعتبر بحق أشهر مَن تتلمذ له مفسِّرو التابعين بالمدينة، وذلك لشهرته أكثر من غيره فى التفسير، وكثرة ما نُقل لنا عنه فى ذلك.

• **أشهر رجالها :**

وقد وُجد بالمدينة فى هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير، اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى. وهؤلاء منهم مَن أخذ عن أُبَىّ مباشرة، ومنهم مَن أخذ عنه بالواسطة.

وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بما يتناسب مع جانبه العلمى فى التفسير فأقول:

١ - أبو العالية

• **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبى ﷺ بسنتين. روى عن علىّ، وابن مسعود، وابن عباس. وابن عمر، وأُبَىّ

ابن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير. قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة. وقال اللالكائي: مجمع على ثقته. وقال فيه العجلي: تابعي ثقة. من كبار التابعين. وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة. وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وروى قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال: قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات. وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية.

وتُروى عن أُبَىّ بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبَىّ. وقلنا فيما تقدم: إن هذا الإسناد صحيح، وقلنا أيضاً: إن ابن جرير وابن أبى حاتم أخرجا من هذه النسخة كثيراً، كما أخرج منها الحاكم فى مستدركه، والإمام أحمد فى مسنده. وكانت وفاته سنة ٩٠ هـ (تسعين من الهجرة) على أرجح الأقوال فى ذلك [١].

٢ - محمد بن كعب القرظى

• ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى المدنى، من حلفاء الأوس. روى عن علىّ، وابن مسعود وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أُبَىّ بن كعب بالواسطة. وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن. قال ابن سعد: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وقال العجلى: مدنى، تابعى، ثقة، رجل صالح. عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى [٢]. وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص فى المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ١١٨ هـ (ثمانى عشرة ومائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

٣ - زيد بن أسلم

• ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو أبو أسامة - أو أبو عبد الله - زيد بن أسلم، العدوى المدنى الفقيه المفسِّر، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالقول فى التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائى: ثقة.

---

(١) أنظر تهذيب التهذيب: ٣ / ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٠٥.

ويكفينا شهادة هؤلاء الأربعة الأعلام دليلاً قوياً على ثقته وعدالته، كما أنه عند أصحاب الكتب الستة.

ولقد كان زيد بن أسلم معروفاً بين معاصريه بغزارة العلم، فكان منهم مَن يجلس إليه، ويأخذ عنه، ويرى أنه ينفعه أكثر من غيره، يدلنا على هذا ما رواه البخارى فى تاريخه أن علىّ بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجلس قومه، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: تتخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب؟ فقال علىّ: إنما يجلس الرجل إلى مَن ينفعه فى دينه.

وقد عُرف زيد بأنه كان يُفسِّر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، فقد روى حماد ابن زيد، عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه: لا أعلم به بأساً، إلا أنه يُفسِّر برأيه القرآن ويُكثر منه، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيداً ثقة لا يؤخذ عليه شيء إلا أنه كان يُكثر من القول بالرأى، وهذا لا يُعَد مغمزاً من عبيد الله فى ثقته وعدالته، كما لا نستطيع أن نُعد هذا طعناً منه فى علمه، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول فى القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين، وكان زيد يرى جواز تفسير القرآن بالرأى فلا يتحرج منه كما لم يتحرج من ذلك كثير من الصحابة والتابعين، ولا نجد فى العلماء مَن نسب زيد بن أسلم إلى مذهب من المذاهب المبتدعة حتى نقول إنه كان يُفسِّر القرآن برأيه مطابقاً لمذهبه البدعى، ولو كان شيء من ذلك لما سكت عبيد الله عن بيانه، ولما حكم عليه حكمه هذا، الذى يدل على ثقته وعدالته، وإن دَلَّ على اختلافهما فى جواز التفسير بالرأى.

وأشهر مَن أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن ابن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وكانت وفاته سنة ١٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائة من الهجرة) وقيل غير ذلك(١).

ثالثاً : مدرسة التفسير بالعراق

● قيامها على ابن مسعود :

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظراً لشهرته فى التفسير وكثرة المروى عنه فى ذلك، ولأن عمر رضى الله عنه لما وَلَّى عمار بن ياسر على الكوفة، سيَّر معه عبد الله بن مسعود مُعلِّماً ووزيراً، فكونه مُعلِّم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة.

---

(١) أنظر تهذيب التهذيب: ٣/٣٩٥ - ٣٩٧.

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأى. وهذه ظاهرة نجدها بكثرة فى وسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الطريقة فى مدرسة التفسير، فيكثر تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسُّنَّة.

● أشـهر رجالها :

وقد عُرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة ابن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرَّة الهمدانى، وعامر الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى. ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:

١ - علقمة بن قيس

● ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعى الكوفى، ولد فى حياة رسول الله ﷺ. روى عن عمر، وعثمان، وعلىّ، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال عثمان بن سعيد: قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخير، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله. وقال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سَمْتاً وهَدْياً. وقال داود بن أبى هند: قلت لشعبة: أخبرنى عن أصحاب عبد الله، قال: كان علقمة أنظر القوم به. وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه. وقال إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السُّنَّة ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود... وذكر الباقين. وكان رحمه الله ثقة مأموناً، على جانب عظيم من الورع والصلاح. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمدانى: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ هـ (إحدى وستين، أو اثنتين وستين من الهجرة)، وعمره تسعون سنة (١).

٢ - مسروق (٢)

● ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمدانى الكوفى العابد. سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمى مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان،

(١) تهذيب التهذيب :٧/ ٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) قيل إنه سُرق في صغره، ثم وجد فسمي بذلك.

أنت مسروق بن عبد الرحمن، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأُبَىّ بن كعب، وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضى يستشيره فى معضلات المسائل. وقال مالك بن مغول: سمعت أبا السفر غير مرة قال: ما ولدت همدانية مثل مسروق. وقال الشعبى: ما رأيت أطلب للعلم منه. وقال علىّ بن المدينى: ما أقدمُ على مسروق من أصحاب عبد الله أحداً. وهذه الشهادة من ابن المدينى، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذى استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص، الأمر الذى جعله يجمع بين علم هؤلاء جميعاً، ولقد حدَّث مسروق - رضى الله عنه - أنه جالس أصحاب محمد ﷺ فوجدهم كالإخاذ، (الأخاذ) فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ثم إن هذا التتلمذ لأصحاب رسول الله ﷺ ولابن مسعود الذى اشتهر بتفسير القرآن، جعل من مسروق إماماً فى التفسير، وعالماً خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى. وقد حدَّث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال: كان عبد الله - يعنى ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ثم يُحدِّثنا فيها ويُفسِّرها عامة النهار.

أما ثقته وعدالته، فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يُسئل عن مثله. وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة. وذكره ابن حبان فى الثقات، وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى شعبة عن أبى إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. وكانت وفاته سنة ٦٣ هـ (ثلاث وستين من الهجرة) على الأشهر (١).

٣ - الأسود بن يزيد

● ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو أبو عبد الرحمن، الأسود بن يزيد بن قيس، النخعى. كان من كبار التابعين، ومن رواة عبد الله بن مسعود. روى عن أبى بكر، وعمر، وعلىّ، وحذيفة، وبلال، وغيرهم. وكان رحمه الله ثقة، صالحاً، على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالى. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وقال فيه يحيى بن معين: ثقة. وقال ابن سعد: ثقة وله أحاديث صالحة. وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر، وذهبت إحدى عينيه من الصوم. وذكره إبراهيم النخعى فيمن

---

(١) أنظر تهذيب التهذيب: ١٠/١٠٩ - ١١١.

كان يُفتى من أصحاب ابن مسعود. وقال ابن حبان فى الثقات: كان فقيهاً زاهداً. توفى بالكوفة سنة ٧٤ هـ (أربع وسبعين، أو خمس وسبعين من الهجرة) على الخلاف فى ذلك (١).

٤ - مُرَّة الهمدانى

● **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو إسماعيل، مُرَّة بن شراحيل الهمدانى، الكوفى، العابد المعروف بمُرَّة الطيب، ومُرَّة الخير. لُقِّبَ بذلك لعبادته، وشدة ورعه، وكثرة صلاحه. روى عن أبى بكر، وعمر، وعلىّ، وابن مسعود، وغيرهم. وروى عنه الشعبى، وغيره من أصحابه. وَثَّقَهُ ابن معين، والعجلى . وهو عند أصحاب الكتب الستة. قال فيه الحارث الغنوى: سجد مرة الهمدانى حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة، وتوفى سنة ٧٦ هـ (ست وسبعين من الهجرة) (٢) .

٥ - عامر الشعبى

● **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبى، الحميرى، الكوفى، التابعى الجليل، قاضى الكوفة. روى عن عمر، وعلىّ، وابن مسعود، ولم يسمع منهم (٣) . وروى عن أبى هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبى موسى الأشعرى، وغيرهم. قال الشعبى: أدركت خمسمائة من الصحابة. وقال العجلى: سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة.

وقال عبد الملك بن عمير: مر ابن عمر على الشعبى وهو يُحَدِّثْ بالمغازى فقال: لقد شهدت القوم، فلهو أحفظ وأعلم بها. وقال مكحول: ما رأيت أفقه منه. وقال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس فى زمانه، والشعبى فى زمانه، والثورى فى زمانه. وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبى يقول: ما كتبتُ سوداء فى بيضاء، ولا حدَّثنى رجل بحديث إلا حفظته، ولا حدَّثنى رجل بحديث فأحببت أن يعيده علىّ. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبى ثقة. وقال ابن حبان فى الثقات: كان فقيهاً شاعراً. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال أبو جعفر الطبرى فى طبقات الفقهاء: كان ذا أدب وفقه وعلم. وحكى ابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبى حصين قال: ما رأيت أعلم من الشعبى، فقال أبو بكر بن عياش: ولاشريح؟ فقال: تريدنى أكذب؟ ما رأيت أعلم من الشعبى. وقال أبو إسحاق الحبال: كان واحد زمانه

---

(١) المرجع السابق: ١٠/٣٤٢ - ٣٤٣ . (٢) انظر تهذيب التهذيب : ١٠/٨٨ - ٨٩ .
(٣) خلاصة تذهيب الكمال ص ١٥٥ .

فى فنون العلم. وعن سليمان بن أبى مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبى، لا سعيد بن المسيب، ولا طاووس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين. وعن أبى بكر الهذلى قال: قال لى ابن سيرين: الزم الشعبى، فلقد رأيته يُستفتَى والصحابة متوافرون. وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبى حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير. وقال عاصم: ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجازة من الشعبى.

كل هذه الشهادات من العلماء، تدل على مبلغ علم الشعبى وعظيم حظه منه على اختلاف فنونه، فمن حديث، إلى تفسير، إلى فقه، إلى شعر، إلى قوة حفظ، وكثرة أخذ عن الصحابة وعلماء الأمصار المختلفة. وإذا كان الشعبى يُفتِى مع وجود الصحابة ووفرتهم، ويجلس له كثير من أهل العلم يأخذون عنه، فتلك لعمرى أكبر دلالة على عظيم مكانته العلمية، وعلو منزلته بين أتباعه ومعاصريه.

وإذا كان الشعبى قد رُزِق حظاً وافراً من العلم، ونال إعجاب معاصريه، فإنه مع ذلك لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه، بل كان يتحرج من ذلك، ويتوقف عن إجابة سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السَلَف، فقد قال ابن عطية: «كان جُلَّة من السَلَف، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبى، يعظمون تفسير القرآن. ويتوقفون عنه. تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم» (١).

وأخرج الطبرى عن الشعبى أنه قال: «والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله» (٢).

وأخرج عنه أيضاً أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأى» (٣) ومع هذا التوقف فإنَّا نرى الشعبى رجلاً نقَّاداً لرجال التفسير فى عصره. وكثيراً ما كان يُصرِّح بالطعن على مَن لا يعجبه مسلكه فى التفسير من معاصريه فقد ذكر أبو حيان: «أن الشعبى كان لا يعجبه تفسير السدى، ويطعن عليه وعلى أبى صالح، لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر» (٤).

وروى ابن جرير: أن الشعبى كان يمر بأبى صالح باذان (٥) فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول: تُفسِّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن (٦). وروى ابن جرير أيضاً عن صالح بن مسلم قال: مَرَّ الشعبى على السدى وهو يفسِّر فقال: لأن يُضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا (٧).

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى: ١/٣٤.
(٢) مقدمة تفسير ابن جرير: ١/٢٨.
(٣) مقدمة تفسير ابن جرير: ١/٢٨.
(٤) البحر المحيط: ١/١٣.
(٥) باذان: اسمه، ويقال: باذام بالميم.
(٦) تفسير ابن جرير: ١/٣٠.
(٧) المرجع السابق.

هذا وإن الخلاف فى مولد الشعبى وفى وفاته كثير، وأشهر الأقوال فى ذلك أنه ولد فى سنة ٢٠ هـ (عشرين)، وتوفى سنة ١٠٩ هـ (تسع ومائة من الهجرة) [١].

٦ - الحسن البصرى

● **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو سعيد، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة. قال ابن سعد : ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادى القرى، وكان فصيحاً ورعاً زاهداً، لا يُسبق فى وعظه، ولا يُدانِى فى مبلغ تأثيره على قلوب سامعيه. روى عن علىّ، وابن عمر، وأنس، وخلق كثير من الصحابة والتابعين.

هذا . . وإن الحسن البصرى ليجمع إلى صلاحه وورعه وبراعته فى الوعظ، غزارة العلم بكتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ، وأحكام الحلال والحرام، وقد شهد له بالعلم خلق كثير، فقال أنس بن مالك : سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا. وقال سليمان التيمى : الحسن شيخ أهل البصرة. وقال مطر الوراق : كان جابر بن زيد رجل أهل البصرة، فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما كان فى الآخرة، فهو يخبر عما رأى وعاين. وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال : ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه. وقال بكر المزنى : مَن سرَّه أن ينظر إلى أعلم عالم أدركناه فى زمانه، فلينظر إلى الحسن، فما أدركنا الذى هو أعلم منه. وقال الحجاج بن أرطأة : سألت عطاء بن أبى رباح فقال لى : عليك بذلك - يعنى الحسن - ذلك إمام ضخم يُقتدَى به. وكان إذا ذُكِر عند أبى جعفر الباقر قال : ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء. وقال ابن سعد : كان الحسن جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم فصيحاً، جميلاً وسيماً. وقال حماد بن سلمة عن حميد : قرأت القرآن على الحسن ففسَّره على الإثبات - يعنى إثبات القَدَر - وكان يقول : من كذَّب بالقَدَر فقد كفر. وحديثه عند أصحاب الكتب الستة. توفى رحمه الله تعالى سنة ١١٠ هـ (عشر ومائة من الهجرة) وهو ابن ثمان وثمانين سنة [٢].

٧ - قتادة

● **ترجمته ومكانته فى التفسير :**

هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه، عربى الأصل. كان يسكن البصرة. روى عن أنس، وأبى الطفيل، وابن سيرين، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح، وغيرهم. وكان قوى الحافظة، واسع الاطلاع فى الشعر العربى، بصيراً بأيام العرب،

---

(١) انظر تهذيب التهذيب : ٥/٦٥ - ٦٩.

(٢) انظر تهذيب التهذيب : ٢/٢٦٣ - ٢٧٠.

عليماً بأنسابهم، متضلعاً فى اللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته فى التفسير. ولقد يشهد لقوة حفظه ما رواه سلام بن مسكين قال: حدثنى عمرو بن عبد الله، قال: قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أياماً وأكثر، فقال له سعيد: أكل ما سألتنى عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلتَ فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلتَ فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثاً كثيراً، قال: فقال سعيد: ما كنتُ أظن أن الله خلق مثلك. وقد شهد له ابن سيرين بقوة الحافظة أيضاً، فقال: قتادة هو أحفظ الناس.

وكان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتُهر به من معرفته لتفسير كتاب الله. حتى قدَّمه بعضهم على كثير من أقرانه، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه. وقال فيه سعيد بن المسيب: ما أتانى عراقى أحسن من قتادة. وقال معمر للزهرى: قتادة أعلم عندك أم مكحول؟ قال: بل قتادة. وقال أبو حاتم: سمعت أحمد ابن حنبل وذُكر قتادة، فأطنب فى ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلَّما تجد مَن تقدَّمه، أما المثل فلعل. وقال معمر: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ﴾ [الزخرف: ١٣] فلم يجبنى، فقلت: سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، ولولا كلامه فى القَدَر - وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا ذُكرَ القَدَر فأمسكوا» - ما عدلت به أحداً من أهل دهره (١).

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة وبتفسيره للقرآن، لولا ما يُنسب إليه من الخوض فى القضاء والقَدَر. وكثيراً ما تحرَّج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجد أصحاب الصحاح يُخَرِّجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا فى تعديله وتوثيقه: قال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس: الزهرى، ثم قتادة. وقال ابن سعد: كان ثقة مأموناً حُجَّة فى الحديث، وكان يقول بشىء من القَدَر. وقال ابن حبان فى الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حُفَّاظ أهل زمانه.

وكانت وفاته سنة ١١٧ هـ (سبع عشرة ومائة من الهجرة)، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور (٢).

وبعد... فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين، وغالب أقوالهم فى التفسير تلقوها عن الصحابة، وبعض منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب، وما وراء ذلك فمحض اجتهاد لهم، ولا شك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم، لقرب

---

(١) وفيات الأعيان: ٢/١٧٩.
(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٨/٣٥١ - ٣٥٦.

عهدهم من عهد النبوة، واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة، ولعدم فساد سليقتهم العربية، والفساد الذى شاع فيما بعد، حتى بلغ إلى درجة الهجنة والمزيج اللغوى.

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمى الذى خَلَّفَهُ التابعون، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من الغموض وما جد من اختلاف فى الرأى، وعن هؤلاء أخذ من جاء بعدهم.... وهكذا. تناقل الخلف علم السلف، وحمل علماء كل جيل علم من سبقهم وزادوا عليه، سنة الله فى تدرج العلوم، تبدأ ضيقة الدائرة، محدودة المسائل، ثم لا تلبث أن تتسع وتتضخم إلى أن تبلغ النهاية وتصل إلى الكمال.

* * *

الفصل الثانى

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شئ عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

فنقل عن الإمام أحمد رضى الله عنه روايتان فى ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول،وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخد بتفسير التابعى، واختاره ابن عقيل، وحكى عن شعبة. واستدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه: بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى: إنه محمول على سماعه من النبى ﷺ. وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلا، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة. نقل عن أبى حنيفة أنه قال: «ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلي الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال».

وقد ذهب أكثر المفسرين: إلى أنه يؤخذ بقول التابعى فى التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة، فمجاهد مثلا يقول: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وقتادة يقول: ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا، ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها.

والذى تميل إليه النفس: هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون علي رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟ بمعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشئ فلا يرتاب فى كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك(١).

---

(١) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ - ٢٩، وفواتح الرحموت ٢ / ١٨٨، والإتقان: ٢ / ١٧٩ .

الفصل الثالث

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولا: دخل فى التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام، وكان لا يزال عالقا بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنا ت. وكثير من القصص. وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجوا فى التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر ونقد. وأكثر من رُوِىَ عنه فى ذلك من مسلمى أهل الكتاب: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات فى التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم (١)

وسنأتي بعرض لهذه الناحية عرضا موسعا عند الكلام عن أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

ثانيا: ظل التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية (٢)، إلا أنه لم يكن تلقيا ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبى ﷺ وأصحابه، بل كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبى، والعراقيون عن ابن مسعود... وهكذا.

ثالثا: ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل فى طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلا قتادة بن دعامة السدوسى ينسب إلى الخوض فى القضاء والقدر ويتهم بأنه قدرى، ولا شك أن هذا أثر على تفسيره، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه. ونجد الحسن البصرى قد فسّر القرآن على إثبات القدر، ويكفر من يكذب به كما ذكرنا ذلك فى ترجمته.

رابعا: كثرة الخلاف بين التابعين فى التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسِّرين.

---

(١) انظر فجر الإسلام ص ٢٥٢، ومنهج الفرقان: ٢ / ٢٠ .

(٢) وما سبق من أن مجاهد بن جبر كتب التفسير كله عن ابن عباس، وما يأتى بعد من أن سعيد بن جبير كتب تفسير القرآن، لا يخرج بالتفسير فى هذه المرحلة عن طابع التلقى والرواية، لأن هذا عمل فردى لا يؤثر علي الطابع العام.

الفصل الرابع

الخلاف بين السلف في التفسير

قلنا إن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يفسرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون في فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله ﷺ .وقلنا إن المفسرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيرا من التفسير، وقالوا فيه أيضا برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد.

قلنا هذا فيما سبق. ونزيد عليه أن ما دون من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهيه والكلامية، لم يكن قد ظهر شى منها في عصر الصحابة ،والتابعين، وإن كان قد وجدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرعت عنها كل هذه الفروع المختلفة. كان هذا هو الشأن علي عهد الصحابة والتابعين،فكان طبيعيا أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحله، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد.

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلا جدا، وكذا بين التابعين وإن كان أكثر منه بين الصحابة، وكان اختلافهم في الأحكام أكثر من اختلافهم في التفسير.

وإذا نحن تتبعنا ما نقل لنا من أقوال السلف فى التفسير، وجمعنا ما هو مبثوث فى كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادى الرأى بكثير من الأقوال المختلفة فى المسألة الواحدة، فقول لصحابى يخالف قول صحابى آخر، وقول لتابعى يخالف قول تابعى آخر، بل كثيرا ما نجد قولين مختلفين في المسألة الواحدة، وكلاهما منسوب لقائل واحد، فهل معنى هذا أن الخلاف فى التفسير قد اتسعت دائرته علي عهد الصحابة والتابعين، وهل معنى هذا أن الصحابى أو التابعى يناقض نفسه فى المسألة الواحدة؟.. لا، فدائرة الخلاف لم تتسع، ولم يناقض الصحابى أو التابعى نفسه. وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف فى التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلا، أو اختلاف تنوع، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس فحكاه علي أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض.

ونستطيع بعد البحث والنظر في هذه الأقوال التى اختلفت ولم تتباين، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافي ولا تباين بين هذه الأقوال التى تبدو متعارضة عن السلف، وهى ما يأتي:

أولا: أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها علي مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضادا لدعائه باسم آخر منها، بل الأمر كما قال الله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠]

وإذا نحن نظرنا إلى كل اسم من أسمائه لوجدناه يدل على ذات الله تعالى وعلى صفة من صفاته تضمنها هذا الاسم فـ « العليم » يدل علي الذات والعلم، و « القدير » يدل على الذات والقدرة . . . وهكذا.

ثم إن كل اسم من هذه الأسماء يدل على الصفة التى فى الاسم الآخر بطريق اللزوم، وكذلك الشأن فى أسماء النبى ﷺ مثل: محمد وأحمد وحامد، وأسماء القرآن مثل: القرآن، والفرقان، والهدى، والشفاء وأمثال ذلك.

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمي عبر عنه بأى اسم كان إذا كان يعرف مسماه. فمثلا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ [طه:١٢٤] .. إذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذكره قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هداه، ونحو ذلك. وهذا علي القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلابد في ذلك من قدر زائد علي تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام ،المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوسا وسلاما ومؤمنا، ومهيمنا، ونحو ذلك.

والسلف كثيرا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هى هذه. ومعلوم أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن لقوله ﷺ فى حديث على عند الترمذى: « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران، وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن ».

ومنهم من قال: هو اتباع السنة والجماعة، ومنهم من قال: هو طريق

العبودية ، ومنهم من قال: هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة فى الحقيقة ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكل أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

ثانيا: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع علي النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

مثال ذلك ما نقل في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر :٣٢] فبعضهم فسر السابق بمن يصلى فى أول الوقت، والمقتصد بمن يصلى فى أثنائه، والظالم بمن يصلى بعد فواته. وبعضهم فسر السابق بمن يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد بمن يؤديها وحدها، والظالم بمانع الزكاة،فكل من المفسرين ذكر فردا من أفراد العام علي سبيل التمثيل لا الحصر، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يكون أسهل من التعريف بالحد المطابق والعقل السليم يتفطن للنوع بذكر مثاله. وهذا الاختلاف في ذكر المثال لا يؤدى إلى التباين والتناقض بين الأقوال، إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات. والسابق يتناول من تقرب بالحسنات مع الواجبات.

ومن هذا القبيل أن يقول أحدهم: نزلت هذه الآية فى كذا، ويقول الآخر: نزلت فى كذا، كل يذكر غير ما يذكره صاحبه، لأن كلا منهم يذكر بعض ما يتناوله اللفظ، وهذا لا تنافى فيه ما دام اللفظ يتناول قول كل منهما .أما إذا قال أحدهم: سبب نزول هذه الآية كذا، وقال الآخر: سبب نزول هذه الآية كذا، وكل ذكر غير ما ذكره الآخر فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

ثالثا: أن يكون اللفظ محتملا للأمرين أو الأمور، وذلك إما لكونه مشتركا فى اللغة، كلفظ« قسورة » الذى يراد به الرامي ويراد به الأسد ولفظ « عسعس »، الذى يراد به إقبال الليل ويراد به إدباره وإما لكونه متواطئا في الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين ، كالضمائر فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ** ﴾ [النجم: ٨ – ٩] .. وكلفظ: ﴿ **وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ [الفجر: ١ – ٣] .. وما ماثل ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالها السلف، وذلك إما لكون الآية نزلت مرتين ، فأيد بها هذا تارة وهذا تارة. وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه أو معانيه، وهذا يقول به أكثر الفقهاء من

المالكية، والشافعية، والحنابلة، وكثير من أهل الكلام وإما لكون اللفظ متواطئا، فيكون عاما إذا لم يكن هناك موجب لتخصيصه.

رابعا: أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه، وإنما يعبر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه، فمثلا إذا قال قائل: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا**﴾ [الطور: ٩].. المور: الحركة فذلك تقريب للمعنى، لأن المور حركة خفيفة سريعة. كذلك إذا قال: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ**﴾ [الإسراء: ٤].. أى أعلمنا، لأن القضاء إليهم فى الآية أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالا وإيحاء إليهم.

فإذا قال أحدهم فى قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الأنعام: ٧٠] إن معنى تبسل: تحبس، وقال الآخر: ترتهن، ونحو ذلك، لم يكن من اختلاف التضاد، لأن هذا تقريب للمعنى كما قلنا.

خامسا: أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسر كل منهم علي حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافا، وليس باختلاف، مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وغيره من طرق فى قوله تعالى: ﴿**لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا**﴾ [الحجر ١٥] إن معنى سكرت: سدت، ومن طريق أخرى عنه: أن سكرت بمعنى أخذت وسحرت، ثم أخرج عن قتادة أنه قال: من قرأ «سكرت» مشددة، فإنما يعنى سدت، ومن قرأ «سكرت» مخففة. فإنه يعنى سحرت. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ [إبراهيم: ٥٠] أخرج ابن جرير عن الحسن: أنه الذى تهنأ به الإبل، وأخرج من طرق عنه وعن غيره: أنه النحاس المذاب، وليسا بقولين، وإنما الثانى تفسير لقراءة من قرأ: «من قطر آن» بتنوين قطر، وهو النحاس المذاب، وآن: شديدة الحرارة. وأمثله هذا النوع كثيرة. وقد خرج على هذا الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى. ﴿**أَوْ لَامَسْتُمُ**﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦] هل هو الجماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة «لامستم»، والثانى لقراءة: «لمستم» ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه التى بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التى تبدو متعارضة. أما ما جاء عنهم من اختلاف فى التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة – وهذا أمر نادر، أو اختلاف مخفف كما يقول ابن تيمية (١) – فطريقنا فيه: أن ننظر فيمن نقل عنه الاختلاف، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحة وضعفا، قدم الصحيح وترك ما عداه، وإن استوينا فى الصحة وعرفنا

---

(١) مقدمته فى أصول التفسير ص ١٢.

أن أحد القولين متأخر عن الآخر ، قدم المتأخر وترك ما عداه. وإن لم نعرف تقدم أحدهما علي الآخر رددنا الأمر إلي ما ثبت فيه السمع. فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما، رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه. وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى ولا نتهجم على تعيين أحد القولين، ويكون الأمر حينئذ في منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشا به قبل تبيينه.

وإن كان الاختلاف عن شخصين أو أشخاص، واختلفت الروايتان أو الروايات صحة وضعفا، وقدم الصحيح وترك ما عداه. وإن استوت الروايتان أو الروايات في الصحة، رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع. فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه. وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين أو الأقوال. ويكون الأمر حينئذ في منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

ويروي الزركشى : أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع، قدم قول ابن عباس عل قول غيره، وعلل ذلك فقال : «لأن النبى ﷺ بشره حيث قال : «اللهم علِّمه التأويل»(١)

* * *

(١) الإتقان : ٣ / ١٨٣ - وقد اعتمدنا في هذا البحث على مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ - ١٣، والإتقان : ٢ / ١٧٦ - ١٨٣، ومبادئ التفسير للخضرى ص٦ - ٧.

الباب الثالـث

المرحلة الثالثة للتفسير
(التفسير فى عصور التدوين)

- تمهيـــــد
- التفسير بالمأثور
- التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث
- أهم كتب التفسير بالرأى الجائز
- التفسير بالرأى المذموم ... أو تفسير الفِرْقة المبتدعة .

المرحلة الثالثة للتفسير

تمهيد

● **ابتداء هذه المرحلة:**

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين، وذلك فى أواخر عهد بنى أمية،وأول عهد العباسيين.

* **الخطوة الأولى للتفسير:**

وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ كما يروى بعضهم عن بعض. والتابعون يروون عن الصحابة. كما يروى بعضهم عن بعض، وهذه هى الخطوة الأولى للتفسير.. (١)

* **الخطوة الثانية:**

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، ،وكان التفسير بابا من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة. وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طوَّف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى ﷺ، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ، وآدم بن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هـ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ وغيرهم، وهؤلاء جميعا كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعا للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسندا إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شئ منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها.

* **الخطوة الثالثة:**

ثم بعد هذه الخطوة الثانية، خطا التفسير خطوة ثالثة، انفصل بها عن الحديث،

---

(١) هذه الخطوات للتفسير، خطوات علمية وأما المراحل فزمنية، وإذن فلا ضير أن يخطو التفسير خطوة علمية واحدة في مرحلتين زمنيتين، مرحلة عصر النبي ﷺ والصحابة، ومرحلة عصر التابعين.

فأصبح علما قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف. وتم ذلك علي أيدى طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفي سنة ٣١٨ هـ وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ،والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ و إلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شئ من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبرى فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد علي ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية... وسنأتى بالكلام عن هذا التفسير عند الكلام عن الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور إن شاء الله تعالى.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التى انفصل بها عن الحديث فليس معنى ذلك أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج فى خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هى النقل عن طريق التلقى والرواية، كانت الخطوة الثانية له، وهى تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهى تدوينه على استقلال وانفراد، فكل هذه الخطوات، ثم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون علي نمط الخطوة الثانية من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك على ما ورد عن رسول الله ﷺ ،أو عن الصحابة أو عن التابعين.

*** ليس من السهل معرفة أول من دوَّن تفسير كل القرآن مرتَّباً:**

هذا.. ولا نستطيع أن نعين بالضبط، المفسر الأول الذى فسر القرآن آية آية، ودَّونه على التتابع وحسب ترتيب المصحف. ونجد فى الفهرست لابن النديم (ص ٩٩) أن أبا العباس ثعلب قال: «كان السبب فى إملاء كتاب الفراء في المعاني[١] أن عمر بن بكير كان من أصحابه وكان منقطعا إلي الحسن بن سهل فكتب إلي الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل ، ربما سألني عن الشئ بعد الشئ

(١) قامت دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب وقد تم منه الجزء الأول سنة ١٩٥٦، وهو ينتهي عند آخر سورة يونس ، وإلي الآن لم يطبع غير هذا الجزء.

من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع إليه فعلت، فقال الفراء. لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن، وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج إليهم، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفى الكتاب كله، فقرأ الرجل ويفسر الفراء، قال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه».

فهل نستطيع أن نستخلص من ذلك: أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ هو أول من دون تفسيرا جامعا لكل آيات القرآن مرتبا على وفق ترتيب المصحف؟ وهل نستطيع أن نقول: إن كل من تقدم الفراء من المفسرين كانوا يقتصرون على تفسير المشكل فقط؟ .. لا ... لا نستطيع أن نفهم هذا من عبارة ابن النديم لأنها غير قاطعة فى هذا كما لا نستطيع أن نميل إليه كما مال إليه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام (جـ ٢ ص ١٤١)، وذلك لأن كتاب «معانى القرآن» للفراء شبيه فى تناوله للآى على ترتيبها فى السور بكتاب «مجاز القرآن» لأبى عبيدة ، فإنه يتناول السور على ترتيبها، ويعرض لما فى السورة من آى تحتاج لبيان مجازها – أى المراد منها – فليس للفراء أولية فى هذا، بل تلك على ما يبدو كانت خطة العصر (١)، ثم إن ما نقل لنا عن السلف يشعر – وإن كان غير قاطع – بأن استيفاء التفسير لسور القرآن وآياته كان عملا مبكرا لم يتأخر إلى نهاية القرن الثانى وأوائل الثالث، فمثلا يقول ابن أبى مليكة: «رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله» (٢)

ونجد الحافظ ابن حجر عندما ترجم لعطاء بن دينار الهذلى المصرى فى كتابه «تهذيب التهذيب» يقول: «قال على بن الحسن الهسنجانى، عن أحمد بن صالح: عطاء بن دينار، من ثقات المصريين، وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير صحيفة، وليس له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير، وقال أبو حاتم: صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان، وكان عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ٨٦هـ) سأل سعيد ابن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار فى الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير».

فهذا صريح فى أن سعيد بن جبير رضى الله عنه جمع تفسير القرآن فى كتاب، وأخذه من الكتاب عطاء بن دينار، ومعروف أن سعيد بن جبير قتل سنة ٩٤ - أو سنة

(١) التفسير... معالم حياته.. منهجه اليوم ص٣١- ٣٢ (هامش).
(٢) تفسير ابن جرير: ١ / ٣٠ .

٩٥ هـ – على الخلاف على ذلك، ولا شك أن تأليفه هذا كان قبل موت عبد الملك ابن مروان المتوفى سنة ٨٦ هجرية.

وكذلك نجد فى وفيات الأعيان (جـ ٢ ص٣) : أن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة، كتب تفسيرا للقرآن عن الحسن البصرى، ومعلوم أن الحسن توفى سنة ١١٦ هـ.

ومر بنا فيما سبق (ص٨٥) أن ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هـ له ثلاثة أجزاء كبار فى التفسير رواها عنه محمد بن ثور، فإذا انضم إلى هذا ما نلاحظه من قوة اتصال القرآن بالحياة الإسلامية ، وشدة عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها من آيات القرآن، وحاجاتهم الملحة فى ذلك، نستطيع أن نقول إن الفراء لم يسبق إلى هذا الاستيفاء والتقصى، بل هو مسبوق بذلك، وإن كنا لا نستطيع أن نعين من سبق إلى هذا العمل على وجه التحقيق، ولو أنه وقع لنا كل ما كتب من التفسير من مبدأ عهد التدوين. لأمكننا أن نعين المفسر الأول الذى دون التفسير على هذا النمط.

* **الخطوة الرابعة :**

ثم إن التفسير لم يقف عند هذه الخطوة الثالثة بل خطا بعدها خطوة رابعة، لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد، فصنف فى التفسير خلق كثير، اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها لقائليها، فدخل الوضع فى التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وأصبح الناظر فى هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح، فنقله كثير من المتأخرين فى تفاسيرهم، ونقلوا ما جاء فى هذه الكتب من إسرائيليات على أنها حقائق ثابتة، وكان ذلك هو مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرائيليات فى التفسير. وسنعرض لهذا بالبيان والتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولقد وجد من بين هؤلاء المفسرين من عنى بجمع شتات الأقوال، فصار كلما سنح له قول أورده ،وكلما خطر بباله شئ اعتمده، فيأتى من بعده وينقل ذلك عنه بدون أن يتحرى الصواب فيما ينقل، وبدون التفات منه إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير، ظنا منه أن كل ما ذكر له أصل ثابت!! وليس أدل على نهم هؤلاء القوم بكثرة النقل من أن بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة : ٧] عشرة أقوال مع أن تفسيرها باليهود والنصارى، هو الوارد عن رسول الله ﷺ وعن جميع الصحابة والتابعين، حتى قال ابن أبى حاتم : « لا أعلم فى ذلك اختلافا بين المفسرين » . (١)

---

(١) الإتقان : ٢ / ١٩٠ .

* **الخطـوة الخامسـة:**

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة ، وهى أوسع الخطا وأفسحها امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك.

● **تدرج التفسير العقلى:**

بدأ ذلك أولا على هيئة محاولات فهم شخصي، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرا مقبولا ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم، متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم.

دونت علوم اللغة، ودون النحو والصرف، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى، وأثيرت مسائل الكلام، وظهر التعصب المذهبى قائما على قدمه وساقه فى العصر العباسى، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير (١) حتى طغت عليه، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى، وصار أظهر شئ فى هذه الكتب،هو الناحية العقلية، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول أو بغير ذلك على المأثور.

وهكذا تدرج التفسير واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة، وتحكمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن الكريم فظهرت آثار الثقافة الفلسفة والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار النِّحَل و الأهواء فيه ظهورا جليا.

---

(١) وكان السب فى مزج هذه العلوم بالتفسير ما يأتى:

أولا: فى العلوم الأدبية: ضعف السليقة العربية، لاختلاط العرب بالعجم، فاحتيج إلى مزج هذه العلوم بالتفسير لفهم ألفاظ القرآن، والوقوف علي بلاغته التي تعتبر أهم نواحى إعجازه.

ثانيا: في العلوم الكونية ما ترجمه العلماء في إبَّان شوكة الإسلام من كتب الفلاسفة، فاحتاجوا إلى مزجها بالتفسير لتأييدها أو الرد عليها.

ثالثا: في العلوم الكلامية: ظهور الفرق الإسلامية، واستدلال كل طائفة منها ببعض آيات القرآن الكريم علي ما تذهب إليه، فاضطر العلماء إلى الكلام على ذلك فى التفسير ليميزوا المقبول من المردود، وما يدل عليه القرآن مما لا يدل عليه.

رابعا: فى العلوم الفقهية: نضوج الفقه الإسلامى وتبحر العلماء فيه، فعنى المفسرون بمزجها فى تفاسيرهم، لتكون متممة للناحية التشريعية، ، وشارحة لأصل الدين وهو القرآن.

وإنا لنلحظ فى وضوح وجلاء: أن كل من برع فى فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه، فالنحوى تراه لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته ، وذلك كالزجاج، والواحدى فى «البسيط»، وأبى حيان فى «البحر المحيط».

وصاحب العلوم العقلية، تراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تراه يعنى بذكر شبههم والرد عليها، وذلك كالفخر الرازى فى كتابه «مفاتيح الغيب».

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية، والرد على من يخالف مذهبه، وذلك كالجصَّاص، والقرطبى.

وصاحب التاريخ، ليس له شغل إلا القصص، وذكر أخبار من سلف ما صح منها وما لا يصح، وذلك كالثَّعلبى والخازن.

وصاحب البدع، ليس له قصد إلا أن يؤول كلام الله وينزله على مذهبه الفاسد، وذلك كالرمانى، والجبائى، والقاضى عبد الجبار، والزمخشرى من المعتزلة. والطبرسى، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنا عشرية.

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب. واستخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم، ويتناسب مع رياضتهم ومواجيدهم، ومن هؤلاء ابن عربى، وأبو عبد الرحمن السلمى..

وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب ما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت فى بعض العصور رواجا عظيما كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحمِّلوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجازه القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن. وفى الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه.

وسوف نتكلم على ذلك بتوسع عند الكلام عن التفسير العلمى إن شاء الله تعالى .

ثم إن هذا الطغيان العقلى العلمى، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب، بل وجد من العلماء فى عصور مختلفة من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسر القرآن تفسيرا نقليا بحتا، على توسع منهم فى النقل،وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه «الدر المنثور».

● **التفسير الموضوعى:**

وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة، فابن القيم - مثلا - أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه «التبيان فى أقسام القرآن» وأبو عبيدة أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهانى أفرد كتابا فى مفردات القرآن. وأبو جعفر النحاس أفرد كتابا فى الناسخ والمنسوخ من القرآن. وأبو الحسن الواحدى أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن والجصاص أفرد كتابا فى أحكام القرآن .. وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث.

● **توسع متقدمى المفسرين قعد بمتأخريهم عن البحث المستقل:**

ثم إنا نجد متقدمى المفسرين قد توسعوا فى التفسير إلى حد كبير، جعل من جاء بعدهم من المفسرين لا يلقون عنتا، ولا يجدون مشقة فى محاولتهم لفهم كتاب الله، وتدوين ما دونوا من كتب فى التفسير، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه، ومنهم من اختصر، ومنهم من علق الحواشى وتتبع كلام مَن سبقه، تارة بالكشف عن المراد، وأخرى بالتفنيد والاعتراض، ومع ذلك فاتجاهات التفسير؛ وتعدد طرائقه وألوانه. لم تزل على ما كانت عليه، متشعبة متكاثرة.

أما فى عصرنا الحاضر، فقد غلب اللون الأدبى الاجتماعى على التفسير ووجدت بعض محاولات علمية، فى كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير، أما اللون المذهبى، فقد بقى منه إلى يومنا هذا بمقدار ما بقى من المذاهب الإسلامية، وسوف نعرض للتفسير فى عصرنا الحاضر بما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى.

هذا هو شأن التفسير فى مرحلته الثالثة - مرحلة التدوين - وهذه هى خطواته التى تدرج فيها من لدن نشأته إلى عصرنا الحاضر، وتلك هى ألوانه وطرائقه، وأرى من العسير على أن اتمشى بالتفسير مع الزمن، وأن أتكلم عن طرائقه، ومميزاته، واتجاهاته، وألوانه فى كل عصر من العصور التى مرت عليه، وذلك راجع إلى أننا لم نقف على كثير مما خلفته تلك العصور من آثار فيه وهى كثرة كاثرة تنوعت مقاصدها واختلفت اتجاهاتها. وإننا لندهش عند سماع ما ألف فى التفسير من الكتب التى بلغت حد الكثرة. ونسبت لرجال لهم قيمتهم العلمية، ففى القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيرا للقرآن عن الحسن البصرى، كما ذكره ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان»(١)، ويذكر صاحب كتاب «تبيين كذب المفترى»: أن أبا الحسن

---

(١) الجزء الثانى ص١٠٣.

الأشعرى كتب كتابا فى التفسير يسمى «المختزن»، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق [١].

كما ينسب إلى الجوينى تفسير كبير يشتمل على عشرة أنواع فى كل آية [٢] وينسب للقشيرى أيضا تفسير كبير [٣]. وابن الأنبارى يذكرون أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا من تفاسير القرآن بأسانيدها [٤] وأبو هلال العسكرى له كتاب «المحاسن فى تفسير القرآن»، خمس مجلدات [٥] وغير هذا كثير جدا من الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن.

وبعد.... فهل يكون فى مقدورى – وقد اندرست معظم كتب التفسير – أن أتكلم عن التفسير وما ألف فيه فى جميع مراحله الزمنية؟ اللهم إن هذا أمر لا أقدر عليه إلا إذا جمع بين يدى كل ما كتب فى التفسير من مبدأ نشأته إلى يومنا هذا، وكان لدىَّ من الوقت ما يتسع لدراسته كله، وأنى لى بذلك؟

على أننا لو نظرنا إلى مناحى المفسرين واتجاهاتهم، لوجدناهم مع اختلاف عصورهم يشتركون فيها، فبينما نجد من المتقدمين من دوَّن التفسير بالمأثور خاصة، نجد من المتأخرين من قصر تفسيره على المأثور أيضا. وبينما نجد من المتقدمين من نحا فى تفسيره الناحية الإشارية نجد من المتأخرين من ينحو هذا المنحى بعينه، وبينما نجد من المتقدمين من حاول إخضاع القرآن لمذهبه وعقيدته نجد من المتأخرين من حاول مثل هذه المحاولة [٦] وهكذا نجد كثيرا من كتب التفسير على اختلاف أزمانها تتحد فى مشربها، وتتجه إلى ناحية واحدة من نواحى التفسير المختلفة.

لهذا كله، أرى نفسى مضطرا إلى أن أعدل فى هذه المرحلة الثالثة – مرحلة عصور التدوين – عن السير بالتفسير مع الزمن إلى التكلم عنه من ناحية هذه الاتجاهات التى اتجه إليها المفسرون فى تفاسيرهم وأتبع ذلك بالكلام عن أشهر الكتب المؤلفة فى التفسير فأتكلم أولا عن التفسير المأثور وأشهر ما دون فيه، ثم عن التفسير بالرأى الجائز وغير الجائز، وعن أشهر الكتب المؤلفة فى ذلك. ويندرج فى هذا الكلام على تفاسير الفرق المختلفة، ثم أتكلم بعد ذلك عن التفسير عند الصوفية وأهم كتبهم فيه، ثم عند الفلاسفة، ثم عند الفقهاء كذلك، ثم أتكلم عن التفسير العلمى، ثم أختم بكلمة عامة عن التفسير فى عصرنا الحاضر، وأسأل الله العون والتوفيق.

---

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٣٣ وانظر ص ١٣٦ منه أو في هامشها، وذكر المقريزى أنه فى سبعين مجلدا، وعن ابن عربى أنه فى خمسمائة مجلد... وابن فورك كثير النقل عن هذا التفسير. ويقول التاج السبكى أنه اطلع على جزء منه.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٧.

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٣.

(٤، ٥) التفسير... معالم حياته.. منهجه اليوم ص ١٥.

(٦) سيتضح لك فيما بعد التوافق في مناحى التفسير بين المتقدمين والمتأخرين.

الفصل الأول

التفسير بالمأثور

● ما هو التفسير المأثور؟

يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول ﷺ وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما روى عن التابعين - وإن كان فيه خلاف هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى - لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وغيره، لم تقتصر على ذكر ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وما روى عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين فى التفسير.

● تدرج التفسير المأثور:

تدرج التفسير المأثور فى دوريه - دور الرواية ودور التدوين - أما فى دور الرواية، فإن رسول الله ﷺ بين لأصحابه ما أُشكل عليهم من معانى القرآن، فكان هذا القدْر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

ثم وجد من الصحابة من تكلم فى تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله ﷺ أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على قلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التى كانت لهذا العهد، والمستوى العقلى الرفيع لأهله، وتحدد حاجات حياتهم العملية ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا.

ثم وجدمن التابعين من تصدى للتفسير، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتدأ دور التدوين - وهو ما يعنينا فى هذا البحث - فكان أول ما دون من التفسر، هو التفسير المأثور، على تدرج فى التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول فى هذا. وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين

ينسبون – على عادتهم – وضع كل علم لشخص بعينه يعدون واضع التفسير – بمعنى جامعه لا مدونه – الإمام مالك بن أنس الأصبحى، إمام دار الهجرة [١].

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلا منظما، ولم يفرد بالتدوين بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة يجمعون فيه ما روى عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأُفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التى رواها على بن أبى طلحة عن ابن عباس. [٢]

ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت فى التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبى روق[٣] وتلك الأجزاء الثلاثة التى يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج. [٤]

ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبى ﷺ وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبرى. ويلاحظ أن ابن جرير ومن على شاكلته – وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد - توسعوا فى النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقا به. كما يلاحظ أنه كان لا يزال موجودا إلى ما بعد عصر ابن جرير ومن على شاكلته – ممن أفردوا التفسير بالتأليف – رجال من المحدثين بوبوا للتفسير بابا ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث.

ثم وجد بعد هذا أقوام دونوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم فى ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال فى تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، مما جعل الناظر فى هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق، وهو كثير فى التفسير.

ثم بعد هذا تغيرت موجهات الحياة، فبعد أن كان التدوين فى التفسير لا يتعدى المأثور منه، تعدى إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج فيه، كما أشرنا إليه فيما سبق.

● **اللون الشخصى للتفسير المأثور:**

من المعلوم أن الشخص الذى يفسر نصا من النصوص، يلون هذا النص بتفسيره إياه لأن المتفهم لعبارة من العبارات، هو الذى يحدد معناه ومرماها وفق مستواه الفكرى، وعلى سعة أفقه العقلى، وليس فى استطاعته أن يفهم من النص إلا ما يرمى إليه فكره، ويمتد إليه عقله، وبمقدار هذا يتحكم فى النص ويحدد بيانه، وهذا أصل ملحوظ،

---

(١) المبادئ النصرية: ٢٦.
(٢) الإتقان ٢ / ٨٨.
(٣) الإتقان ٢ / ٨٨.
(٤) نفس المرجع السابق

نجد آثاره واضحة فى كتب التفسير على اختلافها، فما من كتاب منها إلا وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت تفسيره بطابع خاص لا يعسر علينا إدراكه.

غير أن هذا الطابع الشخصى الذى يطبع به التفسير إن ظهر لنا جليا واضحا فى كتب التفسير بالرأى، فإنا لا نكاد نجده لأول وهلة على هذا النحو من الوضوح والجلاء بالنسبة لكتب التفسير بالمأثور، ولكن نستطيع أن نتبيَّنه إذا ما قدرنا أن المتصدى لهذا التفسير النقلى إنما يجمع حول الآية من المرويات مايشعر أنها متجهة إليه، متعلقة به، فيقصد إلى ما يتبادر لذهنه من معناها، ثم تدفعه الفكرة العامة فيها إلى أن يصل بين الآية وما يروى حولها فى اطمئنان، وبهذا الاطمئنان، يتأثر نفسيا وعقليا، حينما يقبل مرويا ويعنى به، أو يرفض مرويا حين لا يرتاح إليه.

وكذلك راج بين المتقدمين - كما لاحظه ابن خلدون فى مقدمته - ما هم فى شوق إليه وتعلق به، من أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، وتفصيل الأحداث الكبرى فى تاريخ الإنسانية الأولى، نظراً لبداوتهم وأُمِّيتهم، وقلَّة المتداول بينهم منه، فكان من وراء ذلك كثرة الإسرائيليات، وليس من شك فى أن هذا صورة عقلية، وطابع شخصى لهذا العصر الأول (١) ، كما أنه صورة عقلية، وطابع شخصى لكل مَن يقبل هذه الإسرائيليات، ويُفسِّر بعض آيات القرآن على ضوئها.

ثم إننا بعد هذا نلحظ لوناً شخصياً آخر فى التفسير النقلى، ذلك أن الشخص الذى يعرف قيمة الرجال، ويستطيع أن ينقد السند، ويعرف أسباب الضعف فى الرواية، نرى تفسيره يُطبع بهذا الطابع الشخصى الخاص، فيتحرى الصحة فيما يرويه، فلا يدخل فى كتابه مروياً اعتراه الضعف أو تطرق إليه الخلل. أما الشخص الذى لا دراية له بأسباب الضعف فى الرواية، وليس عنده القدرة على نقد الرجال ونقد المروى عنهم فحاطب ليل، يجمع كل ما يُنقل له فى ذلك بدون أن يُفرِّق بين الصحيح وغيره.

وبعد... أفلا ترى أنه حتى فى رواج التفسير النقلى وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هى الملوِّنة له، المروِّجة لصنف منه، أظن أن نعم.

● **الضعف فى رواية التفسير المأثور وأسبابه :**

علمنا مما تقدَّم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسُّنَّة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين. أما تفسير القرآن بالقرآن. أو بما ثبت من السُّنَّة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف فى قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف. ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

---

(١) انظر التفسير.. معالم حياته... منهجه اليوم ص ٢٨.

وأما ما أضيف إلى النبى ﷺ وهو ضعيف فى سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبى ﷺ.

وأما تفسير القرآن بما يُروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرَّب إليه الخلل، وتطرَّق إليه الضعف، إلى حد كاد يُفقدنا الثقة بكل ما رُوِى من ذلك، لولا أن قيَّض الله لهذا التراث العظيم مَنْ أزاح عنه هذه الشكوك، فسلمتَ لنا منه كمية لا يُستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً فى كثير من الكتب التى عَنِىَ أصحابها بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروى من ذلك كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما - أكبر عامل فى صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح، حتى لقد نُقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلاَّ شبيه بمائة حديث» (١) . وهذا العدد الذى ذكره الشافعى، لا يكاد يُذكر بجوار ما رُوى عن ابن عباس من التفسير. وهذا يدل على مبلغ ما دخل فى التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة.

● **أسباب الضعف** :

ونستطيع أن نُرجِع أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إلى أُمور ثلاثة:

أولها : كثرة الوضع فى التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المجملة بالإيضاح والتفصيل، حتى يتبيَّن لنا مقدار ما كان لكل منها من الأثر فى فقدان الثقة بكثير من الروايات المأثورة فى التفسير.

أولاً : الوضع فى التفسير

● **نشأة الوضع فى التفسير** :

نشأ الوضع فى التفسير مع نشأته فى الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد فى الحديث: الصحيح والحسن والضعيف، وفى رواته مَنْ هو موثوق به، ومَنْ هو مشكوك فيه، ومَنْ عُرِف بالوضع، نجد مثل ذلك فيما رُوِىَ من التفسير، ومَنْ رَوى من المفسِّرين.

وكان مبدأ ظهور الوضع فى سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٩

سياسياً، وتفرَّقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ووُجِدَ من أهل البدع والأهواء مَنْ روَّجوا لبدعهم، وتعصبَّوا لأهوائهم، ودخل فى الإسلام مَن تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة، ورغباتهم الخبيثة.

● **أسبابه :**

ويرجع الوضع فى التفسير إلى أسباب متعددة: منها التعصب المذهبى، فإنَّ ما جَدَّ من افتراق الأُمة إلى شيعة تطرَّفوا فى حب عليّ، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العداء، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهم شيء من ابتداع التشيع أو الخروج، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيدها مذهبها بشيء من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبى ﷺ، وإلى عليّ وغيره من أهل البيت – رضى الله عنهم – أقوالاً كثيرة فى التفسير تشهد لمذهبهم. كما وضع الخوارج كثيراً من التفسير الذى يشهد لمذهبهم (١)، ونسبوه إلى النبى ﷺ أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبى ﷺ أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان فى التدليس، فإن نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولاً. لا يوجد شيء منهما عندما يُنسب المروى لغير النبى عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابى.

كذلك نجد اللون السياسى فى هذا العصر يترك له أثراً بَيِّناً فى وضع التفسير، ويُلاحَظ أن المروى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما فى التفسير أكثر مما وُضِع على غيرهما، والسبب فى ذلك أنَّ علياً وابن عباس رضي الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشيء مما يُنسب إلى غيرهما. وفوق هذا فقد كان لعليّ من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول فى التفسير ما يظنون أنه يُعلى من قدره، ويرفع من شأنه. وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوُجد من الناس مَنْ تزَلَّف إليهم، وتقرَّب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس، مما يدل على أن اللون السياسى كان له أثر ظاهر فى وضع التفسير.

كذلك نجد من أسباب الوضع فى التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسُّوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدس والوضع فى التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحُجَّة.

---

(١) وسيأتي شئ من ذلك عند الكلام عن تفسير الشيعة والخوارج.

● أثر الوضع فى التفسير :

وكان من وراء هذه الكثرة التى دخلت فى التفسير ودُسَّت عليه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذى خلَّفه لنا أعلام المفسِّرين من السَلَف، لأن ما أحاط به من شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرَّق إليها شىء من الضعف، وربما كانت صحيحة فى ذاتها.

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها، جعل بعض مَنْ ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما رُوِىَ بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما وَجَد من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسِّر واحد فيتهمه بالتناقض فى قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

يقول الأستاذ «جولدزيهر» فى كتابه «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» (ص ٧٨ - ٨٢) - ما نصه: «وإنه لمما يلفت النظر فى هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهى أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهى فى نفسها تظهر فى تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق».

ثم يسوق بعد ذلك مثالاً لهذا التضاد، فيذكر ما قام حول تعيين الذبيح من خلاف أسنده مثيروه إلى أقوال مأثورة عن السَلَف، ويذكر فى ضمن كلامه: «أن كل فريق يعتمد فى رأيه على إسناد متصل بابن عباس يدعم به رأيه، فالإسحاقيون عن عكرمة، والإسماعيليون عن الشعبى أو مجاهد، كل أُولئك سمعوا ذلك عن ابن عباس، وكلٌّ ادَّعى بأن هذا هو رأيه فى هذه المسألة..».

ثم يقول بعد كلام ساقه فى هذا الموضوع: «ويمكن أن يُرى من ذلك إلى أى حد يكون مقدار صحة الرأى المستند إلى ابن عباس، وإلى أى حد يمكن الاعتراف به. وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه، يمكن أن يُعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائماً إلى قائل واحد، معتمدة فى الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها...».

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما وقع فيه من اللعب والخداع: «ومن الملاحظات التى أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة: وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحدة تامة أو كياناً قائماً، فإنه قد تُروى عن الصحابة فى تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضاً من جهة، ومن جهة أخرى فقد تُنسب للصحابى الواحد فى معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يُعتبر التفسير الذى يخالف بعضه بعضاً، والمناقض بعضه بعضاً، مساوياً للتفسير بالعلم».

هذا ما حكم به الأستاذ «جولدزيهر» على التفسير بالمأثور فى كتابه، وكل ما قاله فى هذا الموضوع لا يعدو أن يكون محاولات فاشلة يريد من ورائها أن يُظهر أن ابن عباس خاصة، ومن تكلم فى التفسير من الصحابة عامة، بمظهر الشخص الذى يناقض نفسه فى الكلمة الواحدة أو الموضوع الواحد. كما يرمى من وراء ذلك إلى أن يصرف نظر المسلمين عن هذه الثروة الضخمة التى خلَّفها لهم السَلَف الصالح فى التفسير، زعماً أن هذا التناقض الموجود بين الروايات، نتيجة لاختلاف وجهات النظر من شخص واحد أو أشخاص، وتفسير هذا شأنه نحن فى حِلٍّ من التزامه، لأنهم قالوا بعقولهم، ونحن مشتركون معهم فى هذا القَدْر.

ونحن لا ننكر أن هناك اختلافاً بين السَلَف فى التفسير، كما لا ننكر أنَّ هناك اختلافاً بين قولين أو أقوال لشخص واحد منهم، ولكن هذا الاختلاف قلنا عنه فيما سبق مفصَّلاً: إن معظمه يرجع إلى اختلاف عبارة وتنوع، لا اختلاف تناقض وتضاد، فما كان من هذا القبيل، فالجمع بينه سهل ميسور، وما لم يمكن فيه الجمع، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدَّم إن استويا فى الصحة عنه، وإلا فالصحيح المقدَّم(١).

أما إذا تعارضت أقوال جماعة من الصحابة وتعذَّر الجمع أو الترجيح، فيُقدَّم ابن عباس على غيره، لأن النبى ﷺ بشَّره بذلك حيث قال: «اللَّهم علِّمه التأويل» وقد رجح الشافعى قول زيد فى الفرائض لحديث: «أفرضكم زيد» (٢).

وأما ما ساقه على سبيل المثال من اختلاف الرواية عن ابن عباس فى تعيين الذبيح، فقد رجعتُ إلى ابن جرير فى تفسيره، فوجدته قد ذكر عن ابن عباس هاتين الروايتين المختلفتين، وساق كل رواية منها بأسانيد تتصل إلى ابن عباس، بعضها يرفعه إلى الرسول ﷺ، وبعضها موقوف عليه.

وابن جرير - كما نعلم - لم يلتزم الصحة فى كل ما يرويه، ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدِّثين فى نقد الرواية والترجيح، لتبين لنا بكل وضوح وجلاء، أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل، أصح من غيرها وأرجح مما يخالفها، لأنها مؤيَّدة بأدلة كثيرة يطول ذكرها، وأيضاً فإن الرواية التى يذكرها ابن جرير عن ابن عباس مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق، فى سندها الحسن بن دينار عن علىّ بن زيد، والحسن بن دينار متروك، وعلىّ بن زيد منكر الحديث، كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣).

---

(١) الإتقان ٢ / ١٧٩. (٢) الإتقان: ٢ / ١٨٣. (٣) الجزء الرابع ص ١٧.

أما باقى الروايات الموقوفة على ابن عباس، والتى تفيد أن الذبيح هو إسحاق، فهى - وإن كانت صحيحة الأسانيد - محمولة على أن ما تضمنته من أن الذبيح هو إسحاق، كان رأى ابن عباس فى أول الأمر، لأنه سمع ذلك من بعض الصحابة الذين كانوا يحدِّثون فى مثل هذا بما سمعوه من كعب وغيره من مسلمى اليهود، ثم علم بعد: أن ذلك قول اليهود فرجع عنه وصرَّح بنقيضه، كما قال ابن جرير: «حدَّثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمر بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح، عن عبد الله ابن عباس أنه قال: المفدَّى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود»[1]، وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس، إسناده على شرط الصحيح، وهو كما ترى صريح فى تكذيب اليهود فيما زعموه، وهو يقضى على كل أثر بخلافه، وبهذا الطريق تنتظم الآثار الواردة عن ابن عباس فى هذا الباب. قال ابن كثير فى تفسيره (جـ ٤ ص١٧) بعد ما ساق الروايات فى أن الذبيح هو إسحاق: «وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يُحدِّث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضى الله عنه، فترخَّص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه، غثها وسمينها، وليس لهذه الأُمَّة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده».

وأما ما رمى إليه من جعل التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم، وادعاؤه أنه لا توجد له وحدة تامة أو كيان قائم، فهذا شطط منه فى الرأى، ولا يكاد يسلم له هذا المدَّعى، لأن المأثور الذى صح عن النبى ﷺ له مكانته وقيمته. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].. وأما ما صح عن الصحابة فغالبه مما تلقوه عن الرسول ﷺ، وقليل منه قالوه عن نظر منهم واجتهاد، وحتى هذا القليل - عندمَنْ لا يرى أن له حكم المرفوع - له أيضاً قيمته ومكانته، ولا يجوز العدول عنه إذا صح إلى غيره، لأنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختُصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح.

وبعد.. فهل يُعَد التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم؟ اللَّهم إن هذا لا يقوله منصف.

● قيمة التفسير الموضوع:

ثم إن هذا التفسير الموضوع، لو نظرنا إليه من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية، لأنه مهما كثر الوضع فى التفسير فإن الوضع ينصب على الرواية نفسها، أما التفسير فى حد ذاته فليس دائماً

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٣ / ٥٣.

أمراً خيالياً بعيداً عن الآية، وإنما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علمى له قيمته، فمثلاً مَنْ يضع فى التفسير شيئاً وينسبه إلى علىّ أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه، وإنما هو رأى له، واجتهاد منه فى تفسير الآية، بناء على تفكيره الشخصى، وكثيراً ما يكون صحيحاً، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولاً، فنسبه إلى مَنْ نُسب إليه من الصحابة. ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى علىّ أو ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية غالباً، وإنما الشىء الذى لا قيمة له فيه هو نسبته إلى علىّ أو ابن عباس.

فالموضوع من التفسير - والحق يقال - لم يكن مجرد خيال أو وهم خُلق خلقاً، بل له أساس ما، يهم الناظر فى التفسير درسه وبحثه، وله قيمته الذاتية وإن لم يكن له قيمته الإسنادية (١).

* * *

(١) انظر فجر الإسلام ص ٢٥١، وضحى الإسلام : ٢ / ١٤٣

ثانياً : الإسرائيليات

● تمهيـــد :

● بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن :

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنَّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ «الإسرائيليات»، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالَم ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

كان لليهود ثقافة دينية، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر فى التفسير إلى حد ما.

أما اليهود، فإن ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة التى أشار إليها القرآن بقوله: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ودلَّ على بعض ما جاء فيها من أحكام بقوله: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ [المائدة: ٤٥] .. وكثيراً ما يستعمل المسلمون واليهود أنفسهم لفظ «التوراة» ويطلقونه على كل الكتب المقدَّسة عند اليهود فيشمل الزبور وغيره. وتسمى التوراة بما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها: العهد القديم.

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى بطريق الكتابة، وإنما تحمَّلوها ونقلوها بطريق المشافهة. ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال، ثم دُوِّنت وعُرفت باسم التلمود، ووُجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى، والقصص، والتاريخ، والتشريع، والأساطير.

وأما النصارى فكانت ثقافتهم تعتمد – فى الغالب الأهم – على الإنجيل، وقد أشار القرآن إلى أنه من كتب السماء التى نزلت على الرسل فقال: ﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ** ﴾ [الحديد: ٢٧] وغير هذا كثير من آيات القرآن التى تشهد له بذلك.

والأناجيل المعتبرة عند النصارى يُطلق عليها وعلى ما انضم إليها من رسائل الرسل، اسم: العهد الجديد. والكتاب المقدّس لدى النصارى يشمل: التوراة والإنجيل ويُطلق عليه: العهد القديم والعهد الجديد.

وكان طبيعيا أن يُشرح الإنجيل بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعاً من منابع الثقافة النصرانية، كما وُجِدَ بجوار ذلك ما زاده النصارى من القصص، والأخبار، والتعاليم، التى زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية.

إذن.. فقد كانت التوراة المصدر الأول لثقافة اليهود الدينية، كما كان الإنجيل المصدر الأهم لثقافة النصارى الدينية.

وإذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وذلك على اختلاف فى الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلاً - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل، فتراه يقتصر على موضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها، كما أنه لا يذكر فى الغالب أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث. ويدخل فى تفاصيل الجزئيات، بل يتخيَّر من ذلك ما يمس جوهر الموضوع، وما يتعلق بموضع العبرة.

وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة، أو القرآن والإنجيل، ثم أخذنا موضوعاً منها، وقارنا بين ما جاء فى الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهراً جلياً.

فمثلاً قصة آدم عليه السلام، ورد ذكرها فى التوراة، كما وردت فى القرآن فى مواضع كثيرة، أطولها ما ورد فى سورة البقرة، وما ورد فى سورة الأعراف. وبالنظر فى هذه الآيات من السورتين، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة التى نُهىَ آدم وزوجه عن الأكل منها، ولا بيَّن الحيوان الذى تقمصه الشيطان فدخل الجَنة ليزل آدم وزوجه. كما لم يتعرَّض للبقعة التى هبط إليها آدم وزوجه وأقام بها بعد خروجهما من الجنة... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح.

ولكن نظرة واحدة يجيلها الإنسان فى التوراة يجد بعدها أنها قد تعرَّضت لكل ذلك وأكثر منه. فأبانت أن الجنة فى عدن شرقاً، وأن الشجرة التى نُهيا عنها كانت فى وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذى خاطب حواء هو الحيَّة، وذكرت ما انتقم الله به من الحيَّة التى تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى

على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هى ونسلها فى حبلها... إلى آخر ما ذُكر فيها مما يتعلق بهذه القصة (١).

ومثلاً نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت فى الإنجيل، فمن ذلك قصة عيسى ومريم، ومعجزات عيسى عليه السلام، كل ذلك جاء به القرآن فى أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة، فلم يتعرَّض القرآن لنسب عيسى مفصَّلاً، ولا لكيفية ولادته، ولا للمكان الذى وُلِدَ فيه، ولا لذكر الشخص الذى قُذفت به مريم، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء، ولا لحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياء الموتى..

مع أننا لو نظرنا فى الإنجيل لوجدناه قد تعرَّض لنسب عيسى، ولكيفية ولادة مريم له، ولذكر الشخص الذى قُذفت به مريم (٢)، ولنوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء (٣) ولحوادث جزئية من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى (٤)، ولكثير من مثل هذا التفصيل الموسَّع الذى أعرض عنه القرآن فلم يذكره لنا.

وبعد... فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز فى كتابهم، ويجدون بجانب ذلك تفصيلاً لهذا الإيجاز فى كتب الديانات الأخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضِّح لما فيه من غموض؟.. هذا ما نريد أن نعرض له فى هذا البحث، ليتبين لنا كيف دخلت الإسرائيليات فى التفسير، وكيف تطوَّر هذا الدخول، وإلى أى حد تأثر التفسير بالتعاليم اليهودية والنصرانية.

● **مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره:**

نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات فى التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة رضى الله عنهم، وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى ذكر بعض المسائل كما تقدَّم، مع فارق واحد، هو الإيجاز فى القرآن، والبسط والإطناب فى التوراة والإنجيل. وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابى إذا مَرَّ على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد مَن يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الدينى.

غير أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – لم يسألوا أهل الكتاب عن كل

---

(١) العهد القديم: الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ – ٥.
(٢) العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح الأول ص ١.
(٣) العهد الجديد، إنجيل مرقص، الإصحاح الثانى ص ٤٧.
(٤) إنجيل متى ص ٨، ١٠، ٤٠.

شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحاً للقصة وبياناً لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يُلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿آمنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [المائدة: ٥٩]» (١).

كما أنهم لم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللّهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشيء عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يُشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من اللهو والعبث، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذى ضُرب به القتيل من البقرة، ومقدار سفينة نوح، ونوع خشبها، واسم الغلام الذى قتله الخضر.. وغير ذلك، ولهذا قال الدهلوى بعد أن بيّن أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعني: «وكانت الصحابة رضى الله عنهم يعدون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات» (٢).

كذلك كان الصحابة لا يُصَدِّقون اليهود فيما يخالف الشريعة أو يتنافى مع العقيدة. بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ، رَدُّوا عليهم خطأهم. وبيَّنوا لهم وجه الصواب فيه، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه». وأشار بيده يقللها (٣).

فقد اختلف السَلَف فى تعيين هذه الساعة، وهل هى باقية أو رُفِعَت؟ وإذا كانت باقية، فهل هى فى جمعة واحدة من السنة أو فى كل جمعة منها؟ فنجد أبا هريرة رضى الله عنه يسأل كعب الأحبار عن ذلك، فيجيبه كعب: بأنها فى جمعة واحدة من السنة، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا ويبيِّن له: أنها فى كل جمعة، فيرجع كعب إلى التوراة، فيرى الصواب مع أبى هريرة فيرجع إليه (٤).

كما نجد أبا هريرة أيضاً يسأل عبد الله بن سلام عن تحديد هذه الساعة ويقول له: أخبرنى ولا تضن علىّ، فيجبيبه عبد الله بن سلام بأنها آخر ساعة فى يوم الجمعة، فيرد

---

(١) البخارى فى كتاب التفسير: ٨/ ١٢٠ من فتح البارى.
(٢) الفوز الكبير فى أصول التفسير ص ٣٥. (٣) البخارى فى باب الجمعة: ٢/ ١٣.
(٤) القسطلانى فى شرحه للحديث السابق: ٢/ ١٩٠.

عليه أبو هريرة بقوله: كيف تكون آخر ساعة فى يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يُصَلِّى» وتلك الساعة لا يُصَلَّى فيها؟، فيجيبه عبد الله ابن سلام بقوله: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَن جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يُصلِّى»؟... الحديث [١].

فمثل هذه المراجعة التى كانت بين أبى هريرة وكعب تارة، وبينه وبين ابن سلام تارة أخرى، تدلنا على أن الصحابة كانوا لا يقبلون كل ما يقال لهم، بل كانوا يتحرون الصواب ما استطاعوا، ويردُّون على أهل الكتاب أقوالهم إن كانت لا توافق وجه الصواب.

ومهما يكن من شىء فإن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يخرجوا عن دائرة الجواز التى حدَّها لهم رسول الله ﷺ وعما فهموه من الإباحة فى قوله ﷺ: «بلِّغوا عنى ولو آية، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرج، ومَن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [٢].

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أُنزل إلينا.. الآية» [٣] ولا تعارض بين هذين الحديثين، لأن الأول أباح لهم أن يُحَدَّثوا عما وقع لبنى إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوباً، لأن الرسول ﷺ لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح [٤] عند شرحه لهذا الحديث: «وقال الشافعى: من المعلوم أن النبى ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حَدِّثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوِّزونه فلا حرَج عليكم فى التحدث به عنهم. وهو نظير قوله: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدَّقوهم ولا تُكَذِّبوهم»، ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه».

وأما الحديث الثانى، فيُراد منه التوقف فيما يُحَدِّث به أهل الكتاب، مما يكون محتملاً للصدق والكذب، لأنه ربما كان صدقاً فيُكَذِّبونه، أو كذباً فيُصَدِّقونه، فيقعون بذلك فى الحَرَج. أما ما خالف شرعنا فنحن فى حِلٍّ من تكذيبه، وأما ما وافقه فنحن فى حِلٍّ من تصديقه.

---

(١) المرجع السابق، وسؤال أبى هريرة لابن سلام، عند مالك، وأبى داود، والترمذى.
(٢) البخارى: ٦/٣٢٩ من فتح البارى.
(٣) البخارى فى باب التفسير: ٨/١٣٠ من فتح البارى.
(٤) الجزء السادس ص ٣٢٠.

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: «لا تُصَدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم»: «أى: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدِّقوه، فتقعوا فى الحَرَج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه. نبَّه على ذلك الشافعى رحمه الله»...

ثم قال: «وعلى هذا نحمل ما جاء عن السَلَف من ذلك» (١).

وأما ما أخرجه الإمام أحمد، وابن أبى شيبة، والبزار، من حديث جابر بن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب فقال: «أمتهوكون (٢) فيها يابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فَتُكَذِّبوا به، أو بباطل فَتُصَدِّقوا به، والذى نفسى بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى»(٣) فلا يعارض ما قلناه من الجواز، لأن النهى الوارد هنا كان فى مبدأ الإسلام وقبل استقرار الأحكام. والإباحة بعد أن عُرفت الأحكام واستقرَّت، وذهب خوف الاختلاط.. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٤): «وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية خشية الفتنة، فلما زال المحذور وقع الإذن فى ذلك، لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار».

ويمكن أن ندفع ما يُتوهم من التعارض بما نقله ابن بطال عن المهلب أنه قال: «هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففى النظر والاستدلال غنىً عن سؤالهم، ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدِّقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة» (٥).

ومن هذا كله يتبين لنا: أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث الثلاثة، كما يتبين لنا المقدار الذى أباحه الشارع من الرواية عن أهل الكتاب.

ولسنا بعد ما فهمناه من هذه الأحاديث، وما عرفناه من حرص الصحابة على امتثال ما أمرهم به الرسول ﷺ، نستطيع أن نقر الأستاذ «جولدزيهر» والأستاذ أحمد أمين على هذا الاتهام الذى وجَّهاه إلى ابن عباس خاصة، وإلى الصحابة عامة، من رجوعهم إلى أهل الكتاب فى كل شيء، وقبولهم لما نهى الرسول عن أخذه من أهل الكتاب، وقد ذكرنا كلامهما ورددنا عليه عند الكلام عن ابن عباس، كما ذكرنا الأثر الذي

---

(١) فتح البارى: ٨/ ١٢٠.
(٢) المتهوك: المتحير.
(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٣٨٧.
(٤) الجزء السادس ص ٣٢٠.
(٥) فتح البارى: ١٣/ ٢٥٩.

أخرجه البخارى عن ابن عباس، وفيه يُشدِّد - رضى الله عنه - النكير على مَن يأخذون من أهل الكتاب ويُصدِّقونهم فى كل شيء، فهل يُعقل بعد هذا، وبعد ما عرفناه من عدالة الصحابة وحرصهم على امتثال أوامر الله ورسوله، ومراجعة أبى هريرة لكعب الأحبار وعبد الله بن سلام، أن نعترف بتهاون الصحابة ومخالفتهم لتعاليم رسول الله ﷺ !! ؟ اللّهم إنَّا لا نقر ذلك ولا نرضاه.

وأما ما ذكره الأستاذ «جولدزيهر»: من أن ابن عباس كان يرجع لرجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى فى تفسير القرآن (١) ، فعلى فرض صحة ذلك. فإنَّا لا نكاد نُصدِّق أن ابن عباس كان يرجع إليه فى كل شيء، بل كان يرجع إليه فيسأله عن أشياء لا تعدو دائرة الجواز، وليس من شك فى ذلك بعد ما عرفتَ من شدة نكير ابن عباس على مَن كان يرجع لأهل الكتاب ويأخذ عنهم.

وأما ما اعتمد عليه هذا المستشرق فى دعواه هذه، من أن الطبرى عند تفسيره للفظ «البرق» فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] .. نسب إلى ابن عباس أنه قال: إنَّ أبا الجلد يقول: إن معناه المطر (٢) فهو اعتماد لا يكاد ينهض بهذه الدعوى، لأن ما رواه ابن جرير رواه عن المثنى، قال: حدَّثنا حجاج، قال: حدَّثنا حماد، قال: أخبرنا موسى بن سالم أبو جهضم مولى ابن عباس قال: كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن البرق فقال: البرق: الماء» (٣) وهذا إسناد منقطع، لأن موسى بن سالم أبا جهضم لم يدرك ابن عباس، ولم يكن مولى له، وإنما كان مولى العباسيين، وروى عن أبى جعفر الباقر الذى كان بعد ابن عباس بمدة طويلة (٤) ولعل ما قاله ابن جرير من أنه مولى ابن عباس سهو منه، أو لعله خطأ وقع أثناء الطبع.

ثم إنَّ سؤال ابن عباس عن معنى البرق، ليس سؤالاً عن أمر يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، وإنما هو سؤال يرجع إلى تعرف بعض ظواهر الكون الطبيعية، وليس فى هذا ما يجر إلى مخالفة الرسول ﷺ فى نهيه عن سؤال أهل الكتاب. على أن الحديث ليس فيه ما يدل على أن ابن عباس صدَّق أبا الجلد فيما قال، وكل ما فيه: أنه حكى قوله فى البرق.

وأما ما نُسب لعبد الله بن عمرو بن العاص من أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يُحَدِّث منهما، فليس على إطلاقه، بل كان يُحَدِّث منهما فى

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥.
(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ (هامش).
(٣) تفسير ابن جرير: ١٢ / ٨٢.
(٤) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٣٤، وميزان الاعتدال: ٣ / ٢١٠.

حدود ما فهمه من الإذن فى قوله ﷺ: « حَدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج » كما نص على ذلك ابن تيمية [١] .

هذا هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم. أما التابعون فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى، فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء: مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٠هـ) الذى نسبه أبوحاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما فى كتبهم [٢] ،بل ونجد بعض المفسرين فى هذا العصر – عصر التابعين – يصل بهم الأمر إلى أن يصلوا بين القرآن وما يتعلق بالإسلام فى مستقبله، فيشرحوا القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل، والتنبؤ بما يطويه الغيب، فهذا مقاتل بن سليمان، كان يرى أن قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴾ [الإسراء:٥٨] يرجع إلى فتح القسطنطينية، وتدمير الأندلس وغيرها من البلاد، فقد جاء عنه أنه قال: وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها: « أما مكة فتخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فهلاكها ضروب.. ثم ذكر بلدا بلدا [٣] . وروى عن وهب بن منبه: أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر، ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة، فإذا كانت الملحمة الكبرى، فتحت قسطنطنية على يد رجل من بنى هاشم، وخراب الأندلس من قبل الزنج، وخراب إفريقية من قبل الأندلس، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها، وخراب العراق من الجوع. وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم من الشراب من الفرات، وخراب البصرة من قبل الغراق(الغرق) ، وخراب الأيلة من عدو يحصرهم برا وبحرا، وخراب الرى من الديلم، وخراب خرسان من قبل التبت، وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان، وخراب مكة من قبل الحبشة، وخراب المدينة من قبل الجوع » [٤] .

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات، وأفرط فى الأخذ منها إلى

---

(١) مقدمته فى أصول التفسير ص ٢٦ .
(٢) وفيات الأعيان: ٢ /٥٦٨ .
(٣) تفسير الألوسى:٢ /٩٣ .
(٤) المرجع السابق .

درجة جعلتهم لا يردون قولا. ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره العقل!!. واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات، والولع بنقل هذه الأخبار التى أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلى، الذى كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها.

- **مقالة ابن خلدون فى الإسرائيليات:**

ونرى بعد هذا أن نذكر عبارة ابن خلدون فى مقدمته، ليتبين لنا أسباب الاستكثار من هذه المرويات الإسرائيلية، وكيف تسربت إلى المسلمين، فإنه خير من كتب فى هذا الموضوع، وإليك نص عبارته:

قال رحمه الله: «.... وقد جمع المتقدمون فى ذلك - يعنى التفسير النقلى - وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم. وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من «حمير» الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك وهؤلاء مثل: كعب الأخبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة الى يجب بها العمل، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها - كما قلنا - عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بَعُد صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة.، فتلقيت بالقبول من يومئذ ...»(١)

ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ - ٤٩١.

وعد من الاعتبارات الدينية التى سوغت لهم تلقى المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة «أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل».

وسواء أكانت هذه هى كل الأسباب أم كانت هناك أسباب أخرى، فإن كثيرا من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر، حتى أصبح ما فيها مزيجا متنوعا من مخلفات الأديان المختلفة، والمذاهب المتباينة.

● أثر الإسرائيليات فى التفسير:

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سئ فى التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئا مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد . وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح ، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا تكاد يصح شئ منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة .وسوف نعرض لهذا فيما بعد، ونرد عليه إن شاء الله تعالى .

● قيمة ما يروى من الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهى ما يأتى:

القسم الأول: ما يعلم صحته بأن نُقل عن النبى ﷺ نقلا صحيحا وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحا على لسان رسول الله ﷺ كما عند البخارى (١) أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثانى: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا . . .» الآية.

---

(١) باب التفسير: ٨/٢٩٧ من فتح البارى.

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر دينى، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا اختلافا كثيرا، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، ،وعصا موسى من أى الشجر كانت، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . . إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن ولا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم .

ثم إذا جاء شئ من هذا القبيل – أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده – عن أحد من الصحابة (١) بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى رسول الله ﷺ عن تصديقهم . وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابى قد سمعه من النبى ﷺ أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم .

أما إن جاء شئ من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا بكذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب، لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله ﷺ وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه . فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به . والله أعلم .(٢)

● **موقف المفسِّر إزاء هذه الإسرائيليات :**

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرها، كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم :«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» قاعدة مقررة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال، وبعد هذا وذاك نقول : إنه يجب على المفسر أن يكون يقظا إلى أبعد حدود اليقظة، ناقدا إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل،كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سنة نبينا ﷺ بيان لمجمل القرآن، فمثلا حيث وجد لقوله

---

(١) ومرادنا من الصحابى، الصحابى الذى لم يكن قبل إسلامه من أهل الكتاب .

(٢) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصوال التفسير ص ١٣ – ١٤ وص ٢٦ – ٢٧ .

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] مجمل فى السنة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك «إن شاء الله» والمؤاخذة عليه[١] فلا يرتكب قصة صخر المارد[٢].

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدر بقدر الحاجة، فلا يذكر فى تفسيره شيئا من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال، ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة.

نعم.. إذا اختلف المتقدمون فى شئ من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعا، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وليس

---

(١) القصة عند البخارى في باب الجهاد (٤ / ٢٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة – أو تسع وتسعين – كلهن يأتى بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذى نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون.

(٢) هذه القصة رواها ابن جرير في تفسيره عن قتادة ونصها: أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس فقيل له: ابنه ولا يُسمع فيه صوت حديد، قال:فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له صخر شبه المارد قال: فطلبه وكانت عين في البحر يردها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها، وجعل فيها خمر، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا، قال: ثم رجع حتى عطش عطشا شديدا ، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلا ، قال: ثم شربها حتى غلبت علي عقله قال: فأرى الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل، قال: فكان ملكه في خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد، قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة،فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يري بيضه ولا يقدر عليه، فجاء بالماس فوضعه عليه فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخله بخاتمه، فانطلق يوما إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه، قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر فالتقمته سمكة ، ونزع ملك سليمان منه، وألقي على الشيطان شبه سليمان، قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه، قال: فجعل يقضي بينهم وجعلوا ينكرون منه أشياء حتي قالوا: لقد فتن نبى الله ، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجربنه، قال : فقال له: يا نبى الله – وهو لا يري إلا أنه نبى الله – أحدنا نصيبه الجنابه فى الليلة الباردة فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأسا قال: لا فبينا هو كذلك أربعين ليلة، حتي وجد نبى الله خاتمه في بطن سمكة فأقبل. فجعل لايستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتي انتهى إليهم ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا** ﴾ قال: هو الشيطان صخر» (الجزء ٢٣ ص ١٠١).

له أن يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، لأن مثل هذا العمل يعد ناقصا لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل، ووضع أمام القارئ من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب.

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفا عن القرآن، وشاغلا عن التدبر فى حكمه وأحكامه، وبدهى أن هذا أحكم وأسلم.

هذا ... وقد يشير إلى ما قلناه من جواز نقل الخلاف عن المتقدمين على شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها وتصحيح الصحيح، وأن من الخير أن يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته، وما جاء في هذه الآية: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٢].. فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - كما يقول ابن تيمية - على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم** ﴾ .. فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿ **فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا** ﴾ .. أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب» . (١)

- **أقطاب الروايات الإسرائيلية:**

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور. فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيليات، يكاد يدور على أربعة أشخاص، هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.. وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس فى الحكم عليهم والثقة بهم، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت فى الرواية ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم، لأكشف عن قيمته فى باب الرواية، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير، لنرى أى الفريقين أصدق فى حكمه، وأدق فى نقده.

١ - عبد الله بن سلام

- **ترجمته:**

هو أبو يوسف، عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى الأنصارى، حليف بنى عوف من

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٧ .

الخـزرج، وهـو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة. ويحدثنا البخارى عن قصة إسلامه فيقول فى ضمن حديث ساقه فى باب الهجرة: « ... فلما جاء نبى الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق، وقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فى، فأرسل نبى الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا معشر اليهود، ويلكم، أتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى جئتكم بحق فأسلموا »قالوا: ما نعلمه، قالوا: للنبي ﷺ قالها ثلاث مرات، قال: « فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام » قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا،قال: « أفرأيتم إن أسلم »؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال: « أفرأيتم إن أسلم » قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: آفرأيتم إن اسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم قال: « يا بن سلام.. اخرج عليهم » ، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ (١).

قيل: وكان اسمه الحصين، فسماه النبى ﷺ « عبد الله » وشهد له بالجنة. ونجد البخارى رضى الله عنه - عند الكلام عن مناقب الأنصار - يفرد لعبد الله بن سلام بابا مستقلا فى مناقبه، فروى فيما روى من ذلك بإسناده إلى سعد بن أبى وقاص أنه قال: ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشي علي الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وقال: فيه نزلت هذه الآية: ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الأحقاف: ١٠] (٢).

ومما يذكر عنه رحمه الله: أنه وقف خطيبا فى المتألبين على عثمان رضى الله عنه يدافع عنه ، ويخذّل الثائرين، فقد روى عبد الملك بن عمير عن ابن أخى عبد الله بن سلام، قال: « لما أريد قتل عثمان رضى الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت فى نصرك، قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارج خير لي منك داخل، فخرج عبد الله إلي الناس فقال: يا أيها الناس، إنه كان اسمى فى الجاهلية فلانا، فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فى آيات من كتاب الله عز وجل و نزل فيَّ ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾.. ونزل فى ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾[الرعد:٤٣].. إن لله سيفا مغمودا، وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله ﷺ فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم من الملائكة وليسلّن سيف الله المغمود فيكم فلا يغمد إلى يوم القيامة. قالوا: اقتلوا اليهودى.. وقتلوا عثمان » ..

---

(١) البخارى فى باب الهجرة: ٥ /٦٣ .

(٢) البخارى: ٥ /٣٧ .

روى عن النبى ﷺ، وروى عنه ابناه: يوسف ومحمد، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بردة بن أبى موسى. وعطاء بن يسار، وغيرهم وشهد مع عمر رضى الله عنه فتح بيت المقدس والجابية. ومات بالمدينة سنة ٤٣ هـ (ثلاث وأربعين من الهجرة) وقيل: غير ذلك. وقد عده بعضهم فى البدريين ، أما ابن سعد فذكره فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق وما بعده.

● **مبلغه من العلم والعدالة:**

أما مبلغه من العلم فيكفى ما جاء فى حديث البخارى السابق من إخباره عن نفسه: أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم، وإقرار اليهود بين يدى رسول الله ﷺ بذلك. والحق أنه اشتهر بين الصحابة بالعلم، حتى لقد روى أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسونى... قال: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط: عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله ابن سلام الذى كان يهوديا فأسلم، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عاشر عشرة فى الجنة».

وليس عجيبا أن يكون عبد الله بن سلام فى هذه المكانة العالية من العلم بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان اليهودية ، والإسلامية،ولقد نقل عنه المسلمون كثيرا مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها، ونجد ابن جرير والطبرى ينسب إليه فى تاريخه كثيرا من الأقوال فى المسائل التاريخية الدينية، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية، يرويها كثير من المفسِّرين فى كتبهم.

ونحن أمام ما يروى عنه من ذلك لا نزيِّف كل ما قيل، ولا نقبل كل ما قيل، بل علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر فى باب الرواية، فما صح قبلناه، وما لم يصح رفضناه.

هذا... وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل فى علمه ، ولا فى ثقته وعدالته، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم، وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن، وبعد أن اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التى بين أيدينا من طعن عليه فى علمه، أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه.(١)

٢ ـ كعب الأحبار

● **ترجمته:**

هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأحبار، من آل ذى رعين، وقيل: من ذى الكلاع، وأصله من يهود اليمن، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم فى خلافة أبى بكر، وقيل: فى خلافة عمر، وقيل: إنه أَسلم فى عهد النبى ﷺ وتأخرت هجرته، وقال ابن حجر فى الفتح: إن إسلامه فى خلافة عمر أشهر،وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة ، وغزا

---

(١) انظر تهذيب التهذيب: ٥/٢٤٩، وأُسد الغابة: ٣/١٧٦-١٧٧.

الروم فى خلافة عمر، ثم تحول فى خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢ هـ (اثنين وثلاثين من الهجرة) على أرجح الأقوال فى ذلك. وذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام وقال: كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفى بها سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان، وقد بلغ مائة وأربعين سنة. وقال أبو مسهر: والذى حدثنى به غير واحد: أنه كان مسكنه اليمن، فقدم على أبى بكر، ثم أتى الشام فمات به. روى عن رسول الله ﷺ مرسلا، وعن عمر وصهيب، وعائشة، وروي عنه معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم.

● مبلغه من العلم:

كان كعب بن ماتع علي مبلغ عظيم من العلم، ولهذا كان يقال له: «كعب الحبر»، «وكعب الأحبار»، ولقد نقل عنه فى التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية، ولم يؤثر عنه أنه ألف كما ألف وهب بن منبه، بل كانت تعاليمه كلها - على ما يظهر لنا وما وصل إلينا - شفوية تناقلها عنه أصحابه ومن أخذوا عنه، وقد جاء فى الطبقات الكبرى حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن قيس جالس إلي كتب وبينها سِفْر من أسفار التوراة وكعب يقرأ [1] وهذا يدلنا على أن كعبا كان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية. وقال ابن سعد: قالوا: ذكر أبو الدرداء كعبا فقال: إن عند ابن الحميرى لعلما كثيرا. وروي معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير أنه قال: قال معاوية: ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء ألا إن عمرو بن العاص أحد الحكماء ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، أن كان عنده علم كالثمار وإن كنا لمفرطين. وفي تاريخ محمد بن عثمان بن أبى شيبة، من طريق ابن أبي ذئب، أن عبد الله بن الزبير قال: ما أصبت فى سلطانى شيئا إلا قد أخبرنى به كعب قبل أن يقع. [2]

● ثقته وعدالته:

أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس، فابن عباس على جلالة قدره، وأبو هريرة على مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويزوون له، ونرى الإمام مسلما يخرج له فى صحيحه، فقد وقعت الرواية عنه في مواضع من صحيحه في أواخر كتاب الإيمان، كما نري أبا داود والترمذى والنسائى يخرِّجون له، وهذا دليل على أن كعبا كان ثقة عند هؤلاء جميعا، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل.

---

(١) فجر الإسلام ص ١٩٨ نقلا من طبقات ابن سعد: ٧/ ٧٩ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٣٨ - ٤٤٠ .

● اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب:

ولكننا نجد الأستاذ أحمد أمين – رحمه الله – يحاول أن يغض من ثقة كعب وعدالته، بل ودينه، فنراه يوجه إليه من التهم ما نعيذ كعبا من أن يلحقه شئ منها، وذلك حيث يقول: «وقد لاحظ بعض الباحثين، أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووى لا يروى عنه أبدا، وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلا، ولكن غيرهم كالثعلبى، والكسائى ينقل عنه كثيرا فى قصص الأنبياء، كقصة يوسف، والوليد بن الريان، وأشباه ذلك، ويروى ابن جرير أنه جاء إلي عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له: اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجلّ .. فى التوراة قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة: قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك».

ثم قال الأستاذ أحمد أمين: «وهذه القصة إن صحت دلت علي وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل».

ثم قال: «وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم – يريد كعبا ووهبا وغيرهما من أهل الكتاب – فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح» (١)

● تفنيد هذا الاتهام:

ونحن مع الأستاذ فى قوله: «وهذه القصة، إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية» ولكن لسنا نعتقد صحة هذه الصة، ورواية ابن جرير لها لا تدل علي صحتها، لأن ابن جرير – كما هو معروف عنه – لم يلتزم الصحة في كل ما يرويه، والذى ينظر فى تفسيره يجد فيه مما لا يصح شيئا كثيرا كما أن ما يرويه فى تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التي تحتمل الصدق والكذب، ولم يقل أحد بأن كل ما يذكر في كتب التاريخ ثابت صحيح.

ثم إن ما يُعرف عن كعب الأحبار من دينه، وخلقه، وأمانته، وتوثيق أكثر أصحاب الصحاح له، يجعلنا نحكم بأن هذه القصة موضوعة عليه، ونحن ننزه كعبا عن أن يكون على علم بمكيدة قتل عمر وما دُبر من أمرها ثم لا يذكر لعمر من يُدبر له القتل ويكيد له، كما ننزهه عن أن يكون كذابا وضاعا، يحتال على تأكيد ما يخبر به بنسبته إلى التوراة وصوغه فى قالب إسرائيلي.

وأما قوله: «وعلى الجملة فقد دخل علي المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم

---

(١) فجر الإسلام ص ١٩٨.

وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح » فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السئ إلي كعب وأضرابه فنحن لا نوافقه عليه ، لأن ما يرويه كعب وغيره من أهل الكتاب لم يسندوه إلي رسول الله ﷺ ، ولم يكذبوا فيه علي أحد من المسلمين، وإنما كانوا يروونه علي أنه من الإسرائيليات الموجودة فى كتبهم ، ولسنا مكلفين بتصديق شئ من ذلك، ولا مطالبين بالإيمان به، بعد ما قال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » .

وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب وغيره، قد أثرت فى عقيدة المسلمين وعلمهم أثرا غير صالح ، فليس ذنب هذا راجعا إلى كعب وأضرابه، لأنهم رووه علي أنه مما فى كتبهم، ولم يشرحوا به القرآن – اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له – ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات فربطوا بينها وبينه على ما بينهما من بعد شاسع، بل وزادوا علي ذلك ما نسجوه من قصص خرافية، نسبوها لهؤلاء الأعلام، ترويجا لها وتمويها علي العامة.

فالذنب إذن ذنب المتأخرين الذين ربطوا هذه الإسرائيليات بالقرآن وشرحوه على ضوئها، واخترعوا من الأساطير ما نسبوه زورا وبهتانا إلى هؤلاء الأعلام وهم منه براء.

● **اتهام الشيخ رشيد رضا لكعب:**

كذلك نجد السيد محمد رشيد رضا – رحمه الله – في مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلاما لابن تيمية فى شأن ما يروي من الإسرائيليات عن كعب ووهب يقول ما نصه: « فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق – يريد ابن تيمية – جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات . وهذا فى غير ما يقوم الدليل علي بطلانه في نفسه،وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما، فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شئ منه ولا حوّمت حوله » (١)

● **تفنيد هذا الاتهام:**

ونحن لا ننكر ما ذهب إليه ابن تيمية فى مقدمة أصول التفسير التى اعتمد عليها الشيخ فيما نقل عنه، ولكن ننكر علي الشيخ فهمه لعبارة ابن تيمية ، وذلك أنه ادعي أن ابن تيمية جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات، وهذا فى غير ما يقوم الدليل علي بطلانه في نفسه – يعنى أنه لا يتوقف فيه بل يرفض رفضا باتـــا .

وعبارة ابن تيمية التي ذكرها الشيخ لا تفيد ذلك الذي قاله وإنما تفيد أن ما جاء

(١) تفسير المنار: ١ / ٩ .

عن رواة الإسرائيليات يتوقف فيه إذا كان مما هو مسكوت عنه فى شرعنا ولم يقم دليل علي بطلانه، أما ما روى عنهم موافقا لما جاء فى شرعنا فهذا صحيح مقبول بدون توقف، كما نص عليه ابن تيمية (في ص ٢٦، ٢٧) من مقدمة في أصول التفسير، وهو عين ما عناه بعبارته الموجودة (في ص١٣، ١٤) ،وهي التي اعتمد عليها السيد محمد رشيد فى طعنه علي كعب وغيره.

كما أننا لا نقر الشيخ على هذا الاتهام البليغ لكعب ووهب، ولا على رميهما بالكذب، ولا على ادعاء عزوهما إلى التوراة وغيرها ما ليس فيها، كما أنا لا نقره على اتهامه لعلماء الجرح والتعديل الذين طهروا لنا السنة، وأزاحوا عنها ما لصق بها من الموضوعات، وبينوا لنا الصحيح والعليل منها والعدل والمجروح من رواتها، حيث رماهم بالغفلة والاغترار، وهم أهل هذا الفن الذي لا يصلح له إلا قليل من الناس، ولا ندرى ما هذا الكذب الذي تبين له من كعب ووهب وخفى على ابن تيمية وهو من نعلم علما ومعرفة، وليت الشيخ – رحمه الله – بين لنا ما يستند إليه فى دعواه، ولا أظن إلا أنه استند إلى ما جاء عن معاوية رضى الله عنه عند البخارى فى شأن كعب، وهذا نصه كما فى صحيح البخاري.

قال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: «إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب» . (١)

نعم أظن أن الشيخ – رحمه الله – اتهم كعبا وأضرابه بالكذب استنادا لهذا الأثر المروى عن معاوية، والذى رجح لدى هذا الظن ما قاله الشيخ بعد كلامه السابق بقليل: «وقد علم أن بعض الصحابة رووا عن أهل الكتاب حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال: إن كنا لنبلوا عليه الكذب.. ومنهم أبو هريرة وابن عباس» (٢) .

وأرى أن الشيخ قد فند قول نفسه بنفسه حيث أثبت – كما هو الواقع – أن أبا هريرة وابن عباس وغيرهما من الصحابة أخذوا عن كعب، وهل يعقل أن صحابيا يأخذ علمه عن كذاب وضاع، بعد ما عُرف عن الصحابة من العدالة والتثبت فى تحمل الأخبار، خصوصا ابن عباس الذى كان يتشدد فى الرواية ويتأكد من صحة ما يُروى لـــــه؟

نعم... إن حديث البخارى الذى رواه عن معاوية، يُشعر لأول وهلة بنسبة

---

(١) البخارى: كتاب التوحيد : ١٣/ ٢٥٩ من فتح البارى. (٢) تفسير المنار:١/ ١٠ .

الكذب إلى كعب، ولكن لو رجعنا إلى شراح الحديث لوجدناهم جميعا يشرحونه بما يبعد هذه الوصمة الشنيعة عن كعب الأحبار، وإليك بعض ما قيل فى ذلك:

قال ابن حجر فى الفتح عند قوله: «وإن كنا لنبلوا عليه الكذب» - أي يقع بعض ما يخبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به، قال ابن التين: وهذا نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور: بدَّل من قبله فوقع في الكذب، قال: والمراد بالمحدثين - فى قوله: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب - أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر فى كتبهم فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب، إلا أن كعبا كان أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه.

وقال ابن حبان فى كتاب الثقات: أراد معاوية أنه يخطئ أحيانا فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذابا. وقال غيره: الضمير فى قوله: «لنبلوا عليه» للكتاب لا لكعب، وإنما يقع فى كتابهم الكذب لكونهم بَدَّلوه وحَرَّفوه. وقال عياض: يصح عوده على الكتاب، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وإن لم يقصد الكذب ويتعمده، إذ لا يُشترط فى مسمى الكذب التعمد، بل هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب. وقال ابن الجوزى: المعنى أن بعض الذى يُخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً، لا أنه يتعمد الكذب، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار»(١).

هذه هى الأقوال التى سردها لنا الحافظ ابن حجر، ونحن نميل إلى القول بأن كعباً كان يروى ما يرويه على أنه صحيح لم يُبدَّل ولم يُحرَّف، فهو لم يتعمد كذباً ولا يُنسب إلى كذب، وإن كان ما يرويه كذباً فى حد ذاته، خفى عليه كما خفى على غيره. ولهذا التحريف والتبديل. نهى رسول الله ﷺ عن تصديق أهل الكتاب وعن تكذيبهم فيما يروونه من ذلك، لأنه ربما كان صدقاً فيُكذِّبونه أو كذباً فيُصدِّقونه فيقعون فى الحَرَج.

ثم إن معاوية الذى قال هذا القول، روينا عنه فيما سبق أنه قال: «ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء إن كان عنده علم كالثمار(٢) وإن كنا لمفرطين»، فمعاوية قد شهد لكعب بالعلم وغزارته، وحكم على نفسه بأنه فرَّط فى علم كعب، فهل يُعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذَّاب؟، وهل يُعقل أنه يتحسر ويتندم على ما فاته من علم رجل يُدلِّس فى كتب الله ويُحرِّف فى وحى السماء؟.. اللَّهم إنى

---

(١) فتح البارى: ١٣/٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) وفى رواية: كالبحار.

لا أعقل ذلك، ولا أقول إلا أنَّ كعباً عالِم له مكانته، وثقة له قيمته، وعدل له منزلته وشهرته..

٣ - وهب بن مُنَبِّه

● **ترجمته:**

هو أبو عبد الله، وهب بن منبِّه بن سيج بن ذى كناز، اليمانى الصنعانى، صاحب القصص، من خيار علماء التابعين. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: كان من أبناء فارس، وأصل والده «منبِّه» من خراسان من أهل هراة، أخرجه كسرى منها إلى اليمن فأسلم فى عهد النبى ﷺ، وكان وهب بن منبِّه يختلف إلى هراة ويتفقد أمرها، وقيل: إنه تولى قضاء صنعاء. قال إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن الهروى: ولد سنة ٣٤ هـ (أربع وثلاثين) فى خلافة عثمان، وقال ابن سعد وجماعة: مات سنة ١١٠ هـ (عشرة ومائة)، وقيل غير ذلك.

روى عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وجابر، وأنس، وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبد الله وعبد الرحمن، وعمر بن دينار، وغيرهم. وأخرج له البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وأبو داود.

● **مبلغه من العلم والعدالة:**

كان وهب بن منبِّه واسع العلم، كثير الاطلاع على الكتب القديمة، محيطاً بأخبار كثيرة وقصص يتعلق بأخبار الأُوَل ومبدأ العالم، ومما يؤثر عنه أنه ألَّف كتاباً فى المغازى (١)، ويحدِّثنا ابن خلكان: أنه رأى لوهب بن منبِّه تصنيفاً ترجمه بذكر الملوك المتوَّجة من حِميَر، وأخبارهم، وقصصهم، وقبورهم وأشعارهم، فى مجلد واحد، قال: وهو من الكتب المفيدة (٢).

وقال أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق عن أبيه: حج عامة الفقهاء سنة مائة فحج وهب، فلما صلوا العشاء أتاه نفر فيهم عطاء والحسن، وهم يريدون أن يتذاكروا القَدَر، قال: فأمعن فى باب الحمد، فما زال فيه حتى طلع الفجر، فافترقوا ولم يسألوه عن شىء، قال أحمد: وكان يُتهم بشىء من القَدَر ثم رجع، وقال حماد بن سلمة عن أبى سنان: سمعت وهب بن منبِّه يقول: كنت أقول بالقَدَر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء فى كلها: «مَن جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر» فتركت قولى. وقال الجوزجانى: كان وهب كتب كتاباً فى القَدَر ثم حدث أنه ندم عليه.

فأنت ترى من بين هذه الأخبار أن وهباً كان على ناحية عظيمة من المعرفة بالكتب

---

(١) فجر الإسلام ص ١٩٤.
(٢) وفيات الأعيان: ٢ / ١٨٠.

الإلهية القديمة، كما ترى أنه لم يثبت على رأيه وعقيدته في القَدَر، بل تركها بعد ما تبين له الحق، وندم على ما كان منه بعد أن ظهر له الصواب، وبعد رجوعه عن رأيه لا يصح أن نطعن عليه من هذه الناحية، ولقد كان وهب يرى من نفسه أنه قد جمع علم ابن سلام وعلم كعب، ويحدِّث هو بذلك عن نفسه فيقول: يقولون: عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيتَ مَن جمع علمهما؟ – يريد نفسه.

● **مطاعن بعض الناس عليه :**

ومع تلك المنزلة العالية التى كان عليها وهب، طعن عليه بعض الناس كما طُعِنَ على كعب، ورموه بالكذب والتدليس وإفساد عقول بعض المسلمين وعقائدهم، وقد سمعتَ مقالة السيد محمد رشيد رضا فيه وفى كعب، وسمعتَ الرد عليه، كما سمعتَ مقالة الأستاذ أحمد أمين وما تعقبناه به.

● **رأينا فيه وشهادات الموثِّقين له :**

وأنا وإن كنت لا أنكر أن صاحبنا أكثرَ من الإسرائيليات، وقصَّ كثيراً من القصص إلا أنى لا أتهمه بشيء من الكذب، ولا أنسب إليه إفساد العقول والعقائد، ولا أُحَمله تبعة ذلك، لأن القوم هم الذين أفسدوا بإدخالهم فى التفسير ما لا صلة له به، وبالوضع عليه وعلى غيره ترويجاً للموضوع كما سبق.

ولو أنَّا رجعنا إلى ما قاله العلماء النُقَّاد فى شأن وهب لتبين لنا أنه رجل منزَّه عما رُمِى به، مبرأ من كل ما يخدش عدالته وصدقه. قال الذهبى: كان ثقة صادقاً، كثير النقل من كتب الإسرائيليات. وقال العجلى: ثقة تابعى، كان على قضاء صنعاء، وقال ابن حجر: وهب بن منبِّه الصنعانى من التابعين، وثَّقة الجمهور، وشذَّ الفلاس فقال: كان ضعيفاً، وكان شبهته فى ذلك أنه كان يُتهم بالقول فى القَدَر. وقال أبو زرعة والنسائى: ثقة. وذكره ابن حبان فى الثقات. والبخارى نفسه يعتمد عليه ويُوَثِّقه، ونرى له فى البخارى حديثاً واحداً عن أخيه همام عن أبى هريرة فى كتابة الحديث(١)، وتابعه عليه معمر عن همام، ولهمام هذا عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها في الصحاح، رواها عنه معمر ويحدِّثنا مثنى بن الصباح. أن وهباً لبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً.. وغير هذا كثير مما شهد لعدالة الرجل وحسن إيمانه.

ونحن أمام توثيق الجمهور له، واعتماد البخارى وغيره لحديثه، وما ثبت عنه من الورع والصلاح، لا نقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه، ومظلوم هو وكعب من

---

(١) البخارى: ١/ ٣٤.

أولئك الذين استغلوا شهرة الرجلين ومنزلتهما العلمية، فنسبوا إليهما ما لا يصح عنهما، وشوَّهوا سمعتهما، وعرَّضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير !! (١).

٤ – عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج

● **ترجمته :**

هو أبو خالد – أو أبو الوليد – عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الأموى مولاهم. أصله رومى نصرانى. كان من علماء مكة ومحدِّثيهم، وهو من أول مَنْ صنَّف الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات فى عهد التابعين، ولو أنَّا رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطبرى، وتتبعنا الآيات التى وردت فى النصارى، لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير في تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك، الذى يُعَبَّر عنه دائماً بـ« ابن جريج ».

روى عن أبيه، وعطاء بن أبى رباح، وزيد بن أسلم، والزهرى، وغيرهم. وروى عنه ابناه : عبد العزيز ومحمد، والأوزاعى، والليث، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وحماد ابن زيد، وغيرهم. قال ابن سعد : ولد سنة ٨٠ هـ (ثمانين)، وأما وفاته فمختلف فيها، فمنهم مَن قال : سنة ١٥٠ هـ (خمسين ومائة) ، ومنهم مَن قال : سنة ١٥٩ هـ (تسع وخمسين ومائة) ، وقيل غير ذلك.

● **مبلغه من العلم والعدالة :**

ابن جريج – كما قيل – هو أول مَنْ صنَّف الكتب بالحجاز، ويعدونه من طبقة مالك بن أنس وغيره ممن جمعوا الحديث ودَوَّنوه. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى : مَنْ أول مَنْ صنَّف الكتب؟ قال : ابن جريج وابن أبى عروبة. وقال ابن عيينة : سمعت أخى عبد الرزاق بن همام عن ابن جريج يقول : ما دوَّن العلم تدوينى أحد. وقد عُرِف عن ابن جريج أنه كان رحَّالة فى طلب العلم، فقد وُلِدَ بمكة ثم طوَّف فى كثير من البلاد، فرحل إلى البصرة واليمن وبغداد. ويقول ابن خلدون فى « العبر » : إنه لم يطلب العلم إلا فى الكهولة، ولو سمع فى عنفوان شبابه لحمل عن غير واحد من الصحابة، فإنه قال : كنت أتتبع الأشعار العربية والأنساب فقيل لى : لو لزمتَ عطاء؟ فلزمته ثمانية عشر عاماً (٢).

وقد رويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عباس، منها الصحيح، ومنها ما ليس بصحيح، وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روى ما ذُكِرَ فى كل آية من الصحيح والسقيم (٣).

أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وتثبته فيما يرويه، وإنما اختلفت أنظارهم فيه، فمنهم مَن وثَّقه، ومنهم مَن ضعَّفه. قال فيه

---

(١) انظر تهذيب التهذيب : ١١ / ١٦٦ – ١٦٧ ، وميزان الاعتدال : ٣ / ٢٧٨ ، ومجلة نور الإسلام (الأزهر) السنة الثالثة ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٢) شذرات الذهب : ١ / ٢٢٦ .

(٣) الإتقان : ٢ / ١٨٨ .

العجلى: مكى ثقة. وقال سليمان بن النضر بن مخلد بن يزيد: ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج. وعن يحيى بن سعيد قال: كنا نسمى كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإن لم يحدثك بها ابن جريج من كتابه لم يُنتفع به. وقال ابن معين: ثقة فى كل ما رُوِى عنه من الكتاب. وعن يحيى بن سعيد قال: كان ابن جريج صدوقاً فإذا قال: «حدَّثنى»، فهو سماع. وإذا قال: «أخبرنى»، فهو قراءة، وإذا قال: «قال»، فهو شبه الريح. وقال الدارقطنى: تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا يُدَلِّس إلا فيما سمعه من مجروح. وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: كان من فقهاء أهل الحجاز وقرَّائهم ومتقنيهم وكان يُدلِّس. وقال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال: أحد الأعلام الثقات يُدَلِّس، وهو فى نفسه مجمع على ثقته مع كونه قد تزوج نحواً من تسعين امرأة نكاح متعة، وكان يرى الرُخصة فى ذلك، وكان فقيه أهل مكة فى زمانه. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبى: بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة، كان ابن جريج لا يبالى من أين يأخذها، يعنى قوله: أُخْبِرت وحُدثت عن فلان [1]. وذكر الخزرجى فى «خلاصته» [2] أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة. ولكن نرى الأستاذ أحمد أمين ينقل فى «ضحى الإسلام»[3]: أن البخارى لم يوثِّقه وقال: إنه لا يُتابَع فى حديثه، ولسنا ندرى من أين استقى صاحب «ضحى الإسلام» هذا الكلام الذى عزاه إلى البخارى رضى الله عنه.

هذه هى نظرة العلماء إليه وحكمهم عليه، ونرى أن كثيراً منهم يحكم عليه بالتدليس وعدم الثقة ببعض مروياته، ومع هذا فقد قال فيه الإمام أحمد: إنه من أوعية العلم، ونحن معه فى ذلك، ولكنه وعاء لعلم امتزج صحيحه بعليله، ولا نظن إلا أن الإمام أحمد يعنى ذلك، بدليل ما تقدم عنه من قوله: «بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة. وكان ابن جريج لا يبالى من أين أخذها».

وكان الإمام مالك رضى الله عنه يرى فيه أنه لا يبالى من أين يأخذ، فقد روى عنه أنه قال: كان ابن جريج حاطب ليل.

وأخيراً فعلى المفسِّر أن يكون على حذر فيما رُوِى عن ابن جريج فى التفسير حتى لا يروى ضعيفاً، أو يعتمد على سقيم [4].

وبعد... فهؤلاء هم أقطاب الإسرائيليات، وعليهم يدور كثير مما هو مبثوث فى كتب التفسير، وسواء أكان كل ما يُنسب إليهم صح عنهم أم وُضِعَ عليهم، فقد علمتَ قيمة كل واحد منهم، وعلمتَ قيمة ما يُروَى من هذه الإسرائيليات وما يجوز روايته وما لا يجوز... وهذا هو جهد المُقلِّ وغاية ما وصلتُ إليه فى هذا الموضوع الذى التوى، ثم التوى، حتى صار أعقد من ذَنَب الضَّب.

---

(١) ميزان الاعتدال: ٢/١٥١.
(٢) صفحة ٢٠٧.
(٣) الجزء الثانى ص ١٠٧.
(٤) انظر تهذيب التهذيب: ٦/٤٠٢ - ٤٠٦.

ثالثاً : حذف الإسناد

حذف الإسناد هو السبب الثالث والأخير الذى يرجع إليه ضعف التفسير المأثور، وسبق أن أشرنا إلى مبدأ اختصار الأسانيد، ونعود إليه فنقول:

إنَّ الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتحرون الصحة فيما يتحملون، وكان الواحد منهم لا يروى حديثاً إلا وهو متثبت مما يقول، ولكن لم يُعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد، لما عُرفوا به جميعاً من العدالة والأمانة. وإذا كان الأمر قد وصل ببعضهم إلى أنه كان لا يقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين كما دلَّت على ذلك الآثار الكثيرة، فإن الغرض من ذلك هو زيادة التأكيد والتثبت، لا عدم الثقة بمن يروون عنه منهم، فقد روى أن عمر قال لأُبَىِّ ابن كعب - وقد روى له حديثاً - لتأتينى على ما تقول ببيِّنة، فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم، قالوا: قد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فقال عمر: أما إنى لم أتهمك، ولكن أحببت أن أتثبت» [١].

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثاً إلا إذا جاء بسنده، وتثبتت لهم عدالة رواته، أما إن حُذف السند، أو ذُكر وكان فى رواته مَنْ لا يُوثق بحديثه، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذى هذا شأنه، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا - سموا لنا رجالكم» [٢].

ظل الأمر فى عهد التابعين على هذا، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبى ﷺ أو عن الصحابة، لا يروونه إلا بإسناده، ثم جاء بعد عصر التابعين مَن جمَّع التفسير، ودَوَّن ما تجمَّع لديه من ذلك، فأُلِّفت تفاسير تجمع أقوال النبى ﷺ في التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وغيرهما ممن تقدَّم ذكرهم.

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام أَلَّفوا فى التفسير، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال غير معزوَّة لقائليها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل.

ثم صار كل مَنْ يسنح له قول يورده، ومَنْ يخطر بباله شىء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه مَنْ يجىء بعده، ظاناً أنَّ له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السَلَف [٣].

---

(١) الأسلوب الحديث : ١/ ١٠ (٢) صحيح مسلم : ١/ ١١٢. (٣) الإتقان : ٣/ ١٩٠

وفى الحق أن هذا السبب يكاد يكون أخطر الأسباب جميعاً، لأن حذف الأسانيد جعل مَنْ ينظر فى هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، وجعل كثيراً من المفسِّرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل.

وإذا كان للوضع خطره، وللأسرائيليات خطرها، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذُكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها، ولكن حذفها - وللأسف - عمَّى علينا كل شيء، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قول بإسناده، فهو وإن كان لم يتحر الصحة فيما يرويه، إلا أن عذره في ذلك، أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة، فإن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة.

وبعد... فهذه هى الأسباب الثلاثة التى يرجع إليها ضعف التفسير المأثور، وكل واحد منها له خطره وأثره فى التفسير، وقد أدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر، وقدَّروا ما كان لهذه الأسباب من أثر، فتداعى علماؤهم وأشياخهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل ما دخل عليها، ولكن لم نجد منهم مَنْ نشط لهذا العمل، وإنَّا لنرجو آملين، أن يهيىء الله للمسلمين من بين علمائنا وأشياخنا مَنْ ينقد لهم هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى، على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متناً وسنداً، ليستبعد منها هذا الكثير الذى لا يستحق البقاء، وليستريح الناظرون فى الكتاب الكريم من الوقوف أمام شىء لا أساس له إذا ما حاولوا تفهم آية منه.

ولستُ أظن أن هذا العمل الشاق المضنى يستطيع أن يقوم به فرد وحده، بل لابد له من جماعة كبيرة، تتفرغ له، ويتسع أمامها الزمن، وتتوافر لديها جميع المصادر والمراجع التى تتعلق بالموضوع وتتصل به.

ذلك ما نرجوه ونأمله، ونسأل الله تعالى أن يحقق الرجاء ويصدق الأمل..

* * *

أشهر ما دُوِّنَ من كتب التفسير المأثور وخصائص هذه الكتب

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدوَّنة فى التفسير المأثور، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا، نظراً لعدم وقوع كثير منها فى أيدينا. ولو تيسر لنا لوقفت عند عزمى هذا: وهو أنى لا أتعرض لكل كتاب أُلِّفَ فى هذا النوع من التفسير، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب، لأنى لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دُوِّن من هذه الكتب، كتاباً كتاباً، لطال علىَّ الأمر، والرسول ﷺ يقول: «إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها، هى أهمها وأشهرها وأكثرها تداولاً، وسبيلى فى هذا: أن أعرض أولاً لنبذة مختصرة عن المؤلف، ثم أُبيِّن خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه، وهذه الكتب التى وقع عليها اختيارى هى ما يأتى:

١ – جامع البيان فى تفسير القرآن : لابن جرير الطبرى
٢ – بحر العلوم : لأبى الليث السمرقندى
٣ – الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأبى إسحاق الثعلبى
٤ – معالم التنزيل : لأبى محمد الحسين البغوى
٥ – المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسى
٦ – تفسير القرآن العظيم : لأبى الفداء الحافظ ابن كثير
٧ – الجواهر الحسان فى تفسير القرآن : لعبد الرحمن الثعالبى
٨ – الدر المنثور فى التفسير المأثور : لجلال الدين السيوطى

وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب فنقول وبالله التوفيق:

١ – جامع البيان فى تفسير القرآن (للطبرى)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل آمل طبرستان، وُلِدَ بها سنة ٢٢٤ هـ (أربع وعشرين ومائتين من الهجرة)، ورحل من بلده فى طلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة، سنة ٢٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائتين)، وطوَّف فى الأقاليم، فسُمِعَ بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقى بها إلى أن مات سنة ٣١٠ هـ (عشرة وثلاثمائة من الهجرة).

● مبلغه من العلم والعدالة:

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب

الله، بصيراً بالقرآن، عارفاً بالمعانى، فقيهاً فى أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم منَ المخالفين فى الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، هذا هو ابن جرير فى نظر الخطيب البغدادى وهى شهادة عالم خبير بأحوال الرجال. وذُكِرَ أن أبا العباس بن سريج كان يقول: محمد بن جرير فقيه عالم. وهذه الشهادة جد صادقة، فإن الرجل برع في علوم كثيرة، منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه. والتاريخ وقد صَنَّف فى علوم كثيرة وأبدع التأليف وأجاد فيما صَنَّف، فمن مصنفاته: كتاب التفسير الذى نحن بصدده. وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وهو من أُمهات المراجع، وكتاب القراءات، والعدد والتنزيل، وكتاب اختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وكتاب أحكام شرائع الإسلام، ألَّفه على ما أدَّاه إليه اجتهاده، وكتاب التبصر في أصول الدين... وغير هذا كثير من تصانيفه التى تدل على سعة علمه وغزارة فضله.

ولكن هذه الكتب قد اختفي معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ منها بالبقاء إلى يومنا هذا وبالشهرة الواسعة، سوى كتاب التفسير، وكتاب التاريخ.

وقد اعتُبر الطبرى أباً للتفسير. كما اعتُبر أباً للتاريخ الإسلامى، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية. ويقول ابن خلكان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً، ونُقل أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى ذكره فى طبقات الفقهاء فى جملة المجتهدين. قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم «الجريرية»، ولكن هذا المذهب الذى أسسه - على ما يظهر - بعد بحث طويل، ووجد له أتباعاً من الناس، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كغيره من مذاهب المسلمين، ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد متمذهباً بمذهب الشافعى، يدلنا على ذلك ما جاء فى الطبقات الكبرى لابن السبكى، من أن ابن جرير قال: أظهرتُ فقه الشافعى، وأفتيتُ به ببغداد عشر سنين، وتلقاه منى ابن بشار الأحول، أستاذ أبى العباس بن سريج. وقال السيوطى فى طبقات المفسِّرين [(١)]: وكان أولاً شافعياً ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلِّدون، وله فى الأصول والفروع كتب كثيرة.

وذكره صاحب لسان الميزان فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر..» ثم قال: أقذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندَّعى

(١) صفحة ٣.

عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يُتأنَّى فيه، ولا سيما فى مثل إمام كبير، ولعل السليمانى أراد الآتى - يريد محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى - قال: ولو حلفتُ أن السليمانى ما أراد إلا الآتى لبررت، والسليمانى حافظ متقن، كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل».

هذا هو ابن جرير، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وذلك هو حكمهم عليه، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :**

يعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسِّرين الذين عنوا بالتفسير النقلى، وإن كان فى الوقت نفسه يُعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى، نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلى، والبحث الحر الدقيق.

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يُعتبر مفقوداً لا وجود له، ثم قدَّر الله له الظهور والتداول، فكانت مفاجأة سارة للأوساط العلمية فى الشرق والغرب أن وُجدَت في حيازة أمير «حائل» الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طُبع عليها الكتاب من زمن قريب، فأصبحت فى يدنا دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور (٢).

ولو أننا تتبعنا ما قاله العلماء في تفسير ابن جرير، لوجدنا أن الباحثين فى الشرق والغرب قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، واتفقوا على أنه مرجع لا غِنَى عنه لطالب التفسير، فقد قال السيوطى رضى الله عنه: «وكتابه - يعنى تفسير محمد ابن جرير - أجلُّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين» (٣). وقال النووى: «أجمعت الأُمة على أنه لم يُصَنَّف مثل تفسير الطبرى» (٤) وقال أبو حامد الإسفراينى: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن

---

(١) انظر وفيات الأعيان: ٢/٢٣٢ - ٢٣٣ - ولسان الميزان: ٥/١٠٠ - ١٠٢، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى: ٢/١٣٥ - ١٣٨، ومعجم الأدباء: ١٨/٤٠ - ٩٤.
(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦.
(٣) الإتقان: ٢/١٩٠.
(٤) المرجع السابق.

جرير لم يكن ذلك كثيراً» (١) ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفاسير التى فى أيدى الناس، فأصحها تفسير ابن جرير الطبرى، فرنه يذكر مقالات السَلَف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير (٢) والكلبى (٣).

ويذكر صاحب لسان الميزان: أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير من ابن خالويه فرده بعد سنين ثم قال: «نظرتُ فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير» فابن خزيمة ما شهد هذه الشهادة إلا بعد أن اطلع على ما فى هذا التفسير من علم واسع غزير.

وهذا وقد كتب «نولدكه» فى سنة ١٨٦٠ بعد اطلاعه على بعض فقرات من هذا الكتاب: «لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماماً، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعاً لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم» (٤) .

ويظهر مما بأيدينا من المراجع، أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم، ثم اختصره مؤلفه إلى هذا القدر الذى هو عليه الآن، كما أن كتابه فى التاريخ ظفر بمثل هذا البسط والاختصار، فابن السبكى يذكر فى طبقاته الكبرى (٥) : «أن أبا جعفر قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟، فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟، قالوا: كم قدره؟، فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنَّا لله، ماتت الهمم.. فاختصره في نحو ما اختصر التفسير».

وهذا ونستطيع أن نقول إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذى له الأوَّلية بين كتب التفسير، أوَّلية زمنية، وأوَّلية من ناحية الفن والصناعة.

أما أوَّليته الزمنية ، فلأنه أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينا ، وما سبقه من

---

(١) معجم الأدباء : ١٨ / ٤٢

(٢) هكذا بالأصل ، ولعله ابن سليمان ، وهو مقاتل بن سليمان بن بشير ، وهو متهم بالكذب.

(٣) فتاوى ابن تيمية : ٢ / ١٩٢.

(٤) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٥ .

(٥) الجزء الثانى ص ١٢٧ .

المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شئ منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصدده.

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة ، فذلك أمر يرجع إلي ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتي أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته.

ونريد أن نعطي هنا مثالا لطريقة ابن جرير في تفسيره، بعد أن أخذنا فكرة عامة عن الكتاب، حتي يتبين للقارئ أن الكتاب واحد في بابه، سبق به مؤلفه غيره من المفسرين، فكان عمدة المتأخرين، ومرجعا مهماً من مراجع المفسرين، علي اختلاف مذاهبهم، وتعدد طرائقهم، فنقول:

● **طريقة ابن جرير في تفسيره:**

تتجلي طريقة ابن جرير في تفسيره بكل وضوح إذا نحن قرأنا فيه وقطعنا في القراءة شوطاً بعيداً، فأول ما نشاهده، أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: (القول في تأويل قوله تعالي كذا وكذا) ثم يفسر الآية ويستشهد علي ما قاله بما يرويه بسنده إلي الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد علي كل قول بما يرويه في ذلك عن الصحابة أو التابعين.

ثم هو لا يقتصر علي مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، ويرجح بعضها علي بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلي ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار.

● **إنكاره علي من يفسر بمجرد الرأي:**

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأي المستقلين في التفكير، ولا يزال يشدد في ضرورة الرجوع إلي العلم الراجع إلي الصحابة أو التابعين، والمنقول عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، ويري أن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح، فمثلاً عندما تكلم عن قوله تعالي من سورة يوسف ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٩] نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السلف مع توجيهه للأقوال وتعرضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية ، ثم يعرج بعد ذلك علي من يفسر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه علي شئ إلا علي مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقول ما نصه: (... وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه علي مذهب كلام العرب، يوجه معني قوله: ﴿ **وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾أي : وفيه ينجون من الجدب، والقحط بالغيث، ويزعم أنه من العصر والعصر التي بمعني المنجاة، من قول أبي زبيد الطائي:

صادياً يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود

أي المقهور – ومن قول لبيد:

فبات وأسري القوم آخر ليلهم وما كان وقافاً بغير معصر

وذلك تأويل يكفي من الشهادة علي خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين) [١].

وكثيراً ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروي عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس.

فمثلاً عند قوله تعالي، من سورة البقرة ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [البقرة: ٦٥] يقول ما نصه: (حدثني المثني، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ قال: (مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفاراً).

ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك علي قول مجاهد فيقول ما نصه: (وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف).. إلخ [٢].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي من سورة البقرة أيضاً: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢٩] نجده يروي عن الضحاك في معني هذه الآية: أن من طلق لغير العدة فقد اعتدي وظلم نفسه، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون. ثم يقول: (وهذا الذي ذكر عن الضحاك لا معني له في هذا الموضع، لأنه لم يجر للطلاق في العدة ذكر فيقال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**﴾، وإنما جري ذكر العدد الذي يكون للمطلق فيه الرجعة. والذي لا يكون له فيه الرجعة، دون ذكر البيان عن الطلاق للعدة) [٣].

.. وهكذا نجد ابن جرير في غير موضع من تفسيره، ينبري للرد علي مثل هذه الآراء التي لا تستند علي شئ إلا علي مجرد الرأي أو محض اللغة.

● **موقفه من الأسانيد:**

ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها، إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف، لأنه كان يري – كما هو مقرر في أصول الحديث – أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة ومع ذلك فابن جرير

---

(١) تفسير ابن جرير: ١٢/ ١٣٨.

(٢) تفسير ابن جرير: ١/ ٢٥٢ – ٢٥٣.

(٣) تفسير ابن جرير: ٢/ ٢٨٩.

يقف من السند أحيانا موقف الناقد البصير،فيعدل من يعدل من رجال الإسناد، ويجرح من يجرّح منهم، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها، ويصرح برأيه فيها بما يناسبها، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الكهف ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف:٩٤].. يقول ما نصه: (روي عن عكرمة في ذلك - يعني في ضم سين (سداً) وفتحها – ما حدثنا به أحمد بن يوسف قال: حدثنا القاسم، قال: حدثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بني آدم هو السَّد - يعني بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو السُّد، ثم يعقب علي هذا السند فيقول: وأما ما ذكره عن عكرمة في ذلك، فإن الذي نقل عن أيوب: (هارون) وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقاة أصحابه) [(١)].

● **تقديره للإجماع:**

كذلك نجد ابن جرير في تفسيره يُقدِّر إجماع الأمة، ويعطيه سلطاناً كبيراً في اختيار ما يذهب إليه من التفسير، فمثلاً عند قوله تعالي من سورة البقرة: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾ [البقرة:٢٣٠] يقول ما نصه: (فإن قال قائل: فأي النكاحين عني الله بقوله: ﴿ **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾؟ النكاح الذي هو جماع؟ أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟ قيل: كلاهما، وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحها ولم يجامعها حتي يطلقها لم تحل للأول، وكذلك إن وطئها واطئ بغير نكاح لم تحل للأول، لإجماع الأمة جميعاً، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن تأويل قوله: ﴿ **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾ ، نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه، ثم يطلقها، فإن قال: فإن ذكر الجماع غير موجود في كتاب الله تعالي ذكره. فما الدلالة علي أن معناه ما قلت؟ قيل: الدلالة علي ذلك إجماع الأمة جميعاً علي أن ذلك معناه) [(٢)].

● **موقفه من القراءات :**

كذلك نجد ابن جرير يعني بذكر القراءات وينزلها علي المعاني المختلفة وكثيرا ما يرد القراءات التي لا تعتمد علي الأئمة الذين يُعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة، والتي تقوم علي أصول مضطربة مما يكون فيه تغيير وتبديل لكتاب الله، ثم يتبع ذلك برأيه في آخر الأمر مع توجيه رأيه بالأسباب، فمثلاً عند قوله تعالي من سورة الأنبياء: ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً** ﴾ [الأنبياء:٨١] يذكر أن عامة قراء الأمصار قرأوا (الريحَ)

---

(١) تفسير ابن جرير :١٦/ ١٣.

(٢) تفسير ابن جرير: ٢/ ٢٩٠ – ٢٩١.

بالنصب علي أنها مفعول لـ (سخرنا) المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ (الريحُ) بالرفع علي أنها مبتدأ ثم يقول: والقراءة التي لا أستجيز القراءة بغيرها في ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه.

ولقد يرجع السبب في عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلي أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتي إنهم ليقولون عنه: إنه ألف فيها مؤلفاً خاصاً في ثمانية عشر مجلداًذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور(١)، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرور الزمن ولم يصل إلي أيدينا، شأن الكثير من مؤلفاته.

● **موقفه من الإسرائيليات:**

ثم إننا نجد ابن جرير يأتي في تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلي، يرويها بإسناده إلي كعب الأحبار، ووهب بن منبِّه، وابن جريج،والسدي، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيراً مما رواه عن مسلمة النصاري. ومن الأسانيد التي تسترعي النظر، هذا الإسناد: حدثني ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن أبي عتاب - رجل من تغلب - كان نصرانيا عمراً من دهره ثم أسلم بعد فقرأ القرآن وفقه في الدين، وكان فيما ذكر، أنه كان نصرانيا أربعين سنة ثم عمر في الإسلام أربعين سنة.

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروي لهذا الرجل النصراني الأصل خبراً عن آخر أنبياء بني إسرائيل، عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الإسراء ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا** ﴾(٢) [الإسراء: ٧].

كما نراه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الكهف ﴿ **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الكهف: ٩٤].. الآية يسوق هذا الإسناد: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد ابن إسحاق قال: حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم، مما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبا بن مردبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح. إلخ)(٣)

... وهكذا يكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات، ولعل هذا راجع إلي ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عالجها في بحوثه التاريخية الواسعة.

---

(١) معجم الأدباء: ١٨ / ٤٥.
(٢) تفسير ابن جرير: ١٥ / ٣٣ – ٣٤.
(٣) تفسير ابن جرير: ١٦ / ١٤.

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيراً من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلي النقد الفاحص الشامل، احتياج كثير من كتب التفسير التي اشتملت علي الموضوع والقصص الإسرائيلي، علي أن ابن جرير - كما قدمنا - قد ذكر لنا السند بتمامه في كل رواية يرويها، وبذلك يكون قد خرج من العهدة، وعلينا نحن أن ننظر في السند ونتفقد الروايات.

● **انصرافه عما لا فائدة فيه:**

ومما يلفت النظر في تفسير ابن جرير أن مؤلفه لا يهتم فيه - كما يهتم غيره من المفسرين - بالأمور التي لا تغني ولا تفيد، فنراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في سورة المائدة: ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ الآيات، إلي قوله: ﴿ **وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٤].. يعرض لذكر ما ورد من الروايات في نوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء.. ثم يعقب علي هذا بقوله: (وأما الصواب من القول فيما كان علي المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون ثمراً من الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل) (١).

كما نراه عند تفسير قوله تعالي من سورة يوسف: ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾ [يوسف: ٢٠] يعرض لمحاولات قدماء المفسرين في تحديد عدد الدراهم، هل هي عشرون؟ أو اثنان وعشرون؟ أو أربعون؟.. إلي آخر ما ذكره من الروايات.. ثم يعقب علي ذلك كله بقوله: (والصواب من القول أن يقال: إن الله - تعالي ذكره - أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ وقد يحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر، وأي ذلك فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه). (٢)

● **احتكامه إلي المعروف من كلام العرب:**

وثمة أمر آخر سلكه ابن جرير في كتابه، ذلك أنه اعتبر الاستعمالات اللغوية بجانب النقول المأثورة وجعلها مرجعاً موثوقاً به عند تفسيره للعبارات المشكوك فيها، وترجيح بعض الأقوال علي بعض.

---

(١) تفسير ابن جرير: ٧ / ٨٨. (٢) تفسير ابن جرير: ١٢ / ١٠٣.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي من سورة هود ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود: ٤٠] نراه يعرض لذكر الروايات عن السلف في معني لفظ (التنور) فيروي لنا قول من قال: إن التنور عبارة عن وجه الأرض، وقول من قال: إنه عبارة عن تنوير الصبح، وقول من قال: إنه عبارة عن أعلي الأرض وأشرفها، وقول من قال: إنه عبارة عما يختبز فيه.. ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: (وأولي هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله (التنور) قول من قال: التنور: الذي يختبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلي الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة علي شئ منه بخلاف ذلك فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معني ما خاطبهم به..) .(١)

● **رجوعه إلي الشعر القديم:**

كذلك نجد ابن جرير يرجع إلي شواهد من الشعر القديم بشكل واسع متبعاً في هذا ما أثاره ابن عباس في ذلك، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي من سورة البقرة ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢] يقول ما نصه: قال أبو جعفر: والأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

يعني بقوله: (ولست له بند): (لست له بمثل ولا عدل، وكل شئ كان نظيراً لشئ وشبيهاً فهو له ند) (٢) ثم يسوق الروايات عمن قال ذلك من السلف.

● **اهتمامه بالمذاهب النحوية:**

كذلك نجد ابن جرير يتعرض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال، تارة علي المذهب البصري، وأخري علي المذهب الكوفي، فمثلاً عند قوله تعالي في سورة إبراهيم ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨].. يقول ما نصه: (اختلف أهل العربية في رافع (مثل) فقال بعض نحويي البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقص عليكم مثل الذين كفروا، ثم أقبل يفسره كما قال: مثل الجنة.. وهذا كثير.. وقال بعض نحويي الكوفيين: إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدم الأسماء لأنها أعرف، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه، ومعني الكلام: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد.. إلخ)(٣).

---

(١) تفسير ابن جرير: ١٢/ ٢٥.
(٢) تفسير ابن جرير: ١/ ١٢٥.
(٣) تفسير ابن جرير: ١٣/ ١٣١.

وهكذا يكثر ابن جرير في مناسبات متعددة من الاحتكام إلي ما هو معروف من لغة العرب، ومن الرجوع إلي الشعر القديم يستشهد به علي ما يقول، ومن التعرض للمذاهب النحوية عند ما تمس الحاجة، مما جعل الكتاب يحتوي علي جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التي أكسبت الكتاب شهرة عظيمة.

والحق أن ما قدمه لنا ابن جرير في تفسيره من البحوث اللغوية المتعددة والتي تعتبر كنزاً ثميناً ومرجعاً مهماً في بابها، أمر يرجع إلي ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ. ونري أن ننبه هنا إلي أن هذه البحوث اللغوية التي عالجها ابن جرير في تفسيره لم تكن أمراً مقصوداً لذاته، وإنما كانت وسيلة للتفسير، علي معني أنه يتوصل بذلك إلي ترجيح بعض الأقوال علي بعض، كما يحاول بذلك – أحياناً – أن يوفق بين ما صح عن السلف وبين المعارف اللغوية بحيث يزيل ما يتوهم من التناقض بينهما.

● **معالجته للأحكام الفقهية:**

كذلك نجد في هذا التفسير آثاراً للأحكام الفقهية، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأي يختاره لنفسه، ويرجحه بالأدلة العلمية القيمة، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالي في سورة النحل ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٨] .. نجده يعرض لأقوال العلماء في حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ويذكر قول كل قائل بسنده.. وأخيرا يختار قول من قال: إن الآية لا تدل علي حرمة شئ من ذلك، ووجه اختياره هذا فقال ما نصه: (والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثاني - وهو أن الآية لا تدل علي الحرمة – وذلك أنه لو كان في قوله - تعالي ذكره ﴿ **لِتَرْكَبُوهَا** ﴾ دلالة علي أنها لا تصلح إذ كانت للركوب للأكل لكان في قوله ﴿ **فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ [النحل: ٥] دلالة علي أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب. وفي إجماع الجميع علي أن ركوب ما قال تعالي ذكره: ﴿ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ جائز حلال غير حرام، دليل واضح علي أن أكل ما قال: ﴿ **لِتَرْكَبُوهَا** ﴾ جائز حلال غير حرام، إلا بما نص علي تحريمه أو وضع علي تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلي رسول الله ﷺ، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شئ. وقد وضع الدلالة علي تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلي رسول الله ﷺ، وعلي البغال بما قد بينا في كتابنا (كتاب الأطعمة) بما أغني عن إعادته في هذا الموضع إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان

عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل علي أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية علي تحريم لحم الفرس). [(١)]

● **خوضه في مسائل الكلام:**

ولا يفوتنا أن ننبه علي ما نلحظه في هذا التفسير الكبير، من تعرض صاحبه لبعض النواحي الكلامية عند كثير من آيات القرآن، مما يشهد له بأنه كان عالماً ممتازاً في أمور العقيدة، فهو إذا ما طبق أصول العقائد علي ما يتفق مع الآية أفاد في تطبيقه، وإذا ناقش بعض الآراء الكلامية أجاد في مناقشته، وهو في جدله الكلامي وتطبيقه ومناقشته، موافق لأهل السنة في آرائهم، ويظهر ذلك جلياً في رده علي القدرية في مسألة الاختيار.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في آخر سورة الفاتحة ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة:٧].. نراه يقول ما نصه: (وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن في وصف الله جل ثناؤه النصاري بالضلال بقوله: ﴿ **وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلي نفسه. وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذي وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم دلالة علي صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية، جهلاً منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه. ولو كان الأمر علي ما ظنه الغبي الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله ولوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرة إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول بإحصائه الكتاب، وفي قوله جل ثناؤه: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ [يونس: ٢٢] وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها، ما يدل علي خطأ التأويل الذي تأوله من وصفنا قوله في قوله: ﴿ **وَلا الضَّالِّينَ** ﴾.. وادعائه أن في نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلي من نسبها إليه من النصاري تصحيحاً لما ادعي المنكرون أن يكون الله جل ثناؤه في أفعال خلقه بسبب من أجلها وجدت إفعالهم، مع إبانه الله عز ذكره نصاً في آي كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادي، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية:٢٣]. فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادي دون غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب علي ما قدمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلي من وجد منه وإن كان مشيئة غير الذي وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي

---

(١) تفسير ابن جرير: ١٤ /٥٧ – ٥٨.

يكتسبه العد كسباً، ويوجده الله جل ثناؤه عيناً منشأة، بل ذلك أحري أن يضاف إلي مكتسبه كسباً له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له، وإلي الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيراً) (١)

وكثيراً ما نجد ابن جرير يتصدي للرد علي المعتزلة في كثير من آرائهم الاعتقادية، فنراه مثلاً يجادلهم مجادلة حادة في تفسيرهم العقلي التنزيهي للآيات التي تثبت رؤية الله عندأهل السنة، كما نراه يذهب إلي ما ذهب إليه السلف من عدم صرف آيات الصفات عن ظاهرها، مع المعارضة لفكرة التجسيم والتشبيه، والرد علي أولئك الذين يشبهون الله بالإنسان(٢).

وهكذا نجد ابن جرير لم يقف كمفسر موقفاً بعيداً عن مسائل النزاع التي تدور حول العقيدة في عصره، بل نراه يشارك في هذا المجال من الجدل الكلامي بنصيب لا يستهان به، مع حرصه كل الحرص علي أن يحتفظ بسنيته ضد وجوه النظر التي لا تتفق وتعاليم أهل السنة.

وبعد.. فإن ما جمعه ابن جرير في كتابه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه، وما نقله لنا من مدرسة ابن عباس، ومدرسة ابن مسعود، ومدرسة علي بن أبي طالب، ومدرسة أُبي بن كعب، وما استفاده مما جمعه ابن جريج والسدي وابن إسحاق وغيرهم من التفاسير جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور، كما أن ما جاء في الكتاب من إعراب،وتوجيهات لغوية، واستنباطات في نواح متعددة،وترجيح لبعض الأقوال علي بعض، كان نقطة التحول في التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية السائدة في هذا العصر الذي يعيش فيه ابن جرير.

وفي الحق إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية جعلت تفسيره مرجعاً مهما من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم علي نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة.

وعلي الإجمال، فخير ما وصف به هذا الكتاب ما نقله الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني في تاريخه حيث قال: (فتم من كتبه - يعني محمد بن جرير - كتاب تفسير القرآن، وجوده، وبين فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه،

---

(١) تفسير ابن جرير: ١/ ٦٤.

(٢) انظر ما كتبه علي قوله تعالي في الآية (٦٤) من سورة المائدة: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾.. الآية. (٦/ ١٩٣) وما بعدها؛ وما كتبه علي قوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة الزمر ﴿و **الأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ (٢٤/ ١٦) وما بعدها.

ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه والكلام علي الملحدين فيه، والقصص، وأخبار الأمة و القيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة، وآية آية، من الاستعاذة، وإلي أبي جاد، فلو ادعي عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي علي علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل). (١)

هذا وقد جاء في معجم الأدباء (الجزء ١٨ ص ٦٤- ٦٥) وصف مسهب لتفسير ابن جرير، جاء في آخره ما نصه: (... وذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق، وعن الحسن البصري ثلاثة طرق، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقاً، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حبان، سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يدخل في كتابه شيئاً عن كتاب محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدي، لأنهم عنده أظناء والله أعلم. وكان إذا رجع إلي التاريخ والسير وأخبار العرب حكي عن محمد بن السائب الكلبي، وعن ابنه هشام، وعن محمد بن عمر الواقدي، وغيرهم فيما يفتقر إليه ولا يؤخذ إلا عنهم.

وذكر فيه مجموع الكلام والمعاني من كتاب علي بن حمزة الكسائي، ومن كتاب يحيي بن زيادة الفراء، ومن كتاب أبي الحسن الأخفش، ومن كتاب أبي علي قطرب، وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون في المعاني، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمهم إذا ذكر شيئا من كلامهم، وهذا كتاب يشتمل علي عشرة آلاف ورقة أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه).

كما نجد في معجم الأدباء أيضا قبل ذلك بقليل، ما يدل علي أن الطبري أتم تفسيره هذا في سبع سنوات، إملاء علي أصحابه، فقد جاء في الجزء (١٨ ص٤٢) عن أبي بكر بن بالويه أنه قال: (قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق - يعني ابن خزيمة - : بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملاء، قال كله؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلي سنة تسعين...) إلخ.

وبعد فأحسب أني قد أفضت في الكلام عن هذا التفسر، وتوسعت في الحديث

---

(١) طبقات المفسرين للداودي ص٢٣.

عنه، وأقول: إن السر في ذلك هو أن الكتاب يعتبر المرجع الأول والأهم للتفسير بالمأثور، وتلك ميزة لا نعرفها لغيره من كتب التفسير بالرواية.

٢ - بحر العلوم (للسمرقندي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي. المعروف بإمام الهدي. تفقه علي أبي جعفر الهندواني، واشتهر بكثرة الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة. ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمي بـ (بحر العلوم)، والمعروف بتفسير أبي الليث السمرقندي، وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب النوازل في الفقه، وخزانة الفقه في مجلد، وتنبيه الغافلين، والبستان. وكانت وفاته رحمه الله سنة ٣٧٣هـ (ثلاث وسبعين وثلاثمائة) وقيل: سنة ٣٧٥هـ (خمس وسبعين وثلاثمائة) من الهجرة (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون: (تفسير أبي الليث، نصر بن محمد الفقيه السمرقندي الحنفي، المتوفي سنة٣٧٥هـ (خمس وسبعين وثلاثمائة)، وهو كتاب مشهور لطيف مفيد، خرج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم ابن قطلوبغا الحنفي سنة ٨٥٤ هـ (أربع وخمسين وثمانمائة) (٢).

وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار، وموجود بدار الكتب المصرية، وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الأزهر. واحدة في مجلدين والأخري في ثلاث مجلدات.

وقد رجعت إلي هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدت مؤلفه قد قدم له بباب في الحث علي طلب التفسير وبيان فضله، واستشهد علي ذلك بروايات عن السلف، رواها بإسناد إليهم، ثم بين أنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه من ذات نفسه ما لم يتعلم أو يعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل، واستدل علي حرمة التفسير بمجرد الرأي بأقوال رواها عن السلف بإسناده إليهم أيضاً، ثم بين أن الرجل إذا لم يعلم وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فليتعلم التفسير ويتكلف حفظه، ولا بأس بذلك علي سبيل الحكاية... وبعد أن فرغ من المقدمة شرع في التفسير.

تتبعت هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، ولكنه لا يذكر إسناده إلي من يروي عنهم، ويندر سياقه للإسناد في بعض الروايات، وقد لاحظت عليه أنه إذا ذكر

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٢٣٤.

الأقوال والروايات المختلفة لا يعقب عليها ولا يرجح كما يفعل ابن جرير الطبري – مثلاً – اللهم إلا في حالات نادرة أيضا ، وهو يعرض للقراءات ولكن بقدر [١]، كما أنه يحتكم إلي اللغة أحياناً ويشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضح معني آية أخري [٢]، كما أنه يروي من القصص الإسرائيلي، ولكن علي قلة وبدون تعقيب منه علي ما يرويه ، وكثيراً مايقول : قال بعضهم كذا، وقال بعضهم كذا، ولا يعين هذا البعض. وهو يروي أحياناً عن الضعفاء، فيخرج من رواية الكلبي ومن رواية أسباط عن السدي، ومن رواية غيرهما ممن تكلم فيه، ووجدته يوجه بعض إشكالات ترد علي ظاهر النظم ثم يجيب عنها [٣] كما يعرض لموهم الاختلاف والتناقض في القرآن ويزيل هذا الإيهام [٤].

وبالجملة، فالكتاب قيم في ذاته، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلي فيه علي الجانب العقلي، ولهذا عددناه ضمن كتب التفسير المأثور.

❖ ❖ ❖

---

(١) ارجع إليه عند قوله تعالي في الآية (١٢٤) من سورة البقرة ﴿ **لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (١ / ٤٠).

(٢) ارجع إليه عند قوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة آل عمران : ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ (١ / ٩٧).

(٣) ارجع إليه عند قوله تعالي في الآية (٢٨) من سورة البقرة: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** ﴾ (١ / ١٤).

(٤) ارجع إليه في قوله تعالي في الآية (٢٩) من سورة البقرة ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** ﴾.. الآية (١ / ٢٥).

٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (للثعلبي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرئ، المفسر، «كان حافظاً واعظاً، رأساً في التفسير والعربية، متين الديانة، قال ابن خلكان: «كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير»(١). وقال ياقوت في معجم الأدباء: «أبو إسحاق الثعلبي، المقرئ، المفسر، الواعظ، الأديب، الثقة، الحافظ، صاحب التصانيف الجليلة: من التفسير الحاوي أنواع الفرائد من المعاني والإشارات، وكلمات أرباب الحقائق ووجوه الإعراب والقراءات..»(٢). وله من المؤلفات كتاب العرائس في قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وله غير ذلك من المؤلفات. ونقل السمعاني عن بعض العلماء أنه يقال له (الثعلبي) و (الثعالبي)، وهو لقب له وليس بنسب. وذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي في كتاب (سياق تاريخ نيسابور) وأثني عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به. حدث عن أبي طاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرئ. وعنه أخذ أبو الحسن الواحدي التفسير وأثني عليه، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ. ولكن هناك من العلماء من يري أنه لا يوثق به، ولا يصح نقله. وسنذكر بعض من يري ذلك فيه ومقالاتهم عند الكلام عن تفسيره هذا.. وقد توفي الثعلبي رحمه الله سنة ٤٢٧هـ (سبع وعشرين وأربعمائة). فرحمه الله وأرضاه (٣).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ألقي مؤلف هذا التفسير ضوءاً عليه في مقدمته، وأوضح فيها عن منهجه وطريقته التي سلكها فيه فذكر أولاً اختلافه منذ الصغر إلي العلماء، واجتهاده في الاقتباس من علم التفسير الذي هو أساس الدين ورأس العلوم الشرعية، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح بعزم أكيد وجهد جهيد، حتي رزقه الله ما عرف به الحق من الباطل، والمفضول من الفاضل، والحديث من القديم، والبدعة من السنة، والحجة من الشبهة، وظهر له أن المصنفين في تفسير القرآن فرق علي طرق مختلفة:

فرقة أهل البدع والأهواء، وعد منهم الجبائي والرماني.

---

(١) وفيات الأعيان: ١/ ٣٧ - ٣٨. (٢) معجم الأدباء: ٥/ ٣٧.

(٣) يراجع في ترجمته: معجم الأدباء: ٥/ ٣٦ - ٣٨، ووفيات الأعيان: ١/ ٢٢، وشذرات الذهب: ٣/ ٢٣٠ - ٢٣١.

وفرقة من ألفوا فأحسنوا، إلا أنهم خلطوا إباطيل المبتدعين بأقاويل السلف الصالحين، وعد منهم أبا بكر القفال.

وفرقة اقتصر أصحابها علي الرواية والنقل دون الدارية والنقد، وعد منهم أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي.

وفرقة حذفت الإسناد الذي هو الركن والعماد، ونقلت من الصحف والدفاتر، وحررت علي هوي الخواطر، وذكرت الغث والسمين، والواهي والمتين، قال: وليسوا في عداد العلماء، فصنت الكتاب عن ذكرهم.

ورقة حازوا قصب السبق، في جودة التصنيف والحذق. غير أنهم طولوا في كتبهم بالمعادات، وكثرة الطرق والروايات، وعد منهم ابن جرير الطبري.

وفرقة جردت التفسير دون الأحكام، وبيان الحلال والحرام، و الحل عن الغوامض والمشكلات، والرد علي أهل الزيغ والشبهات، كمشايخ السلف الماضين، مثل مجاهد والسدي والكلبي.

ثم بين أنه لم يعثر في كتب من تقدمه علي كتاب جامع مهذب يعتمد.. ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه في إخراج كتاب في تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم، رعاية منه لحقوقهم، وتقربا به إلي الله.. ثم قال: «فاستخرت الله تعالي في تصنيف كتاب شامل، مهذب، ملخص، مفهوم، منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات. سوي ما التقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات، وهم قريب من ثلاثمائة شيخ، نسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز والترتيب» ثم قال: وخرجت فيه الكلام علي أربعة عشر نحواً: البسائط والمقدمات والعدد والتنزلات، والقصص، والنزولات، والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعربية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات،والمعاني والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلقات، أدرجتها في أثناء الكتاب بحذف الأبواب، وسميته: كتاب (الكشف والبيان عن تفسير القرآن).. ثم ذكر في أول الكتاب أسانيده إلي من يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفي بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب، كما ذكر أسانيده إلي مصنفات أهل عصره – وهي كثيرة – وكتاب الغريب والمشكل والقراءات، ثم ذكر باباً في فضل القرآن وأهله، وباباً في معني التفسير والتأويل، ثم شرع في التفسير.

عثرت علي هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجدته مخطوطاً غير كامل، وجدت منه

أربع مجلدات ضخام – الأول والثاني والثالث والرابع - والرابع ينتهي عند أواخر سورة الفرقان، وباقي الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال.

قرأت في هذا التفسير فوجدته يفسر القرآن بما جاء عن السلف، مع اختصاره للأسانيد، اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، ولاحظت عليه أنه يعرض للمسائل النحوية ويخوض فيها بتوسع ظاهر، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ٩٠] الآية، نجده يتوسع في الكلام علي (نعم) و(بئس) ويفيض في ذلك (١).

كما أنه يعرض لشرح الكلمات اللغوية وأصولها وتصاريفها، ،ويستشهد علي ما يقول بالشعر العربي، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي من سورة البقرة: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً** ﴾ [البقرة : ١٧١]..الآية، نجده يحلل كلمة (ينعق) تحليلاً دقيقاً ويصرفها علي وجوهها كلها (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ** ﴾ [البقرة:١٧٣].. الآية، نجده يحلل لفظ البغي ويتكلم عن أصل المادة بتوسع (٣).

ومما لاحظته علي هذا التفسير أنه يتوسع في الكلام عن الأحكام الفقهية عندما يتناول آية من آيات الأحكام، فتراه يذكر الأقوال والخلافات والأدلة ويعرض للمسألة من جميع نواحيها، إلي درجة أنه يخرج عما يراد من الآية، انظر إليه عندما يعرض لقوله تعالي في سورة النساء: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ** ﴾ [النساء:١١]..الآية، تجده يفيض في الكلام عما يُفعل بتركة الميت بعد موته، ثم يذكر جملة الورثة والسهام المحددة ومن فرضه الربع، ومن فرضه الثمن، والثلثان، والثلُث، والسدُس.. وهكذا، ثم يعرض لنصيب الجد والجدة والجدات، ثم يقول بعد هذا: (فصل في بساط الآية) وفيه يتكلم عن نظام الميراث عند الجاهلية وقبيل مبعث الرسول (٤).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة النساء: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** ﴾ [النساء: ٢٤] تجده قد توسع في نكاح المتعة وتعرض لأقوال العلماء، وذكر أدلتهم بتوسع ظاهر(٥).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة النساء: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ [النساء:٣١].. الآية، تجده يقول: (فصل: في أقاويل

---

(١) الجزء الأول ص٨٣ –٨٤.
(٢) الجزء الأول ص١٢٢.
(٣) الجزء الأول ص١٢٥.
(٤) الجزء الأول ص٩١.
(٥) الجزء الثاني ص١٠٢ – ١٠٤.

أهل التأويل في عدد الكبائر، مجموعة من الكتاب والسنة، مقرونة بالدليل والحجة).. ثم يسردها جميعًا ويذكر أدلتها علي وجه التفصيل (١).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة النساء: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء:٤٣].. الآية، تجده يعرض لأقوال السلف في معني اللمس والملامسة.. ثم يقول: واختلف الفقهاء في حكم الآية علي خمسة مذاهب، ويتوسع علي الخصوص في بيان مذهب الشافعي ويسرد أدلته، ويذكر تفصيل كيفية الملامسة عنده، كما يعرض لأقوال العلماء في التيمم ومذاهبهم وأدلتهم بتوسع ظاهر عندما يتكلم عن قوله تعالي﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (٢).

وهكذا يتطرق الكتاب إلي نواح علمية متعددة، في إكثار وتطويل يكاد يخرج به عن دائرة التفسير بالمأثور.

ثم إن هناك ناحية أخري يمتاز بها هذا التفسير، هي التوسع إلي حد كبير في ذكر الإسرائيليات بدون أن يتعقب شيئا من ذلك أو ينبه علي ما فيه رغم استبعاده وغرابته، وقد قرأت فيه قصصا إسرائيليا نهاية في الغرابة.

ويظهر لنا أن الثعلبي كان مولعاً بالأخبار والقصص إلي درجة كبيرة، بدليل أنه ألف كتاباً يشتمل علي قصص الأنبياء، ولو أنك رجعت إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الكهف ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ [الكهف : ١٠] لوجدته يروي عن السدي ووهب وغيرهما كلاماً طويلاً في أسماء أصحاب الكهف وعددهم،وسبب خروجهم إليه، ولوجدته يروي عن كعب الأحبار، ما جري لهم مع الكلب حين تبعهم إلي الغار، ولعجبت حين تراه يروي أن النبي ﷺ طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف فأجابه الله بأنه لن يراهم في دار الدنيا، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته إلي آخر القصة التي لا يكاد العقل يصدقها(٣).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الكهف أيضا:﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ٩٤] تجده قد أطال وذكر كلاماً لا يمكن أن يقبل بحال. لأنه أقرب إلي الخيال منه إلي الحقيقة (٤).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة مريم:﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ الآية [مريم: ٢٧]، تجده يروي عن السدي ووهب وغيرهما قصصاً كثيراً، وأخباراً في نهاية الغرابة والبعد (٥).

---

(١) الجزء الثاني ص ١١٠ – ١١٢.
(٢) الجزء الثاني ص ١٥٢ – ١٣٦.
(٣) الجزء الرابع ص١٢١ – ١٢٥.
(٤) الجزء الرابع ص١٤٠ – ١٤٣.
(٥) الجزء الرابع ص ١٤٧ – ١٤٩.

ثم إن الثعلبي لم يتحر الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف، بل نجده - كما لاحظنا عليه وكما قال السيوطي في الإتقان (١) - يكثر من الرواية عن السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن سورة سورة، فروي في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها منسوبا إلي أبي بن كعب، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة علي ألسنة الشيعة فسود بها كتابه دون أن يشير إلي وضعها واختلاقها. وفي هذا ما يدل عن أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها.

هذا .. وإن الثعلبي قد جر علي نفسه وعلي تفسيره بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات،وعدم الدقة في اختيار الأحاديث، اللوم المرير والنقد اللاذع من بعض العلماء الذين لاحظوا هذا العيب علي تفسيره، فقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير(٢): (والثعلبي هو نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع).

وقال أيضا في فتاواه: (٣)- وقد سئل عن بعض كتب التفسير: (وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره وتفسيره، وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها).

ومن يقرأ تفسير الثعلبي يعلم أن ابن تيمية لم يتقول عليه، ولم يصفه إلا بما هو فيه.

وقال الكتاني في الرسالة المستطرفة (٤) عند الكلام عن الواحدي المفسر: (ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث، بل في تفسيرهما- وخصوصا الثعلبي- أحاديث موضوعة وقصص باطلة).

والحق أن الثعلبي رجل قليل البضاعة في الحديث، بل ولا أكون قاسيًا عليه إذا قلت إنه لا يستطيع أن يميز الحديث الموضوع من غير الموضوع، وإلا لما روي في تفسيره أحاديث الشيعة الموضوعة علي عليّ، وأهل البيت، وغيرها من الأحاديث التي اشتهر وضعها، وحذر العلماء من روايتها.

والعجب أن الثعلبي بعد هذا كله يعيب كل كتب التفسير أو معظمها حتي كتاب محمد بن جرير الطبري الذي شهد له خلق كثير، وليته إذ ادعي في مقدمة

---

(١) الجزء الثاني ص١٨٩ .
(٢) صفحة ١٩ .
(٣) الجزء الثاني ص ١٩٣ .
(٤) صفحة ٥٩ .

تفسيره أنه لم يعثر في كتب من تقدمه من المفسرين علي كتاب جامع مهذب يعتمد، أخرج لنا كتابه خالياً مما عاب عليه المفسرين.. ليته فعل ذلك.. إذن لكان قد أراحنا وأراح الناس من هذا الخلط والخبط الذي لا يخلو منه موضع من كتابه.

٤ – معالم التنزيل (للبغوي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف معالم التنزيل هو أبو محمد، الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء[١] البغوي[٢]، الفقيه، الشافعي، المحدث، المفسر، الملقب بمحيي السنة وركن الدين. تفقه البغوي علي القاضي حسين وسمع الحديث منه، وكان تقياً ورعاً، زاهداً، قانعاً، إذا ألقي الدرس لا يلقيه إلا علي طهارة، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز وحده، ثم عدل عن ذلك فصار يأكل الخبز مع الزيت. توفي رحمه الله في شوال سنة ٥١٠هـ (عشر وخمسمائة من الهجرة) بـ(مرورروز) وقد جاوز الثمانين، ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقاني.

● مبلغه من العلم:

كان البغوي إماماً في التفسير إماماً في الحديث، إماماً في الفقه، وعده التاج السبكي من علماء الشافعية الأعلام، وقال: كان إماما جليلاً، ورعاً زاهداً فقيهاً، محدثاً مفسراً، جامعاً بين العلم والعمل، سالكاً سبيل السلف، وصنف في تفسير كلام الله تعالي، وأوضح المشكلات من قول النبي ﷺ، وروي الحديث واعتني بدراسته، وصنف كتباً كثيرة، فمن تصانيفه: (معالم التنزيل في التفسير) وهو الذي ترجمنا له، وسنتكلم عنه، وشرح السنة في الحديث، والمصابيح في الحديث أيضاً، والجمع بين الصحيحين، والتهذيب في الفقه وغير ذلك، وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته[٣].

● التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون[٤]: (معالم التنزيل في التفسير، للإمام محيي السنة، أبي

---

(١) الفراء نسبة إلي عمل الفراء وبيعها.

(٢) البغوي نسبة إلي بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ، وبغشور، وهذه النسبة شاذة علي خلاف الأصل. قاله السمعاني في كتاب (الأنساب).

(٣) انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص١٣، ووفيات الأعيان: ١/١٤٥ – ١٤٦ والطبقات الكبري لابن السبكي: ٤/٢١٤ – ٢١٥.

(٢) الجزء الثاني ص٢٨٥.

محمد حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفي سنة ٥١٦ هـ (ست عشرة وخمسمائة) [١] وهو كتاب متوسط، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين ،ومن بعدهم، واختصره الشيخ تاج الدين أبو نصري عبد الوهاب بن محمد الحسيني المتوفي سنة ٨٧٥ هـ (خمس وسبعين وثمانمائة).

ووصفه الخازن في مقدمة تفسيره بأنه :(من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامع للصحيح من الأقاويل ، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلي بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشي بالقصص الغريبة، وأخبار الماضيين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضح العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال).

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير [٢] : (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة).

وقال في فتاواه [٣] – وقد سئل عن أي التفاسير أقرب إلي الكتاب والسنة: الزمخشري. أم القرطبي. أم البغوي أم غير هؤلاء؟؟ – قال: (وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك).

وقال الكتاني في الرسالة المستطرفة (ص ٥٨) : (وقد يوجد فيه – يعني معالم التنزيل – من المعاني والحكايات ما يُحكم بضعفه أو وضعه).

وقد طبع هذا التفسير في نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشي الدمشقي، كما طبع مع تفسير الخازن، وقد قرأت فيه فوجدته يتعرض لتفسير الآية بلفظ سهل موجز، وينقل ما جاء عن السلف في تفسيرها، وذلك بدون أن يذكر السند، يكتفي في ذلك بأن يقول مثلاً : قال ابن عباس كذا وكذا، وقال مجاهد، كذا وكذا، وقال عطاء كذا وكذا، والسر في هذا هو أنه ذكر في مقدمة تفسيره إسناده إلي كل من يروي عنهم. وبين أن له طرقًا سواها تركها اختصاراً. ثم إنه إذا روي عمن ذكر أسانيده إليهم بإسناد آخر غير الذي ذكره في مقدمة تفسيره فإنه يذكره عند الرواية، كما يذكر إسناده إذا روي عن غير من ذكر أسانيده إليهم من الصحابة والتابعين، كما أنه – بحكم كونه من الحفاظ المقنين للحديث – كان يتحري الصحة فيما يسنده إلي الرسول ﷺ، ويعرض

---

(١) هكذا قال ، والصحيح ما تقدم، وكثيراً ما يخطئ صاحب كشف الظنون في تعيين التواريخ.

(٢) صفحة ١٩.

(٣) الجزء الثاني ص١٩٣.

عن المناكير وما لا تعلق له بالتفسير، وقد أوضح هذا في مقدمة كتابه فقال: (وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب علي وفاق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة. وعليها مقدار الشرع وأمور الدين - فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير[١].

وقد لاحظت علي هذا التفسير أنه يروي عن الكلبي وغيره من الضعفاء كما لاحظت أنه يتعرض للقراءات، ولكن بدون إسراف منه في ذلك، كما أنه يتحاشي ما ولع به كثير من المفسرين من مباحث الإعراب، ونكت البلاغة، والاستطراد إلي علوم أخري لا صلة لها بعلم التفسير، وإن كان في بعض الأحيان يتطرق إلي الصناعة النحوية ضرورة الكشف عن المعني، ولكنه مقل لا يكثر. ووجدته يذكر أحياناً بعض الإسرائيليات ولا يعقب عليها [٢] ووجدته يورد بعض إشكالات علي ظاهر النظم ثم يجيب عنها. [٣] كما وجدته ينقل الخلاف عن السلف في التفسير ويذكر الروايات عنهم في ذلك، ولا يرجح رواية علي رواية، ولا يضعف رواية ويصحح أخري.

وعلي العموم فالكتاب في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور وهو متداول بين أهل العلم.

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (لابن عطية)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي [٤] الحافظ القاضي. ولي القضاء بمدينة المرية بالأندلس ولما تولي توخي الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة. ويقال: إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولي قضاءها، فَصُدَّ عن دخولها، وصُرِفَ منها إلي الرقة بالمغرب، واُعْتُدِيَ عليه رحمه الله، وكان مولده سنة ٤٨١ هـ (إحدي وثمانين وأربعمائة)، وتوفي بالرقة سنة ٥٤٦هـ (ست وأربعين وخمسمائة من الهجرة) وقيل غير ذلك.

---

(١) الجزء الأول ص ٩.

(٢) انظر ما ذكره في قصه هاروت وماروت، وانظر ما رواه عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٥١) من سورة البقرة: ﴿ **وقتل داود جالوت** ﴾ (١ / ٦٠٤ - ٦٠٩).

(٣) انظر ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١١٧) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (١ / ٢٩٤).

(٤) اقتصرنا هنا علي ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط (١ / ٩) وقد راجعت بعض الكتب =

● **مكانته العلمية:**

نشأ القاضي أبو محمد بن عطية في بيت علم وفضل، فأبوه أبو بكر غالب بن عطية، إمام حافظ، وعالم جليل. رحل في طلب العلم وتفقه علي العلماء. وجده عطية أنسل كثيرا لهم قدر وفيهم فضل، فلا عجب إذن أن يشبه الفرع أصله.

كان أبو محمد بن عطية غاية في الدهاء والذكاء وحسن الفهم وجلالة التصرف شغوفاً باقتناء الكتب،وكان علي مبلغ عظيم من العلم، فكان فقيهاً جليلاً، عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير، ونحوياً لغوياً، أديباً شاعراً مقيداً ضابطاً، سنياً فاضلاً. وصفه صاحب (قلائد العقيان) بالبراعة في الأدب، والنظم، والنثر، وذكر شيئاً من شعره، ووصفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط بأنه: (أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير) (١).

روي عن أبيه، وأبي علي الغساني، والصفدي. وروي عنه أبو بكر بن أبي حمزة، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو جعفر بن مضاء، وغيرهم.

وقد خلف من المؤلفات كتاب التفسير، المسمي بـ(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) وهو الكتاب الذي ترجمنا له وسنتكلم عنه، كما ألف برنامجا ضمنه مروياته وأسماء شيوخه، وقد حرر هذا الكتاب وأجاد فيه.

وعلي الجملة، فالقاضي أبو محمد بن عطية عالم له شهرته العلمية في نواح مختلفة، وقد عده ابن فرحون في (الديباج المذهب) من أعيان مذهب المالكية كما عدة السيوطي في (بغية الوعاة) من شيوخ النحو وأساطين النحاة (٢).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

تفسير ابن عطية المسمي بـ(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) تفسير له

= فوجدت الاختلاف في ذكر نسبه كثيراً، ففي الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: (عبد الحق غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرؤوف تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف ابن أسلم بن مكرم المحاربي، يكني أبو محمد من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس غيلان من مضر).

وفي بغية الوعاة في طبقات النحاة: (عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم، وقيل: عبد الرحمن ابن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطي، صاحب التفسير، الإمام أبو محمد).

وفي كشف الظنون عند التعريف بكتابه المحرر الوجيز: (أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي) وفيه أيضا: (أبو محمد عبد الله بن عبد الحق).

(١) البحر المحيط: ١ / ٩.

(٢) انظر ترجمة ابن عطية في الديباج المذهب في أعيان المذهب ص ١٧٤، وفي بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي ص٢٩٥.

قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين، وذلك راجع إلي أن مؤلفه أضفي عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة، ورواجاً، وقبولاً. وقد لخصه مؤلفه – كما يقول ابن خلدون في مقدمته – من كتب التفاسير كلها – أي تفاسير المنقول – وتحري ما هو أقرب إلي الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحي) [١].

والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع، حتي طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في العربية وغيرها من النواحي العلمية المختلفة، ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإنه لا يزال مخطوطاً إلي اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط: الجزء الثالث،والخامس، والثامن، و العاشر. وقد رجعت إلي هذه الأجزاء وقرأت منها ما شاء الله أن قرأ، فوجدت المؤلف يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبري كثيراً، ويناقش المنقول عنه أحياناً، كما يناقش ما ينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي، معني بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلي اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة.

ونجد أبا حيان في مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فيقول: (وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص، وأغوص) [٢].

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين الكتابين – كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشري – في فتاواه فيقول: (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع وإن اشتمل علي بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير) [٣]. كما يعقد مثل هذه المقارنة في مقدمته في أصول التفسير فيقول: (وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثور عنهم علي وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري – وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً – ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩١.
(٢) تفسير البحر المحيط : ١/ ١٠.
(٣) فتاوي ابن تيمية : ٢/ ١٩٤.

أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلي السنة من المعتزلة) (١).

وأنا في أثناء قراءتي في هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالي في سورة يونس ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] يقول ما نصه :(قالت فرقة هي الجمهور: الحسني : الجنة. والزيادة : النظر إلي الله عز وجل، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ، رواه صهيب، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق، وحذيفة، وأبي موسي الأشعري) .ثم يقول : (وقال فرقة: الحسني هي الحسنة، والزيادة هي تضعيف الحسنات إلي سبعمائة، فروتها حسب ما روي في نص الحديث وتفسير قوله تعالي﴿ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٦١] . ., وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول) . . ثم يأخذ في ذكر طرق الترجيح للقول الثاني.

وهذا يدلنا علي أنه يميل إلي ما تميل إليه المعتزلة، أو علي الأقل يقدر ما ذهبت إليه المعتزلة في مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور. ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذي جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق.

٦ – تفسير القرآن العظيم (لابن كثير)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم الدمشقي، الفقيه الشافعي، قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه، سمع من ابن الشجنة، والآمدي، وابن عساكر، وغيرهم، كما لازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره علي ابنته. وأخذ عن ابن تيمية، وفتن بحبه، وامتحن بسببه. وذكر ابن قاضي شهبة في طبقاته: أنه كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسأله الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي.

وقال الداودي في طبقات المفسرين: (كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، ولي مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي – وبعد موت السبكي مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أخذت منه) (٢).

وكان مولده سنة ٧٠٠ هـ (سبعمائة) أو بعدها بقليل وتوفي في شعبان سنة

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص٢٣.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

٧٧٤هـ (أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة)، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كف بصره في آخر عمره.. رحمه الله رحمة واسعة.

● **مكانته العلمية:**

كان ابن كثير علي مبلغ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصاً في التفسير والحديث والتاريخ. قال عنه ابن حجر: (اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذي سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرع في شرح البخاري.. وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، وصارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن علي طريق المحدثين في تحصيل العوالي، وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد). وقال الذهبي عنه في المعجم المختص: (الإمام المفتي، المحدث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة)، وذكره صاحب شذرات الذهب فقال: (كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم) وقال ابن حبيب فيه: (زعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوي وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير) وقال فيه أحد تلاميذه ابن حجي: (أحفظ من أدركناه لمتون الحديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به علي كثرة ترددي عليه إلا واستفدت منه). وعلي الجملة.. فعلم ابن كثير يتجلي بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه، وهما من خير ما ألف، وأجود ما أخرج للناس[(١)].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير المأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير. اعتني فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالي بالأحاديث والآثار مسندة إلي أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلا. وقد طبع هذا التفسير مع معالم التفسير للبغوي، ثم طبع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار[(٢)].

وقد قدم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلق

---

(١) انظر ترجمة ابن كثير في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١ / ٣٧٣ - ٣٧٤) وفي شذرات الذهب (٦ / ٣٣١ - ٣٣٢)، وفي طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

(٢) وقد قام المرحوم الشيخ أحمد شاكر بطبع هذا الكتاب أخيراً بعد أن جرده من الأسانيد.

واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير.

ولقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخري ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعني ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعني الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية، ويبين ما يحتج به وما لا يحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف.

ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال علي بعض، ويضعف بعض الروايات ويصحح بعضاً آخر منها، ويعدل بعض الرواة ويجرح بعضاً آخر [1]. وهذا يرجع إلي ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيراً ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدمه.

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه ينبه إلي ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها علي وجه الإجمال تارة، وعلي وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخري. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ إلي آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة وعن وجودهم لها عند رجل من بني إسرائيل كان من أبر الناس بأبيه.. إلخ، ويروي كل ما قيل في ذلك عن بعض علماء السلف: ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: (وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم) [2].

---

(١) انظر إليه وقد ضعف أبا معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني الذي يروي عنه أبو حاتم عند قوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿ **وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ** ﴾ (٢١٦/١) وانظر إليه وقد ضعف يحيي بن سعيد عند قوله تعالي في الآية (٢٥١) من سورة البقرة ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ الآية (٣٠٣/١).

(٢) الجزء الأول ص١٠٨ — ١١٠.

ومثلاً عند تفسيره لأول سورة (ق) نراه يعرض لمعني هذا الحرف في أول السورة (ق) ويقول :(. .وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به علي الناس أمر دينهم ، كما افتري في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدي وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب علي الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم)[١].

كما نلاحظ علي ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن تري مثالاً لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ . . الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها وأدلتهم علي ما ذهبوا إليه[٢]، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالي في الآية (٢٣٠) من سورة البقرة أيضا: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾ . . الآية، فإنه قد تعرض لما يشترط في نكاح الزوج المحلل ، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم[٣].

وهكذا يدخل ابن كثير في خلافات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مقل لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجملة . . . فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطي في ذيل(تذكرة الحفاظ)، والزرقاني في (شرح المواهب) : إنه لم يؤلَّف علي نمطه مثله[٤].

* * *

---

(١) الجزء الرابع ص٢٢١ . (٢) الجزء الأول ص٢١٦ - ٢١٧ .
(٣) الجزء الأول ص٢٧٧ - ٢٧٩ ، وانظر إليه قبل ذلك مباشرة تجده قد أطال الكلام عن الخلع ومذاهب الفقهاء فيه . (٤) الرسالة المستطرفة للكتاني ص١٤٦ .

٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن (للثعالبي)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف الجواهر الحسان، هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجزائري، المغربي، المالكي، الإمام الحجة، العالم العامل الزاهد الورع، ولي الله الصالح العارف بالله. كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين. قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلاً صالحاً، زاهداً، عالماً، عارفاً، ولياً من أكابر الأولياء. وبالجملة فقد اتفق الناس علي صلاحه وإمامته، وأثني عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام الأبي، والولي العراقي وغيرهما. وقد عرف هو بنفسه في مواضع من كتبه، وبين أنه رحل من الجزائر لطلب العلم في آخر القرن الثامن فدخل بجاية، ثم تونس، ثم رجل إلي مصر، ثم رجع إلي تونس. ويقول هو: لم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه، تواضعاً منهم وإنصافاً، واعترافاً بالحق، وكان بعض المغاربة يقول لي لما قدمت من المشرق: أنت آية في علم الحديث. وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم في تلك البلاد.

وكان الثعالبي إماماً علامة مصنفاً، خلف للناس كتباً كثيرة نافعة منها: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) وهو التفسير الذي نحن بصدده، وكتاب الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن، وكتاب جامع الأمهات في أحكام العبادات، وغير ذلك من الكتب النافعة في نواح علمية مختلفة. وكانت وفاته سنة ٨٧٦هـ (ست وسبعين وثمانمائة من الهجرة) أو في أواخر التي قبلها، عن نحو تسعين سنة ودفن بمدينة الجزائر، فرحمه الله ورضي عنه(١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

نستطيع أن نأخذ فكرة عامة واضحة عن هذا التفسير من كلام مؤلفه نفسه الذي ذكره في مقدمته وخاتمته. يقول الثعالبي رحمه الله في مقدمة تفسيره بعد حمد الله والصلاة والسلام علي رسول الله: (فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام

---

(١) انظر ترجمته في الضوء اللامع: ٤ / ١٥٢، وفي نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص١٧٣ - ١٧٥.

هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات وذلك قريب من مائة تأليف، وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت، وعلي لفظ صاحبه عولت، ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعني خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه، وما انفردت بنقله عن الطبري، فمن اختصار الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمي النحوي لتفسير الطبري نقلت، لأنه اعتني بتهزيبه).

ثم أبان المؤلف عن رموز الكتاب فقال: (وكل ما في آخره: (انتهي) فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك مما انفردت بنقله من غيره، ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر فليراجع الأمهات المنقول عنها فليصلحه منها ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزلل من حيث لا يشعر وجعلت علامة (التاء) لنفسي بدلاً من: (قلت)، ومن شاء كتبها: قلت وأما (العين) فلابن عطية. وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقصي مختصر أبي حيان غالباً.، وجعلت (الصاد) علامة عليه، وربما نقلت عن غيره معزواً لمن عنه نقلت. وكل ما نقلته عن أبي حيان - وإنما نقلي له بواسطة الصفاقصي - أقول : قال الصفاقصي: وجعلت علامة ما زدته علي أبي حيان (م) وما يتفق لي إن أمكن فعلامته: (قلت) وبالجملة فحيث أطلق فالكلام لأبي حيان).

ثم قال: (وما نقلته من الأحاديث الصحاح والحسان عن غير البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي في باب الأذكار والدعوات، فأكثره من النووي وسلاح المؤمن. وفي الترغيب والترهيب وأصول الآخرة، فمعظمه من التذكرة للقرطبي، والعاقبة لعبد الحق. وربما زدت زيادة كثيرة من مصابيح البغوي وغيره، كما ستقف إن شاء الله تعالي علي كل ذلك معزواً لمحاله.

وبالجملة فكتابي هذا محشو بنفائس الحكم، وجواهر السنن الصحيحة، والحسان المأثورة عن سيدنا محمد ﷺ وسميته بالجواهر الحسان في تفسير القرآن).

ثم نقل مما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية، فذكر باباً في فضل القرآن وباباً في فضل تفسير القرآن وإعرابه، وفصلاً فيما قيل في الكلام فيه، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين، وفصلاً في اختلاف الناس في معني قوله ﷺ: (أنزل القرآن علي سبعة أحرف) وفصلاً في ذكر الألفاظ التي في القرآن مما للغات العجم بها تعلق، وبابا في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية.. ثم شرع في التفسير بعد ذلك كله ، وفي كل ما تقدم يعتمد علي ابن عطية وينقل عنه (١).

---

(١) الجزء الأول: من أول الجزء إلي ص٥.

وفي خاتمة التفسير يقول: (وقد أودعته بحمد الله جزيلاً من الدرر، وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية. وأسقطت كثيراً من التكرار وما كان من الشواذ في غاية الوهي، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغني عنها، مميزة معزوة لمحالها، منقولة بألفاظها، وتوخيت في جميع ذلك الصدق والصواب)(١).

هذا هو وصف المؤلف لكتابه وبيانه له، ومنه يتضح جلياً أن الكتاب عبارة عن مختصر لتفسير ابن عطية، مع زيادة نقول نقلها الثعالبي عمن سبقه من المفسرين ومن أجل هذا نستطيع أن نقول: إن الثعالبي في تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل، وأثر فكري ضئيل.

والكتاب مطبوع في الجزائر في أربعة أجزاء، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخري بالمكتبة الأزهرية، وفي آخر الكتاب معجم مختصر في شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة، ألحقه به مؤلفه، وزاد فيه كلمات أخري وردت في غيره يحتاج إلي معرفتها، وجلها مما جاء في الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب الستة،وبعد هذا ذكر الثعالبي مرائيه التي رأي فيها النبي ﷺ.

وقد قرأت في هذا التفسير فلاحظت أنه التزم ما ذكره في مقدمته ، فنقل عمن ذكرهم، ورمز إليهم بالحروف المذكورة، ووجدته يتعرض للقراءات أحياناً ويدخل في الصناعة النحوية ناقلاً عمن ذكره ومن عند نفسه، ورأيته يستشهد في بعض المواضع بالشعر العربي علي المعني الذي يذكره ،وهو إذ يذكر الروايات المأثورة في التفسير يذكرها بدون أن يذكر سنده إلي من يروي عنه، وقد وجدت الثعالبي يذكر بعض الروايات الإسرائيلية، ولكنه يتعقب ما يذكره بما يفيد عدم صحته، أو علي الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٠) من سورة النمل ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ نجده يذكر بعض الأخبار الإسرائيلية، ثم يقول بعد الفراغ منها (والله أعلم بما صح من ذلك) (٢).

ومثلاً عندما تكلم عن (بلقيس) في نفس السورة السابقة نجده يقول: (وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية، أنها امرأة ملكة علي مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار) (٣).

وجملة القول .. فإنّ الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المخل، والاستطراد الممل.

---

(١) الجزء الرابع ص٤٥٤ . (٢) الجزء الثالث ص ١٥٩ . (٣) المرجع السابق.

٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور (للسيوطي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي الشافعي، المسند المحقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة، ولد في رجب سنة ٨٤٩هـ (تسع وأربعين وثمانمائة)، وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسند وصايته إلي جماعة، منهم الكمال بن الهمام، فقرره في وظيفة الشيخونية، ولحظه بنظره، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين، وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عدهم تلميذه الداودي فبلغ بهم واحداً وخمسين كما عد مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد علي الخمسمائة مؤلف، وشهرة مؤلفاته تغني عن ذكرها، فقد اشتهرت شرقاً وغرباً، ورزقت قبول الناس. وكان السيوطي - رحمه الله - آية في سرعة التأليف حتي قال تليمذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالاً، وغريباً، ومتناً وسنداً واستنباطاً للأحكام. ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، قال: لو وجدت أكثر لحفظت. ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة، وانقطع إلي الله تعالي، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه بـ (التنفيس) وأقام في روضة المقياس ولم يتحول عنها إلي أن مات. وله مناقب وكرامات كثيرة. وله شعر كثير جيد، أغلبه في الفوائد العلمية، والأحكم الشرعية. وتوفي في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادي الأولي سنة ٩١١ هـ (إحدي عشرة وتسعمائة) في منزله بروضة المقياس، فرضي الله عنه وأرضاه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

عرف الجلال السيوطي نفسه هذا التفسير، وبين لنا الحامل له علي تأليفه، وذلك بمجموع ما ذكره في آخر كتاب الإتقان له، وما ذكره في مقدمة الدر المنثور نفسه، فقال في آخر الإتقان (٢/١٨٣): (وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي ﷺ فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ولله الحمد في أربع مجلدت، وسميته (ترجمان القرآن).

وقال في مقدمة الدر المنثور (١/٢): (وبعد.. فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن - وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ - وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات (٢)، رأيت قصور أكثر

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ٨/٥١ - ٥٥.

(٢) أي طرقاً كثيرة.

الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار علي متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه علي متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلي كل كتاب معتبر وسميته بالدر المنثور، في التفسير المأثور).

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطي اختصر كتابه الدر المنثور من كتابه ترجمان القرآن، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوة كل رواية إلي الكتاب الذي أخذها منه.

ويقول السيوطي في آخر الإتقان (٣ / ١٩٠): (وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلي غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذي جعلت هذا الكتاب – يعني الإتقان – مقدمة له).

ومن هذه العبارة يتبين لنا أن كتاب: (مجمع البحرين، ومطلع البدرين) يشبه في منهجه وطريقته – إلي حد كبير – تفسير ابن جرير الطبري، ولكن لا ندري إذا كان السيوطي قد أتم هذا التفسير أم لا، ويظهر لنا أنه لا صلة بينه وبين كتاب الدر المنثور، وذلك لأني استعرضت كتاب الدر المنثور فوجدته لا يتعرض فيه مطلقاً لما ذكره من منهجه في مجمع البحرين ومطلع البدرين، فلا استنباط، ولا إعراب، ولا نكات بلاغية، ولا محسنات بديعية، ولا شئ مما ذكر أنه سيعرض له في مجمع البحرين ومطلع البدرين، وكل ما فيه هو سرد الروايات عن السلف في التفسير بدون أن يعقب عليها، فلا يعدل ولا يجرح، ولا يضعف ولا يصحح، فهو كتاب جامع فقط لمايروي عن السلف في التفسير، أخذه السيوطي من البخاري، ومسلم، والنسائي والترمذي، وأحمد، وأبي داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وغيرهم ممن تقدمه ودَوَنَّ التفسير.

والسيوطي رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية، وهو مع جلالة قدره، ومعرفته بالحديث وعلله، لم يتحر الصحة فيما جمع في هذا التفسير، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، فالكتاب يحتاج إلي تصفية حتي يتميز لنا غثه من سمينه، وهو مطبوع في ست مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلي أن كتاب الدر المنثور، هو الكتاب الوحيد الذي اقتصر علي التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من عمل الرأي كما فعل غيره.

وإنما اعتبرنا كل هذه الكتب من كتب التفسير بالمأثور، نظراً لما امتازت به عما

عداها من الإكثار في النقل،والاعتماد علي الرواية، وما كان وراء ذلك من محاولات تفسيرية عقلية، أو استطرادات إلي نواح تتصل بالتفسير ، فذلك أمر يكاد يكون ثانوياً بالنسبة لما جاء فيها من روايات عن السلف في التفسير.

وإلي هنا نمسك عن الكلام عن بقية الكتب المؤلفة في التفسير المأثور لما قدمناه من عدم وصول جميعها إلينا، ومن مخافة التطويل.. ولعل القارئ الكريم يتفق معي علي أن هذه الكتب التي تقدمت، يغني الكلام عنها عن الكلام عما عداها من الكتب التي نهجت هذا المنهج وسلكت هذا الطريق.



الفصل الثاني

التفسير بالرأي وما يتعلق به من مباحث

● **معني التفسير بالرأي:**

يطلق الرأي علي الاعتقاد، وعلي الاجتهاد، وعلي القياس، ومنه: أصحاب الرأي، أي أصحاب القياس.

والمراد بالرأى هنا (الاجتهاد) وعليه فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه علي أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وسنذكرها قريبا إن شاء الله تعالي.

● **موقف العلماء من التفسير بالرأى:**

اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

فقوم تشددوا في ذلك فلم يجرءوا علي تفسير شئ من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شئ من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلي ما روي النبي ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين (١).

وقوم كان موقفهم علي العكس من ذلك، فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده.

والفريقان علي طرفي نقيض فيما يبدو، وكل يعزز رأيه ويقويه بالأدلة والبراهين.

أما الفريق الأول - فريق المانعين - فقد استدلوا بما يأتي:

أولاً - قالوا: إن التفسير بالرأي قول علي الله بغير علم، والقول علي الله بغير علم منهي عنه، فالتفسير بالرأي منهي عنه، دليل الصغري: أن المفسر بالرأي ليس علي يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالي، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول علي الله بغير علم.

---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني، الملحقة بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار. ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

ودليل الكبري: قوله تعالي ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ وهو معطوف علي ما قبله من المحرمات في قوله تعالي في الآية (٣٣) من سورة الأعراف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.. الآية وقوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة الإسراء: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾..

قد رد المجيزون هذا الدليل فقالوا: نمنع الصغري لأن الظن نوع من العلم، إذ هو إدراك الطرف الراجح. وعلي فرض تسليم الصغري فإنا نمنع الكبري، لأن الظن منهي عنه إذا أمكن الوصول إلي العلم اليقيني القطعي، بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع، أو دليل عقلي موصل لذلك، أما إذا لم يوجد شئ من ذلك، فالظن كاف هنا، لاستناده إلي دليل قطعي من الله سبحانه وتعالي علي صحة العمل به إذ ذاك. كقوله تعالي ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] وقوله عليه الصلاة والسلام: (جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحداً) ولقول رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلي اليمن: (فبم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله).

ثانيا - استدلوا بقوله تعالي: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤] فقد أضاف البيان إليه، فعلم أنه ليس لغيره شئ من البيان لمعاني القرآن.

وأجاب المجيزون عن هذا الدليل فقالوا: نعم إن النبي ﷺ مأمور بالبيان ولكنه مات ولم يبين كل شئ فما ورد بيانه عنه - ﷺ ففيه الكفاية عن فكره من بعده، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، فيستدلون بما ورد بيانه علي ما لم يرد، والله تعالي يقول في آخر الآية: ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾..

ثالثا - استدلوا بما ورد في السنة من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك:

١- ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمدا فليبتوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار).. قال أبو عيسي: هذا حديث حسن [١].

٢- ما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) [٢].

وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة:

---

(١) سنن الترمذي (في أبواب التفسير): ٢/١٥٧. (٢) المرجع السابق.

منها: أن النهي محمول علي من قال برأيه في نحو مشكل القرآن، ومتشابهه، من كل ما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبي ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله.

ومنها: أنه أراد - بالرأي - الرأي الذي يغلب علي صاحبه من غير دليل يقوم عليه، أما الذي يشده البرهان، ويشهد له الدليل، فالقول به جائز فالنهي علي هذا متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له في الشئ رأي وميل إليه من طبعه وهواه، فيتأول القرآن علي وفق هواه، ليحتج به علي تصحيح رأيه الذي يميل إليه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوي لما لاح له هذا المعني الذي حمل القرآن عليه. ومتناول لمن كان جاهلاً بالحق ولكنه يحمل الآية التي تحمل أكثر من وجه علي ما يوافق رأيه وهواه، ويرجح هذا الرأي بما يتناسب مع ميوله، ولولا هذا لما ترجح عنده ذلك الوجه. ومتناول أيضاً لمن كان له غرض صحيح ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآني يعلم أنه ليس مقصودا به ما أراد، مثل الداعي إلي مجاهدة النفس الذي يستدل علي ذلك بقوله تعالي: ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾[طه:٢٤] ويريد من فرعون النفس.. ولا شك أن مثل هذا قائل في القرآن برأيه.

ومنها: أن النهي محمول علي من يقول في القرآن بظاهر العربية، من غير أن يرجع إلي أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالي، وبدون أن يرجع إلي السماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من المبهمات. والحذف، والاختصار، والإضمار، والتقديم، والتأخير، ومراعاة مقتضي الحال، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وما إلي ذلك من كل ما يجب معرفته لمن يتكلم في التفسير، فإن النظر إلي ظاهر العربية وحده لا يكفي، بل لابد من ذلك أولاً، ثم بعد ذلك يكون التوسع في الفهم والاستنباط.

فمثلاً قوله تعالي:﴿ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ [الإسراء:٥٩] معناه: وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وآية بينة علي صدق رسالته، فظلموا بعقرها أنفسهم، ولكن الواقف عن ظاهر العربية وحدها بدون أن يستظهر بشئ مما تقدم، يظن أن (مبصرة) من الإبصار بالعين، وهو حال من الناقة، وصف لها في معني، ولا يدري بعد ذلك بم ظلموا ولا من ظلموا.

كل من هذه الأجوبة الثلاثة: يمكن أن يجاب به علي من يستند في قوله بحرمة التفسير بالرأي علي هذين الحديثين المتقدمين، وهي أجوبة سليمة دامغة كافية لإسقاط حجتهما والاعتماد عليهما.

هذا.. ويمكن الإجابة عن حديث جندب - زيادة عما تقدم - بأن هذا الحديث لم تثبت صحته، لأن من رواته سهيل بن أبي حزم، وهو متكلم فيه، قال فيه أبو

حاتم: ليس بالقوي، وكذا قال البخاري والنسائي، وضعفه ابن معين، وقال فيه الإمام أحمد: روي أحاديث منكرة (١) ، والترمذي نفسه يقول بعد روايته لهذا الحديث: (وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم).

رابعا- ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التي تدل علي أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ويتحرجون من القول فيه بآرائهم.

فمن ذلك : ما جاء عن أبي مليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال: (أي سماء تظلني، وأى أرض تقلني، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالي)؟

وما ورد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً.

وما روي عن الشعبي أنه قال: (ثلاث لا أقول فيهن حتي أموت: القرآن ،والروح، والرأي).

وهذا ابن مجاهد يقول: (قال رجل لأُبي أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكي أُبيّ، ثم قال: إني إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم).

وهذا هو الأصمعي إمام اللغة، كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز في تفسير الكتاب، بل والسنة، فإذا سئل عن معني شئ من ذلك يقول: (العرب تقول: معني هذا كله، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شئ هو).

.. وغيرهذا كثير من الآثار الدالة علي المنع من القول في التفسير بالرأي. وقد أجاب المجيزون عن هذه الآثار: بأن إحجام من أحجم من السلف عن التفسير بالرأي، إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً لأنفسهم،مخافة ألا يبلغوا ما كلفوا به من إصابة الحق في القول، وكانوا يرون أن التفسير شهادة علي الله بأنه عني باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عز وجل ، وكان منهم من يخشي أن يفسر القرآن برأيه فيجعل في التفسير إماماً يبني علي مذهبه ويقتفي طريقه، فربما جاء أحد المتأخرين وفسر القرآن برأيه فوقع في الخطأ ، ويقول: إمامي في التفسير بالرأي فلان من السلف.

ويمكن أن يقال أيضا: إن إحجامهم كان مقيدا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، أما إذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتحرجون من إبداء ما يظهر لهم ولو بطريق الظن فهذا

---

(١) انظر ميزان الاعتدال : ١ / ٤٣٢، وتهذيب التهذيب: ٤ / ٢٦١.

أبو بكر رضي الله عنه يقول: وقد سئل عن الكلالة - (أقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان: الكلالة كذا وكذا).

ويمكن أن يقال أيضاً: إنما أحجم من أحجم، لأنه كان لا يتعين للإجابة، لوجود من يقوم عنه في تفسير القرآن وإجابة السائل، وإلا لكانوا كاتمين للعلم وقد أمرهم الله ببيانه للناس.

وهناك أجوبة أخري غير ما تقدم. والكل يوضح لنا سر إحجام من أحجم من السلف عن القول في التفسير برأيهم، ويبين أنه لم يكن عن اعتقاد منهم بعدم جواز التفسير بالرأي.

وأما الفريق الثاني - فريق المجوزين - فقد استدلوا علي ما ذهبوا إليه بما يأتي:

أولا- بنصوص كثيرة وردت في كتاب الله تعالي: منها قوله تعالي ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد:٢٤] وقوله: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص:٢٩].. وقوله: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء: ٨٣]، ووجه الدلالة في هذه الآيات: أنه تعالي حث في الآيتين الأوليين علي تدبر القرآن والاعتبار باياته، والاتعاظ بعظاته كما دلت الآية الأخيرة علي أن في القرآن ما يستنبطه أولوا الألباب باجتهادهم، ويصلون إليه بإعمال عقولهم، وإذا كان الله قد حثنا علي التدبر، وتعبدنا بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً علي العلماء، مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة والعظة؟ لو كان ذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم، ولما توصلنا لشئ من الاستنباط، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالي.

ثانيا- قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل بيِّن البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلي اليوم أمام أربابه، والمجتهد في حكم الشرع مأجور، أصاب أو أخطأ، والنبي ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثا: استدلوا بما ثبت من أن الصحابة - رضوان الله عليهم - قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره علي وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ إذ أنه لم يبين لهم كل معاني القرآن، بل بين لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توصلوا إلي معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو كان القول بالرأي في القرآن محظوراً لكانت الصحابة قد خالفت ووقعت فيما حرم الله، ونحن نعيذ الصحابة من المخالفة والجرأة علي محارم الله.

رابعاً – قالوا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال في دعائه له: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل) فلو كان التأويل مقصوراً علي السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء فدل ذلك علي أن التأويل الذي دعا به الرسول ﷺ لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، وهذا بيّن لا إشكال فيه.

هذه هي أدلة الفريقين: وكل يحاول بما ذكر من الأدلة أن يثبت قوله ويركز مدعاه.

والغزالي – في الإحياء بعد الاحتجاج، والاستدلال علي بطلان القول بأن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه – يقول: (فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله) (١). كما قال قبل ذلك بقليل: (إن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهي الإدراك فيه) (٢).

والراغب الأصفهاني – بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما في مقدمة التفسير – يقول: (وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر علي المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالي: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٣) [ص: ٢٩].

● حقيقة الخلاف:

ونحن مع هذا البعض الذي نقل عنه الراغب هذا التحقيق إن وقف الفريق الأول عند المنقول فلم يتجاوزه، وأجاز الفريق الثاني لكل أحد الخوض في التفسير والكلام فيه، إذ أن الجمود علي المنقول تقصير وتفريط بلا نزاع، والخوض في التفسير لكل إنسان غلو وإفراط بلا جدال.

ولكن لو رجعنا إلي هؤلاء المتشددين في التفسير وعرفنا سر تشددهم فيه، ثم رجعنا إلي هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأي ووقفنا علي ما شرطوه من شروط لابد منها لمن يتكلم في التفسير برأيه، وحلّلنا أدلة الفريقين تحليلاً دقيقاً، لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي، ولبيان ذلك نقول:

الرأي قسمان: قسم جار علي موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لاشك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي.

وقسم غير جار علي قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط

---

(١) الإحياء: ٣ / ١٣٧. (٢) الإحياء: ٣ / ١٢٦.

(٣) مقدمة التفسير للراغب ص٤٢٢.

التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم، وهو الذي يرمي إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: (ستجدون أقواماً يدعونكم إلي كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ،فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع)، وكلام عمر إذ يقول: (إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن علي غير تأويله، ورجل ينافس الملك علي أخيه) وكلامه إذ يقول: (ما أخاف علي هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بَيِّنٌ فسقه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتي أذلقه بلسانه، ثم تأوله علي غير تأويله).

فكل هذا ونحوه، وارد في حق من لا يراعي في تفسير القرآن قوانين اللغة ولا أدلة الشريعة،جاعلاً هواه رائده، ومذهبه قائده، وهذا هو الذي يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي، وقد قال ابن تيمية – بعد أن ساق الآثار عمن تحرج من السلف من القول في التفسير– : فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محموله علي تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسر، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب علي كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالي: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران:١٨٧] ولما جاء في الحديث المروي من طرق: (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)(١).

وإذا قد علمنا أن التفسير بالرأي قسمان: قسم مذموم غير جائز ،وقسم ممدوح جائز، وتبين لنا أن القسم الجائز محدود بحدود، ومقيد بقيود فلابد لنا من أن نعرض هنا لما ذكروه من العلوم التي يحتاج إليها المفسر وما ذكروه من الأدوات التي إذا توافرت لديه وتكاملت فيه، خرج عن كونه مفسراً للقرآن بمجرد الرأي، ومحض الهوي (٢).

●العلوم التي يحتاج إليها المفسر:

اشترط العلماء في المفسر الذي يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون ملماً بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها

---

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص٣١ – ٣٢.

(٢) رجعنا في هذا البحث إلي مقدمة تفسير القرطبي ١ / ٣١ – ٣٥، والإحياء للغزالي: ٣/ ١٣٤– ١٤٢، والإتقان: ٢/ ١٧٩ – ١٨٠، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهاني ص ٤٢٢ – ٤٢٥، ومقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٩ – ٣٢.

أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ وتحميه من القول علي الله بدون علم، وإليك هذه العلوم مفصلة، مع توضيح ما لكل علم منها من الأثر في الفهم وإصابة وجه الصواب:

الأول - علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. قال مجاهد: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب) ثم إنه لابد من التوسع والتبحر في ذلك، لأن اليسير لا يكفي، إذ ربما كان اللفظ مشتركاً، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفي عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثاني - علم النحو: لأن المعني يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلابد من اعتباره، أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها،فإن الرجل يقرأ الآية فيعي بوجهها فيهلك فيها.

الثالث - علم الصرف: وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: (ومن فاته المعظم، لأن (وجد) مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها)، وحكي السيوطي عن الزمخشري أنه قال: (من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالي﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسراء: ٧١] جمع(أُم) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أما) لا تجمع علي إمام [١].

الرابع - الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً ،هل هو من السياحة أو من المسح؟

.**الخامس والسادس والسابع** - علوم البلاغة الثلاثة(المعاني و البيان والبديع) فعلم المعاني، يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعني. وعلم البيان، يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ،وعلم البديع، يعرف به وجوه تحسين الكلام.

---

(١) ونص عبارة الزمخشري: (ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع (أم) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسي عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين: وألا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه؟ أم بهاء حكمته)؟

وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن - علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة علي بعض.

التاسع - علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسر أن يستدل علي ما يجب في حقه تعالي، وما يجوز، وما يستحل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلي ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسر في ورطات.

العاشر - علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم، والخصوص والإطلاق، والتقييد ودلالة الأمر والنهي، وما سوي ذلك من كل ما يرجع إلي هذا العلم.

الحادي عشر - علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين علي فهم المراد من الآية.

الثاني عشر - علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين علي توضيح ما أجمل منها في القرآن.

الثالث عشر - علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكوم من غيره. ومن فقد هذه الناحية، ربما أفتي بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

الرابع عشر - الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، ليستعين بها علي توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر - علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالي لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالي: ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة:٢٨٢] .. وبقوله ﷺ (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم).

قال السيوطي بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التي لابد منها للمفسر (ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شئ ليس في قدرة الإنسان وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال في البرهان: (اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا تظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كبر، أو هوي أو حب دنيا، أو هو مصر علي ذنب، أو غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق أو يعتمد علي قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلي معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض) قلت: وفي هذا المعني قوله تعالي ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال ابن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن، أخرجه ابن أبي حاتم [(١)].

هذه هي العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالي، وقد ذكرناها مسهبة مفصلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضاً وأعرض عن بعض آخر، ومنهم من أدمج بعضها في بعض وضغطها حتي كانت أقل عدداً مما ذكرنا، وليس هذا العدد الذي ذكرنا حاصراً لجميع العلوم التي يتوقف عليها التفسير، فإن القرآن - مثلاً - قد اشتمل علي أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، وهي أمور تقتضي الإلمام بعلمي التاريخ وتقويم البلدان، لمعرفة العصور والأمكنة التي وجدت فيها تلك الأمم، ووقعت فيها هذه الحوادث. وأري أن أسوق هنا مقالة الأستاذ المرحوم السيد محمد رشيد رضا في مقدمة تفسيره تتميماً للفائدة، وإليك نص هذه المقالة التي اقتسبها من دروس أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده عليه رضوان الله:

قال رحمه الله: (للتفسير مراتب: أدناها أن يبين بإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلي الخير، وهذه هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧].

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت علي غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ: (التأويل)، اشتهر بمعني التفسير مطلقاً، أو علي وجه مخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعان أخري، كقوله تعالي: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ٥٣].. فما هذا التأويل؟ يجب علي من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولي، فعلي المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره، ويحقق ؛كيف يتفق معناه مع جملة معني الآية: فيعرف المعني المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه

---

(١) رجعنا في هذا البحث إلي الإتقان: ٢/ ١٨٠ - ١٨٢.

بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم علي حقيقة معني اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعني، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

ثانيها: الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من عملها مايفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف علي مراد المتكلم منه. نعم إننا لا نتسامي إلي فهم مراد الله تعالي كله علي وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة، ويحتاج في هذا إلي علم الإعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب.

ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبيعاً لهم؟ كلا، وإنما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم، ولو كان طبيعياً ذاتياً لما فقدوه في مدة خمسين سنة بعد الهجرة.

ثالثها: علم أحوال البشر، فقد انزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبين في غيره، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبعائهم، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علويه وسفليه، ويحتاج هذا إلي فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالي: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [البقرة:٢١٣] الآية وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا وما معني تلك الوحدة التي كانوا عليها. وهل كانت نافعة أو ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شئ علماً، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب علي المفسر القائم بهذا

الفرض الكفائي، أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأن القـرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم علي وجه الحقيقة أو ما يقرب منها، إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه؟

هل يُكتفي من علماء القرآن - دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد - بأن يقولوا تقليداً لغيرهم: إن الناس كانوا علي باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة؟ كلا.

وأقول الآن: يروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يُخشي أن ينقض عري الإسلام عروة عروة). (انتهي بالمعني).

والمراد: أن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله، يجهل تأثير هدايته، وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر، ومخرجاً لهم من الظلمات إلي النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي، كما تري بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو، لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب من أين جاء؟

خامسها: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل، وتصرف في الشئون دنيويها وأخرويها)[١].

هذه هي عبارة الأستاذ الشيخ رشيد رضا بنصها، وفيها تركيز وإدماج لبعض ما قلناه من قبل، وفيها شرح وإيضاح لبعض آخر منه، وهي تلقي ضوءاً علي ما تقدم، وتوضح بعض ما فيه من إيجاز.

● **مصادر التفسير:**

خرجنا من المعركة التي قامت بين المتحرجين من القول في التفسير بالرأي و المجيزين له: بأن الخلاف لفظي لا حقيقي، وأسفرت النتيجة عن انقسام التفسير بالرأي إلي قسمين: قسم جائز ممدوح، وقسم حرام مذموم، وعرفنا العلوم التي يجب علي المفسر معرفتها حتي يكون أهلاً للتفسير بالرأى الجائز وبقي علينا بعد ذلك أن نذكر المصادر التي يجب علي المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن، حتي يكون تفسيره جائزاً ومقبولاً، وإليك أهم هذه المصادر:

(١) تفسير المنار: ١/ ٢١ - ٢٤.

أولا : الرجوع إلي القرآن نفسه، وذلك بأن ينظر في القرآن نظرة فاحص مدقق، ويجمع الآيات التي في موضوع واحد، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر، فإن من الآيات ما أجمل في مكان وفسر في مكان آخر، ومنها ما أوجز في موضع وبسط في موضع آخر، فيحمل المجمل علي المفسر، ويشرح ما جاء موجزاً بما جاء مسهباً مفصلاً، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم.

ثانيا : النقل عن الرسول ﷺ، مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير، فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه لأن النبي ﷺ مؤيد من ربه، وموكول إليه أن يبين للناس ما نزل إليهم، فمن يترك ما يصح عن النبي ﷺ في التفسير إلي رأيه فهو قائل بالرأي المذموم.

ثالثا : الأخذ بما صح عن الصحابة في التفسير، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك، لأن في التفسير كثيراً مما وضع علي الصحابة كذباً واختلاقاً فإن وقع علي قول صحيح لصحابي في التفسير، فليس له أن يهجره ويقول برأيه، لأنهم أعلم بكتاب الله، وأدري بأسرار التنزيل لما شاهدوه من القرائن والأحوالو ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة: الخلفاء الراشدين ، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس وغيرهم،وقد سبق لنا أن عرضنا لقول الصحابي، هل له حكم المرفوع أو لا، واستوفينا الكلام في ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين في التفسير، أو لا بد له من الرجوع إلي أقوالهم؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له أيضاً فلا داعي لإعادته.

رابعا : الأخذ بمطلق اللغة، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولكن علي المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلي معان خارجة محتملة، يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا توجد غالبا إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها،روي البيهقي في الشعب عن مالك رضي الله عنه أنه قال(لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً).

خامساً : التفسير بالمقتضي من معني الكلام والمقتضب من قوة الشرع وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» والذي عناه علي رضي الله عنه بقوله – حين سئل: هل عندكم عن رسول الله ﷺ شئ بعد القرآن؟ – فقال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلاً في القرآن).

ومن هنا اختلف الصحابة في فهم بعض آيات القرآن، فأخذ كل بما وصل إليه عقله،وأداه إليه نظره [١].

● **الأمور التي يجب علي المفسر أن يتجنبها في تفسيره:**

هناك أمور يجب علي المفسر أن يتجنبها في تفسيره حتي لا يقع في الخطأ ويكون ممن قال في القرآن برأيه الفاسد، وهذه الأمور هي ما يأتي:

أولا: التهجم علي بيان مراد الله تعالي من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يُحَصِّل العلوم التي يجوز معها التفسير.

ثانياً: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .فليس للمفسر أن يتهجم علي الغيب بعد أن جعله الله تعالي سراً من أسراره وحجبه عن عباده.

ثالثاً: السير مع الهوي والاستحسان، فلا يفسر بهواه ولا يرجح باستحسانه.

رابعاً: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً، فيحتال في التأويل حتي يصرفه إلي عقيدته، ويرده إلي مذهبه بأي طريق أمكن، وإن كان غاية في البعد والغرابة.

خامسا: التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل ، وهذا منهي عنه شرعاً، لقوله تعالي في سورة البقرة ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٦٩] [٢]

وإذ قد بينا أن المفسر لا يجوز له أن يتهجم علي تفسير ما استأثر الله تعالي بعلمه وحجبه عن خلقه، وبينا أنه لا يجوز له أن يقطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، لزم علينا أن نبين أنواع العلوم التي اشتمل عليها القرآن ما يمكن معرفته منها وما لا يمكن، فنقول:

أنواع علوم القرآن

تتنوع علوم القرآن إلي أنواع ثلاثة، وهي ما يأتي:

النوع الأول: علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه،من معرفة كنه ذاته وغيوبه التي لا يعلمها إلا هو ، وهذا النوع لا يجوز لأحد الخوض فيه والتهجم عليه بوجه من الوجوه إجماعاً.

النوع الثاني: ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ من أسرار الكتاب واختصه به وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له – ﷺ – أو لمن أذن له قيل: ومنه الحروف المقطعة في أوائل السور، ومن العلماء من يجعلها من النوع الأول.

---

(١) انظر ما نقل عن الزركشي في الإتقان: ٢/ ١٧٨ – ١٧٩.

(٢) انظر ما نقل عن ابن النقيب في الإتقان: ٢/ ١٨٣.

النوع الثالث: علوم علمها الله نبيه مما أودع في كتابه من المعاني الجلية والخفية وأمره بتعليمها،وهذا النوع قسمان:

قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع، وذلك كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والقراءات، واللغات، وقصص الأمم الماضية، وأخبار ما هو كائن من الحوادث، وأمور الحشر والمعاد.

وقسم يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من العبارات والألفاظ، وهو ينقسم إلي قسمين: أحدهما: اختلفوا في جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات في الصفات ، وثانيهما: اتفقوا علي جوازه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية، والمواعظ والحكم والإشارات وما شاكل ذلك من كل ما لا يمتنع استنباطه من القرآن واستخراجه منه لمن كان أهلاً لذلك (١).

● **المنهج الذي يجب علي المفسر أن ينهجه في تفسيره:**

علمنا مما سبق: أن المفسر برأيه لابد أن يلم بكل العلوم التي هي وسائل لفهم كتاب الله، وأدوات للكشف عن أسراره، كما علمنا مما سبق أيضاً: أن المفسر لابد أن يطلب المعني أولاً من كتاب الله، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن وموضحة له، فإن أعجزه ذلك رجع إلي أقوال الصحابة، لأنهم أدري بكتاب الله وأعلم بمعانيه، لما اختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولاحتمال أن يكونوا سمعوه من الرسول ﷺ فإن عجز عن هذا كله، ولم يظفر بشئ من تلك المراجع الأولي للتفسير ، فليس عليه بعد ذلك إلا أن يُعمل عقله، ويقدح فكره، ويجتهد وسعه في الكشف عن مراد الله تعالي، مستنداً إلي الأصول التي تقدمت، مبتعداً عن كل ما ذكرنا من الأمور التي تجعل المفسر في عداد المفسرين بالرأي المذموم، وعليه بعد ذلك أن ينهج في تفسيره منهجاً يراعي فيه القواعد الآتية، بحيث لا يحيد عنها،ولا يخرج عن نطاقها، وهذه القواعد هي ما يأتي:

أولا: مطابقة التفسير للمُفَسَّر، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعني ، ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التفسير فيه زيغ عن المعني وعدول عن المراد.

ثانيا: مراعاة المعني الحقيقي والمعني المجازي، فلعل المراد المجازي، فيحمل الكلام علي الحقيقة أو العكس.

ثالثاً: مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات.

رابعاً: مراعاة التناسب بين الآيات، فيبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب في الإتقان :٢ /٨٣.

من آيات القرآن، حتي يوضح أن القرآن لا تفكك فيه، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض.

خامساً: ملاحظة أسباب النزول. فكل آية نزلت علي سبب فلابد من ذكره بعد بيان المناسبة وقبل الدخول في شرح الآية، وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن الزركشي قال في أوائل البرهان: (قد جرت عادة المفسرين أن يبدأوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه: أيهما أولي بالبداءة؟ أيبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة علي النزول؟ قال: والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً علي سبب النزول كآية ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨]. فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل علي المقاصد وإن لم يتوقف علي ذلك، فالأولي تقديم وجه المناسبة)(١).

سادساً: بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول. يبدأ بما يتعلق بالألفاظ المفردة - من اللغة، والصرف، والاشتقاق - ثم يتكلم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع ثم يبين المعني المراد، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية في حدود القوانين الشرعية.

سابعاً: علي المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار في القرآن ما أمكن.

نقل السيوطي عن بعض العلماء أنه قال: (مما يدفع توهم التكرار في عطف المترادفين نحو: ﴿**لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ**﴾ [المدثر:٢٨]، ﴿**صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ [البقرة:١٥٧] وأشباه ذلك، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معني لا يوجد عند انفراد أحدهما، فإن التركيب يحدث معني زائداً، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعني، فكذلك كثرة الألفاظ)(٢).

وعلي المفسر أيضاً أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو في التفسير كالخوض في ذكر علل النحو، ودلائل مسائل أصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل مسائل أصول الدين،فإن كل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلّماً في علم التفسير دون استدلال عليه.

وكذلك علي المفسر أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب النزول وأحاديث الفضائل، والقصص الموضوع، و الأخبار الإسرائيلية، فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن، ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار.

---

(١) الإتقان/٢/١٨٥.

(٢) الإتقان: ٢/١٨٥ - ١٨٦.

ثامنها: علي المفسر بعد كل هذا أن يكون يقظاً، فطناً عليماً بقانون الترجيح حتي إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يرجح ويختار (١).

وإذا كان المفسر لابد له من أن يحتكم إلي قانون الترجيح عندما تحتمل الآية أكثر من وجه، فإنا في حاجة إلي بيان هذا القانون، الذي هو الحكم الفصل عند تزاحم الوجوه وكثرة الاحتمالات فنقول:

قانون الترجيح في الرأي

أجمع كلمة قيلت في بيان هذا القانون، هي الكلمة التي نقلها لنا السيوطي في كتابه الإتقان عن البرهان للزركشي، ونري أن نسوقها هنا نقلاً عن الإتقان، ونكتفي بذلك لما فيها من الكفاية.

قال الزركشي رحمه الله تعالي: (كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً هو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل علي أن المراد هو الخفي.

وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عر فية، وفي الآخر شرعية، فالحمل علي الشرعية أولي، إلا أن يدل دليل علي إرادة اللغوية، كما في قوله ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولو كان في أحدهما عرفية، والآخر لغوية، فالحمل علي العرفية أولي. وإن اتفقا في ذلك أيضاً: فإن تنافي اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد، كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالي في حقه. وإن لم يظهر له شئ فهل يتخير في الحمل علي أيهما شاء؟ أو يأخذ بالأغلظ حكماً؟ أو بالأخف؟ أقوال. وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل علي إرادة أحدهما) (٢).

● **منشأ الخطأ في التفسير بالرأي:**

يقع الخطأ كثيراً في التفسير من بعض المتصدرين للتفسير بالرأي، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين، وفسروا بمجرد الرأي والهوي، غير مستندين إلي تلك الأصول التي قدمنا أنها أول شئ يجب علي المفسر أن يعتمد عليه. ولا متذرعين بتلك العلوم التي هي في الواقع أدوات لفهم كتاب الله والكشف عن أسراره ومعانيه.

---

(١) يراجع الإتقان: ٢/١٨٥ - ١٨٦، ومناهل العرفان: ١/٤٤٥,٤٤٦، ومنهج الفرقان: ٢/٤١.

(٢) الإتقان: ٢/١٨٢.

ونري هنا أن نذكر منشأ هذا الخطأ الذي وقع فيه كثير من طوائف المفسرين فنقول :

يرجع الخطأ في التفسير بالرأي – غالباً – إلي جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن الكتب التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً غير ممزوج بغيره، كتفسير عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وغيرهما لا يكاد يوجد فيها شئ من هاتين الجهتين، بخلاف الكتب التي جدت بعد ذلك فإنَّ كثيراً منها، كتفاسير المعتزلة والشيعة، مليئة بأخطاء لا تغتفر حملهم علي ارتكابها نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة.

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ في الغالب فهما ما يأتي :

الجهة الأولي : أن يعتقد المفسر معني من المعاني، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن علي ذلك المعني الذي يعتقده.

الجهة الثانية : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب. وذلك بدون نظر إلي المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.

فالجهة الأولي : مراعي فيها المعني الذي يعتقده المفسر من غير نظر إلي ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والجهة الثانية : مراعي فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربي ،من غير نظر إلي ما يصلح للمتكلم به والمخاطب، وسياق الكلام.

ثم إن الخطأ الذي يرجع إلي الجهة الأولي يقع علي أربع صور :

الصورة الأولي :أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً فمراعاة لهذا المعني يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي المعني الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول، وهذه الصورة تنطبق علي كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة في ذاتها ولكنها غير مرادة، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعني، وذلك مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير، فمثلاً عندما عرض لقوله تعالي في سورة النساء: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم** ﴾ [النساء: ٦٦] الآية نجده يقول ما نصه: ﴿ **اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ بمخالفة هواها، ﴿ **أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم** ﴾، أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم.. إلخ (١).

الصورة الثانية : أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً فمراعاة لهذا المعني يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به. ويحمله علي ما يريده هو، وعلي

---

(١) تفسير السلمي ص٤٩.

هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول أيضاًوهذه الصورة تنطبق علي تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة في حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعاني الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلي تفسير الباطنية، ومن ذلك ما فسر به سهل التستري قوله تعالي في سورة البقرة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] .. حيث يقول ما نصه: لم يرد الله معني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معني مساكنة الهمة لشئ هو غيره..... إلخ (١).

الصورة الثالثة: أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ فمراعاة لهذا المعني يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق علي ما ذكره بعض المتصوفة من المعاني الباطلة، وذلك كالتفسير المبني علي القول بوحدة الوجود، كما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي عندما عرض لقوله تعالي من سورة المزمل: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٨].. من قوله في تفسيرها واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي أعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله..... إلخ (٢).

الصورة الرابعة: أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ فمراعاة لهذا المعني يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به، ويحمله علي ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ في الدليل والمدلول معاً ،وهذه الصورة تنطبق علي تفاسير أهل البدع، والمذاهب الباطلة، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلي معني ليس في اللفظ أي دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة: (الجبت والطاغوت) بأبي بكر وعمر، وتارة يحتالون علي صرف اللفظ عن ظاهره إلي معني فيه تكلف غير مقبول، وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآني يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ (إلي) في قوله تعالي في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بالنعمة، ذهاباً منهم إلي أن (إلي) واحد الآلاء، بمعني النعم،فيكون المعني: ناظرة نعمة ربها، علي التقديم والتأخير (٣)، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله في الآخرة.

وأما الخطأ الذي يرجع إلي الجهة الثانية فهو يقع علي صورتين:

الصورة الأولي: أن يكون اللفظ محتملاً للمعني الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه

---

(١) تفسير التستري ص١٦.

(٢) التفسر المنسوب لابن عربي: ٢ / ٣٥٢.

(٣) أمالي السيد المرتضي: ١ / ٢٨.

غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يطلق في اللغة علي معنيين أو أكثر. والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسر فيحمله علي معني آخر من معانيه غير المعني المراد، وذلك كلفظ (أمة) فإنه يطلق علي معان، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله علي غير معني الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالي في سورة الزخرف: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ** ﴾ [الزخرف: ٢٢] غير صحيح وإن أحتمله اللفظ لغة.

الصورة الثانية: أن يكون اللفظ موضوعاً لمعني بعينه، ولكنه غير مراد في الآية، وإنما المراد معني آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلاً فيخطئ المفسر في تعيين المعني المراد، لأنه اكتفي بظاهر اللغة، فشرح اللفظ علي معناه الوضعي، وذلك كتفسير لفظ (مبصرة) في قوله تعالي في سورة الإسراء ﴿ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً** ﴾ [الإسراء: ٥٩] بجعل (مبصرة) من الإبصار بالعين، علي أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذ المراد: آية واضحة [١].

● **التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي**:

قلنا إن التفسير بالرأي قسمان: قسم مذموم غير مقبول، وقسم ممدوح ومقبول، أما القسم المذموم، فلا يعقل وجود تعارض بينه وبين المأثور، لأنه ساقط من أول الأمر، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح.

وأما التفسير بالرأي المحمود، فهذا هو الذي يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور، وهذا هو الذي نريد أن نتكلم فيه ونعرض له بالبحث والبيان، غير أنه يتحتم علينا - ليكون الكلام علي بصيرة - أن نعرض لبيان معني هذا التعارض فنقول:

التعارض بين التفسير العقلي والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافي بينهما، وذلك بأن يدل أحدهما علي إثبات أمر مثلاً، والآخر يدل علي نفيه، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فكأن كلاً منهما وقف في عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه. وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة وأمكن الجمع، فلا يسمي ذلك تعارضاً، وذلك كتفسيرهم: ﴿ **الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ بالقرآن، وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعاني وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة، لأن طريق الإسلام هو طريق القرآن، وهو طريق العبودية، وهو طاعة الله ورسوله. ومثلاً تفسيرهم لقوله تعالي: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾

---

(١) انظر في هذا البحث مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص٢٠ - ٢٤.

[فاطر:٣٢].. قيل فيه: السابق هو الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد هو الذي يصلي في أثنائه، والظالم هو الذي يصلي بعد فواته.

وقيل: السابق من يؤدي الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد من يؤدي الزكاة المفروضة وحدها، والظالم لنفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق.

وغير خاف أنه لا تنافي بين هذين التفسيرين وإن تغايرا، لأن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يتناول من يفعل الواجبات ويتقرب بعد ذلك بزيادة الحسنات، فكل ذكر فرداً لعام علي سبيل التمثيل لا الحصر.

هذا.. وإن الصور العقلية التي يحصل فيها التعارض بين التفسير العقلي والتفسير النقلي هي ما يأتي:

أولاً: أن يكون العقلي قطعياً والنقلي قطعياً كذلك.

ثانيا: أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً.

ثالثا: أن يكون أحدهما ظنياً والآخر ظنياً كذلك.

- وأما الصورة الأولي، ففرضية، لأنه لا يعقل تعارض بين قطعي وقطعي ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العقل.

- وأما الصورة الثانية: فالقطعي منهما مقدم علي الظني إذا تعذر الجمع ولم يمكن التوفيق، أخذا بالأرجح وعملاً بالأقوي.

- وأما الصورة الثالثة: فإن أمكن الجمع بين العقلي والنقلي، وجب حمل النظم الكريم عليهما. وإن تعذر الجمع، قدم التفسير المأثور عن النبي ﷺ إن ثبت من طريق صحيح، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة، لأن ما يصح نسبته إلي الصحابة في التفسير، النفس إليه أميل، لاحتمال سماعه من الرسول ﷺ ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح، ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل.

وأما ما يؤثر عن التابعين ففيه التفصيل وذلك إما أن يكون التابعي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب أولا، فإن عرف بالأخذ عن أهل الكتاب قدم التفسير العقلي. وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب وتعارض ما جاء عنه مع التفسير العقلي - كما هو الفرض - فحينئذ نلجأ إلي الترجيح، فإن تأيد أحدهما بسمع أو استدلال رجحناه علي الآخر، وإن اشتبهت القرائن وتعارضت الأدلة والشواهد، توقفنا في الأمر، فنؤمن بمراد الله تعالي ولا نتهجم علي تعيينه، وينزل ذلك منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

وبعد.. فهذا هو التفسير العقلي بقسميه، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وتلك

هي حقيقة الخلاف، ثم هذه هي البحوث التي تتعلق به تعلقاً قوياً، وتتصل به اتصالاً وثيقاً، وأري بعد ذلك أن أتكلَّم عن أهم كتب التفسير بالرأي الجائز وأشهرها، متعرضاً لنبذة قصيرة عن كل مؤلف، تلقي لنا ضوءاً علي شخصيته الذاتية والعلمية، متلزماً بيان المسلك الذي سلكه كل منهم في تفسيره، وطريقته التي جري عليها وامتاز بها، بما يظهر لي من ذلك أثناء قراءتي في هذه الكتب، مستعيناً في ذلك بما أظفر به من مقدمات قدم بها أصحاب هذه الكتب لكتبهم، ثم بعد الفراغ من ذلك يكون لنا كلام آخر عن موقف بعض الفرق من التفسير،وعن أشهر مؤلفاتهم فيه، وهي لا تكاد تخرج عن دائرة التفسير بالرأي المذموم.

* * *

الفصل الثالث

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز

● تمهيـــد:

ابتدأ عهد التدوين من قديم، وظفر التفسير بالتدوين كغيره من العلوم فألفت فيه كتب اختلفت في منهجها، حسب اختلاف مشارب مؤلفيها، وظفرت هذه الناحية من التفسير – ناحية التفسير بالرأي الجائز – بكثرة زاخرة من الكتب المؤلفة، كثرة تضخمت علي مر العصور وكر الدهور، ففي كل عصر يجد جديد من الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي الجائز، ثم تنضم إلي ما سبق من ذلك حتي ازدحمت بها المكتبة الإسلامية علي اتساعها وطول عهدها.

ولكن هل احتفظت لنا المكتبة الإسلامية بكل هذه الكتب؟ أو عفي رسمها وذهب أثرها؟

لا.. لا هذا، ولا ذاك، بل احتفظت لنا ببعضها، وذهب بعضها الآخر بتقادم الزمن عليه، ومع هذا فإن القصور المكتبي، حال بيننا وبين الإطلاع علي جميع ما خلفته لنا المكتبة الإسلامية العامة.. ولهذا ولعدم القدرة علي الإطلاع علي كل ما يوجد من هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراسة أكتفي بأن أتعرض لبعض هذه الكتب علي ضوء المنهج الذي بينته، ولعل في ذلك غني عن بعضها الآخر، الذي حال بيني وبين القصور المكتبي تارة، والقصور الزمني تارة أخري.

هذا... ولا يفوتني أن أنبه إلي أن هذه الكتب التي وقع عليها اختياري، يتجه كل منها إلي اتجاه معين،وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحي التفسير وألوانه، فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفة والكلامية، ومنها ما تطغي فيه الناحية القصصية والإسرائيلية، ومنها غير ذلك. ولكن الجميع ينضم تحت شئ واحد هو التفسير بالرأي الجائز فلا عليه – إذن – إن كنت قد جمعت بين هذه الكتب المختلفة المنازع والاتجاهات وهذا أمر اعتباري لا أقل ولا أكثر.

أما هذه الكتب التي وقع عليها اختياري، فهي ما يأتي:

١ – مفاتيح الغيب : للفخر الرازي.

٢ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي.

٣ –مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفي

٤ – لباب التأويل في معاني التنزيل : للخازن

٥ – البحر المحيط : لأبي حيان

٦ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : للنيسابوري

٧ -تفسير الجلالين : للجلال المحلي، والجلال السيوطي

٨ - السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني.

٩ -إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم :لأبي السعود

١٠ -روح المعاني في تفسر القرآن العظيم والسبع المثاني : للألوسي

هذه هي الكتب التي وقع عليها اختياري، و سأتكلم عنها علي حسب هذا الترتيب فأقول وبالله التوفيق.

١ - مفاتيح الغيب (للرازي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي، البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ (أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة) كان رحمه الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إمامًا في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الري، وعن الكمال السمعاني، والمجد الجيلي، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ، حتي قيل إنه كان يعظ باللسان العربي واللسان العجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، ولقد خلف - رحمه الله - للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه في الفنون المختلفة، وقد انتشرت هذه التصانيف في البلاد، ورزق فيها الحظوة الواسعة والسعادة العظيمة، إذ أن الناس اشتغلوا بها، وأعرضوا عن كتب المتقدمين، ومن أهم هذه المصنفات تفسيره الكبير المسمي بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصدده الآن وله تفسير سورة الفاتحة في مجلد واحد، ولعله هو الموجود بأول تفسيره (مفاتيح الغيب) وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد علي أهل الزيغ والطغيان. وله في أصول الفقه: المحصول وفي الحكمة: الملخص وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة وفي الطلمسات: السر المكنون ويقال: إنه شرح المفصل في النحو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي.. وغير هذا كثير من مصنفاته، التي يتجلي فيها علم الرجل الواسع الغزير.

هذا.. وقد كانت وفاة الرازي - رحمه الله - سنة ٦٠٦هـ (ست وستمائة من

الهجرة) بالري ، ويقال في سبب وفاته : أنه كان بينه وبين الكرامية خلاف كبير وجدل في أمور العقيدة فكان ينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً وأخيرا سمُّوه فمات علي إثر ذلك واستراحوا منه (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم ، ويقول ابن قاضي شهبة : إنه - أي الفخر الرازي - لم يتمه (٢)، كما يقول ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان (٣) ، إذن فمن الذي أكمل هذا التفسير؟ وإلي أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازي في تفسيره؟.

الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلي حلها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء في هذا الموضوع ، فابن حجر العسقلاني، في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، يقول: (الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي القمولي، مات سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمائة من الهجرة) وهو مصري(٤).

وصاحب كشف الظنون يقول: (وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكلمة له، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمائة من الهجرة) وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضا،وتوفي سنة ٦٣٩ هـ (تسع وثلاثين وستمائة) (٥).

فأنت تري أن ابن حجر يذكر أن الذي أتم تفسير الفخر هو نجم الدين القمولي، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويي مشاركة علي وجه ما في هذه التكملة، وإن كانا يتفقان علي أن الرازي لم يتم تفسيره.

وأما إلي أي موضع وصل الفخر في تفسيره؟ فهذه كالأولي أيضاً، وذلك لأننا وجدنا علي هامش كشف الظنون ما نصه:(الذي رأيته بخط السيد مرتضي نقلاً عن شرح الشفا للشهاب، أنه وصل فيه إلي سورة الأنبياء (٦).

وقد وجدت في أثناء قراءتي في هذا التفسير عند قوله تعالي في سورة الواقعة: ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة: ٢٤] هذه العبارة (المسألة الأولي أصولية، ذكرها

---

(١) انظر وفيات الأعيان: ٢ / ٢٦٥ - ٢٦٨، وشذرات الذهب: ٥ / ٢١.
(٢) شذرات الذهب: ٥ / ٢١.
(٣) الجزء الثاني ص ٢٦٧.
(٤) الدرر الكامنة : ١ / ٣٠٤.
(٥) كشف الظنون :٢ / ٢٩٩.
(٦) كشف الظنون : ٢ / ٢٩٩ (هامش).

الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها .. إلخ) (١).

وهذه العبارة تدل علي أن الإمام فخر الدين، لم يصل في تفسيره إلي هذه السورة.

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالي في سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ [المائدة: ٦] .. الآية، أنه تعرض لموضوع النية في الوضوء. واستشهد علي اشتراط النيه فيه بقوله تعالي في سورة البينة: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] وبين أن الإخلاص عبارة عن النية، ثم قال: (وقد حققنا الكلام في هذا الدليل في تفسير قوله تعالي: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فليرجع إليه في طلب زيادة الإتقان) (٢).

وهذه العبارة تشعر بأن الفخر الرازي فسر سورة البينة، أي أنه وصل إليها في تفسيره، وهذا طبعاً بحسب ظاهر العبارة المجرد عن كل شئ.

والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلي سورة الأنبياء فأتي بعده شهاب الدين الخويي، فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتي بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه. كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلي النهاية، والقمولي كتب تكملة أخري غير التي كتبها الخويي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون.

وأما إحالة الفخر علي ما كتب في سورة البينة، فهذا ليس بصريح في أنه وصل إليها في تفسيره، إذ لعله كتب تفسيراً مستقلاً لسورة البينة، أو لهذه الآية وحدها، فهو يشير إلي ما كتب فيها ويحيل عليه.

أقول هذا: وأعتقد أنه ليس حلاً حاسما لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقوم علي الظن يخطئ ويصيب.

ثم إن القارئ في هذا التفسير، لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلك، بل يجري الكتاب من أوله إلي آخره علي نمط واحد، وطريقة واحدة، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة ولا يتمكن من الوقوف علي حقيقة المقدار الذي كتبه الفخر، والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة.

هذا.. وإن تفسير الفخر الرازي ليحظي بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة، في نواح شتي من العلم

---

(١) مفاتيح الغيب: ٨/ ٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ٣/ ٥٣٩.

ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: (إنه - أي الفخر الرازي - جمع فيه كل غريب وغريبة) [١].

● **اهتمام الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره:**

وقد قرأت في هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة.

● **اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية:**

كما أنه يكثر من الاستطراد إلي العلوم الرياضة والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، علي ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية وغيرها، كما أنه يعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، وإن كان يصوغ أدلته في مباحث الإلهيات علي نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السنة.

● **موقفه من المعتزلة:**

ثم إنه - كسني يري ما يراه أهل السنة، ويعتقد بكل ما يقررونه من مسائل علم الكلام - لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها، رداً لا يراه البعض كافياً ولا شافياً.

فهذا هو الحافظ ابن حجر يقول عنه في لسان الميزان: (وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصر في حلها، حتي قال بعض المغاربة: (يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة) [٢].

وقال ابن حجر أيضاً في لسان الميزان: (ورأيت في الأكسير في علم التفسير للنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب،فحدثني شرف الدين النصيبي، عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي، أنه صنف كتاب المآخذ في مجلدين، بيّن فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج وكان ينقم عليه كثيراً ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين علي غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق علي غاية من الوهاء. قال الطوفي: ولعمري، إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمة. حتي اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولاً أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتي يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالاً في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهي إلي تقرير دليل نفسه لا يبقي عنده

---

(١) وفيات الإعيان: ٢/ ٢٦٧.

(٢) لسان الميزان: ٤/ ٤٢٧.

شئ من القوي، ولاشك أن القوي النفسانية تابعة للقوي البدنية، وقد صرح في مقدمة نهاية العقول،: أنه مقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر علي الزيادة علي ذلك) . (١)

● **موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة:**

ثم إن الفخر الرازي لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعي – الذي يقلده – بالأدلة والبراهين.

كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية والبلاغية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية.

وبالجملة .. فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي عوم الكون والطبيعة، إذ أن هذه الناحية هي التي غلبت عليه حتي كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم.

ومن أجل ذلك قال صاحب كشف الظنون: (إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شئ إلي شئ، حتي يقضي الناظر العجب)(٢) ونقل عن أبي حيان أنه قال في البحر المحيط (جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شئ إلا التفسير) (٣) .

ويظهر لنا أن الإمام فخر الدين الرازي كان مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، ما دام يستطيع أن يجد صلة ما بين المستنبط أو المستطرد إليه وبين اللفظ القرآني، والذي يقرأ مقدمة تفسيره لا يسعه إلا أن يحكم علي الفخر هذا الحكم، وذلك حيث يقول: (اعلم أنه مر علي لساني في بعض الأوقات، أن هذه السورة الكريمة – يريد الفاتحة – يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك علي ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدمت هذه المقدمة، لتصير كالتنبيه علي أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول) . . . إلخ .(٤)

وبعد . . فالكتاب بين يديك، فأجل نظرك في جميع نواحيه، فسوف لا تري إلا ما قلته فيه،وما حكمت به عليه .

* * *

---

(١) لسان الميزان: ٤ /٤٢٧ – ٤٢٨ .
(٢) كشف الظنون: ١ / ٢٣٠– ٢٣١ .
(٣) المرجع السابق.
(٤) مفاتيح الغيب: ١ / ٢ –٣ .

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي الشافعي، وهو من بلاد فارس قال ابن قاضي شهبة في طبقاته: (صاحب المصنفات)، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية. ولي قضاء شيراز). وقال السبكي: (كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً) وقال ابن حبيب: (تكلم كل من الأئمة بالثناء علي مصنفاته، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه). ولي القضاء بشيراز، وتوفي بمدينة تبريز. قال السبكي والأسنوي: سنه ٦٩١هـ (إحدي وتسعين وستمائة)، وقال ابن كثير وغيره: سنة ٦٨٥هـ (خمس وثمانين وستمائة). ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن. وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولاً بين أهل العلم (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفة فيه:

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، علي مقتضي قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة علي أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات وإن كان أحيانا يذهب إلي ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالي في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** ﴾... الآية، وجدناه يقول: (إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد علي ما بزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع).. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: (وهذا أيضاً من زعمانهم أن الجني يمس الرجل فيختلط عقله) (٢).

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها علي الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغترّ

---

(١) انظر ترجمة البيضاوي في شذرات الذهب: ٥/٣٩٢ - ٣٩٣، وفي طبقات المفسرين للداودي ص ١٠٢ - ١٠٣، وفي طبقات الشافعية: ٥/٥٩.

(٢) الجزء الأول ص ٢٦٧.

بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانه علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمي بمفاتيح الغيب للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز وعبارة تدق أحياناً وتخفي إلا علي ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿ **والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾.. يقول ما نصه: وقروء جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام: (دعي الصلاة أيام إقرائك) وللطهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشي:

مورثة مالاً وفي الحي رفعة   لما ضاع فيها من قروء نسائكما

وأصله الانتقال من الطهر إلي الحيض، وهو المراد في الآية، لأنه الدال علي براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالي ﴿ **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض وأما قوله عليه الصلاة والسلام: (طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان)،فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر: (مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتي تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله تعالي أن تطلق لها النساء... إلخ. (١)

كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٢)، (٣) من سورة البقرة: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ نراه يعرض لبيان معني الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج. بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة (٢).

---

(١) الجزء الأول ص٢٤٠.

(٢) الجزء الأول ص ٥٣ – ٥٦.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السنة (١).

والبيضاوي رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: رُوي، أو قيل.. إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢) من سورة النمل: ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ** ﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: رُوي أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهيز للحج.. إلي آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: (ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها)(٢).

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿ **فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: الشهاب ما يري كأن كوكباً انقض، ثم يرد علي من يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلي الأثير فيشتعل فتخمين – إن صح – لم يناف ذلك).. إلي آخر كلامه في هذا الموضوع(٣).

هذا وأري أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوي في تفسيره، والمبينة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد علي بعض ماذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخري.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه: (ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن – يعني التفسير – كتاباً يحتوي علي صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي علي نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المغرية إلي الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتي سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي علي

(١) الجزء الأول ص٥٨ –٥٩. (٢) الجزء الرابع ص١١٥. (٣) الجزء الخامس ص٣.

الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل) (١)

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: « وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي علي فوائد ذوي الألباب. المشتمل علي خلاصة أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه. والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال ، المرسوم بأنوار التزيل وأسرار التأويل » (٢).

وكأني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلي أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخري، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطي – رحمه الله – في حاشيته علي هذا التفسير المسماة بـ (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار » ما نصه: « وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتي بكل مستجاد ، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضوع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات ، فظهر كأنه سبيكه نضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون ، فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلي تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة) (٣).

ويقول صاحب كشف الظنون ما نصه : (وتفسيره هذا – يريد تفسير البيضاوي – كتاب عظيم الشأن غني عن البيان – لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات. وضم إليه ما وري زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشي:

أولوا الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يُتلي
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لا تُبلي

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام. كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، ومُلح الاستعارة ، وهتك

---

(١) الجزء الأول ص ٦. (٢) الجزء الخامس ص٢٠٤.
(٣) المدخل المنير للشيخ مخلوف ص ٤١.

لأستار أخري عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها. وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل علي الآنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة. والذي ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ (قيل)، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرد يه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له [1] ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلي الإحاطة بما فيه، فمن اعترض بمثله علي كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء، لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، علي مذهب أهل السنة والجماعة. وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنو اعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلي مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمي عين هواه و واستعبد نفسه في طاعة مولاه، حتي يسلم من الغلط والزلل ويقتدر علي رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلي بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالي بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة علي سور منه، ومنهم من حشي تحشية تامة، ومنهم من كتب علي بعض مواضع منه » [2]..

ثم عد من هذه الحواشي ما يزيد عدده علي الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومن شاء الإطلاع علي ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبي أن أقول: إن أشهر هذه الحواشي، وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية قاضي زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوي.

---

(١) انظر تفسير البيضاوي لقوله تعالي في الآية (٧) من سورة غافر﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾.. الآية (جـ ٥ ص ٣٤).

(٢) كشف الظنون: ١ /١٢٧ – ١٢٨.

وجملة القول . . فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالي ، ويقف علي أسراره ومعانيه وهو مطبوع عدة طبعات، ومتوسط في حجمه .

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل(للنسفي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (١) . الحنفي ، أحد الزهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين. كان إماماً كاملاً عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه بصيراً بكتاب الله تعالي، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول وغيرهما. فمن مؤلفاته : متن الوافي في الفروع، وشرحه الكافي، وكنز الدقائق في الفقه أيضاً، والمنار في أصول الفقه، والعمدة في أصول الدين، ومدارك التزيل وحقائق التأويل، وهو التفسير الذي نحن بصدد الكلام عنه، وغير ذلك من المؤلفات التي تداولها العلماء ، وتناولوها دراسة وبحثاً، وليس هذا التر اث العلمي بكثير علي رجل تفقه علي كثير من مشايخ عصره وأخذ عنهم، ومن هؤلاء : شمس الأئمة الكردي وعليه تفقه ، وأحمد بن محمد العتابي الذي روي عنه الزيادات .

وكانت وفاة النسفي – رحمه الله – سنة ٧٠١هـ (إحدي وسبعمائة من الهجرة) ودفن ببلدة أيذج (٢) . فرضي الله عنه وأرضاه (٣) . .

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير، اختصره النسفي – رحمه الله – من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات وجري فيه علي مذهب أهل السنة والجماعة، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورد الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا علي طريقته من قوله: « فإن قيل . . قلت » بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور .

---

(١) النسفي نسبة إلي (نسف) من بلاد ما وراء النهر .

(٢) قال في القاموس(١ /١٧٧) وأيذج كأحمد بلد بكردستان .

(٣) انظر ترجمته في الدرر الكامنة : ٢/ ٢٤٧ ، وفي الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٠٢ .

هذا وقد أورد النسفي في مقدمة تفسيره عبارة قصيرة، أوضح فيها عن طريقته التي سلكها فيه، وأري أن أسوقها لك بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمة الله: (قد سألني من تتعين إجابته، كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلاً وأوخر أخري، استقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتي شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة ، وأتممته في مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل).

وقال صاحب كشف الظنون :(اختصره – يعني تفسير النسفي – الشيخ زين الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي بكر بن العيني، وزاد فيه)[١].

ولكن لم يقع في بلدنا هذا المختصر، ولم نظفر به حتي نحكم عليه.

قرأت في هذا التفسير فوجدته كما قلت آنفاً موجز العبارة سهل المأخذ مختصراً من تفسير الكشاف ، جامعاً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوي أيضاً حتي إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره [٢].

● **خوضه في المسائل النحوية:**

كذلك وجدته – كما يقول صاحبه – جامعاً بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً . ولا يزج بالتفاصيل النحوية في تفسيره كما يفعل غيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢١٧) من سورة البقرة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ . الآية .

يقول ما نصه: ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ : عطف علي (سبيل الله) ، أي وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف علي الهاء في (به) أي كفر به وبالمسجد الحرام ولا يجوز عند البصريين العطف علي الضمير المجرور إلا بإعادة الجار،

---

(١) كشف الظنون : ٢ / ٢٤٨.

(٢) راجع – مثلاً – تفسير البيضاوي وتفسير النسفي لسورة النجم لتري مبلغ التوافق أو التقارب بين عبارتيهما.

فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد، ولو كان معطوفا علي الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام) [١].

● **موقفه من القراءات:**

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلي قارئها.

● **خوضه في مسائل الفقه:**

كذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** ﴾.

يقو ما نصه: (.. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف – رحمهما الله – يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد – رحمه الله – لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة رضي الله عنها،يجتنب شعار الدم وله ما سوي ذلك.

﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ** ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿ **حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ بالتشديد – كوفي غير حفص – أي يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم ﴿ **يَطْهُرْنَ** ﴾ أي ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتي تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة، عملاً بقراءة التشديد، والحمل علي هذا أولي من العكس لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف، وعند الشافعي – رحمه الله – لا يقربها حتي تطهر وتتطهر، دليله قوله تعالي: ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ** ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما...). [٢]

وهو ينتصر لمذهبه الحنفي ويرد علي من خالفه في كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف علي ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾... (جـ ١ ص ٨٩) وعند

---

(١) الجزء الأول ص٨٤ – ٨٥.

(٢) الجزء الأول ٨٧ وراجع في هذا الموضوع ما ذكره عند قوله تعالي: ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ (جـ ١ ص٨٩).

تفسيره لقوله تعالي في الآية(٢٣٧) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ** ﴾ (جـ١ ص ٩٥) وعند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦) من سورة الطلاق: ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ** ﴾ .. الآية (جـ ٤ ص ٢٠١).

● **موقفه من الإسرائيليات:**

ومما نلحظه علي هذا التفسير أنه مقل جداً في ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٦) من سورة النمل ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ يقول: روي أنه صاحت فاختته فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجدوه وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلي ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلي، وقال: الحدأة تقول: كل شئ هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم؛ عش ما شئت آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد عن الناس أنس . والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس.

ثم يتكلم عن قوله تعالي: ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النمل أيضاً ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ .. نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف في تخيله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة (٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٢١) و (٢٢) في سورة (ص) ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ** ﴾ .. نراه – بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافي مع عصمة داود عليه السلام – يقول ما نصه: (وما يحكي أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلي غزوة البلقاء وأحب أن يقتل

---

(١) الجزء الثالث ص ١٥٦.

(٢) الجزء الثالث ص١٦١.

ليتزوجها – يعني زوجة أوريا – فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء وقال علي رضي الله عنه: من حدثكم بحديث داود عليه السلام علي ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية علي الأنبياء) [١]

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٤) من سورة (ص) أيضاً: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾.. نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافي مع عصمة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: (وأما ما يروي من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود) [٢].

ففي هذه الآية الأخيرة وما قبلها نجد النسفي – رحمه الله – يتصدي للتنبيه والرد علي القصص المكذوب الذي يتنافي مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك، ولعله يري أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه علي عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافي مع العقل أو يتصادم مع الشرع.

هذا.. وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم، ومطبوع في أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفي رحمه الله.

٤ – لباب التأويل في معاني التنزيل (للخازن)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير. هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي [٣]. البغدادي، الشافعي، الصوفي المعروف بالخازن اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق ولد ببغداد سنة ٦٧٨هـ (ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة)، وسمع بها من ابن الدواليبي، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر واشتغل بالعلم كثيراً قال ابن قاضي شهبة: (كان من أهل العلم، جمع وألف، وحدث ببعض مصنفاته). وقد خلف رحمه الله كتباً جمة في فنون مختلفة، فمن ذلك: لباب التأويل في معاني التنزيل. وهو التفسير الذي نريد الكلام عنه، وشرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسندي الشافعي وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطني، ورتبه علي الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطولة. وكان رحمه الله

---

(١) الجزء الرابع ص ٢٩ – ٣٠. (٢) الجزء الرابع ص ٣٢.

(٣) الشيحي – بالحاء المهملة – نسبة إلي بلدة اسمها (شيحة) من أعمال حلب.

صوفياً حسن السمت بشوش الوجه، كثير التودد للناس توفي سنة ٧٤١ هـ (إحدي وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوي، وضم إلي ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدم عليه، وليس له فيه - كما يقول - سوي النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلي حد ما، معنيٌّ بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلي الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم، وأري أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه في مقدمة تفسيره، مبيناً به طريقته التي سلكها، ومنهجه الذي نهجه فيه، وفيها غني عن كل شئ.

قال رحمه الله تعالي: ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذي صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل، الإمام العالم محيي السنة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة مفتي الفرق. ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين ابن مسعود البغوي - قدس الله روحه، ونور ضريحه - من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها. جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلي بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشي بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالي مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة متقلبه ومآبه. لما كان هذا الكتاب كما وصفت، أحببت أن أنتخب من غرر فوائده، ودرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعاني التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسر المصنفة في سائر علومه المؤلفة،ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوي النقل والانتخاب مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلي تحصيل المراد، فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، علي تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوته إلي مخرجه، وبينت اسم ناقله، وجعلت عوض كل اسم حرفاً يعرف به، ليهون علي الطالب طلبه، فما كان من صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فعلامته قبل ذكر الصحابي الراوي للحديث (خ) وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم ابن الحجاج

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة (٣/ ٩٧ - ٩٨)، وفي طبقات المفسرين للداودي ص ١٧٨، وفي شذرات الذهب (٦/ ١٣١).

النيسابوري فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق)وما كان من كتب السنن، كسنن أبي داود، والترمذي والنسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له انفرد به. قلت : روي البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روي البغوي بإسناد الثعلبي .وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فأعتمده فإني اجتهدت في تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدي، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزري ثم إني عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به. ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب، وأسهل علي الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. وينبغي لكل مؤلف كتاباً في فن قد سُبق إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شئ إن كان معضلاً أو جمعه إن كان متفرقاً أو شرحه إن كان غامضا. أو حسن نظم وتأليف. أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت وسميته: (لباب التأويل في معاني التزيل).

ثم قدَّم الخازن لتفسيره بخمسة فصول - الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه. الفصل الثاني : في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهده . الفصل الثالث:في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل علي سبعة أحرف. الفصل الرابع في كون القرآن نزل علي سبعة أحرف وما قيل في ذلك. الفصل الخامس: في معني التفسير والتأويل. ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

●توسعه في ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت في هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع في ذكر القصص الإسرائيلي وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعني بهذه الناحية كتفسير الثعلبي وغيره، وهو في الغالب لا يعقب علي ما يذكر من القصص الإسرائيلي، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضيع لا يترك القصة تمر بدون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها، ولكن علي ندرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في سورة (ص): ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**﴾ الآيات إلي قوله تعالي: ﴿**وظَنَّ داوود أَنَّما فتنَّاه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعا وأَنَاب**﴾ [٢١ -٢٤] نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذي تمثل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحاها من الدر والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجليه وألهته عن صلاته ، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال علي زوجها حتي قتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فتن بها وشغف بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة. ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول: « فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب

إليـه » ويفند في هذا الفصل كل ما ذكره ممايتنافي مع عصمة نبي الله داود عليه السلام(١).

ولكنا نري الخازن يمر بقصص كثيرة لا يعقب عليها، مع أن بعضها غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٠) من سورة الكهف: ﴿ **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ** ﴾.. الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهي غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يعقب عليها بلفظ واحد (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين [٨٣، ٨٤] من سورة الأنبياء ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾.. نراه يروي في حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جدا عن وهب بن منبه، وهب مما لا يكاد يقرها الشرع أو يصدقها العقل،لما فيها من المنافاة لمقام النبوة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يعقب عليها بأية كلمة (٣).

● **عنايته بالأخبار التاريخية:**

كذلك نلاحظ علي هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت علي عهد النبي ﷺ وأشار إليها القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٩) من سورة الأحزاب: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: « ذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب » ثم يذكر وقائع الغزوة وما جري فيها باستفاضة وتوسع (٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٧) من سورة الأحزاب أيضا: ﴿ **وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ .. نراه يستطرد إلي ذكر غزوة بني قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

●**عنايته بالناحية الفقهية:**

كذلك نجد هذا التفسير يعني جد العناية بالناحية الفقهية، فإذا تكلم

---

(١) الجزء السادس ص ٣٨ – ٤٢.

(٢) الجزء الرابع ص ١٦٠ –١٦٥.

(٣) الجزء الرابع ص ٢٥٠ – ٢٥٤.

(٤) الجزء الخامس ص ١٩٣ – ٢٠٠.

عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلي مذاهب الفقهاء وأدلتهم ، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٦) من سورة البقرة: ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ نراه بعد أن ينتهي من التفسير يقول: (فروع تتعلق بحكم الآية) ثم يذكر خمسة فروع ـ الفرع الأول: في حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبدا أو مدة هي أكثر من أربعة أشهر، والثاني: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، والثالث: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، والرابع: في مدة الإيلاء في حق الحر والعبد واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفارة أو لا تجب[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾.. الآية، نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضي به عدة الحائض.. ثم يقول: (فصل في أحكام العدة ، وفيه مسائل) فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولي منها: عن عدة الحوامل، وفي الثانية: عن عدة المتوفي عنها زوجها، وفي الثالثة: عن عدة المطلقة المدخول بها، وفي الرابعة عن عدة الإماء[٢].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** ﴾.. الآية، نجده يقول: (فصل في حكم الخلع، وفيه مسائل) ويذكر ثلاث مسائل؛ المسألة الأولي: فيما يباح من أجله الخلع، والثانية : في جواز الخلع بأكثر مما أعطاها وعدم جوازه، الثالثة: في اختلاف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟[٣].

ومثلا عند تفسيره لآية الظهار التي في أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلاً في أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار، ويورد فيه ثماني مسائل[٤] لا نطيل بذكرها.

- **عنايته بالمواعظ:**

ثم إن هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق ، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هي التي أثرت فيه فجعلته يعني بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٦) من سورة السجدة: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾.. الآية؛ نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: (فصل في فضل

---

(١) الجزء الأول ص١٨٧ – ١٨٨.
(٢) الجزء الأول ص ١٨٩.
(٣) الجزء الأول ص ١٩٣ – ١٩٤.
(٤) الجزء السادس ص ٣٩ – ٤٠.

قيام الليل والحث عليه) . . ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ كلها تدور علي البخاري ومسلم والترمذي [١].

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواحٍ من العلم مختلفة، ولكن شهرته القصصية، وسمعته الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه !!. ولعل الله يهيئ لهذا الكتاب من يعلق عليه بتعليقات توضح غثه من سمينه، وتستخلص صحيحه من سقيمه. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس،خصوصا من له شغف بالقصص وولوع بالأخبار.

٥ - البحر المحيط (لأبي حيان)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير :**

مؤلف هذا التفسير هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحياني، الشهير بأبي حيان، المولود سنة ٦٥٤هـ (أربع وخمسين وستمائة من الهجرة).

كان - رحمه الله - ملماً بالقراءات صحيحها وشاذها،قرأ القرآن علي الخطيب عبد الحق بن علي إفراداً وجمعاً، ثم علي الخطيب أبي جعفر بن الطباع، ثم علي الحافظ أبي علي بن أبي الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وإفريقية، ثم قدم الإسكندرية فقرأ القراءات علي عبد النصير بن علي المريوطي، وبمصر علي أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجي، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب. قال أبو حيان: (وعدة من أخذت عنه أربعمائة وخمسون شخصاً، وأما من أجازني فكثير جداً) وقال الصفدي: (لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره علي غير ذلك).

كذلك عرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات كما كان علي جانب كبير من المعرفة باللغة أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتي صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولي في التفسير، والحديث وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم،خصوصاً المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتي صار من تلامذته أئمة وأشياخ في حياته، وهو الذي جسر الناس علي كتب ابن مالك ورغبتهم فيها وشرح لهم غامضها وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت في حياته وبعد وفاته في كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس

---

(١) الجزء الخامس ص ١٨٦ - ١٨٧.

بالقبول، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط الذي نحن بصدده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب وخلاصة البيان، وله منظومة علي وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز وهي أخصر وأكثر فوائد ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبية. هذا وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهري المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعي علي مذهبه، وكان عرياً من الفلسفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ (خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضي عنه [١].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار،وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف علي وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتي أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلي كتب النحو منه إلي كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم علي المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ والقراءات الواردة مع توجيهها،كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك، كل هذا علي طريقة وضعها لنفسه ومشي عليها في كتابه، ونبهنا عليها في مقدمته، وذلك حيث يقول:

(وترتيبي في هذا الكتاب، أني أبتدئ أولا بالكلام علي مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسباتهاوارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذها ومستعملها. ذاكرا توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً

(١) انظر الدرر الكامنة: ٤/٣٠٢ - ٣١٠

علي جليها وخفيها، بحيث أني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتي أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها، ولا في آية فسرت بل أذكر في كثير منها الحوالة علي الموضع الذي تكلم فيه علي تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلاً علي الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها علي كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضي الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحاً له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متنكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل علي أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالي أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يجوِّزه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتها إفراداً وتركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات علي ما آختاره من تلك المعاني، ملخصاً جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن وستقف علي هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالي، وربما ألممت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ (١).

وتركت أقوال الملحدين الباطنية (٢) المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلي هذيان افتروه علي الله، وعلي عليٍّ كرم الله تعالي وجهه، وعلي ذريته، ويسمونه علم التأويل.. » (٣).

هذا.. وإن أبا حيان - رحمه الله تعالي - ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو علي الخصوص،

---

(١) انظر ما تعقب به تفسير القشيري للآية (١١٤) من سورة البقرة: ﴿ **مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾.. الآية... (الجزء الأول ص٣٦٠).

(٢) عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٧٢) من سورة المائدة: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ (الجزء الثالث ص٤٤٩).

(٣) الجزء الأول ص ٤ - ٥.

ولكثرة هذا التعقيب منه علي كلام الزمخشري وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفي سنة ٧٤٩هـ (تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة) يختصر هذا التفسير في كتاب سماه : (الدر اللقيط من البحر المحيط) يكاد يقتصر فيه علي مباحثه مع ابن عطية والزمخشري ورده عليها [١] وهذا المختصر توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع علي هامش البحر المحيط .

كذلك نجد الشيخ يحيي الشاوي المغربي يفرد مؤلفاً عنوانه : (بين أبي حيان والزمخشري) يجمع فيه اعتراضات أبي حيان علي الزمخشري وهو مخطوط في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية .

وكثيراً ما يحمل أبو حيان علي الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية(جـ٢ ص٢٧٦ ، جـ٧ ص٨٥)، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه . حيث يصفه بأنه أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعني وبراعة اللفظ . (جـ٧ ص٨٥) .

هذا . . وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا - كما يقول - (علي كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخه الصالح القدوة، الأديب،جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، المعروف بابن النقيب، رحمه الله . إذ هو أكبر كتاب صنف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد) [٢] .

ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهي الناحية النحوية التي طغت علي ما عداها من نواحي التفسير.

٦ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان (للنيسابوري)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الشهير، والعلامة الخطير، نظام الدين ابن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراساني، النيسابوري، المعروف بالنظَّام الأعرج . أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة(قم)، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور. كان رحمه الله من

---

(١) انظر كشف الظنون : ٢ / ١٤٥ .

(٢) البحر المحيط (جـ١ ص ١١) ، ومع اعتماد أبي حيان علي هذا التفسير نجده يصفه بكثرة التكرير وقلة التحرير (جـ١ ص ١١) كما نجده لا يرضي عما أولع به مؤلفه من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحاً (جـ٨ ص ١٩١) .

أساطين العلم بنيسابور، ملماً بالعلوم العقلية، جامعاً لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ في صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير.

وهو معدود في عداد كبار الحفاظ والمقرئين، وكان مع هذه الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع والتقوي، وعلي مبلغ عظيم من الزهد والتصوف، ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً في تفسيره الذي أودع فيه مواجيده الروحية، وفيوضاته الربانية، ولقد خلف رحمه الله للناس كتباً مفيدة نافعة، ومصنفات فريدة واسعة، فمن ذلك شرحه علي متن الشافية في فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام، وشرحه علي تذكرة الخواجة نصير الملة والدين الطوسي في علم الهيأة، وهو المسمى بتوضيح التذكيرة ورسائل في علم الحساب، وكتاب في أوقاف القرآن علي حذو ما كتبه السجاوندي المشهور، وأهم مصنفاته تفسيره لكتاب الله تعالي المعروف بـ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وهو ما نحن بصدده الآن وله مجلد آخر في لب التأويل نظير تأويلات المولي عبد الرزاق القاشاني.

أما تاريخ وفاته فلم نعثر عليه في الكتب التي بين أيدينا، وكل ما عثرنا عليه هو قول صاحب روضات الجنات: (إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة علي قرب من درجة السيد الشريف، والمولي جلال الدين الدواني ،وابن حجر العسقلاني، وقرنائهم الكثيرين من علماء الجمهور، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور، صادفت حدود ما بعد الثمانمائة، والخمسين من الهجرة) [١].

قال: «ويوجد أيضا بالبال نسبة التشيع إليه في بعض مصنفات الأصحاب» [٢].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

اختصر النيسابوري تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازي، وضم إلي ذلك بعض ما جاء في الكشاف وغيره من التفاسير، وما فتح الله به عليه من الفهم لمحكم كتابه، وضمنه ما ثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

---

(١) ويوجد بآخر النسخة التي بأيدينا من تفسير النيسابوري ما نصه: «وجد بآخر بعض النسخ ما نصه: علقه مؤلفه، الحسن بن محمد بن الحسين، المشتهر بنظام الأعرج النيسابوري ببلاد الهند في دار مملكتها بدولة آباد في أوائل صفر سنة ٧٣٠ (سبعمائة وثلاثين) من هجرة سيد الأولين والآخرين، صلاة الله وسلامه عليه وعلي جميع الأنبياء والمرسلين، كما جاء في ترجمة النيسابوري بآخر النسخة أيضاً أنه فرغ من شرحه للتذكرة النصيرية في غرة ربيع الأول سنة ٧١١ هـ (إحدي عشرة وسبعمائة). وفي كشف الظنون عند الكلام عن تفسير النيسابوري أنه توفي سنة ٧٢٨هـ.

(٢) انظر ترجمة التيسابوري في آخر تفسيره، وفي روضات الجنات ص٢٢٥ - ٢٢٦.

● **موقفه من الزمخشري والفخر الرازي:**

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازي، أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره، لا يقف عند النص وقوف من يجمد عند النصوص ويري أنها ضربة لازب عليه فلا يعترض ولا يتصرف، بل نجده حراً في تفكيره، متصرفاً فيما يختصر أو يقتبس، فإن وجد فسادا نبه عليه وأصلحه وإن رأي نقصاً تداركه فأتمه وأكمله.

وكثيراً ما نجده ينقل عن الكشاف فيقول: قال في الكشاف كذا وكذا أو قال جار الله كذا وكذا، وقد ينقل ما ذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازي ثم ينصب نفسه حكماً بين الإمامين، ويبدي رأيه علي حسب ما يظهر له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة الزمر: ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾.. يقول ما نصه: «قال جار الله: الغرض من هذا الكلام – إذا أخذته كما هو بجملته – تصوير عظمته، والتوقيف علي كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلي جهة حقيقة أو إلي جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروي عن عبد الله بن مسعود: أن رجلاً من أهل الكتاب جاء إلي النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم؛ إن الله يمسك السموات يوم القيامة علي إصبع، والأرض علي إصبع، والجبال علي إصبع، والشجر علي أصبع، والثري علي إصبع، وسائر الخلق علي إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال: وأنزل الله الآية تصديقا له. قال جار الله: وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هز ولا شئ من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شئ وآخره علي الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة علي القدرة الباهرة. وأن الأفعال العظام التي لا تكتنهها الأوهام هينة عليه.. ثم ذكر كلاماً آخر طويلاً، واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي: بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته، لأنه هل يسلم أن الأصل في الكلام حمله علي حقيقته أم لا؟ وعلي الثاني يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حجة، فإن لكل أحد حينئذ أن يؤول الآية بما يشاء، وعلي الأول – وهو الذي عليه الجمهور – يلزم بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلاني علي معناه الحقيقي لتعين المصير إلي التأويل ،ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل علي تعيين أحدهما، ففي هذه الصورة لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت علي امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالي، فوجب المصير إلي التأويل صوناً للنص عن التعطيل، ولا تأويل إلا أن يقال: المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره، كما يقال: فلان في قبضة فلان. وقال تعالي: ﴿ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ﴾ [الأحزاب:٥] ويقال: هذه الدار في يد فلان ويمينه، وفلان صاحب اليد.

وأنا أقول: هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولي، والذي ذكره جار الله طريق بياني وإنهم يحيلون كثيراً من المسائل إلي الذوق فلا منافاة بينها، ولا يرد اعتراض من الإمام وتشنيعه، وقد مر لنا في هذا الكتاب الأصل الذي كان يعمل به السلف في باب المتشابهات في مواضع فتذكر» (١).

● **منهجه في التفسير:**

ثم إننا نجد الإمام النيسابوري، قد سلك في تفسيره مسلكاً قد يكون منفرداً به من بين المفسرين، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية أولاً، ثم يذكر القراءات مع التزامه ألا يذكر ما كان منها منسوباً إلي الأئمة العشرة، وإضافة كل قراءة إلي صاحبها الذي تنسب إليه، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها، ثم بعد ذلك يشرع في التفسير، مبتدئاً بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازي، ثم بعد ذلك يبين معاني الآيات بأسلوب بديع، يشتمل علي إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب وما حملت عليه الآية القرآنية، لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ نجده يقول: «واعلم أن الكلام في السرقة، يتعلق بأطراف المسروق، ونفس السرقة، والسارق).. ثم يمضي فيتكلم عن هذه النواحي الثلاث من الناحية الفقهية، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة (٢).

● **خوضه في المسائل الكلامية:**

كذلك نجده يخوض في المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السنة ومذهب غيرهم، مع ذكره لأدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السنة وتأييده له، ورد ما يرد عليه من جانب المخالفين.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٥) من سورة الأنعام ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾... الآية، نجده يقول: «وفي الآية دلالة علي أن الله تعالي هو الذي يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين قلبه، وقالت المعتزلة: لا يمكن إجراؤها علي ظاهرها، وإلا كان حجة للكفار، ولأنه يكون تكليفاً للعاجز، ولم يتوجه ذمهم في قولهم: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ [البقرة:٨٨]، فلابد من التأويل. وذلك من وجوه.. ثم ساق

---

(١) الجزء ٢٤ ص ١٧ - ١٨.

(٢) الجزء السادس ص١٣٢ - ١٣٥.

خمسة أوجه للمعتزلة، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها، تفنيداً لمذهب المعتزلة، وتصحيحاً لمذهب أهل السنة (١).

●خوضه في المسائل الكونية و الفلسفية:

كذلك إذا مر النيسابوري علي آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٨٩) من سورة البقرة ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ** ﴾ نراه يذكر سبب نزول الآية، ثم يبين الحكمة التي أرادها الله من وراء جوابه لهم علي غير مقصودهم، وهنا يتعرض للسبب الذي من أجله يبدو الهلال دقيقاً ثم يزيد شيئا فشيئا حتي يصير بدراً، ثم يأخذ في النقصان إلي أن يعود كما بدأ (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤٢) من سورة الزمر: ﴿ **الله يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ . الآية، يقول ما نصه: «وقال حكماء الإسلام: النفس الإنسانية جوهر مشرق نوراني، إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها، وهو الحياة واليقظة، وأما في وقت النوم فإن ضوءه لا يقع إلا علي باطن البدن وينقطع عن ظاهره، فتبقي نفس الحياة التي بها النفس وعمل القوي الدنية في الباطن ويفني ما به التمييز والعقل وإذا انقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت» (٣).

وهذا المسلك الذي سلكه النيسابوري في الكونيات والآراء الفلسفية. ليس هو في الواقع إلا صدي لما جاء في تفسير الفخر الرازي الذي لخص منه تفسيره وإن كان النيسابوري ليس بوقاً للرازى في كل ما يقول بل كثيراً ما يستدرك عليه ولا يرتضي قوله.

فمثلاً نراه عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (١، ٢) من سورة الانفطار: ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ** ﴾ يقول ما نصه: (وفيه يعني في قوله تعالي﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ** ﴾، وكذا في قوله:﴿ **وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ** ﴾ إبطال قول من زعم أن الفلكيات لا تنخرق، أما الدليل المعقول الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره، وهو أن الأجسام متماثلة في الجسمية فيصح علي كل واحد منها ما يصح علي الباقي، لكن السفليات يصح عليها الانخراق، فيصح علي العلويات

---

(١) الجزء السابع ص ١٢٩.
(٢) الجزء الثاني ص ٢٢٢ – ٢٢٣.
(٣) الجزء ٢٤ – ص ٧ – ٨.

أيضا، فغير مفيد ولا مقنع، لأن الخصم لو سلم الصحة فله أن ينازع في الوقوع لمانع كالصورة الفلكية وغيرها»[١].

● النزعة الصوفية في تفسير النيسابوري:

ثم إن النيسابوري بعد أن يفرغ من تفسير الآية يتكلم عن التأو يل، والتأويل الذي يتكلم عنه هو عبارة عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التي يفتح الله بها علي عقول أهل الحقيقة من المتصوفة، والنيسابوري - رحمه الله - ؛كان صوفيا كبيراً، أفاض من روحه الصوفية الصافية علي تفسيره، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلي كثير من المواعظ المبكيات والحكم الغاليات، كما نراه في تأويله الإشاري يمثل الفلسفة التصوفية بأعلي أنواعها.

● ليس في تفسير النيسابوري ما يدل علي تشيعه:

وعلي كثرة ما قرأت في هذا التفسير لم أقع علي نص منه يدل علي تشيع مؤلفه، وكل ما وقعت عليه، أنه قال في خاتمة تفسيره (جـ ٣٠ ص ٢٢٨):« وإني أرجو فضل الله العظيم، وأتوسل إليه بوجهه الكريم، ثم بنبيه القرشي الأبطحي ووليه المعظم العلي.. إلخ» وهذه الجملة الأخيرة:« ووليه المعظم العلي» وإن كانت اعترافاً منه بولاية علي رضي الله عنه، ليست دليلاً قاطعاً علي تشيعه، بل نجد النيسابوري علي العكس من ذلك يعترف في نفس خاتمة تفسيره (جـ ٣٠ ص٢٢٤) بأنه لم يمل في تفسيره إلا إلي مذهب أهل السّنة والجماعة، وإذا رجعت إلي تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٥٤، ٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾... إلخ (جـ ٦ ص١٩٥ وما بعدها) لوجدته يرد علي الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين علي ولاية علي رضي الله عنه وأنه الخليفة بعد رسول الله، وإن كان ما ذكره تلخيصاً لما قال الفخر الرازي في تفسيره.

وهنا - وبعد ما ذكرت - أري لزاماً عليَّ أن أذكر كلام النيسابوري الذي أوضح فيه مسلكه في تفسيره ومنهجه الذي نهجه فيه، فإن صاحب البيت أعرف به وأدري بما فيه.

قال رحمه الله في مقدمة تفسيره ما نصه: « وإذا وفقني الله تعالي لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة - كما اشتهر بحمد الله تعالي ومنه فيما بين أهل الزمان - وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقني الله تعالي من إبان الصبا وعنفوان الشباب، حفظ لفظ القرآن وفهم

---

(١) الجزء ٣٠ ص ٣٩.

معني الفرقان، وطالما طالبني بعض أجلة الإخوان وأعزة الأخدان ممن كنت مشاراً إليه عندهم بالبنان في البيان – والله المنان يجازيهم عن حسن ظنونهم، ويوفقنا لإسعاف سؤلهم، وإنجاح مطلوبهم – أن أجمع كتاباً في علم التفسير، مشتملاً علي المهمات منبئًا عما وقع إلينا من نقل الأثبات، وأقوال الثقات من الصحابة والتابعين،ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، المتقدمين والمتأخرين – جعل الله تعالي سعيهم مشكوراً، وعملهم مبروراً – فاستعنت بالمعبود – وشرعت في المقصود معترفاً بالعجز والقصور في هذا الفن، وفي سائر الفنون لا كمن هو بابنه مفتون، كيف وقد قال عز من قائل: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء:٨٥]، ومن أصدق من الله قيلاً، وكفي بالله ولياً وكفي بالله وكيلاً.

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلي الإمام الأفضل، والهمام الأمثل والحبر النحرير، والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول،الفائز بالفروع والأصول، أفضل المتأخرين، فخر الملَّة والحق والدين، محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي، تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه، اسمه مطابق لمسماه وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصي، ومن الزوائد والفتوي ما لا يخفي، فإنه قد بذل مجهوده، ومثل موجوده، حتي عسر كتبه علي الطالبين، وأعوز تحصيله علي الراغبين،فحاذيت سياق مرامه، وأوردت حاصل كلامه، وقربت مسالك أقدامه، والتقطت عقود نظامه، من غير إخلال بشئ من الفوائد. وإهمال لما يعد من اللطائف والفرائد، وضممت إليه ما وجدت في الكشاف وفي سائر التفاسير من اللطائف المهمات، أو رزقني الله تعالي من البضاعة المزجاة، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات، ثم التفسير المشتمل علي المباحث اللفظيات، والمعنويات مع إصلاح مايجب إصلاحه وإتمام ما ينبغي إتمامه من المسائل الموردة في التفسير الكبير والاعتراضات، ومع كل ما يوجد في الكشاف من المواضع المعضلات، سوي الأبيات المعقدات، فإن ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات وغرائب القرآن، إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلاً فإن القرآن حجة علي غيره وليس غيره حجة عليه،فلا علينا أن نقتصر في غرائب القرآن علي تفسيرها بالألفاظ المشتهرات، وعلي إيراد بعض المتجانسات التي نعرف منها أصول الاشتقاقات و ذكرت طرفا من الإشارات المقنعات، والتأويلات الممكنات، والحكايات المبكيات، والمواعظ الرادعة عن المنهيات، الباعثة علي أداء الواجبات، والتزمت إيراد لفظ القرآن الكريم أولاً، مع ترجمته علي وجه بديع، وطريق منيع، يشتمل علي إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجازات والاستعارات،فإن هذا النوع من الترجمة مما تسكب فيه

العبرات، وترن (١) المترحمون هنالك إلي العثرات، وقلما يفطن له الناشئ الواقف علي متن اللغة العربية، فضلاً عن الدخيل الزحيل القاصر في العلوم الأدبية، واجتهدت كل الاجتهاد في تسهيل سبيل الرشاد ووضعت الجميع علي طرف التمام، ليكون الكتاب كالبدر التمام، وكالشمس في إفادة الخاص والعام، من غير تطويل يورث الملام، ولا تقصير يوعر مسالك السالك ويبدد نظام الكلام، فخير الكلام ما قل ودل: «وحسبك من الزاد ما بلغك المحل» (٢).

وقال في آخر تفسيره ما نصه: «وقد تضمن كتابي هذا حاصل التفسير الكبير الجامع لأكثر التفاسير، وجل كتاب الكشاف الذي رزق له القبول من أساتذة الأطراف والأكتاف، واحتوي مع ذلك علي النكت المستحسنة الغريبة، والتأويلات المحكمة العجيبة، مما لم يوجد في سائر تفاسير الأصحاب، أو وجدت متفرقة الأسباب، أو مجموعة طويلة الذيول والأذناب.

أما الأحاديث. فإما من الكتب المشهورة كجامع الأصول، والمصابيح وغيرها، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما، إلا الأحاديث الموردة في الكشاف في فضائل السور، فإنا قد أسقطناها لأن النقد زيفها إلا ما شذ منها.

وأما الوقوف فللإمام السجاوندي، مع اختصار لبعض تعليلات وإثبات للآيات لتوقفها علي التوقيف.

وأما أسباب النزول ، فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من تفسير الواحدي.

وأما اللغة، فمن صحاح الجوهري، ومن التفسيرين كما نقلا.

وأما المعاني والبيان وسائر المسائل الأدبية، فمن التفسيرين، والمفتاح وسائر الكتب العربية.

وأما الأحكام الشرعية،فمنهما، ومن الكتب المعتبرة في الفقه ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعي.

وأما التأويل، فأكثرها للشيخ المحقق، المتقي المتقن نجم الملة والدين المعروف بـ (داية) قدس نفسه وروح رمسه، وطرف منها مما دار بخلدي وسمحت به ذات يدي غير جازم بأنه المراد من الآية، بل خائف من أن يكون ذلك جرأة مني وخصوصا فيما لا

---

(١) هكذا بالأصل، وفي هامش بعض النسخ: (ولعل الصواب: ويزل) وليس بظاهر أقول: ولعلها يذن بمعني يمشي: قال في أساس البلاغة: وفلان يذن في مشيته إذا مشي بضعف، وما زال يذن في هذه الحاجة: يتردد بتؤدة ورفق.

(٢) الجزء الأول ص ٥ – ٦.

يعنيني، وإنما شجعني على ذلك سائر الأئمة الذين اشتهروا بالذوق والوجدان، وجمعوا بين العرفان والإيمان، والإتقان في معني القرآن، الذي هو باب واسع، يطمع في تصنيفه كل طامع، فإن أصبت فبها، وإن أخطأت فعلي الإمام ما سها،والعذر مقبول عند أهل الكرم والنهي، والله المستعان لنا ولهم في مظان الخلل والزلل، وعلي رحمته التكلان في محال الخطأ والخطل، فعلي المرء أن يبذل وسعه لإدراك الحق، ثم الله معين لإرادة الصواب، ومعين لإلهام الصدق.

وكذا الكلام في بيان الرباطات والمناسبات بين السور والآيات ، وفي أنواع التكريرات وأصناف المشتبهات ، فإن للخواطر والظنون فيها مجالاً وللناس الأكياس في استنباط الوجوه والنسب هناك مقالاً».

ثم مضي فقال: «وإني لم أمل في هذا الإملاء إلا إلي مذهب أهل السنة والجماعة فبينت أصولهم، ووجوه استدلالاتهم بها، وما ورد عليها من الاعتراضات، والأجوبة عنها.

وأما في الفروع، فذكرت استدلال كل طائفة بالآية علي مذهبه، من غير تعصب ومراء وجدال وهر اء».

ثم مضي فقال: «ولقد وفقت لإتمام هذا الكتاب في مدة خلافة علي رضي الله عنه. وكنا نقدر إتمامه في مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهي ثلاثون سنة، ولو لم يكن ما اتفق في أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة وعدم الأسفار النافعة، ومن غموم لا يعد عديدها، وهموم لا ينادي وليدها – لكان يمكن إتمامه في مدة خلافة أبي بكر، كما وقع لجار الله العلامة» (١).

هذا.. وقد نوه صاحب روضات الجنات بمكانة هذا التفسير فقال: «وتفسيره – يريد النيسابوري – من أحسن شروح كتاب الله المجيد، وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية، وأحوزها للفوائد القشرية واللبية، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كما وكيفاً، وسمة وترتيباً، بزيادة أحكام الأوقاف في أوائل تفسير الآية، ومراتب التأويل في آخره، والإشارة إلي جملة من دقائق نكات العربية في البين» (٢).

والكتاب مطبوع علي هامش تفسير ابن جرير الطبري ومتداول بين أهل العلم.

* * *

(١) الجزء ٣٠ ص ٢٢٢ – ٢٢٥.

(٢) روضات الجنات ص٢٢٦.

٧ - تفسير الجلالين لـ (جلال الدين المحلي) و (جلال الدين السيوطي)

● **التعريف بمؤلفي هذا التفسير:**

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، أما جلال الدين السيوطي، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمي بالدر المنثور.

وأما جلال الدين المحلي فهو جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي، تفتازاني العرب الإمام العلامة. قال في حسن المحاضرة: « ولد بمصر سنة ٧٩١هـ (إحدي وتسعين وسبعمائة)،واشتغل وبرع في الفنون فقهاً، وكلاماً، وأصولاً، ونحوا، ومنطقاً وغيرها. وأخذ من البدر محمود الأقصراني، والبرهان البيجوري، والشمس البساطي، والعلاء البخاري، وغيرهم، وكان علامة آية في الذكاء والفهم، حتي كان بعض أهل عصره يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس، وكان يقول عن نفسه: إن فهمه لا يقبل الخطأ ولم يك يقدر علي الحفظ ».

وكان غرة عصره في سلوك طريق السلف، علي مبلغ عظيم من الصلاح والورع، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الحق لومة لائم، فكان يواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام، وكانوا يأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم في الدخول عليه، وكان حديد الطبع لا يراعي أحداً في القول، وقد عرض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله وولي تدريس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية، وسمع من جماعة وكان مع هذا متقشفاً في معيشته يتكسب بالتجارة وقد ألف كتباً كثيرة تشد إليها الرحال، وهي غاية في الاختصار، والتحرير والتنقيح، وسلامة العبارة وحسن المزج والحل، وقد أقبل الناس علي مؤلفاته وتلقوها بالقبول، وتداولوها في دراساتهم، فمن مؤلفاته شرح جمع الجوامع في الأصول، وشرح المنهاج في فقه الشافعية، وشرح الورقات في الأصول، ومنها هذا التفسير الذي نحن بصدده.

توفي - رحمه الله - في أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ (أربع وستين وثمانمائة من الهجرة) (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:**

اشترك في هذا التفسير - كما قلنا - الإمامان الجليلان: جلال الدين المحلي. وجلال الدين السيوطي.

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب :٧ / ٣٠٣- ٣٠٤ وطبقات المفسرين للداودي ص٢١٩ - ٢٢٠.

أما جلال الدين المحلي، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلي آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يفسر ما بعدها.

وأما جلال الدين السيوطي، فقد جاء بعد الجلال المحلي فكمل تفسيره فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهي عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به.

هذا هو الواقع ولا أظن صاحب كشف الظنون مصيبا حيث يقول عند الكلام علي تفسير الجلالين ما نصه: «تفسير الجلالين من أوله إلي آخر سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي المتوفي سنة ٨٦٤هـ (أربع وستين وثمانمائة) ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة٩١١هـ (إحدي عشرة وتسعمائة) .. وحيث يقول بعد ذلك بقليل: «وكأن المحلي لم يفسر الفاتحة، وفسرها السيوطي تفسيراً مناسباً» (١).

نعم لا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً في ذلك، لأن السيوطي في مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام علي سورة البقرة - يقول بعد الديباجة ما نصه: «هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الإمام العلامة المحقق، جلال الدين، محمد بن أحمد، المحلي الشافعي رحمه الله، وتتميم ما فاته وهو - يريد ما فاته الجلال المحلي وقام هو بتفسيره - من أول سورة البقرة إلي آخر سورة الإسراء».

ويقول في آخر سورة الإسراء ما نصه: «قال مؤلفه: هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم، الذي ألفه الشيخ الإمام، العالم العلامة المحقق جلال الدين المحلي الشافعي رضي الله عنه» (٢).

هذا هو ناحية تعيين القدر الذي فسره كل منهما. وأما من الناحية الأخري وهي ادعاء صاحب كشف الظنون أن المحلي لم يفسر الفاتحة، وإنما الذي فسرها هو السيوطي، فهي أيضاً دعوي يظهر لنا أنها غير صحيحة وذلك لما يقوله الشيخ سليمان الجمل في مقدمة حاشيته علي هذا التفسير (جـ١ ص٧): «وأما الفاتحة ففسرها المحلي، فجعلها السيوطي في آخر تفسير المحلي لتكون منضمة لتفسيره. وابتدأ هو في أول سورة البقرة».

ولقوله في الحاشية نفسها (جـ٤ ص ٦٢٦) عند نهاية ما كتبه علي تفسير سورة الفاتحة: «إنه - أي الجلال المحلي - كان قد شرع في تفسير النصف الأول، وإنه ابتدأ بالفاتحة، وأنه اخترمته المنية بعد الفراغ وقبل الشروع في البقرة وما بعدها».

---

(١) كشف الظنون ١: ٢٣٦/.

(٢) الجزء الأول ص٢٣٧.

هذا.. وقد قال صاحب كشف الظنون بعد ما نقلناه عنه آنفا بقليل: «ولم يتكلم الشيخان علي البسملة، فتكلم عليها بأقل مما ينبغي من الكلام بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش، وهذا صحيح، فإن الجلال المحلي لم يتكلم عن تفسير البسملة مطلقاً في الجزء الذي فسره لا في أول سورة الكهف، ولا في أول فاتحة الكتاب، كذلك الجلال السيوطي، لم يتكلم عن تفسيرها مطلقاً في الجزء الذي فسره.

وبعد هذا.. فالجلال المحلي، فسر الجزء الذي فسره بعبارة موجزة محررة، في غاية الحسن ونهاية الدقة، و الجلال السيوطي تابعه علي ذلك ولم يتوسع لأنه التزم بأن يتم الكتاب علي النمط الذي جري عليه الحال المحلي كما أوضح هو ذلك في مقدمته،وذكر في خاتمة سورة الإسراء أنه ألف الجزء الذي ألفه في قدر ميعاد الكليم، وهو أربعون يوما، كما ذكر في هذا الموضوع نفسه: أنه استفاد في تفسيره من تفسير الجلال المحلي ، وأنه اعتمد عليه في الآي المتشابهة، كما أنه اعترف – جازما – بأن الذي وضعه الجلال المحلي في قطعته أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة» (١).

وعلي الجملة.. فالسيوطي قد نهج في تفسيره منهج المحلي«من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالي، والاعتماد علي أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتج إليه، والتنبيه علي القراءات المختلفة المشهورة، علي وجه لطيف وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية،وأعاريب محلها كتب العربية» (٢).

ولا شك أن الذي يقرأ تفسير الجلالين، لا يكاد يلمس فرقاً واضحاً بين طريقة الشيخين فيما فسراه، ولا يكاد يحس بمخالفة بينهما في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل.

فمن هذه المواضع أن المحلي في سورة (ص) فسر (الروح): بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه. والسيوطي تابعه علي هذا التفسير في سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله تعالي في الآية (٨٥) من سورة الإسراء:﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالي فالإمساك عن تعريفها أولي.

ومنها : أن المحلي قال في سورة الحج: «الصابئون: فرقة من اليهود»، والسيوطي في

---

(١) تفسير الجلالين : ١ /٢٣٧ – ٢٣٨ في الخاتمة.

(٢) مقدمة السيوطي لتفسير الجلالين.

سورة البقرة تابعة علي ذلك وزاد عليه: «أو النصاري» بياناً منه لقول ثان[١]...وهكذا تلمح الخلاف بين الشيخين قليلاً نادراً.

ثم إن هذا التفسير، غاية في الاختصار والإيجاز، حتي لقد ذكر صاحب كشف الظنون عن بعض علماء اليمن أنه قال: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلي سورة المزمل. ومن سورة المدثر التفسير زائد علي القرآن، فعلي هذا يجوز حمله بغير الوضوء»[٢].

ومع هذا الاختصار، فالكتاب قيم في بابه، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً وأكثرها تداولاً ونفعاً، وقد طبع مراراً كثيرة، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه، ومن أهم هذه الحواشي: حاشية الجمل، وحاشية الصاوي، وهما متداولتان بين أهل العلم.

وذكر صاحب كشف الظنون: أن عليه حاشية لشمس الدين محمد بن العلقمي سماها: قبس النيرين، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٢هـ (اثنين وخمسين وتسعمائة)، وحاشية مسماة بالجمالين، لمولانا الفاضل نور الدين علي بن سلطان محمد القاري نزيل مكة المكرمة، والمتوفي بها عام ١٠١٠هـ، (عشر وألف) وشرح لجلال الدين محمد بن محمد الكرخي، وهو كبير في مجلدات سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين، وله حاشية صغري»[٣].

ولكن شيئا مما ذكره صاحب كشف الظنون لم يقع تحت أيدينا، ولم نظفر بالاطلاع عليه.

٨ - السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني

●التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن محمد الشربيني، القاهري الشافعي الخطيب. تلقي العلم عن كثير من مشايخ عصره، فمنهم الشيخ

---

(١) خاتمة الجزء الأول من تفسير الجلالين ص٢٣٨. (٢) كشف الظنون: ١/ ٢٣٦.

(٣) المرجع السابق، وقد تقدم عند الكلام عن تفسير الدر المنثور وأن السيوطي شرع في تأليف تفسير سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين، ولم نعرف هل أتمه أو لا، وهو بالضرورة غير مجمع البحرين ومطلع البدرين لجلال الدين محمد بن محمد الكرخي وإن كان صاحب كشف الظنون عند الكلام عن مجمع البحرين ومطلع البدرين لم يذكر غير ما نسب للجلال السيوطي.

أحمد البرلسي، والنور المحلي، والبدر المشهدي والشهاب الرملي، وغيرهم، ولما أنس منه أشياخه، ورأوه أهلاً للفتوي والتدريس أجازوه بها فدرّس وأفتي في حياتهم، وانتفع به خلائق لا يحصون.

ولقد كان - رحمه الله - علي جانب عظيم من الصلاح والورع، وقد أجمع أهل مصر علي ذلك، ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع وكثرة التنسك والعبادة. وكان من عادته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد، وكان إذا حج لا يركب إلا بعد تعب شديد، وكان يؤثر الخمول ولا يكثرث بأشغال الدنيا، وعلي الجملة، فقد كان آية من آيات الله تعالي، وحجة من حججه علي خلقه. توفي في عصر يوم الخميس ثاني شعبان سنة ٩٧٧ هـ «سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة» ومن أهم مؤلفاته: شرحه لكتاب المنهاج وكتاب التنبيه، وهما شرحان عظيمان، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد القاضي زكريا، وأقبل الناس علي قراءتهما وكتابتهما في حياته، وتفسيره لكتاب الله تعالي، وهو الذي نحن بصدده الآن (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته: أن أئمة السلف ألّفوا في التفسير كتباً، كل علي قدر فهمه ومبلغ علمه، وأنه خطر له أن يقتفي أثرهم ويسلك طريقهم، ولكنه تردد في ذلك مدة من الزمن، مخافة أن يدخل تحت الوعيد الوارد في حق من فسر القرآن برأيه أو بغير علم، ثم ذكر أنه استخار الله تعالي في حضرته، بعد أن صلي ركعتين في روضته، وسأله أن يشرح صدره لذلك وييسره له، فشرح الله له صدره، ولما رجع من سفره، كتم ذلك في سره، حتي قال له شخص من أصحابه: إنه رأي في المنام أن النبي ﷺ أو الشافعي يقول: قل لفلان يعمل تفسيراً علي القرآن. وذكر المؤلف أنه لم يمض عليه إلا القليل حتي قرر في وظيفته مشيخة تفسير في البيمارستان، وذكر أن جماعة من أصحابه ممن لهم شغف بالعلم، طلبوا منه بعد فراغه من شرح منهاج الطالبين، أن يجعل لهم تفسيراً وسيطا بين الطويل الممل والقصير المخل، فأجابهم إلي ذلك، متمثلاً وصية الرسول ﷺ فيهم، حيث قال فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً» ومقتدياً بالماضين من السلف، في تدوين العلم إبقاء علي الخلف، وذكر أنه ليس علي ما فعلوه مزيد، ولكن لابد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، تنبيهاً للمتوقفين، وتحريضاً للمتثبطين، وليكون ذلك عوناً له وللقاصرين أمثاله - كما يقول.

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ٨/ ٣٨٤.

وذكر أنه اقتصر فيه علي أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية، وذكر أن ما يذكره فيه من القراءات فهو من السبع المشهورات. قال: وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها، أو لورودها ولكن بصيغة: (قيل)، ليعلم أن المرضي أولها، وسميته: «السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير».. ثم قال: وقد تلقيت التفسير - بحمد الله - من تفاسير متعددة رواية، عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم».

وقال في خاتمة الكتاب: «فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد، أو در منضد، جمع من التفاسير معظمها ومن القراءات متواترها، ومن الأقاويل أظهرها، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها، محرراً لدلائل في هذا الفن مظهراً لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن» ... إلخ.

وقد قرأت في هذا التفسير فوجدته تفسيراً سهل المأخذ، ممتع العبارة ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما أنه يذكر أحياناً أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشري، والبيضاوي، والبغوي، وقد يوجه ما يذكره من هذه الأقوال ويرتضيها.، وقد يناقشها ويرد عليها [١].

● موقفه من القراءات والأعاريب والحديث:

وقد وفَّي فيه صاحبه بما وعد فلم يذكر من القراءات إلا ما تواتر منها، ولم يقحم نفسه فيما لا يعني المفسر من ذكر الأعاريب التي لا تمت إلي التفسير بسبب. كما أنه وفي بما التزمه من أنه لا يذكر فيه إلا حديثا صحيحا أو حسناً، ولهذا نراه يتعقب الزمخشري والبيضاوي فيما ذكراه من الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن سورة سورة، كما ينبه علي الأحاديث الضعيفة إن روي شيئا منها في تفسيره.

فمثلاً في آخر سورة آل عمران يقول ما نصه: «روي الطبري لكن بإسناد ضعيف: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلي الله عليه وملائكته حتي تجب الشمس».. أي تغيب، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه - ﷺ - قال:« من قرأ سورة آل عمرن أعطي بكل آية منها أماناً علي جسر

---

(١) انظر ما نقله عن البيضاوي متابعاً فيه الزمخشري، وما ذكره من رد أبي حيان عليه، عند قوله تعالي في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ (جـ١ ص١١).

جهنم »، فهو من الأحاديث الموضوعة علي أبي بن كعب في فضائل السور، فليتنبه لذلك ويحذر منه، وقد نبه أئمة الحديث قديماً وحديثاً علي ذلك، وعابوا من أورده من المفسرين في تفاسيرهم، والله أعلم (١).

وفي آخر سورة الأعراف يقول ما نصه: « والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعاً للزمخشري وهو: « من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سداً، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة ».. حديث موضوع » (٢).

وفي آخر سورة الجاثية يقول ما نصه: « وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من آنه - ﷺ - قال: « من قرأ سورة حم الجاثية، ستر الله عورته، وسكن روعته يوم الحساب ». حديث موضوع » (٣).

● **اهتمامه بالنكت التفسيرية ومشكلات القرآن:**

ومما نلحظه في هذا التفسير، أنه يورد بعض النكت التفسيرية، وبعض الإشكالات والإجابة عنها، تارة بقوله: تنبيه، وتارة بقوله: فإن قيل كذا أجيب بكذا.

● **عنايته بالمناسبات بين الآيات:**

كما أنه شديد العناية بذكر المناسبات بين آيات القرآن ، عظيم الاهتمام بتقرير الأدلة وتوجيهها.

● **موقفه من المسائل الفقهية:**

كما أننا نلاحظ عليه أنه يستطرد إلي ذكر الأحكام الفقهية .ومذاهب العلماء وأدلتهم، وإن كان مقلاً في هذه الناحية، فلا يتوسع ولا يكثر من ذكر الفروع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة ﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ نراه يعرض لبعض أقوال العلماء في معني اليمين اللغو، ثم بعد الفراغ من تفسير الآية يقول: « تنبيه » ثم يذكر ما ينعقد به اليمين وما يترتب علي الحنث في اليمين المنعقدة، وهل تجب الكفارة بالحنث في اليمين الغموس أو لا تجب؟ فيذكر عن الشافعية أنهم يقولون بوجوبها وعن بعض العلماء أنه لا كفارة فيها كأكثر الكبائر، ويعرض لحكم الحلف بغير الله كالكعبة والنبي والأب وغير ذلك . (٤)

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ يقول بعد الفراغ من التفسير: « تنبيه : اختلف العلماء فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقاً، فذهب الأكثر- ومنهم الشافعي رضي الله

---

(١) الجزء الأول ص٢٦٥ .
(٢) الجزء الثالث ص ٥٦٨ .
(٣) الجزء الثالث ص ٥٦٨ .
(٤) الجزء الأول ص١٣٩ .

عنه – إلي أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج، فالحر يملك علي زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد لا يملك علي زوجته الحرة إلا طلقتين. وذهب الأقل – ومنهم أبو حنيفة رضي الله عنه – إلي أن الاعتبار المرأة في عدد الطلاق كالعدة، فيملك العبد علي زوجته الحرة ثلاث طلقات، ولا يملك الحر علي زوجته الأمة إلا طلقتين» (١).

● **خوضه في الإسرائيليات:**

هذا.. ولم يخل تفسير الخطيب، من ذكر بعض القصص الإسرائيلي الغريب، وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ ... الآية، نراه يروي خبراً طويلاً عن كعب فيه: أنه صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول": ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: أتدرون ما يقول؟قالوا: لا. قال: فإنه يقول: كما تدين تدان... إلي آخر ما ذكره من صيحات حيوانات متعددة، ومعاني هذه الصيحات، ثم يروي ما يشبه هذا عن مكحول، وعن فرقد السنجي كما يروي بعد ذلك أن جماعة من اليهود سألوا ابن عباس عن معاني ما تقول بعض الطيور، وما كان من جواب ابن عباس عن ذلك، وهو شبيه بما تقدم أيضاً، ومع كون القصة في نهاية الغرابة والبعد فإن الخطيب يمر عليها مر الكرام ولا يعقب عليها بكلمة واحدة (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النمل أيضا: ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان، وما كان من اختبارها له. وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته علي ما اختبرته به، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه مما يبعث الدهشة ويثير العجب ومع ذلك لا يعقب علي ما رواه بكلمة واحدة(٣)

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٢٣) من سورة الصافات ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾.. نراه يقول:«تنبيه أذكر فيه شيئاً من قصته عليه السلام».. ثم يروي لنا قصة طويلة ،وعجيبة عن علماء السير والأخبار، وبعد الفراغ منها لا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف (٤).

---

(١) الجزء الأول ص١٤١.
(٢) الجزء الأول ص٤٣ – ٤٤.
(٣) الجزء الثالث ص ٥٤ – ٥٥.
(٤) الجزء الثالث ص ٣٦٦ – ٣٦٩.

ولكن الخطيب إن مر علي مثل هذه القصص بدون أن يعقب عليها، لا يرضي لنفسه أن يمر علي قصة فيها ما يخل بمقام النبوة إلا بعد أن يعقب عليها بما يظهر بطلانها وعدم صحتها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآيات: (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ . الآيات، إلي آخر القصة، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازي التي ذكرها في تفسيره لتفنيد الروايات الباطلة في هذه القصة، وتقرير ما هو لائق في حق نبي الله داود عليه السلام (١).

... وهكذا نلاحظ علي هذا التفسير أنه يغلب عليه الجانب القصصي بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير.

● كثرة نقوله عن تفسير الفخر الرازي:

هذا ولا يفوتنا أن الخطيب الشربيني، كثيراً ما يعتمد علي التفسير الكبير للفخر الرازي، والذي يقرأ في تفسيره هذا، يجد أنه يكثر من النقول عنه.

والكتاب مطبوع في أربعة أجزاء كبار، ومتداول بين أهل العلم، لما فيه من السهولة والجمع لخلاصة التفاسير التي سبقته مع الدقة والإيجاز.

٩ - إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم (لأبي السعود)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفي العمادي، الحنفي المولود في سنة ٨٩٣هـ (ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة)، بقرية قريبة من القسطنطينية، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل حتي قال بعضهم فيه: تربي في حجر العلم حتي ربي، وارتضع ثدي الفضل إلي أن ترعرع وحبا، ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتي رحب باعه وامتد ساعده واشتد اتساعه».

قرأ كثيراً من كتب العلم علي والده، وتتلمذ لكثير من جلة العلماء فاستفاد منهم علماً جماً، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظم صيته وتولي التدريس في كثير من المدارس التركية، ثم قلد قضاء بروسة ثم نقل إلي قضاء القسطنطينية، ثم نقل إلي قضاء ولاية العسكر في ولاية روم أيلي، ودام علي قضائها مدة ثمان سنين، ثم تولي أمر الفتوي بعد ذلك، فقام بها خير قيام بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلي يد، وكان ذلك سنة ٩٥٢هـ «اثنين وخمسين وتسعمائة من الهجرة) ومكث في منصب

---

(١) الجزء الثالث ص ٣٨٤ - ٣٨٦.

الإفتاء نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة، والبراعة في الفتوي والتفنن فيها، وقد ذكروا عنه أنه كان يكتب جواب الفتوي علي منوال ما يكتبه السائل من الخطاب فإن كان السؤال منظوماً كان الجواب منظوماً كذلك، مع الاتفاق بينهما في الوزن والقافية، وإن كان السؤال نثراً مسجعاً، كان الجواب مثله، وإن كان بلغة العرب فالجواب بلغة العرب، وإن كان بلغة الترك فالجواب بلغة الترك... وهكذا مما يشهد للرجل بسعة أفقه وغزارة مادته ولقد قرأنا في ترجمته شيئا من الاستفتاء والفتوي فوجدنا صدق ما قيل عنه في ذلك.

وكان - رحمه الله - كما قيل عنه من الذي قعدوا من الفضائل والمعارف علي سنامها وغاربها، وسارت بذكره الركبان في مشارق الأرض ومغاربها ولقد حاز قصب السبق بين أقرانه، ولم يقدر أحد أن يجاريه في ميدانه ولقد كان اشتغاله بالتدريس وتنقله بين كثير من المدارس وتوليه للقضاء ثم الفتوي سبباً عائقاً له عن التفرغ والتصنيف والتأليف، ولكنه اختلس فرصاً من وقته فصرفها إلي كتابة التفسير، فأخرج للناس كتابه الذي نحن بصدده كما أنه كتب بعض الحواشي علي تفسير الكشاف، وكتب حاشية علي العناية من أول كتاب البيع من الهداية. وعلي الجملة فقد جمع صاحبنا بين العلم والأدب ، فبينما نراه مجوداً فيما كتبه وألفه من كتب العلم، نراه مبدعاً غاية الإبداع فيما أثر عنه من منثور ومنظوم، ولا أظن أن صاحبه الذي رثاه بعد وفاته قد تغالي في الثناء أو اشتط في الرثاء حيث يقول في مرثيته الطويلة:

ما العلم إلا ما حويت حقيقة وعلوم غيرك في الوري كسراب

توفي رحمه الله بمدينة القسطنطينية، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري، وذلك في أوائل جمادي الأولي سنة ٩٨٢هـ (اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة). فرحمه الله رحمة واسعة (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

قلنا: إن صاحب هذا التفسير شغل كثيراً بالتدريس والقضاء والفتوي ولكنه اختلس فرصاً من وقته ألف فيها كتابه في التفسير، قلنا هذا فيما سبق، والمؤلف نفسه يقرر هذا في مقدمة تفسيره، ولم يعرف أنه أخرج تفسيره للناس دفعة واحدة ، بل ذكروا أنه ابتدأ فيه، فلما وصل إلي آخر سورة (ص) عرض له من الشواغل ما جعله يقف في تفسيره عند هذا الحد، فبيض ما كتب في شعبان سنة ٩٧٣ هـ (ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة) ثم أرسله إلي الباب العالي، فتلقاه السلطان سليمان

(١) يراجع العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم الموجود بهامش وفيات الأعيان (جـ ٢ ص٢٨٢ - ٣٥٠).

خان بحسن القبول، وأنعم عليه بما أنعم، وزاد في وظيفته كل يوم خمسمائة درهم، ثم تيسر له بعد ذلك إتمامه، فأتمه بعد سنة، ثم أرسله إلي السلطان ثانياً بعد إتمامه، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه، وزاد في وظيفته مرة أخري.

والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، و من أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير، فصاحب «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم» يقول عنه في كتابه: «وقد أتي فيه بما لم تسمح به الأزمان، ولم تقرع به الآذان،فصدق المثل السائر: كم ترك الأول للآخر». وصاحب «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» يقول: «وقد طالعت تفسيره وانتفعت به وهو تفسير حسن،ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات، ومشتمل علي فوائد وإشارات». ونقل عن صاحب «الكشف» أنه قال: «انتشرت نسخه في الأقطار، ووقع له التلقي بالقبول من الفحول الكبار، لحسن سبكه وصدق تعبيره، فصار يقال له: «خطيب المفسرين» ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضي لم يبلغ إلي ما بلغة من رتبة الاعتبار» (١).

ولم يظفر هذا التفسير - كغيره من التفاسير - بكثرة الحواشي والتعليقات التي تكشف عن مراده. أو تتعقبه في بعض ما يقول، ولم يقع تحت يدنا شئ من ذلك، غير أننا نجد في «كشف الظنون» عند الكلام عن هذا التفسير ذكر ما كتب عليه من التعليقات فمن ذلك: تعليقة الشيخ أحمد الرومي الآحصاري المتوفي سنة ١٠٤١هـ (إحدي وأربعين وألف من الهجرة) من سورة الروم إلي سورة الدخان. وتعليقة الشيخ رضي الدين بن يوسف القدسي، علقها إلي قريب من النصف، وأهداها إلي المولي أسعد بن سعد الدين حين دخل المقدس زائراً، وكان دأبه فيها نقل كلام العلاّمتين الزمخشري والبيضاوي، وكلام ذلك الفاضل (أبي السعود) بقوله: قال الكشاف وقال القاضي، وقال المفتي، ثم المحاكمة فيما بينهم (٢). وهذا ما ذكره صاحب كشف الظنون ، ولا نعلم أحداً كتب عليه غير من ذكرهما.

قرأت مقدمة الكتاب لمؤلفه، فوجدته يثني كثيراً علي تفسير الكشاف وأنوار التنزيل للبيضاوي، ويذكر أنه قرأهما قبل أن يؤلف تفسيره، ثم يقول: «ولقد كان في سوابق الأيام، وسوالف الدهور والأعوام، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما،، يدور في خلدي علي استمرار، آناء الليل

---

(١) الفوائد البهية ص ٨٢.

(٢) كشف الظنون :١/ ٦٧.

وأطراف النهار، أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق، وأرتب غرر فرائدهما علي ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق، وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق، وأسلك خلالها بطريق الترصيع، علي نسق أنيق وأسلوب بديع، حسبما تقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل، ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب. وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الأقدام، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الآنام، في معارك أفكار تشتبه فيها الشئون ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون، وأبرز من وراء أستار الكمون، من دقائق السر المخزون في خزائن الكتاب المكنون، ما تطمئن إليه النفوس، وتقر به العيون، من خفايا الرموز وخبايا الكنوز.. ناوياً أن أسميه عند تمامه، بتوفيق الله وإنعامه «إرشاد العقل السليم، إلي مزايا الكتاب الكريم» .(١)

ومن هنا يتبين لنا، أن أبا السعود يعتمد في تفسيره علي تفسير الكشاف والبيضاوي وغيرهما ممن تقدمه، غير أنه لم يغتر بما جاء في الكشاف من الاعتزالات. ولهذا لم يذكرها إلا علي جهة التحذير منها، مع جريانه علي مذهب أهل السنة في تفسيره، ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر في آخر كل سورة حديثاً عن النبي ﷺ في فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، مع أن هذه الأحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم جميعاً.

- **عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه:**

قرأت في هذا التفسير فلاحظت عليه - غير ما تقدم - أنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه وبخاصة في باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظاً وافراً من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية.

- **اهتمامه بالمناسبات وإلمامه ببعض القراءات:**

ونلحظ علي أبي السعود في تفسيره أنه كثيراً ما يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/ ٤،٣ - من المقدمة.

الآيات ،كما نلحظ عليه أنه يعرض أحياناً لذكر القراءات ولكن بقدر ما يوضح به المعني، ولا يتوسع كما يتوسع غيره.

● **إقلاله من رواية الإسرائيليات:**

ومن ناحية أخري نجد أنه مقل في سرد الإسرائيليات، غير مولع بذكرها وإن ذكرها أحياناً فإنه لا يذكرها علي سبيل الجزم بها، والقطع بصحتها، بل يصدر ذكر الرواية بقوله: روي، أو قيل، مما يشعر بضعفها، وإن كان لا يعقب عليها بعد ذلك، ولعله يكتفي بهذه الإشارة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ يقول: روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهم الأساور والأطواق... إلي آخر ما ذكره من القصة العجيبة الغريبة [١] ومع ذلك فلم يعقب عليها ولا بكلمة واحدة،ولعله اكتفي – كما قلت – بما يشير إليه لفظ(روي) من عدم صحة ما ذكره.

● **روايته عن بعض من اشتهر بالكذب:**

كما نلاحظ عليه أنه يروي بعض القصص عن طريق الكلبي عن أبي صالح، فمثلاً عند تفسره لقوله تعالي في الآية (١٥) وما بعدها من سورة سبأ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ**﴾... الآيات إلي آخر القصة، نجده يقول: وأصل قصتهم ما رواه الكلبي عن أبي صالح: أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ، وبينهما اثني عشر أباً، وهو الذي يقال له (مزيقيا بن ماء السماء) أخبرته (طريقة) الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين.. ويمضي في ذكر روايات أخري عن رجال آخرين [٢] مع العلم أن الكلبي متهم بالكذب، فقد قال السيوطي في خاتمة الدر المنثور مانصه: «الكلبي اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شئ حدثتكم عن أبي صالح كذب» [٣] ولكن نجده أبا السعود يخلص من تبعة هذه الروايات التي سردها بقوله أخيرا: «والله تعالي أعلم» وهذا يشعر بأنه يشك في صدقها وصحتها.

● **إقلاله من ذكر المسائل الفقهية:**

كذلك نجد أبا السعود – رحمه الله – يتعرض في تفسيره لبعض المسائل الفقهية، ولكنه مقل جداً، ولا يكاد يدخل في المناقشات الفقهية والأدلة المذهبية، بل نجده يسرد المذاهب في الآية ولا يزيد علي ذلك.

---

(١) الجزء الرابع ص١٣١.
(٢) الجزء الرابع ص ٢٢٩.
(٣) الجزء السادس ص ٤٢٣.

فمثلاً عند قوله تعالي في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾... الآية، نجده يعرض للخلاف المذهبي في تحديد معني اليمين اللغو فيقول: (وقد اختلف فيه، فعندنا هو أن يحلف علي شئ يظنه علي ما حلف عليه ثم يظهر خلافه، فإنه لا يقصد فيه الكذب. وعند الشافعي – رحمه الله – هو قول العرب – لا والله، وبلي والله، مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال» [١] ولا يزيد علي ذلك بل يمضي فينزل الآية علي قول الحنفية.

● **تناوله لما تحتمله الآيات من وجوه الإعراب:**

كما نلحظ عليه أنه يعرض أحيانا للناحية النحوية إذا كانت الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب، وينزل الآية علي اختلاف الأعاريب، ويرجح واحداً منها ويدلل علي رجحانه.

وعلي الجملة. فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد طبع هذا التفسير مراراً وهو يقع في خمسة أجزاء متوسطة الحجم.

١٠ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (للألوسي)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير هو: أبو الثناء شهاب الدين، السيد محمود أفندي الألوسي [٢] البغدادي. ولد في سنة ١٢١٧هـ (سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية)، في جانب الكرخ من بغداد. كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله العظام ونادرة من نوادر الأيام. جمع كثيراً من العلوم حتي أصبح علامة في المنقول والمعقول، فهامة في الفروع والأصول، محدثاً لا يجاري. ومفسراً لكتاب الله لا يباري، فأخذ العلم عن فحول العلماء. منهم والده العلامة، والشيخ خالد النقشبندي، والشيخ علي السويدي، وكان رحمه الله غاية في الحرص علي تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه، وكان كثيراً ما ينشد:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي   من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرس في عدة مدارس،

---

(١) الجزء الأول ص١٧١.

(٢) الألوسي: نسبة إلي قرية اسمها (ألوس) وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد كانت موطن أجداده.

وعندنا قلد إفتاء الحنفية، شرع يدرس سائر العلوم في داره الملاصقة لجامع الشيخ عبد الله العاقولي في الرصافة. وقد تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير من قاصي البلاد ودانيها، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة، وكان - رحمه الله - يواسي طلبته من ملبسه ومأكله، ويسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتي صار في العراق العلم المفرد، وانتهت إليه الرياسة لمزيد فضله الذي لا يجحد، وكان نسيج وحده في النثر وقوة التحرير، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير، وقد أملي كثيرا من الخطب والرسائل، والفتاوي والمسائل، ولكن أكثر ذلك - علي قرب العهد - درس وعفت آثاره، ولم تظفر الأيدي إلا بالقليل منه، وكان ذا حافظة عجيبة وفكرة غريبة، وكثيراً ما كان يقول: «ما استودعت ذهني شيئاً فخانني، ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني». قلد إفتاء الحنفية في السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية، ،وقبل ذلك بأشهر، ولي أوقاف المدرسة المرجانية، إذ كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، وتحقق لدي الوزير الخطير علي رضا باشا، أنه ليس فيها من يدانيه من أحد، وفي شوال سنة١٢٦٣ هـ «ثلاث وستين ومائتين بعد الألف» انفصل من منصب الإفتاء وبقي مشتغلاً بتفسير القرآن الكريم حتي أتمه، ثم سافر إلي القسطنطينية في السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف، فعرض تفسيره علي السلطان عبد المجيد خان، فنال إعجابه ورضاه، ثم رجع منها سنة ١٢٦٩ هـ (تسع وستين ومائتين بعد الألف).

وكان - رحمه الله - عالماً باختلاف المذاهب، مطلعاً علي الملل والنحل، سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب، إلا أنه في كثير من مسائل يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه، وكان في آخر أمره يميل إلي الاجتهاد. ولقد خلف - رحمه الله - للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة، فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، وهو الذي نحن بصدده الآن، وحاشيته علي القطر، كتب منها في الشباب إلي موضع الحال، وبعد وفاته أتمها ابنه السيد نعمان الألوسي، وشرح السلم في المنطق، وقد فُقد، ومنها الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبة العراقية علي الأسئلة الإيرانية ودرة الغواص في أوهام الخواص،والنفحات القدسية في المباحث الإمامية والفوائد السنية في علم آداب البحث.

وقد توفي رحمه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ (سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة)، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ، فرضي الله عنه وأرضاه [١].

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من الترجمة الموجودة بأول النسخة الأميرية من تفسير الألوسي.

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا التفسر في مقدمته أنه منذ عهد الصغر، لم يزل متطلباً لاستكشاف سر كتاب الله المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم، وأنه طالما فرق نومه لجمع شوارده، وفارق قومه لوصال خرائده، لا يرفل في مطارف اللهوكما يرفل أقرانه، ولا يهب نفائس الأوقات لخسائس الشهوات كما يفعل إخوانه، وبذلك وفقه الله للوقوف علي كثير من حقائقه، وحل وفير من دقائقه، وذكر أنه قبل أن يكمل سنه العشرين شرع يدفع كثيراً من الإشكالات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم، ويتجاهر بما لم يظفر به في كتاب من دقائق التفسير، ويعلق علي ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذي ذهن خطير، وذكر أنه استفاد من علماء عصره، واقتطف من أزهارهم، واقتبس من أنوارهم، وأودع علمهم صدره، وأفني في كتابة فوائدهم حبره... ثم ذكر أنه كثيراً ما خطر له أن يحرر كتاباً يجمع فيه ما عنده من ذلك، وأنه كان يتردد في ذلك، إلي أن رأي في بعض ليالي الجمعة من شهر رجب سنة ١٢٥٢ هـ «اثنتين وخمسين ومائتين بعد الألف من الهجرة»، أن الله جل شأنه أمره بطي السموات والأرض، ورتق فتقهما علي الطول والعرض فرفع يداً إلي السماء، وخفض الأخري إلي مستقر الماء، ثم انتبه من نومه وهو مستعظم لرؤيته، فجعل يفتش لها عن تعبير، فرأى في بعض الكتب أنها إشارة إلي تأليف تفسير فشرع فيه في الليلة السادسة عشرة من شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، وذلك في عهد السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان، وذكر في خاتمته أنه انتهي منه ليلة الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٧هـ «سبع وستين ومائتين بعد الألف»، ولما انتهي منه جعل يفكر ما اسمه؟ وبماذا يدعوه؟ فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر، وتبتش من سماعه الخواطر فعرض الأمر علي وزير الوزراء علي رضا باشا، فسماه علي الفور: «روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني».

هذه هي قصة تأليف هذا التفسير، كما ذكرها صاحبه عليه رضوان الله.

وقد ذكروا أن سلوكه في تفسيره هذا كان أمراً عظيماً، وسراً من الأسرار غريباً، فإن نهاره كان للإفتاء والتدريس وأول ليله لمنادمة مستفيد وجليس، فيكتب بأواخر الليل منه ورقات، فيعطيها صباحاً للكتاب الذين وظفهم في داره فلا يكملونها تبييضاً إلا في نحو عشر ساعات.

● مكانه هذا التفسير من التفاسير التي تقدمته:

ثم إن هذا التفسير – والحق يقال – قد أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجهوده حتي أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً علي أقوال الخلف بكل

أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي وغيرها من كتب التفسير المعتبرة. وهو إذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول - غالباً - قال شيخ الإسلام. وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول - غالباً قال القاضي، وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازي يقول - غالباً - : قال الإمام وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينها، ويجعل من نفسه نقاداً مدققاً ، ثم يبدي رأيه حراً فيما ينقل، فتراه كثيراً ما يعترض علي ما ينقله عن أبي السعود، أو عن البيضاوي، أو عن أبي حيان، أو عن غيرهم. كما تراه يتعقب الفخر الرازي في كثير من المسائل، ويرد عليه علي الخصوص في بعض المسائل الفقهية، انتصاراً منه لمذهب أبي حنيفة، ثم إنه إذا استصوب رأياً لبعض من ينقل عنهم، انتصر له ورجحه علي ما عداه.

● **موقف الألوسي من المخالفين لأهل السنة:**

والألوسي سلفي المذهب سنِّي العقيدة، ولهذا نراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة والشيعة، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٥) من سورة البقرة ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾.. يقول بعد كلام طويل ما نصه: «.. وإضافته - أي الطغيان - إليهم ، لأنه فعلهم الصادر منهم، بقدرهم المؤثرة بإذن الله تعالي فالاختصاص المشعرة به الإضافة، إنما هو بهذا الاعتبار، لا باعتبار المحلية والاتصاف، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلي الإضافة، ولا باعتبار الإيجاد استقلالاً من غير توقف علي إذن الفعال لما يريد، فإنه اعتبار عليه غبار، بل غبار ليس له اعتبار، فلا تهولنك جعجعة الزمخشري وقعقعته» (١).

وانظر إلي ما كتبه قبل ذلك عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٧) من السورة نفسها: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ تجده يطيل بما لا يتسع لذكره المقام هنا، من بيان إسناد الختم إليه عز وجل علي مذهب أهل السنة، ومن ذكر ما ذهب إليه المعتزلة في هذه الآية وما رد به عليهم، وفند به تأويلهم الذي يتفق مع مذهبهم الاعتزالي (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١١) من سورة الجمعة: ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾.. يقول ما نصه: «وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضي الله

---

(١) الجزء الأول ص ١٦٠.

(٢) انظر الجزء الأول ص١٣١ - ١٣٤.

تعالي عنهم، بأنهم آثروا دنياهم علي آخرتهم، حيث انفضوا إلي اللهو والتجارة، ورغبوا عن الصلاة التي هي عماد الدين، وأفضل من كثير من العبادات، لاسيما مع رسول الله صلي الله تعالي عليه وسلم، وروي أن ذلك قد وقع مراراً منهم، وفيه أن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وسائر العشيرة المبشرة لم ينفضوا ،والقصة كانت في أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثر القوم تام التحلي بحلية آداب الشريعة بعد، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم مايقتات به لو لم ينفضوا، ولذا لم يتوعدهم الله علي ذلك بالنار أو نحوها، بل قصاري ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم ، ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال: بلغني – والله تعالي أعلم – أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه، وإن أريد بها غيرها فليبين وليثبت صحته، وأنَّي بذلك؟ وبالجملة: الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم – وقد عقبها منهم عبادات لا تحصي – سفه ظاهر وجهل وافر. (١)

● **الألوسي والمسائل الكونية:**

ومما نلاحظه علي الألوسي في تفسيره، أنه يستطرد إلي الكلام في الأمور الكونية. ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة، ،ويقر منه ما يرتضيه ويفند ما لا يرتضيه، وإن أردت مثالاً جامعاً، فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي في الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) من سورة يس: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (٢).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٢) من سورة الطلاق: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾(٣) فستري منه توسعاً في هذه الناحية.

● **كثرة استطراده للمسائل النحوية:**

كذلك يستطرد الألوسي إلي الكلام في الصناعة النحوية، ويتوسع في ذلك أحياناً إلي حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً، ولا أحيلك علي نقطة بعينها، فإنه لا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك.

---

(١) الجزء ٢٨ص ٩٤.
(٢) الجزء ٢٣ ص ١١ .
(٣) الجزء ٢٨ ص ١٢٥ – ١٢٨.

● **موقفه من المسائل الفقهية:**

كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفي مذاهب الفقهاء وأدلتهم مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة: ﴿ **وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** ﴾.. يقول ما نصه: وقال الإمام مالك: المحسنون: المتطوعون، وبذلك استدل علي استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلي الندب، وعندنا (١): هي واجبة للمطلقات في الآية، مستحبة لسائر المطلقات. وعند الشافعي رضي الله عنه في أحد قوليه: هي واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التي سمي لها وطلقت قبل الدخول، وما لم يساعده مفهوم الآية ولم يعتبر العموم في قوله تعالي: ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٤١] لأنه يحمل المطلق علي المقيد، قال بالقياس، وجعله مقدماً علي المفهوم، لأنه من الحجج القطعية دونه، وأجيب عما قاله مالك، بمنع قصر المحسن علي المتطوع، بل هو أعم منه ومن القائم بالواجبات، فلا ينافي الوجوب، فلا يكون صارفاً للأمر عنه مع ما انضم إليه من لفظ حقاً» (٢).

وإذا أردت أن تتأكد من أن الألوسي غير متعصب لمذهب بعينه فارجع إلي البحث الذي أفاض فيه عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾.. الآية، تجده بعد أن يذكر مذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، وأدلة كل منهم، ومناقشاتهم يقول: «وبالجملة، كلام الشافعية في هذا المقام قوي، كما لا يخفي علي من أحاط بأطراف كلامهم، واستقرأ ما قالوه، تأمل ما دفعوا به من أدلة مخالفيهم» (٣).

● **موقفه من الإسرائيليات:**

ومما نلاحظ علي الألوسي أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة، مع سخرية منه أحياناً.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٢) من سورة المائدة: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا** ﴾.. نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق، يرويها عن البغوي، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه: (وأقول: قد

---

(١) هذه اللفظة: (وعندنا) تدل بوضوح علي أن الألوسي كان حنفي المذهب، وما أكثر مثل هذا التعبير في تفسيره مما يجعلنا لا نميل إلي ما نقلناه سابقاً من أنه كان شافعياً يقلد أبا حنيفة في كثير من المسائل.

(٢) الجزء الثاني ص١٥٤.

(٣) الجزء الثاني ص١٣٠ – ١٣٣.

شاع أمر عوج عند العامة، ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفي فتاوي العلامة ابن حجر، قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه، هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات أهل الكتاب ولم يكن قط علي عهد نوح عليه السلام، ولم يسلم من الكفار أحد. وقال ابن القيم: من الأمور التي عرف بها كون الحديث موضوعاً أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة علي بطلانه، كحديث عوج بن عنق وليس العجب من جراة من وضع هذا الحديث وكذب علي الله تعالي، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره، ثم قال: ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم .. ثم مضي الألوسي في تفنيد هذه القصة بما حكاه عن غير من تقدم من العلماء الذين استنكروا هذه القصة الخرافية (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٨) من سورة هود: ﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** ﴾. نجده يروي أخباراً كثيرة في نوع الخشب الذي صنعت منه السفينة، وفي مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، وفي المكان الذي صنعت فيه.. ثم يعقب علي كل ذلك بقوله: «وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أري لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سالمة عن عيب، فالحري بحال من لا يميل إلي الفضول، أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالي في كتابه، ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، ومن أي خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها إلي غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة» (٢).

● تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول:

ثم إن الألوسي يعرض لذكر القراءات ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها، كما أنه يعني بإظهار وجه المناسبات بين السور كما يعني بذكر المناسبات بين الآيات ويذكر أسباب النزول للآيات التي أنزلت علي سبب، وهو كثير الاستشهاد بأشعار العرب علي ما يذهب إليه من المعاني اللغوية.

● الألوسي والتفسير الإشاري:

ولم يفت الألوسي أن يتكلم عن التفسير الإشاري بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات (٣)، ومن هنا عد بعض العلماء تفسيره هذا في ضمن كتب

---

(١) الجزء السادس ص ٨٦ - ٨٧. (٢) الجزء الثاني عشر ص ٤٥.

(٣) وسيأتي عند الكلام عن التفسير الإشاري توضيح لرأي الألوسي في هذا اللون من التفسير.

التفسير الإشاري، كما عد تفسير النيسابوري في ضمنها كذلك، ولكني رأيت أن أجعلهما في عداد كتب التفسير بالرأي المحمود نظراً إلي أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشاري، بل كان ذلك تابعاً - كما يبدو - لغيره من التفسير الظاهر، وهذه - كما قلت من قبل- مسألة اعتبارية لا أكثر ولا أقل، وإنما أردت أن أبين جهتي الاعتبار.

وجملة القول.. فروح المعاني للعلامة الألوسي ليس إلا موسوعة تفسيرية قيمة . جمعت جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه، مع النقد الحر، والترجيح الذي يعتمد علي قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلي نواح علمية مختلفة، مع توسع يكاد يخرجه عن مهمته كمفسر إلا أنه متزن في كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم علي اختلاف نواحيه وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه،فجزاه لله عن العلم وأهله خير الجزاء إنه سميع مجيب.

وبعد... فهذه هي أهم كتب التفسير بالرأي الجائز، وهناك كتب أخري تدخل في هذا النوع من التفسير، ولها أهميتها وقيمتها، كما أن لها شهرتها الواسعة بين أهل العلم الذين يعنون بالتفسير، غير أني أمسكت عنها هنا مخافة التطويل، ولعدم إمكان الحصول علي بعضها، وأحسب أن في هذا القدر كفاية وغني عن كتب أخري كثيرة.

* * *

الفصل الرابع
التفسير بالرأي المذموم (تفسير الفِرَق المبتدعة)

● **تمهيد في بيان نشأة الفرق الإسلامية:**

جري التفسير منذ زمن النبوة إلي زمن أتباع التابعين، علي طريقة تكاد تكون واحدة، فخَلَفْ كل عصر يحمل التفسير عمن سلف بطريق الرواية والسماع ، وفي كل عصر من هذه العصور، تتجدد نظرات تفسيرية، لم يكن لها وجود قبل ذلك، وهذا راجع إلي أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحي الغموض في التفسير. فكان لابد للتفسير من أن يتضخم كلما مرت عليه السنون.

لم يكن هذا التضخم في الحقيقة إلا محاورات عقلية، ونظرات اجتهادية قام بها أفراد ممن لهم عناية بهذه الناحية. غير أن هذه الناحية العقلية في التفسير لم تخرج عن قانون اللغة، ولم تتخط حدود الشريعة، بل ظلت محتفظة بصيغتها العقلية والدينية، فلم تتجاوز دائرة الرأي المحمود إلي دائرة الرأى المذموم الذي لا يتفق وقواعد الشرع.

ظل الأمر علي ذلك إلي أن قامت الفرق المختلفة، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة، ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة. وكان القرآن هو هدفهم الأول الذي يقصدون إليه جميعاً، كل يبحث في القرآن ليجد فيه ما يقوي رأيه ويؤيد مذهبه، وكل واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه، والميل بها مع رأيه وهواه وتأويل ما يصادمه منها تأويلاً يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه. ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود إلي دائرة الرأي المذموم واستفحل الأمر إلي حد جعل القوم يتسعون في حماية عقائدهم، والترويج لمذاهبهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله علي وفق أهوائهم، ومقتضي نزعاتهم ونحلهم!!

ونحن نعلم بطريق الإجمال – وللتفصيل موضع غير هذا – أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار، إلا واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي» وقد حقق الله نبوءة رسوله، وصدق قوله فتصدعت الوحدة الإسلامية إلي أحزاب مختلفةوفرق متنافرة متناحرة، ولم يظهر هذا التفرق بكل ما فيه من خطر علي الإسلام والمسلمين إلا في عصر الدولة العباسية، أما قبل ذلك فقد كان المسلمون يداً واحدة ، وكانت عقيدتهم واحدة كذلك، إذا استثنينا ما كان بينهم من المنافقين الذين

ينتسبون إلي الإسلام ويضمرون الكفر، وما كان بين علي ومعاوية من خلاف لم يكن له مثل هذا الخطر. وإن كان النواة التي قام عليها التحزب، ونبت عنها التفرق والاختلاف.

بدأ الخلاف بين المسلمين أول ما بدأ، في أمور اجتهادية لا تصل بأحد منهم إلي درجة الابتداع والكفر، كاختلافهم عن قول النبي ﷺ «أئتوني بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي» حتي قال عمر: إن النبي قد غيبه الوجع، حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط في ذلك حتي قال النبي ﷺ: «قوموا عني، لا ينبغي عندي التنازع».

وكاختلافهم في موضع دفنه - ﷺ - أيدفن بمكة، لأنها مولده وبها قبلته ومشاعر الحج؟ أم يدفن بالمدينة، لأنها موضع هجرته، وموطن أهل نصرته؟ أم يدفن ببيت المقدس، لأن بها تربة الأنبياء ومشاهدهم؟

وكالخلاف الذي وقع بينهم في سقيفة بني ساعدة في تولية من يخلف رسول الله ﷺ بعد وفاته، وغير ذلك من الخلافات التي وقعت بينهم، ولم يكن لها خطرها الذي ينجم عنه التفرق ووقوع الفتنة والبغضاء بين المسلمين.

ظل الأمر علي ذلك إلي زمن عثمان رضي الله عنه، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه، ومحاصرتهم لداره، وقتلهم له، فعري المسلمين من ذلك الوقت رجة فكرية عنيفة، طاحت بالروية، وذهبت بكثير من الأفكار مذاهب شتي، فقام قوم يطالبون بدم عثمان، ثم نشبت الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من أجل الخلافة، وكان لكل منهم شيعة وأنصار يشدون أزره، ويقوون عزمه، وتبع ذلك انشقاق جماعة علي كرم الله وجهه، بعد مسألة التحكيم في الخلاف الذي بينه وبين معاوية، في السنة السابعة والثلاثين من الهجرة، فظهرت من ذلك الوقت فرقة الشيعة، وفرقة الخوارج، وفرقة المرجئة [1]، وفرقة أخري تنحاز لمعاوية، وتؤيد الأمويين علي وجه العموم.

ثم أخذ هذا الخلاف والتفرق، يتدرج شيئا فشيئاً، ويترقي حيناً بعد حين إلي أن ظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكان أول من جهر بهذا المذهب ووضع الحجر الأساسي لقيام هذه الفرقة، معبد الجهني الذي أخذ عنه مذهبه غيلان الدمشقي ومن شاكله، وكان ينكر عليهم مذهبهم هذا من بقي من الصحابة كعبد الله ابن عمر، وابن عباس، وأنس وأبي هريرة وغيرهم.

ثم ظهر بعد هؤلاء- وفي زمن الحسن البصري بالبصرة - خلاف واصل بن عطاء

---

(١) انظر تبيين كذب المفتري ص ١٠.

في القدر، وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين، ومجادلته للحسن البصري في ذلك، واعتزاله مجلسه، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة.

ثم كان من أصحاب الديانات المختلفة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة.. إلي آخر من تزيا بزي الإسلام وأبطن الكيد له، حنيناً إلي ملتهم الأولي، كعبد الله بن سبأ اليهودي، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة، ويرجون لهم الفرقة، فأفلحوا فيما قصدوا إليه من تحزب المسلمين وتفرقهم.

وفي خلال ذلك غلا بعض الطوائف التي ولدها الخلاف، فابتدعوا أقوالاً خرجت بهم عن دائرة الإسلام كالقائلين بالحلول والتناسخ من السبئية، وكالباطنية الذين لا يعدون من فرق الإسلام، وإنما هم في الحقيقة علي دين المجوس.

لم يزل الخلاف يتشعب، والأراء تتفرق، حتي تفرق أهل الإسلام وأرباب المقالات، إلي ثلاث وسبعين فرقة كما قال صاحب المواقف(١) وكما عدهم وبينهم الإمام الكبير، أبو المظفر الإسفراييني، في كتابه (التبصير في الدين)(٢)، وليس هذا موضع ذكرها واستقصائها.

والذي اشتهر من هذه الفرق خمس: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج. وما وراء ذلك من الفرق كالجبرية، والباطنية، والمشبهة، وغيرها، فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسية.

نحن نعلم هذا التفرق الذي أصاب المسلمين في وحدتهم الدينية والسياسية، ونعلم أيضا، أن الناس كانوا في عصر النبي ﷺ وبعده يقرأون القرآن أو يسمعونه فيغنون بتفهم روحه، فإن عني علماؤهم بشئ وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للنزول، واستشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً، أو أسلوباً غامضاً. ولكنا لا نعلم في هذا العصر الأول، انحياز الصحابة إلي مذاهب دينية وآراء في الملل والنحل، فلما وقع هذا التفرق الذي أشرنا إليه وأجملنا مبدأه وتطوره، رأينا كل فرقة من هذه الفرق تنظر إلي القرآن من خلال عقيدتها، وتفسره بما يتلاءم مع مذهبها، فالمعتزلي يطبق القرآن علي مذهبه في الاختيار، والصفات، والتحسين والتقبيح العقليين.. ويؤول ما لا يتفق ومذهبه، وكذلك يفعل الشيعي، وكذلك يفعل كل صاحب مذهب حتي يسلم له مذهبه.

غير أننا لم نحط علماً بكل هذه النظرات المذهبية في القرآن، ولم يقع تحت أيدينا من كتب التفسير المذهبية إلا القليل النادر بالنسبة لما حرمت منه المكتبة الإسلامية، علي أن هذا القليل ليس إلا لبعض الفرق دون بعض وهناك تفسيرات وتأويلات

---

(١) الجزء الثاني ص ٣٧٧.

(٢) صفحة ١٥ – ١٦.

لبعض من آيات القرآن لبعض من الفرق، ولكنها متفرقة مشتتة بين صحائف كتب التفسير خاصة وكتب العلم عامة. وهناك فرق أخري لم نظفر لها بتفسير كامل ولا بشئ من التفسير، ولهذا أرى أن أتكلم عن التفسير المذهبي لا لكل الفرق، بل للفرق التي ألفت وخلفت لنا كتبًا في التفسير ،ووقعت تحت أيدينا، فاستطعنا بعد القراءة فيها والنظر إليها أن نحكم عليها بما يتناسب مع المنهج الذي انتهجه فيها مؤلفوها، والطريق الذي سلكوه في شرحهم لكتاب الله تعالي.

وسبق لنا أن تكلمنا عن التفسير بالرأي الجائز وأهم ما ألف فيه من كتب، وذلك هو تفسير أهل السنة والجماعة، وتلك هي أشهر تفاسيرهم التي خلفوها للناس، فلا نعود لذلك، بل نشرع في الكلام عن موقف غيرهم من الفرق، بالنسبة لكتاب الله تعالي، وعن أهم ما خلفوه لنا من كتب في التفسير، والله يتولانا و يسدد خطانا، إنه سميع مجيب.

* * *

المعتزلة
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● **كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية - نشأة المعتزلة:**

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً طويلاً من الزمان، وأصل هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الملقب بالغزال(١) المولود سنة ٨٠ هـ (ثمانين)، والمتوفي سنة ١٣١هـ (إحدي وثلاثين ومائة)، في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنه دخل علي الحسن البصري رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة - يريد وعيدية الخوارج - وجماعة أخري يرجئون الكبائر، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلي أسطوانة من أسطوانات المسجد، وأخذ يقرر علي جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به، من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين، قائلاً: إن المؤمن اسم مدح، ،والفاسق لا يستحق المدح فلا يكون مؤمناً، وليس بكافر أيضاً، لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه. فإذا مات بلا توبة خلد في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان، فريق في الجنة، وفريق في السعير، لكن يخفف عنه، وتكون دركته فوق دركات الكفار، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فلذلك سمي هو وأصحابه معتزلة (٢).

ويلقب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمعطلة تارة أخري، أما تلقيبهم بالقدرية، فلأنهم يسندون أفعال العباد إلي قدرتهم، وينكرون القدر فيها وأما تلقيبهم بالمعطلة فلأنهم يقولون بنفي صفات المعاني فيقولون: الله عالم بذاته قادر بذاته... وهكذا.

فأنت تري مما تقدم، أن الاعتزال نشأ في البصرة، ولكن سرعان ما انتشر في العراق، واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد، ومروان بن محمد، وفي العصر العباسي، استفحل أمر المعتزلة، واحتلت أفكارهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكاناً عظيماً، وما لبث أن تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة،

---

(١) لقب بذلك لأنه كان يلازم حوانيت الغزالين.

(٢) شرح المواقف الجزء الثامن، ويري بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ابنا محمد ابن الحنفية. وعن أبي هاشم أخذ الاعتزال واصل ابن عطاء - انظر مقدمة تبيين كذب المفتري ص١٠، ١١.

وعلي رأسها واصل بن عطاء ومدرسة بغداد ، وعلي رأسها بشر بن المعتمر،وكان بين معتزلي البصرة ومعتزلي بغداد جدال وخلاف في كثير من المسائل.

ولا أطيل بذكر ما كان بين المدرستين من مسائل خلافية، فإن هذه العجالة لا تتحمل الإطالة والتفصيل، ويكفي أن أجمل القول في ذكر أصول المعتزلة، وأن أشير إلي تعدد فرقهم، ومن أراد التفصيل فليرجع إلي الكتب التي ألفت في تاريخ الفرق، وهي كثيرة.

● **أصول المعتزلة:**

أما أصول المعتزلة فهي خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعاً فليس معتزلياً بالمعني الصحيح. قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث الهجري: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتي يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي» (١).

أما التوحيد: فهو لب مذهبهم، ورأس نحلتهم، وقد بنوا علي هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالي يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئا غير الذات، وأن القرآن مخلوق لله تعالي.

وأما العدل: فقد بنوا عليه: أن الله تعالي لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها ولا هو قادر عليها، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالي، لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً، وما سوي ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وأما الوعد والوعيد: فمضمونه، أن الله يجازي من أحسن بالإحسان ومن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار. وأوضح من هذا أنهم يقولون: إنه يجب علي الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب علي الكبائر وأخبر به، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده. وهم يعنون بذلك أن الثواب علي الطاعات، والعقاب علي المعاصي قانون حتمي التزم الله به، كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ولو صدق بوحدانية الله وآمن برسله، لقوله تعالي في الآية (٨١) من سورة البقرة ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ ..

---

(١) تاريخ الجدل لأبي زهرة ص٢٠٨.

وأما المنزلة بين المنزلتين: فقد سبق أن بيناها في مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصري.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مبدأ مقرر عندهم، وواجب علي المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، ولكنهم بالغوا في هذا الأصل، وخالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بالقلب إن كفي، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد، لقوله تعالي في الآية (٩) من سورة الحجرات: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ .. وهم في ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره كما أنهم لم يفرقوا بين الأصول الدينية المجمع عليها وعقائدهم الاعتزالية (١).

وهناك مبادئ أخري للمعتزلة، لا يشتركون فيها، بل هي مبادئ خاصة لكل فرقة من فرقهم المتعددة، التي بلغت العشرين أوتزيد، ولا أطيل بذكر هذه الفرق وبيان خصائص كل فرقة، وأحيلك علي المواقف أو التبصير في الدين، أو الفرق بين الفرق للبغدادي، أوالملل والنحل للشهرستاني، أو الفصَل لابن حزم، لتعرف منها هذه الفرق وخصائصها، إذ ليس هذا موضع التفصيل.

وبعد .. فقد عرفنا نشأة المعتزلة، وعرفنا أصولهم آلتي أجمعوا عليهاوما علينا بعد ذلك إلا أن نتكلم عن موقفهم الذي وقفوه من تفسير القرآن، ثم بعد ذلك نتكلم عن أهم من عرفناه من مفسري المعتزلة. وعن كتبهم التي ألفوها في التفسير ونسأل الله التوفيق والسداد.

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

- **إقامة تفسيرهم علي أصولهم الخمسة:**

أقام المعتزلة مذهبهم علي الأصول الخمسة التي ذكرناها آنفاً، ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أهم خصومهم، ولهذا كان من الضروري لهذه الفرقة - فرقة المعتزلة - في سبيل مكافحة خصومها، أن تقيم

---

(١) انظر ما كتبه صاحب الكشاف علي قوله تعالي في الآية (١١٠) من سورة آل عمران ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ (جـ١ ص ٢١٩). وما كتبه علي قوله تعالي في الآية (٧٣) من سورة التوبة: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (جـ١ ص ٥٦١).

مذهبها وتدعم تعاليمها علي أسس دينية من القرآن، وكان لابد لها أيضاً أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها، وسبيل ذلك كله هو النظر إلي القرآن أولاً من خلال عقيدتهم ، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم.

ولا شك أن مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة، يحتاج إلي مهارة كبيرة، واعتماد علي العقل أكثر من الاعتماد علي النقل حتي يستطيع المفسر الذي هذا حاله، أن يلوي العبارة إلي جانبه، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه.

والذي يقرأ تفسير المعتزلة، يجد أنهم بنوا تفسيرهم علي أسسهم من التنزيه المطلق، والعدل وحرية الإرادة ، وفعل الأصلح. . ونحو ذلك، ووضعوا أسساً للآيات التي ظاهرها التعارض فحكموا العقل، ليكون الفيصل بين المتشابهات وقد كان من قبلهم يكتفون بمجرد النقل عن الصحابة أو التابعين فإذا جاءوا إلي المتشابهات سكتوا وفوضوا العلم لله.

● **إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة:**

ثم إن هذا السلطان العقلي المطلق، قد جر المعتزلة إلي إنكار ما صح من الأحاديث التي تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية، كما أنه نقل التفسير الذي كان يعتمد أولا وقبل كل شئ علي الشعور الحي، والإحساس الدقيق، والبساطة في الفهم وعدم التكلف والتعمق، إلي مجموعة من القضايا العقلية. والبراهين المنطقية، ممايشهد للمعتزلة - رغم اعتزالهم - بقوة العقل وجودة التفكير .

ومع أن هذا السلطان العقلي المطلق، كان له الأثر الأكبر في تفسير المعتزلة للقرآن، حتي اضطرهم في بعض الأحيان إلي رد ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة، فإنا لا نستطيع أن نقول إن المعتزلة كانوا يقصدون الخروج علي الحديث أو عدم الاعتراف بالتفسير المأثور، وذلك لأن حالهم بإزاء التفسير المأثور وتصديقهم له، يظهر بأجلي وضوح من حكم النظام علي استرسال المفسرين من معاصريه.

وكان (النظام) معتبراً في مدرسة المعتزلة من الرؤوس الحرة الواسعة الحرية وقد ذكر لنا تلميذه الجاحظ قوله الذي قاله في شأن هؤلاء المفسرين، وهذا نصه: قال الجاحظ: «كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلي كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية علي غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، وكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلي صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** ﴾

[الجن:١٨]: إن الله عز وجل، لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عني الجباه، وكل ما سجد الناس عليه من يد وجبهة وأنف وثفنة - وقالوا في قوله تعالي: ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** ﴾ [الغاشية:١٧]: إنه ليس يعني الجمال والنوق وإنما يعني السحاب - وإذا سئلوا عن قوله: ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ** ﴾ [الواقعة: ٢٩] قالوا: الطلح هو الموز - وجعلوا الدليل علي أن شهر رمضان قد كان فرضاً علي جميع الأمم وأن الناس غيروه قوله تعالي: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].. وقالوا في قوله تعالي: ﴿ **رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** ﴾ [طه: ١٢٥]. قالوا: إنه حشره بلا حجة - وقالوا في قوله تعالي: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ [المصطفين: ١]: الويل واد في جهنم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي، ومعني الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم - وسئلوا عن قوله تعالي: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ﴾ [الفلق: ١]... قالوا: الفلق واد في جهنم. ثم قعدوا يصفونه، وقال آخرون: الفلق: المقطرة بلغة اليمن.. إلي آخر ما ذكره من تفسيراتهم الغريبة» [١].

هذا .. وإن الزمخشري - وهو أهم من عرفنا من مفسري المعتزلة - نجده كثيراً ما يذكر ما جاء عن الرسول ﷺ أو عن السلف من التفسير ويعتمد علي ما يذكر من ذلك في تفسيره.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٤١، ٤٢) من سورة الأحزاب ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾.. يقول ما نصه: ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ** ﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، من التقديس والتحميد، والتهليل والتكبير، وما هو أهله، وأكثروا ذلك ﴿ **بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ أي كافة الأوقات، قال رسول الله ﷺ: «ذكر الله علي فم كل مسلم» وروي: «في قلب كل مسلم» وعن قتادة: «قولوا سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعن مجاهد: «هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان) أعني: أذكروا وسبحوا موجهان إلي البكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة». إلخ [٢].

- **ادعاؤهم أن كل محاولاتهم في التفسير مرادة لله:**

ثم إن المعتزلة - بناء علي رأيهم في الاجتهاد، من أن الحكم ما أدي إليه اجتهاد كل مجتهد، فإذا اجتهدوا في حادثة فالحكم عند الله تعالي في حق كل واحد

---

(١) الحيوان للجاحظ: ١/١٦٨ - ١٧٠. (٢) الكشاف: ٢/٢١٥.

مجتهده(١) - رفضوا أن يكون للآية التي تحتمل أوجهاً تفسيراً واحداً لا خطأ فيه، وحكموا علي جميع محاولاتهم التي حاولوها في في حل المسائل الموجودة في القرآن بأنها مرادة لله تعالي، وغاية ما قطعوا به هو عدم إمكان التفسير المخالف لمبادئهم وآرائهم.

وبدعي أن هذا الذي ذهب إليه المعتزلة، يخالف مذهب أهل السنة من أن لكل آية من القرآن معني واحداً مراداً لله تعالي، وما عداه من المعاني المحتملة، فهي محاولات واجتهادات، يراد منها الوصول إلي مراد الله بدون قطع، غاية الأمر أن المفسر يقول باجتهاده، والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب، وهو مأجور في الحالتين وإن كان الأجر علي تفاوت.

● **المبدأ اللغوي في التفسير وأهميته لدي المعتزلة:**

كذلك نجد المعتزلة قد حرصوا كل الحرص علي الطريقة اللغوية التي تعتبر عندهم المبدأ الأعلي لتفسير القرآن، وهذا المبدأ اللغوي، يظهر أثره واضحاً في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية، أو العبارات التي تحتوي علي التشبيه، أو العبارات التي تصادم بعض أصولهم، فنراهم يحاولون أولاً إبطال المعني الذي يرونه مشتبهاً في اللفظ القرآني، ثم يثبتون لهذا اللفظ معني موجوداً في اللغة يزيل هذا الاشتباه ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون علي ما يذهبون إليه من المعاني التي يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربي القديم.

فمثلاً الآيات التي تدل علي رؤية الله تعالي كقوله سبحانه في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾.. وقوله تعالي في الآية (٢٣) من سورة المطففين: ﴿**عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ نجد المعتزلة ينظرون إليها بعين غير العين التي ينظر بها أهل السنة، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوي، حتي يتخلصوا من الورطة التي أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، فإذا بهم يقولون: إن النظر إلي الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة، واستدلوا علي ذلك بأن النظر إلي الشئ في العربية ليس مختصاً بالرؤية المادية، واستشهدوا علي ذلك بقول الشاعر:

وإذ نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعماً

ومثلاً عندما يقرأ المعتزلي قوله تعالي في الآية (٣١) من سورة الفرقان ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ يجد أن مذهبه الذي يقول بوجوب الصلاح

---

(١) التوضيح: ٢/١١٨.

والأصلح علي الله لا يتفق وهذا الظاهر من معني الجعل ولكن سرعان ما يتخلص من هذه الضائقة العالم المعتزلي الكبير أبو علي الجبائي فيفسر: (جعل) بمعني (بيَّن) لا بمعني خلق، ويستدل علي ذلك بقول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا   علي ثبت من أمرهم حين يمموا

فيكون المعني علي هذا: أن الله سبحانه بين لكل نبي عدوه حتي يأخذ حذره منه (١).

● **تصرف المعتزلة في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم:**

وأحيانا يحاول المعتزلة تحويل النص القرآني من أجل عقيدتهم إلي ما لا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ.

فمثلاً ينظر بعض المعتزلة إلي قوله تعالي في الآية (١٦٤) من سورة النساء ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ .. فيري أن مذهبه لا يتفق وهذا اللفظ القرآني حيث جاء المصدر مؤكداً للفعل ،رافعا لاحتمال المجاز، فيبادر إلي تحويل هذا النص إلي ما يتفق ومذهبه فيقرؤه هكذا: « وكلم اللهَ موسي تكليماً » بنصب لفظ الجلالة علي أنه مفعول، ورفع موسي علي أنه فاعل. وبعض المعتزلة يبقي اللفظ القرآني علي وضعه المتواتر، ولكنه يحمله علي معني بعيد حتي لا يبقي مصادماً لمذهبه فيقول: إن « كلم » من الكلْم بمعني الجرح فالمعني : وجرح الله موسي بأظفار المحن ومخالب الفتن،وهذا ليفر من ظاهر النظم الذي يصادم عقيدته ويخالف هواه.

هذا الذي ذكرناه ، تعرض له الزمخشري في كشافه، فرواه عمن قال به عندما تكلم عن هذه الآية فقال: وعن إبراهيم ويحيي بن وثاب أنهما قرءا (وكلم اللهَ) بالنصب، ثم قال منددا بالرأي الثاني: « ومن بدع التفاسير أنه من الكلم ، وأن معناه: وجرح الله موسي بأظفار المحن ومخالب الفتن) (٢).

ومن الأمثلة التي يظهر فيها هذا التصرف من أجل أغراضهم المذهبية، قوله تعالي في الآية (٨٨) من سورة البقرة: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ .. فبعض المعتزلة أحس من هذه الآية أنها لا تتفق ومذهبه لأنها تشعر بأن الله خلق قلوبهم علي طبيعة وحالة لا تقبل معها الإسلام، فيكون هو الذي منعهم عن الهدي وألجأهم إلي الضلال فقرأها هذا المعتزلي :« غلف » .. جمع غلاف بمعني الوعاء أي قلوبنا أوعية حاوية للعلم، فهم مستغنون بما عندهم عما جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا الوجه يتمشي مع القراءة المعروفة: ﴿ **غُلْفٌ** ﴾ علي أنه مخفف

---

(١) انظر تفسير الفخري الرازي : ٦ / ٤٧١ . والمذاهب الإسلامية في القرآن الكريم ص ١٣٠ .

(٢) الكشاف: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨ .

« غلف » وبطبيعة الحال يكون هذا القول من اليهود افتخاراً منهم بأن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وليس اعتذارا منهم وتبريرا لكفرهم بأن الله خلق قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه، ومغشاة بأغطية تمنع وصول دعوة الرسول إليها.

وهذا الذي ذكرنا من قراءة (غلف) بدون تخفيف تعرض لذكره الزمخشري فقال: « وقيل غلف: تخفيف غلف، وجمع غلاف إلي قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. وروي عن أبي عمرو: « قلوبنا غُلُف » .. بضمتين » (١).

كما ذكره أيضا الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية فقال: « .. وثانيها - أي ثاني الأوجه - روي الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غلف بالعلم ومملوءة بالحكمة، فلا حاجة معها بهم إلي شرع محمد عليه السلام » (٢).

وهكذا نجد شيوخ المعتزلة، يحاولون التوفيق بين مذهبهم والقرآن بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق، تارة بتطبيق مبدئهم اللغوي علي كثير من آيات القرآن الكريم، حتي يتمشي النص القرآني مع قواعد مذهبهم أو يتخلصوا من معارضته ومصادمته لهم علي الأقل، وتارة بتحويل النص القرآني والتصرف فيه، بما يجعله في جانبهم لا في جانب خصومهم.

● **نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالي في التفسير:**

غير أن هذا المسلك قد أغضب العلامة ابن قتيبة وأهاجه عليهم فانتقدهم انتقاضا مراً لاذعاً في كتابه « تأويل مختلف الحديث » وإليك ما قاله بنصه لتقف علي ما كان بين الفريقين - فريق أهل السنة وفريق المعتزلة - من جدال ومحاورة، وليتبين لك مقدار الميل بالعبارات القرآنية إلي ناحية المذهب والعقيدة من كبار شيوخ المذهب الاعتزالي.

قال أبو محمد: « وفسروا - أي المعتزلة - القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلي مذهبهم و يحملوا التأويل علي نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالي: ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي علمه، وجاءوا علي ذلك بشاهد لا يعرف، وهذا قول الشاعر:

* ولا بكرسيءُ علم الله مخلوق *

كأنه عندهم: ولا يعلم علم الله مخلوق. والكرسي غير مهموز ،وبكرسيءُ مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالي كرسياً أو سريراً ويجعلون العرش شيئا آخر والعرب لا تعرف من العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار، يقول الله

---

(١) الكشاف: ١ / ٢٢٤، والقراءة المروية عن أبي عمرو شاذة.
(٢) تفسير الفخر الرازي: ١ / ٦١٥.

تعالي: ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي السرير، وأمية بن أبي الصلت يقول:

مجدوا الله وهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسي كبيرا
بالبناء الأعلي الذي سبق الناس ... وسوي فوق السماء سريرا
شرجعاً ما يناله العين ... تري دونه الملائك صورا (١)

وقال فريق منهم في قوله تعالي: ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ (يوسف: ٢٤).

إنها همت بالفاحشة، وهم هو بالفرار منها أو الضرب لها، والله تعالي يقول: ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ [يوسف: ٢٤] أفتراه أراد الفرار منها أو الضرب لها، فلما رأي البرهان أقام عندها؟ وليس يجوز في اللغة أن تقول: هممت بفلان وهم بي، وأنت تريد اختلاف الهمين حتي تكون أنت تهم بإهانته ويهم هو بإكرامك، وإنما يجوز هذا الكلام إذا اتفق الهمان.

وقال فريق منهم في قوله تعالي: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه: ١٢١]: إنه أتخم من أكل الشجرة، فذهبوا إلي قول العرب: غوي الفصيل يغوي غوي، إذا أكثر من شرب اللبن حتي يبشم. وذلك غوي يغوي غيا، وهو من البشم: غوي يغوي غوي.

وقال فريق منهم في قوله تعالي: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي ألقينا فيها، يذهب إلي قول الناس: ذرته الريح ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح، لأن ذرأنا مهموز، وذرته الريح تذروه غير مهموز. ولا يجوز أيضا أن نجعله من أذرته الدابة عن ظهرها أي ألقته، لأن ذلك من «ذرأت» تقدير فعلت بالهمز، وهذا من «أذريت» تقدير أفعلت بلا همز، واحتج بقول المثقب العبدي:

تقول إذا ذرأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني (٢)

وهذا تصحيف لأنه قال: تقول إذا درأت أي دفعت، بالدال غير معجمة.

وقالوا في قوله عز وجل: ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: إنه ذهب مغاضباً لقومه، استيحاشاً من أن يجعلوه مغاضباً لربه مع عصمة الله، فجعلوه مغاضباً لقومه حين آمنوا، ففروا إلي مثل ما استقبحوا، وكيف يجوز أن يغضب نبي الله ﷺ علي قومه حين آمنوا وبذلك بعث وبه أمر؟، وما الفرق بينه وبين عدو الله إن كان يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ولم يخرج مغاضباً لربه

---

(١) شرجعاً أي طويلاً وصوراً جمع أصور وهو المائل العنق (انتهي منه – هامش).

(٢) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ولا يكون إلا من جلد ودينه: أي عادته (انتهي منه – هامش).

ولا لقومه؟ - وهذا مبين في كتابي المؤلف في مشكل القرآن، ولم يكن قصدي في هذا الكتاب الإخبار عن هذه الحروف وأشباهها، وإنما كان القصد به الإخبار عن جهلهم وجرأتهم علي الله بصرف الكتاب إلي ما يستحسنون، وحمل التأويل علي ما ينتحلون.

وقالوا في قوله تعالي: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥]: أي فقيراً إلي رحمته، وجعلوه من الخلة بفتح الخاء، استيحاشاً أن يكون الله تعالي خليلاً لأحد من خلقه، واحتجوا بقول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة   يقول لا غائب مالي ولا حرم

أي إن أتاه فقير، فأية فضيلة في هذا القول لإبراهيم ﷺ؟ أما تعلمون أن الناس جميعاً فقراء إلي الله تعالي، وهل إبراهيم خليل الله إلا كما قيل، وموسي كليم الله، وعيسي روح الله؟

وقالوا في قوله تعالي: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة:٦٤]: إن اليد ههنا النعمة، لقول العرب: لي عند فلان يد، أي نعمة ومعروف. وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة، لأنه قال: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة:٦٤] معارضة عما قالوه فيها، ثم قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤].. ولا يجوز أن يكون أراد غلبت نعمهم بل نعمتاه مبسوطتان، لأن النعم لا تغل، ولأن المعروف لا يكني عنه باليدين كما يكني عنه باليد، إلا أن يريد جنسين من المعروف فيقول: لي عنده يدان. ونعم الله تعالي أكثر من أن يحاط بها» (١).

● **تذرع المعتزلة بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريباً:**

هذا... وإن المعتزلة في كثير من الأحيان، يعتمدون في طريقتهم التفسيرية علي الفروض المجازية، فمثلاً إذا مروا بآية من الآيات التي تبدو في ظاهرها غريبة مستبعدة، كقوله تعالي في الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾... الآية، وقوله تعالي في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾...الآية، نجدهم يحملون الكلام علي التمثيل أو التخييل، ولا يقولون بالظاهر ولا يحومون عليه، اللهم إلا للرد علي من يقول به ويجوز حصوله.. نعم إن القرآن يمثل القمة العالية في كمال الأسلوب وبراعة النظم، وهو في نفسه يقبل ما يقوله المعتزلة من المجازات والاستعارات، ولكن ما الذي يمنع من إرادة الحقيقة؟ وأى صارف يصرف اللفظ عن الظاهر إلي غيره من التمثيل أو التخييل بعد ما تقرر من أن اللفظ إذا أمكن حمله علي الظاهر وجب

(١) تأويل مختلف الحديث ص٨٠ - ٨٤.

حمله عليه وقبح صرفه إلي غير ما يتبادر منه؟؟. اللهم لا شئ يمنع من إرادة المعني الظاهر إلا استبعاد ذلك علي قدرة الله تعالي، ولسنا في شك من صلاحية القدرة لمثل ما جاء في الآيات التي أشرنا إليها، غاية الأمر، أن كيفية أخذ الله ذرية بني آدم من ظهورهم، ومخاطبته لتلك الذرية، وكيفية عرض الأمانة علي ما ذكر من السموات والأرض والجبال وإبائها عن حملها، أمر لا نستطيع أن نخوض فيه، بل يجب علينا أن نفوض علمه وحقيقته إلي الله سبحانه.

وسيأتي الكلام عن هذه الناحية بالذات بما هو أوسع من هذا، عند الكلام علي الكشاف للزمخشري، فإنه صاحب اليد الطولي في هذه الناحية، وخير من أفاض فيها وأجاد.

● **تفسيرهم للقرآن علي ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية:**

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر ويعترفون بما له من تأثير في المسحور، ويقولون بوجود الجن، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير في الإنسان حتي ينشأ عن ذلك المس والصرع، ويقولون بكرامات الأولياء.. وما إلي ذلك، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياساً للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات، والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء، وكان من وراء ذلك أن تمرد المعتزلة - في حرية مطلقة من كل قيد - علي الاعتقاد بالسحر والسحرة، وما يدور حول ذلك، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث التي تصرح بأن الرسول ﷺ قد سحر [١] ولم يقفوا طويلاً أمام ما يعارضهم من سورة الفلق، بل تخلصوا بتأويلات ثلاث ذكرها الزمخشري في كشافه (الجزء الثاني ص٥٦٨).

كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام علي الاعتقاد بوجود الجن، وثار بعضهم كالزمخشري ضد من يقول بأن الجن لها قوة التأثير في الإنسان مع الاعتراف منه بوجودها في نفسها، فأولوا ما يصادمهم من الآيات القرآنية،وأنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث النبوية، كالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري، وفيه: «أن شيطاناً من الجن عرض للنبي ﷺ وهو في الصلاة يريد أن يشغله عنها فأمكنه الله منه»،

---

(١) ينكر بعض أهل السنة أن رسول الله ﷺ قد سحر، زعماً منهم أن ذلك مما يقدح في صحة نبوته، وأنكروا ما صح من الأحاديث في ذلك أو تأولوها، والحق - ما دامت الأحاديث قد صحت - أن رسول الله ﷺ سحر وأثر فيه السحر بما لا يخدش جانب نبوته وتأثير السحر عليه لا يعدو أن يكون مرضاً بدنياً كالعقد عن النساء.

وكالحديث الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ وهو: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»(١).

كذلك تمرد المعتزلة علي الاعتقاد بكرامات الأولياء، واعتمدوا في تمردهم هذا علي قول الله تعالي في الآيتين(٢٦، ٢٧) من سورة الجن: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾.. ونري الزمخشري يستنتج من هذه الآية: «أنه تعالي لا يطلع علي الغيب إلا المرتضي، الذي هو مصطفي للنبوة خاصة، لا كل مرتضي، وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع علي الغيب،وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابهما أبعد شئ من الارتضاء وأدخله في السخط»(٢).

وبعد .. فإن المعتزلة لم يقفوا هذا الموقف الذي لا يتفق مع معتقدات أهل السنة. ولم يعطوا العقل هذا السلطان الواسع في التفسير، إلا من أجل أن يبعدوا – كما يزعمون – كل الأساطير الخرافية عن محيط الحقائق الدينية وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التي قامت علي التوحيد الخالص من كل شائبة.

ولكن هل وقفت أهل السنة حيال هذه المحاولات الاعتزالية في فهم نصوص القرآن الكريم موقف التسليم لها والرضا بها؟ أو أغضبهم هذا التصرف من خصومهم المعتزلة؟. الحق أن هذا التصرف من المعتزلة أثار عليهم خصومهم أهل السنة واستعداهم عليهم فرموهم بالعبارات اللاذعة، واتهموهم بتحريك النصوص عن مواضعها تمشياً مع الهوي وميلاً مع العقيدة وقد مر بك آنفا مقالة ابن قتيبة، وفيها يشدد عليهم النكير من أجل مسلكهم اللغوي في التفسير.

● **حكم الإمام أبي الحسن الأشعري علي تفسير المعتزلة:**

وهذا هو الإمام أبو الحسن الأشعري، يحكم علي تفسير المعتزلة بأنه زيغ وضلال، وذلك حيث يقول في مقدمة تفسيره المسمى بالمختزن والذي لم يقع لنا: «أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن علي آرائهم وفسروه عل أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراء علي الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل بيَّاع العلف ومتبعيه، وعن إبراهيم نظَّام الخرز ومقلديه، وعن الفوطي وناصريه، وعن المنسوب إلي قرية جبي ومنتحليه، وعن الأشج

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٠٢، ٣٠٣.
(٢) الكشاف: ٢/ ٤٩٧.

جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه، وعن الإسكافي الجاهل ومعظميه، وعن الفروي المنسوب إلي مدينة بلخ وذويه فإنهم قادة الضلال، من المعتزلة الجهال ، الذين قلدوهم في دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يعولون ، وركنهم الذي إليه يستندون.

ورأيت الجبائي ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله خلاف ما أنزل الله عز وجل، وعلي لغة أهل قريته المعروفة بجبي، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روي في كتاب حرفاً عن أحد من المفسرين. وإنما اعتمد علي ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوي بكتابه كثيراً من العوام، واستنزل به عن الحق كثيراً من الطغام، لم يكن لتشاغلي به وجه» (١).

● **حكم ابن تيمية علي تفسير المعتزلة:**

كذلك حكم ابن تيمية علي تفسيرهم فقال: «إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين،لا في رأيهم ولا في تفسيرهم وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم وثارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا علي قولهم، أو جواباً علي المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحا ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف، ونحوه ، حتي إنه يروج علي خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله. وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يُعلم أو يُعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك» (٢).

● **حكم ابن القيم علي تفسير المعتزلة:**

كذلك نجد العلامة ابن القيم يحكم علي تفسير المعتزلة حكما قاسيا فيقول:«إنه زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفار الآراء، ووساوس الصدور، فملأوا به الأوراق سواداً، والقلوب شكوكاً، والعالم فساداً، وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم إنما نشأ من تقديم الرأي علي الوحي، والهوي علي العقل » (٣).

* * *

---

(١) تبيين كذب المفتري ص ١٣٩.

(٢) مقدمة ابن تيمية، أصول التفسير ص٢٢.

(٣) إعلام الموقعين: ١ / ٧٨.

أهم كتب التفسير الاعتزالي

صنف كثير من شيوخ المعتزلة تفاسير للقرآن الكريم علي أصول مذهبهم،ولم تكن هذه التفاسير أكثر حظاً من غيرها من كتب التفسير المختلفة، حيث امتدت إلي كثير منها يد الزمان، فضاعت بتقادم العهد عليها، وحُرِمت المكتبة الإسلامية العامة من معظم هذا التراث العلمي الذي لو بقي إلي يومنا هذا لألقي لنا ضوءاً واضحاً علي مدي التفكير التفسيري، لشيوخ هذا المذهب الاعتزالي، ولكشف لنا عن حقيقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعة النطاق ، نسمع بها من علمائنا المتقدمين، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين، لما يذكر عنها من الاستفاضة والتضخم إلي حد يكاد يكون متخيلاً أو مبالغاً فيه.

نتصفح طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودي وغيرهما من الكتب التي لها عناية بهذا الشأن، فنجد أن من أشهر من صنف في التفسير من المعتزلة: أبو بكر، عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفي سنة ٢٤٠ هـ (أربعين ومائتين من الهجرة). أقدم شيوخ المعتزلة، وشيخ إبراهيم ابن إسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي، فقد ذكر ابن النديم في الفهرست: أنه ألف تفسيراً للقرآن الكريم [١]. ولكنا لا نعلم عن هذا التفسير خبراً ، حيث إنه فقد بمرور الزمن وتقادم العهد عليه.

ومحمد بن عبد الوهاب بن سلام (أبو علي الجبائي) المتوفي سنة ٣٠٣هـ (ثلاث وثلاثمائة من الهجرة)، وأحد شيوخ المعتزلة الذين كانت لهم شهرة واسعة في الفلسفة والكلام، فقد ذكر السيوطي في طبقات المفسرين[٢]:

أنه ألف في التفسير، وذكر ذلك ابن النديم في الفهرست[٣] أيضاً وكنا لا نعلم شيئاً عن هذا التفسير أكثر مما ذكرناه آنفا عن أبي الحسن الأشعري.

وأبو القاسم، عبد الله بن أحمد البلخي الحنفي المعروف بالكعبي المعتزلي، المتوفي سنة ٣١٩هـ (تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة) فقد ذكر صاحب كشف الظنون: أنه ألف تفسيراً كبيراً يقع في أثني عشر مجلداً وقال إنه لم يُسبق إليه [٤] ولكن لم يقع لنا هذا التفسير كغيره.

وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفي سنة ٣٢١هـ (إحدي وعشرين وثلاثمائة من الهجرة)، ذكر السيوطي في طبقات المفسرين[٥]: أنه ألف تفسيراً، وقال إنه رأى جزءا منه، ولكنا لم نظفر به أيضاً.

---

(١) الفهرست ص٥١. (٢) ص ٢٣. (٣) ص ٥٠.
(٤) كشف الظنون: ١/ ٢٣٤. (٥) ص ٣٣.

وأبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهاني المتوفي سنة ٣٢٢هـ (اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة)، صنف تفسيراً اسمه (جامع التأويل لمحكم التنزيل) يقع في أربعة عشر مجلداً، وقيل: في عشرين مجلداً. وقد أشار إلي هذا التفسير ابن النديم في الفهرست [١]، والسيوطي في بغية الوعاة في طبقات النحاة [٢]. وهذا التفسير - فيما يبدو - هو الذي يعتمد عليه الفخر الرازي فيما ينقله في تفسيره من أقوال منسوبة لأبي مسلم، وقد أخذ بعض المؤلفين ما جاء في تفسير الفخر الرازي منسوباً لأبي مسلم، وجمعه في كتاب مستقل سماه تفسير أبي مسلم الأصفهاني، وقد اطلعت علي جزء منه صغير الحجم بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

وأبو الحسن علي بن عيسي الرماني المتوفي سنة ٣٨٤هـ (أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة)، وأحد شيوخ المعتزلة المتشيعين صنف تفسيراً للقرآن الكريم، قال السيوطي في طبقات المفسرين [٣] إنه رآه. وذكر صاحب كشف الظنون: أنه اختصره عبد الملك بن علي المؤذن الهروي المتوفي سنة ٤٨٩هـ (تسع وثمانين وأربعمائة من الهجرة) [٤]. ولكننا لم نظفر به ولا بمختصره.

وعبيد الله بن محمد بن جرو الأسدي أبو القاسم النحوي العروضي المعتزلي المتوفي سنة ٣٨٧هـ (سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة) قال السيوطي في طبقات المفسرين [٥]: إنه صنف تفسراً للقرآن الكريم، وذكر في ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ مائة وعشرين وجهاً ولكننا لم نظفر به أيضاً.

والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، المتوفي سنة ٤١٥ هـ « خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة »، ألف كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » وهو بين أيدينا، ومتداول بين أهل العلم، ولكنه غير شامل لجميع آيات القرآن الكريم.

والشريف المرتضي، العالم الشيعي العلوي المتوفي سنة ٤٣٦هـ « ست وثلاثين وأربعمائة من الهجرة »، كتب بحوثاً فياضة في بعض آيات القرآن الكريم التي تصادم مذهب المعتزلة، ووفق بين ظاهر النظم الكريم والعقيدة الاعتزالية، ونجد هذه البحوث التفسيرية ضمن ما دونه في أماليه التي سماها: غرر الفوائد ودرر القلائد.

وعبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة المتوفي سنة ٤٨٣هـ(ثلاث وثمانين وأربعمائة من الهجرة)، فسر القرآن تفسيراً واسعاً، فقد جاء في طبقات المفسرين [٦] للسيوطي :« أنه جمع التفسير الكبير الذي لم يرد في التفاسير

---

(١) ص٥٠ (٢) ص٢٣ . (٣) ص٢٤ .
(٤) كشف الظنون: ١ / ٢٣٧ . (٥) ص١٩ . (٦) ص ١٩ .

أكبر منه ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد، منها سبع مجلدات في الفاتحة). ونقل عن ابن النجار أنه قال في شأن القزويني هذا: «إنه كان طويل اللسان، ولم يكن محققاً إلا في التفسير، فإنه لهج بالتفاسير حتي جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشي فيه العجائب، حتي رأيت منه مجلداً في آية واحدة وهي قوله تعالي: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ** ﴾.... الآية » (١).

وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة٥٣٨هـ(ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة)، فسر القرآن الكريم تفسيراً عظيماً جداً لولا ما فيه من نزعات الاعتزال، وهو أشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة.

هؤلاء هم أشهر من عرفناهم من مفسري المعتزلة. وهذه هي تفاسيرهم التي نسمع عنها، ولم يصل إلينا منها إلا هذه المصنفات الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، وأمالي الشريف المرتضي، والكشاف للزمخشري. لهذا نري أن نتكلم عن هذه الكتب الثلاثة، وعن المسلك الذي سلكه فيها أصحابها، بما يلقي لنا ضوءاً علي المنحي الذي نحاه المعتزلة في تفسيرهم لكتاب الله تعالي ،وتأويلهم لنصوصه، حتي تشهد لهم أو لا تتعارض معهم علي الأقل.

* * *

(١) المرجع السابق – والآية من سورة البقرة: ١٠٢.

١ - تنزيه القرآن عن المطاعن (للقاضي عبد الجبار)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو قاضي القضاة [١] أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمداني الأسدباذي الشافعي، شيخ المعتزلة. سمع من أبي الحسن بن سلمة بن القطان، وعبد الله بن جعفر بن فارس، وغيرهما. عاش دهراً طويلاً وفاق أقرانه، وسار ذكره وعظم صيته، ورحلت إليه الطلبة، وأخذ عنه كثير من العلماء، منهم: أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي، والحسن بن علي الصيمري الفقيه، وأبو محمد عيد السلام القزويني المفسر المعتزلي.

أستدعاه الصاحب إلي الري بعد سنة ٣٦٠هـ (ستين وثلاثمائة من الهجرة)، فولي قضاءها، وبقي بها مواظباً علي التدريس إلي آخر حياته، وكان الصاحب يقول فيه: هو أعلم أهل الأرض.

وقد خلف القاضي عبد الجبار مصنفات في أنواع مختلفة من العلوم، منها: كتاب الخلاف والوفاق، وكتاب المبسوط، وكتاب المحيط، وكلها في علم الكلام، وألف في أصول الفقه: النهاية، والعمدة، وشرحه. وألف في المواعظ كتاباً سماه نصيحة المتفقهة. وقال ابن كثير في طبقاته: إن من أجل مصنفاته وأعظمها، كتاب دلائل النبوة، في مجلدين، أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة، وبالجملة فقد طبق الأرض بكتبه، وبعد صيته، وعظم قدره، حتي انتهت إليه الرياسة في المعتزلة، وصار شيخها وعالمها غير مدافع.، وكانت وفاته في ذي القعدة ٤١٥هـ (خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة) [٢].

● التعريف بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته (ص٣، ٤) : أنه لا ينتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف علي معاني ما فيه، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه وذكر أن كثيراً من الناس قد ضل بأن تمسك بالمتشابه حتي اعتقد أن قوله تعالي ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [الحشر١، الصف:١] حقيقة في الحجر والمدر والطير والنعم، وربما رأوا في ذلك تسبيح كل شئ من ذلك، ومن اعتقد ذلك لم ينتفع بما يقرؤه قال تعالي ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ [محمد:٢٤].وكذلك وصفه تعالي بأنه: ﴿**يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الإسراء:٩].. ثم قال: وقد أملينا في ذلك كتاباً يفصل بين

---

(١) تلقبه المعتزلة بهذا، ولا يعنون به عند الإطلاق غيره.

(٢) يراجع طبقات المفسرين للسيوطي ص١٦ وشذرات الذهب: ٣/٢٠٢، ٢٠٣.

المحكم والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن علي ترتيبها، وبينا معاني ما تشابه من آياتها، مع بيان وجه خطأ فريق من الناس في تأويلها، ليكون النفع به أعظم، ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله.

فالكتاب لم يقصد فيه مؤلفه أن يعرض لشرح كتاب الله آية آية، بل كان كل همه - كما نأخذ من عبارته السابقة، وكما يظهر لنا من مسلكه في الكتاب نفسه - موجهاً إلي الفصل بين محكم الكتاب ومتشابهه، وإلي بيان معاني هذه الآيات المتشابهة، ثم إلي بيان خطأ فريق من الناس، في تأويلها، وهو يقصد بهذا الفريق - في الغالب - جماعة أهل السنة الذين لا يرون رأيه في القرآن، ولا ينظرون إليه نظرته الاعتزالية.

نقرأ هذا الكتاب ، فنجد أن مؤلفه قد ابتدأه بسورة الفاتحة، واختتمه بسورة الناس ولكنه لا يستقصي جميع السورة، ولا يعرض آياتها بالشرح كما قلنا، بل نجده بيني كتابه علي مسائل، كل مسألة تتضمن إشكالاً وجواباً، وهذا الإشكال تارة يرد علي ظاهر النظم الكريم من ناحية الصناعة العربية، وتارة يرد عليه من ناحية أنه لا يتفق مع عقيدته الاعتزالية.

● **بعض مواقفه من مشكلات الصناعة العربية:**

أما المسائل التي أودها مشتملة علي مشكلات الصناعة العربية وأجوبتها فهي لا تخرج عما عرض له عامة المفسرين في تفاسيرهم، وهذا الجانب يشتمل جزءا غير قليل من الكتاب، وإليك بعض هذه المسائل:

فمثلا في سورة الحمد يقول في (ص ٤، ٥) ما نصه: (مسألة - قالوا: الحمد لله: خبر، فإن كان حمد نفسه فلا فائدة لنا فيه: وإن أمرنا بذلك، فكان يجب أن يقول قولوا الحمد لله. و جوابنا عن ذلك: أن المراد به الأمر بالشكر والتعليم لكي نشكره، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.. لأنه لا يليق بالله تعالي، وإنما يليق بالعباد فإذا كان معناه قولوا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ فكذلك قوله ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾.. وهكذا كقوله: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم**﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٤]. ومثله كثير في القرآن».

ومثلا في سورة البقرة يقول في (ص٦) ما نصه : (مسألة) - ومتي قيل: ولماذا قال تعالي: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [البقرة:٢] ولم يقل: هذا الكتاب؟ فجوابنا: أنه جل وعز وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء، فلما نزل ذلك قال: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ والمراد: ما وعدتك ولو قال: (هذا الكتاب) لم يفد هذه الفائدة».

ويقول بعد ذلك مباشرة في (ص ٦، ٧) ما نصه: (مسألة) قالوا: ما معني: ﴿**لا**

ريْبَ فيهِ﴾ [البقرة:٢] وقد علمتم أن خلقاً يشكون في ذلك فكيف يصح ذلك؟ وإن أراد: لا ريب فيه عندي وعند من يعلم، فلا فائدة في ذلك فجوابنا: أن المراد أنه حق يجب أن لا يرتاب فيه، وهذا كما يبين المرء الشئ لخصمه فيحسن منه بعد البيان أن يقول: هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين: إن ذلك حق وصدق، وإن كان في الناس من يكذب بذلك».

ومثلاً في سورة هود يقول: في (ص ١٦٤) ما نصه: «مسألة – وربما قيل في قوله تعالي ﴿أَفَمن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]: ما الفائدة في هذا الابتداء ولا خبر له؟ وجوابنا: أن الخبر قد يحذف إذا كان كالمعلوم، والمراد: أفمن كان بهذا الوصف كمن هو يكفر ولا يسلك طريق العبادة وما توجبه البينة».

ومثلاً في سورة الفرقان يقول في (ص ٣٥٤) ما نصه: (مسألة – وربما قيل في قوله تعالي: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥] كيف يصح ذلك ولا خير في النار أصلاً؟ وجوابنا: أن المراد: أيهما أولي بأن يكون خيراً؟وقد يقول الحكيم لغيره من العصاة: أن التمسك بالطاعة خير لك من المعصية، والمراد ما قد ذكرنا».

هذه أمثلة من الإشكالات التي أوردها القاضي عبد الجبار علي ظاهر النظم من ناحية الصناعة، وهذه هي الأجوبة التي أجاب بها عن هذه الإشكالات.

● **بعض مواقفه من المشكلات العقيدية الاعتزالية:**

وأما المسائل التي أوردها مشتملة علي إشكالات ترد علي ظاهر النظم من ناحية أنه لا يتفق وعقيدته، وعلي أجوبة هذه الإشكالات، فهي كثيرة جداً وهي تشغل الجزء الأكبر من هذا المؤلف، وإليك بعض هذه المسائل:

● **الهداية والضلال:**

فمثلاً يقول في سورة البقرة (ص٩، ١٠) ما نصه: (مسألة – قالوا: فقد قال تعالي: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧]... وهذا يدل علي أنه قد منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، وكيف تأويل الآية؟وجوابنا: أن للعلماء في ذلك جوابين أحدهما: أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذي علي بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه حمار قد طبع الله علي قلبه، وربما تقول: إنه ميت وقد قال تعالي للرسول:﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل:٨٠] وكانوا أحياء فلما لم يقبلوا شبههم بالموتي،وهو كقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ويبين ذلك أنه تعالي ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة علي سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين.

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالي في قلوبهم، لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع علي ذمهم، ويكون ذلك لطفاً لهم، ولطفاً لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه، فيكون أقرب إلي أن يقلع عن الكفر وهذا جواب الحسن رحمه الله، ولهذا قال تعالي :﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ [البقرة:٧].

ومثلاً في سورة الأعراف يقول في (ص ١٤٠) ما نصه : «(مسألة – وربما قيل في قوله تعالي :﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ [الأعراف:١٧٨] أليس ذلك يدل علي أنه يخلق الهدي والضلال؟ وجوابنا : أن المراد : من يهد الله إلي الجنة والثواب فهو المهتدي في الدنيا ومن يضلل عن الثواب إلي العقاب فأولئك هم الخاسرون في الدنيا، وسبيل ذلك أن يكون بعثاً من الله تعالي علي الطاعة. وكذلك قوله تعالي :﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ [الأعراف:١٨٦] المراد : من يضلله عن الثواب في الآخرة فلا هادي له إليه، وإن كنا قد أزحنا العلة وسهلنا السبيل إلي الطاعة».

ومثلا في سورة الحج يقول في (ص ٢٤٠، ٢٤١) ما نصه : (مسألة – وربما قيل في قوله تعالي :﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ [الحج:١٦] إن ذلك يدل علي أنه يهدي قوماً دون قوم بخلاف قولكم : إن الهدي عام. وجوابنا أن المراد : يكلف من يريد ، لأن في الناس من لا يبلغه حد التكليف. أو يحتمل أن يريد الهداية إلي الثواب، لأنها خاصة في المطيعين دون العصاة، ورغب تعالي المؤمن في تحمل المشاق واحتمال ما يناله من المبطلين بقوله تعالي : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ [الحج:١٧] فبيين حسن عاقبة المؤمن عند الفصل، ليكون في الدنيا وإن لحقه الذل صابراً. وعلي هذا الوجه قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ».

فأنت تري من هذا كله : أنه يفر من القول بأن الله تعالي هو الذي يصرف العبد عن طريق الهدي إلي طريق الضلال أو العكس، تمشياً مع مذهبه وعقيدته.

*** مس الشيطان :**

كذلك نراه يفسر الآيات التي تدل علي أن الشيطان له قدرة علي أن يؤثر في الإنسان بما يوافق مذهبه، فيقول في سورة البقرة(ص ٥٠) ما نصه :(مسألة – وربما

قيل: إن قوله: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥] كيف يصح ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر علي مثل ذلك؟ وجوابنا: أن مس الشيطان إنما هو بالوسوسة كما قال تعالي في قصة أيوب: ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص:٤١]، كما يقال فيمن يفكر في شئ يغمه: قد مسه التعب، وبين ذلك قوله في صفة الشيطان ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم:٢٢].. ولو كان يقدر علي أن يخبط لصرف همته إلي العلماء والزهاد وأهل العقول، لا إلي من يعتريه الضعف، وإذا وسوس ضعف قلب من يخصه بالوسوسة فتغلب عليه المرة فيتخبط، كما يتفق ذك في كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك لغيرهم».

ويقول في سورة الناس (ص٣٨٥، ٣٨٦): (مسألة - وربما قيل في قوله تعال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس:١-٤] أليس ذلك يدل علي أن الشيطان يؤثر في الإنسان حتي أمرنا بأن نتعوذ من شره، وأنتم تقولون: إنه لا يقدر علي شئ من ذلك؟ وجوابنا: أنه تعالي بين أن هذا الوسواس من الجنة والناس، ومعلوم أن من يوسوس من الناس لا يخبط ولا يحدث فيمن يوسوس له تغيير عقل وجسم فكذلك حال الشيطان، ومع ذلك فلا بد في وسوستهم من أن يكون ضرر يصح أن يتعوذ بالله تعالي منه، وهذا يدل إذا تأمله المرء علي قولنا بأن العبد مختار لفعله، وذلك لأنه تعالي لو كان يخلق كل هذه الأمور فيه لم يكن لهذا التعوذ معني، لأنه إن أراد خلق ما يضره فيه، وخلق المعاصي فيه، فهذا التعوذ وجوده كعدمه، وإنما ينفع متي كان العبد مختاراً، فإذا أتي بهذا التعوذ كان أقرب إلي أن لا يناله من قبل الجنة والناس ما كان يناله لولا ذلك».

* **رؤية الله:**

ولما كان المعتزلة لا يجوزون وقوع رؤية الله في الآخرة، فإن صاحبنا قد تخلص من كل آية تجوز وقوع الرؤية.

فمثلاً في سورة يونس يقول في ص(١٥٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] أليس المراد بها الرؤية علي ما روي في الخبر؟. وجوابنا: أن المراد بالزيادة التفضل في الثواب، فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه، وهذا مروي، وهو الظاهر فلا معني لتعلقهم بذلك، وكيف يصح ذلك وعندهم أن الرؤية أعظم من كل الثواب فكيف تجعل زيادة علي الحسني؟ ولذلك قال بعده: ﴿ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ﴾ [يونس:٢٦] فبين أن الزيادة هي من هذا الجنس في الجنة».

وفي سورة القيامة يقول في (ص٣٥٨، ٣٥٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢- ٢٣] إنه أقوي دليل علي أن الله تعالي يري في الآخرة. وجوابنا: أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالي جسم، فإنا لا ننازعه في أنه يري، بل في أنه يصافح ويعانق، ويلمس، تعالي الله عن ذلك، وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم. وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلابد من أن يعترف بأن النظر إلي الله تعالي لا يصح، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشئ طلباً لرؤيته، وذلك لا يصح إلا في الأجسام. فيجب أن يتأول علي ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالي: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] فإنا تأولناه علي أهل القرية لصحة المسألة منهم. وبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيباً في الثواب كما ذكر قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة ٢٤ - ٢٥] زجراً عن العقاب، فيجب حمله علي ما ذكرناه».

* **أفعال العباد:**

كذلك يتأثر القاضي عبد الجبار بعقيدته الاعتزالية القائلة بأن الله تعالي لا يخلق أفعال العباد، فيقول في سورة الأنفال (ص١٤٤) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالي لا يخلق أفعال العباد؟ وجوابنا: أنه ﷺ كان يرمي يوم بدر، والله تعالي بلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالي إلي نفسه كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، والكلام متفق بحمد الله».

ويقول في سورة الصافات (ص٢٩٨، ٢٩٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥ - ٩٦]: أليس في ذلك تصريح بخلق أعمال العباد؟ وجوابنا أن المراد: والله خلقكم وما تعملون من الأصنام، فالأصنام من خلق الله، وإنما عملهم نحتها وتسويتها، ولم يكن الكلام في ذلك، فإنه ﷺ أنكر عبادتهم، فقال: أتعبدون ما تنحتون؟ وذلك الذي تنحتون الله خلقه، ولا يصح لما أورده عليهم معني إلا علي هذا الوجه، وذلك في اللغة ظاهر؛ لأنه يقال في النجار: عمل السرير - وإن كان عمله قد تقضي - وعمل الباب - ونظير ذلك قوله تعالي في عصا موسي: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥]: المراد ما وقع إفكهم فيه، فعلي هذا الوجه نتأول هذه الآية، معني قوله من بعد: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:٩٩- ١٠٠].

* **المنزلة بين المنزلتين:**

ولما كان القاضي عبد الجبار يقول - كغيره من المعتزلة - بالمنزلة بين المنزلتين فإنا نراه

يتأثر بهذه العقيدة، ففي سورة الأنفال عند قوله تعالي: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال٢ – ٤].. نجده في (ص١٤٣) يقول ما نصه: «وكل ذلك يدل علي أن الإيمان قول وعمل، ويدخل فيه كل هذه الطاعات، وإن المؤمن لا يكون مؤمناً إلا أن يقوم بحق العبادات، ومتي وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمناً».

وفي سورة الإنسان يقول في (ص ٣٥٩، ٣٦٠) ما نصه: «مسألة وربما قيل في قوله تعالي: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان:٣] أما يدل ذلك علي أنه ليس من المكلفين إلا كافر ومؤمن؟ وجوابنا: أن الشاكر قد يكون شاكراً وإن لم يكن مؤمناً براً تقياً، لأن الفاسق بغضب أو غيره قد يكون شاكراً فلا يدل علي ما قالوا، بل في لآية دلالة علي ما نقول من أن الكافر والمؤمن هما سواء في أن الله تعالي قد هداهما، لا كما قالت المجبرة: إنه تعالي إنما هدي المؤمنين. والمراد به أنه دل الجميع وأزال علتهم، فمن عصي فمن جهة نفسه أتي».

● **تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره:**

كذلك نري القاضي عبد الجبار يقف أمام الآيات التي تبدو في ظاهرها غريبة مستبعدة، موقف النفور من جواز إرادة المعني الحقيقي، والتخلص من هذا الظاهر المستغرب بحمل الكلام علي المجاز والتشبيه.

فمثلاً يقول في سورة الأعراف (ص ١٤٠) ما نصه: (مسألة – وربما قيل في قوله تعالي: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾ [الأعراف:١٧٢]: وفي الخبر أن جميع بني آدم أخذ عليهم المواثيق من ظهر آدم ﷺ كيف يصح ذلك؟ وجوابنا: أن القوم مخطئون في الرواية فمن المحال أن يأخذ عليهم المواثيق وهم كالذر لا حياة لهم ولا عقل، فالمراد أنه أخذ الميثاق من العقلاء، يأن أودع في عقلهم ما ألزمهم، إذ فائدة الميثاق أن يكون منبهاً، وأن يذكر المرء بالدنيا والآخرة وذلك لا يصح إلا في العقلاء، وظاهر الآية بخلاف قولهم، لأنه تعالي أخذ من ظهور بني آدم، لها من آدم، والمراد أنه خرج من ظهورهم ذرية أكمل عقولهم، فأخذ الميثاق عليهم، وأشهدهم علي أنفسهم بما أودعه عقلهم». ومثلاً في سورة الرعد يقول في (ص ١٨١) ما نصه (مسألة – ومتي قيل: فما معني قوله تعالي: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الرعد:١٣] وكيف يصلح التسبيح من الرعد؟ وجوابنا: أن المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة علي قدرته وعلي تنزيهه، وذلك بقوله تعالي: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الحديد:١] لدلالة الكل علي أنه

منزه عما لا يليق، ولذلك قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد:١٣] ففصل بين الأمرين. وقوله بعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥] معناه: يخضع، فالمكلف العارف بالله يخضع طوعاً وغيره يخضع كرهاً لأنا نعلم أن نفس السجود لا يقع من كل واحد).

وقد رأينا كيف حمل القاضي حملته الشعواء في مقدمة كتابه علي من يحمل مثل هذه الآية علي حقيقتها، وكيف حكم عليه بأنه ضال لا ينتفع بما يقرأ من كتاب الله.

... وهكذا نجد القاضي عبد الجبار يتأثر تأثراً عظيماً بمذهبه الاعتزالي فلا يكاد يمر بآية تعارض مذهبه إلا صرفها عن ظاهرها، ومال بها إلي ناحية مذهبه.. وعلي الجملة فالكتاب - رغم ما فيه من هذه النزعات الاعتزالية - قد كشف لنا عن كثير من الشبهات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم، وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآني الذي ينطوي علي البلاغة والإعجاز، مما يشهد لمؤلفه بقوة وغزارة العلم. وهو مطبوع في مجلد واحد كبير ومتداول بين أهل العلم.

* * *

٢ - أمالي الشريف المرتضي (١) أو (غرر الفوائد ودرر القلائد)

● **التعريف بمؤلف هذا الكتاب:**

مؤلف هذا الكتاب، هو أبو القاسم، علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسي ابن محمد بن إبراهيم بن موسي الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم،وهو أخو الشريف

---

(١) لأخيه الشريف الرضي المتوفي سنة ٤٠٦هـ كتاب (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) وهو يقرب من (الأمالي) في منهجه وطريقته، فمن أجوبة لما يرد من إشكالات علي ظاهر النظم. إلي رد ما يتعارض مع مذهبه الاعتزالي من ظواهر القرآن، إلي غير ذلك من البحوث التي يكاد يتفق فيها مشرب الشريف الرضي مع مشرب أخيه الشريف المرتضي، وقد أمسكنا عن الكلام عن هذا المؤلف، لأنه مفقود ولم يطبع منه إلا الجزء الخامس وهو يشتمل علي بعض مسائل من سورة آل عمران وبعض سورة النساء، ولأنه في كثير من الأحيان يحيل الجواب علي ما تقدم في الأجزاء السابقة. ولو وقع لنا هذا الكتاب كاملاً لكان مرجعاً مهماً لا يقل عن الأمالي في تصويره لعقلية هذا الإمام الكبير وتأثره بمذهبه الاعتزالي في فهمه لكتاب الله تعالي، ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان(جـ٢ ص ٣٦٥) عن ابن جني أستاذ الشريف الرضي أنه قال: «صنف الشريف الرضي كتاباً في معاني القرآن يتعذر وجود مثله، دل علي توسعه في علم النحو واللغة».

الرضي، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق ، وكان مع تشيعه معتزلياً مبالغاً في اعتزاله، وقد تبحر - رحمه الله - في فنون العلم، وعرف بالإمامة في الكلام والأدب، والشعر، وأخذ عن الشيخ المفيد، وروي الحديث عن سهل الديباجي الكذاب، وله تصانيف كثيرة علي مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير، وله كتاب (الأمالي) الذي سماه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وجمع فيه بين التفسير الاعتزالي، والحديث ، والأدب، وهو ما نحن بصدد الكلام عنه الآن، واختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إلي الإمام علي بن أبي طالب، هل هو جمعه. أو جمع أخيه الشريف الرضي؟ وبالجملة فقد كان الشريف المرتضي إمام أئمة العراق، يفزع إليه علماؤها، ويأخذ عنه عظماؤها. وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ (خمس وخمسين وثلاثمائة من الهجرة)، وتوفي سنة ٤٣٦هـ (ست وثلاثين وأربعمائة) ببغداد ، ودفن في داره عشية يوم وفاته، فرضي الله عنه وأرضاه (١) .

● **التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه التي سلكها في التفسير :**

كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد، كتاب يشتمل علي محاضرات أو أمالي أملاها الشريف المرتضي في ثمانين مجلسا، تشتمل علي بحوث في التفسير والحديث، والأدب، وهو كتاب ممتع، يدل علي فضل كثير، وتوسع في الأطلاع علي العلوم، وهو لا يحيط بتفسير القرآن كله، بل ببعض من آياته التي يدور أغلبها حول العقيدة ، وعلي ضوء ما فسره من الآيات نستطيع أن نلقي نظرة فاحصة علي تفسير المعتزلة للقرآن في ذلك العصر، كما نستطيع أن نقف علي مبلغ جهود الشريف المرتضي للتوفيق بين آرائه الاعتزالية وآيات القرآن التي تتصادم معها.

ونحن إذ نتكلم عن أمالي الشريف المرتضي لا نتكلم عنها إلا من ناحية ما فيها من التفسير، أما الناحية الحديثية والأدبية فلا تعنينا في هذا البحث، وإن كان لها قيمتها ومكانتها العلمية بين رجال الدين والأدب.

نتصفح كتاب الأمالي، ونجيل النظر بين ما فيه من بحوث في التفسير فنجد السيد الشريف يسعي بكل جهوده إلي الوصول إلي مبادئه الاعتزالية عن طريق التفسير، مستعيناً في ذلك بنبوغه الأدبي، ومعرفته بفنون اللغة وأساليبها حتي إننا لنراه من الآيات التي تعارضه موقفاً يلتزم فيه مخالفة ظاهر القرآن ويفضل فيه التفسير الملتوية لبعض الألفاظ علي ما يتبادر منها إرضاء لعقيدته، وتمشياً مع مذهبه.

وإليك بعض الأمثله من تفسيره للآيات التي تدور حول العقيدة ، لتقف علي حقيقة الأمر،ولتلمس مقدار هذا التعصب المذهبي عند هذا الشريف العلوي:

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان :٢ / ١٤ -١٧ .

* **رؤية الله:**

يقول في المجلس الثالث (جـ١ ص٢٨ – ٢٩) : (مسألة – اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية في قوله تعالي ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] علي وجوه معروفة، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية، ولا الرؤية من أحد محتملاته، ودلوا علي أن النظر ينقسم إلي أقسام كثيرة: منها تقليب الحدقة الصحيحة في جهة المرئي طلباً للرؤية، ومنها النظر الذي هو الانتظار، ومنها النظر الذي هو التعطف والمرحمة، ومنها النظر الذي هو الفكر والتأمل. وقالوا: إذا لم يكن في أقسام النظر الرؤية، لم يكن للقوم بظاهرها تعلق، واحتجنا جميعاً إلي طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية. وتأولها بعضهم علي الانتظار للثواب وإن كان المنتظر في الحقيقة محذوفاً، والمنتظر منه مذكوراً علي عادة للعرب معروفة. وسلم بعضهم أن النظر يكون الرؤية بالبصر. وحمل الآية علي رؤية أهل الجنة لنعم الله تعالي عليهم، علي سبيل حذف المرئي في الحقيقة وهذا كلام مشروح في مواضعه، وقد بينا ما يرد عليه، وما يجاب به عن الشبهة المعترضة في مواضع كثيرة.

وههنا وجه غريب في الآية، حكي عن بعض المتأخرين لا يفتقر معتمده إلي العدول عن الظاهر، أو إلي تقدير محذوف ولا يحتاج إلي منازعتهم في أن النظر يحتمل الرؤية أو لا يحتملها، بل يصح الاعتماد عليه، سواء أكان النظر المذكور في الآية هو الانتظار بالقلب أو الرؤية بالعين، وهو أن يحمل قوله تعالي: ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا** ﴾ إلي أنه أراد نعمة ربها، لأن الآلاء النعم، وفي واحدها أربع لغات، ألي مثل قفي، وألي مثل رمي، وإلي مثل معي، وإلي مثل حني، قال أعشي بكر بن وائل:

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخون إلي

أراد أنه لا يخون نعمة، وأراد تعالي: ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا** ﴾ فأسقط التنوين للإضافة، فإن قيل: فأي فرق بين هذا الوجه وبين تأويل من حمل الآية علي أنه أراد به: إلي ثواب ربها ناظرة، بمعني: رائية لنعمه وثوابه؟ قلنا: ذلك الوجه يفتقر إلي محذوف، لأنه إذا جعل (إلي) حرفاً ولم يعلقها بالرب تعالي، فلابد من تقدير محذوف، وفي الجواب الذي ذكرناه لا يفتقر إلي تقدير محذوف، لأن (إلي) فيه اسم يتعلق به الرؤية، ولا يحتاج إلي تقدير غيره. والله أعلم بالصواب ».

* **الإرادة وحرية الأفعال:**

وفي المجلس الرابع (جـ١ ص ٣٠ – ٣٣) يقول ما نصه: (تأويل آية – إن قال قائل: ما تأويل قوله تعالي ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ**

لا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٠٠].. فظاهر هذا الكلام يدل علي أن الإيمان إنما كان لهم فعله بإذنه وأمره، وليس هذا مذهبكم. وإن حمل الإذن هنا علي الإرادة، اقتضي أن من لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه، وهذا أيضاً بخلاف قولكم. ثم جعل الرجس - الذي هو العذاب - علي الذين لا يعقلون، ومن كان فاقداً لعقله لا يكون مكلفاً. فكيف يستحق العذاب وهو بالضد من الخبر المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثر أهل الجنة البله»؟.. الجواب: يقال له: في قوله تعالي: ﴿ **إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ وجوه: منها أن يكون الإذن: الأمر، ويكون معني الكلام أن الإيمان لا يقع إلا بعد أن يأذن الله فيه ويأمر به، ولا يكون معناه ما ظنه السائل من أنه لا يكون للفاعل فعله إلا بإذنه، ويجري هذا مجري قوله تعالي: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٥].. ومعلوم أن معني قوله: (ليس لها) - في هذه الآية. هو ما ذكرناه، وإن كان الأشبه في هذه الآية التي ذكر فيها الموت أن يكون المراد بالإذن: العلم، ومنها أن يكون الإذن هو: التوفيق والتيسير والتسهيل. ولا شبهة في أن الله يوفق لفعل الإيمان ويلطف فيه، ويسهل السبيل إليه.. ومنها أن يكون الإذن: العلم، من قولهم: أذنت لكذا وكذا، إذا سمعته وعلمته وأذنت فلانا بكذا،إذا أعلمته، فتكون فائدة الآية: الإخبار عن علمه تعالي بسائرالكائنات، فإنه ممن لا تخفي عليه الخفيات. وقد أنكر بعض من لا بصيرة له أن يكون الإذن - بكسر الألف وتسكين الذال - عبارة عن العلم، وزعم أن الذي هو العلم: الأذن - بالتحريك - واستشهد بقول الشاعر:

* إن همي في سماع وأذن *

وليس الأمر علي ما توهم هذا المتوهم، لأن الأذن هو المصدر، والإذن هو اسم الفعل، فيجري مجري الحذر، والحذر في أنه مصدر، والحذر - بالتسكين - الاسم. علي أنه لو لم يكن مسموعاً إلا الأذن بالتحريك لجاز التسكين مثل: مَثَل ومِثْل، وشبَه وشِبْه، ونظائر ذلك كثيرة.. ومنها أن يكون الإذن: العلم، ومعناه إعلام الله المكلفين بفضل الإيمان وما يدعو إلي فعله، ويكون معني الآية: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإعلام الله لها بما يبعثها علي الإيمان وما يدعوها إلي فعله.. فأما ظن السائل دخول الإرادة في محتمل اللفظ فباطل لأن الإذن لا يحتمل الإرادة في اللغة، ولو احتملها أيضاً لم يجب ما توهمه، لأنه إذا قال: إن الإيمان لا يقع إلا وأنا مريد له، لم ينف أن يكون مريداً لما لم يقع، وليس في صريح الكلام ولا دلالته شئ من ذلك» ثم انتقل من هذا إلي كشف الشبهة عن معني قوله: ﴿ **وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ مما لا يتصل بعقيدته الاعتزالية.

وفي المجلس (٤١ جـ٣ص٢-٤) يقول ما نصه: (تأويل آية - إن سأل سائل عن قوله تعالي: ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (١) . . . إلي آخر الآية فقال: ما تأويل هذه الآية؟ أو ليس ظاهرها يقتضي أنا لا نشاء شيئاً إلا والله تعالي شاءه، ولم يخص إيمان من كفر، ولا طاعة من معصية . . ؟ الجواب: الوجه المذكور في هذه الآية أن الكلام متعلق بما تقدمه من ذكر الاستقامة، لأنه تعالي قال: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾ ثم قال: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾: أي ما تشاءون الاستقامة إلا والله تعالي مريد لها، ونحن لا ننكر أن يريد الله تعالي الطاعات، وإنما أنكرنا إرادته المعاصي. وليس لهم أن يقولوا: تقدم ذكر الاستقامة لا يوجب قصر الكلام عليها ولا يمنع من عمومه، كما أن السبب لا يوجب قصر ما يخرج من الكلام عليه حتي لا يتعداه، وذلك أن الذي ذكروه إنما يجب فيما يستقل بنفسه من الكلام دون ما لا يستقل. . وقوله تعالي: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ لا ذكر للمراد فيه، فهو غير مستقل بنفسه، وإذا علق بما تقدم من ذكر الاستقامة استقل. علي أنه لو كان للآية ظاهر يقتضي ما ظنوه - وليس لها ذلك - لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة علي أنه تعالي لا يريد المعاصي ولا القبائح. علي أن مخالفينا في هذه المسألة لا يمكنهم حمل الآية علي العموم لأن العباد قد يشاءون عندهم ما لا يشاؤه الله تعالي بأن يريدوا الشئ ويعزموا عليه فلا يقع لمانع، ممتنعاً كان أو غيره. وكذلك قد يريد النبي عليه الصلاة والسلام من الكفار الإيمان، وقد تعبدنا بأن نريد من المقدم علي القبيح تركه، وإن كان تعالي عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع، فلا بد لهم من تخصيص الآية، فإذا جاز لهم ذلك بالشبهة، جاز لنا مثله بالحجة، وتجري هذه الآية مجري قوله تعالي: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠] . . وقوله تعالي: ﴿ **وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [المدثر: ٥٦] في تعلق الكلام بما قبله . . فإن قالوا: فالآية تدل علي صحة مذهبنا من وجه وبطلان مذهبكم من وجه آخر، وهو أنه عز وجل قال: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ . وذلك يقتضي أنه يشاء الاستقامة في حال مشيئتنا لها لأن (أن) الخفيفة إذا دخلت علي الفعل المضارع اقتضت الاستقبال، وهذا يوجب أنه يشاء أفعال العباد في كل حال، ويبطل ما تذهبون إليه من أنه إنما يريد الطاعات في حال الأمر. قلنا: ليس في ظاهر الآية أنا لا نشاء إلا ما شاءه الله تعالي في حال مشيئتنا كما ظننتم، وإنما يقتضي حصول مشيئته لما نشاؤه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا

---

(١) يريد إلي آخر السورة وهو قوله تعالي: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ والآيات من سورة التكوير: ٢٦ - ٢٩ .

تأخر، ويجري ذلك مجري قول القائل: ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو، ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولهما في حالة واحدة، بل لا يمنع أن يتقدم دخول عمرو، ويتلوه دخول زيد. و (أن) الخفيفة وإن كانت للاستقبال - علي ما ذكر - فلم يبطل علي تأويلنا معني الاستقبال فيها، لأن تقدير الكلام: وما تشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالي. ومشيئته تعالي قد كانت لها حال الاستقبال. وقد ذهب أبو علي الجبائي إلي أنه لا يمتنع أن يريد تعالي الطاعات حالاً بعد حال، وإن كان قد أرادها في حال الأمر، كما يصح أن يأمر بها أمراً بعد أمر، قال: لأنه قد يصح أن يتعلق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفي حال الفعل مصلحة. ويعلم تعالي أنا نكون متي علمنا ذلك كنا إلي فعل الطاعات أقرب، وعلي هذا المذهب لا يعترض بما ذكروه. والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلي مذهب أبي علي في هذا الباب. علي أن اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل علي فساد قولهم، لأن الكلام إذا اقتضي حدوث المشيئة وأبطل استقبالها بطل قول من قال منهم: إنه مريد بنفسه، أو مريد بإرادة قديمة، وصح ما نقوله من أن إرادته محدثة مجددة ويمكن في تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها علي العموم من غير أن نخصصها بما تقدم ذكره من الاستقامة، ويكون المعني: وما تشاءون شيئاً من فعالكم إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم، وإقداركم عليها، والتخلية بينكم وبينها. وتكون الفائدة في ذلك الإخبار عن الافتقار إلي الله تعالي وأنه لا قدرة علي ما لم يقدره الله تعالي عز وجل. وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه، لأن ما تتعلق به المشيئة في الآية محذوف غير مذكور وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالي﴿ **إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ بالأفعال، دون تعلقه بالقدرة، لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور، وكل هذا واضح بحمد الله.

فأنت تري من هذه المثل وغيرها لو رجعت إليها في مكانها أن الشريف المرتضي تأثر في تأويله للآيات القرآنية بعقيدته الاعتزالية ودافع بكل ما يستطيع عن مذهبه، ورد كل شبهة ترد عليه بما يدل علي قوة ذهنه وسعة اطلاعه.

- **رفضه لبعض ظواهر القرآن:**

كذلك نجد الشريف المرتضي - كغيره من المعتزلة - يرفض بشدة المعاني القرآنية الظاهرة، التي تبدو في أول أمرها مستبعدة مستغربة، والتي يجوزها أهل السنة ويرونها أولي بأن يحمل اللفظ عليها من غيرها، ويتخلص من ذلك إما بحمل اللفظ علي معني حقيقي آخر لا غرابة فيه، وإما بحمله علي التمثيل أو التخييل، ونجد لذلك مثلاً جلياً واضحاً في المجلس الثالث (جـ١ ص ٢٠، ٢٢) حيث يقول ما نصه: قال الله تعالي: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ**

بربّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]..

وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده، أن تأويل هذه الآية: أن الله استخرج من ظهر آدم جميع ذريته وهم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته وأشهدهم علي أنفسهم. وهذا التأويل مع أن العقل يبطله، ويحيله، مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه، لأن الله تعالي قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾، ولم يقل: من ظهره. وقال: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل: ذريته. ثم أخبر تعالي بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا إنهم كانوا عن هذا غافلين. أو يعتذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشئوا علي دينهم وسنتهم، وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه، وأنها تناولت من كان له آباء مشركون، وهذا يدل علي اختصاصها ببعض ولد آدم، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله. فأما شهادة العقل؛ فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، أو لا تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، فإن كانت الصفة الأولي، وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال، وما قرروا به واستشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسي ما يجري هذا المجري وإن بعد العهد وطال الزمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل، فينسي مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضا لتخلل الموت بين الحالتين تأثير لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر، لكان تخلل النوم، والسمر، والجنون، والإغماء من أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضي من أحوالهم لأن سائر ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجري الموت في هذا. وليس لهم أن يقولوا: إذا جاز في العاقل الكامل أن ينسي ما كان عليه في حال الطفولية جاز ما ذكرناه، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوه إذا كملت عقولهم من حيث يجري عليهم وهم كاملو العقول، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه. علي أن تجويز النسيان عليهم ينقض الغرض في الآية، وذلك أن الله تعالي أخبرنا بأنه إنما قررهم وأشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة وسقوط الحجة عنهم، فإذا جاز نسيانهم له، عاد الأمر إلي سقوط الحجة وزوالها. وإن كاتوا علي الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف، قبح خطابهم، وتقريرهم، وإشهادهم، وصار ذلك عبثاً قبيحاً. فإن قيل: قد أبطلتم قول مخالفيكم، فما تأويلها الصحيح عندكم؟ قلنا: في الآية وجهان، أحدهما: أن يكون تعالي إنما عني بها جماعة من ذرية بني آدم، خلقهم، وبلّغهم، وأكمل

عقولهم،وقررهم علي ألسن رسله عليهم السلام بمعرفته، وما يجب من طاعته، فأمروا بذلك، وأشهدهم علي أنفسهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم. وإنما أتي من اشتبه عليه تأويل الآية من حيث طن أن اسم الذرية لا يقع إلا علي من لم يكن عاقلاً كاملاً، وليس الأمر كما ظن، لأنه سمي جميع البشر بأنهم ذرية آدم وإن دخل فيهم العقلاء الكاملون، وقد قال تعالي: ﴿ **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** ﴾ [غافر:٨] ولفظ (الصالح) لا يطلق إلا علي من كان كاملاً عاقلاً، فإن استبعدوا تأويلنا وحملنا الآية علي البالغين المكلفين فهذا جوابهم.

والجواب الثاني: أنه تعالي لما خلقهم وركبهم تركيباً يدل علي معرفته ويشهد بقدرته ووجوب عبادته ، فأراهم العبر، والآيات، والدلائل ، في أنفسهم وفي غيرهم، كان بمنزلة المشهد لهم علي أنفسهم وكانوا في مشاهدة ذلك ومعرفته ، وظهوره فيهم علي الوجه الذي أراده الله تعالي وتعذر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالته بمنزلة المقر المعترف وإن لم يكن هناك إشهاد ولا اعتراف علي الحقيقة ، ويجري ذلك مجري قوله تعالي: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت:١١]، وإن لم يكن منه تعالي قول علي الحقيقة، ولا منهما جواب. ومثله قوله تعالي: ﴿ **شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ** ﴾ [التوبة:١٧]، ونحن نعلم أن الكفار لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم، وإنما ذلك لما ظهر منهم ظهوراً لا يتمكنون من دفعه، كانوا بمنزلة المعترفين به، ومثل هذا قولهم: جوارحي تشهد بنعمتك، وحالي معترفة بإحسانك، وما روي عن بعض الحكماء من قوله: سل الأرض من شق أنهارك؟ وغرس أشجارك؟ وجني ثمارك؟ فإن لم تجبك جؤاراً، أجابتك اعتباراً، وهذا باب كبير، وله نظائر كثيرة في النظم والنثر، يغني عن ذكر جميعها القدر الذي ذكرناه منها.

●الطريقة اللغوية في تفسيره للقرآن:

ثم إننا نجد الشريف المرتضي، قد ولع بالطريقة اللغوية في تفسيره للآيات القرآنية، وحرص كل الحرص علي تطبيق هذا المبدأ اللغوي، الذي يعتبر الأصل المهم من قواعد التفسير عند المعتزلة، وكثيراً ما نراه يظهر مهارة فائقة في استعماله لهذه الطريقة عندما يساوره الشك في ظاهر اللفظ الذي يتعلق بالعقيدة فنراه يفسره تفسيراً مقبولا لديه، يقوم علي أساس من الأسس اللغوية، والحق أن الشريف المرتضي قد ظهر تفوقه العلمي الصحيح، عند تطبيقه لهذا المبدأ ، وذلك راجع إلي تمكنه العظيم من اللغة والشعر القديم ولهذا نجده لا يعتبر من التفاسير اللغوية إلا ما كان له شاهد من اللغة أو

الشعر العربي القديم، أما التفسير المطلق، الذي لا يعتمد علي شاهد من ذلك، فإنه يرفضه ولا يرضاه. وإليك بعض الأمثلة التي تصور لك عناية المرتضي بهذا المبدأ اللغوي.

ففي المجلس (٢٣ جـ٢ ص٦ -٩) يقول ما نصه: إن سأل سائل عن قوله تعالي: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] ما المراد بالنفس في هذه الآية وهل المعني فيها كالمعني في قوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:٢٨ - ٣٠] أو يخالفه؟ أو يطابق معني الآيتين؟ والمراد بالنفس فيهما ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: إذا أحب العبد لقائي أحببت لقاءه، وإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً» أو لا يطابقه؟ .. الجواب: قلنا: إن النفس في اللغة لها معان مختلفة. ووجوه في التصرف متباينة؛ فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهي التي إذا فقدها خرج عن كونه حياً، ومنه قوله تعالي: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥].. والنفس: ذات الشئ الذي يخبر عنه، كقولهم: فعل ذلك فلان نفسه إذا تولي فعله، والنفس: الأنفة، من قولهم: ليس لفلان نفس، أي لا أنفة له، والنفس: الإرادة، من قولهم: نفس فلان في كذا، أي إرادته. قال الشاعر:

فنفساي نفس قالت إئت ابن بجدل ... تجد فرجاً من كل غم تهابها
ونفس تقول اجهد نجازك فلا تكن ... كخاضبة لم يغن شيئاً خضابها

ومنه: أن رجلاً قال للحسن البصري: يا أبا سعيد، لم أحجج قط، فنفس تقول لي: حج، ونفس تقول لي: تزوج، فقال الحسن: أما النفس فواحدة، ولكن لك هم يقول: حج، وهم يقول: تزوج وأمره بالحج، وقال الممزق العبدي، ويروي لمعقر بن حمار البارقي:

ألا من لعين قد نآها حميمها ... وأرقني بعد المنام همومها
فباتت لها نفسان شتي همومها ... فنفس تعزيها ونفس تلومها

وقال نمر بن تولب العكلي:

أما خليلي فإني لست معجله ... حتي يؤامر نفسيه كما زعما
نفس له من نفوس القوم صالحة ... تعطي الجزيل ونفس ترضع الغنما

أراد أنه بين نفسين: نفس تأمره بالجود، وأخري تأمره بالبخل، وكنَّي برضاع الغنم عن البخل، لأن البخيل يرضع اللبن من الشاة ولا يحلبها، لئلا يسمع الضيف صوت الشخب فيهتدي إليه، ومنه قيل: لئيم راضع وقال كثير:

فأصبحت ذا نفسين: نفس مريضة ... من الناس، ما ينفك هم يعودها

ونفس ترجي وصلها بعد صرمها تجمل كي يزداد غيظاً حسودها

والنفس: العين التي تصيب الإنسان يقال: أصابت فلاناً نفس: أي عين وروي أن رسول الله ﷺ كان يرقي فيقول: «بسم الله أرقيك، والله يشفيك، من كل داء يؤذيك، وداء هو فيك، من كل عين عائن، ونفس نافس، وحسد حاسد».

وقال ابن الأعرابي: النفوس: التي تصيب الناس بالنفس، وذكر رجلاً فقال: كان والله حسودا نفوساً كذوباً، وقال عبد الله بن قيس الرقيات وهو قرشي:

يتقي أهلها النفوس عليها فعلي نحرها الرقي والتميم

وقال مضرس الفقعسي:

وإذا نموا صعداً فليس عليهم منا الخيال ولا نفوس الحسَّد

وقال ابن هرمة: يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك:

فاسلم سلمت من المكاره والردي وعثارها ووقيت نفس الحسَّد

والنفس أيضاً من الدباغ بمقدار الدبغة، تقول أعطني نفسا من دباغ، أي قدر ما أدبغ به مرة. والنفس: الغيب، يقول القائل: إني لا أعلم نفس فلان: أي غيبه. وعلي هذا تأويل قوله تعالي: ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ [المائدة:١١٦] أي تعلم غيبي وما عندي، ولا أعلم غيبك وقيل: إن النفس أيضاً: العقوبة، من قولهم: أحذرك نفسي: أي عقوبتي. وبعض المفسرين يحمل قوله تعالي: ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ [آل عمران ٢٨ - ٣٠] علي هذا المعني كأنه: يحذركم عقوبته، وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وآخرين قالوا: معني الآية: يحذركم الله إياه. وقد روي عن الحسن ومجاهد في قوله تعالي ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ ما ذكرناه من التأويل بعينه. فإن قيل: ما وجه تسميته (الغيب) بأنه نفس؟ قلنا: لا يمتنع أن يكون الوجه في ذلك: أن نفس الإنسان لما كانت خفية الموضع، نزل ما يكتمه ويجتهد في ستره منزلتها، وسمي باسمها فقيل فيه: إنه نفسه، مبالغة في وصفه بالكتمان والخفاء. وإنما حسن أن يقول تعالي مخبراً عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ من حيث تقدم قوله تعالي: ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي** ﴾ ليزدوج الكلام، ولهذا لا يحسن ابتداء: أنا لا أعلم ما في نفس الله تعالي وإن حسن علي الوجه الأول، ولهذا نظائر في الاستعمال مشهورة مذكورة. فأما الخبر الذي يرويه السائل فتأويله ظاهر، وهو خارج علي مذهب العرب في مثل هذا الباب المعروف، ومعناه: أن من ذكرني في نفسه جازيته علي ذكره لي، وإذا تقرب إلي شبراً جازيته علي تقربه إليَّ.. وكذلك الخبر إلي آخره، فسمي المجازاة علي الشئ باسمه اتساعاً، كما قال تعالي: ﴿ **وَجَزَاءُ**

سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشوري:٤٠]، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال:٣٠] ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة:١٥].. وكما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظائر هذا كثير في كلام العرب، ولما أراد تعالي المبالغة في وصف مايفعله به من الثواب والمجازاة علي تقربه بالكثرة والزيادة، كني عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال: باعاً وذراعاً إشارة إلي المعني من أبلغ الوجوه وأحسنها.

وقال في المجلس (٤٥ جـ٣ ص٤٦ – ٥٠) ما نصه: إن سأل سائل عن معني قوله تعالي: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨] وقوله تعالي: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ [الإنسان:٩]، وقوله تعالي: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧].. وما شاكل ذلك من آي القرآن المتضمنة لذكر الوجه.. الجواب: قلنا: الوجه ينقسم في اللغة العربية إلي أقسام: فالوجه المركب فيه العينان من كل حيوان. والوجه أيضاً: أول الشيئ وصدره. ومن ذلك قوله تعالي: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ﴾ [آل عمران:٧٢] أي أول النهار ومنه قول الربيع ابن زياد:

من كان مسروراً بمقتل مالك   فليأت نسوتنا بوجه نهار

أي غداة كل يوم، وقال قوم: وجه نهار: اسم موضع.. والوجه: القصد بالفعل، من ذلك قوله تعالي: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [النساء:١٢٥].. وقال الفرزدق:

وأسلمت وجهي حين شدت ركائبي   إلـي آل مـروان بناة المكـارم

أي جعلت قصدي وإرادتي لهم. وأنشد الفراء:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه   رب العباد إليه الوجه والعمل

أي القصد، ومنه قولهم في الصلاة: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض: أي قصدت قصدي بصلاتي وعملي، وكذلك قوله تعالي: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [الروم:٤٣].

والوجه: الاحتيال في الأمر، من قولهم: كيف الوجه لهذا الأمر وما الوجه فيه، أي الحيلة. والوجه: الذهاب والجهة والناحية. قال حمزة ابن بيض الحنفي:

أي الوجوه انتجعت؟ قلت لهم   لأي وجه إلا إلـي الحكـم

متـي يقـل صاحبـاً سرادقـه   هذا ابن بيض بالباب يبتسم

والوجه: القدر والمنزلة، ومنه قولهم: لفلان وجه عريض، وفلان أوجه من فلان، أي أعظم قدراً وجاهاً، ويقال: أوجهه السلطان، إذا جعل له جاهاً. قال امرؤ القيس:

ونامت قيصر في ملكه فأوجهني وركبت البريدا

يقال: حمل فلاناً علي البريد إذا هيأ له في كل مرحلة مركباً ليركبه، فإذا وصل إلي المرحلة الأخري نزل عن المعيي وركب المرفه... وهكذا إلي أن يصل إلي مقصده.

والوجه: الرئيس المنظور إليه، يقال: فلان وجه القوم، وهو و جه عشيرته: ووجعه الشئ: نفسه وذاته، قال أحمد بن جندل:

ونحن حفرنا الحوفزان بطعنة فأفلت منها وجهه عتد بها (١)

أراد أفلته ونجاه، ومن ذلك قولهم: إنما أفعل ذلك لوجهك، ويدل أيضا علي أن الوجه يعبر به عن الذات، وقوله تعالي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢:٢٥] وقوله تعالي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٨-٩] لأن جميع ما أضيف إلي الوجوه في ظاهر الآي من النظر والظن والرضا لا يصح إضافته علي الحقيقة إليها، وإنما يضاف إلي الجملة، فمعني قوله تعالي: ﴿كل شئ هالك إلا وجهه﴾ أي كل شئ هالك إلا إياه، فكذلك قوله تعالي: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل: (ذي) كما قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن ٧٨] لما كان اسمه غيره.. ويمكن في قوله تعالي: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] وجه آخر - وقد روي عن بعض المتقدمين وهو أن يكون المراد بالوجه ما يقصد به إلي الله تعالي، ويوجه به إليه، نحو القربة إليه جلت عظمته، فيقول: لا تشرك بالله ولا تدع إلها غيره، فإن كل فعل يتقرب به إلي غيره، ويقصد به سواه فهو هالك باطل، وكيف يسوغ للمشبهة أن يحملوا هذه الآية و التي قبلها علي الظاهر؟ أو ليس ذلك يوجب أنه تعالي يفني ويبقي وجهه، وهذا كفر وجهل من قائله.. فأما قوله تعالي: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠] وقوله ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٩] فمحمول علي أن هذه الأفعال مفعولة له، ومقصود بها ثوابه والقربة إليه، والزلفي عنده. فأما قوله تعالي: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] فيحتمل أن يراد به فثم الله لا علي معني الحلول، ولكن علي معني التدبير والعلم، ويحتمل أيضاً أن يراد به: فثم رضا الله وثوابه والقربة إليه. ويحتمل أن يكون المراد بالوجه: الجهة،ر ويكون الإضافة

---

(١) هكذا بالأصل ولا يظهر لقوله: (عتد بها) معني. وأصل البيت بخلاف ذلك راجع ما كتب علي البيت بهامش الأمالي.

بمعني: الملك، والخلق، والإنشاء، والإحداث لأنه عز وجل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]: أي أن الجهات كلها لله، وتحت ملكه، وكل هذا واضح بين بحمد الله.

ونراه يقول في المجلس (٣٩جـ٢ ص٥٣ - ٥٦) ما نصه: إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢] فقال: أي تمدح في سرعة الحساب وليس بظاهر وجه المدح فيه؟ الجواب: قلنا: في ذلك وجوه:

أولها: أن يكون المعني أنه سريع الحساب للعباد علي أعمالهم، وأن وقت الجزاء قريب وإن تأخر، ويجري مجري قوله تعالي: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]، وإنما جاز أن يعبر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب، لأن ما يجازي به العبد هو كفؤ لفعله وبمقداره، فهو حساب له إذا كان مماثلاً مكافئاً. ومما يشهد بأن في الحساب معني المكافأة قوله تعالي: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ:٣٦]: أي عطاء كافياً. ويقال: أحسبني الطعام يحسبني إحساباً: إذا كفاني. قال الشاعر:

وإذ لا تري في الناس حسناً يفوتها وفي الناس حسناً لو تأملت محسب

معناه: كاف.

وثانيها: أن يكون المراد أنه عز وجل يحاسب الخلق جميعاً في أوقات يسيرة. ويقال: إن مقدار ذلك حلب شاة، لأنه تعالي لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة غيره، بل يكلمهم جميعاً، ويحاسبهم كلهم علي أعمالهم في وقت واحد، وهذا أحد ما يدل علي أنه تعالي ليس بجسم، وأنه لا يحتاج في فعل الكلام إلي آلة، لأنه لو كان بهذه الصفات - تعالي عنها - لما جاز أن يخاطب اثنين في وقت واحد بمخاطبتين مختلفتين، ولكان خطاب بعض الناس يشغله عن خطاب غيره ولكانت مدة محاسبته للخلق علي أعمالهم طويلة غير قصيرة، كما أن جميع ذلك واجب في المحدثين الذين يفتقرون في الكلام إلي الآلات.

وثالثها: ما ذكره بعضهم من أن المراد بالآية أنه سريع العلم بكل محسوب، وأنه لما كانت عادة بني الدنيا أن يستعملوا الحساب والإحصاء في أكثر أمورهم أعلمهم الله أنه يعلم ما يحسبون بغير حساب، وإنما سمي العلم حساباً، لأن الحساب إنما يراد به العلم، وهذا جواب ضعيف، لأن العلم بالحساب أو المحسوب لا يسمي حساباً، ولو سمي بذلك لما جاز أيضاً أن يقال: إنه سريع العلم بكذا، لأن علمه بالأشياء مما لا يتجدد فيوصف بالسرعة.

ورابعها: أن الله تعالي سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وذلك أنه يسئل في

وقت واحد سؤالات مختلفة من أمور الدنيا والآخرة ، فيجزي كل عبد بمقدار استحقاقه ومصلحته، فيوصل إليه عند دعائه ومسألته ما يستوجبه بحد ومقدار ، فلو كان الأمر علي ما يتعارفه الناس لطال العدد واتصل الحساب ، فأعلمنا تعالي أنه سريع الحساب ، أي سريع القبول للدعاء بغير إحصاء وبحث عن المقدار الذي يستحقه الداعي. كما يبحث المخلوقون للحساب والإحصاء. وهذا جواب مبني أيضا علي دعوي أن قبول الدعاء يسمي حساباً ، ولم يعهد ذلك في لغة، ولا عرف ولا شرع.

وقد كان يجب علي من أجاب بهذا الجواب، أن يستشهد علي ذلك بما يكون حجة فيه، وإلا فلا طائل فيما ذكره. ويمكن في الآية وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالحساب محاسبة الخلق علي أعمالهم يوم القيامة، ومواقفهم عليها، وتكون الفائدة في الإخبار بسرعته: الإخبار عن قرب الساعة، كما قال تعالي﴿ **سَرِيعُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنعام:١٦٥] وليس لأحد أن يقول: فهذا هو الجواب الأول الذي حكيتموه وذلك أن بينهما فرقاً، لأن الأول مبني علي أن الحساب في الآية هو الجزاء والمكافأة علي الأعمال، وفي هذا الجواب لم يخرج الحساب عن بابه .وعن معني المحاسبة المعروفة،والمقابلة بالأعمال وترجيحها، وذلك غير الجزاء الذي يفضي الحساب إليه، وقد طعن بعضهم في الجواب الثاني معترضاً علي أبي علي الجبائى في اعتماده إياه، بأن قال: مخرج الكلام في الآية علي وجه الوعيد، وليس في خفة الحسا وسرعة زمانه ما يقتضي زجراً ولا هو مما يتوعد بمثله فيجب أن يكون المراد الإخبار عن قرب أمر الآخرة والمجازاة علي الأعمال. وهذا الجواب ليس أبو علي المبتدئ به ، بل قد حكي عن الحسن البصري، واعتمده أيضا قطرب بن المستنير النحوي، وذكره الفضل بن سلمة، وليس الطعن الذي حكيناه عن هذا الطاعن بمبطل له، لأنه اعتمد علي أن مخرج الآية مخرج الوعيد، وليس كذلك ، لأنه تعالي قال:﴿ **فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [البقرة:٢٠٠ - ٢٠٢] فالأشبه بالظاهر أن يكون وعداً بالثواب، وراجعاً إلي الذين يقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أو يكون راجعا إلي الجميع ، فيكون المعني أن للجميع نصيباً مما كسبوا، فلا يكون وعيداً خالصاً : بل إما أن يكون وعداً خالصاً، أو وعدا ووعيداً. علي أنه لو كان وعيداً خالصاً علي ما ذكر الطاعن لكان لقوله تعالي﴿ **وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ علي تأويل من أراد قصر الزمان وسرعة الموافقة وجه وتعلق بالوعد والوعيد، لأن الكلام علي كل حال متضمن لوقوع المحاسبة علي أعمال العباد، والإحاطة بخيرها وشرها وإن وصف الحساب مع ذلك بالسرعة، وفي هذا ترغيب

وترهيب لا محالة ، لأن من علم بأنه يحاسب بأعماله، ويوقف علي جميلها وقبيحها انزجر عن القبيح، وعمل ورغب في فعل الواجب، فهذا ينصر الجواب، وإن كنا لا ندفع أن في حمل الجواب علي قرب المجازاة، وقرب المحاسبة علي الأعمال ترغيباً في الطاعات، وزجراً علي المقبحات، فالتأويل الأول أشبه بالظاهر ونسق الآية، إلا أن التأويل الآخر غير مدفوع أيضا ولا مردود.

فأنت تري في المثالين الأولين كيف تخلص من ظاهر اللفظ الذي يمس عقيدته بمهارته اللغوية وتوسعه في المعرفة بأشعار العرب ، كما تري في المثال الثالث كيف لم يقبل قول من قال: إن معني (سريع الحساب) سريع العلم، أو سريع القبول للدعاء، لأن القولين لم يستندا – كما قال – إلي أصل لغوي، أو عرفي، أو شرعي.

● **دفعه لموهم الاختلاف والتناقض:**

هذا.. وإن الشريف المرتضي لا يقتصر في أماليه علي هذا النوع المذهبي من التفسير، بل نجده يعرض لبعض الإشكالات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم مما يوهم الاختلاف والتناقض، ثم يجيب عنها بدقة بالغة، ترجع إلي مهارته في اللغة وإحاطته بفنونها.

فمثلاً في المجلس الثالث (جـ١ ص١٨ – ٢٠) يقول ما نصه: (تأويل آية – إن سأل سائل فقال:(ما تقولون في قوله تبارك وتعالي حكاية عن موسي: ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الشعراء:٣٢] وقال تعالي في موضع آخر: ﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ [القصص:٣١] والثعبان الحية العظيمة الخلقة، والجان: الصغير من الحيات، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة؟ وكيف يجوز أن تكون العصا في حال واحدة بصفة ما عظم خلقه من الحيات وبصفة ما صغر منها؟ وبأي شئ تزيلون التناقض عن هذا الكلام؟ الجواب: أول ما نقول: إن الذي ظنه السائل من كون الآيتين خبراً عن قصة واحدة باطل، بل الحالتان مختلفتان، فالحال التي أخبر أن العصا فيها بصفة الجان، كانت في ابتداء النبوة وقبل مسير موسي إلي فرعون والحال التي صار العصا عليها ثعباناً، كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة، والتلاوة تدل علي ذلك، وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة، علي أن قوماً من المفسرين قد تعاطوا الجواب علي هذا السؤال، إما لظنهم أن القصة واحدة، أولاعتقادهم أن العصا الواحدة لا يجوز أن تنقلب في حالتين، تارة إلي صفة الجان، وتارة إلي صفة الثعبان.

أو علي سبيل الاستظهار في الحجة، وأن الحال لو كانت واحدة علي سبيل ما ظن لم يكن بين الآيتين تناقض. وهذا الوجه أحسن ما تكلف به الجواب لأجله، لأن

الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو عن غفلة. وذكروا وجهين تزول بكل منهما الشبهة من تأويلها:

أحدهما: أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان في إحدي الحالتين لعظم خلقها وكبر جسمها،وهول منظرها. وشبهها في الآية الأخري بالجان لسرعة حركتها، ونشاطها وخفتها، فاجتمع لها مع أنها في جسم الثعبان وكبر خلقه، نشاط الجان وسرعة حركته، وهذا أبهر في باب الإعجاز وأبلغ في خرق العادة، ولا تناقض بين الآيتين. وليس يجب إذا شبهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان، وإذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته، وقد قال الله تعالي: ﴿ **وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا** ﴾ [الإنسان ١٥-١٦]، ولم يرد تعالي أن الفضة قواريراً علي الحقيقة، وإنما وصفها بذلك لأنه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقتها، مع أنها من فضة، وقد تشبه العرب الشئ بغيره في بعض وجوهه، فيشتبهون المرأة بالظبية، وبالبقرة، ونحن نعلم أن في الظباء والبقر من الصفات ما لا يستحسن أن يكون في النساء، وإنما وقع التشبيه في صفة دون صفة، ومن وجه دون وجه.

والجواب الثاني: أنه تعالي لم يرد بذكر الجان في الآية الأخري الحية،وإنما أراد أحد الجن فكأنه تعالي أخبر بأن العصا صارت ثعباناً في الخلقة وعظم الجسم، وكانت مع ذلك كأحد الجن في هول المنظر وإفزاعها لمن شاهدها ولهذا قال تعالي: ﴿ **فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾.. ويمكن أن يكون في الآية تأويل آخر استخرجناه، وإن لم يزد علي الوجهين الأولين لم ينقص عنهما، والوجه في تكلفنا له، ما بيناه من الاستظهار في الحجة، وأن التناقض الذي توهم زائل علي كل وجه، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولاً بصفة الجان وعلي صورته، ثم صارت بصفة الثعبان، ولم تصر كذلك ضربة واحدة، فتتفق الآيتان علي هذا التأويل ولا يختلف حكمهما وتكون الآية الأولي تتضمن ذكر الثعبان إخباراً عن غاية حال العصا، وتكون الآية الثانية تتضمن ذكر الحال التي ولي موسي منها هارباً ،وهي حال انقلاب العصا إلي خلقة الجان، وإن كانت بعد تلك الحال انتهت إلي صورة الثعبان، فإن قيل علي هذا الوجه: كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالي﴿ **فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ ، وهذا يقتضي أنها صارت ثعباناً بعد الإلقاء بلا فصل؟ قلنا:ليس تفيد الآية ما ظن، وإنما فائدة قوله تعالي﴿ **فَإِذَا هِيَ** ﴾ الإخبار عن قرب الحال التي صارت فيها بتلك الصفة، وأنه لم يطل الزمان في مصيرها كذلك، ويجري هذا مجري قوله تعالي: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يس:٧٧] ، مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه

خصيماً مبيناً، وقولهم: ركب فلان من منزله فإذا هو في ضيعته، وسقط من أعلي الحائط فإذا هو في الأرض ، ونحن نعلم أن بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زماناً، وأنه لم يصل إليها إلا علي تدرج، وكذلك الهابط من الحائط، وإنما فائدة الكلام الإخبار عن تقارب الزمان وأنه لم يطل ولم يمتد».

● ليس في الأمالي أثر للتشيع وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلي الأئمة من آل البيت:

هذا.. وإنا لا نكاد نجد أثراً ظاهراً للتشيع فيما فسره الشريف المرتضي من الآيات في آماليه، رغم أنه من شيوخ الشيعة و علمائهم، غير أنا نجد منه محاولة جدية، يريد من ورائها أن يثبت أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن كلام غيره من أئمة الشيعة وغيرهم، وذلك حيث يقول في المجلس العاشر «جـ١ ص١٠٣، ١٠٤» ما نصه: اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وخطبه وأنها تتضمن من ذلك ما لا مزيد عليه ولا غاية وراء، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول، وروي عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام ما لا يكاد يحاط به كثرة ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة ، ونتاج للعقول العقيمة، ونحن نقدم علي ما نريد ذكره شيئا مما يروي عنهم في هذا الباب».. ثم ساق أشياء كثيرة منها ما نصه: «وروي صفوان بن يحيي قال: دخل أبو قرة المحدث علي أبي الحسن الرضا عليه السلام، فسأله عن أشياء من الحلال والحرام، والأحكام والفرائض حتي بلغ سؤاله إلي التوحيد ، فقال أبو قرة: إنا روينا: إن الله قسم الكلام والرؤية، فقسم لموسي عليه السلام الكلام، ولمحمد ﷺ الرؤية، فقال الرضا عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلي الثقلين – الجن والإنس – : أنه ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:١٠٣] ، ﴿**ولا يُحيطُونَ به علْماً**﴾ [طه:١١٠]، و ﴿**لَيس كمثْلِه شَيْءٌ**﴾ [الشوري: ١١].. أليس محمد نبياً صادقاً؟ قال: بلي. قال: وكيف يجئ رجل إلي الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله يدعوهم إليه بأمره ويقول: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾، ﴿**ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ ، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ .. ثم يقول : سأراه بعيني، وأحيط به علماً، ألا تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي عن الله بشئ، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر. قال أبو قرة: فإنه يقول﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾ [النجم:١٣– ١٤] .. قال عليه السلام: ما قبل هذه الآية يدل علي ما رأى حيث يقول:﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾

[النجم :١١]. . يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأي فقال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم:١٨] ،وآيات الله غير الله، وقد الله تعالي :﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم، فقال أبو قرة: فأكذب بالرؤية؟ فقال الرضا عليه السلام: إن القرآن كذبها وما أجمع عليه المسلمون أنه لا يحاط به علماً ، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شئ».

. . . ثم قال بعد قليل:« وروي أن شيخاً حضر صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلي الشام، أكان بقضاء من الله تعالي وقدر؟ قال له: نعم يا أخا أهل الشام، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئا، ولا هبطنا واديا، ولا علونا تلعة، إلا بقضاءمن الله وقدر، فقال الشامي: عند الله أحتسب عناي يا أمير المؤمنين، وما أظن أن لي أجراً في سعيي إذا كان الله قضاه علي وقدره، فقال له عليه السلام: إن الله قد أعظم لكم الأجر علي مسيركم وأنتم سائرون، وعلي مقامكم وأنتم مقيمون، ولم تكونوا في شئ من حالاتكم مكرهين، وإلا إليها مضطرين ولا عليها مجبرين، فقال الشامي: كيف ذاك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟ فقال عليه السلام: ويحك يا أخا أهل الشام! لعلك ظننت قضاء لازما، وقدراً حاكما، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، و الأمر من الله والنهي ولما كان المحسن أولي بثواب الإحسان من المسئ ، والمسئ أولي بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وحزب الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور، وقدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله أمر عباده تخييراً ،ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ، وأعطي علي القليل كثيراً. ولم يطع مكرهاً ، ولم يعص مغلوباً، ولم يكلف عسيراً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب لعباده عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص:٢٧]. قال الشامي فما القضاء والقدر الذي كان مسيرنا بهما وعنهما؟ قال: الأمر من الله بذلك والحكم . ثم تلا: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].. فقام الشامي فرحاً مسروراً لما سمع هذا القال، وقال : فرجت عني ،فرج الله عنك يا أمير المؤمنين ، وجعل يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم الحساب من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحسانا

وهكذا يذكر الشريف المرتضي من الأخبار عن أهل البيت وعن غيرهم ما يستدل به علي أن أصول المعتزلة مستمدة من كلامهم ،والله يعلم مقدار ما عليه هذه الأخبار من الصحة، وأنا لا أكاد أصدقها بالنسبة لعلي(رضي الله عنه)، فقد روي أبو القاسم

ابن حبيب في تفسيره بإسناده: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأله سائل عن القدر فقال: دقيق لا تمش فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: بحر عميق لا تخض فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: سر خفي لله لا تفشه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال علي(رضي الله عنه): يا سائل؛ إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فقال: كما شاء، قال: إن الله تعالي يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء؟ فقال: كما شاء فقال يا سائل؛ لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته؟ فإن قلت مع مشيئته، ادعيت الشركة معه، وإن قلت: دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته. وإن قلت: فوق مشيئته، كانت مشيئتك غالبة علي مشيئته. ثم قال: ألست تسأل الله العافية؟ فقال: نعم، فقال: فعن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به؟ أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال: من بلاء ابتلاني به فقال: ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟ قال: بلي، قال: تعرف تفسيرها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، علمني مما علمك الله فقال: تفسيره: أن العبد لا قدرة له علي طاعة الله ولا علي معصيته إلا بالله عز وجل، يا سائل؛ إن الله يسقم ويداوي، منه الداء. ومنه الدواء، اعقل عن الله، فقال السائل عقلت، فقال له: الآن صرت مسلماً قوموا إلي أخيكم المسلم وخذوا بيده، ثم قال علي: لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه، ولا أزال أضربه حتي أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة (١).

وبعد... فهذه هي أمالي الشريف المرتضي، وهي وإن كانت لا تصور لنا تفسيراً متناولاً للقرآن كله إلا أنها يمكن أن تكشف لنا عن مبلغ تأثر صاحبها بعقيدته الاعتزالية في بحوثه التفسيرية التي عالجها، كما تكشف لنا عن مبلغ ما كان لفنه الأدبي من الأثر الظاهر في التفسير.

* * *

(١) التبصير في الدين ص٥٨.

٣ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (للزمخشري)

●**التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير، هو أبو القاسم: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله [(١)]، ولد في رجب سنة ٤٦٧ هـ (سبع وستين وأربعمائة من الهجرة) بزمخشر - قرية من قري خوارزم- وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، ودخل خراسان مرارا عديدة. وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحدا إلا وسلم له واعترف به. ولقد عظم صيته وطار ذكره حتي صار إمام عصره من غير مدافعة.

ليس عجيبا أن يحظي الزمخشري بكل هذا وهو الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو، واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتي العلوم. ومن أجل مصنفاته: كتابه في تفسير القرآن العزيز الذي لم يصنف قبله مثله،وهو ما نحن بصدده الآن، والمحاجاة في المسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفائق في تفسير الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، والمفصل في النحو، ورؤوس المسائل في الفقه... وغير هذا كثير من مؤلفاته.

قال صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهراً باعتزاله، حتي نقل عنه: أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الأذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب، وأول ما صنف كتاب الكشاف، كتب استفتاح الخطبة: «الحمد لله الذي خلق القرآن» فيقال إنه قيل له: متي تركته علي هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه،فغيره بقوله: «الحمد لله الذي جعل القرآن» و(جعل) عندهم بمعني (خلق)، والبحث في ذلك يطول. ورأيت في كثير من النسخ: «الحمد لله الذي أنزل القرآن» وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف».

يقول الفيروزآبادي - وصاحب القاموس- فيما علقه علي خطبة الكشاف «قال بعض الطلبة - وأثبته بعض المعتنين بالكشاف في تعليق له عليه - أنه كان في الأصل كتب: (خلق) مكان: (أنزل) وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة

---

(١) لقب بذلك لأنه سافر إلي مكة وجاور بها زماناً حتي عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه.

الواضحة وهذا قول ساقط جداً وقد عرضته علي أستاذي فأنكره غاية الإنكار، وأشار إلي أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين: أحدهما أن الزمخشري لم يكن أهلاً لأن تفوته اللطائف المذكورة في (أنزل) وفي (نزل) في مفتتح كلامه ووضع كلمة خالية من ذلك. والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلي الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك، وأيضا أتي عقيبه بما هو صريح في المعني (١) ولم يبال بأنه قبيح وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام، مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة، خالية عن أثر كشط وإصلاح» (٢).

وكانت وفاة الزمخشري رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة) بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم، بأبيات من جملتها:

فأرض مكة ندِّي الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود (٣)

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - قصة تأليف الكشاف:**

قبل الخوض في التعريف بالكشاف للزمخشري، أري أن أسوق لك قصة تأليفه وما كان من الزمخشري من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولاً. ثم العزم المصمم منه علي تأليفه حتي أخرجه للناس كتاباً جامعاً نافعاً.

أسوق هذه القصة نقلاً عن الزمخشري في مقدمة كشافه، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر، وكشف عن السبب الذي دعاه إلي تأليف كتابه في التفسير فقال:

« ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلي مصنف يضم أطرافا من ذلك، حتي اجتمعوا إليَّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عنْ حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد والذي حداني إلي الاستعفاء - علي علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة، لان الخوض فيه كفرض العين - ما أري عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدني عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقي إلي الكلام المؤسس عليَّ علمي البيان والمعاني، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤ ال والجواب

---

(١) حيث قال: أنشأه كتاباً ساطعاً بيانه. (٢) كشف الظنون :٢ / ١٧٦ .

(٣) انظر ترجمة الزمخشري في وفيات الأعيان: ٢ / ٥٠٩ - ٥١٣، وشذرات الذهب : ٤ / ١٢١، وطبقات المفسرين للسيوطي ص٤١ .

طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه علي غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه ، فلما صمم العزم علي معاودة جوار الله ، والإناحة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها- وقليل ما هم - عطشي الأكباد إلي العثور علي ذلك المملي، متطلعين إلي إيناسه، حراصاً علي اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي ، وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن، بن حمزة بن وهاس - أدام الله ومجده - وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، وأعطش الناس كبداً، وألهبهم حشي، وأوفاهم رغبة، حتي ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطي المهامه، والإفادة علينا بخوارزم ، ليتوصل إلي إصابة هذا الغرض، فقلت قد ضاقت علي المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب (١)، فأخذت في طريقة أخصر من الأولي، مع ضمان التكثير من الفوئد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢) وكان يقدر في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم. أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً لي علي الصراط يسعي بين يدي ويميني ،ونعم المسئول» (٣).

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشري نفسه.

● **قيمة الكشاف العلمية:**

وأما قيمة هذا التفسير . فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم وما أمتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة،

---

(١) وهي ما بين الستين إلي السبعين، وهي معترك المنايا.

(٢) وهي سنتان وأربعة أشهر، أو ثلاثة أشهر وتسع ليال، وفي كشف الظنون: الجزء الثاني ص١٧٢ أنه فرغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع الآخر في عام ثمان وعشرين وخمسمائة، وكذا في خاتمة الكشاف.

(٣) الكشاف: ١/ ١٥- ١٩.

والبيان، والإعراب والأدب، ولقد أضفي هذا النبوغ العلمي والأدبي علي تفسير الكشاف ثوباً جميلاً ، لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين.

هذا.. وقد أحس الزمخشري إحساسا قوياً بضرورة الإلمام بعلمي المعاني والبيان قبل كل شئ، لمن يريد أن يفسر كتاب الله عز وجل، وجهر بذلك في مقدمة الكشاف فقال: « .. ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سبكها، علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم – كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن – فالفقيه وإن برز علي الأقران في علم الفتاوي والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية (١) أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحي من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدي منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص علي شئ من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته علي تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص علي استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورُجع إليه، ورد ورد عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، دراً كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً علي الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلي مضايقه. ووقع في مداحضه ومزالقه» (٢).

وفي الحقيقة أن الزمخشري قد جمع كل هذه الوسائل التي لابد منها للمفسر فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم في تفسير القرآن «الكشاف عن حقائقه ،المخلص من مضايقه المطلع علي غوامضه، المثبت في مداحضه، الملخص لنكته ولطائف نظمه، المنقر عن فقره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه ، مع الإيجاز الحاذف للفضول ، وتجنب المستكره

(١) القرية – بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة: أحد فصحاء العرب، واسمه أيوب، والقرية اسم أمه.
(٢) الكشاف: ١ / ١٢ – ١٥.

المملول، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شئ علي قانونه، لكفي به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمني العثور عليها غاضة البحار) (١).

ولما علم الزمخشري أن كتابه قد تحلي بهذه الأوصاف قال متحدثاً بنعمة الله :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدي فألزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي (٢)

وإذا كان الزمخشري قد اعتز بكشافه، وبلغ إعجابه به إلي حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له، وإطراء عليه، فأنا نعذره في ذلك ولا نلومه عليه، فالكتاب واحد في بابه، وعلم شامخ في نظر علماء التفسير وطلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلي ما فيه من ناحية الاعتزال، وإليك مقالات بعض العلماء في الكشاف :

● **مقالة ابن بشكوال في الكشاف :**

وإنا لنجد في مقدمة تفسير أبي حيان، مقارنة للحافظ أبي القاسم بن بشكوال بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري، ووصفاً رقيقاً وتحليلاً عميقاً لكتاب الكشاف يقول فيها :

«وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص. وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص ، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة علي الوفرة فربما سنح له آبي المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتاده. وربما ناقض هذا المنزع ، فثني العنان إلي الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمي نحو عرضه سهاماً هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ،ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه» (٣).

● **مقالة الشيخ حيدر الهروي :**

كذلك نجد للشيخ حيدر الهروي – أحد الذين علّقوا علي الكشاف – وصفاً دقيقاً لكتاب الكشاف وهذا نصه :

« .. وبعد، فإن كتاب الكشاف، كتاب عليٌّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت علي متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعن علي محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسر وتهذيب براهينه وتمهيد قواعده وتشييد معاقده.

---

(١) الكشاف: ٢ / ٦١٠.
(٢) كشف الظنون: ٢ / ١٧٣.
(٣) البحر المحيط: ١ / ١٠.

وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا يكون له تلك الطلاوة ولا يوجد فيه شئ من تلك الحلاوة، علي أن مؤلفه يقتفي أثره ، ويسأل خبره . وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا افتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار ، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال . أصابته عين الكلالة . فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية .

منها : أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة وتعسفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر ، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالي،وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يوهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلي الأفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدي إلي حبائله إلا ورّاد بعد وراد من الأذكياء الحذاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق . وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة .

ومنها : أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده . ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالي : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ [المائدة:٥٤] .. خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالي، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش ، فهب أنه اجترأ علي الطعن في أولياء الله تعالي، فكيف اجتراؤه علي كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد .

ومنها : أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بني علي الهزل والفكاهة أساسها .وأورد علي المزاح البارد نبراسها . وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد ، لاسيما عند أهل العدل والتوحيد .

ومنها : أنه يذكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبّرة، وتارة ينسبهم علي سبيل التعريض إلي الكفر والإلحاد، وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار» . (١)

● **مقالة أبي حيان :**

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤٩) من

---

(١) كشف الظنون : ٢ / ١٧٦، ١٧٧ .

سورة النمل: ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾.. يتعقب الزمخشري في تفسيره لقوله تعالي: ﴿ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾.. ثم يصفه بقوله: «وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلي مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت علي ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف علي كتابي هذا، وينتبه علي ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً ... ويعزو إلي المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ... ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعني الوجيز دلالة ... بتكثير ألفاظ تسمي الشقاشقا
يقول فيها الله ما ليس قائلاً ... وكان محباً في الخطابة وامقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه ... فليس لما قد ركبوه موافقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه ... ليوهم أغمارا وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه ... يجوز إعراباً أبي أن يطابقا
وكم بين من يؤتي البيان سليقة ... وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتي يديرها ... لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسره شيخ تخرق صيته ... مغارب تخريق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يري للكافرين مرافقا [١]

وأحسب أن القارئ لا يفوته أن يدرك ما في الوصف من قسوة علي الزمخشري، وما فيه من اتهامه بقلة بضاعته في البيان والعربية، مع أنه سلطان هذه الطريقة في التفسير غير مدافع.

● **مقالة ابن خلدون:**

وهذا هو العلامة ابن خلدون، نجده عندما تكلم عن القسم الثاني من التفسير وهو ما يرجع إلي اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعني بحسب المقاصد والأساليب. يقول: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في

---

(١) البحر المحيط: ٧/٨٥.

العقائد، فيأتي بالحجاج علي مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك علي المذاهب السنية، محسنا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية علي ما يراه أهل السنة، لا علي ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذي علم عليم » (١).

● **مقالة التاج السبكي:**

وأخيراً.. فهذا هو العلامة تاج الدين السبكي يقول في كتابه « معيد النعم ومبيد النقم »: « واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه علي أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعني والده تقي الدين السبكي - يقرأه فإذا انتهي إلي كلامه في قوله تعالي في سورة التكوير الآية (١٩): ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها(سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف) وقال فيها: قد رأيت كلامه علي قوله تعالي﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ** ﴾ [التوبة:٤٣] (٢) وكلامه في سورة التحريم (٣) وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها علي خير خلق الله تعالي ، سيدنا رسول الله ﷺ ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة » (٤).

هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه. ومهما يكن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩١.

(٢) في الآية (٤٣) من سورة التوبة وفيها يقول الزمخشري: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ** ﴾ كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت (انتهي من الكشاف:جـ٢ ص ٣٤ - طبع الأميرية سنة ١٣١٨ هـ).

(٣) حيث يقول عند تفسره للآية (١) من سورةالتحريم:﴿ **لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ .. إلخ.. وكان هذا زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله (انتهي من الكشاف جـ٣ ص١٩٨ - طبع الأميرية سنة ١٣١٨ هـ).

(٤) النماذج الخيرية ص٣١٠.

من شئ ، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه في أقصي المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفياض واعتني الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميز لما جاء فيه من الاعتزال ومن مناقش لما أتي فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضح ونقح واستشكل وأجاب،ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وأنقد، ومن مختصر لخص وأوجز.

ولا أطيل بذكر الكتب التي عني يها أصحابها بهذه النواحي، ويكفي أن أقول : إن من أهم الحواشي علي تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي، المتوفي سنة ٧٤٣هـ « ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة » وهي تقع في ست مجلدات كباراً، وهي التي أشار إليها ابن خلدون في مقالته السابقة. وقد سماها صاحبها « فتوح الغيب، في الكف عن قناع الريب » ومن يريد الوقوف علي كل ما كتب علي الكشاف ليرجع إلي كشف الظنون(جـ ٢ ص ١٧٣ - ١٧٧) وسيراها كثيرة، كثرة يضيق المقام عن ذكرها.

هذا.. وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتي من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التي أغرب العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع علي أنه تفسير في أعلي القمة.

وليس عجيباً أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب في التفسير كشف لنا علي سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه ، وأوضح لنا عن دقة المعني الذي يفهم من التركيب اللفظي. كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع لا يتفق لغير الزمشخري إمام اللغة وسلطان المفسرين وإذا كان الزمخشري قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلي المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأولها بحيث لا يتنافي معه علي الأقل فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق علي براعته وقوة ذهنه، وصور لنا مقدار ما كان من التأثير والتأثر بين التفسير وهوي العقيدة وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبنا السني، وكراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السنة عليه - فيما عدا ناحيته الاعتزالية - واعتماد معظم مفسريهم عليه وأخذهم منه.

فالكشاف - والحق يقال- قد بلغ في نجاحه مبلغاً عظيماً، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه في بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع أيضاً أن يكون

معترفاً به من الأصدقاء والخصوم علي السواء ككتاب أساسي للتفسير، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغري الكل ويتسع للجميع.

وكما اعتبرنا تفسير الطبري ممثلاً للقمة العالية في التفسير بالمأثور فأطنبنا في وصفه وأطلنا الكلام عليه، فهنا كذلك سنعتبر الكشاف للزمخشري القمة العالية للتفسير الاعتزالي،لأنه الكتاب الوحيد من تفاسير المعتزلة الذي وصل إلينا متناولاً للقرآن كله، وشاملاً للأفكار الاعتزالية التي تتصل بالقرآن الكريم باعتباره أصل العقيدة، ومعتمد ما يتشعب عنها من آراء وأفكار، ولهذا أراني مضطراً إلي الإطناب والإفاضة في كلامي عن هذا التفسير، ودراستي له من جميع نواحيه بمقدار ما يفتح الله.

● اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن:

عندما يلقي الإنسان نظرة فاحصة علي العمل التفسيري الذي قام به العلامة الزمخشري في كشافه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية، كان في تبيين ما في القرآن من الثروة البلاغية التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله، والذي يقرأ ما أورده الزمخشري عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات ، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخري، يري أن الزمخشري كان يحرص كل الحرص علي أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه، وإنا لنكاد نقطع – إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان – بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالاً في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري.

ولقد كانت لعناية الزمخشري بهذه الناحية قي تفسيره من الأثر بين المفسرين وبين مواطنيه من المشارقة ما هو واضح بيِّن.

أما أثره بين المفسرين، فإن كل ما جاء بعده منهم – حتي من أهل السنة – استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه،فأوردوا في تفسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشافه من ضروب الاستعارات، والمجازات والأشكال البلاغية الأخري، واعتمدوا ما نبه عليه الزمخشري من نكات بلاغية ، تكشف عما دق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه وليس عجيبا أن يعتمد خصوم الزمخشري كغيرهم علي كتاب الكشاف وينظروا إليه كمرجع مهم من مراجع التفسير في هذه الناحية، بعد ما قدروا هذه الناحية البلاغية في تفسير القرآن، وبعد ما علموا أن الزمخشري هو سلطان هذه الطريقة غير مدافع.

وأما أثره بين مواطنيه من المشارقة، فإنهم أخذوا عنه هذا الفن البلاغي وبرعوا فيه،

حتي سبقوا من عداهم من المغاربة . وقد بين ابن خلدون في مقدمته – عندالكلام عن علم البيان – ما لتفسير الزمخشري من الأثر في براعة المشارقة في هذا الفن فقال :

« . . وبالجملة ، فالمشارقة علي هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه – والله أعلم – أنه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرنا . أو نقول : لعناية العجم – وهم معظم أهل المشرق – بتفسير الزمخشري وهو كله مبني علي هذا الفن وهو أصله [1] » .

ثم إنا نستعرض هذه الروح البلاغية التي تسود في تفسير الزمخشري فنشهدها واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالي في الآية (٢) من سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ . . فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التي تجوز في محل هذه الجملة من الإعراب ، نبه علي أن الواجب علي مفسر كلام الله تعالي أن يلتفت للمعاني ويحافظ عليها، ويجعل الألفاظ تبعاً لها، فقال ما نصه: « . . والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال : إن قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ جملة ثانيةو ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثالثة و ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جئ بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولي معتنقة لها . . وهلم جراً إلي الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نبه أولاً علي أنه الكلام المتحدي به. ثم أشير إليه بأنه الكتاب المبعوث بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده، ثم نفي عنه أنه يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحاً،وفي شبهة تتضاءل افتضاحا . ثم أخبر عنه بأنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السوي، من نكتة ذات جزالة، ففي الأولي: الحذف ، والرمز إلي الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة . وفي الثالثة: ما في تقديم الريب علي الظرف .وفي الرابعة: الحذف، وضع المصدر الذي هو ﴿ هُدًى ﴾ موضع الوصف الذي هو ﴿ هَادٍ ﴾ وإيراده

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

منكراً ، والإيجاز في ذكر ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾ زادنا الله اطلاعاً علي أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقا للعمل بما فيه »[١] .

● **تذرعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي :**

كذلك نري الزمخشري – كغيره من المعتزلة – إذا مر بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعني الظاهر، وأن يثبت للفظ معني آخر موجوداً في اللغة .

فمثلاً نراه عندما تعرض لتفسير قوله تعالي في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .. يتخلص من المعني الظاهر لكلمة (ناظرة)، لأنه لا يتفق مع مذهبه الذي لا يقول برؤية الله تعالى . ونراه يثبت له معني آخر هو التوقع والرجاء، ويستشهد علي ذلك بالشعر العربي فيقول ما نصه" :﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : تنظر إلي ربها خاصة لا تنظر إلي غيره، وهذا معني تقديم المفعول، ألا تري إلي قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة :١٢] . ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة :٣٠] .. ﴿ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشوري:٥٣] ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:٢٨، النور:٤٢، فاطر:١٨] .. ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٥][٢] .. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشوري:١٠] كيف دل فيها التقديم علي معني الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون إلي أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال ، فوجب حمله علي معني يصح معه الاختصاص. والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلي فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معني التوقيع والرجاء ومنه قوله القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعماً

وسمعت سروية [٣] مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلي مقائلهم تقول : عيينتي نويظرة إلي الله وإليكم) والمعني: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه »[٤] .

● **اعتماده علي الفروض المجازية وتذرعه بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره :**

كذلك نري الزمخشري يعتمد في تفسيره علي الفروض المجازية في الكلام الذي يبدو في حقيقته بعيداً وغريباً .

---

(١) الكشاف:١ / ٩٢ – ٩٤ .

(٢) وفي مواضع أخري من القرآن

(٣) لعلها نسبة إلي سرو: محلة حمير

(٤) الكشاف:٢ / ٥٠٩ .

فمثلاً عند قوله تعالي في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها، وفخم شأنها، وفيه وجهان:

أحدهما: أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال، قد انقادات لأمر الله عز وجل انقياد مثلها، وهو ما يتأتي من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها، حيث لم تمتنع علي مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً، وتسوية علي هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].. وأما الإنسان، فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منهاويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع. والمراد بالأمانة: الطاعة، لأنها لازمة الوجود،كما أن الأمانة لازمة الأداء. وعرضها علي الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز. وأما حمل الأمانة، فمن قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤديها إلي صاحبها حتي تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها، لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها،ألا تراهم يقولون: ركبته الديون ولي عليه حق.. فإذا أداها لم تكن راكبة له ولا حاملاً لها. ونحوه قولهم: لا يملك مولي لمولي نصراً، يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها الخاذل، ومنه قول القائل:

أخوك الذي لا تملك الحس [1] نفسه ... وترفض عند المحفظات الكتائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده، بل يبذل ذلك ويسمح به. ومنه قولهم: ابغض حق أخيك، لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلي أخيه ولم يؤده، وإذا أبغضه أخرجه وأداه. فمعني ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢]: فأبين إلا أن يؤدينها وأبي الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤه.

والثاني:أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله، أنه عرض علي أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به، فأبي حمله والاستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان علي ضعفه ورخاوه قوته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها: ونحو هذا الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا علي طرقهم وأساليبهم. من ذلك قولهم: «لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج» وكم لهم من

---

(١) الحس: مصدر قولك: حس له: أي دق له، والبيت لذي الرمة.

أمثال علي ألسنة البهائم والجمادات، وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل وعلي حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها، وثقل محملها والوفاء بها.

وهنا تقوم أمام الزمخشري صعوبات ومشاكل يصورها لنا في سؤاله «فإن قلت قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت علي رأي واحد: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخري، لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضي علي أحدهما، بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهة، وكل واحد من الممثل والممثل به شئ داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما في هذه الآية، فإن عرض الأمانة علي الجماد وإباءه وإشفاقه محال في نفس غير مستقيم، فكيف صح بناء التمثيل مع المحال؟ وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول».

ولكن الزمخشري لا يقف طويلاً أمام هذه الصعوبات ،بل نراه يتخلص منها بكل دقة وبراعة حيث يقول: «قلت الممثل به في الآية، وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب، وفي نظائره، مفروض ، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله، بحاله المفروضة لو عرضت علي السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها» (١) .

ثم إن هذه الطريقة التي يعتمد عليها الزمخشري في تفسيره – أعني طريقة الفروض المجازية، وحمل الكلام الذي يبدو غريباً في ظاهره علي أنه من قبيل التعبيرات التمثيلية أو التخييلية – قد أثارت حفيظة السني ابن المنير الإسكندري عليه، فاتهمه بأشنع التهم في كثير من المواضع التي تحمل هذا الطابع، ونسبه فيها إلي قلة الأدب وعدم الذوق.

فمثلاً عندما يعرض الزمخشري لقوله تعالي في الآية (٢١) من سورة الحشر ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ .. نراه يقول: (هذا تمثيل وتخييل كما مر في قوله تعالي: ﴿**إنا عرضنا الأمانة**﴾ وقد دل عليه قوله: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾.. والغرض توبيخ الإنسان علي قسوة قلبه وقلة تخشعه، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره» . (٢)

ولكن هذا قد أغضب ابن المنير علي الزمخشري فقال معقبا عليه: «وهذا مما تقدم

---

(١) الكشاف: ٢ / ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٢) الكشاف: ٢ / ٤٤٩ .

إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية، حيث سمي الله هذا مثلاً، ولم يقل: تلك الخيالات نضربها للناس؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق» (١).

ولكن الزمخشري ولع بهذه الطريقة، فمشي عليها من أول تفسيره إلي آخره، ولم يقبل المعاني الظاهرة التي يجوزها أهل السنة، بل ويرونها أقرب إلي الصواب من غيرها، وهو في كل ما يذكر من المعاني لا يعدم مثلاً عربياً سائرا. أو بيتاً من الشعر القديم يشهد لما يقوله، كما أنه لا ينفك عن التنديد بأهل السنة الذين يقبلون هذه المعاني الظاهرة ويقولون بها، وكثيراً ما ينسبهم من أجل ذلك إلي أنهم من أهل الأوهام والخرافات (٢). وإليك بعض الأمثلة لتقف علي مقدار تمسكه بهذه الطريقة.

ففي سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (٢٥٥): ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾. يذكر الزمخشري أربعة أوجه في معني الكرسي يقول في الوجه الأول منها: إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد، كقوله: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر:٦٧]. من غير تصور قبضة وطي ويمين وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن، ألا تري إلي قوله: ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ (٣).

وبطبيعة الحال لم يرتض ابن المنير هذا الكلام فتعقبه بقوله: «قوله في الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإصرار، فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق فإن يكن معني ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب» (٤).

وفي سورة الأعراف عند قوله تعالي في الآيتين (١٧٢، ١٧٣): ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ يقول مانصه: وقوله ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ من باب التمثيل ومعني ذلك: أنه نصب لهم الأدلة علي ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين

---

(١) هامش الكشاف: ٢/ ٤٤٩.

(٢) انظر ما قاله عند قوله تعالي في سورة آل عمران: ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ (آل عمران: ٣٦) – (جـ١ ص٣٠٢).

(٣) الكشاف: ١/ ٢٧٨– ٢٧٩.

(٤) المرجع السابق (هامش).

الضلالة والهدي، فكأنه أشهدهم علي أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾؟ وكأنهم قالوا: بلي أنت ربنا، شهدنا علي أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالي ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب،ونظيره قوله تعالي﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل:١] ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت:١١].. وقوله:

إذا قالت الأنساع للبطن الحق　　قالت له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعني» (١).

ولكن ابن المنير السني لم يرض هذا من الزمخشري بطبيعة الحال، ولذا تعقبه بقوله: «إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخييل علي كلام الله تعالي فمردود ولم يرد به سمع. وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم أن القاعدة مستقرة علي أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره علي ما هو عليه، فكذلك أقره الأكثرون علي ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك» (٢).

ويتصل بهذه الآية السابقة قوله تعالي في الآية (٨) من سورة الحديد:﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ .. فالزمخشري يميل في تفسير الميثاق هنا إلي المعني الذي حمل عليه أخذ العهد في آية الأعراف، فيقول: «والمعني: وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه، وينبهكم عليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقيل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان، حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وأزاح عللكم، فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول، فمالكم لا تؤمنون» (٣).

ولكن ابن المنير السني، يريد أن يحمل أخذ الميثاق الذي في سورة الحديد، علي المعني الذي ارتضاه للفظ (العهد) في سورة الأعراف، ولهذا نراه يرد علي الزمخشري ويشدد عليه النكير فيقول: «وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق علي ما بينه آلله في آية غير هذه، إذ يقول تعالي ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**﴾ [الأعراف:١٧٢] ولقد يريبني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر، والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً، ووقوعها بالسمع

(١) الكشاف: ١/٥١٧.　　(٢) هامش الكشاف: ١/٥١٧.
(٣) الكشاف: ٢/٤٣٤.

قطعاً، إلي ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلاً. فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضرك ما يومئ إليه: أن كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع، وجب حمله علي ظاهره. والله الموفق» (١).

ومسألة التمثيل والتخييل يستعملها الزمخشري بحرية أوسع فيما ورد من الأحاديث التي يبدو ظاهرها مستغرباً، وأسوق إليك مثالاً أتي به الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة آل عمران: ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾.. قال رحمه الله: «وما يروون من الحديث: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها،فإنهما كانا معصومين وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالي: ﴿ **لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].. واستهلاله صارخاً من مسه، تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس علي الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخس» (٢).

وبالضرورة لم يرتض ابن المنير هذا الصنيع من خصمه المعتزلي، فنراه يتورك عليه بقوله: «أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق علي صحته، فلا محيص له إذن عن تعطيل كلامه عليه السلام بتجميله ما لا يحتمله جنوحاً إلي اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في إلحاد، ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالي: ﴿ **لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** ﴾ [البقرة:٢٧٥] ما فيه كفاية. وما أري الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتي بقرها، وذكر في قلوبهم حتي حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالي وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل، كما قال في هذا الحديث. ثم تنظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جرأة وسوء أدب، ولو كان معني ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب. ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن علي بعد أن يكون تمثيلاً أما وهو واقع مشاهد فلا وجه لحمله علي التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوي الوبيل» (٣).

---

(١) هامش الكشاف: ٢/ ٤٣٤.
(٢) الكشاف: ١/ ٣٠٢، ٣٠٣.
(٣) هامش الكشاف: ١/ ٣١٢.

● **مبدأ الزمخشري في التفسير عندما يصادم النص القرآني مذهبه:**

والمبدأ الذي يسيير عليه الزمخشري في تفسيره ويعتمد عليه عندما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته، هو حمل الآيات المتشابهة علي الآيات المحكمة، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشري في قوله تعالي في الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾.. فـ (المحكمات) هي التي أحكمت عباراتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. و(المتشابهات) هي المتشبهات المحتملات و (أم الكتاب) هي أصله الذي يحمل عليه المتشابه، ويرد إليه، ويفسر به (١).

علي هذا التفسير جري الزمخشري في كشافه عندما تعرض لهذه الآية. وهو تفسير لا غبار عليه، كما أن هذا المبدأ – أعني مبدأ حمل الآيات المتشابهات علي الآيات المحكمات – مبدأ سليم يقول به غير الزمخشري أيضا من علماء أهل السنة، ولكن الذي لا نسلمه للزمخشري هو تطبيقه لهذا المبدأ علي الآيات التي تصادمه، فإذا مر بآية تعارض مذهبه، وآية أخري في موضوعها تشهد له بظاهرها، نراه يدعي الاشتباه في الأولي والإحكام في الثانية، ثم يحمل الأولي علي الثانية وبهذا يرضي هواه المذهبي، وعقيدته الاعتزالية.

وقد مثل الزمخشري لحمل المتشابه علي المحكم ورده إليه بقوله تعالي في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾. وقوله في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾.. فهو يري أن الآية الأولي محكمة، والآية الثانية متشابهة، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولي، ولا سبيل إلي ذلك إلا بحملها عليها، وردها إليها.

ومثل أيضاً بقوله تعالي في الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، وقوله في الآية (١٦) من سورة الإسراء ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾. فهو يري أن الآية الأولي محكمة، والآية الثانية متشابهة، فلابد من حمل الثانية علي الأولي ليتفق المعني ويتحدد المراد.

ثم لا ينتهي الزمخشري من تطبيقه لهذا المبدأ حتي يتساءل عن السبب الذي من أجله لم يكن القرآن كله محكماً، وعن السر الذي من أجله جعل الله في القرآن آيات

(١) الكشاف: ١/ ٢٩٤.

محتملات متشابهات؟ ولكن الزمخشري يجيب بنفسه علي ما تساءل عنه فيقول: «لوكان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلي الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلي معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت علي الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلي المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف ، وإذا رأي فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه علي سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه، وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلي معتقده وقوة في إيقانه»(١).

وهذا الجواب في منتهي القوة والسداد، وابن المنير السني يمر علي كل هذا الكلام فلا يري فيه أدني ناحية من نواحي الاعتزال، لكنه يغضب علي الزمخشري فقط من أجل أنه بعد قوله تعالي: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] من قبيل المتشابه الذي يجب حمله علي آية الأنعام ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ [الأنعام: ١٠٣] فيقول معقباً عليه: قال محمود: «المحكمات التي أحكمت عباراتها... إلخ» قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي علي وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي ،وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالي، بناء علي زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال علي وقوع الرؤية كقوله: ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ مالوا إلي جعله من المتشابه حتي يردوه بزعمهم إلي الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم ولآية، قوله تعالي: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ ثم جمع ابن المنير بين الآيتين بما يتفق مع مذهبه السني.. ثم قال وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالي: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾، والأخري التي هي قوله تعالي ﴿**أمرنا مترفيها ففسقوا فيها**﴾ ، فلا ينازع الزمخشري في تمثيل المحكم والمتشابه بهما»(٢).

● انتصار الزمخشري لعقائد المعتزلة:

هذا.. وإن الزمخشري لينتصر لمذهبه الاعتزالي، ويؤيده بكل ما يملك من قوة الحجة وسلطان الدليل، وإنا لنلمس هذا التعصب الظاهر في كثير مما أسلفنا من النصوص، وفي غيرها مما نسوقه لك من الأمثلة. وهو يحرص كل الحرص علي أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلي أن يتأول ما كان منها معارضاً له.

● انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٩٣) من سورة النساء: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً**

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٩٤.
(٢) الانتصاف هامش الكشاف: ٩٢٤.

مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.. نجده يجعل لهذه الآية أهمية كبيرة في نصرة مذهبه، ويتيه بها علي خصومه من أهل السنة، ويندد بهم حيث يقولون بجواز مغفرة الذنب وإن لم يتب منه صاحبه، وبأن صاحب الكبيرة لا يخلد في النار فيقول مستغلا لهذه الفرصة المواتية للاستهزاء من خصومه السنيين: «وهذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي من أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا ،قالوا: لا توبة له، وذلك محمول منهم علي الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون علي الله من قتل امرئ مسلم». وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» وفيه: «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه» وفيه: «من أعان علي قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله» والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو، عن قاتل المؤمن بغير توبة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد :٢٤].. ثم ذكر الله سبحانه وتعالي التوبة في قتل الخطأ – لما عسي يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ – فيه حسم للأطماع وأي حسم، و لكن لا حياة لمن تنادي .، فإن قلت: هل فيها دليل علي خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناوله قوله:﴿ وَمَن يَقْتُلْ ﴾ أي أقاتل كان ،من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل فمن ادعي إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله» (١).

وفي سورة الأنعام عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٥٨) ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ نجد الزمخشري يمسك بهذه الآية، ويستدل بها علي صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود في النار فيقول: «والمعني أن أشراط الساعة إذا جاءت – وهي آيات ملجئة مضطرة – ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق – كما تري – بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً ، ليعلم أن قوله:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ جمع

(١) الكشاف ١ / ٣٨١.

بين قرينين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخري، حتي يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك » (١).

● **انتصاره لمذهب المعتزلة في الحسن والقُبح العقليين:**

ولما كان الزمخشري يقول بمبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لابد له أن يتخلص من ظاهر هذين النصين المنافيين لمذهبه، وهما قوله تعالي في الآية (١٦٥) من سورة النساء ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾، وقوله في الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾.. فنراه في الآية الأولي يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: « كيف يكون للناس علي الله حجة قبل الرسل وهم محجوبون بما نصه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلي المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلي المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها »؟

ثم يجيب هو عن هذا السؤال فيقول: « قلت: الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون علي النظر، كما تري علماء أهل العدل والتوحيد، مع تبليغ ماحملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف، وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة، تتميماً لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له » (٢).

وعندما تكلم عن الآية الثانية نراه يستشعر مثل ما استشعر في الآية الأولي، ويسأل ويجيب بمثل ما سأل عنه وأجاب به في الآية الأولي فيقول « فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه علي النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا علي النظر في أدلة العقل » (٣).

● **انتصاره لمعتقد المعتزلة في السحر:**

ثم إن الزمخشري – كغيره من المعتزلة – لا يقول بالسحر ولا يعتقد في السحرة، ولهذا نجده عندما يفسر سورة الفلق التي تشهد لأهل السنة ولا تشهد له، لا تخونه مهارته ولا تعوزه الحيلة التي يخرج بها في تفسيره من هذه الورطة الصريحة، كما نجده يشدد النكير ويغرق في الاستهزاء والسخرية بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر، وذلك حيث يقول: « النفاثات: النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في الخيوط، وينفثن، عليها ويرقين. والنفث: النفخ من غير

(١) الكشاف: ١/ ٤٧٧. (٢) الكشاف: ١/ ٣٩٨. (٣) الكشاف: ١/ ٧٠٢، ٧٠٣.

ريق. ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شئ ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به علي بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل، قد يفعل عند ذلك فعلا علي سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت علي الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن إلي نفثهن والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلي ذلك ولا يعبأون به. فإن قلت: فما معني الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك» (١).

وفي الحق أن هذه محاولة عقلية عنيفة من الزمخشري يريد من ورائها أن يحول الحقائق التي ورد بوقوعها الكتاب والسنة. إلي ما يتناسب مع هواه وعقيدته. ولقد دهش ابن المنير من هذه المحاولة وحكم علي الزمخشري بأنه: (استفزه الهوي حتي أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطي بكفه وجه الغزالة» (٢).

● انتصاره لمذهب المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال:

ولقد تأثر الزمخشري برأيه الاعتزالي في حرية الإرادة وخلق الأفعال ولكنه وجد ما يصادمه من الآيات الصريحة في أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالي، فأراد أن يتفادي هذا التصادم ويعمل علي الخروج من هذه الورطة الكبري، فساعده علي ما أراد هذا المعني الذي تمسك به المعتزلة ونفعهم في كثير في المواضع. وهو (اللطف) من الله، فباللطف منه تعالي يسهل عمل الخير علي الإنسان وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

هذا (اللطف) وما يتصل به من (التوفيق) ساعد الزمخشري علي الخروج من الضائقة التي صادفته عندما تناول بالتفسير تلك الآيات القرآنية الصريحة في أن الله يخلق أفعال العباد خيرها وشرها، والتي يعتبرها أهل السنة سلاحاً قويا لهم ضد هذه النظرية الاعتزالية.

ففي سورة آل عمران عند قوله تعالي في الآية (٨): ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾.. نجد الزمخشري يستشعر من هذه الآية أن قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٦٨.　　(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ٢/ ٥٦٨.

يشـاء، فـمـن أراد الله هدايتـه هداه، ومن أراد ضـلاله أضله ولكنه يفـر من هـذا الظاهر فيقـول: ﴿لا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيهـا قلوبنا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وأرشدتنا لدينك أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا » (١).

وفي سورة المائدة عند قوله تعالي في الآية (٤١) ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .. نجد الزمخشري لا يجزع من هذا الظاهر الذي يتشبث به أهل السنة ويتيـهون به علي خصومهم ، بل نراه يفسرها حسب هواه ووفق مبدئه فيقول: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ تركه مفتوناً وخذلاناً . . ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم، لأنهم ليسوا من أهلها، لعلمه أنهم لا تنفع فيهم ولا تنجع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل:١٠٤] . . ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران:٨٦] (٢).

وهكذا نجد الزمخشري بواسطة هذه التأويلات يخضع لمبدئه الاعتزالي في الجبر والاختيار مثل هذه المواضع القرآنية التي لم تكن طيعة له. ولكن ابن المنير السكندري لم ترقه هذه التأويلات، ولم يسلم بها لخصمه، فأخذ يناقشه في معني اللطف مناقشة حادة ساخرة، فعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالي في الآية (٢٧٢) من سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وتذرع بلفظ (اللطف) تعقبه ابن المنير فقال: « المعتقد الصحيح، أن الله هو الذي يخلق الهدي لمن يشاء هداه، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدي ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه، وإن أطلق الله تعالي إضافة الهدي إليه كما في الآية فهو مؤول – علي زعم الزمخشري – بلطف الله الحامل للعبد علي أن يخلق هداه، إن هذا إلا اختلاق وهذه النزعة من توابع معتقدهم السئ في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا » (٣).

وعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالي في الآية (٣٩) من سورة الأنعام: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ .. أي يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف. ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يلطف به، لأن اللطف يجري عليه (٤). عندما قال ذلك تعقبه ابن المنير فقال: « وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أن

(١) الكشاف: ١/ ١٩٥.
(٢) الكشاف: ١/ ٤١٦.
(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/ ٢٨٥.
(٤) الكشاف: ١/ ٤٥١.

الله تعالي لا يخلق الهدي ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرفعها، وقد اتسع الخرق علي الرقع» (١).

وعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة الإعراف: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾، وتأول الهداية هنا بمعني اللطف والتوفيق كعادته. وتعقبه ابن المنير ورد عليه رداً في غاية التهكم والسخرية فقال: «وهذه الآية - يعني قوله تعالي: ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ - تكفح وجوه القدرية بالرد فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام علي أن المهتدي من خلق الله له الهدي وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدي الله ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدي فهو إذن مهتد وإن لم يهده الله، إذ هدي الله للعبد خلق الهدي له، وفي زعمهم أن الله تعالي لم يخلق لأحد من المهتدين الهدي ولا يتوقف ذلك علي خلقه. تعالي الله عما يقولون. ولما فطن الزمخشري لذلك جري علي عادته في نحريف الهدي من الله تعالي إلي اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه فأنصف من نفسك، واعرض قول القائل: المهتدي من اهتدي بنفسه من غير أن يهديه الله - أي يخلق له الهدي - علي قوله تعالي حكاية عن قول الموحدين في دار الحق: ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾.. وانظر تباين هذين القولين - أعني قول المعتزلي في الدنيا وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق - واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به. وما أراك - والخطاب لكل عاقل - تعدل بهذا القول المحكي عن أولياء الله في دار السلام منوهاً به في الكتاب العزيز، قول قدري ضال تذبذب مع هواه وتعصبه في دار الغرور والزوال نسأل الله حسن المآب والمآل» (٢).

● **خصومة العقيدة بين الزمخشري وأهل السنة:**

ومن أجل هذا الخلاف العقيدي بين الزمخشري وأهل السنة، نجد الخصومة بينهم حادة عنيفة، كل يتهم خصمه بالزيغ والضلال، ويرميه بأوصاف يسلكه بها في قرن واحد مع الكفرة الفجرة، وتلك - علي ما أعتقد - مبالغة مسفة في الخصومة، ما كان ينبغي لأحد الخصمين أن يخوض فيها علي هذا الوجه. وبخاصة بعد ما عرف من أن كليهما يهدف إلي تنزيه الله عما لا يليق بكماله. وإليك بعض الحملات التي وجهها كل من الخصمين إلي الآخر، لتلمس بنفسك مبلغ هذه الخصومة وتحكم عليها.

---

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ١ / ٤٥١.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ١ / ٤٨٦.

* **حملة الزمخشري علي أهل السنة:**

هذا ... وإن المتتبع لما في الكشاف من الجدل المذهبي، ليجد أن الزمخشري قد مزجه في الغالب بشئ من المبالغة في السخرية والاستهزاء بأهل السنة، فهو لا يكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة، فتارة يسميهم المجبرة، وأخري يسميهم الحشوية، وثالثة يسميهم المشبهة، وأحياناً يسميهم القدرية، تلك التسمية التي أطلقها أهل السنة علي منكري القدر، فرماهم بها الزمخشري لأنهم يؤمنون بالقدر، كما جعل حديث الرسول الذي حكم فيه علي القدرية أنهم مجوس هذه الأمة منصباً عليهم وذلك حيث قال عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٧) من سورة فصلت: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ : «ولو لم يكن في القرآن حجة علي القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ - وكفي به شاهداً - إلا هذه الآية لكفي بها حجة» (١).

كما سماهم بهذا الاسم ورماهم بأنهم يحيون لياليهم في تحمل فاحشة ينسبونها إلي الله تعالي، حيث قال عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٩، ١٠) من سورة الشمس ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾: «وأما قول من زعم أن الضمير في (زكي) و (دسي) لله تعالي، وأن تأنيث الراجع إلي (من) لأنه في معني النفس، فمن تعكس القدرية الذين يوركون علي الله قدراً هو برئ منه ومتعال عنه، ويحيون لياليهم في تمحل الفاحشة يسبونها إليه) (٢)

والظاهرة العجيبة في خصومة الزمخشري، أنه يحرص كل الحرص علي أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلي ناحية مخالفيه في العقيدة من أهل السنة، ففي سورة آل عمران حيث يقول الله تعالي في الآية (١٠٥) ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ .. نجد الزمخشري بعد ما يعترف بأن الآية واردة في حق اليهود والنصاري، يجوز أن تكون واردة في حق مبتدعي هذه الأمة، وينص علي أنهم المشبهة، والمجبرة، والحشوية، وأشباههم (٣).

وفي سورة يونس حيث يقول الله تعالي في الآية (٣٩) : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾. يقول: «بل سارعوا إلي التكذيب بالقرآن وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا علي تأويله

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٢١.
(٢) الكشاف: ٢/ ٥٤٧.
(٣) الكشاف: ١/ ٣١٩.

ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم. ،وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ علي التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كان أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها في أول وهلة واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب »(١).

ولقد أظهر الزمخشري تعصباً قوياً للمعتزلة، إلي حد جعله يخرج خصومه السنيين من دين الله وهو الإسلام، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٨) من سورة آل عمران: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ** ﴾.. الآية « فإن قلت: ما المراد بـ(أولي العلم) الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة علي وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد - يريد أهل مذهبه - فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ - يعني في قوله: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران ١٩].. قلت: فائدته أن قوله ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ توحيد. وقوله: ﴿ **قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شئ من الدين وفيه أن من ذهب إلي تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلي الجبر الذي هو محض الجبر، لم يكن علي دين الله الذي هو الإسلام.، وهذا بين جلي كما تري »(٢).

هذه بعض الأمثلة التي يتجلي فيها تعصب الزمخشري لمذهبه الاعتزالي وانتصاره له. ويتضح منها مبلغ إيغاله في الخصومة،ومقدار حملته علي أهل السنة، وهناك غيرها كثير ممأثار عليه خصومه من السنيين، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد، وردوا بشكل حاسم علي ما أورده في كشافه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنها جافة وقائمة علي الرأي الطليق.

ومع ذلك لم يجحدوا ما كان للزمخشري من أثر محمود في التفسير، فنراهم - علي ما بينهم وبينه من خصومة، ورغم ما سيمر بك من حملاتهم عليه - يقدرون إلي حد بعيد ما كان له من مجهود خاص في عمله التفسيري الذي يرجع إلي الناحية البلاغية واللغوية، كما نراهم في الغالب يسطون علي كتابه ويأخذون منه ما يعجبون به ويرون أنه عزيز المنال إلا علي الزمخشري.

---

(١) الكشاف: ١/ ٥٨٢.

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٧.

● **حملة ابن القيم علي الزمخشري:**

فهذا هو العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور علي الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي.

فمثلاً نراه يذكر ما فسر به الزمخشري قوله تعالي في الآية (١٧٦) من سورة الأعراف: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾.. ثم يقول: «فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً» (١).

● **حملة ابن المنير علي الزمخشري:**

ومن الذين خصصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضي الإسكندرية، أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف) ناقش فيها الزمخشري وجادله في بعض ما جاء في كشافه من أعاريب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم في بيان ما تضمنه من الاعتزال، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشري وتتفق مع هواه.

ويظهر أن القاضي المالكي كان يميل بوجه عام إلي الجدال والنقاش، فقد قيل: إنه كان بصدد أن يرد علي كتب الإمام الغزالي، تلك الكتب التي لم تكن مقبولة عند المالكية، ولم يصرفه عن قصده إلا أمه التي لم يطب خاطرها بهذه الحرب التي يثيرها ابنها ضد الموتي كما أثارها ضد الأحياء (٢).

ولكنه مع ذلك فعل هذا مع الزمخشري، واعتقد أنه بعمله هذا قد ثأر لأهل السنة من أهل البدعة، وقد صرح بذلك حيث توجه باللوم للزمخشري علي تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة آل عمران: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾.

فقال: «فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقا، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلي التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة» (٣).

كما اعتقد أنه أدي للمسلمين وللإسلام خدمة عظيمة، كافية لأن تقوم له عذرا أمام الله وأمام الناس عن تخلفه عن الخروج للغزو والجهاد في سبيل الله وذلك حيث يقول بعد تعقيبه علي الزمخشري في تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٢٢) من سورة

---

(١) إعلام الموقعين: ١ / ٢٠٢. (٢) بغية الوعاة: ص ١٦٨.
(٣) الانتصاف (هامش الكشاف) ١ / ٢٩٩.

التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .. قال أحمد: ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذرا إلا صرف الهمة لتحرير هذا المصنف، فإني تفقهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز، مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه. بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم »(١).

وابن المنير – مع شدة خصومته للزمخشري – لا ينسي ما له من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابه به، لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة التي تنادي بأنه ليس من كلام البشر.. وكثيراً ما يعترف – بتقدير كبير وفي عدالة واعتدال – بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية. فمثلاً عندما تعقب تفسيره لقوله تعالي في الآية (٩١) من سورة الأنعام ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .. نجده يقول: «وهذا أيضا من دقة نظره في الكتاب العزيز والعمق في آثار معادنه وإبراز محاسنه» (٢).

وفي سورة يونس عند قوله تعالي في الآية (١١): ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ ﴾ .. الآية، نجده يثني علي تفسيره لها فيقول: (وهذا أيضا من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم علي دقة نظره» (٣).

وفي سورة هود عند قوله تعالي في الآية (٩١): ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ .. أثني علي تفسيره لقوله ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ فقال: «وهذا من محاسن نكته الدالة علي أنه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان» (٤).

وعندما بين الزمخشري سر التعبير بقوله تعالي في الآية (٥١) من سورة النحل: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ . قال ابن المنير معترفا بدقة الزمخشري وبراعته: «وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها» (٥).

ومع كل هذا الاعتراف، فإن ابن المنير يلاحظ علي الزمخشري – أحيانا أنه سئ

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/ ٥٧٢.
(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/ ٤٦٠، طبع الأميرية سنة١٩١٨.
(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/ ٥٧٦.
(٤) الانتصاف(هامش الكشاف): ١/ ٦١١.
(٥) الانتصاف(هامش الكشاف): ١/ ٦٨٦.

النية فيما يقول، فمن ذلك أن الزمخشري لما تكلم عن قوله تعالي في الآية (٣٣) من سورة الرعد: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ وختم تفسيره للآية بقوله: « وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، مناد علي نفسه بلسان طلق ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه فتبارك الله أحسن الخالقين» لما قال الزمخشري هذه المقالة، لم يتركها ابن المنير تمر بدون أن ينبه علي ما فيها فقال: « هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلاً، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها. وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر علي لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ» (١).

وفي الوقت تفسه لم يترك ابن المنير فرصة تمر بدون أن يكيل للزمخشري بمثل كيله من الإقذاع في القول والسخرية به وبأمثاله من المعتزلة، فنراه يرد هجمات الزمخشري التي يشنها علي أهل السنة بعبارات شديدة يوجهها إلي الزمخشرى وأصحابه، مع تحقيره له ولهم، واستبشاعه لتفسيره وتفسيرهم.

فمثلاً في سورة آل عمران تكلم الزمخشري عن قوله تعالي في الآية (١٨) ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .. الآية، ونوه بأنه وأصحابه أهل العدل والتوحيد، وإنهم أولوا العلم المرادون بالآية، وصرح – أو كاد – بخروج أهل السنة من ملة الإسلام. عندما تكلم الزمخشري بهذا كله عقب عليه ابن المنير بتهكمه اللاذع، وسخريته الفاضحة فقال: « وهذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام، بل تصريح، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين علي لسان نبيهم الكريم ﷺ بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو، واقتصروا علي أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم، لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية. وتلك هي المعبر عنه شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالي: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشوري: ٣٠].

هذا إيمان القومن وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم بما شاءوا من أفعال علي خلاف مشيئة ربهم، محاذاة ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/٦٥٥.

أنفسهم: أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقي، والجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين.

ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلي جهالة القدرية وضلالها لا نبعثت إلي حدائق السنة وظلالها، ولخرجت من مزالق البدع ومزالها - ولكن كره الله انبعاثهم - ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن، وأولي بالدخول في أولي العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم علي اسم الله عز وجل»(١).

وفي سورة المائدة عند قوله تعالي في الآية (٤١) ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.. الآية نراه يمعن في السخرية من المعتزلة، ويغرق في النكير علي تفسير الزمخشري لهذه الآية. وذلك حيث يقول: «كم يتلجلج والحق أبلج. هذه الآية - كما تراها - منطبقة علي عقيدة أهل السنة في أن الله تعالي أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهرقلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالي ما أراد الفتنة من أحد، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب، وأن الواقع من الفتن علي خلاف إرادته، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع، فحسبهم هذه الآية وأمثالها - لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله: لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيه ولا تنفع، فلطف من ينفع؟ وإرادة من تنجع؟ وليس وراء الله للمرء مطمع»(٢).

ولقد يتطرف ابن المنير فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك، ففي سورة يونس عند تفسير الزمخشري لقوله تعالي في الآية (٣١) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية، نري ابن المنير يقول: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية، الزاعمين أن الأرزاق منقسمة فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وإنا لنري ابن المنير يعتمد في حملاته الساخرة القاسية التي يحملها علي الزمخشري علي ما يعتمد عليه الزمخشري في حملاته علي أهل السنة، أو علي

---

(١) الانتصاف (هامش الكشالف): ١/ ٢٩٨.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف) ١/ ٤١٦.

(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/ ٥٨١ - والآية من سورة يونس: ٤٢.

الأصح يأخذ من كلام الزمخشري نفسه ما يبرر به موقفه الذي وقفه منه للرد علي اعتزالاته،فحيث يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالي في الآية (٧٣) من سورة التوبة: ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾: «﴿ **جاهد الكفار** ﴾ بالسيف ﴿ **والمنافقين** ﴾ بالحجة ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ في الجهادين جميعاً ولا تحابهم. وكل من وقف منه علي فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن». (١)، عندما يقول الزمخشري هذا، ويرمي من ورائه إلي أن الآية شاملة لخصومه من أهل السنة، نري ابن المنير يستغل هذا الكلام لنفسه ويقلبه علي خصمه المعتزلي فيقول: «الحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحيانا»(٢).

وقد تبدو علي ابن المنير علائم البشر، وتأخذه نشوة الفرح والسرور عندما يري أن الزمخشري قد ابتعد عن متطرفي المعتزلة، وخالفهم في بعض آرائهم، وأخذ برأي أهل السنة ومثل هذا نراه واضحاً عندما فسر الزمخشري قوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة آل عمران: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ .. حيث قال في تفسير هذه الآية: «فإن قلت: كيف اتصل به - أي بقوله: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ - ﴿ **وإنما توفون أجوركم** ﴾ .. قلت: اتصاله به علي أن كلكم تموتون، ولابد لكم من الموت ولا توفون أجوركم علي طاعاتكم ومعاصيكم عقب موتكم وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروي أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم، لأن المعني أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور» (٣).

وهنا نري ابن المنير يعترف بأن الزمخشري قد أحسن في مخالفته لأصحابه من المعتزلة، وموافقته لأهل السنة، فيقول: «هذا كما تري - صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به» (٤).

● **موقف الزمخشري من المسائل الفقهية:**

هذا.. وإن الزمخشري - رحمه الله - يتعرض إلي حد ما، وبدون توسع إلي المسائل الفقهية التي تتعلق ببعض الآيات القرآنية، وهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفي.

---

(١) الكشاف: ١ / ٥١٦.
(٢) الانتصاف (هامش الكشاف) ١ / ٥٦١.
(٣) الكشاف ١ / ٣٣٩.
(٤) الانتصاف (هامش الكشاف): ١ / ٢٣٩.

ففي سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (٢٢٢): ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .. يقول: « ... وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروي محمد حديث عائشة رضي الله عنها: أن عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها علي سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء، وما روي زيد بن أسلم أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بإعلاها» ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «يجتنب شعار الدم وله ما سوي ذلك» وقرئ (يطهّرن) بالتشديد، أي يتطهرن بدليل قوله: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾.. وقرأ عبد الله: (حتي يتطهَّرن) و(يطْهرن) بالتخفيف. والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض وكلتا القراءتين مما يجب العمل به، فذهب أبو حنيفة إلي أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل وفي أقل الحيض لا يقربها حتي تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلي أنه لا يقربها حتي تطْهر وتطَّهر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح، ويعضده قوله: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ (١).

وعندما فسّر قوله تعالي في الآية (٢٣٧) من سورة البقرة: ﴿ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾.. قال: «والذي بيده عقدة النكاح الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئا.

أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل هو الزوج وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة»(٢).

وفي سورة الطلاق عند قوله تعالي في الآية (١): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ .. يقول ما نصه« فطلقوهن مستقبلات لعدتهن، كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي مستقبلاً لها. وفي قراءة رسول الله ﷺ: «في قبل عدتهم» و إذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها.

والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه، ثم يخلين حتي تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق، وأدخله في السنة، وأبعده من الندم، ويدل عليه ما روي عن إبراهيم

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٦٤.

(٢) الكشاف: ١/ ٢٧٢.

النخعي: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتي تنقضي العدة، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد علي الواحدة في طهر واحد، فأما مفرقاً في الأطهار فلا، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حيث طلق امرأته وهي حائض: «ما هكذا أمرك الله، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً، وتطلقها لكل قرء تطليقة». وروي أنه قال لعمر: «مر ابنك فليراجعها، ثم ليدعها حتي تحيض ثم تطهر، ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء».

وعند الشافعي رضي الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة، وهو مباح.

فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت. وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت. والشافعي يراعي الوقت وحده» (١).

● **موقف الزمخشري من الإسرائيليات:**

ثم إن الزمخشري مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ (روي) المشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة وأما أن يفوض علمه إلي الله سبحانه، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين، وأما أن ينبه علي درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ** ﴾. الآية، نجده يذكر هذه الرواية فيقول: «روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهم الأساور والأطواق والقرطة، راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية علي رماك في زي الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً ثم قالت للمنذر

---

(١) الكشاف: ٢ / ٤٦٦.

للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولنك، وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره علي اللبن، وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير فأقيموا علي اليمين واليسار، ثم قعد علي سريره ،والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ، والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث علي اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال :ما وراءكم؟ وقال: أين الحق؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه، فقال لهم: إن فيه كذا ،وكذا، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها فجعل رزقها في الشجرة، وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها في الفواكه، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخري ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم قالت: هو نبي وما لنا به طاقة، فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف» (١).

وفي سورة القصص عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٨) ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا** ﴾ .. الآية، قال:« روي أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتي اجتمع خمسون ألف بناء سوي الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيده حتي بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان الباني لا يقدر أن يقوم علي رأسه يبني، فبعث الله تعالي جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة علي عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك . ويروي في هذه القصة أن فرعون ارتقي فوقه فرمي بنشابه إلي السماء، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسي، فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه، والله أعلم بصحته» (٢).

فالقصة الأولي: صدرها الزمخشري بلفظ -(روي) المشعر بضعفها والقصة الثانية صدرها أيضا بهذا اللفظ وعقب عليها بقوله: (والله أعلم بصحته) مما يدل علي أنه متشكك في صحة هذه الرواية. وكلتا القصتين علي فرض صحتهما لا مطعن فيهما

---

(١) الكشاف :٢ / ١٤٤ .

(٢) الكشاف :٢ / ١٦٢ .

ولا مغمز من ورائها يلحق الدين، ولهذا اكتفي الزمخشري بما ذكر في حكمه عليهما.

وفي سورة (ص) عند تفسيره لقوله تعالي: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ** ﴾.. الآيات (٢١) وما بعدها إلي آخر القصة نراه يقول: «كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها – وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك – فاتفق أن عين داود وقعت علي امرأة رجل يقال له(أوريا) فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل ، فتزوجها – وهي أم سليمان – فقيل له: إنك مع عظيم منزلتك، وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك، وكثرة نسائك ، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر علي ما امتحنت به. وقيل: خطبها (أوريا) ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب علي خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

وأما ما يذكر أن داود عليه السلام، تمني منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يارب؛ إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحي إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها، قد ابتلي إبراهيم بنمروذ وذبح ولده، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن علي يوسف، فسأل الابتلاء. فأوحي الله إليه: إنك لمبتلي في يوم كذا وكذا فاحترس، فلما حان ذلك اليوم، دخل محرابه،وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاء الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت ، فامتد إليها فطارت ،فوقعت في كوة فتتبعها، فأبصر امرأة جميلة قد نفضت شعرها فغطي بدنها، وهي امرأة أوريا، وهو من غزاة البلقاء فكتب إلي أيوب بن صوريا – وهو صاحب بعث البلقاء – أن ابعث أوريا وقدمه علي التابوت – وكان من يتقدم لا يحل له أن يرجع حتي يفتح الله علي يده أو يستشهد – ففتح الله علي يده وسلم، فأمر برده مرة أخري وثالثة حتي قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما يحزن علي الشهداء، وتزوج امرأته فهذا ونحوه ، مما لا يصح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود علي ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية علي الأنبياء. وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة علي ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها. وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كان كما ذكرت وكف الله عنها ستراً علي نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه،

فقال عمر: سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلي زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب ». (١)

فأنت تري أن الزمخشري يرتضي قصة النزول عن الزوجة، وقصة الخطبة علي الخطبة، ولا يري في ذلك إخلالاً بعصمة داود، ولا مساساً بمقام النبوة، ويمثل قصة النزول بما كان من تنازل الأنصار للمهاجرين عن أزواجهم في مبدأ الهجرة، ويروي أن الآية تدل علي ذلك، ولكنه يستنكر القصة الأخيرة ويذكر من الأخبار ما يؤكد استبعادها، وذلك لأنه يري فيها – لو صحت – إخلالاً بمقام النبوة، وهدماً لعصمة نبي الله داود عليه السلام.

كذلك نري الزمخشري في السورة نفسها عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٤) : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾.. يقول: « قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، وكان من فتنته: أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم فكان يغذوه في السحاب، فما راعه إلا أن ألقي علي كرسيه ميتاً، فتنبه علي خطئه في أن لم يتوكل فيه علي ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروي عن النبي ﷺ « قال سليمان: لأطوفن الليلة علي سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله – ولم يقل إن شاء الله – فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون ». فذلك قوله تعالي: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ** ﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به.

وأما ما يروي من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته، حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون، وهي مدينة في بعض الجزائر، وأن بها ملكا عظيم الشأن لا يقوي عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتي أناخ بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها، وأصاب بنتاً له اسمها (جرادة) من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه.. وأسلمت، وأحبها. وكانت لا يرقأ دمعها علي أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها، يسجدن له كعادتهن في ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلي فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا إلي الله متضرعاً. وكانت له أم ولد يقال لها (أمينة) إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع

---

(١) الكشاف: ٢ / ٢٧٩، ٢٨٠.

خاتمه عندها – وكان ملكه في خاتمه – فوضعه عندما يوماً، وأتاها الشيطان صاحب البحر – وهو الذي دل سليمان علي الماس حين أمر ببناء بيت المقدس، واسمه (صخر) علي صورة سليمان فقال: يا أمينة، خاتمي فتختم به وجلس علي كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان من هيئته، فأتي أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته.، فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور علي البيوت يتكفف، فإذا قال أنا سليمان، حثوا عليه التراب وسبوه، ثم عمد إلي السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث علي ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان. وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة، وقيل: بل نفذ حكمه في كل شئ إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم. فتختم به ووقع ساجداً ،ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لـ(صخر) فجعله فيها، وسد عليه بأخري ثم أوثقها بالحديد والرصاص وقذفه في البحر. وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك. والخاتم لا يقر في يدك، فتب إلي الله عز وجل. ولقد أبي العلماء المتقنون قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من فعل الأفاعيل وتسليط الله إياهم علي عباده حتي يقعوا في تغيير الأحكام، وعلي نساء الأنبياء حتي يفجروا بهن قبيح. وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع، ألا تري إلي قوله: ﴿ **من محاريب وتماثيل** ﴾ [سبأ :١٣]. . وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه، وإذا كان بغير علمه فلا عليه » [١].

وجلي أن الزمخشري قد صرح بجواز الروايتين (الأولي والثانية) ورأي أنه لا بأس من وقوع إحداهما، ولكنه فند الرواية الأخيرة – رواية صخر المارد –وبين أنها تذهب بعصمة الأنبياء ولا تتفق وقواعد الشريعة.

... وهكذا لم يقع الزمخشري فيما وقع فيه غيره من المفسرين من الاغترار بالقصص الإسرائيلي والأخبار المختلقة المصنوعة [٢] وهذه محمدة أخري لهذا المفسر الكبير تحمَد له ويُشكر عليها.

وبعد .. فهذه الكتب الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن، وأمالي الشريف المرتضي، وكشاف الزمخشري ، هي كل ما وصل إلي أيدينا من تراث المعتزلة ومؤلفاتهم في التفسير، وهي وإن كانت قليلة بالنسبة لما لم تنله أيدينا من تفاسير المعتزلة ، يمكن أن تكون تعويضاً مقبولا إلي حد كبير عن التفاسير التي طوتها يد النسيان، وأدرجتها

---

(١) الكشاف:٢ / ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) وإن كان قد اغتر بالأحاديث الموضوعة في فضائل السور فضمنها تفسيره.

في غضون الزمن السحيق، وهي بعد ذلك تعتبر أثراً خالداً ومهماً ، لا في تاريخ التفسير الاعتزالي فقط، بل فيه، وفي تاريخ الأدب العربي، كذلك، لما تشتمل عليه من بحوث أدبية قيمة، تلقي لنا ضوءاً علي ما كان بين الأدب والتفسير من تأثر كل منهما بالآخر وتأثيره فيه، والله أعلم.

* * *

انتهي - بحمد الله - الجزء الأول ، ويليه - بعون الله - الجزء الثانى وأوله: (الشيعة، وموقفهم من تفسير القرآن الكريم) .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني : المرحلة الثانية

(التفسير في عصر التابعين)

(٧٥ - ١٠٢).

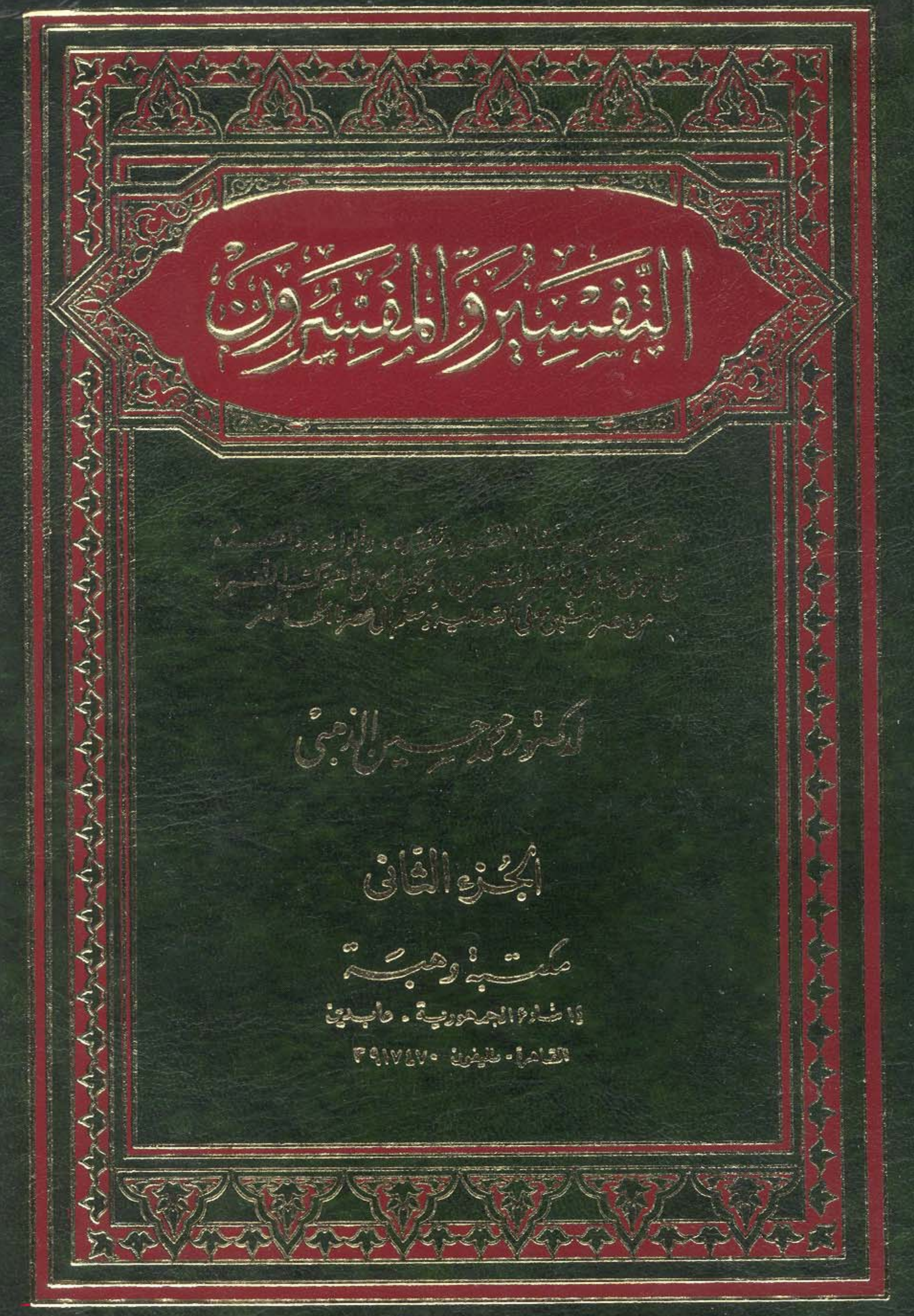
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب : ٥٧٣٧ / ٩٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 977 - 225 - 078 - 0

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥٤١


التفسير والمفسرون
للدكتور محمد حسين الذهبي
الجزء الثاني
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره . وألوانه ومذاهبه .
مع عرض شامل لأشهر المفسرين . وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

تأليف
الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾

« صدق الله العظيم »

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة فى الأصل، هم الذين شايعوا عليًا وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن عليًا هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهى لا تخرج عنه فى حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين:

أحدهما: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه.

ثانيهما: أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر، تقيَّة منه، ودرءًا للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعى، من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه [1]، ثم نما واتسع على عهد علىّ رضى الله عنه، إذ كان كلما اختلط - رضى الله عنه - بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، مما يظهر لهم من قوة دينه، ومكنون علمه، وعظيم مواهبه، فاستغل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بنى أمية وفيه وقعت المظالم على العلويين، ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن المحبة لهم، وحرّكت دفين الشفقة عليهم، ورأى الناس فى علىّ وذُرِّيته شهداء هذا الظلم الأموى، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى وكثر أنصاره. ويظهر لنا أن هذا الحب لعلىّ وأهل بيته، وتفضيلهم على مَن سواهم، ليس بالأمر الذى جَدَّ وحدث بعد عصر الصحابة، بل وُجِدَ من الصحابة مَن كان يحب عليًا ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة، وأنه أولى بالخلافة من غيره، كعمَّار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وجابر بن عبد الله .. وغيرهم كثير.

غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليًا رضى الله عنه، لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لا بد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذى تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تُفوَّض إلى نظر الأُمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأُمة، بل يجب

---

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن عليًا رضى الله عنه، هو الذى عيَّنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه» (١).

لم يكن الشيعة جميعًا متفقين فى المذهب، والعقيدة، بل تفرّقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فِرَق عدّة، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلى عاملين قويين، كان لهما كل الأثر تقريبًا فى تعدد فِرَق الشيعة وتفرق مذاهبهم.

أولهما: اختلافهم فى المبادئ والتعاليم، فمنهم مَن تغالى فى تشيعه وتطرّف فيه إلى حد جعله يلقى على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرمى كل مَن خالف عليًا وحزبه بالكفر. ومنهم من اعتدل فى تشيعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم، ولكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر.

وثانيهما: الاختلاف فى تعيين الأئمة، وذلك أنهم اتفقوا جميعًا على إمامة علىّ رضى الله عنه، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه. ولما قُتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين رضى الله عنه:

ففريق يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن علىّ، المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها.

وفريق ثان: يرى حصر الإمامة فى ولد علىّ من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقًا لأولاد الحسن، لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر بها غير أولاده، وهم ينتظرون كبيرهم ليبايعوا أرشدهم.

وفريق ثالث: يرى ما يراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد علىّ من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول: إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حق أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقًا لأولاد الحسين الذى قُتل من أجلها فهم أولى بالانتظار.

بلغ عدد الفِرَق التي انقسم إليها الشيعة حدًا كبيرًا من الكثرة، منها مَن تغالى فى تشيعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها مَن اعتدل فى تشيعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنى سأقتصر على فرقتين هما: الزيدية، والإمامية «الإثنا عشرية»، والإسماعيلية» لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

● **الزيديـــة**:

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن علىّ بن الحسين رضى الله عنهم، طمحت نفسه إلى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨.

استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرَّقوا عنه فقُتل وصُلب، ثم أُحرق جسده. وقد ورد فى سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له «أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف ابن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فقال زيد: أثنى عليهما جدى علىّ، وقال فيهما حسناً، وإنما خروجى على بنى أُمية، فإنهم قاتلوا جدى علياً، وقتلوا جدى حسيناً، فخرجوا عليه ورفضوه، فسُمُّوا رافضة بذلك السبب» (١).

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذ أنها لم تغل فى معتقداتها، ولم يُكَفِّر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

● **قوام مذهب الزيدية:**

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ما قبل طروء التغير عليه والتفرق بين أصحابه، هو ما يأتى:

١ - أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هى: كونه فاطمياً، ورعاً، سخياً، يخرج داعياً الناس لنفسه.

٢ - أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود مَن هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه.

وبنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولى الحل والعقد على إمام تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود مَن تتوفر فيه صحَّت إمامته، ولزمت بَيْعته، ولهذا قالوا بصحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قُطْرين مختلفين لا فى قُطْر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مُخَلَّد فى النار، وهذا هو عَيْن مذهب المعتزلة. ويظهر أن هذه العقيدة تسرَّبت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم. والسر فى ذلك هو أن زيداً رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية وقال بها (٢).

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمناً طويلاً، بل تفرَّقوا واختلفت عقائدهم. وقد ذكر لنا صاحب «المواقف» أنهم تفرَّقوا إلى ثلاث فِرَق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها (٣)، ولا نطيل بذكر ذلك. ومَن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه فى موضعه.

● **الإمامية (٤):**

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبى ﷺ نص على إمامة علىّ رضى الله عنه نصاً

---

(١) التبصير فى الدين ص ١٨. (٢) الملل والنحل للشهرستانى: ٢ / ٢٠٨.

(٣) المواقف: ٨ / ١٠.

(٤) الإمامية: نسبة إلى الإمام لأنهم أكثروا من الاهتمام به، وركزوا كثيراً من تعاليمهم حوله.

ظاهراً، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد عليّ في ولده من فاطمة رضى الله عنها.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا فى تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفَّروا الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعليّ رضى الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسى صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية على إمامة عليّ رضى الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده، ثم إلى ابنه عليّ زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك فى سَوْق الإمامة، وانقسموا إلى فِرَق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية.

● الإمامية الاثنا عشرية:

أما الإمامية الإثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه عليّ الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه عليّ الهادى، ثم إلى ابنه الحسن العسكرى، ثم إلى ابنه محمد المهدى المنتظر وهو الإمام الثانى عشر، ويزعمون أنه دخل سردابا في دار أبيه بـ« سرَّ مَن رأي » ولم يعد بعد، وأنه سيخرج فى آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلاً وأمناً، كما مُلئت ظلماً وخوفاً.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد فى تقديسهم للأئمة، فزعموا: أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. وقالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن مَن مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة فى الأئمة.

● أشهر تعاليم الإمامية الاثنا عشرية:

وأشهرتعاليم الإمامية الإثنا عشرية أمور أربعة: العصمة، والمهدية، والرجعة. والتقية.

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر فى كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شئ من الخطأ والنسيان.

وأما المهدية: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذى يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض أمناً وعدلا، بعد أن مُلئت خوفاً وجوراً. وأول مَن قال بهذا هو « كيسان » مولى عليّ ابن أبى طالب فى محمد ابن الحنفية. ثم تسربَّت إلى طوائف الإمامية، فكان لكل منها مهدى منتظر (١).

---

(١) وردت بعض الأحاديث فى شأن المهدى، رواها الترمذى وأبو داود وابن ماجه وغيرهم كقوله عليه السلام: « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك حتى يبعث فيه رجلاً منى - أو من أهل بيتى - يواطئ اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى،ومثل قوله: « لو لم يبق إلا يوم،لبعث الله=

وأما الرجعة: فهى عقيدة لازمة لفكرة المهدية، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدى المنتظر، يرجع النبى ﷺ إلى الدنيا، ويرجع علىّ، والحسن، والحسين، بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبى بكر وعمر، فيُقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعاً، ثم يحيون يوم القيامة.

وأما التقيَّة: فمعناها المداراة والمصانعة، وهى مبدأ أساسى عندهم، وجزء من الدين يكتمونه عن الناس، فهى نظام سرى يسيرون على تعاليمه، فيدعون فى الخفاء لإمامهم المختفى ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هى أهم تعاليم الإمامية الإثنا عشرية، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تُسلَّم لهم، ولا تُثبت مدعاهم. ونحن نمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شئ من ذلك.

● **الإمامية الإسماعيلية**:

وأما الإمامية الإسماعيلية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، قالوا: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدى رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لُقِّبوا بسبعة ألقاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، وهذه الألقاب هى ما يأتى:

١ - الإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢ - الباطنية: لقولهم بالإمام الباطن أى المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهراً وباطناً والمراد منه باطنه دون ظاهره.

٣ - القرامطة: لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له «حمدان قرمط» (١).

٤ - الحرمية: لإباحتهم المحرَّمات والمحارم.

= رجلاً من أهل بيتى يملؤها عدلاً كما ملئت جَوْراً» وقد وقع بين المسلمين خلاف فى شأن المهدى هذا، فمنهم مَن يقول به، ومنهم مَن ينكره، ولكن لم نر من المسلمين مَن ذهب مذهب الإمامية فى تعيين المهدى ودعواهم أنه الإمام الثانى عشر الذى اختفى حيًا وسيعود فى آخر الزمان.

(١) قرمط: قرية من قرى واسط، أو نسبة لقرمطة فى خطوه - وقيل: فى خطه، وقرمطة الخُطا تتابعها.

٥ – السبعية: أنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدى المنتظر سابع النطقاء، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد فى كل عصر من سبعة بهم يُقتدى وبهم يُهتدى.

٦ – البابكية أو الخرمية: لاتباع طائفة منهم «بابك الخرمى» الذى خرج بأذربيجان.

٧ – المحمرة: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً [١].

هذا وسيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية، عندما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم.

وقبل أن أخلص من هذه العُجَالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبى المظفر الإسفراينى فى كتابه «التبصير فى الدين» قال رحمه الله:

«واعلم أن الزيدية، والإمامية منهم، يُكَفِّر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يُعَدون فى الإمامية. واعلم أن جميع مَن ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة، ويدَّعون أن القرآن قد غُيِّر عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قَبَل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة علىّ فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد علي القرآن الآن ولا علي شئ من الأخبار المروّية عن المصطفي ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التى فى أيدى المسلمين، وينتظرون إماماً يسمونه «المهدى» يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا على شئ من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام فى الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا فى استحلال المحرَّمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شئ من الدين» [٢].

● موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم:

إذا نحن أجلنا النظر فى مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام فى الرأى والعقيدة. فبينا نجد الغلاة الذين رفعوا علياً إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون علياً أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق

---

(١) المواقف: ٨ / ٣٨٨ – ٣٨٩.

(٢) التبصير فى الدين ص ٢٤، ٢٥ وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

بالولاية وأولى بها من غيره فحسب، ونجد من يقف موقفًا وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤلِّه عليًا، ولا هو يرى أنه بشر يُخطئ ويُصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ غير منازع ولا مدافع وإن غُلب على أمره واغتُصِبَت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرَّقت بهم الأهواء - كما قلنا - إلى حد الكثرة فى التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعيًا - وكل حزب من هذه الأحزاب يَدَّعى الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة - أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلاً على مذهبه تمسك به، وأخذ فى إقامة مذهبه على دعامة منه. وما وجده مخالفًا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقًا لا مخالفًا، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآنى عن معناه الذى وُضِعَ له وسِيقَ من أجله. وإليك طرفًا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

● **من تأويلات السبئية** (١):

فمثلا نجد بعض السبئية يزعم أن عليًا فى السحاب، وعلى هذا يُفسِّرون الرعد بأنه صوت علىّ، والبرق بأنه لمعان سَوْطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمداً ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأوَّل على ذلك قوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة القصص: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ (٢).

● **من تأويلات البيانية**:

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمى زعيم البيانية (٣)، يزعم أنه هو المذكور فى

---

(١) السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالإسلام وغلا فى حب علىّ حتى جعله نبيًا، ثم بالغ فى الغلو حتى جعله إلهًا. وزعم أنه لم يُقتل ولكنه رُفع إلى السماء.

(٢) الفَرْق بين الفرَق للبغدادى ص ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبى زهرة ص ١٢٨.

(٣) البيانية هم أتباع بيان بن سمعان التميمى، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبى هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه. واختلف هؤلاء فى «بيان - زعيمهم - فمنهم مَن زعم أنه كان نبيًا، وأنه=

القرآن بقوله تعالى فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران : ﴿ **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ .. ويقول : أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفنى كله غير وجهه، ويتأوَّل على زعمه هذا قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة القصص : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ .. وقوله فى الآيتين (٢٦ – ٢٧) من سورة الرحمن : ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** ... ﴾ [١].

● **من تأويلات المغيرية :**

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية [٢] يقول : إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالَم تكلَّم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجًا على رأسه، وتأوَّل على ذلك قوله تعالى فى الآية الأولى من سورة الأعلى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى** ﴾ ... وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج [٣].

ويزعم المغيرة أيضًا : أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ . وقال : فذلك قوله فى الآية (٨١) من سورة الزخرف : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ .. قال : ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن عليّ بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس. فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نُصْرة علي ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به في الدنيا، وضمن له أن يعينه علي الغدر به، علي شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك. قال : فذلك تأويل قوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ .. فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر.

وتأوَّل فى عمر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة الحشر : ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ** ﴾ ... والشيطان عنده عمر [٤].

=نسخ شريعة محمد ﷺ . ومنهم من زعم أنه كان إلهًا. (انتهى من الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٢٧).

(١) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٢) المغيرية هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى، وكان يظهر فى بدء أمره موالاة الإمامية ثم ادعى النبوة. وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم، وزعم أنه يُحيى به الموتى ويهزم الجيوش (انتهى من الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٢٩).

(٣) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٢٩ .

(٤) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

● **من تأويلات المنصورية:**

وكذلك نجد أبا منصور العجلى زعيم المنصورية [١] والمعروف بـ « الكسْف »، يزعم أنه عُرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يا بنى بلِّغ عنى، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسْف الساقط من السماء المذكور فى قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة الطور: ﴿ **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ** ﴾ [٢] ..

وتأوَّلت هذه الطائفة الجنَّة بأنها رجل أُمرنا بموالاته وهو الإمام، والنار بالضد، أى رجل أُمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر، وتأوَّلوا الفرائض والمحرَّمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أُمرنا بموالاتهم، والمحرَّمات أسماء رجال أُمرنا بمعاداتهم [٣].

● **من تأويلات الخطابية:**

كذلك نجد من الخطابية [٤] مَن يتأوَّل الجنَّة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها آلامها [٥].

ووجدنا منهم مَن يقول: إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يُوحى إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأوَّلون قوله تعالى فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** ﴾ .. ويقولون: إن معناه: بوحى من الله، ويقولون: إذا جاز أن يُوحى إلى النحل كما ورد فى قوله تعالى فى الآية (٦٨) من سورة النحل: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾ .. لِمَ لا يجوز أنَ يُوحَى إلينا؟ [٦].

---

(١) المنصورية هم أتباع أبى منصور العجلى، الملقَّب بالكسْف، الذى زعم أن الإمامة دارت فى أولاد علىّ حتى انتهت إلى أبى جعفر بن علىّ بن الحسين بن علىّ المعروف بالباقر. وادعى هذا العجلى: أنه خليفة الباقر ثم ألحد فى دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل (انتهى من الفرْق بين الفرَق ص ٢٣٤).

(٢) الفرْق بين الفرَق ص ٢٣٤ .

(٣) المواقف: ٨ / ٣٨٦ .

(٤) الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى وهم خمس فرَق، يقولون إن الإمامة كانت فى أولاد علىّ إلى أن انتهت إلى محمد الحبيب (آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق، ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يقول فى أيامه: إن أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفراً إله، فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدَّعى بعد ذلك الألوهية (انتهى من التبصير فى الدين ص ٧٣ - ٧٤).

(٥) المواقف: ٨ / ٣٨٦ .

(٦) التبصير فى الدين ص ٧٤ .

● **من تأويلات العبيدين:**

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبى يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعى المسمى المهدى، حين ملك إفريقيا واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره .. وكان أحدهما يسمى بـ «نصر الله»، والآخر يسمى بـ «الفتح» فكان يقول لهما: أنتما اللَّذان ذكركما الله فى كتابه فقال: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [النصر: ١] قالوا: وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى فبدَّل قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ .. بقوله: «كتامة خير أُمَّة أُخْرِجت للناس» (١).

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون فى صرف اللَّفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم، ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم بعملهم هذا يُحَمِّلون القرآن ما لا يحتمله، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان.

كذلك نجد الإمامية الإثنا عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم، وهؤلاء ليس لهم فى تفسيرهم المذهبى مستند صحيح يستندون إليه، ولا دليل سليم يعتمدون عليه، وإنما هى أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عشَّش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات!!

نعم .. يعتمد الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التى لا توجد إلا فى عقول أصحابها، فمن ذلك الذى يعتمدون عليه ما يأتى:

أولا: جمع القرآن الكريم وتأويله، وهو كتاب جمع فيه علىّ رضى الله عنه القرآن على ترتيب النزول (٢).

ثانيًا: كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعًا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالاً يخصه. ويعتقدون أنه الأصل لكل مَن كتب فى أنواع علوم القرآن، وهم يروون عن علىّ رضى الله عنه هذا الكتاب بطرق عدة، وهو فى أيديهم إلى اليوم، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعًا بالقطع الكبير الكامل، كل صفحة منها سبعة وعشرون سطرًا (٣).

---

(١) الموافق: ٣/٣٩٢.
(٢) أعيان الشيعة: ١/١٥٤.
(٣) المرجع السابق: ١/١٥٤ - ١٥٥.

ثالثًا: الجامعة وهى كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء رسول الله ﷺ وخط علىّ عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق فى عرض الجلد، جُمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعًا وعدها من مؤلفات علىّ باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه. قالوا: وفيها كل حلال وحرام، وكل شئ يحتاج الناس إليه حتى الأرش فى الخدش (١).

رابعا: الجفر، وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلى وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلى، وكتبه، وسماه «الجفر» باسم الجلد الذى كُتب فيه (٢)، لأن الجفر فى اللغة هو الصغير، وصار هذا الاسم عَلَمًا على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى، مروية عن جعفر الصادق.

وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرِف عَيْنه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نِعْمَ المستند من نفسه، أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات» (٣).

ويُعرِّف صاحب أعيان الشيعة «الجفر» بأنه كتاب أملاه رسول الله ﷺ على علىّ رضى الله عنه، ويذكر فى ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال، وحرام، وأحكام، وأُصول .. ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم، والإخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد (٤)، ثم ينكر على مَن يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، ويتمثل بقول أبى العلاء المعرِّى:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أروهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى أرته كل عامرة وقفر (٥)

خامسًا: مصحف فاطمة، جاء فى البصائر: «أن أبا عبد الله سأله بعض الأصحاب

---

(١) أعيان الشيعة: ١/١٦٦ - ١٦٨.
(٢) المعروف من كتب اللغة أن الجفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفى القاموس: الجفر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش.
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣.
(٤) أعيان الشيعة: ١/١٨٢.
(٥) المرجع السابق: ١/١٨٤.

عن مصحف فاطمة، فقال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يومًا، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويُحسن عزاءها على أبيها، ويُطيِّب نفسها، ويُخبرها عن أبيها ومكانه، ويُخبرها بما يكون بعدها فى ذُرِّيتها. وكان علىّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»[١].

هذه هى أهم الأشياء التى يستند إليها الإمامية الإثنا عشرية فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهى كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا فى عقول الشيعة.. وكيف يكون سائغًا ومقبولا أن ينبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل؟ لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول:

«وأعجب من هذا التفسير - يعنى تفسير المعتزلة - تفسير الروافض للقرآن، وما يدَّعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد العجلى، وكان رأس الزيدية فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرَّقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا: إمام، ومنهم ... طوائف سمَّته النبى المُطهَّرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... بَرئتُ إلى الرحمن ممن تجفَّرا
بَرئتُ إلى الرحمن من كان رافضا ... بصير بباب الكفر.. فى الدين أعورا
إذا كفَّ أهل الحق عن بدعة مضى ... عليها، وإن يمضوا على الحق قصرَّا
ولو قال: إن الفيل ضبٌّ لصدَّقوا ... ولو قال: زنجى تحوَّل أحمرا
وأخلف من بول البعير فإنه ... إذا هو للإقبال وُجِّه أدبرا
فقُبِّح أقوام رموه بفرية ... كما قال فى عيسى الفرَى مَن تنصرا[٢]

---

(١) نفس المرجع: ١/١٨.

(٢) هذا الذى ذكره ابن قتيبة عن هارون بن سعد العجلى، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هارون بن سعد العجلى وهو يرويه عن جعفر الصادق، ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول: إن هارون بن سعد العجلى، وكان رافضيًا مغاليًا أول أمره، وكان يروى هذا الجفر ويَصدِّق به ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر، وقال مقالته التى رواها ابن قتيبة بعد توبته، وهذا الذى ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام عن هارون ابن سعد العجلى (١١/٦) وخلاصته: إن هارون بن سعد العجلى - ويقال: الجعفى الكوفى الأعور - قال أحمد: روى عنه الناس.. وهو صالح. وروى عن ابن معين أنه قال: ليس به بأس، وذكره ابن حبان فى الثقات، وذكره أيضًا فى الضعفاء، قال: وكان غاليا في الرفض لا تحل عنه =

قال أبو محمد: وهو جلد جفر ادَّعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجه إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، فمن ذلك قولهم في قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦]: إنه الإمام ورث النبى ﷺ علمه. وقولهم فى قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة:٦٧]: إنها عائشة رضى الله عنها، وفى قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ [البقرة: ٧٣]: إنه طلحة والزبير. وقولهم فى الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .. والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص .. مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها.

وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعتُ بأكذب من بنى تميم، وزعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع، وأبو الفوارس نهشل

إنه فى رجال منهم .. قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت: بيت الله. وزرارة: الحِجْر، قيل: فمجاشع؟ قال: رمز .. جشعت بالماء. قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قبيس، قيل له: فنهشل؟ قال: نهشل .. أشده، وفكر ساعة ثم قال: نهشل: مصباح الكعبة، لأنه طويل أسود، فذلك نهشل.

وهم أكثر أهل البدع افترافًا ونحلاً، فمنهم قوم يقال لهم البيانية، يُنسبون إلى رجل يقال له «بيان»، قال لهم: إلىّ أشار الله تعالى إذ قال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وهم أول من قال بخلق القرآن. ومنهم المنصورية، أصحاب أبى منصور الكِسْف، وكان قال لأصحابه: فىَّ نزل قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ [الطور: ٤٤] .. ومنهم الخنَّاقون والشدَّاخون، ومنهم الغرَّابية، وهم الذين ذكروا أن عليًا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى ﷺ من الغراب بالغراب، فتغلط جبريل عليه السلام حيث بُعث إلى علىّ لشبهه به.

قال أبو محمد: ولا نعلم فى أهل البدع والأهواء أحداً ادَّعى الربوبية لبشر غيرهم، فإن عبد الله بن سبأ، ادَّعى الربوبية لعلىّ فأحرق علىٌّ أصحابه بالنار، وقد فى ذلك:

= الرواية بحال وروي عن ابن معين أيضا أنه قال: كان من غلاة الشيعة، وقال الساجى: كان يغلو فى الرفض، وحكى أبو العرب الصقلى عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعراً يدل على نزوعه عن الرفض (انتهى ملخصاً). ونزع عن الرفض معناه: رجع عنه، يقال: نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه، كما أفاده صاحب القاموس وغيره.

لما رأيت الأمر أمرًا منكرا أجججت نارى ودعوت قنبرا (١)

ولا نعلم أحدًا ادعى النبوة لنفسه غيرهم، فإن المختار بن أبى عبيد ادَّعى النبوة لنفسه، وقال: «إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدَّقه قوم واتبعوه، وهم الكيسانية» (٢).

هذا ولا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما بقى منها إلى اليوم ثلاث فِرَق، وهى: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية - وهم المسمون بالباطنية - والزيدية.

أما الإمامية الإثنا عشرية، فينتشرون اليوم فى بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام.

وأما الإسماعيلية، فينتشرون فى بلاد الهند، كما يوجدون فى نواح أخرى متفرقة، وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندى الإسماعيلى المعروف (٣).

وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

إذن .. فالأجدر بنا أن نمسك عن موقف هذه الفِرَق البائدة من تفسير القرآن، ما دامت قد بادت ولم يبق لها أثر، وما دمنا لم نقف لها على شئ فى التفسير أكثر من هذه النُبَذ المتفرقة التى وجدناها للبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة.

والذى يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك، هو تلك الفِرَق الثلاث التى لا تزال موجودة إلى اليوم، محتفظة بتعاليمها وآرائها. وسنبدأ أولا بالإمامية الإثنا عشرية، ثم الإمامية الإسماعيلية، ثم بالزيدية، فنقول وبالله التوفيق:

* * *

---

(١) قنبر هو مولى علىّ الذى تولى طرحهم فى النار.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ - ٨٨.

(٣) وهو من نسل الحسن بن الصبَّاح صاحب قلعة الموت، والحسن هذا من نسل علىّ بن أبى طالب (انتهى من ضحى الإسلام: ٣/ ٢٢٥).

١ - موقف الإمامية الإثنا عشرية من تفسير القرآن الكريم

للإمامية الإثنا عشرية معتقدات يدينون بها، وينفردون بها عمن عداهم من طوائف الشيعة. وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بد لهم - ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم، وأن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل.

● **موقفهم من الأئمة وأثر ذلك فى تفسيرهم:**

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يلقون على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرون أن الأئمة «أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحُجَّة الله البالغة على مَن فوق الأرض ومَن تحت الثرى» (١)، ويرون أن الإمامة «زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين» (٢).

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يُحكم عليه، وفوق الناس فى طينته وتصرفاته، فإنَّا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التى للأنبياء والرسل، وأنه مُشَرِّع ومُنفِّذ، وأن الله قد فوَّض النبى والإمام فى الدين، ويروون عن الصادق أنه قال: «إن الله خلق نبيه على أحسن أدب وأرشد عقل، ثم أدَّب نبيه فأحسن تأديبه فقال: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩] .. ثم أثنى الله عليه فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤]. ثم بعد ذلك فوَّض إليه دينه، فوَّض إليه التشريع فقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]، و﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠] .. الله فوَّض دينه إلى نبيه. ثم إن نبى الله فوَّض كل ذلك إلى علىّ وأولاده سلَّمتم وجحده الناس، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله، وما جعل الله لأحد فى خلاف أمرنا» (٣).

وحيث إن الله تعالى خلق النبى وكل إمام بعده على أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبى ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبى ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأُمة، فيفوِّض الله تعيين بعض الأُمور إلى رأى النبى ورأى الإمام، مثل الزيادة فى عدد ركعات الفرض، ومثل تعيين النوافل من

---

(١) ضحى الإسلام: ٣ / ٢١٥ نقلاً عن أصول الكافى ص ٩٣. (٢) المرجع السابق.
(٣) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٧.

الصلاة والصيام، وذلك إظهارا لكرامة النبى والإمام، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحى، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام، وله فى الشرع شواهد: حرَّم الله الخمر، وحرَّم النبى كل مسكر فأجازه الله، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد، فجعل النبى للجد السدس، وكان النبى يُبَشِّر ويُعطى الجنَّة على الله ويجيزه الله.

وأيضًا فوَّض الله للنبى والأئمة من بعده أُمور الخلق، وأُمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم، وواجب على الناس طاعتهم فى كل ذلك. قالوا: وهذا حق ثابت دلَّت الأخبار عليه.

وأيضًا فوَّضهم الله تعالى فى البيان، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها، ولهم أن يُبيِّنوا ولهم أن يسكنوا، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلى أى وجه شاءوا، تَقيَّة منهم وعلى حسب الأحوال والمصلحة. والتفويض بهذا المعنى يدَّعون أنه حق ثابت لهم، والأخبار ناطقة به وشاهدة عليه. يقول صاحب الكافى: «سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة فى كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة بأجوبة ثلاثة، واختلاف الأجوبة فى مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التَقيَّة وإما على سبيل التفويض» [1].

وهناك نوع آخر من التفويض يثبتونه للنبى والأئمة، ذلك هو أن النبى أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق فى كل واقعة، كما كان لصاحب موسى فى قصة الكهف، وكما وقع لذى القرنين [2].

ثم كان من توابع هذه العقيدة التى يعتقدونها فى أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، وقالوا بالمهدى المنتظر، وقالوا بالرجعة، وقالوا بالتَقيَّة، وهذه كلها عقائد، رسخت فى أذهانهم وتمكنت من عقولهم، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسَّروا القرآن وفقًا لهواهم، وفهموا نصوصه وتأوَّلوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوى .. وهذا تفسير بالرأى المذموم، تفسير مَن اعتقد أولاً، ثم فسَّر ثانيًا بعد أن اعتقد.

● **تأثر الإمامية الإثنا عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك فى تفسيرهم:**

هذا .. وإن الإمامية الإثنا عشرية لهم فى نصوص القرآن التى تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها، ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا فى مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذى كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٩.   (٢) المرجع السابق ص ٨٩.

المعتزلة، كما يظهر لنا جلياً أن هذا الارتباط فى التفكير شئ قديم غير جديد، فالحسن العسكرى، والشريف المرتضى، وأبو على الطبرسى، وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية فى تفاسيرهم التى بأيدينا، والتى تعرَّضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريباً، بل إننا نجد الشريف المرتضى فى أماليه يحاول محاولة جدية أن يجعل علياً رضى الله عنه معتزلياً أو رأس المعتزلة على الأصح، وقد تقدمت لنا مقالته التى عرضنا لها عند الكلام عن أماليه (١). وليس من شك فى أن هذه النظرات الاعتزالية كان لها أثر كبير فى تفسيرهم، وسنقف على شئ من ذلك إن شاء الله تعالى.

● **تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأُصولية فى تفاسيرهم:**

ثم إن الشيعة لهم فى الفقه وأُصوله آراء خالفوا بها مَن سواهم، فمثلاً نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهى: الكتاب، والسُّنَّة، والإجماع، ودليل العقل. أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد.

وأما السُّنَّة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضاً.

وأما الإجماع فليس حُجَّة بنفسه، وإنما يكون حُجَّة إذا دخل الإمام المعصوم فى المُجْمِعين، أو كان الإجماع كاشفاً عن رأيه فى المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر، فهو فى الحقيقة داخل فى الكتاب أو السُّنَّة.

وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس، ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسلة، لأن ذلك كله ليس حُجَّة عندهم (٢).

وفى الفقه لهم مخالفات يشذون بها، فمثلاً تراهم يقولون: إن فرض الرجْلين فى الوضوء هو المسح دون الغسل، ولا يجوِّزون المسح على الخفين، وجوَّزوا نكاح المتعة، وجوَّزوا أن تورث الأنبياء، ولهم مخالفات فى نظام الإرث، كإنكارهم للعول مثلاً ولهم مخالفات كثيرة غير ذلك فى مسائل الاجتهاد.

---

(١) يرى بعض العلماء أن أول مَن قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله، والحسن - ابنا محمد ابن الحنفية - وعن أبى هاشم أخذ واصل بن عطاء (مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠، ١١)، ويقول أبو الحسن الطرائفى الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ فى كتابه رد أهل الأهواء والبدع: «عندما بايع الحسن بن علىّ معاوية وسلَّم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب علىّ الحسن ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسمُّوا بذلك معتزلة» (انتهى من هامش تبيين كذب المفترى ص ١٠).

(٢) انظر أعيان الشيعة: ١/ ٤٧٧ - وقد مثَّل لدليل. العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. (انظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد علىّ تقى الحيدرى - طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠).

لهذا كان طبيعيًا أن يقف الإمامية الإثنا عشرية من الآيات التى تتعلق بالفقه وأصوله موقفًا فيه تعصب وتعسف، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم ومذاهبهم، كما كان طبيعيًا، أن يتأوَّلوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث. بل ووجدناهم أحيانًا يزيدون فى القرآن ما ليس منه ويدَّعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم فى اللجاج، وإغراق فى المخالفة والشذوذ . .

● احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الإثنا عشرية لم يجدوا فى القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم، فراحوا (أولاً) يدَّعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وبواطن كثيرة، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء فى ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالبواطن، وحجروا على العقول فمنعوا الناس من القول فى القرآن بغير سماع من أئمتهم.

وراحوا (ثانيًا) يدَّعون أن القرآن وارد كُلّه أو جُلّه فى أئمتهم ومواليهم، وفى أعدائهم ومخالفيهم كذلك.

وراحوا (ثالثًا) يدَّعون أن القرآن حُرِّف وبُدِّل عما كان عليه زمن النبى ﷺ، وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز عقائدهم وإيهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذى هو المنبع الأساسى والأول للدين.

وأعجب من هذا . . أنهم أخذوا يموِّهون على الناس، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله ﷺ وعلى أهل بيته، وطعنوا على الصحابة إلا نفرًا قليلاً منهم، ورموهم بكل نقيصة فى الدين، ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التى يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله ﷺ.

ويحسن بنا ألا نمر سراعًا على هذه النقط الأربع بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام والدعاوى. التى كان لها أكبر الأثر فى اتجاه التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، فنقول وبالله التوفيق:

١ - ظاهر القرآن وباطنه:

يقول الإمامية الإثنا عشرية: إنَّ القرآن له ظاهر وباطن. وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعد ما صح لدينا من الأحاديث التى تقرر هذا المبدأ فى التفسير [١]، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد. بل تجاوزوا إلى

---

(١) سيأتى بيان المراد بالباطن قريبًا، وسترى أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية.

القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطنًا، ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادَّعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه فى الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما.

● **حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه:**

ولقد كان من أثر هذا الرأى فى القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن يعقدوا صلة بين المعانى الظاهرة والمعانى الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما فى وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يُقرِّبوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمرًا سائغا مقبولاً. ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه، قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة محمد عليه السلام: ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ .. فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعانى الظاهرة والباطنة، حتى لا يكون مستبعداً إرادة الله لمعنى خاص حسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

● **حملهم الناس على التسليم بما يدَّعون من المعانى الباطنة للقرآن:**

وكأنِّى بالإمامية الإثنا عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه .. كأنِّى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفى فى حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الدينى، الذى يشبه الإرهاب الكَنَسى للعامة فى العصور المظلمة، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ولا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليه علم ذلك مفصَّلاً عن آل البيت، ويكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل. قالوا: ولا يجوز أن ينكر الباطن بحال، وعليه أن يُسَلِّمْ بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه، ولو أن إنسانًا آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعًا.

وحرصاً منهم على تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر فى نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معانى القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن،

اختص بها النبى ﷺ والأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله، لأن القرآن نزل فى بيتهم «وأهل البيت أدرى بما فى البيت». أما من عداهم من الناس فلا يرون أدنى شبهة فى قصور علمهم، وعدم إدراكه لكثير من معانى القرآن الظاهرة، فضلاً عن معانيه الباطنة، قالوا: ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول فى القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوَّزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت، واستمد علومه من أهل البيت حتى آنس من نفسه العلم والمعرفة.. جوَّزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له، لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم، وقد قيل: «سلمان منا آل البيت».

● **أثر التفسير الباطنى فى تلاعبهم بنصوص القرآن:**

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطنى للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطرباً بالغاً ومجالاً رحباً، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم العقيدة، فأخذوا يتصرَّفون فى القرآن كما يحبون، وعلى أى وجه يشتهون، بعد ما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم وسلَّموا بأفكارهم ومبادئهم.

فقالوا - مثلاً - إنَّ من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعانى الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث فى المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يُفرِّعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، وما يزينه فى أعينهم داعى العقيدة وسلطانها، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى فى الآية (١٩) من سورة الانشقاق: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾: إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل مَن كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكَّن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللَّفظ الذى يراد به العموم ظاهراً، كثيراً ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلاً لفظ «الكافرين» الذى يُراد به العموم، يقولون: هو فى الباطن مخصوص بمن كفر بولاية علىّ.

كما مكَّنهم أيضاً من أن يصرفوا الخطاب الذى هو موجَّه فى الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها، إلى مَن يصدق عليه الخطاب فى نظرهم من هذه الأُمة بحسب الباطن، فمثلاً قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأعراف: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾.. يقولون فيه: قوم موسى فى الباطن هم أهل الإسلام.

ولقد مكَّنهم أيضاً من أن يتركوا أحياناً المعنى الظاهر ويقولوا بالباطن وحده، كما فى قوله تعالى فى الآيتين (٧٤ - ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا**

نَصِيراً ﴾ . . فالظاهر غير مراد عندهم، ويقولون: عنى بذلك غير النبى، لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجهاً للنبى عليه الصلاة والسلام، وإنما هو معنى به مَن قد مضى، أو هو من باب: «إياك أعنى واسمعى ياجارة».

كدلك مكَّنهم هذا المبدأ من إرجاع الضمير إلى ما لم يسبق له ذكر، كما فى قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة يونس: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ** ﴾ . . حيث يفسرون «أو بَدِّلْه» بمعنى أو بدِّل عليا. ومعلوم أن عليـاً لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقاً فى شأن خلافته وولايته.

ومما ساغ لهم أن يقولوه بعد تقريرهم لمبدأ القول بالباطن: أن تأويل الآيات القرآنية لا يجرى على أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويل يجرى فى كل آن، وعلى أهل كل زمان، فمعانى القرآن على هذا متجددة. حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيها من حوادث. بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة، وقالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء آخر. . ولا شك أن باب التأويل الباطنى باب واسع يمكن لكل مَن ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره.

وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرَّح بأن للقرآن باطناً، وأن المفسِّرين جميعاً يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية وحدهم؟ ليس لقائل أن يقول ذلك، لأن الباطن الذى أشار إليه الحديث وقال به جمهور المفسِّرين، هو عبارة عن التأويل الذى يحتمله اللفظ القرآنى، ويمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذى يقول به الشيعة فشىء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم، وليس فى اللفظ القرآنى الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

● **مخلصهم من تناقض أقوالهم فى التفسير:**

ثم إن الإمامية الإثنا عشرية، أحسوا بخطر موقفهم وتحرجه عندما جوَّزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسير واحد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفاسير. فأخذوا يموِّهون على العامة ويضللونهم، فقرروا من المبادىء ما أوجبوا الاعتقاد به أولاً على الناس ليصلوا بعد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المأزق الحرج، فكان من هذه المبادىء التى قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتى:

أولاً: أن الإمام مفوَّض من قِبَل الله فى تفسير القرآن.

ثانياً: أنه مفوَّض فى سياسة الأُمة.

ثالثاً: التقيـة.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصاً للخروج من هذا التناقض الذى وقع فى تفاسيرهم التى يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوَّضاً من قِبَل الله فى تفسير

القرآن مخلص لهم، لأن باب التفويض واسع، وكونه مفوَّضاً فى سياسة الأُمة مخلص أيضاً، لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله، والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقيه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه. «قيل عند الباقر: إن الحسن البصرى يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذى ريح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً، فليذهب الحسن يميناً وشمالاً، لا يوجد العلم إلا ههنا.. وأشار إلى صدره»(١).

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يرى فيه المصلحة.. تقية منه أيضاً وبنوا على هذا «أن الإمام إن قال قولاً على سبيل التقية، فللشيعى أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعى إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقية»(٢).

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجأون إلى هذه التقية.. تقية الخداع فى الأخبار، والنفاق فى الأحكام، وإنما هى تمحلات يتمحلونها، ليُخلِّصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذى وقعوا فيه.

٢ - موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم:

ثم إن الإمامية الإثنا عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة علىّ ومَن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقى الأصول، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا يُنزلون نصوص القرآن على ما قرروه، بل وزادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت فى الأئمة ومَن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت فى مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدَّعون ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جُلّ القرآن بل كُلّه، أُنزل فى الإرشاد إليهم، والإعلان بهم، والأمر بموافقتهم، والنهى عن مخالفتهم.

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جُلّه أو كُلّه وارد فى أئمتهم ومَن والاهم، وفى أعدائهم ومَن وافقهم، أن قالوا: إن ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميرة سره أن أراد إدخال النبى ﷺ والأئمة معه، قالوا: وهو مجاز شائع معروف، بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحياناً كما فى قوله تعالى: ﴿ **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [البقرة: ٥٧].. وأجلّ من أن يُظلم، ولكن خلطنا

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٠

(٢) المرجع السابق ص ٨٢

بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] بمعنى الأئمة منا[١].

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة، والإله والرب، مراداً به الإمام، وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، وتأوَّلوا ما أضافه الله إلى نفسه من الإطاعة والرضا والغنى والفقر مثلاً، بما يتعلق بالإمام كإطاعته، ورضاه، وغناه، وفقره.... إلخ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف.. ولكن لا شيوع لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذ المجاز المتعارَف عليه بين العلماء هو استعمال اللَّفظ فى غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى، وأين العلاقة هنا؟ وإذا تكلَّفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم.. لِمَ هذا التكلف والعدول إلى المجاز، وقد تقرر أنه لا يُعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟

٣ - تحريف القرآن وتبديله:

وأحسب أن الإمامية الإثنا عشرية، عَزَّ عليهم أن يكون القرآن غير صحيح فى عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفيهم، وكأنِّى بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جُلّه وارداً فى شأن الأئمة وشيعتهم، وفي شأن أعدائهم ومخالفيهم، فلمَ لَمْ يأت القرآن بذلك صريحاً مع أنه المقصود أولاً وبالذات؟ ولِمَ اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟... كأنِّى بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، وراحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذى جمعه علىّ عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرَّف ومبدَّل، حُذف منه كل ما ورد صريحاً فى فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحاً فى مثالب أعدائهم ومخالفيهم. وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم فى ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافى عن الصادق: أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقى مخزونة عند آهل البيت فيما جمعه علىّ[٢].

ويقولون: إن سورة «لم يكن» كانت مشتملة على اسم سبعين رجلاً من قريش بأنسابهم وآبائهم. وإن سورة «الأحزاب» كانت مثل سورة «الأنعام» أسقطوا منها

---

(١) مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٣٩

(٢) الوشيعة ص ٢٣

فضائل أهل البيت. وإن سورة «الولاية» أُسقطت بتمامها... وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف ما لهم فى هذا الموضوع هو «أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل. والباقى مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شىء، وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين علىّ»(١).

ولقد اصطدم مدَّعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة فى هدم مدَّعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾.. ولكن سرعان ما تخلَّصوا منها بالتأويل فقالوا: ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ أى عند الأئمة، وبمثل هذا التأويل يتخلَّصون من باقى النصوص المعارضة لهم.

واصطدموا أيضاً بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم ومبادئهم.

أولهما: كيف تعتمدون فى تعاليمكم ومعتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا وقد جزمتم التحريف والتبديل فيه؟

ثانيهما: كيف تُوجبون على الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت، ويتبرأوا من أعدائهم ومخالفيهم، والحُجَّة غير قائمة عليهم بعد أن حُذف كل ذلك من القرآن؟

وقد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم علىّ، وآل محمد، وأسماء المنافقين.

وأجابوا عن الثانى: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحاً فى فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم، بل أشار إلى ذلك ودلَّ عليه بحسب بطون القرآن وتأويله، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعاً، فبقيت الحُجَّة قائمة على الناس وإن بدَّلوا الظاهر وحرَّفوه.

والحق أن الشيعة هم الذين حرَّفوا وبدَّلوا. فكثيراً ما يزيدون فى القرآن ما ليس منه، ويدَّعون أنه قراءة أهل البيت، فمثلاً نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾.. يزيدون: «فى شأن علىَ»، وهى زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهى طريق مطعون فيها.

وهم الذين حرَّفوا القرآن أيضاً حيث تأوَّلوه على غير ما أنزل الله «قيل للصادق: ألم يكن علىّ قوياً فى دين الله؟ قال: بلى. قيل: فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية فى كتاب الله منعته. قيل: أى آية؟ قال: ﴿ **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢٥]، كان لله ودائع مؤمنون فى أصلاب

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧

قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن عليّ يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر عليّ على مَن ظهر فقتلهم »(١).

وروى العياشى عن الباقر أنه قال: لما قال النبى: « اللّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » أنزل الله: ﴿ **وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾(٢) [الكهف: ٥١] ..

وتقول أُصول الكافى فى قوله تعالى فى الآية (١٣٧) من سورة النساء: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً** ﴾ : إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبى أولاً، ثم كفروا حيث عُرضت عليهم ولاية علىّ، ثم آمنوا بالبيعة لعلىّ، ثم كفروا بعد موت النبى. ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأُمة(٣).

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدى القارىء الكريم ليحكم بنفسه حكماً صادقاً: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدَّعون التحريف والتبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرِّفون لكتاب الله، المبدِّلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها وتقولهم على الله بالهوى والتشهى.

٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة:

ولقد رأى الإمامية الإثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، وأمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وفى تلك الأحاديث وهذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة، لذا كان بديهياً أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، وإما بطريق تأويلها. والرد عندهم سهل ميسور، ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولاً لصحابى، وإما أن تكون قولاً لرسول الله ﷺ عن طريق صحابى، وهم يُجَرِّحون معظم الصحابة، بل ويُكَفِّرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما.. وأما التأويل فباب واسع.. وهم أهله وأربابه.

فمثلاً نجدهم يردون الأحاديث والآثار التى ثبتت فى تحريم نكاح المتعة ونسخ حلّه، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين ويقولون: إنها من رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين. ثم نجدهم يُسَلِّمون صحة الرواية جدلاً ولكنهم يتأوَّلونها فيقولون: إن الخف الذى كان يلبسه النبى ﷺ كان مشقوقاً من أعلى، فكان يمسح على ظاهر قدمه من هذا الشق.. وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف.

---

(١) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن الوافى: ٣/١٥٢
(٢) الوشيعة ص ٦٤
(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن أصول الكافى: ٣/٣٢٥

فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله ﷺ، إذن فمَن يقبلون قوله؟ ومَن يثقون بروايته؟

الذى عليه الشيعة إلى اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا ممن كان شيعياً، ولا يقبلون تفسيراً إلا ممن كان شيعياً، ولا يثقون بشىء مطلقاً إلا إذا وصل إليهم من طريق شيعى!!... وبهذا حصروا أنفسهم فى دائرة خاصة، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشوا وسط السنيين فباطنهم لأنفسهم، وظاهرهم للتقية !!

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد - حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم - بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى وغيره - قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته، ويضمنونها ما يُرضى ميولهم المذهبية، وأغراضهم السيئة الدنيئة، ولم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم...

ويعجبنى هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائينى فى كتابه «التبصير فى الدين»، وهو: أن الروافض «لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف، ويصنف لكل فريق، قالت له الروافض: صَنِّفْ لنا كتاباً، فقال لهم: لستُ أدرى لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها، فقالوا له: إذن دلنا على شىء نتمسك به، فقال: لا أرى لكم وجهاً إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئاً تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سبباً تستندون إليه غير هذا الكلام.. فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التى دلَّهم عليها، فكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة، نسبوها إلى ذلك السيد الصادق، وهو عنها منزَّه ومن مقالتهم فى الدارين برىء»(١).

● **أهم الكتب التى يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار:**

هذا.. وللإمامية الإثنا عشرية كتب كثيرة، يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار، ويُنزلونها من أنفسهم منزلة سامية، ويثقون بها وثوقاً بالغاً، فمن أهم هذه الكتب ما يأتى:

أولاً: كتاب «الكافى»، وهو أهم الكتب عند الإمامية الإثنا عشرية على الإطلاق، وهو لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (أو ٣٢٩ هـ). وهو عندهم كالبخارى عند أهل السُّنَّة، وهذا الكتاب يحتوى على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السُّنَّة - إلى صحيح، وحسن، وضعيف. وهو يقع فى ثلاث مجلدات: المجلد الأول فى الأصول، والثانى والثالث فى الفروع.

---

(١) التبصير فى الدين ص ٢٦

ثانياً : كتاب « التهذيب » لمحمد بن الحسن الطوسى، مجلدان في الفروع.
ثالثاً : كتاب « مَن لا يحضره الفقيه »، لمحمد بن علىّ بن بابويه. وهو فى الفروع.
رابعاً : كتاب « الاستبصار فيما اختُلِفَ فيه من الأخبار »، لمحمد بن الحسن الطوسى (اختصره من كتاب التهذيب).

هذه الكتب الأربعة، هى أُمهات كتب الشيعة التى يعتمدون عليها ويثقون بها، وقد جمعها كتاب « الوافى » فى ثلاثة مجلدات كبيرة، وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملا محسن الكاشى.

وهناك كتب فى الحديث ذكرها صاحب « أعيان الشيعة » غير ما تقدم، منها: « وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة »، للشيخ محمد بن الحسن العاملى، و« بحار الأنوار فى أحاديث النبى والأئمة الأظهار »، للشيخ محمد الباقر، وهى لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة(١).

والذى يقرأ فى هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم بأن متونها موضوعة، وأسانيدها مفتعلة مصنوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يُحسنون الوضع، لأنهم ينقصهم الذوق.، وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأية مهارة فى تلك الرواية التى يروونها عن جعفر الصادق رضى الله عنه، وهى: أنه قال: « ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أن المولود من شيعتنا حجبه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه فى دُبُرُ الغلام فكان مأبوناً، وفى فَرْج الجارية فكانت فاجرة »(٢).

أظن أن القارىء معى فى أن الذى وضع هذه الرواية واختلقها على جعفر الصادق، رجل ينقصه الذوق، وتعوزه المهارة، ونحن أمام هذه الأحاديث والروايات، لا يسعنا إلا أن نردها رداً باتاً، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً : إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند، بل يعتمدون على مجرد وجودها فى كتبهم. تروى كتب الشيعة أن إماماً من أئمة أهل البيت أولاد علىّ يقول: « ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله ». ولكن بأى سند؟ تجيب كتب الشيعة: « إن شيوخنا رووا عن الباقر وعن الصادق وكانت التقية شديدة، وكانت الشيوخ تكتم الكتب، فلما خلت الشيوخ وماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا، فقال إمام من الأئمة: حدِّثوا بها فإنها صادقة »(٣).

---

(١) أعيان الشيعة : ١ / ٢٩٢ – ٢٩٣ (٢) الوشيعة ص ٤٠ نقلاً عن الوافى : ١٣ / ١٤
(٣) الوشيعة ص ٤٦ – ٤٧ نقلاً عن الوافى : ١ / ١٢٤ وشرح الكافى : ١ / ٢٨

ثانياً : إن ما روى من هذه الروايات مسنداً لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبه، وقد قال رجال الحديث : إنه لا تُقبل رواية المبتدع الذى يدعو لمذهبه ويُرَوِّج له.

ثالثاً : إن القاعدة المتفق عليها بين المحدِّثين : أن «كل متن يناقض المعقول. أو يخالف الأصول. أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول»، وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

وكلمة الحق والإنصاف : أنه لو تصفح إنسان أُصول «الكافى»، وكتاب «الوافى» وغيرهما من الكتب التى يعتمد عليها الإمامية الإثنا عشرية، لظهر له أن معظم ما فيها من الأخبار موضوع وضع كذب وافتراء، وكثير مما روى فى تأويل الآيات وتنزيلها، لا يدل إلا على جهل القائل بها وافترائه على الله، ولو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن، لما كان قرآن، ولا إسلام، ولا شرف لأهل البيت، ولا ذِكْر لهم.

وبعد .. فغالب ما فى كتب الإمامية الإثنا عشرية فى تأويل الآيات وتنزيلها، وفى ظهر القرآن وبطنه، استخفاف بالقرآن الكريم، ولعب بآيات الذكر الحكيم... وإذا كان لهم فى تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم، بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل، والكثير منها صدر عمداً عن هوى ملتزم، وللشيعة - كما بيَّنا - أهواء التزمتها.

● **أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية :**

للإمامية الإثنا عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، منها ما تم، ومنها ما لم يتم، ومنها القديم، ومنها الحديث. ومنها ما بقى، ومنها ما اندثر، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها في الغلو والاعتدال، واختلاف فى المنهج الذى سلكه مؤلف كل منها ومن هذه الكتب ما يأتى :

١ - تفسير الحسن العسكرى، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ (أربع وخمسين ومائتين من الهجرة) لم يتم، وهو مطبوع فى مجلد واحد، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢ - تفسير محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف بـ«العياشى» من علماء القرن الثالث الهجرى، وهو من أمهات كتب التفسير عند الشيعة. وعليه يعوِّلون كثيراً، ولم يقع لنا هذا التفسير.

٣ - تفسير علىّ بن إبراهيم القُمِّى. فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، وهو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيراً، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٤ – التبيان : للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ (ستين وأربعمائة من الهجرة) . وهو الذى استمد منه الطبرسى تفسيره، وقد ذكر صاحب « أعيان الشيعة » أنه يقع فى عشرين مجلداً . ولم يقع لنا هذا التفسير أيضاً(١) .

٥ – مجمع البيان : لأبى علىّ الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة)، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأزهرية(٢) .

٦ – الصافى : لمحمد بن مرتضى، الشهير بملا محسن الكاشى، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٧ – الأصفى : للمؤلف السابق، وهو مختصر من الصافى، ومطبوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بمكتبة الجامعة المصرية « جامعة القاهرة » .

٨ – البرهان : لهاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسينى البحرانى، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ (سبع ومائة بعد الألف من الهجرة)، وهو مطبوع فى مجلدين، وموجود بدار الكتب المصرية .

٩ – مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار : للمولى عبد اللطيف الكازرانى، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط، وهى مطبوعة فى مجلد كبير وموجودة فى دار الكتب المصرية .

١٠ – المؤلَّف : لمحمد مرتضى الحسينى، المعروف بنور الدين، من علماء القرن الثانى عشر الهجرى، وهو مخطوط فى مجلد واحد صغير، وموجود بدار الكتب المصرية .

١١ – تفسير القرآن : للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوى، المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ (اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة)، وهو مطبوع فى مجلد كبير، وموجود بدار الكتب المصرية .

١٢ – بيان السعادة فى مقامات العبادة : لسلطان بن محمد بن حيدر الخراسانى، من علماء القرن الرابع عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد كبير وموجود بدار الكتب المصرية .

---

(١) ذكر لي عندما كنت بالعراق : أن هذا التفسير يجرى طبعه فى النجف، ولعله تم الآن .

(٢) وقد طُبع أخيراً فى إيران فى عشر مجلدات، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن وقد صدر منه جزء واحد .

١٣ - آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: لمحمد جواد بن حسن النجفى المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ (اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة). لم يتم، والموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول، وهو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه. وهو يبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ .... الآية.

هذا هو أعم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية وقد أمكننى أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب. وعلى غير ما ذكرته مما هو موجود أيضاً بدار الكتب المصرية، فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها فى التفسير، واتجاهاتهم فى فهمهم لكتاب الله تعالى، وكم كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى، وتفسير الطوسى، لأقف بنفسى على هذين الكتابين المعتبرين أهم المراجع فى التفسير عند أرباب هذا المذهب.

وأظننى لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم فى التفسير، بل يكفينى أن أتكلم عن بعض منها، وهو أهمها، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختيارى، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، وطابع يمتاز به عما سواه.

وقد رأيت أن أخص أولاً مقدمة «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» للكازرانى، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن «تفسير العسكرى»، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره وباطنه.

ثم عن «مجمع البيان» للطبرسى، لأنه يمثل لنا تفسير معتدلى الإمامية الإثنا عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم.

ثم عن «الصافى» لملا محسن الكاشى، لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفى الإمامية الإثنا عشرية.

ثم عن «تفسير القرآن» للسيد عبد الله العلوى، لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذى جمع بين الاختصار وكثرة الفائدة.

ثم عن «بيان السعادة فى مقامات العبادة»، لسلطان بن محمد الخراسانى، لأنه يمثل لنا التفسير الصوفى الفلسفى عند الإمامية الإثنا عشرية.

هذه هى أهم الكتب التى سأتكلم عنها وعن مؤلفيها وسأعرض لها مرتَّبة حسب ترتيبها فى الذكر، فأقول مستمداً من الله العون والتوفيق:

١ - مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار
(للمولى عبد اللطيف الكازرانى)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير هو المولى عبد اللطيف الكازرانى مولداً، النجفى مسكناً(١).

● **التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه:**

هذا التفسير يُعَد فى الحقيقة مرجعاً مهماً من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، وأصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومَن على شاكلته في فهمه لكتاب الله، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعى... ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، ونحن لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ أليس هذا يُعَد من قبيل الحكم على ما نجهله، والقول فيما ليس لنا به علم؟؟... لا، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التى قدَّم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وجدت هذه المقدمة فى دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها فى تفسيره، وتوضح لنا كثيراً من آرائه فى فهم كتاب الله وتبين فى صراحة تامة كيف تأثر المولى الكازرانى بعقيدته الزائفة، فحمَّل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال. وها أنا ذا أُلخص لك أهم المباحث التى تشتمل عليها هذه المقدمة. وبذلك نُلقى ضوءاً على هذا التفسير المفقود ونُعطى القارىء فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه فى تفسيره.

● **المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى منهجه الذى سلكه فيه:**

يجد القارىء أول ما يقرأ فى هذه المقدمة، بياناً مسهباً من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذى حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذى نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما يكشف لنا فى أثناء بيانه هذا، عن نظرته لكتاب الله وموقفه من تفسيره. تلك النظرة التى لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف مَن أغراه مذهبه وخدعه هواه.

يقول المؤلف فى المقدمة (ص ٢ - ٣) ما نصه: «.... إن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأُمور وأشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد... وكل فقرة من

---

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من ذلك.

كتاب الله الحميد، ظهراً وبطناً، وتفسيراً وتأويلا، بل لكل واحدة منها - كما يظهر من الأخبار المستفيضة - سبعة بطون وسبعون بطناً، وقد دلَّت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيراً من تنزيلها وتفسيرها، فى فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلالة حال القادة الأخيار، أعنى النبى المختار، وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفَّار. بل الحق المتين، والصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفي أوليائهم نزلت، وأن جُلَّ فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد والتفضيح، بل جملتها فى مخالفيهم وأعدائهم وردت.

بل التحقيق الحقيق - كما سيظهر عن قريب - أن تمام القرآن إنما أُنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عَزَّ وجَلَّ جعل جملة بطن القرآن فى دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جُلّ ظهره فى دعوة التوحيد والنبوة والرسالة».

وهذه الدعاوى من المولى الكازرانى لا نكاد نُسلِّمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادّعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا يُلتفَت إليه ولا يُعوَّل عليه، لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعاً لا أصل له. ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعى مبالغ فى تشيعه إلى حد جعله يُحَمِّل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، ويجعله موزعاً بين دعوة الحق ودعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه !!

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسِّرى الشيعة الذين سبقوه، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة فى تفاسيرهم، وبيَّن عذرهم فى ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدره، ويدور بخاطره وخلده، أن يجمع ما تفرَّق من الأخبار المأثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها، ثم يُلحق نصوص كل آية بسورتها، وذلك كله فى كتاب مستقل، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه - حقبة من الزمن - تفرُّق باله، وتشتُّت حاله، وكثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التى كان حريصاً على جمعها، فرأى أن الذى تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه، فشرع فى جمع الروايات وتحريرها، وتفسير الآيات وتقريرها.

ثم بيَّن لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير، وهو أنه أراد أن يُفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف، وبيان لطيف، وطور رشيق، وطرز أنيق، بطريق

الإيجاز والاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، ويكشف عن خبايا أستارها، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، ولا اختصار زائد مخل.

ثم بيَّن لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتى:

١ - يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

٢ - أنه لا يتعرض لبيان جميع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جُلِّها.

٣ - أنه إذا لم يعثر على نص يفسِّر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤ - أنه يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول مَن آمن بالله بعين الإيقان، وثانى أول ما خلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أبى الحسنين علىّ بن أبى طالب».

ثم قال: «وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلنى فى شيعته الخاصين. وأوليائه الخالصين. وأن تدركنى شفاعته المقبولة، وحمايته المأمولة، وجعلته خدمة لسدته السنية، وثوابه هدية إلى حضرته العلية، وسميته «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار».

وبالجملة.. فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إما صريحاً أو استخلاصاً من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يُوثق بصحتها، ولا يُعوَّل على صدق نسبتها إلى مَن تُنسب إليه من علماء آل البيت رضى الله عنهم.

بعد هذا البيان قال المولى عبد اللطيف الكازرانى: «ولنذكر قبل الشروع فى المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا».

ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فنراه قد جعل المقدمة الأولى فى بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة، وأن الأصل فى تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبى والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عز شأنهم وذل حال

شانئهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفى أتباعهم وعارفيهم، ولا سوء ذُكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفى مخالفيهم. قال: «ويستبين ذلك فى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: فى بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة فى خصوص هذه المقدمة، وهى تتم بفصول. ثم ذكر ثلاثة فصول.

جعل الفصل الأول منها فى بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطوناً ولآياته تأويلات. وأن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل لكل منها تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان...

ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشى وغيره عن جابر قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن شىء من تفسير القرآن فأجابنى، ثم سألته ثانية فأجابنى بجواب آخر، فقلت: جُعلتُ فداك، كيف أجبت فى هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لى: يا جابر؛ إن للقرآن بطناً وللبطن بطنا وظهراً. يا جابر؛ وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن.. إن الآية ليكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه».

ثم عقب المولى عبد اللطيف على هذا الخبر فقال: «دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن وظاهر، وعلى تعدد تأويل آية واحدة، وعلى عدم تنافى تأويل أول آية فى شىء وآخرها فى آخر، بل عدم تنافى التفسير بالظاهر فى أولها والباطن فى آخرها أو بالعكس ظاهرة، فإذا سمعت شيئاً من ذلك فلا تنكره، لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل، وبما فيه إصلاح السائل والسامع، ولهذا ورد: «إن القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه». ويؤيده ما فى الكافى عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**﴾ [الرعد: ٢١]: هذه نزلت فى رحم آل البيت ﷺ وقد يكون فى قرابتك، فلا تكونن ممن يقول للشىء إنه فى شىء واحد».

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبى حكيم الزاهد قال: حدثنى أبو عبد الله بمكة قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلى فاستحسن صلاته، فقال: يا هذا الرجل؛ إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه ﷺ بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل، وكل ذلك على التعبد، فمَن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة».

ثم عقب المولى على هذا فقال: «الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه، وبالتأويل الباطن، وبالتنزيل الظاهر، وبالتعبد سبيل الإطاعة، والمعنى: أن كل ما جاء به النبى

ﷺ وأمر به فى الظاهر فله شبيه ونظير مأمور به فى الباطن، ويلزم الإيمان بهما جميعاً، فمَن لم يعرف شبيه الصلاة وباطنها الذى هو الإمام وإطاعته - كما سيأتى - فصلاته الظاهرية ناقصة » (ص ٣ - ٤) .

وعقد الفصل الثانى فى ذكر الأخبار الصريحة فى أن بطن القرآن وتأويله، إنما - هو بالنسبة إلى الأئمة - وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التى ساقها: ما رواه الكلينى بإسناده إلى أبى بصير قال: « قال الصادق عليه السلام: يا أبا محمد؛ ما من آية تقود إلى الجنة ويُذكر أهلها بخير إلا وهى فينا وفى شيعتنا، وما من آية نزلت يُذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهى فى عدونا ومَن خالفنا » .

وما نقله عن الكافى وتفسير العياشي وغيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] . . قال: القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرَّم الله فى الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحلَّ الله فى الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق .

وما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبى ﷺ فى خطبته يوم الغدير: « معاشر الناس؛ هذا علىّ أحقكم بى، وأقربكم إلىّ؛ والله وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضا إلا فيه، وما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به، وما نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه. معاشر الناس؛ إن فضائل علىّ عند الله عَزّ وجَلَّ، وقد أنزلها علىّ فى القرآن أكثر من أحصيها فى مكان واحد، فمن نبأكم بها وعرفها فصدَّقوه » .

وما رواه عن عبد الله بن سنان أنه قال: قال ذريح المحاربى: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** ﴾ [الحج: ٢٩]. فقال: المراد لقاء الإمام، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام وقلت له: جُعلتُ فداك، قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** ﴾ . . قال: أخذ الشارب، وقص الأظافر، وما أشبه ذلك. فحكيت له كلام ذريح فقال: صدق ذريح وصدقت، إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومَن يحتمل ما يحتمل ذريح؟ ثم عقَّب المولى على هذا فقال: « الكلام من الإمام عليه السلام صريح فى أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس، حتى عن ابن سنان الذى كان من فضلاء أصحابه » (ص ٥) .

وعقد الفصل الثالث فى بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال: « اعلم أن ما دلَّت عليه الأخبار الماضية، وما تدل عليه الأخبار التى ستأتى من المعانى الباطنة والتأويلات. ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها ومعظمها على طريق

التجوُّز، ونهج الاستعارة، وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللُّغوية والعقلية، إذ أبواب التجوُّز فى كلام العرب واسعة وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد إن أراد الله عَزَّ وجَلَّ بحسب الاستعمال الذى يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، وبحسب التجوُّز الذى تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر، وسنشير إلى كثير من وجوه التناسب فى المقدمة الثالثة وغيرها، ولكن نذكر فى هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يُستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب، ونكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أُولى الألباب . وأما إحاطة العلم بالجميع، فهى للراسخين فى العلم ومَن عنده علم الكتاب . . . . كما سيظهر فى الفصل الأخير.

فاعلم أنه يمكن تبيين المرام فى هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره فى الوجه الرابع ما جاء فى البصائر عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ** ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣] قال: يانصر؛ إنه ليس حيث يذهب الناس، وإنما هو العالِم وما يخرج منه.

ثم قال المولى: «قال شيخنا العلامة - رحمه الله - : «لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنَّة المؤمنين فى الجنَّة الصورية الأخروية، بل لهم فى الدنيا أيضاً ببركة أئمتهم عليهم السلام جنَّات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود فى الدنيا والآخرة. وماء مسكوب من علومهم الممتعة التى بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التى لا تنقطع عن شيعتهم ولا يُمنعون منها، وفُرُشٌ مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم، بل لا يتلذذ المقرَّبون فى الآخرة أيضاً فى الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التى كانوا يتنعمون بها فى الدنيا كما تشهد به الأخبار» - انتهى كلامه أعلى الله مقامه - فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله فى ساير نعَم الجنَّة، مثل أنهار الخمر وأمثالها، كما يشهد له ما سيأتى فى الأنهار واللبن من تأويل اللبن والخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام. وسيأتى فى الجنَّة والنار وما بمعناهما من تأويل الأولي بولاية الأئمة، والثانية بعداوتهم، وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار فى الترجمات الجائية المناسبة لها فافهم، وكذا كل ما ورد ظاهره فى العذاب، والمسخ والهلاك، والموت البدنى، ونحو ذلك، فباطنه فى الهلاك المعنوى بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات، وموت قلوبهم ومسخها وعميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا فى صور البَشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، وإن كانوا

ظاهراً بين الأحياء، فهم أموات، ولكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، ولا ينطقون به، ولا يأتى منهم أمر ينفعهم فى أُخراهم، فهم شر من الأموات، وكذا كل ما كان فى القرآن مما ظاهره فى النهى عن القبائح الصورية، وتحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، والسرقة، والإيذاء، ونحوها مما هو علامة رذالة حالة فاعله، ودليل خباثة طبع مرتكبه، كالخمر، والميتة، والدم، ونحوها مما تستقذر منه الطبائع السليمة، وتنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه فى النهى عن القبائح الباطنة التى هى معاداة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التى هى أعاديهم ومنكرو ولايتهم والفضائل التى هى فيهم، فإنها أيضاً - فى استقذار الأرواح، وتخبث القلوب، واستنفار العقول. . . ونحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة والقبائح الصورية. بل أشد كما لا يخفى، وهكذا حال بطون ما ظاهره فى الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم، وبالجملة المدار على تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياة والموت والانتفاعات والتصورات الروحانية بالجسمية. . . وهكذا فى البواقى. على أن فى هذا الأخير تناسباً آخر أيضاً، وهو أنه لا خفاء فى كون النبى والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات، وأنهم الأصل فى قبولها فلا بعْد إن أريدوا بها فى بطن القرآن. وكذا لا بُعْد فى كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات» (ص ٨).

وفى الوجه الخامس من العلل، علَّل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته، ومخالفته وأسفه وظلمه ورضاه وسخطه وأمثالها بمعرفة الإمام وإطاعته ومخالفته وأسفه وظلمه ورضاه وسخطه، وكذا تأويل الإمام يد الله، وعينه، وجنبه، وقلبه، وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصَّه به، بالإمام عليه السلام، وما ورد من الأخبار فى تأويل روح الله ونفسه، ولفظ الجلالة والإله والرب الإمام عليه السلام. . علَّل هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذى جرى من عادة الأعاظم والملوك والأكابر أن ينسبُّوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى نفسهم تجوُّزاً، وكذا قد ينسبون مجازاً ما يصيب خدمهم ومقربيهم من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم، إظهاراً لجلالة حال أُولئك الخدم عندهم، وإشعاراً بأنهم فى لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم وفى حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم.

قال الصادق عليه السلام - كما سيأتى عن الكافى وغيره - إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنهم جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه. . . . (الخبر).

وفي رواية أخرى: ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآناً على نبيه.... (الخبر).

قال المولى: وسيأتي بقية الأخبار مفصَّلة. وهكذا كثيراً ما يُطلق تجوُّزاً على مُقرِّبي الرجل وأعوانه أسامي جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به في النفع كما يقال للوزير الكامل المقرَّب عند السلطان النافع له جداً: إنه يده وسيفه وعينه... وهكذا بناء على أنه في الدفع والنفع والقُرب والعزَّة مثل ذلك، حتى إنه قد يقال: إنه روحه ونفسه، بل ربما يقال إنه السلطان تجوُّزاً بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، ومخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك (ص ٩).

ثم عقد الفصل الرابع في بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وتنزيله وتأويله معاً، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وبسائر ما يتعلق بذلك جميعاً مفصَّلاً أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما في البيت. وأن مَن أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، وكذا بالعكس: أي إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترىء بإنكار ما نُقل عن الأئمة عليهم السلام في ذلك تفسيراً وتأويلاً وإن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه.

ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، وكلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله عَزَّ وجَلَّ قد أرسل رسله بالكتاب وبتأويله، فمن كذَّب بالكتاب أو كذَّب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك» (ص ٩).

ومنها ما روى عن الهيثم التميمي، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا هيثم؛ إن قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً.. لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا باطن إلا بظاهر» (ص ٩).

وعقد الفصل الخامس في بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام، وما ذكر في الأخبار الواردة في المنع من تفسير القرآن بالرأي وبغير سماع من الأئمة، وفي الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق في ذلك، فقال: اعلم أنه لا ريب في اطلاع النبي والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها، ظواهرها وبواطنها، تنزيلها وتأويلها، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله في بيتهم، فإن أهل البيت أدرى بما في البيت، وقد

دلَّت على هذا أخبار متواترة . . . فمنها : ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال : والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام : إن الله علَّم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل . قال : فعلَّم رسول الله ﷺ علياً عليه السلام ، قال : وعلَّمنا . . . . (الخبر) .

وما فيه أيضاً بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال : كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة ، فقال له رجل : إنك لتفسِّر من كتاب الله ما لم نسمع به ، فقال أبو الحسن : فنحن نعرف حلاله وحرامه ، وناسخه ومنسوخه ، وسفريه وحضريه ، وفى أى ليلة نزلت من آية ، فيمن نزلت ، وفيم أنزلت . . . . (الخبر) .

واستدل أيضاً بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال : ما يستطيع أحد يدَّعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء .

ثم قال المولى عبد اللطيف بعد سياقه لهذه الروايات وغيرها : « وأما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل ، فضلاً عن البواطن والتأويل ، بلا إسناد من الأئمة العاملين ، وعناية من الله رب العالمين » .

ثم بعد أن استدل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقة قال : « ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام » . ثم استدل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه ، فكان مما استدل به ، ما رواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال : « مَن فَسَّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء » ، وما روى عن النبى ﷺ : « مَن فسَّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعدة من النار » ، وما ورد فى تفسير الإمام عليه السلام من قوله : « أتدرون من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم؟ هو الذى يأخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت ، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا ، لا عن آراء المجادلين ، وقياس الفاسقين ، فأما مَن قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله ، وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار » (ص ١١ – ١٢) .

ثم بعد ذلك وفَّق بين الأخبار الدالة بظواهرها على حُرْمة التفسير بالرأى وبين ما ورد من قوله تعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقوله : ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء :٨٣] . . . . وقوله عليه السلام : « القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن الوجوه » ، وغير ذلك من الآيات والأخبار الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً فقال : لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ما هو الأكمل منها ، وهو ما ذكره بعض محققى علمائنا ، وقال : « الصواب أن يقال : إن مَن أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت ،

وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جمله من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس فى العلم والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائبه، ويستنبط منه نُبذاً من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من وجوده بعجيب، وليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عدُّوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمَن هذه صفته لا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل » (ص ١٢ - ١٣).

ثم قال: وأما التفسير المنهي عنه، فقد نزَّله المحقق أيضاً على وجهين:

أحدهما: أن يكون للمفسِّر فى الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأوَّل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج به على تصحيح غرضه ومدَّعاه، فيكون قد فسَّر القرآن برأيه، أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلاً كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يُلبِّس على خصمه، ومن هذا ما مرَّ من تأويلات الباطنية، وقد يصدر مثله عمن له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلاً إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله تعالى: ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾ [طه: ٢٤]، ويشير إلى قلبه ويومىء إليه أنه المراد بفرعون. قال ذلك المحقق: وهذا قد يساغله بعض الوعَّاظ فى المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع.

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدَّلة، وما فيها من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه... إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ مَن بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة مَن يفسِّر بالرأى، فلا بد له أولاً من السماع وظاهر التفسير ليتقي مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجرى مجري تعليم اللُّغة التى لا بد منها للفهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ [الإسراء:٥٩].. فإن معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهره العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن

عـمـيـاء. ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم. ومن ذلك الآيات التى سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطلع على ما فيها إلا مَن تجرَّع كؤوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، كما سيأتى فى الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ٥٧] من أن المراد ظلم محمد وآله. ومنها ما سيأتى أيضاً فى الفصل الثالث من المقالة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٤] من أنه تعالى عنى بذلك غير النبى ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: «ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به مَن قد مضى» وقد روى الكلينى وغيره عنه عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بـ«إياك أعنى واسمعى يا جارة»». وعن الباقر عليه السلام: «إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان»، وقد مرَّ فى حديث جابر قوله عليه السلام: «وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن أن الآية ليكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء».... (الخبر). وسنذكر عن قريب فى فصول المقالة المذكورة وغيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التى كذا شأنها، ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى (ص ١٣).

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعاً لرأيه. ونزّله على معان تتفق وهواه، ورمى غيره بالداء الذى هو فيه.

ثم ذكر المقالة الثانية، فجعلها فى بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحاً وتنزيلاً، على ما يتعلق بالولاية والإمامة بطناً وكناية وتأويلاً، بحسب الأخبار الواردة فى أن الولاية - أى الإقرار بنبوة النبى وإمامة الأئمة والتزام حبهم وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفيهم - أصل الإيمان، مع توحيد الله عَزَّ وجَلَّ، بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها بسبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأنها التى عُرضت كالتوحيد على الخلق جميعاً، وأُخذ عليهم الميثاق، وبُعث بها الأنبياء، وأُنزلت فى الكتب، وكُلِّف بها جميع الأُمم ولو ضمناً، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكلٍّ فى حكم الكفر بالآخر. ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وأن الأئمة مثل النبى فى فرض الطاعة والأفضلية بعده على الخلائق أجمعين، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرَّمين، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقرَّبين... عقد هذه المقالة الثانية لهذا

الغرض فقال: «اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة، تدل على هذه الأُمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مُجمَع عليه عند علمائنا الإماميين، وقد نص على حقيقتها بل كون جُلّها من ضروريات هذا المذهب أعاظم أصحابنا المحدثين، وكفى فى بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة، وسنذكر فى هذا الكتاب لها شواهد كثيرة، فلنكتف ههنا بنقل شىء من تصريحات محققى أصحابنا فى هذا الباب، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة الأطياب إذ ليس هنا موضع البسط والإطناب، ويكفى ما سنذكره فى تبصرة مَن هو مِن أُولى الألباب «فههنا فصول خمسة»... ثم ساق الفصول الخمسة:

فجعل الفصل الأول منها فى بيان نُبَذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظّم شأن الأئمة وولايتهم وكفر منكريهم.

وجعل الفصل الثانى فى بيان نُبَذ من الأخبار التى وردت فى خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم، وكفر مبغضيهم ومخالفيهم.

وجعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى مدخلية صحة الدين وصدق الإيمان، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكلٍّ فى حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر.

وجعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عُرضت مع التوحيد على الخلق جميعاً، وأُخذ عليهم الميثاق، وبُعث بها الأنبياء، وأُنزلت فى الكتب، وكُلِّفَ بها جميع الأُمم، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضاً.

وجعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم بحيث كانت الملائكة والأنبياء تتوسل بهم وبولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلَّموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العِلَّة فى الإيجاد، والأصل فى الطاعة والمعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة وجعلها فى بيان ما يوضح ورود بطون القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، بحسب الأخبار التى تدل على أن هذه الأمة تقتفى سنن الأُمم السابقة، وسيرة مَن كان قبلهم فى كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه

كان كذلك فى سائر الأُمم، قال: «فإنها بجملتها - يعنى بطون القرآن - تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار والتبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، وأن يشير إلى الزين والشين فى كل أوان بالنسبة إلى أهل كل زمان. وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلا بد من ألطافه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يُستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز..».

وقد أورد فى جملة ما أورد من الأخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن علىّ عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ [الانشقاق:١٩]: أى لتسلكن سبيل مَن كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء. وما رواه الكلينى فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾.. قال: «يا زرارة؛ أى لتركبن هذه الأمة بعد نبيها طبقاً عن طبق فى أمر فلان، وفلان، وفلان».. قال المولى الكازرانى: «أقول: أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأُمم السابقة فى ترك الخليفة واتباع العجل والسامرى وأشباه ذلك.. قال: ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد» (ص ٢٣ - ٢٤).

ثم ذكر المقدمة الثانية فتكلم فى بيان ما يوضح وقوع تغيير فى القرآن وأنه السر فى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعار بذلك على سبيل التجوُّز والرموز والتعريض فى ظاهر القرآن وتنزيله فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شىء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه علىّ عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام.... وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه. ولهذا - كما قد ورد صريحاً حديث سنذكره - لما أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن علىّ عليه السلام وذُرِّيته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأساً أو تغييره محرِّفين، وكان فى مشيئته الكاملة ومن ألطافه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبى صلى الله عليه وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء

التكليف، لم يكتف بما كان مصرحاً به منها فى كتابه الشريف، بل جعل جُلّ بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل، وفى ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوُّز والتعريض، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حُجَّته على الخلائق جميعاً ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحاً بأحسن وجه وأجمل سبيل» قال: ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما نذكره فى هذا الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال.

ثم عقد الفصل الأول فى بيان نُبَذ مما ورد فى جميع القرآن ونقصه وتغييره، من الروايات التى نقلها أصحابه من الإمامية فى كتبهم.

وعقد الفصل الثانى فى بيان نُبَذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، والاختلاف فيه من الروايات التى نقلها المخالفون فى كتبهم.

وعقد الفصل الثالث فى بيان ما وعد به سابقاً، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن، وأنه هو السر فى الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض.

وعقد الفصل الرابع فى بيان خلاصة أقوال علمائهم فى تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال مَن أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نُبَذاً من التأويلات المأثورة عن الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات.

قال: ويُستبان بها أيضاً ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، وأن فى هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة.. عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

«اعلم أن التأويلات التى ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصاً بكلمة أو آية مذكورة فى موضع واحد بحيث لا يجرى فى غيرها، ومحل ذكر مورده.

الثانى: ما ورد فى آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى فى غيرها. بل ربما يكون الورود على سبيل العموم أيضاً، ونحن نذكر هذا القسم فى هذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد فى تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام: «نحن يد الله».... ونحوه، وهذا أيضاً مما نذكره فى هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، وفى هذين الأخيرين إذا وصلنا فى كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما

أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص فى مواردها. ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية والتعريض والمجازات العقلية. ومنها ما هو من قبيل المجاز اللُّغوى، وها نحن نرتب هذه المقدمة على مقالتين، نذكر فى إحداهما مظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، وفى الأخرى سائر التأويلات العامة مع نصوصها. ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات» (ص ٣٦).

ثم ذكر المقالة الأولى: فجعلها فى بيان بعض التأويلات التى لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظَم فوائدها، وجُلّها من قبيل المجازات العقلية، والتجوُّز فى الإسناد، والكناية، والتعريض وإن أمكن التكلف فى إدخال بعضها تحت المجاز اللُّغوى، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عَزَّ وجَلَّ كثيراً ما أراد فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك. قال: ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها ما سيأتى فى تأويل الكافرين: بمن كفر بالولاية، والمنافقين: بمن نافق فيها، والمشركين: بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشباه ذلك.. ثم قال: والحق أنه إذا تأمل بصيرٌ فى أكثر ما ورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل، وهو مجاز شائع ذائع استعماله فى كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها... إلخ (ص ٣٦).

وجعل الفصل الثانى: فى بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيراً ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبى ﷺ والأُمم السالفة بحسب الظاهر، ومراده بحسب التأويل والباطن مَن صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأُمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن فى ذلك الزمان.. ثم ذكر فى ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء فى تفسير العياشى عن عبد الله بن سنان عن أبى عبد الله فى قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٩].. قال: قوم موسى: هم أهل الإسلام. قال المولى: «والظاهر أن مراده عليه السلام: أن نظيره جار فيهم، وإنما ذكر فى الآية تمثيلاً لحال هذه الأُمة، ويؤيده ما سيأتى فى الأئمة (١)، فلا ينافى هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة فى قوم موسى هادين إلى الحق صريحاً كما يظهر من بعض الأخبار» (ص ٣٧).

---

(١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا** ﴾.... الآية [الأعراف: ١٦٠]، حيث يجعل على الأئمة الإثنى عشر.

وجعل الفصل الثالث: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والبطن مخاطباً غير مَن يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجهاً إليه، وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام: «إن الآية لتكون أولها فى شيء وآخرها فى شيء»، وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال: نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، وفيهما أيضاً عن أبى عمير عمن حدَّثه عن أبى عبد الله قال: «ما خاطب الله به فهو يعنى به مَن قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] عَنىَ بذلك غيره. قال بعض المحدثين: لعل المراد مَن مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون فى آيات... قال: وفى كنز الفوائد عن الأعمش قال: سمعت عطاء بن أبى رباح يقول: سُئل رسول الله ﷺ عن قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] فقال رسول الله ﷺ: «أنا وعلىّ نُلْقِى فى جهنم كل مَن عادانا».... (الخبر) (ص٣٧).

وجعل الفصل الرابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعاً إلى شيء ليس بمذكور صريحاً، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلاً، كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهراً. ثم ذكر ما ورد من الأخبار فى ذلك، منها: ما رواه الكلينى عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].. قال: قالوا: أو بَدِّل علياً.. وما ورد فى كنز الفوائد للكراكجى من تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ (١): أى أن شكر النعمة التى رزقكم وما مَنَّ عليكم بمحمد وآله ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى بوصيه ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إلى وصيه علىّ عليه السلام يبشر وليه بالجنَّة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾: يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين علىّ منكم ﴿وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾.. أى لا تعرفون.

ومنها ما ورد فى تفسير القُمِّى عن أبى الشمال عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥ – ٣٦] قال: يعنى فاطمة، وكذا قال فى سائر الضمائر التى فى السورة (ص ٣٨).

وجعل الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أنه لا استبعاد فى أن يحمل ما عبر

(١) هى وما بعدها إلى قوله: ﴿وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الآيات: ٨٢ – ٨٥ من سورة الواقعة].

عنه بالماضى علي ما هو المستقبل الآتى كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال: روى الكلينى فى الكافى بإسناده عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر خبر ما قد كان. يعنى: إذا كان فى علم الله تعالى الكامل وقوع الشيء لا محالة وأنه سيكون قطعاً، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان، سواء أكان ذلك مما يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله، أو باطنه وتأويله، كما هو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلاً، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة وما يكون فيها، وما يصدر من الأُمة بالنسبة إلى الإمامة وأمثال ذلك.. قال: ولا يخفى أنه بناءً على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور (ص ٣٨).

وجعل الفصل السادس: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التى نسبها الله عَزَّ وجَلَّ إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فلمَّا آسَفُونا انتَقَمْنا منهم** ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ * ثمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]، وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السر فيه إدخال النبى ﷺ والأئمة فيها، بل إنهم هم المقصودون فى كثير منها. وعَدَّ هذا من قبيل المجازات الشائعة فى كلام الملوك والأعاظم.... ثم قال: فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه، وذكر أخباراً، منها: ما رواه الكلينى فى الصحيح عن حمزة ابن بزيع عن أبى عبد الله عليه السلام فى قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **فَلَمَّا آسفونا انتقمنا منهم** ﴾.. فقال: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه... إلخ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال: «مَن أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ودعانى إليها»، وقال: ﴿ **من يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّه** ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿ **إنَّ الَّذين يبايعونَكَ إنَّمَا يبايعونَ اللَّهَ يَدُ اللَّه فَوْقَ أيْديهمْ** ﴾ [الفتح: ١٠].. قال: وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة فى المقصود ههنا.. قال: وفى الكافى وغيره عن زرارة عن أبى جعفر قال: سألته عن قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكن كَانوا أنفسَهمْ يظْلمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٠] فقال: إن الله أعظم وأعَزّ وأجَلّ من أن يُظلَم، ولكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿ **إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورسُولُهُ وَالَّذينَ آمنو** ﴾ [المائدة: ٥٥].. يعنى الأئمة منا (ص ٣٩).

وجعل الفصل السابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام فى مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه، وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه

بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، والإطاعة، والمعرفة، والرضا، والسخط، والمخالفة، والفقر، والغنى. . . إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطه، وسبه، وأذاه ومخالفته، وغناه، وفقره. . . ونحو ذلك. وعَدَّ ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوُّز فى الإسناد. قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن فى ذلك ما هو من قبيل المجاز اللُّغوى أو التشبيه بالمعنى العُرْفى. ثم ذكر بعض ما هو نص فى بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسي فى الاحتجاج عن علىّ عليه السلام أنه قال فى حديث له طويل: إن قوله تعالي: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].. فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه، وأن فعلهم فعله. . . (الخبر)، وما رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل: ٥١] يعنى بذلك: لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، وما جاء فى كنز الفوائد للكراكجى عن علىّ بن أسباط عن إبراهيم الجعفرى عن أبى الجارود عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].. قال: أى ءإمام هدى مع إمام ضلال فى قرن واحد؟ وما رواه القُمِّى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩].. أن الصادق عليه السلام قال: أى رب الأرض، يعنى إمام الأرض، وما جاء فى تفسير القُمِّى فى قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].... الآية، قال: مَن لم يقر بولاية علىّ عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذى تجيء الريح فتحمله، وما جاء فى كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].. أن الإمام عليه السلام قال: هو يُرَدّ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيعذبه عذاباً نكراً، ثم يقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠].. أى من شيعة أبى تراب (ص ٤١).

وأما المقالة الثانية: فهى فى بيان سائر التأويلات العامة التى تجرى فى غير موضعها وتعم أكثر من موضع واحد مع نصوصها وأدلتها. وقد رتب المولى ما فى هذه المقالة على ترتيب حروف الهجاء ونهج فيها منهج كتب اللُّغة بملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثانى. فمن ذلك الذى ذكره ما يأتى:

«الإصر» قال: هو فى سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف. وفى أساس البلاغة: الإصر: الثقل. وفى القاموس: الإصر - بالكسر: الذنب، وسيأتى فى الذنب تأويله. وقد روى الكلينى أيضاً عن الباقر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. أنه قال: «الإصر: الذنوب التى كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام، فلما عرفوا فضل الإمام وضع عنهم الإصر، قال: قال عليه السلام: الإصر الذنب، وهى الآصار».... (الخبر)، وتأويله ظاهر. وفى تفسير القُمِّى عن الصادق عليه السلام أنه قال من قوله تعالى: ﴿وأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]: أى عهدى، أى عهد الإيمان بالنبى ﷺ ونُصرة علىّ عليه السلام.... (ص ٥٠).

«الباطل» قال: الباطل والمبطلون، والباطل ضد الحق وقد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل، وبما كان عليه بنو أُمية وأشباههم من غاصبى الخلافة، كعداوة الأئمة وغيرها، ومنه يظهر المراد بالمبطلين أى مُدَّعى الباطل وأتباعهم، ففى تفسير القُمِّى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد:٣] قال: هم الذين اتبعوا أعداء علىّ وآل الرسول.... (الخبر) (ص ٧٠).

«الراجفة» قال: الراجفة، والرادفة، والرجفة، والمرجفون: أصل الرجفة الحركة والاضطراب، ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب. وفى سورة الأحزاب فى الآية (٦٠): ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾.. قال: وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: إن الراجفة الحسين عليه السلام، والرادفة أبوه علىّ عليه السلام، وأن أول من ينفض التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام. وقد فسَّرها المفسِّرون بالنفخ الأول، والرادفة بالنفخ الثانى، وهو أيضاً مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور. وربما أمكن إجراء ما ذكرناه من التأويل فى بعض موارد الرجفة على حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضاً بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل (ص ١٠٩).

«الزيت والزيتون» قال: أما الزيتون فمعروف. وأما الزيت ففرد منه، ويأتى إن شاء الله فى المشكاة، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، وفى سورة «التين» ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، وقد أوَّله القُمِّى أيضاً بعلىّ عليه السلام كما سيظهر فى السورة المذكورة، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضاً. وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف، وعلىّ عليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقرَّبين، وعلومه قوة قلب المؤمنين، وبنوره ونور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين، وقد مثَّل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى «الطور» (ص ١١٣).

«القبْلة» قال فى القاموس: القبْلة التى يُصَلَّى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يُستقبل - يقال: ما له قبْلة ولا دبْرة - بكسرهما - أى وجهة، هذا وقد مَرَّ فى الصلاة ما يدل على تأويل القبْلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن،

واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ، ونحو هذا . وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام : نحن قِبْلة الله ، ونحن كعبة الله » وسيأتى المؤيِّد فى « الكعبة » والله الهادى (ص ١٨٣) .

ثم ذكر الخاتمة ، وجعلها مشتملة على فصلين :

الفصل الأول : فى بيان نُبَذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال : « اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر : النبى وفاطمة والأئمة الإثنا عشر . والسور هى هذه : « آلم . آلمص . آلر . آلمر . كهيعص . طه . طسم . طس . يس . ص . حم . حمعسق . ق . ن » .. ثم قال : وفى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال : « آلم : حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن ، الذى يؤلفه النبى والإمام عليه السلام ، فإذا دعا به أُجيب » ، قال بعض الأفاضل : فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه ، ورموز لم يُقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذُرَّيته . أقول : ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام : أن معنى « آلم » : أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها « أ ل م » وهو بلغتكم وحروف هجاتكم ، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين . . . . ثم قال : وسنشير فيما ورد فى « ص » إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى ﷺ ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها . فما ورد فى : آلم ، وآلمص ، وآلر ، وآلمر . ما قيل من أن معنى « آلم » : أنا الله أعلم وأرى . و « آلمص » : أنا الله أعلم وأفصل . وعلى هذا يمكن التأويل بأنه علم حيث اختار محمداً وعلياً وآلهما الطيبين للنبوة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد ، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتى بعده . . . . إلخ (ص ٢٣١) .

ثم قال : وأما « كهيعص » فمعناه : أنا الكافى الهادى ، والوالى العالم الصادق الوعد .

أقول : تأويل هذا : ما ورد عنه عليه السلام أيضاً أنه قال : أى كاف لشيعتنا ، هاد لهم ، ولى لهم ، وعده حق ، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن . وما فى الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحُجَّة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل « كهيعص » فقال : إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عليها عبده زكريا ، ثم فصَّلها على محمد ﷺ ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلَّمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمداً ، وعلياً ، وفاطمة ، والحسن سرى عنه همه وانجلى كربه ، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة . فقال ذات يوم : إلهى ؛ ما بالى إذا ذكرت أربعاً منهم تسليت بأسمائهم من همومى ، وإذا ذكرت الحسين تدمع عينى وتثور زفرتى ؟ فأنبأه

تبارك وتعالى عن قصته فقال: «كهيعص» فالكاف: اسم كربلاء، والهاء: هلاك العترة، والياء: يزيد لعنه الله - وهو ظالم الحسين - والعين: عطشه، والصاد: صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه.... (الخبر). قال: وسيأتى تتمته فى سورته (ص ٢٢٣).

وجعل الفصل الثانى من الخاتمة فى ذكر بعض الفوائد.

فالفائدة الأولى: بيَّن فيها أن دأبه فى هذا التفسير على شيئين:

أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأُمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى طاعة أنبيائه وعصيانهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلَّغوا إليهم وأمروهم به من الإقرار بولاية النبى والأئمة، والاعتراف بحقهم، والتمسك بهم، مع التبرى من أعدائهم. بعد الإقرار بالله ورسله، وتصديقهم فيما بلَّغوا جميعاً، لا سيما الولاية.

وثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأُمم وإلى إطاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك على طوائف هذه الأُمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبى والأئمة فى أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه فى تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظير أصحاب السبت بقتلة ذُرِّية النبى كنبى أُمية وبنى العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبى طالب ونظرائه مثلا، وأصحاب العجْل بأهل السقيفة.... وغير ذلك (ص ٢٣٥).

والفائدة الثانية: بيَّن فيها أن المراد فى الباطن بجميع ما حرَّم الله فى القرآن: أئمة الجور، وبما أحلّ: أئمة الحق، وأنهم أصل كل خير، ومن فروعهم كل بر، وأعداؤهم أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهى وما يُعبد من دون الله (ص ٢٣٦).

والفائدة الثالثة: قال فيها: «إنه تقدَّم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معاً، وأن كُلاً منهما مقصود البارى، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جُلِّ ما يتعلق بالظاهر، وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة، لخلو أكثر التفاسير عنها جميعاً، ومن أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبيين هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالبطون فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصَّلاً، حذراً من التطويل والخروج عن المقصود الأصلى (ص ٢٣٦).

والفائدة الرابعة: بيَّن فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية فى تفسيره، فمبناه على التجوُّز فى المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات

وأمثالها. قال: ومع هذا لا يجوز ذلك فى موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفى مثله، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل (ص ٢٣٦).

والفائدة الخامسة: بيَّن فيها أنه اقتصر فى نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: فربما فرَّقنا مضمون خبر على مواضع، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه (ص ٢٣٦).

والفائدة السادسة: بيَّن فيها أن كل ما ذكره فى تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام (ص ٢٣٦).

والفائدة السابعة: بيَّن فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعى، وادَّعى تواتر الأحاديث المثبتة لها فى الجملة وإن كانت مختلفة فى تفصيلها وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتى حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك (ص٢٣٧ - ٢٣٩).

ثم قال: «وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده فى مقدمات تفسيرنا، ونشرع بعد هذا فى أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحَوْله وقُوَّته وتوفيقه، حامداً ومُصلِّياً، ومسلِّما والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمداً وصلاة وتسليماً كثيراً كثيراً كثيراً»..

ولكن أين هذا التفسير؟؟.. قلنا: لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية. وقلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يُصوِّر لنا معالم التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية.. ولكن ألستَ معى فى أن هذه المقدمة التى لخصتُ لك أهم مباحثها، تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها فى تفسيره، وعن مقدار تأثره بعقيدته فى فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معى فى هذا وإليك أسوق أهم القواعد التى سار عليها المولى عبد اللطيف فى تفسيره، وهى قواعد استخلصتها والخصتها من مقدمة تفسيره، ولا أحسب أنه تخطاها أو شذ عنها بعد ما دافع عنها وقوَّاها بما استطاع من الأدلة. وهذه هى أهم القواعد:

أولاً: القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطناً، وجملة باطن الكتاب فى الدعوة إلى الإمامة والولاية، وجملة ظاهره فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففى أئمتهم، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتقريع ففى مخالفيهم وأعدائهم نزلت.

ثانياً: لا تقتصر معانى الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان.

ثالثاً: معانى القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعاً: المعانى الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللَّفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوُّز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللُّغوية والعقلية، وهذا فى تقديره أمر لا غرابة فيه ولا استبعاد، إذ أن أبواب التجوُّز فى كلام العرب واسعة، وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة.

خامساً: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر ما يتعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، ومَن أنكر الظاهر وأقرَّ بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل ويجب على كل إنسان أن يُصدِّق بكل ما نُقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئاً من ذلك لخفائه عليه.

سادساً: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، وهذا أمر اختُصوا به دون مَن عداهم، فلهذا لا يجوز لأحد أن يُفسِّر القرآن برأيه وبدون سماع منهم، لأنه لا شبهة فى أن مَن عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه وتأويله.

سابعاً: ما علم الله صدوره من هذه الأُمة المحمدية فى الأزمنة المستقبلة - أى بعد نزول القرآن - أشار الله إليه ونَبَّه عليه فى كتابه الكريم، فكل ما جَدَّ ويَجدّ من الحوادث بعد نزول القرآن يُستفاد من آياته عن طريق تأويلها، وهذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز، فقوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ [الانشقاق: ١٩] تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأُمة ستسلك سبيل مَن كان قبلها من الأُمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامناً: القرآن الذى جمعه علىّ عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ما ورد صريحاً فى مدح أهل البيت وذم شانئيهم أُسْقط من القرآن أو حُرِّف وبُدِّل، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتفِ الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرَّح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضاً بحسب ما يدل عليه باطن اللَّفظ وتأويله، لتقوم بذلك الحُجَّة على الناس وإن حُرِّف القرآن وبُدِّل.

تاسعاً: كثيراً ما يريد الله فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد فى تأويل «المشركين» بمن أشرك مع الإمام مَن ليس بإمام.

عاشراً: ما ورد من الخطاب للأُمم السابقة كثيراً ما يُراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأُمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما، مع إرادة الظاهر أيضاً مثل: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٩] أراد فى الباطن بقوم موسى: أهل الإسلام.

الحادية عشرة: قد يُراد بالخطاب فى الباطن مخاطباً غير مَن نفهم من الظاهر كون الخطاب له، كما ورد عن أبى عبد الله أنه قال: نزل القرآن بـ «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤] عَنىَ به غير النبى.

الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحاً، مثل قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾ [يونس: ١٥]: يعنى أو بَدِّل علياً.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ [الزخرف: ٥٥] السر فيه إدخال النبى ﷺ والأئمة فى مفهومه وهذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكله والضمائر الراجعة إلى الله فى الظاهر مراد به الإمام باطناً وتأويلاً، وهذا مجاز شائع معروف.

هذه هى أهم القواعد التى سار عليها المؤلف فى تفسيره، وهى كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره.

٢ - تفسير الحسن العسكرى

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن علىّ الهادى بن محمد الجواد بن علىّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، الإمام الحادى عشر عند الإمامية الإثنا عشرية، والمعروف بالحسن العسكرى (١)، وهو والد المهدى المنتظر.

ولد سنة ٢٣١ هـ (إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة) وقيل سنة ٢٣٢ هـ.

---

(١) العسكرى نسبة إلى العسكر وهى «سُرَّ مَن رأى» - سامراء - لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها «العسكر». وإنما نُسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه علياً إليها وأقام بها مدة طويلة، فنُسب وولده هذا إليها.

بالمدينة على الراجح، وتوفى بـ «سُرَّ مَن رأى» سنة ٢٦٠ هـ (ستين ومائتين). ودفن بها بجانب أبيه (١).

● **التعريف بهذا التفسير:**

عثرنا على هذا التفسير فى دار الكتب المصرية فوجدناه منسوباً إلى الإمام أبى محمد الحسن العسكرى، ومروياً عنه برواية أبى يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبى الحسن عليّ بن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكرى فى سبع سنين. ولهما فى تلقى هذا التفسير عن الحسن العسكرى قصة غريبة فى مقدمة الكتاب حدَّثا بها فقالا ما ملخصه: كنا صغيرين. وكان أبوانا إماميين، وكانت الزيدية هم الغالبين بـ «إستراباذ»، وكنا فى إمارة الحسن بن زيد العلوى، الملقب بالداعى إلى الحق، إمام الزيدية، وكان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعاياتهم، فخاف أبوانا الوشاية بهما عنده فخرجا بنا وبأهلينا إلى حضرة الإمام أبى محمد الحسن بن علي بن محمد أبى القائم، فلما دخلا عليه قال لهما: مرحباً بالآوين إلينا، الملتجئين إلى كنفنا، قد تقبَّل الله سعيكما، وآمن روعكما، وكفاكما أعداءكما، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما، قالا: فماذا تأمر أيها الإمام؟ أن نرجع فى طريقنا إلى أن ننتهى إلى بلد خرجنا منه؟ وكيف ندخل ذلك البلد ومنه هربنا وطلب سلطان البلد لنا حثيث، ووعيده إيانا شديد؟ فقال عليه السلام: خلِّفا عليَّ ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذى يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة ولا بوعيد المسعى إليه، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يقصم السعاة ويلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند مَن هربتم منه.

قال أبو يعقوب وأبو الحسن: فأتمرا لما أُمرا، وخرجا وخلَّفانا هناك، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإماء وذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم: إذا أتاكما خبر كفاية الله عَزَّ وجَلَّ أبويكما، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدى إياهما، جعلت من شكر الله عَزَّ وجَلَّ أن أفيدكما تفسير القرآن مشتملاً على بعض أخبار محمد ﷺ، فيعظم الله بذلك شأنكما، قالا: ففرحنا وقلنا: يا ابن رسول الله؛ فإذن نأتى جميع علوم القرآن ومعانيه؟ قال: كلا، إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك وقال: يا ابن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها، قال: قد جمعتُ خيراً كثيراً وأُوتيتُ فضلاً واسعاً، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن، إن الله عَزَّ وجَلَّ يقول: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ**

---

(١) وفيات الأعيان: ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وله ترجمة مستفيضة فى أعيان الشيعة: ٤/ ٢٨٨ - ٣٢٥

جئنا بمثله مددا ﴾ [الكهف: ١٠٩] ، ويقول: ﴿ **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾ [لقمان: ٢٧] ، وهذا علم القرآن ومعانيه وما أودع من عجائبه، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن؟ ولكن القدر الذى أخذته قد فضَّلَك الله به على كل مَن لا يعلم كعلمك ولا يفهم كفهمك..

ثم ذكرا ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوى عن بطشه وفتكه، وعدم تعرضه للناس فى مذاهبهم، وأمره لأبويهما بملازمة الإمام أبى محمد الحسن العسكرى لما سمع بهذا قال: هذا حين إنجازى ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظَّفتُ لكما كل يوم شيئاً منه تكتبانه، فالزَمانى وواظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما. فأول ما أملى علينا أحاديث فى فضل القرآن وأهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه فى مدة مقامنا عنده، وذلك سبع سنين، نكتب فى كل يوم منه مقدار ما ننشط له، فكان أول ما أملى علينا وكتبناه قال: «حدَّثنى أبى: علىّ بن محمد، عن أبيه: محمد بن علىّ، عن أبيه: علىّ بن موسى، عن أبيه: موسى بن جعفر، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه: الباقر محمد بن علىّ، عن أبيه: علىّ بن الحسين زينْ العابدين، عن أبيه: الحسين بن علىّ سيد المستشهدين، عن أبيه: أمير المؤمنين وسيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين، فاروق الأُمة، وباب مدينة الحكمة، ووصى رسول الرجمة، علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، عن رسول الله رب العالمين، وسيد المرسلين، وقائد الغُرّ المُحجَّلين، والمخصوص بأشرف الشفاعات فى يوم الدين، صلى الله عليه وآله أجمعين».

ثم ذكر شيئاً من الأخبار فى فضل القرآن وحملته.. ثم قال: «قال رسول الله ﷺ: «أتدرون مَن المتمسك الذى بتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذى أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين..». ثم قال: «قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨] قال رسول الله ﷺ: فضْلُ الله عزَّ وجلَّ القرآن والعلم بتأويله. وبرحمته: توفيقه لموالاة محمد وآله الطيبين، ومعاداة أعدائهم..».

ثم ذكر الحسن العسكرى تفسير «أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» منسوباً إلى علىّ رضى الله عنه، وفيه يقول علىّ: «إلا أُنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد وآله الأفضلين بالفضيلة، فنزل جبريل

عن الله تعالى: بأن سُدُّوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول مَن بعث إليه رسول الله يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله - وكان الرسول معاذ بن جبل - ثم مرَّ العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة؟ انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها، أتظن أن رسول الله يُخرج عمه ويُدخل ابن عمه؟! فمرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: أنتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول الله، وإنما أنتم نفس رسول الله. ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال: أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مُصَلاك، فأْذن لى فى فُرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عَزَّ وجَلَّ ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهى، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عَيْنيَّ، قال: أبى الله ذلك، ولو قلتَ قدر طرف الإبرة لم آذن لك، والذى نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتهم، ولكن الله أدخلهم وأخرجكم.. ثم قال: لا ينبغى لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت فى هذا المسجد جُنُباً إلا محمد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون (١) من آلهم الطيبين من أولادهم. قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلَّموا، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا، ومشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمداً لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليُخرجنا منها صفراً، والله لئن أنفذنا له فى حياته لنأتين عليه بعد وفاته، وجعل عبد الله بن أُبىّ يصغى إلى مقالتهم ويغضب تارة ويسكن أخرى، ويقول لهم: إن محمداً لمتألِّه، فإياكم ومكاشفته، فإن مَن كاشف المتألِّه انقلب خاسئاً حسيراً وينغص عليه عيشه. وإن الفطن اللبيب مَن يتجرع على الغُصَّة لينتهز الفُرصة. فبينما هم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال له زيد بن أرقم فقال لهم: يا أعداء الله، أبالله تُكَذِّبون؟ وعلى رسوله تطعنون؟ ولدينه تكيدون؟ والله لأُخْبِرن رسول الله بكم، فقال عبد الله ابن أُبَىّ والجماعة: والله لئن أخبرته بنا لنكذبنك ولنحلفن له، فإنه إذن يُصدِّقنا، ثم والله لنقيمن عليك مَن يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك، قال: فأتى زيد رسول الله فأسَرَّ إليه ما كان من عبد الله ابن أُبَىّ وأصحابه، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **ولا تُطعِ الْكَافِرِينَ** ﴾(٢) المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله والموالاة لك ولأوليائك، والمعاداة لأعدائك، ﴿ **وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ الذين يطيعونك فى

---

(١) المنتجبون: أى المختارون.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ **ولا تُطعِ الْكَافِرِينَ** ﴾ ... إلى قوله سبحانه: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فى الآية (٤٨) من سورة الأحزاب.

الظاهر ويخالفونك في الباطن، ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ مما يكون منهم من القول السيء فيك وفي ذويك، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ في إتمام أمرك وإقامة حُجَّتك، فإن المؤمن هو الظاهر بالحُجَّة وإن غُلِبَ في الدنيا، لأن العاقبة له، لأن غرض المؤمنين في كدحهم في الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد في الجنة، وذلك حاصل لك ولآلك ولأصحابك وشيعتك.

ثم إن رسول الله ﷺ لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم، وأمر زيداً فقال: «إن أردتَ أن لا يصيبك شرهم ولا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله يعيذك من شرهم، فإنهم شياطين يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإذا أردت أن يُؤَمِّنك بعد ذلك من الغرق والحرق والسرق فقل إذا أصبحت: بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بسم الله ما شاء الله وصلى الله على محمد وآله الطيبين، فإن مَن قالها ثلاثاً إذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق حتى يمسى، ومَن قالها ثلاثاً إذا أمسى أمن من الحرق والغرق حتى يصبح، وإن الخضر وإلياس يلتقيان في كل موسم، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات، وإن ذلك شعار شيعتي، وبه يمتاز أعدائي من أوليائي يوم خروج قائمهم..».

ثم ذكر حديثاً آخر طويلاً عن الباقر يتضمن ما كان من المحاورة بين العباس ورسول الله ﷺ بشأن إغلاق باب العباس وغيره، وإبقاء باب عليّ وحده، وفيه شهادة رسول الله ﷺ بالفضل لعليّ على غيره، وفي آخره يقول رسول الله ﷺ: «يا عم رسول الله؛ إن شأن عليّ عظيم. إن حال عليّ جليل. وإن وزن عليّ ثقيل، وما وُضع حب علي في ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، ولا وُضع بغضه في ميزان أحد إلا رجح على حسناته»... إلخ [1].

هذا.. والكتاب مطبوع في مجلد صغير يقع في (٢٨٦ صحيفة)، وهو غير شامل للقرآن كله، بل بعد الفراغ من المقدمة وشرح الاستعاذة شرع في الفاتحة ففسَّرها، ثم شرع في سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى في الآية (١١٤): ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.. (وذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص ٢٣٦).

ومن قوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﴾ الآية (١٥٨)... إلى قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ الآية (١٧٩).. (وذلك يبدأ من ص ٢٣٦ إلى ص ٢٥٤).

---

(١) الصفحات: ٢ – ٧

ومن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ الآية (١٩٨)... إلى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية (٢١٠).. (وذلك يبدأ من ص ٢٥٤ إلى ص ٢٦٧).

ومن قوله تعالى فيها: ﴿أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية (٢٨٢)... إلى قوله: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ في الآية (٢٨٣).. (وذلك يبدأ من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٨٦).

هذا هو كل ما وُجد وطُبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكرى رحمه الله تعالى، وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه فى التفسير، وتأثره بمذهب الإمامية، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نُسب إليه زوراً وبهتاناً..

● **ولاية على:**

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.. يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: يا عباد الله، انسبونى، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس؛ ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر إلى السماء وقال: اللَّهم اشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثاً - ثم قال: ألا فمَن كنتُ مولاه وأولى به فهذا عليّ مولاه وأولى به، اللَّهم وال مَن والاه، وعاد مَن عاداه، وانصر مَن نصره. واخذل مَن خذله.. ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمره المؤمنين، فقام وبايع له. ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمره المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار،فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب فقال: بَخٍ بَخٍ يا ابن أبى طالب، أصبحتَ مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرّقوا عند ذلك وقد وُكِّدَتْ عليهم العهود والمواثيق. ثم إن قوماً من متمرديهم وجبابرتهم تواطأوا بينهم لئن كان بمحمد كائنة ليدفعن هذا الأمر من عليّ ولا يتركونه، فعرف الله ذلك من قِبَلهم، وكانوا يأتون رسول الله ويقولون: لقد أقمتَ علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا والمتجبرين فى سياستنا، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الأمر عن مستحقة مؤثرون، فأخبر الله عَزَّ وجَلَّ محمداً عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذى أمرك بنصب عليّ إماماً وسايساً لأُمتك ومدبراً، ﴿وَمَا هُم

بمؤمنين﴾ بذلك، ولكنهم يتواطأون على إهلاكك وإهلاكه، يوطنون أنفسهم على التمرد على عليّ إن كانت بك كائنة» (١).

وعند قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة البقرة: ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾.. يقول: «قال موسى بن جعفر: إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيْعة، قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار: آمنوا برسول الله وعليّ الذى أوقفه موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبى وسلِّموا لهذا الإمام، وسلِّموا له فى ظاهر الأمر وباطنه، كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار، قالوا فى الجواب لمن يقضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين، فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب، ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾؟! يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا علياً خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رؤوسهم بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه حتى إن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا فى أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذُرِّيته ومن مخالفيهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه. فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد والمؤمنين ولا محبة اليهود وسائر الكافرين، لأنهم يُظهرون لمحمد من موالاته وموالاة أخيه عليّ ومعاداة أعدائهم اليهود والنصارى، كما يُظهرون لهم معاداة محمد وعليّ وموالاة أعدائهم، فهم يُقدِّرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد وعليّ، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يُطْلع نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويُسقطهم» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٥٩ و ١٦٠) من سورة البقرة: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** ﴾.. يقول: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات** ﴾ من صفة محمد وصفة عليّ وحليته، ﴿ **والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب** ﴾.. قال:

---

(١) الصفحات: ٤١ – ٤٢ (٢) الصفحات: ٤٤ – ٤٥.

والذى أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم ومحلهم، كالغمامة التى تظل رسول الله فى أسفاره، والمياه الأجاجة التى كانت تعذب فى الآبار بريقه، والأشجار التى كانت تتهدل ثمارها بنزوله تحتها، والعاهات التى كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث ريقه فيها، وكالآيات التى ظهرت على علىّ من تسليم الجبال والصخور والأشجار قائلة: يا ولى الله ويا خليفة رسول الله، والسموم القاتلة التى تناولها مَن سمَّى باسمه عليها ولم يصبه بلاؤها... وسائر ما خصَّه الله تعالى به من فضائله، فهذا من الهدى الذى بيَّنه الله للناس فى كتابه... إلخ (١).

● **روايات مكذوبة فى فضل أهل البيت:**

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾.. يقول: «ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدىً لهم فقال: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ يعنى بما غاب عن حواسهم من الأُمور التى يلزمهم الإيمان بها: كالبعث، والنشور، والحساب، والجنَّة، والنار، وتوحيد الله تعالى، وسائر ما لا يُعرف بالمشاهدة وإنما يُعرف بدلائل قد نصبها الله عَزَّ وجَلَّ عليها: كآدم، وحواء، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون، وذلك أن سلمان الفارسى مَرَّ بقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم ويُحدِّثهم بما سمع من محمد فى يومه هذا، فجلس إليهم لحرصه على إسلامهم فقال: سمعتُ محمداً يقول: إن الله عَزَّ وجَلَّ يقول: يا عبادي أوَ ليس مَن له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعه؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق علىّ وأفضلهم لدىَّ محمد وأخوه علىّ، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلىَّ، ألا فليَدْعُنى مَن أَهَمَّته حاجة يريد نفعها، أو دهته دهياء يريد كف ضررها، بمحمد وآله الأفضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن مما يقضيها مَن تشفعون إليه بأعزّ الخلق عليه. قالوا لسلمان – وهم يستهزئون به – يا عبد الله؛ فما بالك لا تقترح على الله وتتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة؟ فقال سلمان: قد دعوتُ الله عَزَّ وجَلَّ بهم، وسألته ما هو أجَلّ وأفضل وأنفع من مُلْك الدنيا بأسرها، وسألته بهم أن يهب لى لساناً لتمجيد شأنه ذاكراً، وقلباً لآلائه شاكراً، وعلى الدواهى الداهية لى صابراً، وهو عَزَّ وجَلَّ قد أجابنى إلى ملتمسى من ذلك، وهو أفضل من مُلْك الدنيا بحذافيرها وما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف ألف مرة. قال: فجعلوا يهزأون ويقولون: ياسلمان؛ لقد ادَّعيت مرتبة عظيمة يُحتاج أن يُمتحن صدقك من كذبك فيها، وها نحن إذن قائمون إليك

---

(١) الصفحات: ٢٣٦ – ٢٣٧

بسياط عذابنا فضاربوك، فاسأل ربك أن يكفَّ أيدينا عنك، فجعل سلمان يقول: اللّهم اجعلنى على البلايا صابراً، وجعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعيوا وملُّوا، وجعل سلمان لا يزيد على قوله: اللّهم اجعلنى على البلايا صابراً، فلما مَلُّوا وأعيوا قالوا: يا سلمان؛ ما ظننا أن روحاً تثبت فى مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك، فما بالك لا تسأل أن يكفّنا عنك؟ قال: لأن سؤال ذلك ربى خلاف الصبر، بل سلَّمتُ لإمهال الله تعالى لكم، وسألته الصبر، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا: لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد، فقال: ما كنتُ أفعل ذلك، فإن الله قد أنزل على محمد: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾، وأن احتمالى لمكارهكم لأدخل فى جملة مَن مدحه الله بذلك سهل علىَّ يسير، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى مَلُّوا، ثم قعدوا وقالوا: يا سلمان؛ لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب دعاءك وكفَّنا عنك، فقال سلمان: ما أجهلكم !! كيف يكون مستجيباً دعائى إذا فعل بى خلاف ما أريد منه، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لى فصبرت، ولم أسأله كفكم عنى فيمنعنى حتى يكون ضد دعائى كما تظنون، فقاموا إليه ثالثة بسياطهم فجعلوا يضربونه وسلمان لا يزيد على قوله: اللّهم صبِّرنى على البلايا فى حب صفيك وخليلك محمد، فقالوا له: يا سلمان؛ ويحك ! أو ليس محمد قد رخَّص لك أن تقول كلمة الكفر به بما تعتقد ضده للتقية؟ فقال سلمان: إن الله قد رخَّص لى ذلك ولم يفرضه علىّ، بل أجاز لى ألا أعطيكم ما تريدون وأحتمل مكارهكم، وجعله أفضل المنزلتين، وأنا لا أختار غيره، ثم قاموا إليه بسياطهم وضربوه ضرباً كثيراً وسيَّلوا دماءه، وقالوا له وهم ساخرون: لو لم تسأل الله كفّنا عنك ولا تُظهر لنا ما نريد منك لنكفّ به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنتَ من الصادقين فى دعواك أن الله لا يرد دعاءك بمحمد وآله الطيبين الطاهرين، فقال سلمان: إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافة أن يكون فيكم مَن قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان، فقالوا: قل: اللّهم أهْلك مَن كان فى علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفْته، قال: فانفرج له حائط البيت الذى هو فيه مع القوم وشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول: يا سلمان؛ ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد. كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا مَن قد آمن، فقال سلمان: كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهلاك؟ فقالوا: تدعو الله بأن يقلب سَوْط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم تمشش عظام سائر بدنه.. فدعا الله بذلك، فما من سياطهم سَوْط إلا قلبه الله تعالى أفعى لها رأسان تتناول برأس رأسه، وبرأس آخر يمينه التى كان فيها سوطه، ثم رضضتهم ومششتهم وبلعتهم والتقمتهم، فقال رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه: معاشر المؤمنين؛ إن الله

تعالى قد نصر أخاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فِرْقة من اليهود والمنافقين، قُلبت سياطهم أفاعى رضضتهم ومششتهم وهشمت عظامهم والتقمتهم، فقوموا بنا ننظر إلى تلك الأفاعى المبعوثة لنُصْرة سلمان، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه إلى تلك الدار وقد اجتمع إليها جيرانها من اليهود والمنافقين لما سمعوا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم، فإذا هم خائفون منها، نافرون من قُرْبها، فلما جاء رسول الله ﷺ خرجت كلها إليه عن البيت إلى شارع المدينة، وكان شارعاً ضيقاً فوسَّعه الله تعالى وجعله عشرة أضعافه، ثم نادت الأفاعى: السلام عليك يا محمد يا سيد الأوَّلين والآخرين، السلام عليك يا علىّ يا سيد الوصيين، السلام على ذُرِّيتك الطيبين الطاهرين الذين جُعلوا على الخلق قوَّامين، ها نحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان، قال رسول الله: الحمد لله الذى جعل مَن يضاهى بدعائه عند قبضه وعند انبساطه نوحاً نبيه. ثم نادت الأفاعى: يا رسول الله؛ قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين، وأحكامك وأحكام وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين، ونحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء مُعذِّبين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين، فقال رسول الله ﷺ: قد أجبتكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم، بعد أن تقذفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لخزيهم وأبقى للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم، يقولون: هؤلاء الملعونون المخزيوم بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين، فقذفت الأفاعى ما فى بطونها من أجزاء أبدانهم، فجاء أهلوهم فدفنوهم، وأسلم كثير من الكافرين، وأخلص كثير من المنافقين، وغلب الشقاء على كثير من الكافرين والمنافقين، فقالوا: هذا سحر مبين. ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال: ياعبد الله؛ أنت من خواص إخواننا المؤمنين، ومن أحباب قلوب ملائكة الله المقرَّبين، إنك فى ملكوت السموات والحُجُب والكرسى والعرش وما دون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يوم لا غيم ولا قتر ولا غبار فى الجو، فأنت من أفاضل الممدوحين بقوله: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾، يقول ما نصه: « .. قال علىُّ بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ، حتى قيل لهم: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ** ﴾ .. أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضعة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ وذلك محال،

(١) الصفحات: ٢٤ – ٢٦.

لأن الإتيان على الله لا يجوز، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله فى نصب أمير المؤمنين علىّ إماماً، واقترحوا.. حتى اقترحوا المحال، وذلك أن رسول الله لما نص على علىّ بالفضيلة والإمامة، وسكن إلى ذلك قلوب المؤمنين وعاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين، وشك فى ذلك ضعفاء من الشاكين، واحتال فى السلم من الفريقين من النبى وخيار أصحابه ومن أصناف أعدائه جماعة المنافقين، وفاض فى صدورهم العداوة والبغضاء، والحسد والشحناء، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف محمد فى مدح نفسه، ثم أسرف في مدح أخيه علىّ، وما ذاك من عند رب العالمين، ولكنه فى ذلك من المتقوِّلين، يريد أن يثبت لنفسه الرياسة علينا حباً ولعلىّ بعد موته، قال الله تعالى: يا محمد؛ قل لهم: وأى شيء أنكرتم من ذلك؟ هو عظيم كريم حكيم، ارتضى عباداً من عباده، قد اختصهم بكرامات، لما علم من حسن طاعتهم ولانقيادهم لأمره، ففوَّض إليهم أمور عباده، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذى وفقهم له، أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده ووثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أُمور ممالكه، جعل ما وراء بابه إليه واعتمد فى سياسة جيوشه ورعاياه عليه؟ كذلك محمد فى التدبير الذى رفعه له ربه، وعلىّ من بعده الذى جعله وصيه وخليفته فى أهله، وقاضى دينه ومنجز عداته، والموازر لأوليائه والمناصب لأعدائه، فلم يقنعوا بذلك ولم يُسلِّموا، وقالوا: ليس الذى تسنده إلى ابن أبى طالب أمراً صغيراً إنما هو دماء الخلق، ونساؤهم، وأولادهم، وأموالهم، وحقوقهم، وأنصباؤهم، ودنياهم، وأخراهم، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله: أما كفاكم نور علىّ المشْرِق فى الظلمات الذى رأيتموه ليلة خروجه من عند رسول الله إلى منزله؟ أما كفاكم أن علياً جاز والحيطان بين يديه ففتحت له وطُرِّقت ثم عادت والتأمت؟ أما كفاكم يوم غدير خُم أن علياً لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة والملائكة فيها مطلعين تناديكم: هذا ولى الله فاتبعوه وإلا حَلَّ بكم عذاب الله فاحذروه؟ أما كفاكم رؤيتكم علىّ بن أبى طالب وهو يمشى والجبال تسير من بين يديه لئلا يحتاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجبال إلى أماكنها؟ثم قال: اللَّهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حُجَّتك عليهم تأكيداً. قال: فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية علىّ، قالوا: آمنا.. ودخلوا.. ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلعوها، ونادتهم: حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقروا بولاية علىّ، فأقروا.. ونزعوها.. ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية علىّ، فاعترفوا.. ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر فى أفواههم وناداهم: حرام عليكم

أكلنا حتى تعترفوا بولاية عليّ، فاعترفوا.. ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذاكيرهم: حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية عليّ بن أبي طالب، فاعترفوا.. ثم ضجر بعضهم وقال: ﴿ **اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الْحقَّ من عندك فأمْطر عليْنا حجارةً مّن السَّماء أو ائْتنا بعذاب أليم** ﴾.. قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وما كَانَ اللَّهُ ليُعذّبهمْ وأَنت فيهمْ** ﴾ [الأنفال: ٣٢ - ٣٣].. إلخ (١).

● **الشجرة التى نُهى آدم عن الأكل منها :**

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنت وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وكُلا منْها رغدا حيْثُ شئْتما ولا تقْربا هذه الشَّجرة** ﴾.. يبين المراد من الشجرة ويعلل النهى عنها فيقول: «.. لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد، الذين آثرهم الله عَزَّ وجَلَّ به دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: لا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم.. ومنها ما كان يتناوله النبى، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نَصَب، وهي شجرة تميزت من بين أشجار الجنة، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعاً من الثمار والمأكول، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البُرَّ والعنَب والتين والعُنَّاب وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة، فقال بعضهم: هى بُرَّة، وقال آخرون: هى عنَبة، وقال آخرون: هى عُنَّابة. قال الله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة تلتمسان بذلك دوحة محمد وآل محمد فى فضلهم، فإن الله تعالى خصَّهم بهذه دون غيرها، وهى شجرة التى مَن يتناول منها بإذن الله عَزَّ وجَلَّ أُلْهمَ علم الأوَّلين والآخرين من غير تعلم. ومَن تناول منها بغير إذن الله خاب من مراده وعَصى ربه، ﴿ **فتكُونا من الظَّالمين** ﴾.. بمعصيتكما والتماسكما درجة قد أوثر بها غيركما كما إذا أردتما بغير حكم الله» (٢).

● **توسل الأنبياء والأُمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت :**

وقد جاء فى هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء والأُمم السابقين كانوا إذا حزبهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد ﷺ وأهل بيته رضوان الله تعالى عليهم.

فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة البقرة: ﴿ **فإمَّا يأْتينَّكُم مّنّي هُدًى فمن تبع هُداي فلا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾.. نراه يقول: «.. فلما زلَّت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عَزَّ وجَلَّ قال: يارب؛ تُبْ عليّ واقبل معذرتى، وأعدنى إلى مرتبتى، وارفع لديك درجتى فما أشد تبين بغض الخطيئة وذلها بأعضائى وسائر

---

(١) الصفحات: ٢٦٥ - ٢٦٧ (٢) صفحة ٨٩

بدنى، قال الله تعالى: يا آدم؛ أما تذكر أمرى إياك بأن تدعونى بمحمد وآله الطيبين عند شدائدك ودواهيك وفى النوازل تنزل بك؟ قال آدم: يارب بلى، قال الله عَزَّ وجَلَّ له: فتوسل بمحمد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين خصوصاً، فادعنى أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك، فقال آدم: يا رب وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتى، وتغفر خطيئتى، وأنا الذى أسجدتَ له ملائكتك، وأبحته جنَّتك، وزوَّجته حواء أَمَتك، وأخدمته كرام ملائكتك؟ قال الله: يا آدم؛ إنما أمرتُ الملائكة بتعظيمك بالسجود إذ كنتَ وعاءً لهذه الأنوار، ولو كنتَ سألتنى بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعى عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنتُ قد جعلت ذلك، ولكن المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقاً لعلمى، فالآن بهم فادعنى لأُجبك، فعند ذلك قال آدم: اللَّهم بجاه محمد وآله الطيبين، بجاه محمد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لما تفضَّلتَ بقبول توبتى، وغفران زلَّتى. وإعادتى من كراماتك إلى مرتبتى، فقال الله عَزَّ وجَلَّ: قد قبلتُ توبتك وأقبلتُ برضوانى عليك، ورزقتُ آلاتى ونعمائى عليك، وأعدتك إلى مرتبتك من كراماتى، ووفرت نصيبك من رحماتى. فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣٧]»(١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ نجده يقول: «قال الله عَزَّ وجَلَّ: واذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقاً ينقطع بعضه من بعض، فأنجيناكم هناك وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عَزَّ وجَلَّ إليه: قل لبنى إسرائيل جدِّدوا توحيدى، وأمرُّوا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى وإمائى، وأعيدوا على إنفسكم الولاية لعلىّ أخى محمد وآله الطيبين، وقولوا: اللَّهم بجاههم جوِّزنا على متن هذا الماء، فإنه يتحول لكم أرضاً، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: أتورد علينا ما نكره، وهل فررنا من آل فرعون إلا من خوف الموت، وأنت تقتحم بنا هذا الماء الغمر بهذه الكلمات، وما يدرينا ما يحدث من هذه علينا؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا وهو على دابة له - وكان ذلك الخليج أربعة فراسخ - يا نبى الله؛ أمرك الله بهذا أن نقوله وندخل الماء؟ قال: نعم. قال: وأنت تأمرنى به؟ قال: نعم، فوقف وجدَّد على نفسه من توحيد الله ونبوة محمد وولاية علىّ والطيبين من آلهما ما أُمرَ به، ثم قال: اللَّهم بجاههم جوِّزنى على متن هذا الماء، وإذا الماء قصته كأرض لينة، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضاً، ثم قال لبنى إسرائيل: يا بنى

---

(١) الصفحات: ٩٠ - ٩١

إسرائيل؛ أطيعوا موسى، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان، ومغاليق أبواب النيران، ومستنزل الأرزاق. وجالب على عباد الله وإمائه رضا المهيمن الخلاق. فأبوا وقالوا: لا نسير إلا على الأرض، فأوحى الله: يا موسى؛ اضرب بعصاك البحر وقل: اللَّهم بجاه محمد وآله الطيبين لما فلقته، ففعل؛ فانفلق وظهرت الأرض إلى آخر الخليج، فقال موسى: ادخلوها، قالوا: الأرض وحلة، نخاف أن نرسب فيها، فقال الله عَزَّ وجَلَّ: يا موسى؛ قل: اللَّهم بحق محمد وآله الطيبين جففها، فقالها، فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفَّت، فقال موسى: ادخلوها، فقالوا: يا نبى الله؛ نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثنى عشر أباً، وإن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه، ولا نأمن من وقوع الشر، فلو كان لكل فريق منا طريق على حدة لأمنا ما نخافه، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم اثنى عشر ضربة، فى اثنتى عشرة موضعاً إلى جانب ذلك الموضع ويقول: اللَّهم بجاه محمد وآله الطيبين بَيِّن الأرض لنا، وأقصر الماء عنا، فصار فيه تمام اثنى عشر طريقاً، وجَفَّ قرار الأرض بريح الصبا، فقال: ادخلوها، فقالوا: كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين، فقال الله عَزَّ وجَلَّ: فاضرب كل طَوْد من الماء بين هذه السكك، فضرب فقال: اللَّهم بجاه محمد وآله الطيبين لما جعلت فى هذا الماء طيقاناً واسعة يرى بعضهم بعضاً، فحدثت طيقان واسعة يرى بعضهم بعضاً، ثم دخلوها، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون وقومه فدخل بعضهم، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم بالخروج أمر الله تعالى البحر فانطبق عليهم فغرقوا، وأصحاب موسى ينظرون إليهم.. فذلك قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ (١).

● **التقيَّـــة** :

وهو يعترف بالتقيَّة ويدين بها، ويروى عن رسول الله ﷺ أحاديث فيها، فمن ذلك: أنه روى عن الحسن بن علىّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء إنما فضَّلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، وحُسن تقيتهم لأجل إخوانهم فى الله» (٢).

وروى عن أمير المؤمنين أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سُئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره وتزول عنه التقية، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار» (٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾.. يقول: «الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد،

---

(١) الصفحات: ٩٨ - ٩٩. (٢) صفحة ١٤٢. (٣) صفحة ١٦٢.

وسَّع لهم فى التقية، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا، ويُسِرُّونها إذا عجزوا» (١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿ نَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ ... الآية، يقول: « .. نظر الباقر إلى بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة، وأحسّ الشيعى بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال: أعتذر إليك يا ابن رسول الله عن صلاتى خلف فلان فإنها تقيَّة، ولولا ذلك لصليتُ وحدى، قال له الباقر: يا أخى؛ إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت، ياعبد الله المؤمن؛ ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلى عليك وتلعن إمامك ذاك، وإن الله تعالى أمر أن تُحسب صلاتك خلفه للتقيَّة بسبعمائة صلاة لو صليتها لوحدك. فعليك بالتقيَّة» (٢) .

● **تأثره بمذهب المعتزلة :**

وإنا لنجد فى هذا التفسير تأثراً بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم ، فمثلاً عندقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ .. نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره، ونراه يتأوَّل هذا الختم بما يتفق ورأى المعتزلة فيقول: «أى وسَمَها بسمَة يعرفها مَن يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا يؤمنون، وعلى سمعهم كذلك بسمَات، وعلى أبصارهم غشاوة، وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كُلِّفوه، وقصَّروا فيما أُريد منهم، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به، فصاروا كمن على عينه غطاء لا يبصر ما أمامه، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالبته ولا بالمسير إلى ما قد صدَّهم بالعجز» (٣) .

● **تأثره فى تفسيره بآراء الشيعة فى الفروع الفقهية :**

كذلك نجد المؤلف يجرى فى تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التى يقول بها الإمامية الإثنا عشرية.

فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ .. نراه يروى حديثاً طويلاً عن رسول الله ﷺ يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجْلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما، وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقيَّة، وهذا الحديث هو: أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، وإذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب رأسه، وإذا مسح رجليه - أو غسلهما تقيَّة - تناثرت ذنوب رجليه» ... إلخ (٤) .

---

(١) صفحة ٢٣٩ . (٢) الصفحات: ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) صفحة ٣٦ . (٤) الصفحات: ٢١٥ - ٢١٦

وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعى، سيراً فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المعقول المقبول. وإذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكرى، الإمام المعصوم، الذى عنده علم القرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته.

وإذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من علمه وصلاحه أمراً حقيقياً فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوباً إلى هذا الإمام زوراً وبهتاناً، وهذا ما أُرجحه وأختاره، لأنى لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه فى التشيع كما فعل غيره.

* * *

٣ - مجمع البيان لعلوم القرآن (للطبرسى)

● **ترجمة المؤلف ومكانته العلمية :**

مؤلف هذا التفسير فى نظر أصحابه هو أبو علىّ، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى المشهدى[١] ، الفاضل، العالم، المفسِّر، الفقيه، المحدِّث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل، وهو من بيت عُرِف أهله بالعلم، فهو وابنه رضى الدين أبو نصر حسن ابن الفضل صاحب مكارم الأخلاق، وسبطه أبو الفضل علىّ بن الحسن، وسائر سلسلته وأقربائه، من أكابر العلماء. ويروى عنه جماعة من العلماء منهم: ولده المذكور، وابن شهراشوب، والشيخ منتخب الدين، والقطب الراوندى، وغيرهم. ويروى هو عن الشيخ أبى علىّ ابن الشيخ الطوسى. قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس: « هو ثقة، فاضل، دَيِّن، عَيْن، له تصانيف، منها: مجمع البيان فى تفسير القرآن، والوسيط فى التفسير أربع مجلدات، والوجيز مجلدة، وإعلام الورى بأعلام الهدى مجلدتين، وتاج المواليد، والآداب الدينية للخزانة المعيبة ».

قال صاحب روضات الجنَّات معقباً على هذا: « وقد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ (أربع وثلاثين وخمسمائة) ولعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور. وبالوجيز: الكاف الشافِ عن الكشاف، ويحتمل المغايرة ».

وقال جوامع صاحب مجالس المؤمنين ما معناه: « إن عمدة المفسِّرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو علىّ الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، كان من نحارير علماء التفسير، وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف ودليل واف لجامعيته لفنون الفضل والكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، ألَّف تفسيراً آخر مختصراً، شاملاً لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع، وله تفسير ثالث أيضاً أخصر من الأولين، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام، ويظهر من كتاب اللمعة الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسى هذا كان داخلاً فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضاً، ومقالته فى الرضاع معروفة، وهى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة، وكذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر ».

ومن العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة والغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره « مجمع البيان » - الذى نحن بصدده - فيقولون: « ومن عجيب أمر هذا الطبرسى بل

---

(١) الطبرسى: نسبة إلى طبرستان، والمشهدى: نسبة للمشهد الرضوى المدفون فيه.

من غريب كراماته، وما اشتهر بين الخاص والعام، أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ودفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه في القبر ومسدوداً عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر في تلك الحالة أنه إذا نجى من تلك الداهية ألَّف كتاباً في تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النبَّاشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحيَّر النباش ودهش مما رآه، ثم تكلم معه فازداد به قلقاً، فقال له: لا تخف، أنا حي وقد أصابتني السكتة ففعلوا بي هذا، ولما لم يقدر على النهوض والمشي من غاية ضعفه، حمله النبَّاش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النبَّاش، ثم إنه بعد ذلك وفى بنذره الموصوف، وشرع في تأليفه مجمع البيان».

وكانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة)[١].

● الكلام على هذا التفسير وطريقته مؤلفه فيه:

قبل أن أخوض في الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء في مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله، لما جاء فيها من بيان الحوافز التي دفعت مؤلفه إلى تأليفه، ولما أوضحه لنا من طريقته التي سلكها في تفسيره، فهو أدرى بها وأعلم..

● الدواعي التي حملت الطبرسي على كتابه هذا التفسير:

ذكر الطبرسي هذه الدواعي فقال: «... وقد خاض العلماء قديماً وحديثاً في علم تفسير القرآن، واجتهدوا في إبراز مكنونه وإظهار مضمونه، وألَّفوا فيه كتباً جمة غاصوا في كثير منها إلى أعماق لجه، وشققوا الشعر في إيضاح حججه، وحققوا في تفتيح أبوابه وتغلغل شعابه، إلا أن أصحابنا - رضي الله عنهم - لم يدوِّنوا في ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم في ذلك من الأخبار، ولم يعنوا ببسط المعاني فيه وكشف الأسرار، إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي من كتاب التبيان، فإنه الكتاب الذي يُقتبس من ضيائه الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن فيه من المعاني الأسرار البديعة، واختصر من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضيء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط في أشياء مما ذكره في الإعراب والنحو الغث بالسمين، والخاثر بالزباد، ولم يميز الصلاح مما ذكر فيه والفساد، وأدى الألفاظ في مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، وأخلَّ بحسن الترتيب وجودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السليمة الموقع المرضي، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان العلي».

(١) انظر روضات الجنات ص ٥١٢ - ٥١٤

«وقد كنت فى ريعان الشباب وحداثة السن، وريَّان العيش ونضارة الغصن، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب فى التفسير، ينتظم أسرار النحو اللطيفة، ولمع اللُّغة الشريفة، ويفى موارد القراءات من متوجهاتها، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، ويجمع جوامع البيان فى المعانى المستنبطة من معادنها، المستخرجة من كوامنها، إلى غير ذلك من علومه الجمَّة، مطلعة من الغلف والأكمة، فيعترض لذلك جوائح الزمان، وعوائق الحدثان، وواردات الهموم، وهفوات القدر المحتوم، وهلم جراً إلى الآن، وقد زرف سنى على الستين واشتعل الرأس شيباً، وامتلأت العيبة عيباً، فحدانى على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم، ولى النعيم جلال الدين ركن الإسلام، فخر آل رسول الله صلى الله عليه وآل، أبى منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين - أدام الله علاه - بهذا العلم، وصدق رغبته فى معرفة هذا الفن. وقصر همه على تحقيق حقائقه، والاحتواء على جلائله ودقائقه، والله عَزَّ اسمه المسئول أن يحرس للإسلام والمسلمين رفيع حضرته، ويفيض على الفضل والفضلاء سجال سيادته، ويمد على العلم والعلماء أمداد سعادته.. فأوجبتُ على نفسى إجابته إلى مطلوبه، وإسعافه بمحبوبه، واستخرتُ الله تعالى، ثم قصرت وَهْمِى وهَمِّى على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، واكتساب هذه الفضيلة النبيلة، وشمرتُ عن ساق الجد، وبذلتُ عاية الجهد والكد، وأسهرتُ الناظر، وأتعبتُ الخاطر، وأطلتُ التفكير، وأحضرتُ التفاسير، واستمددتُ من الله التوفيق والتيسير»(١).

● **وصف الطبرسى لتفسيره:**

ثم وصف الطبرسى تفسيره فقال: «وابتدأتُ فى تأليف كتاب هو فى غاية التلخيص والتهذيب، وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوى فصوصه وعيونه، من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا - رضى الله عنهم - من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعقول والمسموع، على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار، فإن الخواطر فى هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة، وتضعف عن الإجراء فى الحلبات الخطيرة، إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، ومن العلوم إلا الذماء»(٢).

---

(١) هنا يذكر الشيخ الحوافز التى دفعته إلى تأليف هذا التفسير، وهى كما ترى مخالفة للقصة المتقدمة.

(٢) الذماء - فى الأصل - بقية الروح فى المذبوح.

● **منهج الطبرسى فى تفسيره:**

ثم وضَّح منهجه فقال: «وقدَّمتُ فى مطلع كل سورة ذكر مكيها ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أُقدِّم فى كل آية الاختلاف فى القراءات، ثم أذكر العلل والاحتجاجات، ثم أذكر العربية واللُّغات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعانى والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات. على أنى قد جمعت فى عربيته كل غُرَّة لائحة، وفى إعرابه كل حُجَّة واضحة، وفى معانيه كل قول متين، وفى مشكلاته كل برهان مبين، فهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوى عُدَّة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حُجَّة، وللمحدِّث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة، وسميته «مجمع البيان لعلوم القرآن».

● **مقدمات الكتاب:**

ثم استطرد إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: وقبل أن نشرع فى تفسير السور والآيات، فنحن نُصدِّر الكتاب بذكر مقدمات لا بد من معرفتها، لمن أراد الخوض فى علومه تجمعها فنون سبعة:

جعل الفن الأول منها: فى أعداد آى القرآن والفائدة من معرفتها.

والفن الثانى: فى ذكر أسامى القرَّاء المشهورين فى الأمصار ورواتهم.

والفن الثالث: فى ذكر التفسير والتأويل والمعنى، والتوفيق بين ما ورد من الآيات والآثار من النهى عن التفسير بالرأى وإباحته.

والفن الرابع: فى ذكر أسامى القرآن ومعانيها.

والفن الخامس: فى أشياء من علوم القرآن يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها والكتب المؤلَّفة فيها كإعجاز القرآن، والكلام عن زيادة القرآن ونقصانه.

وهنا يقول: فأما الزيادة فيه فمُجْمَع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذى نصره المرتضى قدَّس الله روحه... إلخ [١].

ثم ذكر من جملة العلوم التى يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام فى النسخ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن وليست داخلة فى التفسير.

والفن السادس: فى ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة فى فضل القرآن وأهله.

---

(١) الجزء الأول صفحة ٦

والفن السابع: فى ذكر ما يُستحَب للقارئ من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن (١).

ثم شرع فى التفسير فتكلم عن الاستعاذة فالبسملة ففاتحة الكتاب وهكذا إلى آخر القرآن.

والحق أن تفسير الطبرسى – بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية – كتاب عظيم فى بابه، يدل على تبحر صاحبه فى فنون مختلفة من العلم والمعرفة. والكتاب يجرى على الطريقة التى أوضحها لنا صاحبه، فى تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد فى كل ناحية من النواحى التى يتكلم عنها، فإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلم عن المعانى اللُّغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد، وإذا شرح المعنى الإجمالى أوضح المراد، وإذا تكلم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلم عن الأحكام تعرَّض لمذاهب الفقهاء، وجهر بمذهبه ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجُمَل، وأوضح لنا عن حُسْن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال. وهو ينقل أقوال مَن تقدَّمه من المفسِّرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها، وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التى خالف فيها هو ومَن على شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة. غير أنه – والحق يقال – ليس مغالياً فى تشيعه، ولا متطرفاً فى عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الإثنا عشرية.

وإليك بعض المثل من هذا التفسير، لترى كيف يميل الطبرسى بالآيات القرآنية إلى المعانى التى تتفق ومذهبه، وكيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أُسس من القرآن الكريم، وأن يرد ما يصادفه من ظواهر النصوص ويدفع بها فى وجه خصمه:

● **إمامة علىّ:**

لما كان الطبرسى يدين بإمامة علىّ رضى الله عنه، ويرى أنه خليفة النبى ﷺ بلا فصل، فإنَّا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾.. يبذل مجهوداً كبيراً لاستخلاص وجوب إمامة علىّ رضى الله عنه من هذه الآية، فنجده أولاً يتكلم

---

(١) الجزء الأول ص ١ – ٦

عن المعانى اللُّغوية لبعض مفردات الآية، فيفسِّر «الولى» بقوله: «الولى هو الذى يلى النُصْرة والمعونة، والولى هو الذى يلى تدبير الأمر. يقال: فلان ولى أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها. وولى الدم مَن كان إليه المطالبة بالقَوْد. والسلطان ولى أمر الرعية. ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده: ولى عهد المسلمين. قال الكميت يمدح علياً:

ونعْـم ولى الأمـر بعـد وليه ومنتجع التقوى ونعْم المؤدب

ويروى الفتوى: «وإنما أراد ولى الأمر والقائم بتدبيره، قال المبرد فى كتاب العبادة عن صفات الله: «أصل الولى الذى هو أولى – أى أحق – ومثله المولى»».

ثم بعد ذلك فسَّر الطبرسى «الركوع» و «الحزب»، ثم ذكر الإعراب ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل: «... بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: «قال رسول الله ﷺ»، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا قال الرجل: «قال رسول الله»، فقال ابن عباس: سألتك بالله مَن أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس؛ مَن عرفنى فقد عرفنى، ومَن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيته بهاتين وإلا عميتا يقول: «علىٌّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، ومنصورٌ مَن نصره، ومخذولٌ مَن خذله»، أما إنى صليتُ مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللَّهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان علىّ راكعاً فآوى بخنصره اليمنى إليه – وكان يتختم فيها – فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبى من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: اللَّهم إن أخى موسى سألك فقال: ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾ [طه: ٢٥ – ٣٢]، فأُنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿ **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا** ﴾ [القصص:٣٥]، اللَّهُمّ وأنا محمد نبيك وصفيك، اللَّهم فاشرح لى صدرى، ويَسِّر لى أمرى، واجعل لى وزيراً من أهلى، علياً أشدد به ظهرى. قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: يا محمد؛ اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال اقرأ: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [المائدة: ٥٥] ..

وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره بهذا الإسناد بعينه، وروى أبو بكر الرازى فى كتاب أحكام القرآن – على ما حكاه المغربى عنه، والرمانى، والطبرى أنها نزلت فى علىّ حين تصدَّق بخاتمه وهو راكع، وهو قول مجاهد والسدى. والمروى عن أبى جعفر وأبى عبد الله وجميع علماء أهل البيت.

وقال الكلينى: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية. وفى رواية عطاء قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله؛ أنا رأيت علياً تصدَّق بخاتمه وهو راكع فنحن نتولاه.

وقد رواه السيد أبو الحمد أبى القاسم الحسكانى بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبى صالح أبى الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن آمنوا بالنبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله؛ إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذه المجالس. وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدَّقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبى ﷺ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ... الآية، ثم إن النبى خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فبصر بسائل، فقال النبى ﷺ: هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: نعم، خاتم من فضة، فقال النبى ﷺ: مَن أعطاكه؟ قال: ذلك القائم - وأومأ بيده إلى علىّ - فقال النبى ﷺ: على أى حال أعطاكه؟ قال: أعطانى وهو راكع، فكبَّر النبى ثم قرأ: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].. فأنشأ حسان بن ثابت يقول فى ذلك:

أبا حسن تفديك نفسى ومُهجتى ... وكل بطئ فى الهدى ومسارع
أيذهب مدحيك المحبر ضائعاً ... وما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راكعاً ... زكاة فدتك النفس ياخير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية ... وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

وفى حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من قومهم، فبينا هم يشكون إذ نزلت هذه الآية، وأذَّن بلال فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل، فقال ﷺ: ماذا أُعْطِيتَ؟ قال: خاتم من فضه، قال: مَن أعطاكه؟ قال: ذلك القائم. فإذا هو علىّ. قال: على أى حال أعطاكه؟ قال: أعطانى وهو راكع، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.. ﴾..

ثم شرح المعنى فقال: «ثم بيَّن تعالى مَن له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.. أى الذى يتولى مصالحكم ويحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعله بأمره: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾.. ثم وصف الذين آمنوا فقال: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾، بشرائطها، ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أى ويعطون الزكاة ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ أى فى حال الركوع. وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة علىّ بعد النبى ﷺ بلا فصل. والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظة: ﴿ وَلِيُّكُمُ ﴾فى الآية تفيد مَن هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم،

وثبت أن المراد بـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عليّ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح. والذى يدل على الأول هو الرجوع إلى اللُّغة. فمَن تأملها علم أن القوم نصُّوا على ذلك، وقد ذكرنا قول أهل اللُّغة فيه قبل فلا وجه لإعادته. وإن الذى يدل على أنها فى الآية تفيد دون غيره، أن لفظة ﴿ إِنَّمَا ﴾ على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عمن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، ويعنون نفى الفصاحة عن غيرهم. وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة «الوالى» على الموالاة فى الدين والمحبة، لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر، والمؤمنون كلهم مشتركون في هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].. وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمور، وما يقتضى فرض الطاعة على الجمهور، لأنه لا محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر، والذى يدل على أن المعنى بـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هو عليّ؛ الرواية الورادة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية لما تصدَّق بخاتمه فى حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضاً فإن كل مَن قال: إن المراد بلفظة «ولى» ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية والمنفرد، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنىّ بها سواه، وليس لأحد أن يقول: إن لفظة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، وذلك أن أهل اللغة قد يُعبِّرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التفخيم والتعظيم، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. وليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾، أن هذه شيمتهم وعادتهم ولا يكون حالاً لإيتاء الزكاة، وذلك لأن قوله: ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾، قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله: ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ على أنه حال مَن ﴿ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾، وحملناه على مَن صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، والتأويل المفيد أولى من البعيد الذى لا يفيد. ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة، أنه قال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل فى الخطاب النبى ﷺ وغيره، ثم قال: ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ فأخرج النبى ﷺ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فوجب أن يكون الذى خوطب بالآية هو الذى جُعلَت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولى نفسه، وذلك محال. واستيفاء الكلام فى هذا الباب يطول به الكتاب ومَن أراده فليطلبه من مظانه...»(١).

(١) التفسير والمفسرون: الجزء الأول ص ٢٣٣.

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة، فإن حديث تصدق علىّ بخاتمه فى الصلاة - وهو محور الكلام - حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى فى كتابه منهاج السُّنَّة (الجزءالرابع ص ٣ - ٩).

● **عصمة الأئمة :**

ولما كان الطبرسى يدين بعصمة الأئمة فإنَّا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾.. يحاول محاولة جدية أن يقصر أهل البيت على النبى ﷺ وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين، ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعد ما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذى يريده: «... والروايات فى هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، ولو تصدينا لإيرادها لطال الكلام، وفيما أوردناه كفاية.. واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا: إن لفظه ﴿ **إِنَّمَا** ﴾ محققة لما أُثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإن قول القائل: إنما لك عندى درهم، وإنما فى الدار زيد، يقتضى أنه ليس عندى سوى الدرهم، وليس فى الدار سوى زيد. وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة فى الآية أن تكون هى الإرادة المحضة، أو الإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأول، لأن الله تعالى قد أراد من كل مُكلَّف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة، ولا مدح فى الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثانى، وفى ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح. وقد علمنا أن مَن عدا مَن ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم. ومتى قيل: إن صدر الآية وما بعدها فى الأزواج، فالقول فيه: إن هذا لا ينكره مَن عرف عادة الفصحاء فى كلامهم، فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم» (١).

فأنت ترى أن الطبرسى يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة الأئمة، وهى عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومَن على شاكلته من الإمامية الإثنا عشرية، ولا شك أن هذا تحكم فى كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى وحمله عليه تأثير المذهب.

● **الرجعـــة :**

ولما كان الطبرسى يقول بالرجعة، فإنَّا نراه عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ يقول ما نصه:

---

(١) الجزء الأول صفحة ٥٠

« . . واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة . وقول مَن قال : إن الرجعة لا تجوز إلا فى زمن النبى لتكون معجزة له دلالة على نبوته باطل، لأن عندنا – بل عند أكثر الأمة – يجوز إظهار المعجزات على أيدى الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة فى كتب الأصول . . . »(١) .

● **المهـــدى :**

والطبرسى يدين بالمهدى، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع فى آخر الزمان، وقد تأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة : ﴿ **الَّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصَّلاة ومما رزقْناهم ينفقون** ﴾ يذكر الأقوال الواردة فى المعنى المراد بـ « الغيب »، وينقل فى جملة ما ينقل من الأقوال : أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسَّروا الغيب بما غاب عن العباد علمه . ثم يقول : « وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدى ووقت خروجه »(٢) .

● **التقيَّـــة :**

ولما كان الطبرسى يقول بمبدأ التقيَّة، فإنَّا نجده يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسَّر قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران : ﴿ **لا يتَّخذ الْمؤْمنون الْكافرين أَوْلياء من دون الْمؤْمنين ومن يفْعلْ ذلك فلَيْس من اللَّه في شيْءٍ إلاَّ أن تتَّقُوا منهم تقاة** ﴾ . . . . الآية، فيقول : « مَن اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله فى شىء، أى ليس هو من أولياء الله، والله برئ منه، وقيل : ليس هو من ولاية الله تعالى في شيء . وقيل : ليس من دين الله فى شيء . ثم استثنى فقال : ﴿ **إلاَّ أن تتَّقُوا منهم تقاة** ﴾ . . والمعني : إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يُظهر موافقتهم ولم يُحسن العشْرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودَّتهم بلسانه، ومداراتهم تَقيَّة منهم ودفعاً عَن نفسه من غير أن يعتقد ذلك . وفى هذه الآية دلالة على أن التقيَّة جائزة فى الدين عند الخوف على النفس، وقال أصحابنا : إنها جائزة فى الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال فى قتل المؤمن، ولا فيما يُعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد فى الدين .

قال المفيد : إنها قد تجب أحياناً وتكون فرضاً، وتجوز أحياناً من غير وجوب، وتكون في وقت أفضل من تركها، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذوراً أو معفواً عنه متفضلاً عليه بترك اللوم عليها .

وقال الشيخ أبو جعفر الطوسى : وظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف

---

(١) الجزء الأول صفحة ٥٠ .
(٢) الجزء الأول صفحة ١٧ .

على النفس، وقد روى رُخْصة فى جواز الإفصاح بالحق عنده، وروى الحسن: أن مسيلمة الكذَّاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: إنى أصم.. قالها ثلاثاً، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أما ذلك المقتول فمضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رُخْصة الله فلا تبعة عليه، فعلى هذا تكون التقيَّة رُخْصة والإفصاح بالحق فضيلة» (١).

● **تأثر الطبرسى بفقه الشيعة فى تفسيره:**

ونجد الطبرسى فى تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الإثنا عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم، وهو فى استدلاله، ورده، ودفاعه، وجدله، عنيف كل العنف، قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب مَن يخالفه.

● **نكاح المتعة:**

فمثلاً نجد الإمامية الإثنا عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهذا حاول الطبرسى - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فعندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ **والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** ﴾.... الآية، يقول ما نصه: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** ﴾.... الآية. قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللَّذة.. عن الحسن ومجاهد وابن زيد. فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن. وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معيَّن إلى أجل معلوم.. عن ابن عباس والسدى وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح، لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان فى الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بُعْرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد، ولا سيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهم هذا العقد المسمى مُتعة فآتوهن أُجورهن، ريدل على ذلك أن الله علَّق وجوب إعطاء المهر

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٨٣.

بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به. هذا، وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أُبَىّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرأوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمًّى فآتوهن أُجورهن». . وفى ذلك تصريح بأن المراد به عقد المتعة. وقد أورد الثعلبى فى تفسيره عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس مصحفاً فقال: هذا على قراءة أُبَىّ، فرأيت فى المصحف: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمًّى». وبإسناده عن أبى نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمًّى»، قلت لا أقرؤها هكذا. قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات). . وبإسناده عن سعيد بن جبير أنه قرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجلٍ مُسمًّى». وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ**﴾ أمنسوخة هى؟ قال: قال الحكم: قال علىّ بن أبى طالب: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى[1]. وبإسناده عن عمران بن الحصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها، فأمرنا رسول الله ﷺ، وتمتعنا مع رسول الله ﷺ، ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء.

ومما أورده مسلم بن الحجاج فى الصحيح قال: حدثنا الحسن الحلوانى، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، قال: قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجئناه فى منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر.

ومما يدل أيضاً على أن لفظ الاستمتاع فى الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شىء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشىء، وقد علمنا أن لو طلَّقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد، لأنه قال: ﴿**فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ أى مهورهن، ولا خلاف فى أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد فى نكاح المتعة.

ومما يمكن التعلق به فى هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ حلالاً، أنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبى ﷺ نسخها أو نهى عنها أو أباحها فى وقت مخصوص دون غيره

(١) إلا شفى – بالفاء – أى إلا قليل.

لأضاف التحريم إليه دون نفسه. وأيضاً فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء فى النهى، ولا خلاف فى أن متعة الحج غير منسوخة ولا محرَّمة، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها. وقوله: ﴿ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾.. مَن قال إن المراد بالاستمتاع الانتفاع والجماع، قال: المراد به: ولا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر ونقصانه، أو حط، أو إبراء، أو تأخير. وقال السدى: معناه: لا جُنَاح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب فى عقد المتعة، يزيدها الرجل فى الأجر وتزيده فى المدة، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم..»[1].

● **فرض الرجْلَين فى الوضوء :**

كذلك يقول الطبرسى – كغيره من علماء مذهبه – بأن المسح هو فرض الرجْلَين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلّت على شىء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاة فاغْسلوا وُجُوهكُم وأَيْديَكُمْ إلَى الْمَرَافق وامْسَحُوا برءوسكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْن﴾.. يقول ما نصه: ﴿وأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْن﴾.. اختُلف فى ذلك، فقال الفقهاء: إن فرضهما الغسل. وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة. وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين، كابن عباس، وأنس وأبى العالية والشعبى. وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل، وإليه ذهب الطبرى والجبائى إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم. قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية: يجب الجمع بين المسح والغسل. وروى عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله فمسح على رجليه. وروى عنه أنه قال: إن فى كتاب الله المسح، ويأبى الناس إلا الغسل. وقال: الوضوء غسلتان ومسحتان. وقال قتادة: فرض الله غسلتين ومسحتين. وروى ابن عُلية، عن حميد، عن موسى ابن أنس: أنه قال لأنس ونحن عنده: إن الحَجَّاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم، وإنه ليس شىء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحَجَّاج، قال تعالى: ﴿وامْسَحُوا برءوسكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْن﴾.. قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بَلَّهما. وقال الشعبى: نزل جبريل عليه السلام بالمسح. وقال: إن فى التيمم يمسح ما كان غسلاً، ويلغى ما كان مسحاً.

(١) الجزء الأول صفحة ٢٥٥

وقال يونس: حدثني مَن صحب عكرمة إلى واسط. قال: فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسح عليهما - وأما ما رُوِىَ عن سادة أهل البيت في ذلك فأكثر من أن يُحصَى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازي، عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذى نزل به جبريل. وعنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكعبين، فقلت له: لو أن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا، إلا بكفه كلها. وأما وجه القراءتين فى ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على ﴿بِرءوسِكُمْ﴾، وقال: المراد بالمسح هو الغسل. وروى عن أبى زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسَّحتُ للصلاة، وقوى ذلك بأن التحديد إنما جاء فى المغسول ولم يجىء فى الممسوح، فلما وقع التحديد فى المسح عُلم أنه فى حكم الغسل لموافقة الغسل فى التحديد، وهذا قول أبى علىّ الفارسى.

وقال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا: جحر ضب خرب. وخرب من صفات الجحر لا الضب، وكما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً فى عرانين وبله ... كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجَّاج: إذا قرىء بالجر يكون عطفاً على الرؤوس فيقتضى كونه ممسوحاً. وذُكر عن بعض السلَف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، والسُّنَّة فيه الغسل. قال: والخفض على الجوار لا يجوز فى كتاب الله تعالى، ولكن المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل. وقال الأخفش: هو معطوف على الرؤوس فى اللفظ، مقطوع فى المعنى، كقول الشاعر:

* علفتها تبناً وماءً بارداً *

أى: وسقيتها ماءً بارداً.

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه: إنه معطوف على ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾، لأنَّا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، ولما روى أن النبى ﷺ رأى قوماً توضأوا وأعقابهم تلوح. فقال: «ويل للعراقيب من النار». ذكره أبو علىّ الفارسى، وأما مَن قال بوجوب مسح الرجلين.. حمل الجر والنصب فى «أرجلكم» على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرؤوس، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور، وأمثال ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تُحصى. قالوا: ليس فلان بقائم ولا ذاهباً، وأنشد:

معاوى إننا بشر فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال تأبط شراً:

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا ... أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف « عبد » على موضع « دينار » ، فإنه منصوب في المعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى « جئني » : هات وأحضر لي مثلهم، عطف بالنصب على المعنى، وأجابوا الأوَّلين عما ذكروه في وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجار..

قالوا: ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها: أن فائدة اللَّفظين في اللُّغة والشرع مختلفة، وقد فرَّق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء الممسوحة، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحداً؟

وثانيها: أن الأرجل إذا كان معطوفاً على الرؤوس، وكان الفرض في الرؤوس المسح الذي ليس بغسل بلا خلاف، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك، لأن حقيقة العطف تقتضي ذلك.

وثالثها: أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبي ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسمُّوا المسح غسلاً وفي هذا ما فيه.

فأما استشهاد أبي زيد بقولهم: تمسَّحْتُ للصلاة، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يُخبروا عن الطهور بلفظ موجز ولم يجز أن يقولوا: تغسَّلْتُ للصلاة، لأن ذلك تشبيه بالغُسل، قالوا بدلاً من ذلك تمسَّحْتُ، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً فتجوَّزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم، وهذا لا يقتضي أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل.

وأما ما قالوا في تحديد طهارة الرِجْلين فقد ذكر المرتضى في الجواب عنه: أن ذلك لا يدل على الغسل، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبته الشريعة كالغسل فلا يُنكر تحديده كتحديد الغسل، ولو صرَّح سبحانه وتعالى فقال: وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين لم يكن منكراً. فإن قالوا: إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرِجْلين يقتضي الغسل، قلنا: إنَّا لم نوجب الغسل في اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما، وليس كذلك في الرِجْلين، وإن قالوا: عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام. قلنا: هذا لا يصح، لأن الأيدي محدودة وهي معطوفة على الوجوه التي ليست في الآية محدودة، فإذن جاز عطف الأرجل وهي محدودة، على الرؤوس التي ليست بمحدودة، وهذا أشبه بما ذكرتموه، لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه، وعطف عضو محدود مغسول عليه، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود، فيجب أن يكون « أرجل » ممسوحة محدودة

معطوفة على الرؤوس دون غيره. ليتقابل الجملتان فى عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود.

وأما مَن قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجَّاج أنه لم يُجوِّز ذلك في القرآن، ومَن أجاز ذلك فى الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، وكل ما استشهد به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك. وأيضاً فإن المجاورة إنما وردت فى كلامهم عند ارتفاع اللَّبْس والأمن من الاشتباه، فإن أحداً لا يشتبه عليه أن « خرباً » لا يكون من صفة الضب، ولفظة « مزمل » لا يكون من صفة البجاد، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون ممسوحة كالرؤوس. وأيضاً فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزاً فى كلام العرب، وقالوا فى « جُحْر ضب خرب »: إنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذى هو « جُحر » وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه، وإذا ارتفع الضمير استكن فى « خرب » وكذلك القول فى « كبير أناس فى بجاد مزمل »، فتقديره: مزمل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، وهذا واضح لمن تدبره.

وأما مَن جعله مثل قول الشاعر: « علفتها تبناً وماءً بارداً »، كأنه قدَّر فى الآية: واغسلوا أرجلكم، فقوله أبعد من الجميع، لأن مثل ذلك لو جاز فى كتاب الله تعالى - على ضعفه وبُعْده فى سائر الكلام - فإنما يجوز إذا استحال حمله على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيماً ومعناه ظاهراً فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟

وأما ما قاله أبو علىّ فى القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدى، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير فى الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفاً على الموضع أولى من عطفها على الأيدى والوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم: ضربتُ زيداً وعَمْراً، وأكرمتُ خالداً وبكراً، فإن رد بكر إلى خالد فى الإكرام هو الوجه فى الكلام لا يسوغ الذى سواه، ولا يجوز رده إلى الضرب الذى قد انقطع حكمه، ولو جاز ذلك أيضاً لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان.

فأما ما روى فى الحديث أنه قال: « ويل للعراقيب من النار »، وغير ذلك من الأخبار التى رووها عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، فالكلام فى ذلك أنه لا يجوز أن يُرجع عن ظاهر القرآن بظاهر الأخبار الذى لا يوجب علماً وإنما يقتضى الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووُجدت فى كتبهم، ونُقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبى أوس أنه قال: رأيتُ النبى ﷺ يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلَّى، وعن حذيفة قال: أتى رسول الله سباطة قوم فبال عليها ثم

دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه، وذكره أبو عبيدة فى غريب الحديث... إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وقوله: «ويل للعراقيب من النار»، فقد روى فيه أن قوماً من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها، ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سبباً لهذا الوعيد...

وأما الكعبان فقد اختُلف فى معناهما، فعند الإمامية هما العظمان النابتان فى ظهر القدم عند معقد الشراك، ووافقهم فى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع. وقال جمهور المفسِّرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين، قالوا: ولو كان كما قالوه لقال سبحانه: «وأرجلكم إلى الكعاب» ولم يقل: إلى الكعبين، لأن على ذلك القول يكون فى كل رِجْل كعبان»(١).

● نكاح الكتابيات:

ولما كان مذهب الطبرسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنَّا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسِّر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ**﴾.... الآية، يقول بعد ما تكلم عن اللُّغة والإعراب وسبب النزول: «لما تقدم ذكر المخالطة بيَّن تعالى مَن يجوز مخالطته بالنكاح فقال: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ**﴾ أى لا تزوجوا النساء الكافرات حتى يؤمنّ - أى يصدقن بالله - وهى عامة عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم. وليست بمنسوخة ولا مخصوصة، فاختلفوا فيه، فقال بعضهم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب، وقد فصل الله بينهما فقال: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ [البينة: ١]، و﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ**﴾ [البقرة: ١٠٥] وعطف أحدهما على الآخر، فلا نسخ فى الآية ولا تخصيص.

وقال بعضهم: الآية متناولة جميع الكفار، والشرك يُطلق على الكل، ومَن جحد نبوة نبينا محمد ﷺ فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه، لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة. ثم اختلف هؤلاء: منهم مَن قال: إن الآية منسوخة فى الكتاب بالآية التى فى المائدة: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ [المائدة: ٥].. عن ابن عباس والحسن ومجاهد - ومنهم مَن قال: إنها مخصوصة بغير الكتابيات.. عن قتادة وسعيد بن جبير - ومنهم مَن قال: إنها على ظاهرها فى تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة.. عن ابن عمر وبعض الزيدية وهو مذهبنا،

---

(١) الجزء الأول ص ٣١٤ - ٣١٦

وسيأتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله: ﴿ **وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ** ﴾: معناه: مملوكة مصدِّقة مسلمة خير من حُرَّة مشركة، ﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾: معناه: ولو أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها، فظاهر هذا يدل على أنه يجوز نكاح الأَمَة المؤمنة فى وجود الطَوْل، فأما قول الله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً** ﴾ [النساء: ٢٥]. . . . الآية، فإنما هى على التنزيه دون التحريم، ﴿ **وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا** ﴾ معناه: ولا تُنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى يؤمنوا، وهذا يؤيد قول مَن يقول: إن قوله: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ** ﴾ يتناول جميع الكافرات، وقوله: ﴿ **وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ** ﴾، أى عبد مصدِّق مسلم خير من حُرٍّ مشرك ولو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله»[١].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾. . . . الآية، نراه يقول ما نصه: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ وهم اليهود والنصارى، واختُلف فى معناه، فقيل: هنَّ العفائف حرائر كنَّ أو إماء، حربيات كنَّ أو ذمِّيات . . عن مجاهد والحسن والشعبى وغيرهم - وقيل: هنَّ الحرائر ذمِّيات كنَّ أو حربيات - وقال أصحابنا: لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتابية، لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولقوله: إن قوله: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ [الممتحنة: ١٠]. . وأوَّلوا هذه الآية بأن المراد بـ ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾: اللاتى أسلمن منهن، والمراد بـ ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾: اللاتى كُنَّ فى الأصل مؤمنات بأن وُلدْن على الإسلام، وذلك أن قوماً كانوا يتحرَّجون من العقد على مَن أسلمت عن كفر، فبيَّن سبحانه أنه لا حَرَج فى ذلك، ولهذا أفردهن بالذكر، حكى ذلك أبو القاسم البلخى. قالوا: ويجوز أن يكون مخصوصاً أيضاً بنكاح المتعة وملك اليمين، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبى جعفر أنه منسوخ بقوله: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾، وبقوله: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾[٢].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ قال ما نصه: «أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمى النكاح عصمة، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته، وفى هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء أكانت حربية أو ذمِّية، وعلى كل حال، الآية

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٣٤ (٢) الجزء الأول صفحة ٣١٣

عامة فى الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب»(١).

● **الغنائم :**

ولما كانت الإمامية الإثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به مَن عداهم فيوجبون الخُمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعاً سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يُعثر عليه، والمعدن الذى يُستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمِّى. وليس الخُمس الهاشمى الذى يرون وجوبه – فيما عدا الغنائم الحربية – من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقاً امتيازياً لآل محمد الذين حُرِّمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخُمس حق سلطانى بإرادة ملكية، وهى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن(٢).

لما كان هذا، فإنَّا نجد الطبرسى يُنزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه، ولهذا عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ**﴾.... الآية، يقول متأثراً بمذهبه: «اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخُمس ومَن يستحقه على أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه أصحابنا، وهو أن الخُمس يُقسَّم على ستة أسهم، فسهم لله، وسهم للرسول، وهذان السهمان مع سهم ذى القُربَى للإمام القائم مقام الرسول، وسهم ليتامى آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، ولا يشركهم فى ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرَّم عليهم الصدقات لكونها أوساخ الناس وعوَّضهم من ذلك الخُمس، وروى ذلك الطبرى عن علىّ بن الحسن زين العابدين، ومحمد بن علىّ الباقر. وروى أيضاً عن أبى العالية والربيع أنه يُقسم على ستة أسهم إلا أنهما قالا: سهم الله للكعبة، والباقى لمن ذكره الله. وهذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب ويقويه.

الثانى: أن الخُمس يُقسم على خمسة أسهم، وأن سهم الله والرسول واحد، ويُصرف هذا السهم إلى الكراع والسلاح، وهو المروى عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، وعطاء.

الثالث: أن يُقسم على أربعة أسهم: سهم لذى القُربَى.. لقرابة النبى ﷺ، والأسهم الثلاثة لمن ذُكروا بعد ذلك من سائر المسلمين وهو مذهب الشافعى.

الرابع: أنه يُقسم على ثلاثة أسهم، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته، لأن الأنبياء

---

(١) الجزء الثانى صفحة ٤٩٧ (٢) تعريف الشيعة ص ٣١

لا تورث فيما يزعمون، وسهم ذوى القُربَى قد سقط، لأن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذى القُربَى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما.. وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق - ومنهم مَن قال: لو أعطى فقراء ذوى القُربَى سهماً والآخرين ثلاثة أسهم جاز، ولو جعل ذوى القُربَى أُسوة بالفقراء ولا يفرد لهم سهم جاز - واختُلف فى ذى القُربَى: فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه.. عن ابن عباس ومجاهد، وإليه ذهب أصحابنا - وقيل: هم بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف... وهو مذهب الشافعى، وروى ذلك عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ - وقال أصحابنا: إن الخُمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب، وأرباح التجارات، وفى الكنوز والمعادن، والغوص، وغير ذلك مما هو مذكور فى الكتب، ويمكن أن يُستدل على ذلك بهذه الآية، فإن فى عُرْف اللغة يُطلق على جميع ذلك اسم الغُنْم والغنيمة..» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾.... الآية، يقول ما نصه: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ أى من أموال كفار أهل القرى، ﴿ **فَلِلَّهِ** ﴾ يأمركم فيه بما أحب، ﴿ **وَلِلرَّسُولِ** ﴾ بتمليك الله إياه، ﴿ **وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ يعني أهل بيت رسول الله ﷺ وقرابته، وهم بنو هاشم، ﴿ **وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ منهم، لأن التقدير: ولذى قُرْباه، ويتامى أهل بيته ومساكينهم وابن السبيل منهم، وروى المنهال بن عمرو عن علىّ بن الحسين قال: قلت: قوله: ﴿ **وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ قال: هم أقرباؤنا ومساكيننا وأبناء سبيلنا. وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين وأبناء السبيل. وقد روى أيضاً ذلك عنهم. وروى محمد بن مسلم عن أبى جعفر أنه قال: «كان أبى يقول: لنا سهم رسول الله وسهم ذوى القُربَى، ونحن شركاء الناس فيما بقى. والظاهر يقتضى أن ذلك لهم، سواء أكانوا أغنياء أو فقراء.. وهو مذهب الشافعى - وقيل: إن مال الفىء للفقراء من قرابة رسول الله وهم بنو هاشم وبنو المطلب. وروى عن الصادق أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال.. يعنى ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ من فره الدواب، وحسان الجوارى، والدُرَّة الثمينة، والشيء الذى لا نظير له» (٢).

● **ميراث الأنبياء :**

والطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما

---

(١) الجزء الأول ص ٤٨٢ - ٤٨٣ (٢) الجزء الثانى صفحة ٤٩١

يورث سائر الناس، ولهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا. فيحمل عليه كلام الله، فمثلاً عندما فسَّر قوله تعالى فى الآيتين (٥ ، ٦) من سورة مريم: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾.. يقول ما نصه: «.. اختُلف فى معناه، فقيل: معناه: يرثنى مالى ويرث من آل يعقوب النبوة.. عن أبى صالح – وقيل معناه: يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب.. عن الحسن ومجاهد. واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث فى اللُّغة والشريعة لا يُطلق إلا على ما يُنقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يُستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة. وأيضاً فإن زكريا قال فى دعائه: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾.. أى اجعل يا رب ذلك المولى الذى يرثنى رضياً عندك ممتثلاً لأمرك، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، وكان لغواً عبثاً، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللَّهم ابعث لنا نبياً، واجعله عاقلاً رضياً فى أخلاقه، لأنه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا فى النبوة، ويقوى ما قلناه أن زكريا صرَّح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾.. وإنما يطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، لأنه كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبياً مَن ليس بأهل النبوة، وأن يورث علمه وحكمته مَن ليس لهما بأهل، ولأنه إنما بُعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته. فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم فى ورثة المال، لأن فى ذلك إضافة الضن والبخل إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوى الأمران، فإن المال قد يروق المؤمن والكافر، والصالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغى، بل فى ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفسَّاق وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين، فمن عَدَّ ذلك بخلاً وضَنا فهو غير منصف، وقوله: ﴿ خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ يُفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم، كما أن مَن خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به: خفْتُ تضييع الموالى مالى وإنفاقهم إياه فى معصية الله»(١).

وعندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾.. نجده يقول ما نصه: «فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم.. وهو قول الحسن – وقيل: معناه: أنه ورث علمه ونبوته ومُلكه دون سائر

(١) الجزء الثانى ص ١١٤ – ١١٥

أولاده. ومعنى الميراث هنا أنه قام مقامه فى ذلك، فأُطلق عليه اسم الإرث كما أُطلق على الجنَّة اسم الإرث.. عن الجبائى، وهذا خلاف الظاهر، والصحيح عند أهل البيت هو الأول» (١).

● **الإجمـاع :**

ولما كان الطبرسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجِّية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفاً عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلاً فى جمله المجمعين (٢).، فإنَّا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجِّية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات.

فمثلاً عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾.. نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجِّية الإجماع فيقول ما نصه: «... واستدلّ بعضهم بقوله: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ على أن إجماع الأُمة حُجَّة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسُّنَّة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا والإجماع حُجَّة. وهذا الاستدلال إنما يصح لو فُرض أن فى الأُمة معصوماً حافظاً للشرع، فأما إذا لم يُفرض ذلك فلا يصح، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافه عند أكثر العلماء، فكيف اعتمدوا عليه ههنا. على أن الأُمة لا تُجْمع على شىء إلا عن كتاب أو سُنَّة. وكيف يقال إنها إذا أجمعت على شىء لا يجب عليها الرد إلى الكتاب والسُّنَّة وقد رُدَّت إليهما»؟ (٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ** ﴾.... الآية، يقول ما نصه: «.. وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع الأُمة حُجَّة، لأنه توعَّد على مخالفة سبيل المؤمنين كما توعَّد على مشاقة الرسول. والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعة مَن هو مؤمن على الحقيقة ظاهراً وباطناً، لأن مَن أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازاً، فكيف يُحمل ذلك على إيجاب متابعة مَن أظهر الإيمان، وليس كل مَن أظهر الإيمان مؤمناً، ومتى حملوا الآية على بعض الأُمة حملها غيرهم على مَن هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد ﷺ. على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول مَن جمع

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٢٩
(٢) تعريف الشيعة ص ١٦
(٣) الجزء الأول صفحة ٢٧٠

بين مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أنَّ مَن يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟. ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاقة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية، فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر»(١).

● **تأثر الطبرسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره:**

هذا.. وإن عقيدة الطبرسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادىء المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيراً ما يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم، ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه. وأحياناً نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

● **الهدى والضلال :**

ففى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾.... الآية، ـ ما نصه: «.. قد ذُكر فى تأويل الآية وجوه:

أحدها: أن معناه: مَن يرد الله أن يهديه إلى الثواب وطريق الجنَّة يشرح صدره للإسلام فى الدنيا، بأن يثبت عزمه عليه، ويقوى دواعيه على التمسك به، ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان وما يعرض فى القلوب من الخواطر الفاسدة. وإنما يفعل ذلك لطفاً له ومنًّا عليه وثواباً على اهتدائه بهدى الله وقبوله إياه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى**﴾ [محمد: ١٧]، ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ**﴾ عن ثوابه وكرامته، ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ**﴾ فى كفره، ﴿**ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعاً له عن الإيمان، وسالباً إياه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سبباً داعياً له إلى الإيمان، فإن مَن ضاق صدره بالشيء كان ذلك داعياً له إلى تركه. والدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثواباً قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح: ١].... الآيات، ومعلوم أن وضع الوزر ورفع الذكر يكون ثواباً على تحمل أعباء الرسالة وكلفها، وكذلك ما قُرن به من شرح الصدر. والدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٤ ـ ٥]، ومعلوم

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٩٠

أن الهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الثواب، فليس بعد الموت تكليف، وقد وردت الرواية الصحيحة: أنه لما نزلت هذه الآية سُئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر: ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟. قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور. والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

وثانيها: أن معنى الآية: فمن يرد الله أن يثبته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزاءً له على إيمانه واهتدائه، وقد يُطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ**﴾.. أى يخذله ويخلى بينه وبين ما يريده لاختياره الكفر وتركه الإيمان، ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ بأن يمنعه الألطاف التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره. فإن قيل: إنَّا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه، ونراه طيب القلب على كفره، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه؟ قلنا: إنه سبحانه بيَّن أنه يجعل صدره ضيقاً ولم يقل فى كل حال، ومعلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه والشكوك عليه، وعندما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان، وهذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر.

وثالثها: إن معنى الآية: مَن يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعدها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة، لأن من حقها أن تزيد المؤمن بصيرة، ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ**﴾ عن تلك الزيادة بمعنى يُذهبه عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه، ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ لمكان فقد تلك الزيادة، لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده، ويكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان والزجر عن الكفر.. وهذا التأويل قريب مما تقدم. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: إنما سمى الله قلب الكافر حَرَجاً، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه – وفى رواية أُخرى: لا تصل الحكمة إلى قلبه – ولا يجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال، ولا الأمر به، ولا الإجبار عليه، لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال ولا يدعو إليه، فكيف يُجبر عليه، والدعاء إليه أهون من الإجبار عليه. وقد ذم الله تعالى فرعون والسامرى على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ**﴾ [طه: ٧٩]، وقوله: ﴿**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ [طه: ٨٥]، ولا خلاف فى أن إضلالهما إضلال أمر وإجبار ودعاء، وقد ذمهما الله تعالى عليه مطلقاً، وكيف يتمدح بما ذم عليه غيره» (١).

(١) الجزء الأول صفحة ٤٠١

● **رؤية الله :**

كذلك يقول الطبرسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة، ولهذا نراه يُفسِّر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول:

﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ اختلف فيه على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظرة العين. **والثانى**: أنه الانتظار.

واختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أن المراد: إلى ثواب ربها ناظرة، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنَّة حالاً بعد حال، فيزداد بذلك سرورها. وذكر الوجوه والمراد به أصحاب الوجوه.. روى ذلك عن جماعة من علماء المفسِّرين من الصحابة والتابعين وغيرهم.. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ** ﴾ [الفجر: ٢٢] : أمر ربك. وقوله: ﴿ **وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** ﴾ [غافر: ٤٢] : أى إلى إطاعة العزيز الغفار وتوحيده. وقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٧] : أى أولياء الله.

والآخر: أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى: تنظر إلى الله معاينة، روى ذلك عن الكلبى ومقاتل وعطاء وغيرهم.. وهذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين، مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجل سبحانه عن أن يُشار إليه بالأصابع، وأيضاً فإن الرؤية بالحاسة لا تتم إلا بالمقابلة والتوجه، والله يتعالى عن ذلك بالاتفاق. وأيضاً فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئى، والله منزَّه عن اتصال الشعاع به. على أن النظر لا يفيد الرؤية فى اللُّغة، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية. كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطاً متناقضاً، وقولهم: ما زلتُ أنظر إليه حتى رأيته، والشيء لا يُجعل غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلتُ أراه حتى رأيته، ولأنَّا نعلم الناظر ناظراً بالضرورة، ولا نعلمه رائياً يالضرورة، بدلالة أنَّا نسأله: هل رأيتَ أم لا؟

وأما مَن حمل النظر فى الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا فى معناه على أقوال:

أحدها: أن المعنى: منتظرة لثواب ربها.. روى ذلك عن مجاهد، والحسن، وسعيد ابن جبير، والضحاك.. وهو المروى عن علىّ. ومَن اعترض على هذا بأن قال: إن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بـ « إلى »، فلا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال: انتظرته، فالجواب عنه على وجوه:

منها: أنه قد جاء فى الشعر بمعنى الانتظار ومعدى بـ « إلى »، كما فى البيت الذى سبق ذكره:

* .. ناظرات إلى الرحمن * (١)

وكقول جميل بن معمر :

وإذا نظرتُ إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً (٢)

وقول الآخر :

إنى إليك لما وعدتَ لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر

ونظائره كثيرة ..

ومنها : أن تحمل « إلى » فى قوله تعالى : ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ على أنها اسم، فهو واحد الآلاء التى هى النعم، فإن فى واحدها أربع لغات : « إلا » و « ألا » مثل : معى وقفا، و « ألي » و « إلى » مثل جدى وحسى، وسقط التنوين بالإضافة. وقال الأعشى :

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخوض إلى

وليس لأحد أن يقول : إن هذا من أقوال المتأخرين وقد سبقهم الإجماع، فإنَّا لا نُسلِّم ذلك، لما ذكرناه من أن علياً ومجاهداً والحسن وغيرهم قالوا : المراد بذلك : تنتظر الثواب.

ومنها : أن لفظ النظر يجوز أن يعدى بـ « إلى » في الانتظار على المعنى، كما أن الرؤية عديت بـ « إلى » فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ** ﴾ [الفرقان : ٤٥] فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال : رأيت إلى فلان. ومن إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق :

ولقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت منى تلوذ ببطن أم جرير

فعدى « عجبت » بـ « إلى » لأن المعنى نظرت.

وثانيها : أن معناه : مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال : عينى ممدودة إلى الله تعالى وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان.. ولما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الذى يقع بالغين إليها.. عن أبى مسلم.

وثالثها : أن المعنى : أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شئٍ سوى الله، ورجوه دون غيره، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أن الرعية تتوقع نظر السلطان

---

(١) وذلك حيث فسَّر النظر لغة فقال : « .. والنظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلباً لرؤيته. ويكون النظر بمعنى الانتظار. كما قال عَزَّ شأنه : ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ** ﴾ [النمل : ٣٥] أى منتظرة، وقال الشاعر :

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن تنتظر الفلاحا

ثم يُستعمل في الفكر فيقال : نظرت فى هذه المسألة : أى تفكرت، ومنه المناظرة، وتكون بمعنى المقابلة، يقال : دور بنى فلان تتناظر : أى تتقارب (الجزء الثانى ص ٥٥٢).

(٢) رفى رواية : جُدْتَنى نعماً ، أى : جُدتَ علىّ .

وتطمع فى إفضاله عليها وإسعافه فى حوائجها، فنظر الناس مختلف: فناظر إلى السلطان، وناظر إلى تجارة، وناظر إلى زراعة، وناظر إلى ربه يؤمله.. وهذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وعلى هذا فإن هذا الانتظار متى يكون؟ فقيل: إنه بعد الاستقرار فى الجنَّة، وقيل: إنه قبل استقرار الخلق فى الجنة والنار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل.. وهذا اختيار القاضى عبد الجبار - وذكر جمهور أهل العدل أن النظر يجوز أن يُحمل على المعنيين جميعاً، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المُعَد لهم فى الحال من أنواع النعيم، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال ليتم لهم ما يستحقون من الإجلال، ويُسئل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة وبمعنى الانتظار مجازاً فكيف يُحمل عليهما؟ والجواب: أن عند أكثر المتكلمين فى أصول الفقه يجوز أن يرادا بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما.. وهو اختيار المرتضى قدَّس الله روحه، ولَمْ يجوِّز ذلك أبو هاشم إلا إذ تكلم به مرتين: مرة يريد النظر، ومرة يريد الانتظار. وأما قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصاً فكيف يوصف أهل الجنَّة بالانتظار؟ فالجواب عنه: أن مَن ينتظر شيئاً لا يحتاج إليه فى الحال وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك ولا ينقص سروره به، بل ذلك زايد في نعيمه، وإنما يلحق الهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره فى الحال ويلحقه بفوته مضرَّة وهو غير واثق بالوصول إليه. وقد قيل في إضافة النظر إلى الوجوه: إن الغم والسرور إنما يظهران فى الوجوه، فبيَّن الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه، وأن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه..» (١).

● **السحر**:

والطبرسى ينكر حقيقة السحر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السُّنَّة فى ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ، ولهذا نراه فى آخر تفسيره لقوله تعالى للآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾... الآية، يقول ما نصه: «.. واختُلف فى ماهية السحر على أقوال:

فقيل: إنه ضرب من التخييل وصنعة لطيفة من الصنائع، وقد أمر الله تعالى بالتعوذ منه وجعل التحرز منه بكتابه وقاية منه، وأنزل فيه سورة الفلق.. وهو قول الشيخ المفيد أبى عبد الله من أصحابنا.

وقيل: إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، تخيل إلى المسحور لها حقيقة..

وقيل: إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً ويقلبه من صورة إلى صورة، وينشىء الحيوان على وجه الاختراع. وهو لا يجوز، ومن صدَّق به فهو لا يعرف النبوة،

(١) الجزء الثانى ص ٣٥٢ - ٣٥٥

ولا يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع، ولو أن الساحر والمعزم قدرا على نفع أو ضرر، وعلما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معادنها والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه وضرر، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالاً وأكثرهم مكيدة واحتيالاً. علمنا أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك. فأما ما روى من الأخبار أن النبي ﷺ سُحر فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يُلتفت إليها، وقد قال الله حكاية عن الكفار: ﴿**إن تتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**﴾ [الفرقان: ٨]. فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين في مقالهم، حاشا للنبي من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله، فإنه حُجَّة الله على خلقه وصفوته على بريته...» (١).

● **الشـفاعة:**

هذا.. ولا يلتزم الطبرسي القول بكل معتقدات المعتزلة، بل نراه يخالفهم في كثير من الأحيان، ويرد عليهم معتقداتهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفاً قوياً.

فمذهب الطبرسي في الشفاعة - مثلاً - يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿**واتَّقُوا يوماً لاَّ تَجْزِي نفسٌ عن نَّفْسٍ شيْئاً ولا يقْبلُ منها شفَاعةٌ ولا يؤْخذُ منها عدلٌ ولا هم ينصرُونَ**﴾.. يقول ما نصه: ﴿**ولا يُقْبَلُ منها شفَاعَةٌ**﴾ قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي شفاعة مقبولة، وإن اختلفوا في كيفيتها، فعندنا هي مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبي المؤمنين.

وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين. وهي ثابتة عندنا للنبي، ولأصحابه المنتخبين، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحي المؤمنين، وينجي بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ويؤيده الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول وهو قوله: «ادخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي»، وما جاء في روايات أصحابنا رضي الله عنهم مرفوعاً إلى النبي أنه قال: «إني أُشَفَّع يوم القيامة فأشفع، ويُشَفَّع عليّ فيشفع، ويُشَفَّع أهل بيتي فيشفعون، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار»، وقوله مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفائت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة: ﴿**فما لَنَا من شَافِعِينَ * ولا صَديقٍ حَمِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١] (٢).

---

(١) الجزء الأول صفحة ٧٥.

(٢) الجزء الأول صفحة ٤٥.

● **حقيقة الإيمان :**

وهو أيضاً يخالف المعتزلة في حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ .. قال ما نصه : « .. وقالت المعتزلة بأجمعها : الإيمان هو فعل الطاعة، ثم اختلفوا فمنهم مَن اعتبر الفرائض والنوافل. ومنهم مَن اعتبر الفرائض فحسب. واعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها، وقد روى العام والخاص عن عليّ بن موسى الرضا : أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وقد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضاً : الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتباع الرسول.

وأقول أنا : أصل الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاءت به رسله. وكل عارف بشيء فهو مصدِّق به، يدل عليه هذه الاية، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علّقه بالغيب، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على معرفة وثقة، ثم أفرده بالذكر عن سائر الطاعات البدنية والمالية وعطفها عليه فقال : ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾، والشيء لا يُعطف على نفسه إنما يعطف على غيره، ويدل عليه أيضاً أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال : ﴿ **وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل : ١٠٦] ، وقال : ﴿ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .. وقال النبى ﷺ : « الإيمان سر – وأشار إلى صدره – والإسلام علانية » وقد يسمى الإقرار إيماناً كما يسمى تصديقاً إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيماناً لفظياً لا حقيقياً، وقد تُسمى أعمال الجوارح أيضاً إيماناً استعارة وتلويحاً كما يسمى تصديقاً كذلك، فيقال : فلان تُصدِّق أفعاله مقاله، ولا خير فى قول لا يصدقه الفعل. والفعل ليس بتصديق حقيقى باتفاق أهل اللُّغة، وإنما استعير هذا الاسم على الوجه الذى ذكرناه. فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر وقبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والتصديق به على نحو ما تقتضيه اللُّغة، ولا يُطلق لفظه إلا على ذلك. إلا أنه يستعمل فى الإقرار باللسان والعمل بالأركان مجازاً واتساعاً، وبالله التوفيق »(١).

● **روايته للأحاديث الموضوعة :**

هذا .. ولا يفوتنا أن نقول : إن الطبرسى رحمه الله لم يكن صادقاً فى وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدِّث، ذلك لأنَّا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث فى تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصاً ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبى ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم.

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٧

وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسِّرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسنداً إلى أُبَىّ وغيره، ومرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، وهى أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم.

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، وهى أخبار نقرؤها ولا نكاد نرى عليها صبغة الصدق ورواء الحق.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرعد: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾.. نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، مما يدل على أنه يصدقها ويقول بها. فهو بعد أن ذكر أقوالاً أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر وعلىّ الهادى من بعدى، ياعلىّ، بك يهتدى المهتدون». ونقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بالطهور، وعنده علىّ بن أبى طالب، فأخذ رسول الله بيد علىّ بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾، ثم ردها إلى صدره، ثم قال: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾، ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى، وأشهد علىّ ذلك أنك كذلك»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾.. نجده يذكر أقوالاً ثلاثة فى معنى هذه الآية:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التوادد والتحاب فيما يُقَرِّب إلى الله تعالى من العمل الصالح.

وثانيها: أن معناه: إلا أن تودونى فى قرابتى منكم وتحفظونى لها.

وثالثها: إلا أن تودوا قرابتى وتحفظونى فيهم... وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم ما يصرِّح بأن الذين أمر الله بمودتهم: علىّ وفاطمة وولدهما، ويروى - فيما يروى - هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل» مرفوعاً إلى أبى أُمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتَّى، وخُلقت أنا وعلىّ من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلىّ فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمَن تعلَّق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ عنها هوى، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالى، ثم لم يدرك محبتنا كبَّه الله على منخريه فى النار، ثم تلا: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾(٢).

---

(١) الجزء الثانى ص٥. (٢) الجزء الثاني ص ٣٨٧ - ٣٨٩.

● **موقفه من الإسرائيليات :**

وكثيراً ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوَّة إلى قائليها، ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يُعقِّب عليها.. اللَّهُمَّ إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق وبُعدها عن الصواب، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة (ص): ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ** ﴾.... الآيات، نجده يقول: «واختلف فى استغفار داود من أى شىء كان، فقيل: أنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله: ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ [الشعراء: ٨٢].. وأما قوله: ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ** ﴾ [ص: ٢٥] فالمعنى أنَّا قبلناه منه وأثبتناه، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾ [البقرة:١٥]. فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول قيل فى جوابه: «غفرنا» وهذا قول مَن يُنَزِّه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم. ومَن جوَّز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا فى ذلك على وجوه:

أحدها: أن أُوريا بن حنّان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يُزوِّجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضاً فزوَّجوها منه، فقدَّموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا.. عن الجبائى.

وثانيها: أنه أخرج أُوريا إلى بعض ثغوره فقُتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملَكين.

وثالثها: أنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلَّف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قُتل أُوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبة داود وجلالته أولياءه أن يخطبوها فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشاغلاً بالعبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته فى الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ويحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت فى الحكم فزعه من دخولهما عليه فى غير وقت العادة.

وأما ما ذُكر فى القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضَّلتَ علىّ إبراهيم فاتخذتُه خليلاً، وفضَّلتَ علىّ موسى فكلَّمتَه تكليماً. فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما

لم نبتلك بمثله فإن شئتَ ابتليتُ، فقال: نعم يا رب فابتلني، فبينا هو في محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوَّة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوَّة فإذا امرأة أُوريا بن حيَّان تغتسل فهواها وهَمَّ بتزوجها، فبعث بأُوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذى فيه السكينة ففعل ذلك وقُتل، فلما انقضت عدَّتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم في محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: ﴿ **لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾.... إلى قوله: ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص: ٢٢ - ٢٤].. فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فمما لا شبهة في فساده، فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة مَن لا تُقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جَلَّ أنبياء الله عن ذلك. وقد روى عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أُوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أُوريا إلا جلدتُه حدَّين: حداً للنبوة، وحداً للإسلام»(١).

● **التفسير الرمزى :**

والطبرسى مع أنه فى كتابه هذا يُفسِّر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن إلا أنَّا نلاحظ عليه أحياناً أنه يذكر المعانى الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزى الذى يقول به الشيعة، وهو وإن كان ناقلاً لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها، وكثيراً ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾.... الآية، نجده يقول بعد كلام طويل: «واختلف فى هذا المشبه والمشبه به على أقوال».. ثم ذكر هذه الأقوال، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التى لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، وهى ما روى عن الرضا أنه قال: «نحن المشكاة فيها المصباح محمد ﷺ يهدى الله لولايتنا مَن أحب». وما نقله من كتاب التوحيد لأبى جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبى جعفر الباقر فى قوله: ﴿ **كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ قال: نور العلم فى صدر النبى، ﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ الزجاجة صدر علىّ، صار علم النبى إلى صدر علىّ، علَّم النبى علياً، ﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ نور العلم، ﴿ **لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ** ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ قال:

(١) الجزء الثانى صفحة ٣٤٩

يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يُسئل، ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أى إمام مؤيَّد بنور العلم والحكمة فى إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبى آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء فى أرضه، وحججه على خلقه، لا تخل الأرض فى كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبى طالب:

أنت الأمير محمد قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعو د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل فينا وصى مرشد
ولقد عرفتك صادقاً والقول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصوا ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائيل»[١].

● اعتداله فى تشيعه:

والطبرسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الإثنا عشرية، ولقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصباً كبيراً، ولم نأخذ عليه أنه كفَّر أحداً من الصحابة أو طعن فيهم بما يُذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن علىّ بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء، وإن كان يقول بالعصمة. ولقد وجدناه يروى عن رسول الله ﷺ حديثًا فى شأن مَن والى عليًا ومَن عاداه، وهو بصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفا وسطًا أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلىّ رضى الله عنه، هذا الحديث هو ما رواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، حيث قال: «... ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن علىّ عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يومًا فوجدته فى ملإٍ من قريش فنظر إلىّ ثم قال: يا علىّ؛ إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا فى حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا فى بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل .. فنزلت الآية»[٢].

---

(١) الجزء الثانى صفحة ١٨٩٨.
(٢) الجزء الثانى صفحة ٣٩٩.

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أُصول مذهبه وعقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسِّرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسِّرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ ... الآية، يقول: «قيل فى المعنىٰ بهذه الآية أقوال» ... ثم يذكر الأقوال، ويذكر ما رواه أصحابه عن أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق من أنهما قالا: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يُسلِّم الأمر إلى مَن بعده» .. ثم قال مؤيداً لهذا القول: «ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر. وروى عنهم أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم، قال الله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ ... الآية» (١).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ ... الآية، نجده بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السَلَف من أن المراد بأُولى الأمر الأمراء، وما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول: «وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق أن أُولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا مَن ثبت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء ولا العلماء سواهم جَلَّ الله أن يُطاعه مَن يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين فى القول والفعل، لأنه محال أن يُطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. ومما يدل على ذلك أيضًا أن الله لم يقرن طاعة أُولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، ألا وإن أُولى الأمر فوق الخلق جميعًا، كما أن الرسل فوق أُولى الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم» (٢).

وبعد ... أفلا ترى معى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، وجمال التهذيب، ودقة التعليل، وقوة الحُجَّة؟ أظن أنك معى فى هذا، وأظن أنك معى أيضًا فى أن الطبرسى وإن دافع عن عقيدته ونافح عنها لم يغل غلو غيره ولم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التى كان عليها المولى الكازرانى وأمثاله من غلاة الإمامية الإثنا عشرية.

* * *

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٦٩.

(٢) الجزء الأول صفحة ٢٦٩.

٤ - الصافى فى تفسير القرآن
(لملا محسن الكاشى)

● **التعريف بصاحب هذا التفسير :**

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا محسن، وبالفيض الكاشى، وأحد غلاة الإمامية الإثنا عشرية. قال صاحب روضات الجنَّات فى ترجمته ما ملخصه: « وأمره فى الفضل والفهم والنبالة فى الفروع والأصول، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول، وكثرة التأليف والتصنيف، مع جودة التعبير والترصيف، أشهر من أن يخفى فى هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد. وعمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين. ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين. وأبوه مرتضى المذكور أيضًا كان من العلماء، وكذا أخوه محمد المعروف بنور الدين، وكذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور، وبالجملة: فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك، من كبار بيوتات العلم والعمل والفضل والإدراك. وأما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يُعرف بين هذه الطائفة مثله، وخصوصًا فى مراتب المعرفة والأخلاق، وتطبيق الظواهر بالبواطن بحسن المذاق، وجودة الإشراق، وكان يشبه مشربه مشرب أبى حامد الغزالى، وقد نسب إليه الشيخ على المشهدى العاملى فى ذيل رسالته فى تحريم الغناء وغيرها، كثيراً من الأقاويل الفاسدة، والآراء الباطلة العاطلة، التى تفوح منها رائحة الكفر والمضارة بضروريات هذا الدين المتين، والمضادة لما هو من قطعيات علم هذا الشرع المتين، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة ... من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة. مثل قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفار فى عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد وإن كانوا فى جملة أجلائنا الكبار، وفى قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس .. وبالجملة فقد كان رحمه الله دائمًا فى طرف النقيض من الشيخ على المذكور ... ومن جملة مَن كان ينكر عليه أيضًا كثيراً من علماء زمانه الفاضل المحدِّث المولى محمد طاهر القُمِّى صاحب كتاب حُجَّة الإسلام وغيره، وإن قيل إنه رجع فى أواخر عمره عن اعتقاده السوء فى حقه، فخرج من « قُم » المباركة إلى بلدة « كاشان » للاعتراف عنده بالخلاف، والاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشيا على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره، فنادى: يا محسن قد أتاك المسئ، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلا يتصافحان ويتعانقان ويستحل كل منهما من صاحبه ثم رحل من فوره

إلى بلده وقال: لم أرد من هذه الحركة إلا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهَّاب. ويقال أيضًا: إن بعض مَن اعتقد فى حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه فى المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه فى المنام على هبئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما كتبه في أواخر عمره وهو فى مكان كذا كذا، فلما استيقظ وطلبه وجده كما نسبه، وكان فيه تبرئة نفسه من جميع ما يُنسب إليه من أقوال الضلال ... وقد ذكره صاحب أمل الآمل فقل: المولى الجليل، محمد بن مرتضى، المدعي بمحسن الكاشى، كان فاضلاً عالمًا، حكيمًا متكلمًا، محدِّثًا فقيهًا، شاعرًا أديبًا، أحسن التصنيف، من المعاصرين، وله كتب: منها كتاب الوافى فى جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، وهو حسن إلا أن فيه ميلاً إلى بعض طريقة الصوفية، وكذا جملة من كتبه، وكتاب سفينة النجاة فى طريقة العمل، وتفاسير ثلاثة: كبير وصغير ومتوسط، وكتاب عَيْن اليقين، وكتاب علم اليقين، وكتاب حق اليقين .. وقال صاحب لؤلؤة البحرين: «وهذا الشيخ كان فاضلاً، محدِّثًا، إخباريًا، صلبًا، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما فى رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يُفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق، مثل إيراده لآية: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] .. وهو تفريط وغلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التى جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل فى كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفتُ له على رسالة قبيحة صريحة فى القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربى الزنديق، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبَّر عنه ببعض العارفين. ثم قال: وقد تتلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى، وفى الحكمة والأصول عالى صدر الدين محمد ابن إبراهيم الشيرازى، كان صهره على ابنته، ولذا ترى أن كتبه فى الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة. ولاشتهار مذهب التصوف فى بلاد العجم وميلهم إليه، بل وغلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا فى زمانه، والغالية القصوى فى أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه. حتى جاء شيخنا المجلسى فسعى غاية السعى فى سد تلك الشقائق الفاغرة، وإطفاء ثائرة البدع البائرة. وله تصانيف كثيرة أفرد لها فهرسًا على حدة ونحن ننقل عنه ملخصًا: كتاب الصافى فى تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه فى سنة ١٠٧٥ هـ (خمس وسبعين بعد الألف من الهجرة) وكتاب الأصفى، منتخب منه، أحد وعشرين ألف بيت تقريبًا. ثم عدَّد كتبه التى ألفها وهى كثيرة. وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائرى التسترى قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد محسن الكاشانى صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب من مائتى كتاب ورسالة، وكان نشوه فى بلدة «قُمْ»،

فسمع بقدوم السيد الأجَلّ المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحرانى الصادقى إلى «شيراز»، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده فى الرخصة إليه، ثم بنوا الرخصة وعدمها على الاستخارة، فلما فتح القرآن جاءت الآية: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ... الآية، ثم بعده تفاءل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا — وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم، واكتساب معيشة — وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

هذه ترجمة المؤلف وفيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه فى العلم، كما أن الأقوال التى قيلت عن عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، وإن كان صاحب روضات الجنَّات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول إنها فرية بلا مرية .. أما أنا فلم ألاحظ عليه فى تفسيره أثرًا للقول بوحدة الوجود، ولا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار فى عذاب النار. ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفى الفلسفى، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نُسِب إليه وآتُهِم به» (١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

الصافى فى تفسير القرآن الكريم، كتاب فسَّر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الإثنا عشرية. وهو تفسير وسط يقع فى جزئين كبيرين ومتناول لشرح الآيات القرآنية شرحًا مختصرًا جداً ولا يطيل إلا إذا وجد فى الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهداً على مبدأ من مبادئه، أو دليلاً على عقيدة من عقائده، أو دفعًا يدفع به رأيًا من آراء مخالفيه. كذلك يطيل عندما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول ﷺ. والكتاب يعتمد أولاً وقبل كل شئ على ما ورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت، شأنه فى هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه، والكتاب فى جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه فى تشيعه، فهو يجادل ويدافع عن مبادئ حزبه، ويطعن فى صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بالنفاق والكفر .. إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

هذا وقد قدَّم ملا محسن الكاشى لتفسيره باثنتى عشرة مقدمة، أرى أنه لا داعى لذكرها جميعًا، ولكن حسبى وحسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التى يقول بها المؤلف ويشرحها لنا فى هذه المقدمات، ثم أذكر طريقته التى سار عليها فى تفسيره

---

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنَّات، ص ٥٤٢ – ٥٤٩.

كما أوضحها هو، ثم أعرض على القارئ بعد ذلك بعض مواقف المؤلف فى تفسيره، ومنها يتبين جليًا قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه، ومسلكه الذى سلكه فى شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه ويتمشى مع عقيدته، وإليك أهم هذه الآراء التى قالها المؤلف :

● **آل البيت هم تراجمة القرآن، لأنهم جمعوا علمه كله دون مَن عداهم :**

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون مَن عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره، ووقفوا على رموزه وإشاراته، ذلك لأن القرآن نزل فى بيتهم – بيت النبوة – ورب البيت أدرى بما فيه ، وهو في هذه العقيدة لا يشذ وحده بل هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف.

يرى المؤلف هذا الرأى ويصرِّح به فى مقدمة تفسيره فيقول : « ... وإن العترة تراجمة القرآن فمَن الكشاف عن وجوه عرايس أسراره ودقائقه وهم خوطبوا به؟ ومَن لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنبع بحر حقائقه وهم أبو حسنه؟ ومَن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصراح إلا مَن شرح الله صدره بنوره ومثَّله بالمشكاة والمصباح؟ ومَن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل، وفى بيوتهم كان ينزل جبريل؟ . . وهى البيوت التى أذن أن تُرفع، فمنهم يُؤخذ ومنهم يُسمع. إذن أهل البيت بما فى البيت أدرى، والمخاطَبون بما خُوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم وإلى مَن نصير . . »؟ (١).

ثم يمضى صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها – فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها – من وضع الشيعة وأخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافى بإسناده عن سليم بن قيس الهلالى قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول .. وساق الحديث إلى أن قال : ما نزلت آية على رسول الله ﷺ وآله إلا أقرأنيها وأملاها علىّ فأكتبها بخطى، وعلَّمنى تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله أن يُعلِّمنى فهمها وحفظها، فما نسيتُ آية من كتاب الله، ولا علمًا أملاه علىّ فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئًا علَّمه الله من حلال وحرام، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علَّمنيه. وحفظته فلم أنس منه حرفًا واحدًا، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علمًا وفهمًا وحكمة ونورًا، فقلت : يا رسول الله – بأبى أنت وأمى – منذ دعوتَ الله لى بما دعوت لم أنس شيئًا ولم يفتنى شئ لم أكتبه، أوَ تتخوَّف علىّ النسيان فيما بعد؟ . فقال : لستُ أتخوَّفُ عليك نسيانًا ولا جهلاً » قال : ورواه العياشى فى تفسيره

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢ .

والصدوق فى إكمال الدين. بتفاوت يسير فى ألفاظه، وزيد فى آخره: «وقد أخبرنى ربِّى أنه قد استجاب لى فيك وفى شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله؛ ومَن شركائى من بعدى؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبى، فقال: ﴿أطيعوا الله وأَطيعوا الرَّسُول وأُولِي الأَمْرِ منكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .. فقلت: ومَن هم؟ قال: الأوصياء منى إلى أن يردوا علىَّ الحوض، كلهم هادين مهتدين لا يضرهم مَن خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تُنصر أُمتى وبهم تُمطر، وبهم يُدفع عنهم البلاء، وبهم يُستجاب دعاؤهم. فقلت: يا رسول الله؛ سمِّهم لى .. فقال: ابنى هذا .. ووضع يده على رأس الحسن، ثم قال: ابنى هذا .. ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له: علىّ وسيولد فى حياتك فأقرئه منى السلام، ثم تكملة اثنى عشر من ولد محمد. فقلت له: بأبى أنت وأُمى أنت فسمِّهم لى، فسمَّاهم رجلاً رجلاً، فقال: منهم – والله يا أخا بنى هلال – مهدى أُمة محمد، الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجوراً، والله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم» (١).

ومنها ما نقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحَّام .. قال: دخل قتادة ابن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة؛ أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا، بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنتَ تُفسِّره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك. قال قتادة: سل. قال: أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨] .. فقال قتادة: مَن خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله. فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله – يا قتادة – هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيُقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويُضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللَّهم نعم. فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة .. إن كنت إنما فسَّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكتَ وأهلكت، وإن كنتَ أخذته من الرجال فقد هلكتَ وأهلكت، ويحك يا قتادة .. ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفًا بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [ابراهيم: ٣٧]، ولم يعين البيت فقيل: إليه .. نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى مَن هوانا قلبه قُبلت حَجَّته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان ذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة. قال قتادة: لا جَرَم والله لا أُفسرها إلا هكذا. فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن مَن خُوطب به» (٢).

(١) الجزء الأول ص ٥، ٦.
(٢) المرجع السابق.

● **مَن يجوز له أن يُفسِّر القرآن برأيه:**

ولكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معانى القرآن ومعرفة أسراره أصبح أمراً مقصوراً على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حجر واسعاً وجحد فضل مَن عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن فى فهمه قدر مشترك بين العلماء جميعاً لا فرق بين أهل البيت وغيرهم؟ .. الحق أن صاحبنا يرى أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً، ولكن مَن هم أُولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يُعمِلوا عقولهم فى فهم معانى القرآن واستنباط أحكامه؟ . نرى المؤلف يحدد لنا أُولى الفهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعى، وذلك حيث يقول: « .. فالصواب أن يقال: إن مَن أُخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ فى العلم، والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا ببدن روحه معلَّقة بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عَدُّوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمَن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل » (١).

● **المؤلف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى ويطعن فى بقية الصحابة وفى تفسيرهم:**

ولما كان المؤلف – رحمه الله – قد جعل جُلّ اعتماده فى تفسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسير عن آل البيت، لاعتقاده أنهم أدرى به من غيرهم، فإنَّا نراه يرى – مع شئ من التواضع التقليدى – أن تفسيره هو التفسير المثالى الذى يجب أن يُحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره، بل ويبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على مَن عدا أهل البيت من الصحابة ويرميهم بالنفاق وغيره، ولا يرتضى ما جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعاً قد عقمت وضلَّت إلا عقول أهل البيت ومَن والاهم .

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله ﷺ، وذلك حيث يقول: « .. هذا يا إخوانى ما سألتمونى من تفسير القرآن، بما وصل إلينا

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٠ .

من أئمتنا المعصومين من البيان، أتيتكم به مع قلّة البضاعة، وقصور يدى عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، والميسور لا يُترك بالمعسور، ولا سيما أنى كنت أراه أمرًا مهمًا، وبدونه أرى الخطب مدلهمًا، فإن المفسِّرين وإن أكثروا القول فى معانى القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسلطان، وذلك لأن فى القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وخاصًا وعامًا، ومبينًا ومبهمًا، ومقطوعًا وموصولاً، وفرائض وأحكامًا، وسُنَنًا وآدابًا، وحلالاً وحرامًا، وعزيمة ورُخصة، وظاهرًا وباطنًا، وحدًا ومطلعًا . . ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا مَن نزل فى بيته، وذلك هو النبى ﷺ وآله وأهل بيته، فكل ما لا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبى ﷺ : «مَن فسَّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ»، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم فى تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، وعلى أقدار أفهام المخاطبين، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين، وبقيت بعد خبايا فى زوايا، خوفًا من الأعداء وتقيَّة من البعداء، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر، لأن رواته كانوا فى محنة من التقيَّة، وشدة من الخطر، وذلك أنه لما جرى فى الصحابة ما جرى، وضَلَّ بهم عامة الورى، أعرض الناس عن الثَقَلين (١)، وتاهوا فى بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، وعمهوا فى غمرتهم حتى حين، فآل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فكان الكتاب وأهله فى الناس وليسا فى الناس، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا. وكان العلم مكتومًا، وأهله مظلومًا، لا سبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغازه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، وعمن أخذوا التفسير والبيان. فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يُفسِّرون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عمن يحسبونه من كبرائهم، مثل أبى هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير مَن يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا له إلى لُبَاب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله ﷺ وآله، ومن الآخذين عنهم مَن لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يُبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ فى عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرنًا بعد قرن، فكان لهم فى كل قرن

---

(١) أراد بالثَقَلين كتاب الله والعترة كما أفصح عن ذلك فى أول المقدمة، صفحة ٢.

رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بآرائهم يجيبون، أو إلى كبرائهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام فى جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتباً لهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب، وراموا غير باب الله أبوابًا، واتخذوا من دون الله أربابًا، وفيهم أهل بيت نبيهم، وهم أزِّمة الحق، وسُنَّة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحى، وعَيْبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق. أُولوا الأمر الذين أُمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أُمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطَهَّرهم تطهيراً، والراسخون فى العلم الذين عندهم القرآن كله تأويلاً وتفسيراً، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه راجعون. ولما أصبح الأمر كذلك وبقى العلم سخريًا هنالك، صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم، فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم، وحملوه على أهوائهم فى تفاسيرهم وكلامهم، والتفاسير التى صنَّفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل، وكذلك التى صنَّفها متأخرو أصحابنا فإنها أيضًا مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نُقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما نسجوا على منوالهم، واقتصروا فى الأكثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء - فإنما تكلموا فى النحو، والصرف، والاشتقاق، واللُّغة، والقراءة، وأمثالها - مما يدور على القشور دون اللُّباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم مَن أدخل فى التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام فى فروع الفقه وأُصوله، وطوَّل القول فى اختلاف الفقهاء. أو صرف همته فيه إلى المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء، وأما ما وصل إلينا مما أَلَّفه قدماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن، وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف رواته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم» .. إلى أن قال: «وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافى، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافى»[(١)].

● **جُلّ القرآن نازل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:**

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم،

(١) الجزء الأول ص ٢ - ٤.

فما كان من آية مدح فهى فى آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهى فى مخالفيهم، ثم يقوِّى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة فى هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله عن الكافى وتفسير العياشى بالإسناد إلى أبى جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى أعدائنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام»، وزاد العياشى: «ولنا كرائم القرآن» .. ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال: «وقد وردت أخبار جَمَّة عن أهل البيت عليهم السلام، فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنَّفوا كتبًا فى تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام فى تأويل آية آية، إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن. وقد رأيت منها كتابًا يقرب من عشرين ألف بيت .. ثم قال: وذلك مثل لما رواه الكافى عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] .. قال: هى الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام. وفى تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد؛ إذا سمعتَ الله ذكر قومًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعتَ الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا. وفيه عن عمير بن حنظلة عن أبى عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى: ﴿**قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٤٣] .. قال: فلما رآنى أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: حسبك .. كل شئ فى الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو فى الأئمة عُنوا به» (١).

● **رأى المصنف فى تحريف القرآن وتبديله:**

يدين ملا محسن بأنَّ عليًا رضى الله عنه هو أول مَن جمع القرآن، وأن القرآن الذى جمعه هو القرآن الكامل الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروى لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له فى رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القُمِّى فى تفسيره بإسناده عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلىّ عليه السلام: «يا علىّ؛ إن القرآن خلف فراشى فى الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة»، فانطلق عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه. قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه».

ومنها ما رواه القُمِّى بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبى عبد الله -

---

(١) الجزء الأول ص ٦ - ٧.

وأنا أستمع – حروفًا من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله: كُفّ عن هذه القراءة. اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة، وأخرج المصحف الذى كتبه علىّ عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته بين اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان علىّ أن أخبركم حين جمعته لقراءته.

ومن ذلك ما روى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه: أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع علىّ عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم، لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فتحه أبو بكر خرج فى أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا علىّ .. اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه علىّ عليه السلام وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت – وكان قارئًا للقرآن – فقال له عمر: إن عليًا جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتُسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر علىّ القرآن الذى ألّفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟. ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبَّر قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك ... فلما استخلف عمر سأل عليًا عليه السلام أن يدفع إليه القرآن فيحرقوه فيما بينهم فقال: يا أبا الحسن؛ إن كنتَ جئتَ به إلى أبى بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه، فقال علىّ عليه السلام: هيهات، ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئتُ به لأبى بكر لتقوم به الحُجَّة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: إنَّا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئتنا به. إن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهَّرون والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال علىّ عليه السلام: نعم، إذا قام القائم من ولدى فيُظهره ويحمل الناس عليه فتجرى السُّنَّة به » (١).

ولكنَّا نجد صاحبنا بعد ما ساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال .. وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شئ من القرآن، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرَّفًا ومغيَّراً، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا فى القرآن حُجَّة أصلاً، فتنتفى فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضاً قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾ [فصلت: ٤١ – ٤٢]، وقال:

---

(١) الجزء الأول ص ١٠ – ١١.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] .. فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير؟ وأيضًا قد استفاض عن النبى والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على كتاب الله ليُعلم صحته بموافقته له، وفساده بمخالفته (١)، فإذا كان القرآن الذى بأيدينا محرَّفًا فما فائدة العرض؟ مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذِّب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله».

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

أولهما: أن هذه الأخبار إن صحَّت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم علىّ وآل محمد، وحذف أسماء المنافقين، فإن انتفاء التعبير باق لعموم اللَّفظ.

وثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أى حرَّفوه وغيَّروه فى تفسيره وتأويله، بأن حملوه على خلاف ما يُراد منه» (٢).

ثم ذكر بعد هذا أقوال مَن تقدَّمه من شيوخه وعلماء مذهبه وهم ما بين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك، ولكلٍّ أدلته وحُجَّته، ولا نطيل بذكرها ومَن أرادها فليرجع إليها فى المقدمة السادسة (ص ١٤، ١٥).

● **طريقة المؤلف فى تفسيره:**

بَيَّن المؤلف فى المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته واصطلاحاته التى جرى عليها فى كتابه فقال: «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه. أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه وتعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهداً من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به، فإن القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، وقد أُمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا رضوان الله عليهم أوردناه، وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة .. نظائره فى الأحكام ما روى عن الصادق: إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علىّ عليه السلام فاعملوا به (رواه الشيخ الطوسى فى العدة).

---

(١) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم.

(٢) الجزء الأول ص ١٠ - ١٤.

وما لم نظفر فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن وفحواه، وأشبه حديثهم فى معناه .. فإن لم نعتمد عليه من جهة الاستناد، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة والشبه والسداد، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتب الله فخذوه»، وقال الصادق: «ما جاءك فى رواية من راو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك فى رواية من راو فاجر يخالفُ القرآن فلا تأخذ به»، وقال الكاظم: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا. فإن أشبههما فهو حق، وإن لم يشبههما فهو باطل»، وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها، وتركنا سايرها مما فى معناه رومًا للاختصار، وصونًا عن الإكثار، وربما أشرنا إلى تعددها وتكثرها إذا أهمنا الاعتماد.

وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا. وما لا يحتاج إلى شرح اللَّفظ والمفهوم، والنكات المتعلقة لعلوم الرسوم، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أوردنا فيه ما ذكر المفسِّرون الظاهريون من كان تفسيره أحسن، وبيانه أوجز وأتقن، كائنًا مَن كان».

ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكرى وغيره، وذكر اصطلاحاته فى العزو إلى الكتب التى استقى منها، وفى نسبة الأقوال إلى قائليها ولا نطيل بذكرها (١).

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها ملا محسن، والتى استخلصناها من مقدماته التى قدَم بها تفسيره. وهذه هى طريقته التى سار عليها فى كتابه الذى نحن بصدده. والكتاب - كما أشرنا آنفًا - مذهبى إلى حد التطرف والغلو، فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا ويحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه أو دفعًا لمذهب مخالفيه! ... ولقد قرأت فى هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز المزرى، والتعصب الممقوت. ولأجل أن يكون القارئ على بيِّنة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتَّى وفى موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هذا التعصب الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

● القرآن وأهل البيت:

فمثلاً، نجد كثيراً من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكنَّا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى

---

(١) الجزء الأول ص ١٩ - ٣٠.

هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللَّفظ .. معان تحمل فى طياتها طابع التعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «وذلك لما كان فى صلبه من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين، وكانوا قد فُضِّلوا على الملائكة باحتمالهم الأذى فى جنب الله، فكان السجود لهم تعظيمًا وإكرامًا، ولله سبحانه عبودية، ولآدم طاعة. قال علىّ ابن الحسين: حدَّثنى أبى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: يا عباد الله؛ آدم لما رأى النور ساطعًا من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره، رأى النور ولم يتبين الأشباح، فقال: يا رب؛ ما هذه الأنوار؟ قال الله عَزَّ وجَلَّ: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك، ولذلك أمرتُ الملائكة بالسجود لك إذ كنتَ وعاءً لتلك الأشباح، فقال آدم: يا رب؛ لو بينتها لى؟ فقال الله عَزَّ وجَلَّ: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التى فى ظهره، كما ينطبع وجه الإنسان فى المرآة الصافية، فرأى أشباحنا فقال: ما هذه الأشباح يا رب؟ قال الله: يا آدم؛ هذه أشباح أفضل خلائقى وبرياتى، هذا محمد، وأنا الحميد المحمود فى فعالى، شققتُ له أسمًا من اسمى. وهذا علىّ، وأنا العالى، شققتُ له اسمًا من اسمى. وهذه فاطمة، وأنا فاطر السموات والأرض، فاطم أعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى، وفاطم أوليائى عما يعيرهم ويشينهم، فشققتُ لها اسمًا من اسمى، وهذا الحسن، وهذا الحسين، وأنا المُحَسِّن المُجَمِّل، شققتُ اسميهما من اسمى. هؤلاء خيار خليقتى، وكرام بريتى، بهم آخذ، وبهم أعطى، وبهم أُعاقب، وبهم أُثيب، فتوسل بهم إلىّ يا آدم، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إلىّ شفعاءك، فإنى آليت على نفسى قَسَمًا حقًا لا أخيب بهم آملاً، ولا أرد بهم سائلاً، فلذلك حين زلَّت به الخطيئة دعا الله عَزَّ وجَلَّ بهم، فتاب عليه وغفر له» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١ - ٣) من سورة البلد: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾ .. يقول ما نصه: «فى المجمع عن الصادق: يعنى آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم ..» (٢).

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجِّد فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!!.

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٩.

(٢) الجزء الأول صفحة ٣٥٩.

● **طعن المؤلف على الصحابة:**

كذلك نجد ملا محسن فى تفسيره هذا، يطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلاً عن صحابى جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل فى سبيل نُصْرته دمه وماله، كما يطعن فى بنى أُمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

● **طعنه على عثمان رضى الله عنه:**

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٤ ، ٨٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ .. نجده يفسر الآية تفسيراً مختصراً مقبولاً، ثم يروى عن القمي أنها نزلت في أبي ذر - رحمة الله عليه - وفيما فعل به عثمان بن عفان، وكان سبب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفى أبى ذر - رحمة الله عليه - إلى الربْذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ على عصاه، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم أتته من بعض النواحى، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال: حُمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيى.. قال أبو ذر: يا عثمان؛ أيهما أكثر؟ مائة ألف درهم أم أربعة دنانير؟ قال عثمان: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر إذ أنا وأنت دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشاءً فوجدناه كئيبًا حزينًا، فسلَّمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكًا مستبشراً، فقلت له: بأبى أنت وأُمى، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبًا حزينًا، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكًا مستبشراً، فقال: «نعم .. قد بقى عندى من فئ المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسمتها، وخفتُ أن يدركنى الموت وهى عندى، وقد قسمتها اليوم فاسترحت». فنظر عثمان إلى كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق؛ ما تقول فى رجل أدَّى زكاة ماله المفروضة، هل يجب عليه فيها بعد ذلك شئ؟ فقال: لا، ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شئ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب، فقال: يابن اليهودية المشركة، ما أنت والنظر فى أحكام المسلمين؟ قول الله عزَّ وجَلَّ أصدق من قولك حيث قال: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ ... إلى

قوله: ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥] .. قال عثمان: يا أبا ذر؛ إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلتك، فقال: كذبتَ يا عثمان؛ ويلك، أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ فقال: «لا يفتنونك يا أبا ذر ولا يقتلونك»، أما عقلي فقد بقي منه ما أذكرني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قاله فيك وفي قومك، قال: وما سمعت من رسول الله فيّ وفي قومي؟ قال: سمعته يقول - وهو قوله ﷺ: «إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثون رجلا صيَّروا مال الله دولاً، وكتاب الله دغلاً، وعباد الله خولاً، والصالحين حربًا، والفاسقين حزبًا». قال عثمان: يا معشر أصحاب محمد؛ هل سمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا: لا ما سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، قال عثمان: ادعوا عليًا .. فجاء أمير المؤمنين فقال له عثمان: يا أبا الحسن؛ اسمع ما يقول هذا الشيخ الكذَّاب، فقال أمير المؤمنين: يا عثمان؛ لا تقل كذابا، فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر». قال أصحاب رسول الله: صدق عليّ، سمعنا هذا من رسول الله، فعند ذلك بكى أبو ذر وقال: ويلكم، كلكم قد مدَّ عنقه إلى هذا المال، ظننتم أني أكذب على رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: مَن خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم .. خلفت حبيبي رسول الله ﷺ وهو على بعيره، وأنتم قد أحدثتم أحداثًا كثيرة، والله سائلكم عن ذلك ولا يسألني، فقال عثمان: يا أبا ذر؛ أسألك بحق رسول الله إلا ما أخبرتني عما أنا سائلك عنه؟ فقال أبو ذر: والله لو لم تسألني بحق رسول الله ﷺ لأخبرتك، فقال: أي البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتيني الموت، فقال: لا، ولا كرامة لك. قال: المدينة حرم رسول الله، فقال: لا، ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر. فقال: وأي البلاد أبغض إليك أن تكون بها؟ قال: الربْذة التي كنتْ بها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتني فصدقتك، وأنا أسألك فاصدقني، قال: نعم، قال: أخبرني، لو أنك بعثتني فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسروني وقالوا لا نفديه إلا بثلث ما تملك؟ .. قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تملك، قال: كنت أفديك، فقال أبو ذر: الله أكبر .. قال لي حبيبي رسول الله ﷺ يومًا: «يا أبا ذر؛ كيف أنت إذا قيل لك أي البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول: مكة حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتيني الموت، فيقال: لا، ولا كرامة لك، فتقول: المدينة حرم رسول الله، فيقال: لا، ولا كرامة لك، ثم يقال لك: فأي البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول: الربْذة التي كنت بها على غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها»، فقلت: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه لكائن»، فقلت: يا رسول الله" أفلا أضع سيفي على

عاتقى فأضرب به قدمًا قدمًا؟ قال: «لا ... اسمع واسكت ولو لعبد حبشى، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان – خصمك – آية، فقلت: وما هى يا رسول الله؟ فقال: قول الله ...... وتلا الآية» (١).

● **طعنه على أبى بكر:**

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة التوبة: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ ... الآية، نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، رضى الله عنه، بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزًا على أبي بكر، وذلك حيث يقول ما نصه: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ**﴾ وهون أبو بكر، ﴿**لا تَحْزَنْ**﴾ لا تخف، ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ بالعصمة والمعونة .. فى الكافى عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبى بكر فى الغار: اسكن فإن الله معنا، وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حاله قال له: تريد أن أريك أصحابى من الأنصار فى مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر، ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ**﴾ أمنته التى تسكن إليها القلوب ﴿**عَلَيْهِ**﴾ .. فى الكافى عن الرضا: أنه قرأها: «على رسوله» قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرؤها، وهكذا تنزيلها. والعياشى عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ وما لهم فى ذلك من حُجَّة، فوالله لقد قال الله: «فأنزل الله سكينته على رسوله» وما ذكره فيها بخبر، قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: هكذا قراءتها» (٢).

● **طعنه على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة:**

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿**فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [التحريم: ١ – ٣] .. نراه ينقل عن القُمِّى فى سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها، فتناول رسول الله مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، في يومي؟ وفي داري؟ وعلي فراشي؟ فاستحي رسول الله منها فقال: كُفِّى، فقد حرَّمتُ مارية على نفسى، ولا أطؤها بعد هذا أبداً، وأنا أفضى إليك سراً إن أخبرت به فعليك لعنة والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: إن أبا

---

(١) الجزء الأول ص ٤٢، ٤٣.

(٢) الجزء الأول ص ٢٥٧.

بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ فقال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصةُ به عائشةَ من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبا بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشئ ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذى أخبرتْ عنك عائشة، فأنكرت ذلك وقالت: ما قلتُ لها من ذلك شيئا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم .. قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسمُّوا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة قال: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعنى أظهره على ما أخبرت به وما هَمُّوا به من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾: أخبرها وقال: لِمَ أخبرت بما أخبرتُك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ ... قال لمْ يخبرهم بما يعلم مما هَمُّوا به من قتله» (١).

● **صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:**

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ ... الآيات إلى آخر القصة، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسِّرين جميعًا، ويجعل العتاب موجهًا إلى عثمان رضى الله عنه، أو إلى رجل آخر من بنى أُمية. والذى حمله على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهًا إلى النبى ﷺ أو إلى أحد من الأئمة المعصومين، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان وصدور سببه منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره، لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة، فلهذا تراه يروى عن القُمِّى: «أنها نزلت فى عثمان وابن أُم مكتوم»، وكان ابن أُم مكتوم مؤذنًا لرسول الله ﷺ، وكان أعمى، وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدَّمه رسول الله ﷺ على عثمان فعبس عثمان وجهه وتولَّى عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ .. ونقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أُمية كان عند النبى فجاء ابن أُم مكتوم، فلما رآه تقذَّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله ذلك وأنكره عليه .. ثم قال: أقول: «وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبى ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكره بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، ويمكن أن يكون من مختلقات أهل النفاق خذلهم الله» (٢).

● **دفاع المؤلف عن أُصول مذهبه:**

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، ونراه ينتصر لمذهبه

(١) الجزء الثانى صفحة ٣٢٠.

(٢) الجزء الثانى ص ٣٤٨، ٣٤٩.

ويتعصب له، ويؤيد أُصوله بكل ما يستطيع من الأدلة، ويدفع الشبه عنها، ويرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد، فلهذا نجده إذا مرَّ بآية من آيات القرآن التى يستطيع أن يستند إليها ويعتمد عليها فى نظره، أخذ فى تأويلها على وفق مذهبه وهواه، وإن كان فى ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآنى.

● **ولاية على:**

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ .. نراه يستند إلى هذه الآية استنادًا قويًا فى أن عليًا رضى الله عنه هو وصى النبى ﷺ وخليفته من بعده، فيقول ما نصه: «فى الكافى عن الصادق فى تفسير هذه الآية «أولى بكم»: أى أحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا - يعنى عليًا وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة - ثم وصفهم الله فقال: ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ .. وكان أمير المؤمنين فى صلاة الظهر - وقد صلَّى ركعتين - وهو راكع، عليه حُلَّة قيمتها ألف دينار، وكان النبى أعطاه إياها، وكان النجاشى أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولى الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم .. تصدق على مسكين، فطرح الحُلَّة إليه، وأومأ بيده إليه أن احملها، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ فيه هذه الآية، وصيَّر نعمة أولاده بنعمته، فكل مَن بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدَّقون وهم راكعون. والسائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة.

وعنه عن أبيه عن جده فى قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ﴾ [النحل: ٨٣] .. قال: لما نزلت: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ** ﴾ ... الآية، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها، وإن آمنا فإن هذا ذلٌ حين يُسلَّط علينا علىّ بن أبى طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمدًا صادق فيما يقول، ولكنا نتولاه ولا نطيع عليًا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ﴾ يعنى ولاية على، ﴿ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ بالولاية.

وعنه أنه سُئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟. قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩] .. وهم الذين قال الله: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ .. الآية .. وروى المؤلف غير ذلك من الروايات، وكلها يدور حول هذا الشأن، ثم ادّعى إجماع الأمة على أنه لم يُؤْتِ الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راكع غير رجل واحد هو علىّ .. ثم علَّل عدم ذكره باسمه فى الكتاب بأنه لو ذُكر باسمه فى الكتاب لأُسقط مع ما أُسقط .. ثم وفَّق بين الروايات

القائلة بأنه تصدَّق بحُلَّتـه، وبين الروايات القائلة بأنه تصدَّق بخاتمه فقال: «لعله تصدَّق مرة فى ركوع بالحُلَّة، ومرة بالخاتم .. والآية نزلت بعد الثانية، وقوله تعالى: ﴿ ويُؤْتون ﴾ إشعار بذلك، لتضمنه التكرار والتجدد، كما أن فيه إشعاراً بفعل أولاده أيضاً» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه ﴾ ... الآية، نراه يحمل التبليغ المأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة على وولايته، ويروى هنا قصة طويلة جداً، ويروى خطبة النبى لأصحابه عند «غدير خُمْ»، وهى خطبة طويلة كذلك، وفى هذه الخطبة يقول رسول الله ﷺ مبيناً سبب نزول الآية: «وأنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلىَّ مراراً ثلاثة، يأمرنى عن السلام ربى وهو السلام: أن أقوم فى هذا المشهد وأُعلم كل أبيض وأسود أن علىَّ بن أبى طالب أخى، ووصيى وخليفتى، والإمام من بعدى، الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى، وهو وليكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله علىّ بذلك آية من كتابه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾، وعلىّ بن أبى طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع، يريد الله عزَّ وجَلَّ فى كل حال، وسألتُ جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقلَّة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الآثمين، وحيل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويحسبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أُذُناً، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه، حتى أنزل الله عَزَّ وجَلَّ فى ذلك: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١] .. الآية ولو شئتُ أن أسميهم بأسمائهم لسميت، وأن أُومئ إليهم لأعيانهم لأومأت، وأن أدل عليهم لدللت، ولكنى - والله - فى أُمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أُبلِّغ ما أنزل إلىّ .. ثم تلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فى علىّ، ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... ﴾ ... إلخ» (٢).

● **أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم:**

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ... الآية، نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أُولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما مَن عداهم فليسوا أُولى الأمر، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٦٤.

(٢) الجزء الأول ص ١٦٥ - ١٧١.

الآية ما نصه: «في الكافي والعياشي عن الباقر: إيانا عنى خاصة .. أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. وفي الكافي عن الصادق: أنه سُئل عن الأوصياء، طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ... الآية، وقال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ... الآية. وفيه والعياشي عنه في هذه الآية قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين، فقال: إن الناس يقولون: فما له لم يُسَمِّ عليًا وأهل بيته في كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يُسَمِّ الله لهم ثلاثًا ولا أربعًا حتى كان رسول الله ﷺ فسَّر ذلك لهم، ونزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ونزلت في عليّ والحسن والحسين، فقال رسول الله ﷺ في عليّ: «مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»، وقال: «أُوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يُفرِّق بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطاني ذلك». وقال: «لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم»، وقال: «إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم في باب ضلالة»، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين مَنْ أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل في كتابه تصديقًا لنبيه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فكان عليّ والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أُم سلمة ثم قال: «اللَّهم إن لكل نبي أهلاً وثَقَلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثَقَلي»، فقالت أُم سلمة: ألستُ من أهلك؟ فقال: «إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلي» .. (الحديث)، وزاد العياشي: آل عباس، وآل عقيل، قبل قوله: وآل فلان.

عن الصادق أنه سُئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التي إذا أُخذَ بها زكى العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: «شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق في الأموال: الزكاة، والولاية التي أمر الله بها: ولاية آل محمد، فإن رسول الله قال: «مَن مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية» .. قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فكان عليّ ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده علي بن الحسين ثم من بعده محمد بن عليّ، ثم هكذا يكون الأمر، إن الأرض لا تصلح إلا بإمام» ... (الحديث).

وفي المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً، فقال: أن لا يعرف مَن أمر الله بطاعته وفرض ولايته، وجعله حُجَّته في أرضه، وشاهده على خلقه .. قال: فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. قال: فقبلتُ رأسه وقلت: أوضحتَ لي، وفرَّجتَ عني، وأذهبتَ كل شئ كان في قلبي.

وفى الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله؛ عرفنا الله ورسوله، فمَن أُولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: «هم خلفائى يا جابر وأئمة المسلمين من بعدى، أولهم علىّ بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علىّ بن الحسين، ثم محمد بن علىّ المعروف فى التوراة بالباقر - وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام - ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر، ثم علىّ بن موسى، ثم محمد بن علىّ، ثم علىّ بن محمد، ثم الحسن بن علىّ، ثم سميى محمد، وكنيته «حُجَّة الله فى أرضه، وبقيته فى عباده»، ابن الحسن بن علىّ، ذاك الذى يُفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذى يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا مَن امتحن الله قلبه للإيمان». قال جابر: فقلت: يا رسول الله؛ فهل لشيعته الانتفاع به فى غيبته، فقال: «إى، والذى بعثنى بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب. يا جابر؛ هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله».

والأخبار فى هذا المعنى من الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصى كثرة. وفى التوحيد عن أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسول، وأُولى الأمر بالمعروف والعدل والإحسان.

وفى العلل عنه: لا طاعة لمن عصى الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مُطهَّر لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أُولى الأمر لأنهم معصومون مُطهَّرون لا يأمرون بمعصية» (١).

● **الإمام يوصى لمن بعده:**

ولما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده، وليس ذلك لأحد من المسلمين غيره، فإنَّا نجده يتأثر بهذه العقيدة ويُفسِّر قوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ ... الآية على وفق هذه العقيدة فيقول: «فى الكافى وغيره فى عدة روايات أن الخطاب إلى الأئمة .. أمر كُلاًّ منهم أن يؤدى إلى الإمام الذى بعده ويوصى إليه، ثم هى جارية فى سائر الأمانات .. وفيه وفى العياشى عن الباقر: إيانا عنى، أن يؤدى الإمام الأول إلى الذى بعده العلم والكتب والسلاح» ... إلخ (٢).

● **استدلاله على الرجعة:**

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإنَّا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى فى الآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٣٣.

(٢) الجزء الأول صفحة ١٣٢.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .. وذلك حيث يقول: «أقول: قيَّد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التى قال بها أصحابنا نقلاً عن أئمتهم، واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباتة، والقُمِّى، هذا دليل على الرجعة فى أُمة محمد ﷺ. فإنه قال: لم يكن فى بنى إسرائيل شئ إلا وفى أُمته مثله – يعنى دليلاً على وقوعها» (١).

● **الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان بالغيب:**

ولكون المؤلف يعتقد بالرجعة ويرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن، فإنَّا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذى مدح الله به عباده المتقين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، ونبوة الأنبياء، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنَّة، والنار، وسائر الأُمور التى يلزمهم الإيمان بها مما لا يُعرف بالمشاهدة وإنما يُعرف بدلائل نصبها الله عَزَّ وجَلَّ» (٢).

● **التقيَّـــة:**

ولما كان ملا محسن يقول بالتقية، ويراها ضرورة من ضروريات قيام مذهبه وصون أصحابه من الاضطهاد، فإنَّا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ ... الآية فيقول: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم خوفاً وأمراً يجب أن يُخاف منه، وقرئ: «تقية»، منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز بالمخالفة كما قيل: كن وسطًا وامش جانباً .. ثم قال: وفى العياشى عن الصادق قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إيمان لمن لا تقية له»، ويقول: قال الله: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وفى الكافى عنه قال: التقية ترس الله بينه وبين خلقه. وعن الباقر قال: التقية فى كل شئ يضطر إليه ابن آدم، وقد أحلَّ الله له. والأخبار فى ذلك مما لا يُحصى» (٣).

● **تأثره فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية:**

ولما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له فى بعض المسائل الاجتهادية الفقهية

---

(١) الجزء الأول صفحة ٣٥.
(٢) الجزء الأول صفحة ٢٣.
(٣) الجزء الأول صفحة ٩٦.

رأى يخالف آراء مجتهدى المذاهب الأخرى، فإنا نراه ينتصر لمذهبه ويعمل على تأييده بما يظهر له من آيات القرآن .. والمتتبع لتفسيره لآيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهراً جليًا، فهو يحاول محاولة جدية أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفيه بما يظهر له منه، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبه الفقهى:

● **المتعـــة:**

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ .. نراه يتأثر بما يراه من حلِّ نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلاً على صحة مذهبه وذلك حيث يقول ما نصه: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ مهورهن، سمى أجرًا لأنه فى مقابلة الاستمتاع، ﴿ **فَرِيضَةً** ﴾ مصدر مؤكد. فى الكافى عن الصادق: وإنما أُنزلت: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أُجورهن فريضة» .. والعياشى عن الباقر: أنه كان يقرأها كذلك، وروته العامة أيضًا عن جماعة من الصحابة: ﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ من زيادة فى المهر أو الأجل، أو نقصان فيهما، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع. فى الكافى مقطوعًا والعياشى عن الباقر: «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجلٍ آخر برضًا منها، ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدَّتها، وعدَّتها حيضتان، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا** ﴾ بالمصالح. ﴿ **حَكِيمًا** ﴾ فيما شرع من الأحكام. فى الكافى عن الصادق: المتعة نزل بها القرآن، وجرت بها السُّنَّة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن الباقر: كان علىّ يقول: لولا ما سبقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى - بالفاء، يعنى إلا قليل - أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس، لندبتُ الناس عليها، ورغَّبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنا، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهيه عنها تارة بقوله: متعتان كانتا علي عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهما ومعاقب عليهما: متعة الحج، ومُتعة النساء. وأخرى بقوله: ثلاث كُنّ على عهد رسول الله ﷺ أنا مُحرِّمهن ومُعاقبٌ عليهن: مُتعة الحج ومُتعة النساء وحىّ على خير العمل فى الأذان. وفيه: جاء عبد الله ابن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له: ما تقول فى مُتعة النساء؟ فقال: أحلَّها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر؛ مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها؟ فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أُعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئًا حرَّمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألاعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، وقال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، وبناتك، وأخواتك، وبنات عمك،

يفعلن ذلك؟ فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه. وفيه: سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان صاحب الطاق فقال: يا أبا جعفر؛ ما تقول فى المتعة؟ أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم. قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك؟ فقال أبو جعفر: ليست كل الصناعات يُرغَب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم، ولكن ما تقول يا أبا حنيفة في النبيذ، أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تُقْعد نساءك فى الحوانيت نبَّاذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة، وسهمك أنفذ، ثم قال: يا أبا جعفر؛ إن الآية التى فى «سأل سائل» تنطق بتحريم المتعة (١) والرواية عن النبى قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر: يا أبا حنيفة؛ إن سورة «سأل سائل» مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضًا تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذاك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها. ما تقول فيها: قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث .. ثم افترقا. وعن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال: عن أى المتعتين تسأل؟ فقال: سألتك عن متعة الحج فأنبئنى عن متعة النساء أحق هى؟ فقال: سبحان الله .. أما تقرأ كتاب الله: ﴿**فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة**﴾؟ فقال أبو حنيفة: والله لكأنها آية لم أقرأها قط. وفى الفقه عنه: ليس منا مَن لم يؤمن بكَرَّتنا ويستحل متعتنا (أقول) الكَرَّة: الرجعة، وهى إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم فى زمن القائم لينصروه، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف، ويأتى أخبار أُخر فيها إن شاء الله» (٢).

● نكاح الكتابيـــات :

وملا محسن، لا يميل إلى حُرْمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى، بل نراه يذكر لنا فى تفسيره للآيات التى تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء، ويفيض فى سرده لأقوال المجيزين منهم، ويُعقِّب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحُرْمة، ومرتض لقول مَن يقول بالحلِّ، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿**ولا تنكحوا المشركات**﴾ ... الآية، يقول ما نصه: ﴿**ولا تنكحوا المشركات**﴾ لا نزوجوا الكافرات ﴿**حتى يؤمن**﴾، ﴿**ولأمة**﴾ مملوكة، ﴿**مؤمنة خير من مشركة**﴾ حُرَّة، ﴿**ولو أعجبتكم**﴾ المشركة بجمالها أو مالها أو حسبها، ﴿**ولا**

---

(١) يريد قوله تعالى فى الآيتين (٢٩ - ٣٠) من سورة المعارج: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**﴾.

(٢) الجزء الأول ص ١٢٦ - ١٢٧.

تُنكحوا الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تزوِّجوا منهم المؤمنات، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مملوك، ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ حُرٍّ، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ جماله أو ماله أو حاله، ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات، ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر المؤدى إلى النار، فحقهم أن لا يُوالوا ولا يُصاهروا، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ إلى فعل ما يوجب الجنَّة والمغفرة من الإيمان والطاعة، ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره وتوفيقه، ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أوامره ونواهيه، ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون. القُمِّي: هى منسوخة بقوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال: فنسخ هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وترك قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ على حاله لم ينسخ، لأنه لا يحل للمسلم أن يُنكح المشرك، ويحل له أن يتزوج المشركة من اليهود والنصارى، وكذلك قال النعمان فى كتابه، وكلاهما عَدَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ من منسوخ النصف من الآيات، ويأتى تمام الكلام فيه فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى» (١).

وعندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: ﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فى الفقيه عن الصادق: هن العفائف. والعياشى عن الكاظم: أنه سئل ما معنى إحصانهن؟ قال: هن العفائف من نسائهم. وفي الكافي، والمجمع، والعياشى، عن الباقر: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] .. وزاد فى المجمع: وبقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ .. القُمِّي: أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ .. قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، وغيرهم لم تحل مناكحتهم .. (أقول): يؤيد هذا الحديث النبوى: «إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً فأحلُّوا حلالها وحَرِّموا حرامها» .. وفى الكافى عن الحسن ابن الجهم قال: قال لى أبو الحسن الرضا: يا أبا محمد؛ ما تقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جُعلتُ فداك، وما قولى بين يديك؟ قال: لتقولن، فإن ذلك تعلم به قولي. قلت: لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة؟ قال: ولِمَ قلت: لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ .. قال: فما تقول فى هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ

(١) الجزء الأول صفحة ٧٣.

أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾؟ قلت: فقوله: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ نسخت هذه الآية، فتبسم ثم سكت. وفيه وفى الفقيه عن الصادق فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية قال: إذا أصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقيل: يكون له فيها الهوى، فقال: إن فعل فيمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه فى دينه غضاضة. وعن الباقر: لا ينبغى للمسلم أن يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حُرَّة أو أَمَة. وعنه: إنما يحل منهم نكاح البُلْه. وفى الفقيه عنه: أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية قال: لا، ولكن إن كانت له أَمَة مجوسية فلا بأس أن يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولدها، وفى رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية ولا النصرانية على المسلمة، ويتزوج المسلمة على اليهودية والنصرانية. وفى التهذيب عن الصادق: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حُرَّة. وفيه فى جواز التمتع بهما وبالمجوسية أخبار أُخر» (١).

وفى سورة الممتحنة عند قوله تعالى فى الآية (١٠): ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ .. قال ما نصه: ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد ونسب .. جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات. القُمِّى عن الباقر فى هذه الآية قال: يقول: مَن كانت عنده امرأة كافرة - يعنى على غير ملَّة الإسلام - وهو على ملَّة الإسلام، فليعرض عليها الإسلام، فإن قبلت فهى امرأته، وإلا فهى بريئة منه، فنهى الله أن يمسك بعصمتها. وفى الكافى عنه قال: لا ينبغى نكاح أهل الكتاب، قيل: وأين تحريمه؟ قال: قوله: ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ .. (أقول): قد مضى فى سورة المائدة ما يخالف ذلك» (٢).

● **فرض الرِجْلين فى الوضوء وحكم المسح على الخُفَّين:**

ويرى صاحبنا أن فرض الرِجْلين فى الوضوء مسحها لا غسلها، كما يرى عدم جواز المسح على الخُفَّين، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ... الآية، نراه يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح، وعليه فلا يجزئ المسح على القلنسوة ولا على الخُفَّين، ثم يروى ما جاء فى التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علىّ فقال: ما تقولون فى المسح على الخُفَّين؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ يمسح على الخُفَّين، فقال علىّ: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدرى، فقال علىّ: سبق الكتاب الخُفَّين، إنما نزلت المائدة قبل أن

(١) الجزء الأول ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) الجزء الثانى صفحة ٣١٠.

يُقبض بشهرين أو ثلاثة. وهنا يُعقِّب ملا محسن على هذه الرواية فيقول: (أقول): المغيرة بن شعبة هذا هو أحد رؤساء المنافقين من أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله .. ثم يقول: وفى الفقيه: روت عائشة عن النبى أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة مَن رأى وضوءه على جلد غيره. وروى عنها أنها قالت: لأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إليّ من أن أمسح على خُفَّىْ. ولم يُعرف للنبى خف إلا خف أهداه النجاشي وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقًا، فمسح النبى صلى الله عليه وسلم على رجْليه وعليه خُفَّاه، فقال الناس: إنه مسح على خُفَّيه، على أن الحديث فى ذلك غير صحيح الإسناد (انتهى كلام الفقيه) [١].

وبعد هذا انتقل المؤلف إلي الكلام علي فرض الرِّجْلين في الوضوء فقال بعد ما بيَّن أولاً أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم: « .. ثم دلالة الآية على مسح الرجْلين دون غسلهما أظهر من الشمس فى رابعة النهار، وخصوصًا على قراءة الجر، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، وفي التهذيب عن الباقر أنه سُئل عن قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ .. على الخفض هى أم على النصب؟ قال: «بل هى على الخفض». ثم قال: (أقول): وعلى تقدير القراءة على النصب أيضًا تدل على المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرؤوس، كما تقول: مررت بزيد وعَمْرًا، إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية .. ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه» [٢].

● **الغنائـــــم :**

وهو يرى فى الغنائم ما يراه من علماء مذهبه من أن الخُمس يُقسم إلى ستة سهام: سهم لله. وسهم للرسول. وسهم للإمام، وسهم ليتامى آل الرسول، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم. وسهم الله وسهم الرسول برثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة ... ثم يعلل اختصاص الإمام من الخُمس بالأسهم الثلاثة، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبى من تربية الأُمة، ومؤن المسلمين وقضاء ديونهم، وحملهم فى الحج والجهاد، وذلك قول رسول الله ﷺ، لما أُنزل عليه: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٦] «وهو أبٌ لهم»، فلما جعله الله أبا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك: «مَن ترك مالاً فلورثته، ومَن ترك دَيْنًا أو ضَيَاعًا فعليَّ وإليَّ»، فلزم الإمام ما لزم الرسول. فلذلك صار له من الخُمس ثلاثة أسهم.

«والمؤلف يرى أن الله تعالى عوّض يتامى آل البيت ومساكينهم وأبناء سبيلهم بما

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٥٤.

(٢) الجزء الأول صفحة ١٥٥.

خُصوا به من هذه السهام عن الصدقات التى حُرِّمت عليهم ومُنعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس، ويروى فى ذلك أخباراً كثيرة عن علماء آل البيت » (١).

وعندما فسَّر المؤلف قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُوله من أَهْلِ الْقُرىٰ** ﴾ ... الآية، نقل من الكافى عن أمير المؤمنين أنه قال: « نحن والله الذين عنى الله بـ « ذي القُرْبَى » الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّه عَلَىٰ رَسُولِه من أَهْلِ الْقُرىٰ فَلِلَّه وَلِلرَّسُول وَلِذي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكين** ﴾ منا خاصة ولم يجعل لنا سهماً فى الصدقة .. أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما فى أيدى الناس » (٢).

● **الاستنباط:**

ويرى ملا محسن أن الاستنباط لا يجوز لأحد من الأُمة إلا للأئمة، لأنهم هم المعصومون عن الخطأ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْف أَذَاعُوا به وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ منهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ منهم** ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُم أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْف** ﴾ مما يوجب الأمن والخوف، ﴿ **أَذَاعُوا بِه** ﴾ فشوه. قيل: كان قوم من ضعفه المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ أو أخبرهم الرسول بما أُوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوه، وكانت إذاعتهم مفسدة، ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ** ﴾ ردوا ذلك الأمر، ﴿ **إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ منهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ منهم** ﴾ قيل: أى يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم. فى الجوامع عن الباقر: هم الأئمة المعصومون. والعياشى عن الرضا: يعنى آل محمد ﷺ وهم الذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام، وهم حُجَّة الله على خلقه. وفى الإكمال عن الباقر: مَن وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عَزَّ وجَلَّ، وجعل الجُهَّال وُلاة أمر الله، والمتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوا على الله وزاغوا عن وصية الله وطاعته، فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلُّوا وأضلُّوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حُجَّة » (٣).

● **موقف المؤلف من مسائل علم الكلام:**

والمؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة وآرائهم الكلامية، فهو يوافقهم فى بعض المسائل، ويخالفهم فى بعض آخر منها. وإنَّا لنلحظ هذا التأثر فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية، وإليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة، وبعض المثل التى خالفهم فيها:

---

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٤٤.
(٢) الجزء الثانى صفحة ٣٠٦.
(٣) الجزء الأول صفحة ١٣٧.

● **أفعال العباد :**

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه، ويوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم. ولهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة في تفسيره. فمثلاً عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** ﴾ ... الآية ، نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: « .. والمعنى خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر » (١) .

● **رؤيـــة الله :**

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة فى أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة، ولهذا نراه يتأوَّل آيات الرؤية كما تأوَّلها المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ .. يقول ما نصه ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** ﴾ القُمِّى: أى مشرقة، ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ قال: ينظرون إلى وجه الله أى إلى رحمته ونعمته. وفى العيون عن الرضا قال: يعنى مشرقة تنتظر ثواب ربها. وفى التوحيد والاحتجاج عن أمير المؤمنين فى حديث قال: ينتهى أولياء الله بعد ما يُفرغ من الحساب إلى نهر يسمى « الحيوان »، فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقًا، فيذهب عنهم كل قذى ووعث، ثم يُؤمرون بدخول الجنَّة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾، وإنما نعنى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. وزاد فى الاحتجاج: والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿ **فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [النمل: ٣٥] .. أى منتظرة » (٢) .

● **الشفاعـــة :**

ويخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائز وواقعة يوم القيامة، وأهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ ... الآية، نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال: « هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يُغنى عنه، فأما القيامة فإنَّا وأهلنا نجزى عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنَّة والنار: محمد، وعلىّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا فى تلك العرصات، فمَن كان منهم مُقصرًا وفى بعض شدائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان، والمقداد، وأبى ذر، وعمَّار، ونظرائهم فى العصر الذى يليهم، ثم فى كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضُّون عليهم كالبزاة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقور صيدها،

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٩٦ .

(٢) الجزء الثانى صفحة ٢٤١ .

فيزفونهم إلى الجنة زفًا، وإنَّا لنبعث على آخرين من محبينا خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا، وسيؤتى بالواحد من مُقصِّرى شيعتنا فى أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النُّصَّاب [(١)] فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنَّة وأُولئك النُّصَّاب النار، وذلك ما قال الله عَزَّ وجَلَّ فى الآية (٢). من سورة الحجر: ﴿رُّبما يودُّ الَّذين كفروا﴾ يعنى: بالولاية، ﴿لو كانوا مسلمين﴾ فى الدنيا، منقادين للأئمة، ليُجعل مخالفوهم من النار فداؤهم» [(٢)].

● **السحر** :

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالسحر، فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبى ﷺ سُحِر، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه: ﴿**ومن شرِّ النَّفَّاثات في العُقد**﴾ [الفلق: ٤] ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللواتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق .. ثم ذكر الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ سُحر بفعل لبيد بن الأعصم [(٣)].

● **روايته للأحاديث الموضوعة** :

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التى يرويها المؤلف فى تفسيره عن رسول الله ﷺ أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هى فى الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، وقد مَرَّ بك الكثير من هذه الروايات وهى ناطقة على نفسها بالوضع، فلستُ فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن فى غنى عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه فى ثنايا ألفاظه ومعانيه. والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر فى نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفى اعتقادى أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أُبَىّ وابن عباس فى فضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة فى تفسيره بعد ما سوَّد كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله.

* * *

---

(١) النُّصَّاب: جمع ناصب، والناصب على حسب بيان كتب الشيعة مَن يُقدِّم الأول والثانى - يعنى أبا بكر وعمر - على علىّ، أو يعتقد إمامة الأول والثانى. (انتهى من الوشيعة ص ٢٤).

(٢) الجزء الأول صفحة ٣٣.

(٣) الجزء الثانى صفحة ٣٧٦.

٥ - تفسير القرآن (للسيد عبد الله العلوى)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن محمد رضا، العلوى، الحسينى، الشهير بشبَّر. وُلد بأرض النجف سنة ١١٨٨ هـ (ثمان وثمانين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية) .. ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية ومكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢ هـ (اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة). كان في نظر أصحابه من أعيان الشيعة وفضلائهم، فقيهًا، محدِّثًا، مفسِّراً متبحراً، جامعًا لعلوم كثيرة، آية فى الأخلاق. تلقى العلم على والده، وعلى الإمام الكبير السيد محسن الأعرجى، وقد تتلمذ عليه خلق كثير، لأنهم كانوا يعتبرونه عَلَمًا من أعلام الشيعة، وشخصية علمية بارزة لها مكانها ومقدارها. ولقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف والتصنيف حتى أخرج للناس مع سنه الذى لم يتجاوز الأربع والخمسين سنة كتبًا كثيرة ومصنفات عديدة نذكر منها:

١ - الدرر المنثورة فى المواعظ المأثورة عن عن الله تعالى والنبى والأئمة الطاهرين عليهم السلام والحكماء.

٢ - رسالة فى حجِّية خبر واحد.

٣ - إعمال السُّنَّة. كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسى.

٤ - رسالة فى حجِّية العقل والحسن والقبح العقليين.

٥ - مصباح الظلام فى شرح مفاتيح شرائع الإسلام.

٦ - قصص الأنبياء.

٧ - البرهان المبين فى فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين.

٨ - كتاب شرح نهج البلاغة.

٩ - صفوة التفاسير فى ستين ألف بيت.

١٠ - الجوهر الثمين فى تفسير القرآن المبين.. فى مجلدين فى ثلاثين ألف بيت.

١١ - التفسير الوجيز، مجلد واحد في ثمانية عشر ألف بيت ولعل هذا التفسير هو الذي في أيدينا.

وهناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة فى ترجمته لا نطيل بذكرها (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الإثنا عشرية، من حمل ألفاظ القرآن

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص ٣٧٤، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع شيء من التعصب والغلو فى التنوية بشأن أهل البيت والحط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلىّ وذُرِّيته. والكتاب مختصر فى ألفاظه، موجز فى عباراته، مع تضمنه للمعانى الكثيرة الدقيقة، فهو أشبه ما يكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعانى الكثيرة، والنكات الخفية الدقيقة، بعبارة سلهة موجزة.

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جُلّ اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت، وإن كان لا يعزو كل قول إلى قائله فى الغالب، كما حرص على أن ينصر مذهبه ويدافع عنه سواء فى ذلك ما يتعلق بأُصول المذهب أو بفروعه، وهو بعد ذلك يشرح الآيات التي لها صلة بمسائل علم الكلام شرحاً يتفق أحياناً كثيرة مع مذهب المعتزلة، وأحياناً مع مذهب أهل السُّنَّة. وذلك راجع إلى أنه يأخذ بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل، وبمذهب أهل السُّنَّة فى بعض آخر منها، شأن الكثير الغالب من علماء الإمامية الإثنا عشرية. ثم لا يفوت المؤلف فى تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التى ترد على ظاهر النظم الكريم. ثم يجيب عنها. كما لا يفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللَّفظية والبيانية والمعنوية، مع الخوض أحياناً فى المعانى اللُّغوية والمسائل النحوية، كل هذا - كما قلت - فى أسلوب ممتع لا يمل قارئه من تعقيد ولا يسأم من طول..

ولقد وصف المؤلف تفسيره هذا، وبيَّن مسلكه فيه فقال فى مقدمته:

« هذه كلمات شريفة، وتحقيقات منيفة، وبيانات شافية، وإشارات وافية، تتعلق ببعض مشكلات الآيات القرآنية، وغرائب الفقرات الفرقانية. وتتحرى غالباً ما ورد عن خُزَّان أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والذين نزل فى بيوتهم جبرائيل، بأوجز إشارة، وألطف عبارة، وفيما يتعلق بالألفاظ والأغراض والنكات البيانية تفسير وجيز، فإنه ألطف التفاسير بياناً وأحسنها تبياناً مع وجازة اللَّفظ وكثرة المعنى »(١).

هذا.. وقد أتم المؤلف تفسيره هذا - كما قال فى خاتمته - فى جمادي الأولى سنة ١٢٣٩ هـ (تسع وثلاثين ومائتين بعد الألف من الهجرة) والكتاب مطبوع فى مجلد واحد كبير الحجم، وموجود بدار الكتب المصرية، وإليك بعض ما يكشف عن منهج هذا التفسير:

- **تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك فى تفسيره:**

هذا.. وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر فى تفسيره بتعاليم الإمامية

---

(١) صحفة ٢.

الإثنا عشرية وأُصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حُجَّة لمذهبه أو دفعاً لمذهب مخالفيه إلا فسَّرها كما يحب ويهوى.

● **الإمامـــة:**

فمثلاً نراه يتأثر بعقيدته في الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾.. فيذكر أنها «نزلت فى علىّ عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع فى صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها».. ويدَّعى إطباق أكثر المفسِّرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين – جانب الموافقين وجانب المخالفين – ثم يقول بعد ذلك: «وتدل – يعنى الآية – على إمامته دون مَن سواه، للحصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعَبَّر عنه بصيغة الجمع تعظيماً، أو لدخول أولاده الطاهرين»[١].

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضاً: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾.... الآية، يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر: «أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألستُ أولى بكم من أنفسكم»؟ قالوا: بلى.. قال: «مَن كنت مولاه فعلىّ مولاه»[٢].

● **كل إمام يوصى لمن بعده:**

ويدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولا لأحد من الناس، بل كل إمام يوصي لمن بعده، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾.. الآية، يعترف بأن الأمر يعم كل مكلَّف وكل أمانة.. ثم يقول: «وعنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده»[٣].

وفي سورة الأحزاب عند قوله تعالى في الآية (٣٦): ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾... الآية، يقول: «وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار»[٤].

● **وجود الأئمة فى كل زمان وعصمتهم، ووجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم:**

ولما كان المؤلف يرى أنه لا يخلو كل زمان من إمام، وأن الأئمة لهم من الله العصمة

---

(١) صفحة ٢٦٤.
(٢) صفحة ٢٦٨.
(٣) صفحة ٢٠٣.
(٤) صفحة ٨٧٣.

كالأنبياء وليس هذا لغيرهم، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب أو السُّنَّة، وأما مَن عداهم من الناس فلا يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يُرجع إليه، ولا يُؤخذ برأيه في مسائل الخلاف.

يقول المؤلف هذا ويدين به فنجده يتأثر به في تفسيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ ... الآية، يقول: «دَلَّ على وجود أُولى الأمر فى كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية .. وعنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ** ﴾ أيها المأمورون، ﴿ **فِي شَيْءٍ** ﴾ من أُمور الدين، ﴿ **فَرُدُّوهُ** ﴾ فراجعوا فيه، ﴿ **إِلَى اللَّهِ** ﴾ إلى محكم كتابه، ﴿ **وَالرَّسُولِ** ﴾ بالأخذ بسُنَّته، والمراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه، فإنها رد إليه. وقرئ: «فإن خفتم تنازعًا فى شئ فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أُولى الأمر منكم» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء أيضًا: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ .. يقول: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ** ﴾ هو آل محمد عليهم السلام، ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليهم السلام» (٢).

● **الرجعـــة :**

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها، فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢، ٣) من سورة البقرة: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ .. نجده يُفسِّر الغيب: «بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، وصفاته، والنبوة، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنَّة والنار» (٣).

ومثلاً في تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة أيضًا: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ .. يقول: «وفيه حُجَّة على صحة البعث والرجعة» (٤).

● **التقيَّـــة :**

ولتأثر المؤلف بعقيدته فى التقيَّة نجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ**

---

(١) صفحة ٢٠٤.
(٢) صفحة ٢١٠، ٢١١.
(٣) صفحة ٧.
(٤) صفحة ٢٥.

ذلك فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ ... الآية، يقول: «رخَّص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم وهي التقيَّة التي تدين بها الإمامية، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦]»(١).

● **تحريف القرآن:**

كذلك نجد شبَّراً يعتقد بأن القرآن بُدِّل وحُرِّف، ولما اصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾، نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم، أو فى اللَّوح .. وقيل: الضمير للنبى»(٢).

● **آيات العتاب:**

والمؤلف يكبر عليه معاتبة الله لنبيه محمد ﷺ على أمر من الأُمور، فيحاول بكل ما يستطيع أن يُحوِّل العتاب إلى غير النبى ﷺ.

فمثلاً عتاب الله لنبيه ﷺ فى شأن ابن أُم مكتوم يشق على شبرَّ أن يكون مقصوداً به النبى، فنراه يقتصر على ما روى عن أهل البيت من أن آيات العتاب «نزلت فى رجل من بنى أُميَّة، كان عند النبى ﷺ فجاء ابن أُم مكتوم فلما رآه تقذَّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه»(٣).

● **طعنه على الصحابة:**

وإنَّا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نُسب إليهم فى القرآن تنقيصاً لهم، وحطًّا من قدرهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ .. الآية، نجده يعرض عن تعيين هذا الذى صحب النبى ﷺ فى هجرته، وهو أبو بكر، ثم يُصرِّح أو يُلمِّح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضله المنسوب إليه والمنوَّه به فى القرآن الكريم فيقول: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** ﴾ حال أى معه واحد لا غير، ﴿ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ نقب فى ثور، وهو جبل بقرب مكة، ﴿ **إِذْ** ﴾ بدل ثان، ﴿ **يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** ﴾ – ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال: ﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ** ﴾ [الكهف: ٣٧] – ﴿ **لا تَحْزَنْ** ﴾ فإنه خاف على نفسه وقُبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك، ﴿ **إِن الله معنا** ﴾ عالم بنا. ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا**

---

(١) صفحة ١٢٩. (٢) صفحة ٥٤٦. (٣) صفحة ١١٩١.

هو رابعهم ﴾ . . . إلى قوله . ﴿ **إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ** ﴾ [المجادلة : ٧] : أى عالم بهم . ﴿ **فأنزل الله سكينته** ﴾ طمأنينته ، ﴿ **عليه** ﴾ على الرسول . وفى إقرانه - ﷺ - ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفى ، وجعل « الهاء » لصاحبه ينفيه كونها للرسول قبل وبعد .. إلخ » (١) .

● **تعصبه لآل البيت :**

ولقد مرَّ بنا عند قراءتنا فى التفسير ، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصبًا ممقوتًا مرذولاً ، فتارة نجده يصرف اللفظ العام إلى عليّ رضي الله عنه ، كما فعل في الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ ، فإن صرف لفظ « صالح المؤمنين » عن عمومه وادَّعى أنه خاص بأمير المؤمنين على عليه السلام كما ادَّعى رواية العامة والخاصة لذلك (٢) .

كما نجده يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة وأنبيائهم يتوسلون بهم إلى الله ، فيكشف عنهم الغُمَّة ، ويزحزح عنهم الكُرْبة .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ . . . إلى آخر القصة ، نجده يدَّعى أن السجود لآدم إنما كان « لما فى صلبه من نور محمد ﷺ وأهل بيته » ويدَّعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى « التوسل فى دعائه بمحمد ﷺ وآله الطيبين » (٣) .

ومثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير .

● **علم القرآن كله عند آل البيت :**

والمؤلف يدَّعى - كغيره من الإمامية الإثنا عشرية - أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم ، وأنَّا لنجد أثر هذا واضحًا في تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ . . . الآية ، وذلك حيث يقول : ﴿ **وما يعلم تأويله** ﴾ تأويل القرآن كله الذى يجب أن يُحمل عليه ﴿ **إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ الثابتون فيه ومن لا يُختلف فى علمه . . عن الصادق عليه السلام : نحن الراسخون فى العلم ، ونحن نعلم تأويله . ومَن وقف من الجمهور على : (الله) ، فسَّر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة . . . ونحوه » (٤) .

---

(١) صفحة ٤١٧ ، ٤١٨ . (٢) صفحة ١١٣٥ . (٣) صفحة ١٩ - ٢٠ .
(٤) صفحة ١٩ - ٢٠ .

● **تأثر المؤلف فى تفسيره بفروع الإمامية الفقهية:**

ثم إن المؤلف يجرى فى تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية.

● **نكاح المتعـة:**

فمثلا نجده يتأثر برأيه الذى يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه. فنراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ ... **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ ... الآية، يقول: «والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أُبَيّ وابن عباس وابن مسعود: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»، ﴿ **فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ مهورهن، ﴿ **فريضة** ﴾ من الله ﴿ **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة** ﴾ من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة في الأجر والمدة» (١)

● **فرض الرجلين في الوضوء:**

ولما كان المؤلف يري أن فرض الرجْلين في الوضوء هو المسح لا الغسل فإنا نراه يشير إلي ذلك عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ .. الآية، فيقول: «وأرجلكم إلي الكعبين».. بالجر كما عن حمزة وابن كثير وأبى عمرو.. ونصبه الباقون عطفا على «رءوسكم محلا» (٢).

● **الغنائم:**

كذلك يقول المؤلف بما يقول به علماء مذهبه في تفسير خُمس الغنائم ويجري علي مذهبه في تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** ﴾ ... الآية، فيقول: ﴿ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ، أي فالحكم أو فواجب أن لله خمسه، ﴿ **وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ الإمام، ﴿ **وَالْيَتَامَىٰ** ﴾ يتامي الرسول، ﴿ **وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ منهم، ﴿ **وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ منهم» (٣).

وفي تفسيره لقوله تعالي في الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ والمساكين وابن السبيل** ﴾ ...

---

(١) صفحة: ١٢٢. (٢) صفحة ٢٤٦. (٣) صفحة ٣٩٥.

الآية. يقول مثل ما قاله فى الآية السابقة وينبه على أنه مَرَّ فى الأنفال نحوه[١].

● **ميراث الأنبياء:**

ونجد شبراً يقول بأن الأنبياء يُوَرِّثون المال كسائر الناس، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ .. يقول ما نصه: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ**﴾ الذين يلونى فى النسب، وهم بنو عمه، ﴿**مِن وَرَائِي**﴾ بعد موتى أن يرثوا مالى فيصرفوه فيما لا ينبغى، إذ كانوا أشراراً ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ لا تلد ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا**﴾ ابناً، ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾ ... إلخ»[٢].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «وورث سليمان داود ماله ومُلْكه، وقيل: نبوته وعلمه، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وهم تسعة عشر، والأول مروى»[٣].

● **نكاح الكتابيـــات:**

ولكن نرى المؤلف فى مسألة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحلِّ وعدم الحُرْمة، ففى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ ... الآية، يقول: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ ظاهره حل نكاح كل كتابية ذمِّية أو حربية، دائماً، أو منقطعاً، أو ملكاً .. فيخص آية: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٢١] إن شملت الكتابية .. وعن الباقر عليه السلام أنه منسوخ بتلك»[٤].

وعند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ .. نراه يمر عليها بدون أن يتعرَّض لهذا الموضوع أصلاً.

● **تأثره بمذهب المعتزلة فى تفسيره:**

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الإثنا عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، ويقول بما يقول به فى كثير من أُمور العقائد، كما يخالف أهل الاعتزال فى بعض منها ويقول بما يقول به أهل السُّنَّة، وإننا لنلمس أثر ذلك واضحاً جليًا فى تفسيره لكتاب الله تعالى.

---

(١) صفحة ١١٠٧. (٢) صفحة ٦٣٤. (٣) صفحة ٧٨٨.
(٤) صفحة ٢٤٥.

● **حرية الإرادة وخلق الأفعال:**

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة فى أن العبد حُرٌّ فى إرادته. خالق لأفعاله كلها، ولهذا نراه كلما اصطدم بآية من الآيات التى تدل على أن الله هو الذى يخلق أفعال العباد، لجأ إلى التأويل الذى يتفق مع عقيدته هذه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ ... نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ**﴾ وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون. وعن الرضا عليه السلام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم - كما قال تعالى: ﴿**بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾ [النساء: ١٥٥] - ﴿**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ غطاء.. (أقول): ويمكن أن يكون تهكماً حكاية لقولهم: ﴿**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ [فصلت: ٥] أى فى الآخرة. والتعبير بالماضى لتحققه، ويشهد له قوله: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا**﴾ [الإسراء: ٩٧]، (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ ... الآية، نراه يفر من نسبة التزين إلى الله فيقول: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ .. أى لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زينه لهم» (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من السورة نفسها: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾ ... الآية، يتخلص من نسبة الجعل هنا إلى الله تعالى بتأويله بالتخلية فيقول: «أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخلية، أى لم يمنعهم من العداوة» (٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من السورة نفسها: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ ... الآية. نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف والخذلان فيقول: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ**﴾ أى يلطف به ﴿**يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ بأن يفسح فيه ويُنوِّر قلبه، ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ أى يمنعه ألطافه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان» (٤).

---

(١) صفحة ٨ - ٩. (٢) صفحة ٣١٧. (٣) صفحة ٣١٨.
(٤) صفحة ٣٢٢.

● رؤيـــة الله :

ولقد تأثر المؤلف أيضا فى تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله وعدم وقوعها، ولهذا لما فسَّر قوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ** ﴾ ... الآية، قال ما نصه: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ روى لما كرر سؤال الرؤية أوحى الله إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، ﴿ **قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ علق على المحال، ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ أى أظهر له أمره واقتداره أو نوره وعظمته، ﴿ **فلما أفاق قال سبحانك** ﴾ تنزيها لك عما لا يليق بك من الرؤية وغيرها، ﴿ **تبت إليك** ﴾ من طلب الرؤية، أو السؤال بلا إذن، ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ بأنك لا تُرى» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ .. يقول: «ناظرة إلى رحمته وإنعامه» (٢).

● غفران الذنوب :

ولما كان المؤلف يخالف المعتزلة فى بعض معتقداتهم، فإنَّا نراه يُفسِّر الآيات التى يستندون إليها فى بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها، فمثلاً يرى المؤلف أنه يجوز فى حق الله تعالى أن يغفر الذنوب - إلا الشرك - بدون توبة من العبد تفضلاً منه ورحمة، وهذا ما لا يقول به المعتزلة، فلهذا نجده يجرى على هذه العقيدة فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة النساء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ فيقول: ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ** ﴾ أى الشرك ﴿ **به** ﴾ بدون توبة للإجماع على غفرانها بها، ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ** ﴾ ما سواه من الذنوب بدون توبة، ﴿ **لِمَن يَشَاءُ** ﴾ تفضلاً، ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء» (٣).

وهكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعى، والدفاع عن أصوله وفروعه.

٦ - بيان السعادة فى مقامات العبادة
(لسلطان محمد الخراسانى)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنابذى الخراسانى أحد متطرفى الإمامية الإثنا عشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى (٤).

---

(١) صفحة ٣٦٧.   (٢) صفحة ١١٧٤.   (٣) صفحة ٣٠٠.

(٤) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا.

● **قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يعطينا هذا التفسير لوناً آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية، وذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم فى التفسير يكاد يكون متفقاً على لون واحد، وهو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمة وآل البيت، وما كان من تفاوت بينها فهو لا يعدو أن يكون تفاوتاً بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه، وبمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم وتدعيم أُصوله بالأدلة والبراهين.

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكاً غير هذا المسلك، مما جعل له لوناً مخالفاً للون تلك الكتب السابقة، ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن كله عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل تراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز والإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيراً من البحوث الفلسفية الدقيقة. والذى يقرأ هذا الكتاب ويتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها، الغريبة فى لفظها وأسلوبها، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه، عسير فى فهم مراده ومراميه. وأنا إذ أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغالياً ولا متجنياً فيما حكمت، فكثيراً ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة، ولا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المبتور، بعد أن يرتد إلىَّ البصر خاسئاً وهو حسير، ويرجع الذهن عاجزاً عن الفهم وهو كليل .. وربما أكون واهماً فى هذا الحكم، لقصور معرفتى باصطلاحات القوم، وعدم وقوفى على أُصول مذهبهم ومرامى رموزهم التى يرمزون بها .. ولو تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم، ورأى فيه مخالف لهذا الرأى ..

والذى نلحظه فى هذا التفسير بعد ذلك: أنه يدافع عن أُصول مذهبه ويطيل فى دفاعه، مع تعصب كبير، وتطرف بالغ إلى درجة الغلو والعناد. أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مراً سريعاً بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر، كما نلحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السُّنَّة أيضاً كالبيضاوى وغيره، وكثيراً ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول.

وبالجملة .. فالكتاب يكاد فى جملته أن يكون تفسيراً جارياً على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم، ويظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولاً، وبالذات، يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره وهى قوله: « .. وقد كنت نشيطاً منذ أوان اكتسابى للعلوم وعنفوان شبابى بمطالعة

كتب التفاسير والأخبار ومدارستها، ووفقنى الله تعالى لذلك، وقد كان يظهر لى فى بعض الأحيان من إشارات الكتب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب ولا أسمعها من خطاب، فأردت أن أُثبتها فى وريقات، وأجعلها نحو تفسير للكتاب، لتكون تذكرة لى ولإخوانى المؤمنين، وتنبيهاً لنفسى ولجملة الغافلين، راجياً من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين، ولسان صدق فى الآخرين وهو جدير بأن يسمى: «بيان السعادة فى مقدمات العبادة» (١).

فأنت ترى أن المؤلف يقرر فى هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة تلك الإشارات والتلويحات التى فتح الله بها عليه ولم يُسبق إليها، فلو أنَّا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهة الحق والصواب، ولكنا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الإثنا عشرية، لما فيه من اللَّون المذهبى والأثر الشيعى البالغ حد التطرف والغلو حتى فى ناحيته الصوفية والفلسفية. والكتاب مطبوع فى جزءين، وموجود بدار الكتب المصرية، آخره ما يدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١ هـ.

وأرى قبل كل شئ أن أسوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى يقول بها المصنِّف ويجهر بها فى مقدمة تفسيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة. وإليك أهم هذه الآراء:

● الإمامية الإثنا عشرية والمهدى المنتظر:

يدين صاحبنا بأن علياً أول العترة، ووارث علم محمد ﷺ، وبعده الأحد عشر من ولده، وأن الحادى عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يخرج ويملأ الأرض قسْطًا وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً، وأن هؤلاء الإثنا عشر أئمته وشفعاؤه يوم القيامة (٢).

● القرآن والعترة:

ويعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة، وأن العترة مبينون للقرآن، ويقول: «إن القرآن إمام صامت، والعترة إمام ناطق» كما يقول: «إن محبة العالم من العترة وتعظيمه، والنظر إليه، والجلوس عنده، واستماع قوله وسماعه، والتدبر فى أفعاله وأحواله وأخلاقه، والتفكر فى شئونه والتسليم له ولمتشابهات ما منه، وتخلية بيت القلب لنزوله بملكوته فيه، بملاحظة أنه حبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العبادات. كذلك تعظيم القرآن، والنظر فى سطوره، واستماع كلماته وسماعها، والتدبر فى عباراته، والتفكر فى إشاراته ولطائفه، وتخلية بيت القلب

---
(١) الجزء الأول صفحة ٣.
(٢) الجزء الأول صفحة ٢.

لتجلى حقائقه، واتباع أحكامه وتسليم متشابهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه حبلاً ممدوداً من الله »(١).

● **علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء:**

ويعتقد المؤلف أن علم القرآن جميعه عند النبى ﷺ والأئمة، أما مَن عداهم فعلمهم بمعانى القرآن قاصر لا يبلغ المبلغ الذى خُصَّ به النبى والأئمة، وذلك فى نظره راجع إلى تفاوت المقامات التى يتفاوت العلم بتفاوتها. ونظرية تفاوت المقامات التى يتفاوت من أجلها العلم بمعانى القرآن، نظرية فلسفية صوفية شيعية، وإليك نص عبارة المؤلف فى الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها:

يقول المؤلف ما نصه: « الفصل العاشر: إن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر فى محمد ﷺ وأوصيائه الإثنا عشر وليس لغيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة، وأن بطنه الأعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد، وعلوية علىّ، وهو مقام المشيئة التى هى فوق الإمكان، وكل نبى ووصى كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد ﷺ وأوصيائه، ومن لم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم ما فيه، ولا يتبين من ذلك المقام شيئًا، لأن المفسِّر لا يتجاوز فى تفسيره حد نفسه، فكل مَن علم من القرآن شيئًا أو فسَّر منه شيئًا وإن بلغ من المقامات لا يكون علمه وتفسيره بالنسبة إلى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط، فإن حقيقة القرآن - التى هى حقيقة محمد وعلىّ - هى مقام الإطلاق الذى لا نهاية له، والممكن وإن كان أشرف الممكنات الذى هو العقل الكلى يكون محدوداً، ولا يتصور النسبة بين المحدود وغير المتناهى الغير محدود، فعلم كل عالم ومفسِّر للقرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار. ولما كان مقام محمد ﷺ وعلىّ وأولاده المعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم، وكان علىّ هو من عنده علم من الكتاب كما فى الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستغراق. وكان آصف هو الذى عنده علم من الكتاب. وكان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمات معدودة لا بجملة الكلمات، مع أنه كان أكمل الأنبياء بعد نبينا. وكان محمد ﷺ يؤمن بالله وكلماته جميعًا فى قوله تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الأعراف: ١٥٨].. فإن « الكلمات » جمع مضاف مفيد للاستغراق، وليس المراد به الإيمان الإجمالى وإلا لشاركه غيره فيه، بل الإيمان التفصيلى، والإيمان التفصيلى لا يكون إلا بإدراك المؤمن به شهوداً وعياناً »(٢).

● **تحريف القرآن وتبديله:**

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح فى تحريف القرآن وتبديله فيقول ما نصه: « اعلم أنه

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢.

(٢) الجزء الأول صفحة ١٠.

قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك فى صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيير إنما هى فى مدركاتهم من القرآن لا فى لفظ القرآن كلغة، ولا يليق بالكاملين فى مخاطباتهم العامة، لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص، وصرف اللَّفظ عن ظاهره من غير صارف، وما تواهموه صارفًا من كونه مجموعًا عندهم فى زمن النبى، وكانوا يحفظونه ويدرسونه، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير والتبديل، حتى ضبطوا قراءات القُرَّاء وكيفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعًا غير مُسلَّم، فإن القرآن نزل فى مدة رسالته إلى آخر عمره نجومًا، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات فى العام الآخير، وما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، وأن عليًا جلس فى بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره. وكونهم يحفظونه ويدرسونه مُسَلَّم، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القُرَّاء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه، وكما كانت الدواعى متوفرة فى حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين فى تغييره. أما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، والحال أنَّا مأمورون بالاعتماد عليه، واتباع أحكامه، والتدبر فى آياته، وامتثال أوامره ونواهيه. وإقامة حدوده، وعرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها، لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده وأحكامه، إنما هى للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذُكِر، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزَّل على محمد ﷺ من غير نقيصة وزيادة وتحريف فيه. ويُستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت فى القرآن لم تكن مخلة بمقصود الباقى منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم، وفى الباقى منه حُجَّتهم أهل البيت، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حُجَّة قطعية لنا ولو كان مغيراً تغييراً مخلاً بمقصوده، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمروا باتباعه، وكان التوسل به، واتباع أحكامه، واستنباط أوامره ونواهيه، وحدوده، وأحكامه، من قِبَل أنفسنا كان من قِبَل التفسير بالرأى الذى منعوا منه، ولو لم يكن متغيراً» (١).

● نزول القرآن فى شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم:

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه فى الأئمة الإثنا عشر بوجه، ونزل فيهم وفى

(١) الجزء الأول صفحة ١٢.

أعدائهم بوجه، ونزل أثلاثًا: ثلث فيهم وفي أعدائهم، وثلث سُنَن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام .. بوجه. أو ثلث فيهم وفي أحبائهم، وثلث في أعدائهم، وثلث سُنَّة ومُثل .. بوجه. ونزل أرباعًا: ربع فيهم، وربع في عدوهم، وربع سُنَن وأمثال، وربع فرائض وأحكام .. بوجه. ويرى أن كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت، ويوجه ذلك فيقول: «لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، وتوجيه الخلق إلى الولاية، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولاية والمتحقق بالولاية المطلقة محمداً ﷺ وعليًا وأولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماية نزلت فيهم وفي توجيه الخلق إليهم. وهو أيضًا وصف وتبجيل لهم. ولما كان كثير من آيات القرآن نزلت فيهم تصريحا أو تعريضًا أو تورية، وما كان في أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا الاعتبار بمخالفيهم والانزجار عن مخالفتهم ليكون سببًا للتوجه إليهم ولمعرفة قدرهم وعظمة شأنهم، وكان سائر آيات الأمر والنهي والقصص والأخبار لتأكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية، صح أن يقال: جميع القرآن نزل فيهم، ولما كان القرآن مفصَّلاً يكون بعض آياته فيهم وفي محبيهم. وبعضها في أعدائهم ومخالفيهم، وبعضها سُننًا وأمثالاً، وبعضها فرائض وأحكامًا، صح أن يقال: نزل القرآن فيهم وفي أعدائهم، أو نزل أثلاثًا أو أرباعًا، والآية الدالة على أخبار الأخيار والأشرار الماضين كلها تعريض بالأئمة وأخيار هذه الأمة وأشرارهم، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم وإلى أعدائهم بسبب كونهم أصلا في الخير وكون أعدائهم أصلاً في الشر. بل نقول: كل آية ذُكر فيها خير كان المراد بها أخيار الأُمة، وكل آية ذُكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأُمة، لكون الآية فيهم أو تعريضًا بهم، أو لكونهم وكون أعدائهم أصلاً في الخير والشر»(١).

هذه أهم آراء المصنِّف التي يراها في القرآن وتفسيره ومُفسِّريه. وإليك بعض النماذج التي توضح لك الطريقة التي جرى عليها المصنِّف في تفسيره، ومقدار تأثره بنزعته الصوفية، وهواه الشيعي:

● من التفسير الصوفي:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفي لكثرة ما فيه من التأويلات الإشارية، والشطحات الصوفية، والمواجيد التي نقرؤها للمؤلف في تفسيره للآيات القرآنية، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقي النواحي في هذا التفسير:

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٣.

فمثلاً عندما تكلَّم عن قوله تعالى في الآية (٧٥) من سورة النساء: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ .. يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ** ﴾ ... الآية: «إن كان النزول فى ضعفاء قلَّة فلا اختصاص لها بهم كما فى الخبر. فالقرية مكة وكل قرية لا يجد الشيعة فيها وليًا من الإمام ومشايخهم، وكل قرية وقع بها الأئمة بين منافقى الأُمة، وقرية النفس الحيوانية التى لا يجد الجنود الإنسانية فيها وليًا ويطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر ومدينة القلب. ويسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم في بيت القلب خاليًا عن مزاحمة الأغيار بقولهم: ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ .. تكرار ﴿ **وَاجْعَل** ﴾، لأن مقام التضرع والابتهال يناسبه التطويل والإلحاح فى السؤال، ولأن المسئول ليس شخصاً واحداً، ولو كان واحداً، لم يكن مسئولا من جهة واحدة، بل المسئول محمد ﷺ وعلىّ، أو المسئول محمد من جهة هدايته ومن جهة نُصرته، وعلىّ كذلك».

«وقد بقى بين الصوفية أن يكون التعليم والتلقين بتعاضد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هاديًا والآخر دليلاً، والشيخ الهادى له الهداية وتولى أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه، والشيخ الدليل ينصره لمدافعه الأعداء، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، وفى الآية إشارة إلى أن السالك ينبغى له أن يطلب دائماً حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره، وهو معنى انتظار ظهور الشيخ فى عالم الصغير، وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا يصدق عليه أنه لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان وليًا من لدن الله ونصيراً من لدنه» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٧) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ .. يقول: « .. اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له، والتكاليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه، بل - كما عرفتَ سابقًا - للمفاهيم الواردة فى التكاليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان. بعضها فوق بعض، فكل ما ورد فى الشريعة المطهَّرة من الألفاظ فهى مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصداق من المصاديق، فالإنسان

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢١١ .

بحسب مرتبته النباتية له محللات إلهية، وبحسب مرتبته الحيوانية أخرى، وبحسب الصدر أخرى، وبحسب القلب أخرى، وبحسب الروح أخرى، والتحريم الإلهى فى كل مرتبة بحسبه، وكذا تحريم الإنسان على نفسه. فالمحللات بحسب مرتبته الحيوانية والنباتية: ما أباح الله له من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمركوب، والمنكوح، والمسكون، والمنظور. وبحسب الصدر: ما أباح الله له من الأفعال الإرادية، والأعمال الشرعية، والتدبيرات المعادية والمعاشية، والأخلاق الجميلة، والمكاشفات الصورية. وبحسب القلب: ما أباح الله له من الأعمال القلبية، والواردات الإلهية، والعلوم اللدنية، والمشاهدات المعنوية الكلية .. وهكذا فى سائر المراتب. والطيبات من ذلك فى كل مرتبة: ما تستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة، ومطلق المباح فى كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه، وأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ولا يحب الشره والاعتداء فى رخصه بحيث يؤدى إلى الانتقال إلى ما هو حرام محظور بأصل الشرع، أو بحيث يؤدى إلى صيرورة المباح حراماً بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه، كما لا يحب الامتناع عن رخصه، فمعنى الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا تمتنعوا من الرخص، ولا تحرِّموا - بقسم وشبهة، ولا بكسل ونحوه - على أنفسكم ما لم تستلذه المدارك بحسب كل مرتبة وقوة مما أباحه الله لكم، لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذاً بما أباحه له، كما يحب أن يراه مستلذاً بعباداته ومناجاته، ولا تمتنعوا بالاكتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية، فإنه يحب أن يرى عبده مُصرًّا على طلب مستلذات المرتبة العالية، كما يحب أن يراه فى هذه الحالة معرضاً عن مباحات المرتبة الدانية، مكتفياً بضرورياتها وراجحاتها. ولا تعتدوا عما أباح الله إلى ما حظره، وفى المباح إلى حد الحظر. والآية إشارة إلى التوسط بين التفريط والإفراط فى كل الأُمور من الأفعال والطاعات والأخلاق والعقائد والسير إلى الله، فإن المطلوب من السائر إلى الله أن يكون واقعاً بين إفراط الجذب وتفريط السلوك».

ثم بعد ذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿ **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٨] بما يشبه التفسير السابق .. ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت فى علىّ وبلال وعثمان بن مظعون، فأما علىّ فحلف أن لا ينام بالليل، وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يُحرِّمون على أنفسهم الطيبات؟ إنى أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى»، فقام

هؤلاء فقالوا: يا رسولَ الله؛ قد حلفنا على ذلك، فأنزل الله آيات الحلف .. ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين:

أولهما: أن مثال هذه المعاتبات ونسبة التحريم والاعتداء والتقوى ولغو الأيمان غير مناسبة لمقام علىّ.

وثانيهما: أن عليًا إما كان عالمًا بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبدال والرأى كان من البدع والضلال، وإن كان بالنذر وشبهه كما دَلَّ عليه الخبر، كان مرجوحًا غير مرضى لله تعالى، ومع ذلك حرَّمه على نفسه، أو كان جاهلاً بذلك، وكلا الوجهين غير لائق بمقامه.

ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال: «والجواب الجلى لطالبى الآخرة والسالكين إلى الله، الذين بايعوا عليًا بالولاية، وتابعوه بقدم صدق، واستشهوا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال: إن السالك إلى الله يتم سلوكه باستجماعه بين نشأتى الجذب والسلوك، بمعنى توسطه بين تفريط السلوك الصرف، وإفراط الجذب الصرف، فإنه إن كان فى نشأة السلوك فقد جمد طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير. وإن كان فى نشأة الجذب فقط، فنى بحرارة الجذب عن أفعاله وصفاته وذاته، بحيث لا يبقى منه أثر ولا خبر، وهو وإن كان فى روح وراحة، لكنه ناقص كمال النقص من حيث أن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده، وخدمه، وأتباعه، وحشمه، وهو طرح الكل، وتسارع بوحدته، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون فى الجذب والسلوك منكسرًا برودة سلوكه بحرارة جذبه، فالجذب والسلوك كالليل والنهار وكالصيف والشتاء، من حيث أنهما يربيان المواليد بتضادهما، فهما – مع كونهما متنازعين – متآلفان متوافقان.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن السالك إذا وقع فى نشأة الجذب، وشرب من شراب الشوق الزنجبيلى، سكر وطرب ووجد، بحيث لا يبقى فى نظره سوى الخدمة للمحبوب، وكل ما رآه منافيًا للخدمة رآه ثقلاً ووبالاً على نفسه ومكروها لمولاه، فيصمم فى طرحه، ويعزم على ترك الاشتغال به، وهو من كمال الطاعة لا أنه ترك الطاعة كما يظن، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع فى تلك النشأة، وحرَّم على نفسه كل ما يشغله عن الخدمة، لكمال الاهتمام بالطاعة، ولما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين، أسقاه محمد ﷺ من شراب السلوك، لأنه كان مكملاً مربيًا له ولغيره، ولذا قالوا: لأن يكون للسالك شيخ وإلا فيوشك أن يقع فى الورطات المهلكة، ولا منقصة فى أمثال هذه المعاتبات على الأحباب، بل فيها من اللطف والترغيب فى الخدمة ما لا يخفى، وعلىّ كان عالمًا بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين، ولكنه يرى حين الجذب أن كل ما يشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب،

ومرجوح عنده، فحلف على ترك المرجوح. أو يقال: إن عليًا لما كان شريكًا للرسول ﷺ فى تكميل السلاك لقوله: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وكان له شأن الدلالة، ولمحمد شأن الإرشاد، والمرشد بنشأته النبوية شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك، وإن كان بنشأته الولوية وشأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب، والدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب، وإن كان بنشأته النبوية وشأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور، ويعلمه آداب الحضور، وطريق العبودية، من عدم الالتفات إلى ما سوى المعبود، وطرح جميع العوائق من طريقه، والمرشد بنبوته يُبعده عن الحضور، ويُقربه إلى السلوك، ويرغبه فيه، فهما فى فعلهما كالنشأتين: متضادان متوافقان، فأمير المؤمنين لما رأى بلالاً وعثمان مستعدين لنشأة الجذب، رغَّبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات وترك المألوفات، وشاركهما فى ذلك ليستكمل بذلك شوقهما ويتم جذبهما، ولما مضى مدة ورأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق وأنفع لهما، ردهما إلى نشأة السلوك، وعاتبهما بألطف عتاب، ولا يرد نقص على أمير المؤمنين. ولما قالوا بعد عتابه: قد حلفنا .. نزل: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٥]، [المائدة: ٨٩]، وهو الذى يؤتى به للتأكيد فى الكلام كما هو عادة العوام» ... إلخ(١).

فأنت ترى من هذين المثالين السابقين، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيره للآيات، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى وذُرِّيته بل ومن اتخاذه مخرجًا يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه.

● **من التفسير الفلسفى:**

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلاً فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده وروحه عليه السلام، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، ويقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام علىّ رضى الله عنه، وذلك حيث يقول:

«العالَمَ ليس منحصراً فى هذا العالَم المحسوس المعبَّر عنه بعالَم الطبع بسمواته وأرضيه، بل فوقه البرزخ، وهو عالَم بين عالَم الطبع وعالَم المثال، وله الحكومة على عالَم الطبع والتصرف فيه أى تصرف شاء، من الإحياء والإماتة، وإيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وستر المحسوس، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس. ومنه طى

(١) الجزء الأول ص ٢٤٩ – ٢٥١.

الأرض، والسير على الماء والهواء، والدخول فى النار سالمًا، وقلب الماهيات. ومنه طى الزمان، كما ورد فى الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ فصار كلبًا. وقال لآخر: أنت امرأة بين الرجال فصار امرأة وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس (١) فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد .. ثم خرجت لتغتسل فى البحر فدخلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل النهر المعهود وهو رجل وإذا بثيابه موضوعة كما وضعها. فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين بغيبته لقصر الزمان، وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه فى عالم الملك، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت وأنكرها جماعة فأُتيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة، مع أنه لم يمض فى بلدها قدر ساعة، أو من قبيل البسط فى الدهر من غير تصرف فى الزمان إن كان وقوعه فى الملكوت. وفوق البرزخ عالم المثال، وله التصرف فى البرزخ والطبع. وفوقه عالَم النفوس الكليات المعبَّر عنها بـ ﴿ **الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ [النازعات:٥]. وفوقه الأرواح المعبَّر عنها بـ ﴿ **الصَّافَّاتِ صَفًّا** ﴾ [الصافات: ١]، ويُعبَّر عنها فى لسان الإشراقيين بأرباب الأنواع وأرباب الطلسمات. وفوقها العقول المعبَّر عنها بالمقرَّبين. وفوقها الكرسى وفوقه العرش، وهو سرير الملك المتعال، وهما بين الوجوب والإمكان لا واجبان ولا ممكنان، بل فوق الإمكان وتحت الوجوب. وكل من تلك العوالم له الإحاطة والتصرف والحكومة على جميع ما دونه، فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار ما دونه بحكمه، وذهب عنه حكم نفسه.

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم، وله مراتب بإزاء تلك العوالم، وكل مرتبة عالية لها الحكومة على ما دونها من غير فرق، كما نشاهده من حكومة النفس علي البدن والقوى، لكن تلك المراتب فى أكثر الناس بالقوة، وما بالفعل من النفس المجردة التى هى بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف، بحيث لا يمكنها التصرف فى بدنها زائداً على ما جعله الله فى جبلتها، فكيف بغير بدنها؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما فى أكثر الأنبياء والأولياء، أو جميعها كما فى خاتم الأنبياء وصاحبى الولاية الكلية، كان لهم التصرف فى أبدانهم بأى نحو شاءوا، وفى سائر أجزاء العالَم، كما روى عن الأنبياء والأولياء من طى المكان والزمان، والسير على الماء والهواء، ودخول النار، وإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وقلب الماهيات، وغير ذلك مما لا يُنكر تمامها لكثرتها، وتواتر الأخبار بمجموعها وإن كان آحادها غير متواترة. وأما

(١) ارتمس من الارتماس وهو الانغماس.

التصرف فى البدن الطبيعى بحيث يُخرجه عن حكم الإمكان ويُدخله فى عالم العرش الذى هو فوق الإمكان وفوق عالَم العقول والملائكة المقرَّبين، كما روى أن جبريل تخلَّف عن الرسول ﷺ فى المعراج، وقال: لو دنوتُ أنملة لاحترقت، مع أنه من عالَم العقول المقرَّبين، فهو من خواص خاتم الكل فى الرسالة والنبوة والولاية، وهو من خواص نبينا ﷺ لا يشاركه فيه غيره لا نبى مرسل ولا خاتم الأولياء. ولذلك جعلوا المعراج الجسمانى بالكيفية المخصوصة من خواصه ﷺ. ولما كان المعراج بتلك الكيفية أمراً لا يُتصور أمر فوقه من الممكن، وكان لا يتيسر إلا إذا غلب العالَم الذى فوق الإمكان على البدن الطبيعى ولا تتيسر تلك الغلبة بسهولة ولكل أحد وفى كل زمان، قالوا: إن المعراج للنبى ﷺ كان مرتين، مع أنه نُسب إلى بعض العرفاء أنه قال: إنى أعرج كل ليلة سبعين مرة، والمعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن.

إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعى وعليه عباءته ونعلاه إلى بيت المقدس، ومنه إلى السموات، ومنها إلى الملكوت، ومنها إلى الجبروت، ومنها إلى العرش الذى هو فوق الإمكان، وفى هذا السير تخلَّف جبريل عنه ﷺ، لأنه كان من عالَم الإمكان، ولم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان، لأن الملائكة كُلٌّ له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان. ولم يكن منه ذلك المعراج إلا مرتين كما فى الأخبار، ولا يلزم منه خرق السموات، لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت - ولا استغراب فى عروج البدن الطبيعى إلى الملكوت والجبروت - ولسقوط حكم الملك بل حال الإمكان عنه مع بقاء عينه، ولا غرو فى كثرة وقائعه فى المعراج، فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال: ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال أيضاً: ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ [المعارج: ٤] .. فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحِجْر: ﴿ **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ .. يقول ما نصه: «اعلم أنه قد يُطلق الشئ ويراد به ما يساوق الموجود، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه. وقد يُطلق ويُراد به المشئ وجوده، فلا يشمل الحق الأول، ولا حضرة الأسماء ولا حضرة الفعل الذى هو مبدأ إضافاته، ويشمل الممكنات كلها من حضرة العقول المعبَّر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقرَّبين، وحضرة الأرواح المعبَّر عنها بأرباب الأنواع والصَّافات صفاً، وحضرة النفوس الكلية المعبَّر عنها بالأرواح

(١) الجزء الأول صفحة ٤١٩ .

الكلية المحفوظة والمدبِّرات أمراً، وحضرة النفوس الجزئية بألواح المحو والإثبات وبعالم المثال باعتبارين، ويشمل موجودات عالَم الطبع تماماً، وكل ما فى تلك الحضرات له حقيقة فى حضرة الأسماء، وحقيقة فى حضرة الفعل والإضافة الإلهية الإشراقية . وكل ما فى حضرة الفعل له حقيقة أيضاً فى حضرة الأسماء، وكل ما فى حضرة الأرواح له حقيقة فى حضرة الأقلام، وحقيقة فى حضرة الفعل، وحقيقة فى حضرة الأسماء، وهكذا حضرة النفوس الكلية وما فيها، وحضرة النفوس الجزئية وما فيها، وعالَم الطبع وما فيه، وبعبارة أخرى : كل دان له صورة بالاستقلال فى العالى، وصورة بالاستقلال فى عالى العالى، وصورة بتبع العالى فى عالى العالى، فلكل شئ من الممكنات حقائق فى حضرة الأسماء استقلالاً وتبعاً، وهكذا فى حضرة الفعل، وهكذا فى حضرة الأقلام إلى عالم المثال، وكل تلك الحضرات من حيث إنها عوالم مجردة عن المادة وأغشيتها، تسمى «عند الله»، و«لدن الله»، لحضورها فى محضره، ولما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير والتبدل كالأشياء النفيسة المخزونة المحفوظة، سمَّاها تعالى بالخزائن، فكل ما فى عالَم الملك له حقيقة فى عالَم المثال، ينزله – تعالى شأنه – من عالَم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله وحين استعدادها، وهكذا من النفوس الكلية إلى عالَم المثال، وهكذا الأمر فى العالى والأعلى إلى حضرة الأسماء. ولما كان موجودات عالَم الملك متحددة بالتحدد الذاتى، بمعنى أنها كل آن فانية عن ذواتها، وموجودة بموجدها كما حقق فى محله، فما من شئ مما فى عالم الملك إلا ويفنى آناً فآناً، وينزله تعالى من خزائنه آناً فآناً، فلذلك قال : ﴿ **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ (١) .

● **آل البيت والأمم السابقة :**

ومما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمداً ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأُمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم، ويتوسَّلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم .

وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التى تسلَّطت على عقول أولئك القوم، ومن هذه الروايات – مثلاً – ما ذكره المؤلف فى قصة قتيل بنى إسرائيل المذكورة في قوله تعالى في الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ ... الآيات، إلى آخر القصة من أن موسى جمع أماثل القبيلة التى وجد القتيل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله

---

(١) الجزء الأول ص ٤٠٢، ٤٠٣ .

القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً (١).

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذا البقرة المذكورة بأوصافها فى القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله فى منامه محمداً وعلياً وطيبى ذُرِّيتهما فقالا: إنك كنت لنا محبا مفضِّلا، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك فى الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أُمك، فإن الله يلقنها ما يغنيك عقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته، فقالوا: بكم تبيع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين، والخيار لأُمى، قالوا: رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أُمه، فقالت: ثمانية. فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أُمه، ويرجع إلى أمه فتَضَعِّف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون من دنانير، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون .. » (٢).

وبعد ذلك بقليل يقول: « وفى تفسير الإمام: أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا: افتقرت القبيلة، وانسلخنا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا ﷺ، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤساؤهم إلى خربة بنى فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ما هناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل وهو خمسة آلاف ألف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله، واعتقادهم لتفضيلهم » (٣).

كما يروى أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبى محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يُحييه لهم فاستجاب، وأن القتيل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يُبقيه فى الدنيا متمتعًا بابنة عمه، ويجزى عنه أعداءه، ويرزقه رزقًا كثيراً طيبًا، فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التى عاشها قبل ذلك، وعاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعًا بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعًا معًا، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين » (٤).

● **قصص القرآن:**

وإنَّا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه: أن القصص القرآنى وما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل المرموزات التى رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، كما

---

(١) الجزء الأول صفحة ٥٧. (٢) الجزء الأول ص ٥٨. (٣) الجزء الأول ص ٥٨.
(٤) الجزء الأول ص ٥٨.

يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلا بد وأن يتحيَّر فيها، وليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، والمقصود منها بمجرد قوته البشرية: فعندما تكلم على قصة آدم فى أول البقرة وجدناه يقول: «ولما كان قصة آدم وخلقته، وأمر الملائكة بسجدته، وإباء إبليس عن السجود، وهبوطه من الجنَّة، وبكائه فى فراق الجنَّة وفراق حواء، وخلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، وغروره بقول الشيطان وحواء، وكثرة نسله، وحمل حواء فى كل بطن ذكراً وأنثى، وتزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، وقد كثر ذكره فى كتب السَلَف خصوصاً كتب اليهود وتواريخهم، وردت أخبارنا مختلفة فى هذا الباب اختلافًا كثيراً، مرموزاً بها إلى ما رمزوه، ومَن أراد أن يحملها على ظاهرها تحيَّر فيها، ومَن رام أن يدرك المقصود بقوته البَشرية والمدارك الشيطانية منها طُرِد عنها، ولم يدرك منها إلا خلاف مدلولها» (١).

وبعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأُمور المرموز إليها فى القصة، لا بقوته البشرية، فإنها عاجزة عن إدراكها كمايقول، بل بقوته الروحية التى تستلهم المعارف من الله، وذلك حيث يقول فى أثناء تفسيره للقصة نفسها: «اعلم أن قصة خلق آدم من الطين، وحواء من ضلعه الأيسر. وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن السجدة، وإسكان آدم وحواء الجنة، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، ووسوسة إبليس لهما، وأكلهما من الشجرة المنهية، وهبوطهما، من المرموزات المذكورة فى كتب الأُمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقًا، فالمراد بآدم فى العالَم الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضين، وعلى الجنَّة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة فى جَنَّة النفس الإنسانية، وهى أعلا من مقام النفس الحيوانية، المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذى يلى النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء، لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية. والمراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التى هى جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية. والمراد بالحَيَّة واختفاء إبليس بين لحييها: القوة الواهمة، فإنها لكونها مظهراً لإبليس، تسمى بإبليس فى العالَم الصغير، ووسوسته: تزيينها ما لا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبَّر عنه بحواء. وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية. وهبوط الحَيَّة وذُرِّيتهما: عبارة عن تنزلهما عن مقام التبعية لآدم، فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعته، وشرافتها باستخدام آدم لها شرافته، وهبوط الواهمة كان هبوطًا له، وإذا أُريد بالشجرة: النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار، فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار

(١) الجزء الأول ص ٤٢.

والحبوب، وأصناف الأوصاف والخصال، لأن الحبوب والثمار وإن لم تكن بوجود ذاتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها، فتعيين تلك الشجرة بشئ من الحبوب والثمار، والعلوم والأصناف بيان لبعض شئونها.

روى فى تفسير الإمام: أنها شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم ومنها ما كان يتناوله النبى ﷺ، وعلىّ، وفاطمة، والحسن، والحسين بعد إطعامهم المسكين، واليتيم، والأسير، حتى لم يحسوا بجوع، ولا عطش ولا تعب ولا نَصَب، وهى شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعًا من الثمار، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البُرّ، والعنَب، والتِّين، والعُنَّاب، وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون . . فقال بعضهم: بُرَّة، وقال آخرون: هى الشجرة التى مَن تناول منها بإذن الله أُلْهِمَ عِلْم الأوَّلين والآخرين من غير تعلم، ومَن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربه».

أقول: «آخر الحديث يدل على ما قالته الصوفية من أن السالك ما لم يتم سلوكه، ولم ينته إلى مقام الفناء، ولم يرجع إلى الصحو بعد المحو بإذن الله، لم يجز له الاشتغال بالكثرات ومقتضيات النفس زائدًا على قدر الضرورة. وشجرة علم محمد وآل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة والواحدة» (١).

وفى سورة البقرة أيضًا عندما تكلّم عن قصة هاروت وماروت يقول: «اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل، وأخذها المتأخرون بطريق الأسمار، وأخذوا منها ظاهرها الذى لا يليق بشأن الأنبياء، وورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسمارًا نظرًا إلى ما رمزها الأقدمون، وأمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظرًا إلى ظاهر ما أخذها العوام، وتصديقها نظرًا إلى ما رمزوا إليه» (٢).

وفى أول سورة النساء عند قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . . الآية، يقول: «لما كان تلك الحكاية وأمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء والأولياء والحكماء التابعين لهم، وحملها العوام من الناس على ظاهرها، اختلفت الأخبار فى تصديقها وتقريرها ،وتكذيبها وتوهينها، فإن فى كيفية خلقه آدم وتناسلهما وتناكحهما وتناكح أولادهما، وكذا فى قصة هاروت وماروت. وقصة داود، وغير ذلك، اختلافًا كثيرًا فى الأخبار، واضطرابا شديدًا، بحيث يورث التحير والاضطرابات لمن لا خبرة له، حتى يكاد يخرج من الدين، ولكن الراسخين فى العلم

---

(١) الجزء الأول ص ٤٥، ٤٦.

(٢) الجزء الأول ص ٦٧.

يعلمون أن كلاً من معادن النبوة ومحال الوحى صدر، ولا اختلاف فيها ولا اضطراب، جعلنا الله منهم، والله ولى التوفيق» (١).

وفى سورة (ص) عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ ... الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة، يقول بعد ما ذكر قصة الفتنة: «وأمثال هذه، وأمثال روايات سلب مُلْك سليمان، وجلوس الشيطان على كرسيه، وكون مُلْكه من وطًا بخاتم، ليس إلا من الرموز التى رمزها الأقدمون، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة، ومفاهيمها العامية، ونسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بكامل أو نبى»؟!(٢).

● **الإمامـــة:**

والمؤلف يقرر فى تفسيره إمامة علىّ رضى الله عنه، وخلافته للنبى ﷺ بدون فصل، فمثلاً فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .. نجده يؤكد أن الآية نازلة فى حق علىّ رضى الله عنه، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، ويرد على من يخالف ذلك بما يظهر له من الدليل، كما يبين السر الذى من أجله ذُكر علىّ بوصفه دون اسمه. وذلك حيث يقول: «قد ورد من طريق العامة والخاصة أن الولاية نازلة فى علىّ حين تصدَّق فى المسجد فى ركوع الصلاة بخاتمة أو بحُلَّته التى كان قيمتها ألف دينار. ومفسرو العامة لا ينكرون الأخبار فى كونها نازلة فى أمير المؤمنين وقد نقلوا بطرق عديدة من رواتهم أنها نزلت فى علىّ، ومع ذلك يقولون فى تفسيرها: إن الآية نزلت بعد النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء، ولا شك أن المراد بالأولياء هناك أولياء المعاشرة، بقرينة المقابلة، وبقرينة جمع المؤمنين، ولو كان المراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التصرف لصرَّح باسمه، أو لقال: «والذى آمن» بالإفراد، وهم غافلون عن أنه لو صرَّح باسمه، أو أفرد المؤمن - مع الاتفاق فى أنها نازلة فى أمير المؤمنين - لأسقطوه تمويهاً على عابدى عجْلهم، فنقول: نسبة الولاية أولاً إلى الله، ثم إلى رسوله ﷺ وآله، ثم إلى الذين آمنوا، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التى فى قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] .. لأن ولاية الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول، بقرينة العطف، وبما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقرينة العطف، وبقرينة عدم تكرار الولى، فإن المراد أن الولاية ههنا أمر واحد مترتب فى الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شيئاً سوى ولاية الله، وولاية الله تتحقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنها ولاية الرسول ﷺ تظهر فى ولاية الذين آمنوا على ما قاله الشيعة، ولو كان المراد ولاية

---

(١) الجزء الأول ص ١٩٠.

(٢) الجزء الثانى ص ١٧٦.

المعاشرة كان «أولياؤكم» بلفظ الجمع أولى، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الركوع يدل على أنها ليست ولاية المعاشرة، وإلا لكان جملة المؤمنين فيها سواء، وليس كل المؤمنين متصفين بالصفات المذكورة، على أنه لا خلاف معتداً فى أنها نزلت فى علىّ وصورة الأوصاف خاصة به، وقوله: ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الخضوع لله، لا فى حال بهجة النفس، لأنهم ﴿ يؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] .. بخلاف الفاعل من قِبَلِ النفس فإن شأنه الارتضاء بفعله، وتوقع المدح من الغير على فعله، لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون، ويحبون أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا، فصلاً عمَّا فعلوا. واستمرار الصفات بحسب المعنى: لعلىّ وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، وبحسب الصورة: ما كان أحد مصداقها إلا علىّ نقلاً عن طريق العامة والخاصة. ووقع صدور الزكاة فى الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة. وفى نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتًا ولرسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، وليس لأحد شركة فيها، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التى تكون بالمواضعة والاتخاذ، وإلا لم يكن للحصر وجه، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول: بل أنتم أولياء الله ... إلخ، أو: بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ولأن المراد بها ولاية التصرف التى كانت بالذات لله قال فى عكسه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. إشعاراً بأن الولاية السابقة هى ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها، ومَن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطًا بالله وخلفائه، ومَن صار مرتبطًا بالله صار من حزب الله، ومَن صار من حزب الله كان غالبًا ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأَوْلى أن يقول: ومَن يتخذ الله، أو: ومَن صار وليًا لله، والحاصل: أن فى لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، وأنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائنًا من كان، متعدداً أو منفرداً، سواء قلنا نزلت فى علىّ أو لم نقل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، ونزلت الآية فى حقه، والمراد بـ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ههنا، هم الموصوفون فى الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عَيْن الأولى» (١).

وفى سورة المائدة أيضًا عند قوله تعالى فى الآية (٦٧): ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ... الآية، نجده يدَّعى - كغيره من الإمامية - أن القراءة

(١) الجزء الأول صفحة ١٢٤.

الصحيحة كانت: «بَلِّغ ما أُنزل إليك من ربك في عليّ»، ويحمل التبليغ المأمور به النبى على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، ويُقيم الأدلة على ذلك ردًا على مَن يدَّعى العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة علىّ رضى الله عنه بنص القرآن الكريم» (١).

● **الرجعـــة :**

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلهذا نراه عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ .. يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: «وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها وصارت كالضرورى فى هذه الأمة. وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على ابن الكواء فى إنكاره الرجعة» (٢).

● **تحريف القــرآن :**

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فإنَّا نجده عندما يصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحِجْر: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ .. يحاول أن يتخلص من هذا النص الذى يجبهه فيقول: «ولا ينافى حفظه تعالى للذكْر بحسب حقيقة التحريف فى صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع وقع فى الصورة المماثلة له كما قال: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكما قال: ﴿ **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾» (٣).

● **موقف المؤلف من الصحابة:**

لم نلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يُكَفِّر أحداً من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن فى تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحيانًا يقف من الآيات التى وردت فى شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفًا يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته، وأحيانًا ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحًا منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٤) من سورة آل عمران: ﴿ .. **وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ نراه يصرف لفظ

---

(١) الجزء الأول ص ٢٤٣ – ٢٤٧ وراجع ما كتبه على قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩]: ١ / ٢٠٦ – ٢٠٨.

(٢) الجزء الأول ص ٥٤.

(٣) الجزء الأول: ص ٤٠١، ٤٠٢ – والآية من سورة آل عمران: ٧٨، وفى الأصل تحريف وحذف وخلط بين الآيتين.

« الشاكرين » عن عمومه ويريد منه خصوص عليّ ونفر معه فيقول: « والمراد بالشاكرين ههنا: عليّ ونفر يسير بقوا عند رسول الله ﷺ حين انهزم المسلمون » هنا يروى رواية عليها دليل الوضع وسمته فيقول:

« روى عن الصادق: أنه لما انهزم المسلمون يوم أُحُد عن النبى ﷺ انصرف إليها بوجهه وهو يقول: أنا محمد رسول الله، لم أُقتل ولم أمت، فالتفت إليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضًا وقد هُزمنا، وبقى معه عليّ وأبو دجانة رحمه الله، فدعاه النبى ﷺ فقال: يا أبا دجانة؛ انصرف وأنت فى حلٍّ من بَيعتك، فأما عليّ فهو أنا، وأنا هو، فتحوَّل وجلس بين يدى النبى وبكى وقال: لا والله، ورفع رأسه إلى السماء وقال: لا والله، لا جعلتُ نفسى فى حلٍّ من بَيْعتك، إنى بايعتك فإلى مَنْ أنصرف يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت؟ أو ولد يموت؟ أو دار تخرب ومال يفنى وأجل قد اقترب؟ فَرَق له النبى ﷺ، فلم يزل يُقاتل حتى قُتل، فجاء به عليّ إلى النبى فقال: يا رسول الله؛ أوفيتُ ببيعتى؟ فقال: نعم. وقال له النبى خيراً. وكان الناس يحملون على النبى ﷺ الميمنة فيكشفهم عليّ، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبى فلم يزل كذلك حتى تقطَّع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبى فطرحه بين يديه وقال: سيفى قد تقطَّع، فيومئذ أعطاه النبى ذا الفقار، ولما رأى النبى ﷺ اختلاج ساقيه من كثرة القتال، رفع رأسه إلى السماء وهو يبكى وقال: يا ربِّ، وعدتنى أن تُظهر دينك وإن شئتَ لم يعيك، فأقبل عليّ إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أسمع دويًا شديدًا، وأسمع: أقدم يا حيزوم، وما أهم أضرب أحداً إلا سقط ميتاً قبل أن أضربه، فقال: هذا جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة، ثم جاء جبريل فوقف إلى جنب رسول الله ﷺ فقال: يا محمد؛ إن هذه لهى المواساة، فقال النبى ﷺ: إن عليًا منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكم » .. (إلى آخر الحديث). ونزل: ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (١).

ومثلاً نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤) وما بعدها إلى آخر سورة الليل: ﴿ **فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ يصعب عليه أن يعترف اعترافًا جازمًا بأن الأتقى مراد به الصِّدِّيق رضى الله عنه كما يقول المفسِّرون من أهل السُّنَّة، كما نراه حريصًا على أن يكون عليّ هو أولى الناس بهذا الشرف وهذا التنويه الإلهى، فلهذا نراه يقول ما نصه: « إن كانت الآيات نزلت فى رجل خاص فالمعنى عام، والأصل فيمن أعطى واتقَّى: عليّ، وفيمن بخل واستغنى هو الثانى، وقيل المراد بمن أعطى: أبو بكر

---

(١) الجزء الأول ص ١٦٦ .

حيث اشترى بلالاً فى جماعة من المشركين وكانوا يؤذونه فأعتقه، والمراد بالأشقى: أبو جهل وأُمية بن خلف » (١).

وفى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (١١): ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ ... الآية، يقول: « قد نُقِل فى تفاسير الخاصة والعامة أن الآيات نزلت فى عائشة ». ثم يروى السبب المعروف لنا، ثم يقول: « ونُقِل عن الخاصة أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة، روى عن الباقر أنه قال: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا، فقالت له عائشة: ما الذى يُحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ عليًا وأمره بقتله، فذهب علىّ ومعه السيف، وكان جريج القبطى فى حائط، فضرب علىّ باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب، فلما رأى عليًا عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعًا ولم يفتح باب البستان، فوثب علىّ على الحائط، ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريج مدبرًا، فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة وصعد علىّ فى إثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عَوْرته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف علىّ إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أمضى على ذلك أم أتثبت؟ قال: لا، بل تتثبت، قال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا السوء أهل البيت » (٢).

وفى سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى فى أولها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ ... الآيات، إلى آخر القصة. نراه يذكر سبب نزولها فيقول: « قال القُمِّى وغيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ كان فى بيت عائشة أو فى بيت حفصة، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضب، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله؛ فى يومى؟ وفى دارى؟ وعلى فراشى؟ فاستحى رسول الله ﷺ فقال: كفى، فقد حرَّمتُ مارية على نفسى، وأنا أُفضى إليك سرًا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم .. ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: مَن أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى بشئ عن حفصة ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال: ما هذا الذى أخبرتْ عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلتُ لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن

---

(١) الجزء الأول ص ٣١٦. (٢) الجزء الثانى ص ٦٦.

يسمُّوا رسول الله ﷺ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه السورة: ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ .. يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما همُّوا من قتله، و﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ أى خبرها وقال: لِمَ أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ [التحريم: ٣] يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هَمُّوا به من قتله» (١).

● **عتـــاب النبى ﷺ:**

ويرى المؤلف - كغيره من الشيعة - أن ما ورد من الآيات مشتملاً على عتاب النبى ﷺ، أو على التهديد والوعيد للنبى ﷺ - على فرض وقوع المعصية منه - إنما هو من قبيل: «إياك أعنى واسمعى يا جارة» والذى دفعه إلى ذلك، هو ارتفاعة بمقام النبوة عن أن يُوجَّه إليه عتاب من الله، أو لوم وتهديد على فرض صدور المعصية.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾. نجده يقول: وقد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل: «إياك أعنى واسمعى يا جارة» وورد أنها من فرية الملحدين، ولو كان الخطاب له - ﷺ - من غير كونه عن طريق «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، ولم تكن فرية لم يكن فيها ازدراء به - ﷺ - بل يكون صدر الآية ازدراء بالملحدين، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته، يعنى أنهم ما أهملوا شيئًا مما يُفتن به، ولو كان المفتون غيرك ولم يكن التثبيت من الله لفتن، وذيَّلها ببيان امتنانه عليه بأن ثبَّته فى مثل هذا المقام» (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «وهذا على إياك أعنى واسمعى يا جارة» (٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ ... الآيات - إلى قوله: ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١ - ١٠] .. يقول ما نصه: «وقد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله لبُعْد مقامه عن العبوس والتولى عن الأعمى، وعلو مرتبته عن أن يصير مُعاتَبًا بمثل هذا العتاب.

أقول: لو كانت الآيات فيه والعتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه، ولم يكن منافيًا لما قاله تعالى فى حقه من قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .. فإن إقباله وإدباره، وعبوسه، واستبشاره، كان لله، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله، وإسماع كلماته لأعداء الله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه، لم يكن فيه نقص فيه

---

(١) الجزء الثانى ص ٣٧٨. (٢) الجزء الأول ص ٤٢٩. (٣) الجزء الأول ص ٤٣٧.

وفى خُلُقه، وأما أمثال العتاب له ﷺ - فإنها تدل على تفخيمه والاعتداد به، فإن كلها كانت بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له، وكذا نسبة الله زراية عيب العبوس والقول له يكون متوجهاً إلى غيره فى الحقيقة».

● **الناحية الفقهية فى هذا التفسير:**

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير: فإنها تظهر فيه بمظهر التأثر بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم، غير أن المؤلف يطوى الكلام طيًا، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية. ولا يُشغل نفسه بكثرة الأدلة والبراهين، ولا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفيه، كما يفعل الطبرسى مثلاً.

● **نكاح الكتابيـات:**

فمثلاً عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «قد اختلفت الأخبار والأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حُرْمة نكاح المشركات، وحُرْمة الأخذ بعصَم الكوافر، أو ناسخة، وكذا فى الدوام والتمتع بهن. وقول النبى ﷺ وآله: «إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا، فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها» ينفى كونها منسوخة» (١).

● **المتعـــة:**

وعندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ .. نجده يقول: «وفى لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل - على قراءة «إلى أجل» - دلالة واضحة على تحليل المتعة، ﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ** ﴾ من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئًا من الفريضة ﴿ **مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ .. وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به.

وعن الباقر: لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجر آخر برضا منها ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدَّتها، وعدَّتها حيضتان .. ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ فحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم» (٢).

---

(١) الجزء الأول ص ٢٣٢. (٢) الجزء الأول ص ١٩٥.

● **فرض الرجْلين فى الوضوء:**

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ ... الآية، يقول: ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ بالجر عطف على ﴿ **رُءُوسِكُمْ** ﴾، وبالنصب على محل ﴿ **رُءُوسِكُمْ** ﴾، وعطفه على ﴿ **وُجُوهَكُمْ** ﴾ مع جواز العطف على ﴿ **رُءُوسِكُمْ** ﴾ فى غاية البُعْد، غاية الأمر أنها فى هذا العطف محتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محتاجة إلى البيان، ولم يكن رأينا مبينًا للقرآن لاستلزامه الترجيح بلا مرجح، بل المبين: مَن نص الله ورسوله عليه، لا مَن نصبوه لبيانه، فإن نصب شخص إنسانى لبيان القرآن وخلافة الرحمن ليس بأقل من نصب الأصنام لعبادة الآنام، أو العجْل المصنوع للعوام، وتفصيل الوضوء وكيفيته قد وصل إلينا مفصَّلاً مبيَّنًا عن أئمتنا المعصومين من الله ورسوله، وقد فصَّله الفقهاء رضوان الله عليهم، فلا حاجة إلى التفصيل ههنا» [١].

● **ميراث الأنبياء:**

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يُوَرِّثون كما يُوَرِّث سائر الناس، ولكنا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التى استدل بها علماء مذهبه على أن الأنبياء يُوَرّثون المال موقفًا فيه تلك المغالاة وهذا التطرف كالذى وقفه الطبرسى منها، بل نجده عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة مريم: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي** ﴾ .. يقول: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ** ﴾ فى الإرث الصورى من التضييع والنزاع والخلاف، أو فى الإرث المعنوى من الاختلاف وتضييع العباد، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للإجابة [٢].

هذا هو كل ما قاله فى هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يقطع أن الآية فى الإرث الصورى دون المعنوى، بل جوَّز صدقها على كل منهما، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذى كان من الطبرسى عندما أراد أن يُقصر الإرث فى الآية على الإرث الصورى.

ونجده عندما تعرَّض لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ**

---

(١) الجزء الأول ص ٢٣٢. (٢) الجزء الثانى ص ٢.

داوُدَ﴾ ... الآية، يقرر أن الميراث هو ميراث ما ينبغى أن يرثه منه من الرسالة والعلم والمُلْك والسلطنة، ثم يقول: «ولذلك حذف المفعول الثانى» (١)، يقول هذا أيضاً ولا يحاول أن يُخرج الآية عن ظاهرها وسياقها كما حاول غيره.

● **الغنائـــم:**

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أُخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أى وجه كان، كما يرى أن الخُمس يقسم بين ذوى القُربَى وهو الإمام، ويتامى آل البيت، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التى هى أوساخ الناس.

يرى المؤلف هذا كله ويقرره فى تفسيره باختصار فيقول عند قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿**واعلموا أنَّما غنمتم مّن شيءٍ فأنَّ للَّه خُمسه وللرَّسول ولذي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين**﴾ ... الآية، ما نصه: ﴿**واعْلَمُوا أنَّمَا غنمتم مّن شيءٍ**﴾ .. اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يُؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال، وإلا فهى اسم لكل ما استفاد الإنسان من أى وجه كان وأى شئ كان، فعن الصادق: هى والله الرفادة يوماً بيوم ﴿**فأنَّ للَّه خُمسه وللرَّسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السَّبيل**﴾، وقد فسَّر «ذوى القُربَى» بالإمام من آل محمد، فإنه ذو القربى حقيقة، وفسَّر الثلاثة الأخيرة بمن كان من قرابات الرسول، جعل ذلك لهم بدلا عن الزكاة التى هى أوساخ الناس تشريفا لهم» (٢).

وفى سورة الحشر عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿**ما أَفَاءَ اللَّهُ علَىٰ رسُوله منْ أهْلِ الْقرىٰ فللَّه وللرَّسول ولذي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السَّبيل كي لا يكُون دولةً بين الأغنياء منكُم**﴾ ... الآية، يقول: ﴿**ما أفاء اللَّه علىٰ رسوله من أهل القُرىٰ فللَّه وللرَّسول ولذي القُربىٰ**﴾ .. أى ذى قُربَى الرسول ﷺ، واليتامى والمساكين وابن السبيل من قرابات الرسول ﷺ، وقد خصص فى الأخبار كل ذلك بأقرباء الرسول ﷺ» (٣).

● **موقف المؤلف فى تفسيره من المسائل الكلاميـــة:**

وإنَّا لنجد المؤلف يتأثر بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية فيوافقهم عليها فى تفسيره، ويخالفهم فى بعض آخر منها فيقول بما يقول به أهل السُّنَّة، فمن المسائل التى يوافق فيها المعتزلة مثلا:

● **رؤيـــة الله:**

فهو ينكر جوازها ووقوعها، ويُجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿**وإذ قُلْتم يا موسىٰ لن نُّؤمن لكَ حتَّىٰ نرى اللَّه جهرة**﴾ نجده يقول ما نصه: «وورد أنه سُئل الرضا: كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران لا يعلم أن الله لا يجوز عليه الرؤية حتى

---

(١) الجزء الأول ٩٨. (٢) الجزء الأول ص ٣١٨. (٣) الجزء الثانى ص ٢٦٦.

يسأل هذا السؤال؟ فقال: إن كليم الله علم أن الله منزَّه عن أن يُرى بالأبصار، ولكنه لما كلَّمه وقرَّبه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلَّمه وقرَّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، وكان القوم سبعمائة ألف، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور وسأل ربه أن يكلِّمه ويسمعهم كلامه «وكلَّمه الله وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام - لا أن الله أحدثه فى الشجرة، ثم جعله منبعثا منها - حتى سمعوه من جميع الوجوه. فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذى سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عليه بصاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فماتوا، فقال موسى: ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم، لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم وبعثهم. فقالوا: إنك لو سألت الله أن يُريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته، فقال موسى: يا قوم؛ إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يُعرف بآياته ويُعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا ربِّ إنك قد سمعتَ مقالة بنى إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ سلنى ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ وهو يهوى، ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ يقول: رجعت إلى معرفتنى بك عن جهل قومى، ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ منهم بأنك لا تُرَى» [الأعراف: ١٤٣] (١).

وفى سورة القيامة عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣): ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .. يقول: ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى إلى ربها المضاف لظهور الولاية وصاحبها فى ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أى إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربها. روى عن أمير المؤمنين فى حديث: «ينتهى أولياء الله بعد ما يُفرغ من الحساب إلى نهر يسمى «الحيوان» فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقا، فيذهب كل قذى ووعث، ثم يُؤمرون بدخول الجنَّة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، وإنما يعنى بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. وفى الخبر: والناظرة فى بعض اللُّغة هى المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥] أى منتظرة» (٢).

ومن المسائل التى يخالف فيها المعتزلة:

● **السحـــر:**

فهو يقول به ويعترف بحقيقته ويوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ... الآية، حقيقة السحر

---

(١) الجزء الأول ص ٥٤. (٢) الجزء الثانى ص ٢٩٤.

وكيفية تأثيره فى المسحور وذلك حيث يقول: «والسحر اسم لقول أو فعل أو نقش فى صفحة يؤثر فى عالَم الطبع تأثيراً خارجاً عن الأسباب والمعتاد، وذلك التأثير يكون سبب مزج القُوَى الروحانية مع القُوَى الطبيعية، أو يتسخير القُوَى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخِّر الساحر، وهذا أمر واقع فى الأمر ليس محض تخييل كما قيل.. وتحقيقه أن يقال: إن عالَم الطبع واقع بين الملكوت السفلى والملكوت العلوى كما مَرّ، وأن لأهل العالمين تصرفاً بإذن الله فى عالَم الطبع بأنفسهم، أو أسباب من قِبَل النفوس البَشرية، وأن النفوس البَشرية إذا تجردت من علائقها، وصفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية، وناسبت المجردات العلوية أو السفلية، تؤثر بالأسباب أو بغير الأسباب فى أهل العالمين بتسخيرها إياهم، وجذبها لهم إلى عالمها، وتوجيههم فى مراداتها شرعية كانت أو غير شرعية، وإذا كان التأثير كان من أهل العالَم السفلى تسمى أسبابه سحراً، وقد يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به سحراً، وإذا كان من أهل العالَم العلوى يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به معجزة وكرامة، وقد تتقوى فى الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير فى الأرواح، ويُسمى ذلك التأثير والأثر أيضاً سحراً ومعجزة. فالسحر هو السبب المؤثر فى الأرواح الخبيثة الذى خفى سببيته، أو تأثير تلك الأرواح وآثارها فى عالَم الطبع بحيث خفى مدركها، ثم أُطلق على كل علم وبيان دقيق قلّما يُدرِك مدركه، ويُطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر، ومنه: ﴿**يا أَيُّها السَّاحر ادع لنا ربَّك**﴾ [الزخرف: ٤٩] علىَ وجه.. فيُستعمل على هذا فى المدح والذم» (١).

وفى الآية (٤) من سورة الفلق نجده يعترف أيضاً بالسحر ويُروى أن الرسول سُحر بيد لُبيد بن الأعصم وذلك حيث يقول: ﴿**ومن شرِّ النَّفَّاثات في العُقد**﴾.. أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور والخيوط، وينفثن فيها، ويسحرون الناس بها. أو النساء اللاتى يفعلن ذلك.. ثم ساق حديث سحر الرسول ﷺ» (٢).

وهناك مسائل أُخرى يوافق فيها المعتزلة، ومسائل أُخرى يخالفهم فيها ويوافق أهل السُّنَّة، ولا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجاً من كل طائفة، ومَن أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل.

هذا.. ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيراً ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية، فنراه يذكر الأعاريب التى فى الآية، كما يهتم فى بعض النواحى بالقراءات، وإن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نُسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نَظم القرآن وأسلوبه..

وبالجملة.. فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثره بعقيدته الشيعية، ونزعته الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى.

والكتاب مطبوع فى جزءين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية.

* * *

(١) الجزء الأول ص ٦٨.

(٢) الجزء الثانى ص ٣٣٩.

الإمامية الإسماعيلية «الباطنية» وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● **كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم:**

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضًا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة فى عدَاد طوائف المسلمين. وإنما هى فى الأصل جماعة من المجوس رأوا شَوْكة الإسلام قوية لَا تُقهر، وأبصروا عِزَّة المسلمين فتية لا تْغلب ولا تُكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلامِ والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرَّار، فسلكوا طريق الاحتيال الذى يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم، ليطفئوا نور الله بأفواههم، وخفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

● **مؤسسو هذه الطائفة:**

ظهرت بوادر هذه الفتنة، ونبتت نواة هذه الطائفة: زمن المأمون، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القدَّاح، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق. ومحمد بن الحسين المعروف بـ «ذيذان»، وجماعة كانوا يدعون «الجهاريجة» (١).

اجتمع هؤلاء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين. وما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يَدَّعون الإسلام (٢).

● **احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم:**

رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف فى وجه المسلمين صراحة وجهارًا، فاحتالوا - كما قلنا - على الوصول إلى مآربهم بشتَّى الحيل، فاندسوا بين المسلمين باسم الحدب على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والموالاة لأهل البيت، وتظاهروا

---

(١) أى العلماء الأربعة.

(٢) انظر الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٦٦، والتبصير فى الدين ص ٨٣.

بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستاراً لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب فى العقيدة والسياسة.

ومن المحزن أن يَدَّعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجًا وقبولا من أناس ضعفاء أغمار، غرَّهم التباكى على آل البيت والتحزن عليهم، فتحركت أحقاد دفينة، وثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين، ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال على الطغام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا فى وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب وهى ما يأتى:

● **مراتب الدعوة عند الباطنية:**

أولا - الذوق: وهو تفرس حال المدعو. هل هو قابل للدعوة أو لا؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر فى السبخة .. أى دعوة مَن ليس قابلاً لها، ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج .. أى فى موضع فيه فقيه أو متعلم.

ثانيا - التأنيس: باستمالة كل واحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما، فإن كان يميل إلى زهد زيَّنه فى عينه وقبَّح نقيضه، وإن كان يميل إلى الخلاعة زيَّنها وقبَّح نقيضها، ومَن رآه الداعى مائلاً إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ فى تأويل الشريعة، ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه فى الغار تأويل الشريعة .. وهكذا حتى يحصل له الأُنس به.

ثالثًا - التشكيك فى أُصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو: ما معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور؟ ولِمَ تقضى الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولِمَ يجب الغُسل من المنى دون البولَ؟ ولِمَ اختلفت الصلوات فى عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثًا، وبعضها أربعًا؟ وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب مَن يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

رابعا - **الرابط**: وهو أمران: أحدهما: أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشى لهم سراً، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿ **وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا** ﴾ [النحل: ٩١] .. وثانيهما: حوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه من الأُمور التى أُلقيت إليه، فإنها لا تُعلم إلا من قِبَلِ الإمام.

خامسًا - التدليس: وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

سادسًا - التأسيس: وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

سابعًا - الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

ثامنًا - السلخ: وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون فى تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم (١).

فأنت ترى أن الباطنية قد توسَّلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين فى عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجودًا بين المسلمين ومحفوظًا عندهم يرجعون إليه فى أُمور الدين، ويهتدون بهَدْيه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يَجِدُّون فى تأويل نصوص القرآن كما يُحبون. وعلى أى وجه يرونه هدمًا لتعاليم الإسلام، الذى أصبح قذىً فى أعينهم، وشجىً فى حلوقهم!!

وحرصًا منهم على أن تكون دعواهم فى تأويل القرآن مقبولة لدى مَن يَستخفُونه .. قالوا: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت، ولذلك قال عليه السلام - لما قيل: ومن أين يُعرف الحق بعدك؟ -: «ألم أترك فيكم القرآن وعترتى»؟ .. وأراد به أعقابه، فهم الذين يَطَّلِعون على معانى القرآن» (٢).

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجًا عند عقلاء المسلمين، ولم يجد غباوة فى عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين .. وكيف يمكن أن يجد رواجًا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك، وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صُرِفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشريعة، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يُوثق به، والباطن لا ضبط له. بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شَتَّى.

---

(١) راجع المواقف: ٨/٣٨٩ - ٣٩٠، والفَرْق بين الفِرَق ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) فضائح الباطنية ص ٦.

● إنتاج الباطنية فى تفسير القرآن الكريم:

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابًا للوصول إلى أغراضهم، فإنَّا لم نقف لهم على كتب مستقلة فى تفسير كتاب الله تعالى، ولم نسمع أن واحداً منهم كتب تفسيراً جامعًا للقرآن كله، سورة سورة، وآية آية، ولعل السر فى ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها، ولا يقدرون على التخلص منها.

وكل الذى وجدناه لهم فى تفسير القرآن - أو تأويله على الأصح - إنما هو نصوص متفرقة فى بطون الكتب، تعطينا إلى حد ما صورة واضحة، وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، ومبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير.

وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

والثانى: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضًا.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومَن قاربهم فى الزمن، وبالمتأخرين: البابية والبهائية. وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذى من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

* * *

موقف متقدمى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

علمت أن الغرض الأول الذى تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه: هو العمل على هدم الشرائع عموماً، وشريعة الإسلام على الخصوص. فكان لزاماً عليهم وقد قاموا يحاربون الإسلام - أن يُعملوا معاول الهدم فى ركن الإسلام المكين، وهو القرآن الكريم، وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معْوَلاً أصلب ولا أقوى على تنفيذ غرضهم من معْوَل التأويل والميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله.

كتب عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنانى رسالة طويلة جاء فيها: « .. وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة فى السماء، وإبطال الجن فى الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالَم » (١).

رأى هذا الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعاً فقالوا: « للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللُّغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللُّب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذَّب بالشقشقة فى الكتاب، وباطنه مُؤدٍّ إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ (٢).

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة على قاعدتهم التى قَعَّدوها؟ ولستُ أدرى ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة فى شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل مَن يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

● **من تأويلات الباطنية القدامى:**

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم فى شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتى:

« الوضوء » عبارة عن موالاة الإمام، و« التيمم » هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحُجَّة، و« الصلاة » عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى فى

---

(١) الفَرْق بين الفِرَق ص ١٨٠، وبمثل هذه العبارة يستدل أبو المنصور البغدادى على أنهم دهريون.

(٢) المواقف: ٨/ ٣٨٨.

الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ .. و« الغُسْل » تجديد العهد ممن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى « الاحتلام ». و« الزكاة » عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. و« الكعبة » النبى. و« الباب » علىّ. و« الصفا » هو النبى. و« المروة » علىّ. و« الميقات » الإيناس. والتلبية » إجابة الدعوة. و« الطواف بالبيت سبعًا » موالاة الأئمة السبعة. و« الجنة » راحة الأبدان من التكاليف. و« النار » مشقتها بمزاولة التكاليف (١).

وتأوَّلوا أنهار الجنة فقالوا: « أنهار من لبن » أى معادن العلم؛ اللبن العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذيًا تدوم به حياتهم اللطيفة، فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم. « وأنهار من خمر » هو العلم الظاهر. « وأنهار من عسل مصفى » هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة (٢).

كذلك نجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسل، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحى من الله، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء مَلَك وفى الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجَّال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تُكذِّب دعواهم هذه، فتخلَّصوا منها بمبدأهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأوَّلوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم، فتأوَّلوا « الملائكة » على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم. وتأوَّلوا « الشياطين » على مخالفيهم. وتأوَّلوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: « الطوفان » معناه طوفان العلم ... أغرق به المتمسكون بالسُّنَّة. و« السفينة » حرزه الذى تحصن به مَن استجاب لدعوته. و« نار إبراهيم » عبارة عن غضب نمروذ عليه لا النار الحقيقية. و« ذبح إسحاق » معناه أخذ العهد عليه. و« عصا موسى » حُجَّته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشُبه لا الخشب. « وانفلاق البحر » افتراق علم موسى فيهم عن أقسام. و« البحر » هو العلم. و« الغمام الذى أظلهم » معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم. و« الجراد والقُمَّل والضفادع » هى سؤالات موسى والتزاماته التى سُلِّطت عليهم. و« المن والسلوى » علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى. و« تسبيح الجبال » معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين. و« الجن الذين ملكهم سليمان بن داود » باطنية ذلك الزمان. و« الشياطين » هم الظاهرية الذين كُلِّفوا بالأعمال الشاقة. و« عيسى » له

(١) المواقف: ٨/ ٣٩٠.

(٢) فضائح الباطنية للغزالى ص ١٣.

أب من حيث الظاهر، وإنما أراد بالأب المنفى: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار. و« كلامه فى المهد » اطلاعه فى مهد القالب قبل التخلص منه على ما يَطَّلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القالب. و« إحياء الموتى من عيسى » معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن. و« إبراؤه الأعمى » عن عمى الضلالة. و« الأبرص » عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين. و« إبليس وآدم » عبارة عن أبى بكر وعلىّ، إذ أُمِرَ أبو بكر بالسجود لعلىّ والطاعة له فأبى واستكبر. و« الدجال » أبو بكر، وكان أعوراً إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن. و« يأجوج ومأجوج » هم أهل الظاهر » (١).

بل بالغوا فقالوا: « إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلبًا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة » (٢).

هذا .. وإن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأوَّلوا فى ذلك قوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة الحِجْر: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ .. وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ أحق بأُخته، والأب أولى بابنته .. وهكذا: ولست أدرى على أى وجه تأوَّلوا آية النساء التى حرَّمت ذلك، ومنعته منعًا باتًا!!

ويقول القيروانى فى رسالته التى أرسلها إلى سليمان بن الحسن: « .. وينبغى أن تحيط علمًا بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم، كعيسى بن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت، وأباح العمل فى السبت، وأبدل قِبْلة موسى بخلاف جهتها .. وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ولا تكن كصاحب الأُمَّة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿ **الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [الاسراء: ٨٥] لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهانًا قال له: ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال لقومه: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات: ٢٤] لأنه كان صاحب الزمان فى وقته ».

ثم قال فى آخر هذه الرسالة: « وما العجب من شئ كالعجب من رجل يدَّعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة فى حُسْنها، فيُحَرِّمها على نفسه ويُنكحها من أجنبى، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأُخته، وبنته من الأجنبى، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرَّم عليهم الطيبات وخوَّفهم بغائب لا يُعقل، وهو الإله

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٣.
(٢) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٧٩.

الذى يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور، والحساب، والجنَّة، والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له فى حياته، ولذُرِّيته بعد وفاته خولاً، واستباح بذلك أموالهم بقوله: ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى ٢٣].

فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنَّة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنَصَب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج»؟

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة: «... وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذَّاتها محرَّمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئًا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم»(١).

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التى يتوصلون بها إلى هواهم النفسى، ومأربهم الشخصى، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه به، وتتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه، فيطلبون مائة وتسعة عشر درهمًا من السبيكة الخالصة. ويقولون: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المزمل: ٢٠].. فالحاء والسين والنون والألف إذا جُمع عددها بحساب الجُمَّل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر» (٢).

ومن ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجُمَّل؟.. اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مُخرِّف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله!!.

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفى وجود الإله الحق، والنبى المرسل محمد ﷺ، ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً (ﷺ)، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدرى مَن محمد؟ فيقول: نعم، محمد رسول الله، خرج من مكة، وادَّعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة. فيقول له: ليس هذا الذى تقول إلا كقول هؤلاء الحمير - يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام - إنما محمد أنت. فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً، فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(١) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) التبصير فى الدين ص ٨٧.

[التوبة: ١٢٨] .. وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة .. فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟ فيقول: خلقك وصوَّرك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسُرَّة بمنزلة الميم والرجلان بمنزلة الدال، وكذلك أنت علىّ أيضاً، عينك هى العين، والأنف هى اللام، والفم الياء» (١).

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد.

ولأجل أن يوهمه أيضًا بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، ويُؤوِّلون عليه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ [قريش: ٣] .. ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو الذى كلَّم موسى بقوله: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه: ١٢] .. وفى هذا يروى لنا البغدادى صاحب الفَرْق بين الفرَق قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وفقه الله لتركها والرجوع لرشده .. يحكى هذا الرجل قصته للبغدادى فيقول: «إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وكل مَن ادَّعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، وأحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات، واستعبدوهم بشرائعهم - قال الحاكى للبغدادى: ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغى أن تعلم أن محمد ابن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ .. ثم قال: فقلت: سخنت عينك! تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق للعالَم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهًا مرسلاً لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذبًا، فالذى زعمتَ أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لا تفلح أبداً، وندم على إفشاء أسراره إلىَّ وتُبْتُ من بدعتهم» (٢).

فانظر إليهم - لعنهم الله - كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدَّعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل!! .. أليس هذا غلواً فى الإلحاد؟ وإغراقًا فى الكفر والعناد؟.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم ويفضح أسرارهم وخباياهم. وهو لمحمد بن مالك اليمانى أحد علماء القرن الخامس الهجرى، ولا أريد

---

(١) التبصير فى الدين ص ٨٧ - ٨٨.
(٢) الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٨٨.

أن أُطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب. ضمنها المصنِّف ما شهده بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهراً بدخوله فى زمرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل. وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!!

● **مقالة محمد بن مالك اليمانى فى الباطنية:**

يقول محمد بن مالك اليمانى: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأُبيِّنه للمسلمين وأُوضِّحه، أن له – يريد علىّ بن محمد الصليحى زعيم باطنية اليمن فى وقته – نواباً يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المُكَلبين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد، لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويُلَبِّسون على كل جاهل، بكلمة حق يُراد بها الباطل، ويحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذى ينثر الحب للطير ليقع فى شرْكه، فيقيم أكثر من سنة يمنعون به، وينظرون صبره، ويتصفحون أمره. ويخدعونه بروايات عن النبى ﷺ مُحرَّفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويُحرِّفون الكَلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يُعلِّمونه، والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف مُثله وممثوله، واعرف معانى الصلاة والطهارة، وما روى النبى ﷺ بالرموز والإشارة، دون التصريح فى ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لممثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه. فيقول: عَمّ أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البقرة: ٤٣] (١) . . فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاها مرة فى السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن، يدل على ذلك: ﴿ **وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، و﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] . .ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ**

---

(١) فى مواضع أخرى من القرآن الكريم.

إلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله: **﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾** [ص: ٢٤]، وقوله: **﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ: ١٣] .. فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و«الصلاة» و«الزكاة» سبعة أحرف [1] دليل على محمد وعليّ صلى الله عليهما، لأنهما سبعة أحرف، فالمَعْنِيُ بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعليّ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، فيوهمون على مَن لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبى ﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة، لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تُلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حُظِرَ عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرِّب قُرباناً ليكون لك سلماً ونجوى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثنى عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعى: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه إثنا عشر ديناراً، فيقول: اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** [الأعراف: ١٥٧] . فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذى وضع عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك [2]. ثم يقول له ذلك الداعى - الملعون - بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهى أول درجة، وأنا أرجو أن يُبلِّغك الله إلى أعلى الدرجات، فأسأل وابحث، فيقول: عَمّ أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر والميسر، اللذين نهى الله تعالى عنهما: هما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على عليّ، وأخذهما الخلافة دونه، فأما ما يُعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام، لأنه مما أنبتت الأرض، ويتلو عليه: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** [الأعراف: ٣٢] ... إلى آخر الآية. ويتلو عليه **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾** [المائدة: ٩٣] .. إلى آخر الآية، والصوم: الكتمان، فيتلو عليه: **﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾** [البقرة: ١٨٥] يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفاً من الظالمين، ويتلو عليه: **﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾** [مريم: ٢٦] فلو كان عَنِىَ بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أُطعم اليوم شيئاً، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغياناً وكفراً، وينهمك إلى قول ذلك الداعى الملعون، لأنه أتاه بما يوافق هواه، والنفس أمَّارة بالسوء .. ثم يقول له: ادفع النجوى تكن لك سلماً ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثنى عشر ديناراً، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا؛ عبدك فلان قد

---

(١) لعله عدَّهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

(٢) يشير إلى الآيتين ٢ - ٣ من سورة الشرح.

عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل فى رمضان، فيقول له: قد وثَّقته وأمَّنته على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعتُ عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له: قد عرفتَ ثلاث درجات، فاعرف الطهارة ما هى، ومعنى الجنابة ما هى فى التأويل، فيقول له: فسرِّ لى ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هى موالاة الأضداد، أضداد الأنبياء والأئمة، فأما المَنىّ فليس بنجس، منه خلق الله الأنبياء، والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجسًا وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغُسْل من الغائط والبول أوجب، لأنهما نجسان، وإنما معنى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة: ٦] معناه: وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلَّموا واعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حاية الأبدان، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] .. وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ٦] .. فلما سمَّاه الله بهذا دَلَّ على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمر ذلك الداعى أن يدفع اثنى عشر دينارًا، ويقول: يا مولانا؛ عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أنى قد حللت له ترك الغُسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعى الملعون: قد عرفتَ أربع درجات، وبقى عليك الخامسة، فاكشف عنها، فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك، ويتلو عليه: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] فيقول له: ألهمني إياها ودلني عليها، فيتلو عليه: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢] .. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لي ذلك؟ فيتلو عليه: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ [الليل: ١٣]. ثم يتلو عليه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .. والزينة ههنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يَطَّلع عليها إلا المخصوصون وذلك قوله: ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] .. والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٣] .. فمن لم ينل الجنة فى الدنيا لم ينلها فى الآخرة، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب، وأهل العقول دون الجُهَّال، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى، ولذلك سميت الجنَّة جَنّة لأنها مستجنة، وسميت الجن جنا لاختفائهم عن الناس، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس المجن لأنه يُستتر به، فالجَنَّة ههنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقول،

فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكًا، ويقول لذلك الداعى الملعون: تَلَطَّف فى حالى، وبَلِّغنى إلى ما شوَّقتنى إليه، فيقول: ادفع النجوى اثنى عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلماً، فيمضى به فيقول: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً قد صَحَّت سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تُدخله الجنة، وتُبلغه حد الأحكام، وتزوِّجه الحور العين، فيقول له: قد وثَّقته وأمَّنته؟ فيقول: يا مولانا؛ قد وثَّقته وأمَّنته وخبرته فوجدته على الحق صابراً، ولأنعمك شاكراً، فيقول: علْمُنا صعب مستعصب لا يحمله إلا نبى مرسل، أو مَلك مُقرَّب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول سمعا وطاعة لله ولمولانا، فيمضي به إلي بيته فيبيت مع زوجته حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعى الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك، فيدفع اثنى عشر ديناراً ويصل به ويقول: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكؤوس، وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى الملعونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفأوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه فى يده، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعى الملعون وجميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وحَطَّ عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأحلَّ لكم بعض الذى حَرَّم عليكم جُهَّالكم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

قال محمد بن مالك - رحمه الله تعالى - هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم، والله تعالى لهم بالمرصاد، والله تعالى عليَّ شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعتُ عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم، والله يشهد عليَّ بجميع ما ذكرته، عالم به، ومَن تَكلَّم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، وأخزى الله مَن كذب عليهم، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً، ومَن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حَوْل الله وقوته إلى حَوْل الشيطان وقوته..» (١).

---

(١) كشف أسرار الباطنية ص ١١ - ١٦.

وبعد .. ألستَ ترى معى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان، وإنما هى أوهام وأباطيل، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، وليدخلوهم فى زمرة الملحدين وحزب الشياطين؟ أعتقد ذلك ، وأظن أن سؤالاً يدور بخلد القارى هو : كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعانى التى نُقلتْ عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلاً على عدم صحة كل ما يُنسب إليهم؟ .. والحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالى من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلمتهم، ويتفاوت نقل المذهب عنهم (١).

* * *

(١) فضائح الباطنية ص ٨.

موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

● **تمهيد .. فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن وتعدد ألقابهم:**

قلنا إن الباطنية يُعرفون بأسماء عدة، وقلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويُعرفونه بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم أغا خان الزعيم الإسماعيلى المعروف، ويوجدون فى بلاد الأكراد ويعرفون بـ « العلوية » حيث يقولون: علىّ هو الله. ويوجدون فى تركيا ويعرفون بـ « البكداشية » وفى مصر جماعة من البكداشية من أصل ألبانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى (١). ويوجدون فى بلاد العجم ويُعرفون بـ « البابية ». ويوجدون فى فلسطين ويُعرفون بـ « البهائية » ومنهم جماعات في بلاد متفرقة (٢)، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى « القاديانية »، وهى أحدث فرقهم عهداً، وأقربها ظهوراً.

هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشربها.

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم. غير أننا لم نقف على شئ من ذلك، اللّهم إلا شيئًا يسيرًا للبابية والبهائية.

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة (٣) وموقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها - وإن قَلَّ - فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا فى كل ما نكتب: على بعض الكتب التى وصلتنا عنهم، وعلى ما نشر فى المجلات العلمية من البحوث التى تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم.

(٢) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام، وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك فى حفل عام، سنة ١٩٦١.

(٣) البابية والبهائية فى واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها « بابية »، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثانى، فقيل لها « بهائية » كما هو موضح بعد.

البابية والبهائية

● **كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهائية:**

البابية: نسبة إلى الباب، وهو لقب ميرزا علىّ محمد، الذى ابتدع هذه النِحْلة، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الأول لها.

والبهائية: نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين على، الزعيم الثانى للبابية، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الثانى لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا علىّ محمد، الملقب بالباب، والمولود فى سنة ١٢٣٥ هجرية، توفى عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه، فرُبى فى حجر خاله ميرزا سيد علىّ، ونشأ معه فى مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنه الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب - والباب عند الشيعة معناه نائب المهدى المنتظر - وكان ادعاؤه هذا فى سنة ١٢٦٠ هجرية، وما لبث أن وصلت هذه الدعوة إلى طائفة من الجاهلين فصدَّقوا بها، وتتابعوا عليها، وكان عدد مَن صدَّقه فى أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسماهم بكلمة «حى» لأن عدد حرفيها بحساب الجُمَّل ثمانية عشر، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار فى إيران وبلاد العراق، يبشرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسمه حتى يُظهره هو بنفسه، ولما حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعوته فى المجتمع الكبير فاشتهر اسمه، وذاعت دعوته، فثارت عليه طوائف المسلمين، وقاموا فى سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهرت ما فى دعوته من غواية وضلال، فكفَّره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فاعتقله الوالى فى سجن شيراز، ثم فى سجن أصفهان، ثم فى طهران، ثم فى أذربيجان. وفى عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفيهم، وقامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فَعُلِّقَ فى ميدان مدينة تبريز، وقُتِل رمياً بالرصاص، وذلك فى سنة ١٢٦٥ هجرية.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم فى شأن مَن ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة، من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية، وأمثالها، وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هجرية انتقاماً لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا فى هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابيين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقُتل مَن قُتِل، ونُفِىَ مَن نُفى، وكان من بين زعمائهم فى هذا الوقت - وقت الاضطهاد - ميرزا حسين علىّ الملقب فيما بعد: «بهاء الله».

● **بهـــاء الله:**

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية، وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة فى

وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدَّقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية، وهى محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قُبض على بهاء الله وسُجن نحو أربعة أشهر، ثم أُفرج عنه وأُبعد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية، ومكث بها اثنى عشر عاماً، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب وكان يشير إليه بلفظ «مَن يُظهره الله» وهناك تجمَّع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذ بالبهائيين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تُفضى إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحواً من أربعة أشهر، ثم نُفى إلى أدرنة [١] ومكث بها نحواً من خمس سنوات، ثم نُفى منها إلى عكا من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، وبقى بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجرية، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس (المولود سنة ١٨٤٤م والمتوفى سنة ١٩٢١م) والملقب «عبد بهاء»، فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف فيه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا عليّ، وألَّفوا كتباً فى الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء [٢].

● **الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى:**

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريباً، فإنَّا نجدها ليست بالفرقة المحدَثة فى عقائدها وتعاليمها، بل هى فى الحقيقة ونفس الأمر وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمة، وآراء فلسفية، ونزعات سياسية. ثم درجت تحذو حذو الباطنية الأُوَل، وتترسم خطاهم فى كل شئ، وتهذى فى كتاب الله، فتأوَّلته بمثل ما تأوَّلوه، لتصرف عنه قلوباً تعلقت به ونفوساً اطمأنت إليه.

والذى يقرأ تاريخ الباطنية الأُوَل، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح الباطنية حلَّت فى جسم ميرزا عليّ، وميرزا حسين عليّ، فخرجت للناس أخيراً باسم البابية والبهائية.

---

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه الملقب بصبح أزل – وكان ممن رفض دعوى أخيه، وأتباعه يُعرفون بالأزلية – فتنة فى أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة، فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

(٢) لخصنا هذا البحث التاريخى من مقال لأبى الفضائل الإيرانى منشور بمجلة المقتطف الجزء التاسع، السنة العشرين، ومن مقال السيد محمد الخضر حسين المنشور بمجلة نور الإسلام – مجلة الأزهر فيما بعد – العدد الخامس من السنة الأولى.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب والتشيع، بل والانتساب إلى آل البيت، ثم يصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معان باطنية لا يقبلها العقل، ولا تمت إلى الدين بسبب، وعلى هذا الأساس قامت دعوة البابية والبهائية، وبمثل هذه الوسيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم، وإليك ما يوضح ذلك :

أولاً : في الباطنية مَن يدَّعي النبوة لنفسه أو يدَّعيها لغيره، وميرزا عليّ الملقب بالباب يدَّعي أنه رسول للناس من قِبَلِ الله تعالى، وله كتاب اسمه «البيان» ادَّعى أنه مُنزَّل عليه من عند الله تعالى. وقد جاء في رسالة بعث بها الباب إلى العلامة الألوسي صاحب التفسير المعروف، يدعوه فيها إلى الإيمان به : «إنني أنا عبد الله، قد بعثني بالهدى من عنده» وسمى في هذه الرسالة مذهبه «دين الله» فقال : «ومَن لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام» (١).

ولا نعلم ماذا أجاب به الألوسي على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه في هذه الطائفة عندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة الأحزاب : ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ .. وذلك حيث يقول : «وقد ظهر في هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوي العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذي وقع على همته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم – نصره الله – وشتت شملهم، وغضب عليهم – رضي الله تعالى عنه – وأفسد عملهم. فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه في الدارين ضيماً وضيراً» (٢).

وكذلك ادَّعى زعيمهم الثاني الملقب ببهاء الله : أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله، ويُطلق عليه اسم «الكتاب» قرأنا فيه فوجدناه يقول :

«لعمر الله إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذي أنطق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار» (٣).

«لعمري ما أظهرتُ نفسي، بل الله أظهرني كيف أراد، إني كنت كأحد من العباد، وراقداً على المهاد، مرّت عليّ نسائم السبحان، وعلَّمني علم ما كان. ليس هذا من عندي بل من لدن عزيز عليم. وأمرني بالنداء بين الأرض والسماء، بذلك ورد عليّ ما

---

(١) رسائل الإصلاح : ٣ / ٩٨. (٢) روح المعاني : ٢ / ٣٩. (٣) «الكتاب» ص ٧.

ذرفت به دموع العارفين. ما قرأتُ ما عند الناس من العلم، وما دخلتُ المدارس، فاسأل المدينة التى كنتُ فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين» (١).

«قل قد أتى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، ويتحد العالم، ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء» (٢).

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكامًا خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يومًا من شروق الشمس إلى غروبها، وعيَّن لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى. بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم «النيروز» على الدوام، وفى كتاب «البيان»: «.. أيام معدودات، وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها» (٣).

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، ويقرر ذلك فى كتابه فيقول: «لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل، بَيِّنوا يا قوم .. لعَمْرى ليس لكم اليوم من مَحيص، إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم. وإن كان ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين. لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين» (٤).

وقرر البهاء أن الدين قسمان. عملى وروحانى، فالقسم الروحانى وهو مظاهر الألوهية والنبوة، غير قابل للتبديل. والقسم العلمى، وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية، قابل للتغيير. وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليلة، وجعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو!!.

وفى هذا يقول: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطري الأقدس» (٥)، وسوَّى بين الرجل والمرأة فى الحقوق الشرعية والسياسية، وقرر عقوبات مالية للزنا والسرقة وغيرهما، ومنع التسرِّى، وحرَّم الزواج بأكثر من واحدة، وقيَّد لهم الطلاق وصعبَّه. وحُجَّته فى هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالَم، فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر .. عصر التقدم المادى العظيم. وهذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسايرة هذا العصر دون غيره (٦).

---

(١) «الكتاب» ص ٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥.

(٣) رسائل الإصلاح: ٣/ ٩٩.

(٤) كتاب بهاء الله ص ٣٩.

(٥) رسائل الإصلاح: ٣/ ٩٩.

(٦) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين، وانظر المحاضرة التى ألقاها عبد العزيز نصحى عن البهائيين بدار جمعية الهداية الإسلامية.

ثانيا: منع الحسن بن الصبَّاح وغيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة، وفعل الباب مثل ذلك فحرَّم فى كتابه «البيان» التعليم وقراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، وما فى أيديهم من كتب العلم .. ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، فنسخ ذلك التحجير، وذلك حيث يقول فى كتابه المسمى بـ «الأقدس»: «قد عفا الله عنكم ما نَزَّل فى البيان من محو الكتب، وآذنا بكم بأن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم» (١).

ثالثا: منَ الباطنية مَن يدَّعى حلول الإله فى بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدَّعون حلول الإله فى إمامهم محمد بن إسماعيل. ونجد مثل هذه الدعوى متجلية فى بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول فى «الكتاب»: «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن» (٢).

وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجئ رب الجنود والأب الأَلى، ومخلِّص العالَم الذى لا بد منه فى آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه فى الهيكل البشرى، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى، إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم» (٣).

يريد بهذا: أن الله تجلَّى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم.

وهذا أبو الفضل الإيرانى أحد دعاتهم يقول: «... فكل ما توصف به ذات الله ويُضاف ويُسند إلى الله من العزة، والعظمة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشيئة ... وغيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره» (٤)... ومثل هذا كثير فى كلام زعمائهم ودعاتهم.

رابعا: يدَّعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرون مدارك الحق فى أقواله. والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه فى كتبهم.

يقول بهاء الله فى الكتاب: «يسند القائم ظهره إلى الحرم، ويمد يده المباركة، فتُرى بيضاء من غير سوء، ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله .. وبأمر الله أنا الذى لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهرى إمامة، وباطنى غيب لا يُدرك» (٥).

---

(١) رسائل الإصلاح: ٣ / ١٠٠. (٢) «الكتاب» ص ٣٣.
(٣) رسائل الإصلاح: ٢ / ١٠٠. (٤) المرجع السابق. (٥) «الكتاب» ص ٨٣.

وقد عرفت أن البابية والبهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بـ « مَن سيُظهره الله »، ويزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

خامسًا: من مبادى قدماء الباطنية التفرس. وعلى هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج - أى فقيه أو متعلم - والبهائية يسيرون على هذا المبدأ وإليك ما يثبت ذلك:

أرسل إلى أبى الفضائل الإيرانى بعض إخواته كتابًا يرجوه فيه أن يرد على مقال كتبه جرجس صال الإنجليزى بإمضاء هاشم الشامى، والمقال يتضمن توجيه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك فى رسالة أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها:

« .. إن هناك موانع جمة، أعظمها وأشدها مانع كبير لا يستسهل العاقل تذليل صعوباته، ولا يتسنم النبيه متن صهواته، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه، ومن القرآن برسمه، تغذت فى مدة مديدة، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب، وألفت سفاسف المسائل حتى بعدت عن لباب الكتاب، وجهلت حقيقة معانى الخطاب، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات، وأظهرنا المعانى المقصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحقائق المقصورة فى قصر الآيات، وتهللت وجوه المعانى المستورة فى خدور الاستعارات، لندفع تلك الردود والاعتراضات، ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات، تثور أولاً أحقاد جهلائنا، ويرتفع نعيب سفهائنا، وينادون بالويل والثبور، ويثيرون الأحقاد الكامنة فى الصدور .. ».

ثم يقول لصاحبه فى آخر الرسالة: « .. لتعلم حق العلم أنى ما نسيت ولم أكره صفة من صفاتك، ولا خلة من خلالك، ولكن - والحق يقال - إنك نسيت وصية روح الله الواردة فى سفر مَتَّى: « لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير » حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعالى المعانى، عند مَن لا يستحق أن تخاطبه وتلاطفه، وتجالسه وتؤانسه، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية، والأسرار الربانية، فتمسَّك بالحكمة، وكن على جانب عظيم من الفطنة » (١).

ويقول فى رسالة أرسلها إلى الشيخ فرح الله زكى الكردى أحد أتباعهم فى مصر: « .. واعلم يا حبيبى أنه سيدخل عليكم كثيرون، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، ويظهرون السلم والوفاق، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان، واضطهاد أصحاب الإيقان كما تصرح وتنادى آى الفرقان، منها قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ**

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٢٦ - ١٢٧.

ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥] ... إلى آخر الآيات، فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق، للاستطلاع والاستراق، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم، ولا يخدعنك ملاينتهم وتملقهم، فإن التهور والتعجل يوجب الندم والافتضاح، والتروى يكفل النجاح والفلاح. ومن الحكم المأثورة: «العجلة من الشيطان، والتأنى من الرحمن» (١).

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحْلة جديدة فى تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الدينى، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن - علاوة على ما سبق - أنهم ينهجون نهج الباطنية الأُوَل، ويترسمون خطاهم فى تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته!!

• موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم:

لم تحل عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم، ولم يمنعهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على دعاواهم الباطلة، ومذاهبهم الفاسدة، تمويهاً على العامة، وتغريراً بعقول الأغمار الجهلة.

• أبو الفضائل الإيرانى يعيب تفاسير أهل السُّنَّة:

ولم يكن فى وجوههم قطرة من الحياء تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السُّنَّة وتحقيرها، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيرانى، نجده فى رسالة أرسلها لصديق له، يعيب على تفاسير أهل السُّنَّة فيقول: «.. ولقد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبى من تعاليمهم الباطلة، وتفاسيرهم المضحكة، فإن أحباءنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة فى هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم فى بيروت، وسافرنا معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفا، أخبرونا بما يتحير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب، كيف تقدمت كلمة الله فى تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بَيِّناته»؟ (٢).

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السُّنَّة، لأن يرى فى زعمه أنه وأهل نحْلته خير مَن يفهم القرآن، ويعلم ما فيه من أسرار ورموز، ويرى أنه ومَن شاكله هم الراسخون فى العلم، الذين يقفون على عجائب القرآن التى لا يدل عليها إلا باطنه، أما ما يعنى به

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٣٨ - ١٣٩.
(٢) رسائل أبى الفضائل ص ٦٦.

مفسرو أهل السُّنَّة من الظواهر فليس فى زعمه من المعانى التى يرمى إليها القرآن، وفى هذا يقول ما نصه:

« . . . لو كان معانى آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل مَن يعرف اللُّغة العربية، ويتلذذ منه كل مَن له إلمام بالعلوم الأدبية، كيف يتم هذا القول - يريد قول رسول الله ﷺ فى شأن القرآن: «إنه لا تنقضى عجائبه» - وكيف يصدق قول الله فى الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ (١).

● **إنتاج البابية والبهائية فى التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة:**

ولكن هل وصل إلى أيدينا شئ من كتب هذه الطائفة فى تفسير القرآن؟ لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألَّفوا تفسيراً متناولا للقرآن آية آية، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسَّر سورة البقرة، وسورة الكوثر، ولكن لم يصل إلى أيدينا شئ من ذلك، وكل ما وصل إلينا هو نبذ من تفسيره، وتفسير بعض أشياعه ودعاته، قرأناها فى كتبهم أنفسهم، وفى الكتب والمقالات التى كتبت عنهم، وهذه النبذ مع قلَّتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم، والميل بنصوصه إلى ما يُرضى أهواءهم، ويُشبع أطماعهم. وإليك بعض التأويلات، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم، وتلاعبهم بالقرآن وبالعقول!!

● **من تأويلات الباب:**

فسَّر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذى لا يقره الشرع ولا يقبله العقل، ولا يمكن أن يفهمه إلا مَن يفهم لغة المبرسمين (٢) كما قيل.

وإليك بعض ما قاله الباب فى تفسيره لسورة يوسف، لتقف على مقدار هذيانه، وتلاعبه بالنصوص القرآنية:

عند قوله تعالى فى الآية (٤): ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ .. يقول ما نصه: «وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، وثمرة البتول، حسين بن علىّ بن أبى طالب مشهوداً .. إذا قال حسين لأبيه يوماً: إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سُجَّاداً .. وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمداً، وبالنجوم أئمة الحق فى أُمِّ الكتاب معروفاً، فهم الذين يبكون على يوسف بإذن الله سُجَّداً وقياماً» (٣).

وفى قوله تعالى فى الآية (٥): ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا**

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٦.
(٢) البِرسام - بكسر الباء -: عِلَّة يصحبها هذيان.
(٣) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩.

لكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ .. يقول ما نصه: «إذ قال عليّ: يا بُنَيَّ لا تُخبر مما أراك الله من أمرك إخوتك ترحماً على إلفهم ، وصبراً لله تعالى، وهو الله كان عزيزاً حميداً. إن كنت تخبر من أمرك فى بعض مما قضى الله فيك، فيكيدوا لك كيداً، بأن يقتلوا أنفسهم فى محبة الله من دون نفسك الحق شهيداً، وإن الله لوجهك بدمك محمراً على الأرض بالحق على الحق صبيغاً، وإن الله قد شاء كما شاء أن يراك مخضباً شعرك من دمك ونفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلاً. وجسمك على الأرض عرياً. وإن الله شاء كما شاء بأن يرى بناتك وحريمك فى أيدى الكافرين أسيراً» (١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٨): ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ .. يقول منا نصه: «.. إذ قالوا حروف لا إله إلا الله. وأن يوسف أحب إلى أبينا منا بما قد سبق من علم الله حرفاً مستسراً مُقنَّعًا على السر محتجباً فى سطر، غايباً فى سر السر مرتفعاً عما فى الدنيا وأيدى العالَمين جميعاً. وإنَّا نحن عصبة فيما أراد الله فى شأن يوسف النبى محمد العربي حول السطر مسطوراً. وإن الله قد فضَّل أبانا بفضل نفسه وقدر الله سر المستسر من سر أمره بما فى أيدى العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر «الباء» ضلالاً ... إلخ (٢).

● **من تأويلات بهاء الله:**

ويروى بهاء الله أن ما ورد فى القرآن عن الصراط، والزكاة، والصيام، والحج، والكعبة، والبلد الحرام، وما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة. وفى هذا يقول فى «الكتاب»: «قال أبو جعفر الطوسى: قلت لأبى عبد الله: أنتم الصراط فى كتاب الله، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ قال: يا فلان؛ نحن الصراط فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قِبْلة الله، ونحن وجه الله» (٣).

وفى كتاب بهاء الله والعصر الجديد، ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، ولا بالجنة والنار، حيث يفسِّرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجئ ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، قال فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «وطبقًا للتفاسير البهائية، يكون مجئ كل مظهر إلهى عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجئ المظهر الأعظم بهاء الله: هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التى نعيش فيها»، وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يبتدئ بظهور المظهر، ويبقى ببقاء الدورة العالمية» (٤).

ويُفسِّر البهائية الجنة بالحياة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحانى، فقد جاء فى

---

(١) المرج السابق ص ٣١٠.
(٢) نفس المرجع ص ٣١٢.
(٣) «الكتاب ٨٣.
(٤) رسائل الإصلاح: ٣/ ١٠٣.

كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «إن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة» فالجنة ترمز إلى حياة الكمال، والنار ترمز إلى حياة النقص، ولما كانت الحياة الروحية فى نظر البهاء هى الإيمان به، والموت الروحى هو تكذيب دعوته. فإنَّا نراه يقرر ذلك فيقول: «.. منهم مَن قال: هل الآيات نزلت؟ قل: إى ورب السموات. قال: أين الجنة والنار؟ قل: الأولى لقائى، والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب» (١).

● **من تأويلات عبد البهاء عباس:**

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة والوحى بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلَّدوا الفلاسفة فيقول: «الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهى، والتجلى الروحانى، وانطبعت فيها أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، وارتسمت فيها الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحُسنى. ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، فهم معادن الرحمة، ومهابط الوحى، ومشارق الأنوار، ومصادر الإرسال. وما أرسلناك إلا رحمة للعالَمين» (٢).

ونجد قُرَّة العيون - إحدى أتباع الباب - تدَّعى أنها الصُور الذى يُنفخ فيه يوم القيامة، وتقول: «إن الصُور الذى ينتظرون فى اليوم الأخير هو أنا» (٣).

وبين أيدينا رسائل أبى الفضائل، محمد بن رضا الجرفادقانى، المعروف بفضل الله الإيرانى، أحد دعاة البابية المتعصبين، وكتاب الحجج البهية له أيضاً، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، بما يتفق ومذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلاً أنه يُفسِّر الروح الأمين الذى ورد فى القرآن بأنه الحقيقة المقدسة، ثم يُعَرِّفها فيقول: «هى غيب فى ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا تُوصف بأوصاف الماديات، ولا تُذكر بخصائصها، ولا يُطلق عليها الخروج والدخول، ولا تُوصف بالتحيز والحلول، وإنما هى حقيقة تنجلى فى مظاهر أمر الله تعالى، عرشها قلوب الأصفياء، ومرآة تجليها صدور الأولياء،و إنما مثل طلوعها وإشراقها فى النفوس القدسية كمثل انطباع الشمس فى المرايا، فلا يقال: إن الشمس حلَّت فى المرآة، ولا إنها دخلت فيها، بل ولا يقال: إنها عُرضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلَّت فى المرآة، وظهرت منها وأشرقت، وانطبعت بها» (٤).. وهذا بعينه مذهب قدماء الباطنية والفلاسفة.

ومن ذلك أيضًا أنه فسَّر قوله تعالى فى الآيتين (١٤٢ - ١٤٣) من سورة الأعراف: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** ﴾ ... الآيتين،

---

(١) كتاب بهاء الله ص ٩٧.

(٢) خطابات ومحادثات عبد البهاء.

(٣) المبادئ البهائية ص ٢١.

(٤) رسائل أبى الفضائل ص ٣٩.

تفسيراً باطنيًا فقال: «المراد بالليل - كما سمعته منى مراراً - هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة، واليوم على حسب ما نزل فى التوراة المقدِّس يُحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، وفرَّ من فرعون وملئه إلى مدين، كان ابن ثلاثين، وأقام فى مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبى عليه السلام، وكان فى طى هذه المدة التى كانت كالليالى المظلمة، والدياجى الكالحة من ظلم الفراعنة، وأوهام الصابئة، مشتغلاً بتهذيب أخلاقه، وتطييب أعراقه، وتنقية فؤاده، والمناجاة مع ربه فى وحدته وانفراده، فلما طاب خُلُقه، وتم خَلْقه، بعثه الله نبيًا لهداية بنى إسرائيل، وإنقاذهم من ذلك الوبيل. فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة. أقام موسى عليه السلام فى أثنائها فى مصر ومدين، ولا تنافى كلمة «واعدنا» هذا التفسير، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته، فإن أمثال هذه الكلمة كثيراً ما أُطلقت على ما أُلقى فى الروع، وأُلهم فى القلب، حتى على الحيوانات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا** ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٢].. ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هارون حينما كان مع الشعب فى البرية، كما هو مذكور فى التواريخ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جداً، حيث إن المؤرخين اعتمدوا فى هذه المسائل على ما جاء فى التوراة وسائر الكتب العتيقة، ولكنا أثبتنا فى كتاب الدرر البهية ضعف هذا المستند من حيث العلم، فيجوز أن يكون هارون مستخلفًا عن موسى عليهما السلام، لحفظ الشعب أيام غياب موسى فى مدين، وقد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جدهم إبراهيم عليه السلام، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين تزلفًا إلى فرعون وقومه، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية، واعتنقوا الديانة الوثنية، فلما رجع موسى عليه السلام ورآهم على تلك الحال السيئة والعبادة الباطلة، أنكر ذلك على هارون، كما ذكره المؤرخون، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ما عُرفوا بصلابة الرأى يتركون ديانتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليال.

ثم قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].. اعلم - حفظك الله - أن علماءنا - سامحهم الله - اختلفوا فى رؤية الله تعالى وعدم جواز رؤيته، فالشيعة والمعتزلة أنكروا جواز رؤيته، حيث تقتضى الجهة والمقابلة، وهى من مقتضيات الجسد والتحين والتحدد وأمثال ذلك، وهو منزَّه

عن تلك الأوصاف، إذ لم يفهموا من لفظة «الله» سوى الذات، ولا شك أن الذات منزّهة عن تلك الصفات. وأهل السُّنَّة والجماعة جوَّزوا رؤية الله تعالى اعتماداً على صريح الآيات، واستناداً على صريح الأحاديث والروايات، وكانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية، فمزجوها بالعقائد الوهمية، حيث شاعت فى تلك القرون بينهم المسائل الكلامية، والمعارف الناقصة العقلية، فإنهم قالوا: إن رؤية الله تعالى جائزة وواقعة فى القيامة، إلا أنها ليست من قبيل الإحاطة بالنظر، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة ومقابلة، وكيفية وإحاطة، مما يرجع إلى الوهم الصريح، وإنكار الرؤية حقيقة. وأهل البهاء المستظلين بظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا، لما عرفوا - على حسب ما يعلمون من القلم الأعلى - أن ذات الله بسبب تجردها وتقديسها الذاتى لا تُدرك، ولا تُوصف، ولا تُسمى باسم، ولا تُشار بإشارة، ولا تتعين بإرجاع ضمير. والأسماء والأوصاف وكل ما يُسند ويُضاف إليها راجعة فى الحقيقة إلى مظاهرها ومطالعها، ولذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التى نزلت فى الكتب المقدسة والصحف المطهّرة، من قبيل رؤية الله تعالى، ولقاء الله وظهور الله ومجئ الله وغيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق.. ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيراً ما أطلقوا فى عباراتهم لفظ «جَلّ» على أكابر الرجال استعارة، سواء أكانوا من صناديد الدولة والملك، أو من قروم أهل العلم والفضل، كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعى المعروف بالأشتر، لما اشتهر ذكر وفاته، وأخبر بمماته، ومقامه عليه السلام معلوم لديك فى الفصاحة والبراعة، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة، وعبارته هذه مذكورة فى نهج البلاغة. وهذه استعارة فى غاية المناسبة واللَّطافة حيث إن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد، لاستقرار أرض المعارف والديانة، أو الأُمة والدولة، وكثيراً ما أطلقه داود عليه السلام فى مزاميره، وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل فى كتبهم على الرب تعالى، كما جاء فى مزمور (٤٢): «أقول لله صخرتى لماذا نسيتنى»، وجاء فى مزمور (٧١): «كن لى صخرة وملجأ أدخله دائماً. أمرت بخلاصى لأنك صخرتى وحصنى».. إلى كثير من أمثالها، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله، كما يدلك عليه قوله تعالى: ﴿**أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [النساء: ١٥٣] إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان فى مكانهم من الإذعان، واليقين، ولكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم والمعرفة واليقين فلا بد وأن تندك جبال وجودهم، ويتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر، ويقينهم بالشك، وإقبالهم بالإعراض، حيث لم تكمل بعد مراتب

عرفانهم، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم، فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء، ولم يصعدوا إلى درجة الاستقرار والبقاء، فلا بد من ظهور الأنبياء، وقيام الأصفياء، لتربية أشجار الوجودات البشرية، وتكمل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور وطى العصور. حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والاستقرار، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض والسماء، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة واللقاء.

فخلاصة تفسير الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام قال: ربِّ أرنى أنظر إليك، حيث إن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابه الله تعالى: بأنك لن ترانى، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد درجة كمال وجودهم، ولم يستعدوا للقاء معبودهم، فانظر إلى جبال الوجودات، ومقادير استقرار الإيقان، فإن استقر جبل الوجود فى مقام إيمانه وإيقانه حين تجلَّى المعبود ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود، حينئذ استعد للقاء الله، واستحق للوقوف بين يدى الله، والتشرف برؤية الله. ثم تجلَّى الرب لأحد من تلك الأُمة ممن كان رؤساء الشعب، ومن جبال الإيمان والإيقان، فاندك وجوده، وتضعضع إيمانه، واضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الامتحان، وعرف مقدار صعوبة مقام الافتتان، فندم على ما سأل الرؤية للطالبين ورجع فى الحين. وقال: ﴿ **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (١).

فانظر إليه كيف أوَّل الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة، وهى التى يُبعث الأنبياء على رأسها، وكيف علَّل التعبير بلفظ « ليلة » بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليالى بظلم فرعون وملئه، وكيف تخلَّص من منافاة لفظ « واعدنا » للمعنى الذى يهذى به. وكيف اتهم التوراة وسائر الكتب العتيقة - بما فيها القرآن طبعًا كما سيأتى بعد - بأنها لا يُعَوَّل عليها فى الروايات التاريخية، وكيف رمى المعتزلة وأهل السُّنَّة بعدم إصابة المعنى الحقيقى للرؤية الواردة فى الآية، وكيف ادَّعى أنه ومَن على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقى للآية؛ وكيف صرف لفظ « الجبل » عن معناه المراد إلى معنى لا يُفهم من لفظ القرآن وسياق الآية!! .. ولستُ فى حاجة إلى أن أبين ما فى هذا التفسير من خطأ وضلال، فإن الحق بَيِّن واضح (٢).

وفى كتاب الدرر البهية، صرَّح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة، وأنها فى الحقيقة رموز إلى معان خفية فقال: « لا يمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه التاريخية من آيات القرآن » (٣)، وقال: « إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأُمم فى معارفهم

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦ - ١٠٣. (٢) رسائل الإصلاح: ٣ / ١٦.

(٣) المرجع السابق: ٣ / ٦٦.

التاريخية، وأقاصيصهم القومية، ومبادئهم العلمية، فتكلموا بما عندهم، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات » (١).

ولا شك أن هذه دعوى كاذبة يُراد بها إدخال الشك فى قلوب المؤمنين، وإيهامهم بأن القرآن لا يُعتمَد على ظاهره، وإنما يُعتمد على باطنه الذى عندهم علمه دون مَن عداهم من الناس. وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، لم ولن يقوم دليل تاريخي أو عقلي على عدم صحة قصة من قصص القرآن، وهو الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢].

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض في كتابه المسمى « الدرر البهية » لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة يونس: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾، ولقوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الأعراف: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ .. فيقول:

« ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللُّغوية، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية » .. ثم قال بعد هذا: « قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف السر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء »، وقال: « إنما بُعثوا – عليهم السلام – لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله، وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود »، وقال: « وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة، ومجئ مظهر أمر الله وإشراق أفاق الأرض ببهاء وجه الله ». ثم قال: « ولذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة محرَّفة مفسدة » (٢).

ومعلوم أن لفظ التأويل فى الآيتين عبارة عن وقوع المخبَر به ولكن يأبى هذا المخرِّف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعانى الخفية، وعجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب، وأما كشف الستر عن المعانى الخفية فإلى روح الله حين نزوله. وروح الله فى نظره ونظر أشياعه: هو البهاء الذى يُعَبِّر عنه بالنقطة، ويدَّعى أن الرسل أُرسلوا لسوق الخلق إليه، ويدَّعى أيضًا أن ظهوره يكون يوم القيامة، ولا شك أن هذا تفسير بارد عقيم، وجامد مضل، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذا، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من

---

(١) نفس المرجع.

(٢) رسائل الإصلاح: ٢ / ٦٥.

لدن نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة، عقيمة جامدة، مضلة مبعدة، محرَّفة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به، والعلم فى نظره عند البهاء وحده.

كذلك نجد أبا الفضائل يُفسِّر قوله تعالى في الآية (٣١) من سورة المدثر: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: «إن لفظ المَلَك واحد الملائكة، والملائكة فى اللُّغة العربية توافق لفظًا ومعنى ما فى اللُّغة العبرانية، حيث إنها مأخوذة من الأصل السامى، الذى اشتُقَّت منه اللُّغات: السريانية، والعبرانية، والعربية، والآشورية، والكلدانية، وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شئ، فكما أنه أطلق لفظ المَلَك والملائكة فى الكلمات النبوية المحفوظة فى الكتب السماوية على النفوس القدسية، والأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البَشرية وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكوا زمام الهداية وصاروا ملوك ممالك الولاية، كأنهم أُعطوا سلطة مطلقة فى سعادة الناس وشقاوتهم، وهدايتهم وضلالهم، وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت فى الأخبار، ولذا سمى سيد الأبرار وأمير الأبرار، بقسيم الجنة والنار. كذلك أطلق هذا اللفظ فى الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، وأئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفُجَّار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ** ﴾ [القصص: ٤١]. ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال، ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه، كما أنها أبواب للدخول فى جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلاً.. ثم استطرد من هذا إلى أن الباب كما يُطلق أيضًا على الديانات، يُطلق أيضًا على الأنبياء وكبار الأولياء، واستدل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت فى شأن الأئمة وهي: «أنتم باب الموتى والمأخوذ عنه» قال: وإليه أشير في الآية الكريمة: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد: ١٣]، بعد أن قرر هذا، ادَّعى «أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، وهى ثمانية عشر حروف «الحى» والنقطة الفردانية [(١)]، وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، ودخلوا الجنة.. ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعيَّن تسعة عشر إنسانًا من رؤساء أصحابه ودهاة أحبابه، لإضلال أهل الإيمان، ومعارضة جمال الرحمن»، ثم قال: «فالمراد بملائكة النار فى الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة

---

(١) يريد الباب نفسه والثمانية عشر الذين استجابوا له أولاً.

الضـلال » .. ثـم ذكـر بعـد ذلك أن عـدد أبواب النار صار فى هذا الدور الحميد [١]، والكون المجيد ثلاثة فقط وهى أيضًا ملائكة الجحيم، وقادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم ».

واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١] .. ثم قال: « وفى كل دور وزمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان، وحملة القرآن، ومخازن الحكمة، ومطالع البيان » [٢].

وفى الحجج البهية يقرر أبو الفضائل: أن جميع الديانات السماوية. وغير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية، وذلك حيث يقول فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾: « فانظروا - وفقكم الله - كيف اعتبر فى الآية الكريمة ديانات الصابئة والزردشتية والموسوية والنصرانية والإسلامية دينًا واحدًا، كما اعتبر مؤسسها وشارعها إلهًا واحدًا، على اختلافها فى الأحكام والحدود والآداب »[٣] وهذا منه كفر صريح، لأن الآية لا تدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية فى أصول العقائد، أما الديانة الصابئية، والديانة الزردشتية، فلم يقل أحد إنها شرائع الله، حتى يُسوِّى بينهما وبين سائر الشرائع السماوية.

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، ويريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التى هى الوحى، على معنى أن الوحى بعد انقطاعه بموت محمد ﷺ يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء، ويُفسِّر القيامة: بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدَّسة، والساعة: بساعة طلوعها وإشراقها بعد الغيبة ويقول: « وأما الرجعة والقيامة بالمعنى الذى تعتقد وتنتظره الأُمم فهى أمر غير معقول، إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية، ومباين للسنن الإلهية » [٤].

ويقول: « إن جميع ما نزل فى الكتب المقدسة من بشارات يوم الله، ويوم القيامة، وظهور الرب، وورود الساعة وأشراطها .. لا بد أن تكون لتلك الألفاظ مقاصد معقولة، ومفاهيم ممكنة ومعان غير المعانى الظاهرية، ومدلولات غير المدلولات الأوَّلية » [٥].

---

(١) لعله يريد زمن بهاء الله.
(٢) رسائل أبى الفضائل ص ١٠٤ - ١٠٩.
(٣) الحجج البهية ص ٢٨.
(٤) المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١.
(٥) الحجج البهية ص ٥٨.

وكأنى بأبى الفضائل - وقد قال بنبوة الباب والبهاء - نظر فى كتاب البيان وكتاب بهاء الله، فلم يجدهما فى رصانة القرآن وفصاحته، فأراد أن ينزل بالقرآن عن مستواه فى البلاغة، ويسلب عنه إعجازه حتى يكون فى درجة البيان والكتاب فقال: «ولا يُعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته، وبلاغته، ورصف كلماته، وتسجيع عباراته، وترصيع جمله، ولطيف استعاراته، كما يدَّعيه قوم» (١).

كما أعتقد أنه - وقد ادَّعى نبوة الباب والبهاء - راح يفتش لهما عن معجزة تُصدِّق دعواهما النبوة، فلم يعثر ولا على جزء معجزة، فجرَّه ذلك أن ينكر معجزات الرسل، ويتأوَّل ما ورد فى القرآن منها بأنها من قبيل الاستعارات عن الأمور المعقولة، والحقائق الممكنة، مما يُجوِّزه العقل السليم، كما جَرَّه إلى القول بأنه لا صلة بين دعوى الرسالة، وبين القُدْرة على الإتيان بالخوارق فقال: «لا نسبة بين القُدْرة على إتيان المعجزات والعجائب، وبين ادعاء النبوة والرسالة، فإن الرسالة والنبوة ليست إلا بعث إنسان من قِبَلِ الله تعالى لهداية الخلق، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقُدْرة على شق البحار، وجفاف الأنهار، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلاً» (٢).

ولا يشك عاقل فى أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفتح باب شر عظيم، ليدخل منه كل مَن يدَّعى النبوة والرسالة، كما دخل منه أنبياء البابية والبهائية من قبل.

وكما تأوَّل متعصبو الشيعة الشجرة المباركة، والشجرة الملعونة، فحملوا الأُولى على آل البيت، والثانية على أعدائهم من بنى أمية، كذلك تأوَّلهما أبو الفضائل، فقال فى شرحه لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**﴾ ... الآية: «أطلق لفظ «شجرة مباركة زيتونة» على مظهر أمر الله، ومطلع شمس حقيقته وذاته. ومشرق أنوار أسمائه وصفاته، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق وتضئ الأنوار الإلهية، وتشرق وتلمع أشعة العلم والقوة، والقُدْرة الملكوتية السماوية، وهذه استعارة فى غاية الرقة واللطافة، وتجوّز فى نهاية اللطافة والبراعة، لم يُوجد مثلها إلا فى الكلمات النبوية، ولم يُسمع شبيهها إلا من نغمات طيور القدس. فى الحدائق القدسية». قال: «وكذلك فى الآية (٦٠) من سورة بنى إسرائيل، أطلق لفظ الشجرة الملعونة: استعارة على أعداء الله، ومحاربى رسول الله، من السلالة الأُموية، والسلطة العضوضية

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧.	(٢) نفس المرجع ص ٧٠.

السفيانية حيث قال جلَّ وعلا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ (١).

هذه نُبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم، تعطينا دليلاً قويًا، وبرهانًا صادقًا على أن المذهب البابى، أو البهائى، يقوم على أطلال الباطنية، ويحمل فى سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل فى آيات القرآن، ودعوى النبوة والرسالة، بعد أن ختمها الله برسالة محمد ﷺ. وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهى: إن البابية وأسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التى تأتى على بنيان الدين من قواعده، وإنما هو صنيع قلَّدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو «فيلون» الفيلسوف اليهودى المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده ألَّف كتاباً فى تأويل التوراة، ذاهبًا إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزى كان موجوداً ومعروفًا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن «فيلون»، ويذكرون أمثلة من تأويلهم: أنهم فسَّروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين. إلى أمثال هذا من التأويل الذى لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون» (٢).

وبعد أن انتهينا من موقف الباطنية – قديمهم وحديثهم – من القرآن الكريم، نتكلم عن موقف الزيدية منه .. فنقول وبالله التوفيق:

* * *

---

(١) الحجج البهية ص ١٧٥، ١٧٦ – والآية من سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) رسائل الإصلاح: ٣/ ٩٧ – ٩٨.

الزيدية .. وموقفهم من التفسير والقرآن الكريم

● **تمهيـــد :**

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السُّنَّة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السُّنَّة، والذى يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فِرَق الشيعة إلى مذهب أهل السُّنَّة، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكادَ يُذكر.

يرى الزيدية: أن علياً أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ويقولون: إن كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للإمامة صحَّت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان مَن أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرأون من الشيخين، ولا يُكفرونهما، بل يُجوِّزون إمامتهما، لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية، والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم فى آخر الزمان. وغير ذلك من خرافات الإمامية ومَن على شاكلتهم.

وكل الذى نلحظه على الزيدية أنهم يشترطون الاجتهاد في أئمتهم ولهذا كثر فيهم الاجتهاد، وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت، والذي يقرأ كتاب (المجموع) للزيدية يري أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد ابن علي زين العابدين عن آبائه من الأئمة عن رسول الله ﷺ وليس فيه بعد ذلك حديث يروي عن صحابى آخر من غير أهل البيت رضي الله عنهم كما يلاحظ على الزيدية أيضاً أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السر فى هذا إلى أن إمامهم زيد بن علىّ، تتلمذ على واصلِ بن عطاء، كما قلنا ذلك فيما سبق.

إذن فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثراً مميزاً، وطابعاً خاصاً في التفسير كما رأينا للإمامية، لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسِّره. ويتخذ له طابعاً خاصاً، واتجاهاً معيناً، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين. وليست الزيدية – بصرف النظر عن ميولهم الاعتزالية – بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السُّنَّة، وعقائدهم، حتى يكون لهم فى التفسير خلاف كبير.

● **أهم كتب التفسير عند الزيدية:**

وإذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية فى المكتبات التى تحت أبصارنا وفى متناول أيدينا، فإنا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكانى المسمى «فتح القدير» وهو تفسير متناول للقرآن كله، وجامع بين الرواية والدراية، وتفسير آخر فى شرح آيات الأحكام اسمه «الثمرات اليانعة» لشمس الدين يوسف بن أحمد – من علماء القرن التاسع الهجرى – هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب فى التفسير.

ولكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة؟ أو أن هناك كتباً أخرى أُلِّفت فى

التفسير ثم دَرست؟ أو أُلِّفت وبقيت إلى اليوم غير أنه لم يُكتب لها الذيوع والانتشار، ولذا لم تصل إلى أيدينا؟

الحق أني وجهت هذا السؤال إلى نفسى، فرجحت أن تكون هناك كتب كثيرة فى التفسير لهذه الطائفة، منها ما دَرس، ومنها ما بقى إلى اليوم مطموراً فى بعض المكاتب الخاصة، إذ ليس من المعقول أن لا يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان، وبقيت محتفظة بتعاليمها ومقوِّماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل فى التفسير.

رجحت هذا الرأى، فذهبت أفتش وأبحث فى بعض الكتب التى لها عناية بهذا الشأن، عَلِّى أعثر على أسماء لبعض كتب فى التفسير لبعض من علماء الزيدية .. وأخيراً وجدت فى الفهرست لابن النديم: أن مقاتل بن سليمان - و عَدَّهُ من الزيدية - له من الكتب، كتاب التفسير الكبير، وكتاب نوادر التفسير (١).

ووجدت فى الفهرست أيضًا: أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى، له كتابان فى التفسير، أحدهما: كتاب التفسير الكبير، والآخر: كتاب التفسير الصغير (٢).

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية فى الفقه، وهى مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة فى شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجندارى، فخرجت منها بما يأتى:

١ - تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علىّ، جمعه بإسناده محمد بن منصور بن يزيد الكوفى. أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف وتسعين ومائتين (٣).

٢ - تفسير إسماعيل بن علىّ البُستى الزيدى، المتوفى فى حدود العشرين وأربعمائه، قال: وهو فى مجلد واحد (٤).

٣ - التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى، المقتول سنة ٤٩٤ هـ (أربع وتسعين وأربعمائة). قال: وهذا التفسير مشهور ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق، فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول: القراءة ويذكرها، ويميز السبع من غيرها، ثم يقول: اللُّغة ويذكرها، ثم يقول: الإعراب ويذكره، ثم يقول: النظم ويذكره، ثم يقول: المعنى ويذكره ويذكر أقوالاً متعددة، وينسب كل قول إلى قائله من المفسِّرين، ثم يقول: النزول ويذكر سببه، ثم يقول: الأحكام ويستنبط أحكامًا كثيرة من الآية (٥).

---

(١) الفهرست: ص ٢٥٤.
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤.
(٣) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٦.
(٤) المرجع السابق ص ٧.
(٥) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٢.

٤ – تفسير عطية بن محمد النجوانى الزيدى، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (خمسة وستين وستمائة). قال: وقد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية [١].

٥ – التيسير فى التفسير، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعانى، المتوفى سنة ٧٩١ هـ (إحدى وتسعين وسبعمائة) [٢].

هذا هو كل ما قرأت عنه فى كتب الزيدية فى التفسير، لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم؟ أو دَرست بتقادم العهد عليها؟ سألت نفسى هذا السؤال، وحاولت أن أقف على جوابه، وأخيراً انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى فى مصر [٣] – وفيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين – فاتصلت بأحد أعضائه البارزين، وهو القاضى محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية فى التفسير، وعن الموجود منها إلى اليوم، فأخبرنى بأن للزيدية كتباً كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، منها ما بقى ومنها ما اندثر، وما بقى منها إلى اليوم لا يزال مخطوطاً، وموجوداً فى مكاتبهم، وذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتى:

١ – تفسير ابن الأقضم .. أحد قدماء الزيدية.

٢ – شرح الخمسمائة آية «تفسير آيات الأحكام» لحسين بن أحمد النجرى، من علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى.

٣ – الثمرات اليانعة «تفسير آيات الأحكام» للشيخ شمس الدين يوسف بن أحمد ابن محمد بن عثمان، من علماء الزيدية فى القرن التاسع الهجرى.

٤ – منتهى المرام، شرح آيات الأحكام، لمحمد بن الحسين بن القاسم، من علماء الزيدية فى القرن الحادى عشر الهجرى.

٥ – تفسير القاضى ابن عبد الرحمن المجاهد، أحد علماء الزيدية فى القرن الثالث عشر الهجرى.

قال: وهناك كتب أخرى لا يحضرنى اسمها، ولا اسم مؤلفيها، فسألته عن السر الذى من أجله بقيت هذه الكتب مخطوطة إلى اليوم؟ وأى شئ يحول بينكم وبين طبعها، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم، وعشاق التفسير؟ فأجابنى بأن السر فى هذا أمران: أحدهما: عدم تقدم فن الطباعة عندهم. وثانيهما: أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب «الكشاف» للزمخشرى، نظراً للصلة التى بين الزيدية والمعتزلة، مما

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣.
(٢) نفس المرجع ص ١١.
(٣) كان ذلك فى سنة ١٩٤٥.

جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير، ورجا ورجوت معه أن يهيئ الله لهذا التراث العلمى فى التفسير من الأسباب ما يجعله متداولاً بين أهل العلم ورجال التفسير.

وبعد .. فما دامت أيدينا لم تصل إلى شئ من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب «فتح القدير» للشوكانى، و«الثمرات اليانعة» لشمس الدين يوسف بن أحمد، فإنى سأقتصر على هذين الكتابين في دارستى وبحثى، وسأبدأ بتفسير الشوكانى، وإن كان لا يمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلاً وافًا شافيًا، وأُرجئ الكلام عن «الثمرات اليانعة» إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله:

*　　*　　*

فتح القدير (للشوكانى)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

ومؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن على بن عبد الله الشوكانى، وُلد فى سنة ١١٧٣ هـ (ثلاث وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية)، فى بلدة هجرة شوكان. ونشأ - رحمه الله تعالى - بصنعاء، وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ فى طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام، وجَدَّ فى طلب العلم، واشتغل كثيراً بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب، وسار على هذه الطريقة ما بين مطالعة وحفظ، وما بين سماع وتلق، إلى أن صار إمامًا يُعَوَّل عليه، ورأسًا يُرحل إليه «فريداً فى عصره، ونادرة لدهره، وقدوة لغيره، بحراً فى العلم لا يُجارَى، ومفسِّرًا لا يُبارَى، ومُحَدِّثًا لا يشق له غبار، ومجتهداً لا يثبت أحد معه فى مضمار».

ولقد خلَّف رحمه الله كتبًا فى العلم نافعة وكثيرة، أهمها: كتاب «فتح القدير» فى التفسير، وهو الكتاب الذى نحن بصدد الكلام عنه، وكتاب «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» فى الحديث، وكتاب «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات» .. رد به على موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى، وغير هذا كثير من مؤلفاته.

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألَّف وأفتى. ثم خلع ربقة التقليد، وتحلَّى بمنصب الاجتهاد، وألَّف رسالة سماها «القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد»، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت، وثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين مَن هو مُقَلِّد ومَن هو مجتهد.

وعقيدة الشوكانى عقيدة السَلَف، من حمل صفات الله تعالى الواردة فى القرآن والسُّنَّة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألَّف فى ذلك رسالة «التحف بمذهب السَلَف».

هذا وقد توفى الشوكانى رحمه الله سنة ١٢٥٠ هـ (خمسون بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية)، فرحمه الله وأرضاه [١].

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أُصول التفسير، ومرجعًا مهمًا من مراجعه، لأنه جمع

---

(١) انظر ترجمة المؤلف فى أول فتح القدير، وفى أول نيل الأوطار.

بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد فى باب الدراية، وتوسَّع فى باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية. كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

● **طريقة الشوكانى فى تفسيره:**

وطريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفينا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبيناً بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: «ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول: إن غالب المفسِّرين تفرَّقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللُّغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا به لم يصحوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب».

ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا: «وبهذا يُعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما فى إسناده ضعف، إما لأن فى المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى. وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك، كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبعد كل البُعد أن يعلموا فى الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغى أن يُقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحُسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها. فلينظر إلى أسانيدها موفقاً إن شاء الله.

«واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السَلَف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ، وتفاسير الصحابة ومَن بعدهم،

وما فاته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظًا واتحد معنى بقولى: ومثله ونحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التى لاحت لى، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح .. فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، وقواعد شرائد، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو اللُّباب، وعجب العُجاب، وذخيرة الطُلاب، ونهاية مآرب أولى الألباب .. وقد سميته «فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» (١).

مما تقدم يتضح لك جليًا طريقة المؤلف التى سلكها فى تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسِّرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السَلَف، وهو ينقل كثيراً عمن ذكر من أصحاب كتب التفسير. ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفرَّاء، كما أنه يتعرض أحيانا للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة، ويذكر اختلافهم وأدلتهم، ويُدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

● **نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:**

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ ... الآية، وقوله فى الآية (٦٧) منها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ ... الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة علىّ، ففى الآية الأولى يقول: ﴿ .. **وهم راكعون** ﴾ جملة حالية من فاعل للفعلين اللَّذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون

(١) مقدمة الكتاب ص ١ - ٤.

الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم، وقيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال» (١).

ثم نراه يذكر فى ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال: تصدَّق علىّ بخاتم وهو راكع، فقال النبى ﷺ للسائل: «مَن أعطاك هذا الخاتم»؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ ... الآية (٢)، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: «نزلت هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ على رسول الله ﷺ يوم «غدير خُم»، فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه»، ويروى عن ابن مسعود أنه قال: «كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: «يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك أن عليًا مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته، والله يعصمك من الناس» (٣) - ثم يمر على هاتين الروايتين أيضًا بدون أن يتعقبهما بشئ أصلاً.

● **ذمه للتقليد والمقلِّدين:**

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلِّدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، مُعْرِضون عن سُنَّة رسوله ﷺ. ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد مَن له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنَّا لا ننكر أن فى الناس مَن ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد. ولستُ فى شك من أن الشوكانى مخطئ فى حملاته على المقلِّدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلِّدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله فى تفسيره:

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾.. قال ما نصه: «.. وإن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلِّدة، الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٣].. والقائلون: ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾

(١) الجزء الثانى صفحة ٤٨.
(٢) الجزء الثانى صفحة ٥٠.
(٣) الجزء الثالث صفحة ٥٧.

[الأعراف: ٢٨] . . والمقلِّد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة. وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص. فيا مَن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأُمة إلا رسولا واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧] ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حُجَّة على العباد، لكان لهذه الأُمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلِّفين للناس بما لم يُكلِّفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلِّدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سُنَّة رسوله. ووجود مَن يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، ومَلَكة العقل عندهم »(١).

وفى سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١): ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ يقول ما نصه: « . . وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز، والسُّنَّة المطهَّرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستَّن بسُنَّته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، وهو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله. للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرموا ما حرَّموا. وحلَّلوا ما حلَّلوا وهذا هو صنيع المقلِّدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شَبَّه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء. فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله؛ ما بالكم تركتم الكتاب والسُّنَّة جانبًا، وعمدتهم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده؟ فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسُّنَّة تنادى بأبلغ

---

(١) الجزء الثانى صفحة ١٨٩.

نداء، وتُصوِّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذانًا صُما، وقلوبًا غلْفًا، وأفهامًا مريضة، وعقولا مهيضة، وأذهانًا كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا - أرشدكم الله وإياى - كتبًا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال مَن تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى،بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

اللّهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل .. اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة الأنبياء: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ نجده يذم المقلِّدة، وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم فى حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول: « .. وهكذا يجيب هؤلاء المقلِّدة من أهل هذه الملَّة الإسلامية، فإن العالم بالكتاب والسُّنَّة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل .. قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلِّدين، وبرأيه آخذين. وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا: ﴿**لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ .. أى فى خسران واضح لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران خسران. وهؤلاء المقلِّدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسُنَّة رسوله كتابًا قد دُوِّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل مَن وجده، وأبرزه واضح المنار، كأنه عَلَم فى رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سُنَّة رسول الله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٣٧.

وقد أحسن مَن قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى   ومنهج الحق له واضح » (١)

● **حيـاة الشهداء :**

هذا . . وإن الشوكانى ليقرر فى تفسيره هذا : أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة آل عمران : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ : « . . وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية مَن هم؟ . فقيل : شهداء أُحُد . وقيل : فى شهداء بدر . وقيل : فى شهداء بئر معونة . . على فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب . . ومعنى الآية عند الجمهور : أنهم أحياء حياة محققة . ثم اختلفوا : فمنهم مَن قال : إنها تُرد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد : يُرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وذهب مَن عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى : أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السُّنَّة المطهَّرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يُرزقون ويأكلون ويتمتعون » (٢) .

● **التوسـل :**

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء موقف المعارضة، ويفيض فى الإنكار على مَن يفعل ذلك فى سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩) : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ . . يقول ما نصه : « . . وفى هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يُطلب من نبى من الأنبياء، أو مَلَك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شئ، الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما فى هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده : ﴿ **لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات

---

(١) الجزء الثالث صفحة ٣٩٨ .   (٢) الجزء الثالث صفحة ٣٦٥ .

الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وجَلَّ. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلَّ بهم من المخالفة لمعنى «لا إله إلا الله» ومدلول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

«وأعجب من هذا، اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أُولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، ويناديهم تارة علي الاستقلال، وتارة مع ذى الجلال، وكفاك من شر سماعه،والله ناصر دينه، ومُطهِّر، شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر. ولقد توسل الشيطان - أخزاه الله - بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!! .. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» (١).

● **موقفه من المتشابه:**

ثم إن المؤلف - كما قلنا فى ترجمته - سلَفى العقيدة، فكل ما ورد فى القرآن من ألفاظ توهم التشبية حملها على ظاهرها، وفوَّض الكيف إلى الله، ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾. يقول: «الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك. وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا فى ذلك خطئًا بيِّنًا، وغلطوا غلطًا فاحشًا وقال بعض السَلَف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجَّح هذا القول ابن جرير. وقيل: كرسيه: قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسيًا .. أى ما يعمده. وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له. وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول. ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولاها

(١) الجزء الثانى صفحة ٤٢٩.
(٢) الجزء الأول صفحة ٢٤٤.

بالصواب مذهب السَلَف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه» (١).

● **موقفه من آراء المعتزلة:**

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم فى غالب مسائل الكلام، فإنَّا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة شديدة فى كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: « .. وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا. وقد ذهبت المعتزلة ومَن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة. وذهب مَن عداهم إلى جوازها فى الدنيا، ووقوعها فى الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا ن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا مَن لم يحظ من العلم بنصيب نافع» (٢).

كذلك نراه يرد على الزمخشرى فى دعواه: أن دخول الجنة مستحقَ بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف: ﴿ **وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾: « .. قال الكشاف: «بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة». أقول: يا مسكين .. هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه: «سددوا وقاربوا واعملوا. إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدنى الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة. وفى التنزيل: ﴿ **ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [النساء: ٧٠]، وفيه: ﴿ **فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ** ﴾ [النساء: ١٧٥] (٣).

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها فى المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة يوسف: ﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ ... الآية: «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيراً، وليس هذا بمستنكر من هذين

---

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٠١.

(٢) الجزء الأول صفحة ٧٢.

(٣) الجزء الثانى صفحة ١٩٦.

وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسُّنَّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأُصيب بها جماعة فى عصر النبوة. ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف، لمجرد الاستبعاد العقلى، والتنطع فى العبارات، كالزمخشرى فى تفسيره، فإنه فى كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة، على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة. وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة. وإجماع مَن يُعتد به من هذه الأمة سَلَفًا وخَلَفًا، وبما هو مُشاهَد فى الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب» (١).

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة فى مسألة غفران الذنوب. فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ ... الآية، نجده يقول: « .. وأما ما يزعمه جماعة من المفسِّرين من تفسير هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين. وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادى، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء ١١٦].. فلو كانت التوبة قيداً فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ** ﴾ [الرعد: ٦].. قال الواحدى: المفسِّرون كلهم قالوا: إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يُغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبى ﷺ. قلت: هب أنها فى هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم. ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله» (٢).

● **موقف الشوكانى من مسألة خلق القرآن:**

هذا .. ولم يرض الشوكانى موقف أهل السُّنَّة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف فى هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى،

---

(١) الجزء الثالث صفحة ٣٨.

(٢) الجزء الرابع صفحة ٤٥٧.

وراح ينحي باللائمة على مَن يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى في الآية (٢) من سورة الأنبياء: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾ يقول ما نصه: « . . وقد استدل بوصف الذكر بكونه مُحْدَثًا على أن القرآن محدَث، لأن الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأنه لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد فى النزول، فالمعنى: محدث تنزيله « وإنما النزاع فى الكلام النفسى (١) . وهذه المسألة - أعنى قدم القرآن وحدوثه - قد ابتلى بها كثير من أهل العلم . . ولقد أصاب أئمة السُّنَّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أُمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم - رحمهم الله - جاوزوا ذلك إلى القول بقدَمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفَّروا مَن قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن قال: لفظى بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يُسمع من السَلَف الصالح من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة شئ من الكلام، ولا تُنقل عنهم كلمة فى ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه. هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه » (٢) .

هذا هو أهم ما فى تفسير الشوكانى من البحوث التى أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خوَّلت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يُندِّد ببعض مواقف أهل السُّنَّة. وأحسب أن الرجل قد دخله شى من الغرور العلمى، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه، والناقد العف . . وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية، ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم فى التفسير، وأحسب أنه كثير. والكتاب مطبوع فى خمس مجلدات، ومتداوَل بين أهل العلم.

* * *

(١) ليس هذا هو محل النزاع، لأن الكلام النفسى بمعني أنه صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف ولا صوت، منزهة عن التقديم والتأخير ولوازم الكلام اللفظى، ومنزهة عن السكوت النفسى وعن الآفة الباطنة . . الكلام النفسى بهذا المعنى يقول به الأشعرى وينفيه باقى الفرَق - انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبى دقيقة ص ١٢٨ - مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦.

(٢) الجزء الثالث صفحة ٣٨٤.

الخوارج .. وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● كلمة إجمالية عن الخوارج:

بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، نشط أنصار علىّ رضى الله عنه فى الدعوة له، حتى أخذوا له البَيْعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم ... ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر، لاعتقادهم أن الحق فى غير جانبه. وهؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبى سفيان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

وكان لعلى- رضى الله عنه - شيعة وانصار، وكان لمعاوية رضى الله عنه شيعة وانصار كذلك. وكانت حروب طاحنة بين الفريقين!!. كان الغلب فيها لعلى وحزبه، إلى ان جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، وأوشكت الهزيمة ان تحدق به، لولا أن لجأ إلى حيلة رفيع المصاحف على أسِنَّة الرماح، طلباً للهدنة، ورغبة فى التحكيم بين الحزبين. وبعد أخذ ورد بين جيش علىّ فى قبول التحكيم وعدمه. رأى علىّ رضى الله عنه قبول التحكيم، رغبة منه فى حقن الدماء. واختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله، واختار أصحاب علىّ: أبا موسى الأشعرى.

وكان قبول علىّ - رضى الله عنه - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه وحزبه إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ لأن الحق ظاهر في جانب علي، ولا يعتوره شك فى نظرهم، وقبول التحكيم دليل الشك من علىّ فى أحقيته بالخلافة، وهم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه، فكيف يشك هو فيه؟

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم. فخرجوا على علىّ، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقرَّ على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، وإلا إذا نقض ما أبرم من الشروط بينه وبين معاوية، ولكن علياً رضى الله عنه لم يستحب لرغبتهم هذه، فأخذوا كلما خطب علىّ أو ضمَّه وإياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم: «لا حكم إلا الله».

وكان التحكيم، وفيه خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى، فلم يكن إلا تحكيماً فاشلاً، أمال قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج، وأخيراً وبعد يأس الخوارج من رجوع علىّ إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم، وخطب فيهم خطبة حثَّهم على التمسك بمبدئهم والدفاع عنه، وطلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها «حروراء»، فخرجوا إليها وأمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى (١)،

(١) نسبة إلى راسب - حى من الأزد.

ووقعت بينهم وبين عليّ حروب طاحنة هزمهم فيها، ولكن لم يقض عليهم. وأخيراً دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

وجاءت دولة الأُمويين، فكان الخوارج شوكة فى جنبها يهددونها ويحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها. ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم وبينها حروب كذلك، ولكن لم يكونوا فى قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم وتشتت وحدتهم، وضعف سلطانهم، وخور قواهم.

دبَّت فى وحدة الخوارج جرثومة التفرق، وأُصيبوا بداء التحزب، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزباً، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ والعقيدة .. ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار عليّ، وعثمان، والحَكَمين، وأصحاب الجمل، وكل مَن رضى بتحكيم الحَكَمين.

وثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، وهو: الإكفار بارتكاب الكبائر (١).

هذا .. وقد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا: «إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يُحَكِّم، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيًا، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبداً حبشيًا، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله، وإلا وجب عزله، ولهذا أمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى، ولم يكن قرشيا» (٢).

وعلى هذا حكموا بصحة خلافة أبى بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى، فلما غيَّر وبدَّل ولم يسر سيرة الشيخين - كما زعموا - وجب عزله، وأقروا بصحة خلافة عليّ أولاً، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم، وكفر به كما يزعمون!!

ولا يسعنا فى تلك العُجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج، ولكن نكتفى بالكلام عن أشهرها، وهى ما يأتى:

أولا - الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهم يُكَفِّرون مَن عداهم من المسلمين، ويُحَرِّمون أكل ذبائحهم ومناكحتهم، ولا يُجيزون التوارث بينهم، ويعاملونهم معاملة الكفار من المشركين .. إما الإسلام، وإما السيف، ودارهم دار حرب، ويحل قتل نسائهم وأطفالهم، ولا يقولون برجم الزانى المحصن، ولا يقولون بحد مَن

---

(١) انظر الفَرْق بين الفِرَق ص ٥٥.

(٢) فجر الإسلام: ١/ ٣١٧.

يقذف المحصنين من الرجال .. أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعًا. ولا يرون جواز التقية.

ثانيا - النجدات: وهم أتباع نجدة بن عامر، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعو إلى إمام أقاموه، وإلا فلا. كما أنهم يُكَفِّرون مَن يقول بإمامة نافع ابن الأزرق، ويُكَفِّر من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه ويقولون: إن الدين أمران:

أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة الرسول، والإقرار بما جاء به جملة، فهذا واجب معرفته على كل مُكلَّف.

وثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحُجَّة.

فمَن استحل شيئًا حراما باجتهاد فله عذره، وهم يعظمون جريمة الكذب، ويجعلونها أكبر جُرْمًا من شرب الخمر والزنا.

ومن بدع «نجدة» أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم، ثم يُدخلهم الجنة، وزعم أن النار يدخلها مَن خالفه فى دينه.

ثالثًا - الصفرية: وهم أتباع زياد بن الأصفر، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك. ومن الصفرية مَن يخالف فى ذلك فيقول: كل ذنب له حد فى الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركًا، ولا كافراً، بل يُدعى باسمه المشتق من جريمته يقال: سارق، وقاتل، وقاذف .. وكل ذنب ليس فيه حد معلوم فى الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر .. ولا يُسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعًا مؤمنًا، ومنهم مَن يقول: إن صاحب الذنب لا يُحكم عليه بالكفر حتى يُرفع إلى الوالى فيحده ويحكم بكفره.

رابعًا - الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أعدل فِرَق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السُّنَّة، وهم يُجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، ولا مؤمنين، ولكنهم كفار. ويُروى عنهم أنهم يريدون: كفر النعمة، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوارث معهم، وحرَّموا دماءهم فى السر دون العلانية. لأنهم محاربون لله ولرسوله، ولا يدينون دين الحق، ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم: الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة حربية لهم. ولم يستحلوا غنائم الذهب والفضة، بل يردونها لأهلها.

واختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال :

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك والإيمان معًا ، ويحتج بقوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة النساء : ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ** ﴾ . .

وفريق يرى أن كل نفاق هو شرك ، لأنه ينافى التوحيد .

وفريق ثالث يرى أن النفاق لا يُسمى به غير القوم الذين سمَّاهم الله تعالى منافقين .

وهناك مخالفة لبعض الإباضية فى بعض المسائل . لا نعرض لها هنا ، مخافة التطويل .

هذه هى أهم فِرَق الخوارج ، وهذه هى أهم ما لهم من تعاليم وعقائد ، نضعها بين يدى القارئ قبل أن نتكلم عن موقفهم و من التفسير ليكون علي علم بها ، وليعلم بعد ذلك مقدار الصلة بينها وبين ما لهم من تفسير .

● **مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم :**

تعددت فِرَق الخوارج ، وتعددت مذاهبهم وآراؤهم ، فكان طبيعيًا – وهم ينتسبون إلى الإسلام ، ويعترفون بالقرآن – أن تبحث كل فرقة منهم عن أُسس من القرآن الكريم ، تبنى عليها مبادئها وتعاليمها ، وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها ، فما رأته فى جانبها – ولو ادعاءً – تمسكت به ، واعتمدت عليه ، وما رأته فى غير صالحها حاولت التخلص منه بصرفه وتأويله ، بحيث الا يبقى متعارضًا مع آرائها وتعاليمها .

● **سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن :**

والذى يقرأ تاريخ الخوارج ، ويقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية ، يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم ، وتحكَّم فيها ، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا علي ضوئه ، ولا يدركون شيئًا من معانيه إلا تحت تأثير سلطانه ، لا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليها .

فمثلاً نرى أن أكثر الخوارج يُجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر ، ومخلَّد فى نار جهنم ، ونقرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحديد – وهو ممن تعرض لهم فى كتابه « شرح نهج البلاغة » – يسوق لنا أدلتهم التى أخذوها من القرآن ، وبنوا عليها رأيهم فى مرتكب الكبيرة ، كما نجده يناقش هذه الأدلة ، ويفندها دليلاً بعد دليل . ونرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبى الحديد لهذه الأدلة ، ويكفى أن نسوق للقارئ الكريم هذه الآيات التى استندوا إليها ، ووجهة نظرهم فيها ، فهى التى تعنينا فى هذا البحث ، وهى التى ترينا إلى أى حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة فى فهم نصوص القرآن . . فمن هذه الأدلة ما يأتى :

قوله تعالى فى الآية (٩٧) من سورة آل عمران: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .. قالوا: فجعل تارك الحج كافراً.

ومنها قوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة يوسف: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .. قالوا: والفاسق - لفسقه وإصراره عليه - آيس من روح الله، فكان كافراً.

ومنها قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة المائدة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .. قالوا: وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله.

ومنها قوله تعالى فى الآيات (١٤ - ١٦) من سورة الليل: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .. قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار، فوجب أن يُسمى كافراً.

ومنها قوله تعالى في الآية (١٠٦) من سورة آل عمران: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .. قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت، ووجب أن يُسمى كافراً، لقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ..

ومنها قوله تعالى في الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .. قالوا: والفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة الفَجَرَة.

ومنها قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة سبأ: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ .. قالوا: والفاسق لا بد أن يُجازى، فوجب أن يكون كفوراً.

ومنها قوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة الحِجْر: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾، وقال في الآية (١٠٠) من سورة النحل: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .. قالوا: فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركاً.

ومنها قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة السجدة: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .. قالوا: فجعل الفاسق مُكَذِّباً.

ومنها قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام: ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .. قالوا: فأثبت الظالم جاحداً، وهذه صفة الكفار.

ومنها قوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور: ﴿ **وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ .

ومنها قوله تعالى فى الآيات (١٠٢ - ١٠٥) من سورة المؤمنون: ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ .. قالوا: فنص سبحانه على أن مَن تخف موازينه يكون مكذِّبًا، والفاسق تخف موازينه فكان مكذِّبًا، وكل مكذِّب كافر.

ومنها قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة التغابن: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ** ﴾ . قالوا: وهذا يقتضى أن مَن لا يكون مؤمنًا فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافرًا (١).

هذه بعض الآيات التى تمسَّك بها الخوارج فى موقفهم من مرتكب الكبيرة الذى لم يتب، والتى حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين. ولا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى شأن عصاة المؤمنين، ويتأمل قليلاً فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولون بها، لا يسعه بعد هذا كله: إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون، ومندفعون بدافع العقيدة، وسلطان المذهب.

وهناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج، لتدعيم مبادئهم التى يشذون بها عمن عداهم من بعض فرَق الخوارج، وهى فى مظهرها التفسيرى أكثر تعصبًا، وأبلغ تعنتًا، فمن ذلك: أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقية التى هى فى الأصل من مبادئ الشيعة، ويستدل على حُرْمتها بقوله تعالى فى الآية (٧٧) من سورة النساء: ﴿ .. **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ .

ويرى نجدة بن عامر جواز التقية، ويستدل على ذلك بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة غافر: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾ .

وأظهر من هذا: أن نجدة بن عامر كان لا يُصَوِّب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القَعَدة، واستحلال قتل أطفال مخالفيه، وعدم رد الأمانات إلى مخالفيه، وغير ذلك من آرائه التى شذَّ بها، فأرسل نجدة إلى نافع رسالة يقول له فيها: «وأكفرت الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم. قال الله عَزَّ وجَلَّ - وقوله الحق ووعده الصدق: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى**

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، المجلد الثانى ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

الَّذين لا يَجدُونَ ما يُنفقُون حَرجٌ إِذا نَصَحُوا للَّه ورَسُوله ﴾، ثم سماهم - تعالى - أحسن الأسماء فقال: ﴿ **ما علَى الْمُحْسنين من سبيل** ﴾ [التوبة: ٩١] .. ثم استحللتَ قتل الأطفال وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿ **ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال سبحانه فى القَعَدة خيراً فقال: ﴿ **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهدين علَى الْقَاعدينَ أَجْرًا عظيمًا** ﴾ [النساء: ٩٥]، فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوي الْقَاعدُونَ منَ الْمُؤْمنين غَيْرُ أُولي الضَّرَر** ﴾ [النساء: ٩٥] .. فجعلهم من المؤمنين، ثم إنك لا تؤدى الأمانة إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن تُؤدى الأمانات إلى أهلها، فاتق الله فى نفسك، واتق يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل. والسلام».

فرد عليه نافع بكتاب جاء فيه: « .. وعبتَ ما دنْتُ به من إكفار القَعَدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله ..

أما هؤلاء القَعَدة .. فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقًا، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفتَ ما قاله الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا: ﴿ **كُنَّا مُسْتَضْعَفين في الأَرْض** ﴾ [النساء: ٩٧]، فقال: ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّه واسعةً فتُهَاجرُوا فيهَا** ﴾ [النساء: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿ **فَرحَ الْمُخَلَّفُونَ بمَقْعَدهمْ خلافَ رَسُول اللَّه وكَرهُوا أَن يُجَاهدُوا بأَمْوالهمْ وأَنفُسهمْ في سَبيل اللَّه** ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال: ﴿ **وجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ منَ الأَعْرَاب ليُؤْذَنَ لَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٩٠] .. فأخبر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله. ثم قال: ﴿ **سَيُصيبُ الَّذين كَفَرُوا منْهُمْ عذَابٌ أَليمٌ** ﴾ [التوبة: ٩٠] . فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال .. فإن نوحًا نبي الله كان أعلم بالله منى ومنك، وقد قال: ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ علَى الأَرْض منَ الْكَافرينَ دَيَّارًا * إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضلُّوا عبَادَكَ ولا يَلدُوا إلاَّ فَاجرًا كَفَّارًا** ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] .. فسمَّاهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُولدوا، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا نقوله فى قومنا .. والله تعالى يقول: ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مّنْ أُولَئكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ في الزُّبُر** ﴾ [القمر: ٤٣] .. وهؤلاء كمشركى العرب لا يُقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات مَن خالفنا. فإن الله تعالى أحلَّ لنا أموالهم كما أحلَّ دماءهم لنا، فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فئ للمسلمين» (١).

ولا شك لدينا في أن نافع بن الأزرق متعصب في فهمه للآيات على النحو الذى جاء في رسالته هذه، وهو تعصب بلغ به إلى درجة المغالطة، وإلا فهو جهل منه بمواقع كلام الله، ومدلول آياته.

● مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:

هذا .. وإن الخوارج عندما ينظرون إلى القرآن لا يتعمقون فى التأويل ولا يغوصون وراء المعانى الدقيقة، ولا يكلِّفون أنفسهم عناء البحث عن أهداف القرآن وأسراره، بل يقفون عند حرفية ألفاظه، وينظرون إلى الآيات نظرة سطحية، وربما كانت الآية لا تنطبق على ما يقصدون إليه، ولا تتصل بالموضوع الذى يستدلون بها عليه، لأنهم فهموا ظاهراً معطلاً، وأخذوا بفهم غير مراد.

ولقد يعجب الإنسان ويدهش عندما يقرأ ما للقوم من سخافات فى فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعهم فيها التنطع والتمسك بظواهر النصوص، ولكى لا أُتهم بالقسوة فى حكمى هذا، أضع بين يدى القارئ الكريم بعض ما جاء عن القوم، حتى لا يجد مفراً من الحكم عليهم بمثل ما حكمت به.

«رُوىَ أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتُهِمَ بامرأة حدَّاد رأوه يدخل منزله بغير إذنه، فأتوا قطريًا (٢) فذكروا ذلك له، فقال لهم: إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنَّا لا نقاره على الفاحشة، فقال: انصرفوا .. ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال: إنَّا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتونى يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إنى جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرئ .. فجمع بينهم فتكلموا، فقام عبيدة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ ... الآية (١١) وما بعدها من سورة النور – فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا: استغفر لنا .. ففعل» (٣).

«ويُروى أن واصل بن عطاء وقع هو وبعض أصحابه فى يد الخوارج فقال لأصحابه: اعتزلوا ودعونى وإياهم – وكانوا قد أشرفوا على العطب – فقالوا: شأنك .. فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلِّمونا، فجعلوا يُعلِّمونه،أحكامهم وجعل يقول: قد قبلتُ أنا ومَن معى. قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال: ليس

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، المجلد الأول ص ٣٨٢.

(٢) هو قطرى بن الفجاءة الزعيم الثالث للأزارقة.

(٣) الكامل للمبرد: ٢/ ٢٣٦.

ذلك لكم. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة: ٦]. فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن» [١].

ومن الخوارج مَن أدَّاه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال: «لو أن رجلاً أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار، لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة النساء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾، ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار، لأن الله لم ينص على ذلك» [٢].

وهذا هو ميمون العجردى زعيم الميمونية [٣] من الخوارج، يرى جواز نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والأخوات ويستدل على ذلك فيقول: «إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النساء بالنسب الأُمهات، والبنات، والأخوات، والعمَّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأُخت، ولم يذكر بنات البنات ولا بنات البنين، ولا بنات أولاد الإخوة، ولا بنات أولاد الأخوات» [٤].

ويُروى أن رجلاً من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه، وكانت له جارية على مذهبه قال لها: قَدِّمى شيئًا، فأبطأت، فحلف ليبيعها من الأعراب، فقيل له: تبيع جارية مؤمنة من قوم كفار، فقال: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [٥] .. فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة.

وأيضًا نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقالوا: لِمَ خرجت من بيتها، والله تعالى يقول: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾؟ [٦] .. فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

وأيضًا فإن الأزارقة قالوا: مَن قذف امرأة محصنة فعليه الحد، ومن قذف رجلاً محصنًا فلا حد عليه [٧]، وهذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات، ولم ينص على حد قاذف المحصنين.

وقالوا - أيضًا - بأن سارق القليل يجب عليه القطع [٨]، أخذًا بظاهر قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ﴾.

---

(١) الكامل للمبرد: ٢/١٠٦. (٢) تلبيس إبليس ص ٩٥.
(٣) يعدهم صاحب الفَرْق بين الفرَق من غير المسلمين.
(٤) الفرق بين الفرَق ص ٢٦٤، ٢٦٥. (٥) التبصير فى الدين ص ٣٥.
(٦) المرجع السابق ص ٣٦. (٧) نفس المرجع ص ٢٩.
(٨) التبصير فى الدين ص ٢٩.

وغير هذا كثير نجده عندهم فى بطون الكتب، وهو لا يدع مجالاً للشك فى أن الخوارج قوم سطحيون فى فهمهم لآيات القرآن الكريم، وإدراك معانيه.

● موقف الخوارج من السُّنَّة وإجماع الأُمة، وأثر ذلك فى تفسيرهم للقرآن:

ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية. أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخًا لبعض آيات الكتاب. أو مخصصًا لبعض عموماته، أو زائداً على بعض أحكامه، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملَّك قلوب الخوارج، وتسلَّط على عقولهم، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله ﷺ هذا الحديث، وهو: «إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، وما خالفه فليس عنى» فقد قال عبد الرحمن المهدى: «الزنادقة والخوارج وضعوا حديث: ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله .. إلخ» (١).

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضًا، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع الأمة، ولم يقدِّروه عند فهمهم لنصوص القرآن، مع أن الإجماع فى الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السُّنَّة، وليس أمراً مبتدعًا فى الدين، أو خارجًا على قواعده وأُصوله.

وفى هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، وهى مخالفة لإجماع الأُمة. ومناقضة لما صح عن الرسول ﷺ، وقالوا: يبطلها القرآن .. فيقول:

«قالوا: حكم فى الرجم يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول فى الإماء: ﴿**فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ [النساء: ٢٥]، والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإماء نصفه؟ .. وذهبوا إلى أن المحصنات: ذوات الأزواج .. قالوا: وفى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجَلْد» (٢).

«قالوا: حكم فى الوصية يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «لا وصية لوارث»، والله تعالى يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ [البقرة: ١٨٠]، والوالدان وارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث. وهذه الرواية خلاف كتاب الله عَزَّ وجَلَّ» (٣).

«قالوا: حكم فى النكاح يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «لا

---

(١) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام صبرى، ص ٦٤، ٦٥ (هامش) وقد اغتر بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين، وكان ذريعة لتشكيك بعض الناس فى عقائدهم.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١. (٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢.

تُنكح المرأة على عمَّتها، ولا على خالتها »، وأنه قال: « يُحَرِّم من الرضاع ما يُحَرِّم من النسب ». والله عَزَّ وجَلَّ يقول: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] . . . إلى آخر الآية، ولم يذكر الجمع بين المرأة وعمَّتها وخالتها، ولم يُحَرِّم من الرضاع إلا الأُم المرضعة والأخت بالرضاع .. ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] فدخلت المرأة على عمَّتها وخالتها، وكل رضاع سوى الأم والأُخت، فيما أحلَّه الله تعالى »[1].

يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى الرد عليهم فى ذلك كله ردًا مسهبًا فيه إزالة كل شبهة، ودفع كل حُجَّة وردت على ألسن القوم، ولا نطيل بذكر ذلك. ومَن أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه فى تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤١ – ٢٥٠).

● **الإنتاج التفسيرى للخوارج:**

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيرى مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة أو غيرهما من فرق المسلمين، التى خلَّفت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأُوَل لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليها مناظراتهم، وذكرنا لك منها كل ما وصل إلى أيدينا، وجميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة.

ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟ وهل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة فى التفسير، ولكن فقدتها المكتبة الإسلامية على طول الأيام ومر العصور؟.

الحق أنى وجهت لنفسى هذا السؤال، وكدت أعجز عن الجواب عنه .. ولكن هيأ الله لى ظرفًا جمعنى مع رجل من الإباضية المعاصرين[2]، يقيم فى القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه، فأفهمنى أن الإنتاج التفسيرى للخوارج كان قليلاً بالنسبة لإنتاج غيرهم من فِرَق الإسلام، ومع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه. لبعض العلماء من الإباضية فى القديم والحديث.

فسألته: وهل تذكر شيئًا من هذه الكتب؟ فذكر لى من الكتب ما يأتى:

١ – تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسى .. من أهل القرن الثالث الهجرى.

٢ – تفسير هود بن محكم الهوارى .. من أهل القرن الثالث الهجرى.

٣ – تفسير أبى يعقوب، يوسف بن إبراهيم الورجلانى .. من أهل القرن السادس الهجرى.

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

(٢) هو الشيخ إبراهيم إطفيش، الموظف بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية.

٤ – داعى العمل ليوم الأمل . . للشيخ محمد بن يوسف إطفيش . . من أهل القرن الحاضر.

٥ – هميان الزاد إلى دار المعاد . . له أيضاً.

٦ – تيسير التفسير . . له أيضاً.

فقلت له: وهل يوجد شئ من هذه الكتب إلى اليوم؟

فقال لى: أما تفسير عبد الرحمن بن رستم، فغير موجود. وأما تفسير هود بن محكم، فموجود، ومتداوَل بين الإباضية فى بلاد المغرب . . وهو يقع فى أربع مجلدات، وقد أطلعنى منه على جزئين مخطوطين عنده، وهما الأول والرابع. أما الأول: فيبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى بآخر سورة الأنعام. وأما الرابع: فيبدأ بسورة الزمر، وينتهى بآخر القرآن.

قال: وأما تفسير أبى يعقوب الورجلانى، فغير موجود، ويذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثاً، وتحقيقاً، وإعراباً.

وأما تفسير داعى العمل ليوم الأمل، فلم يتمه مؤلفه، لأنه عزم على أن يجعله فى اثنين وثلاثين جزءاً، ثم عدل عن عزمه هذا، واشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد.

وقد أطلعنى مُحدِّثى على أربعة أجزاء من تفسير داعى العمل، فى مجلدين مخطوطين بخط المؤلف، أما أحد المجلدين: فإنه يحتوى على الجزء التاسع والعشرين، والجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب، وهو يبدأ بسورة الرحمن، وينتهى بآخر سورة التحريم، وأما المجلد الثانى: فإنه يحتوى على الجزء الحادى والثلاثين، والجزء الثانى والثلاثين، وهو يبدأ بسورة تبارك، وينتهى بآخر الفقرآن. وقد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص)، ويظهر – كما قال مُحدِّثى – أن المؤلف قد ابتدأ تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس، ثم بدأ بسورة (ص) ووقف عندها ولم يتم.

وأما تفسير هميان الزاد، فموجود ومطبوع فى ثلاثة عشر مجلداً كباراً، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، ونسخة أخرى عند مُحدِّثى.

وأما تيسير التفسير، فموجود ومطبوع فى سبع مجلدات متوسطة الحجم، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى عند مُحدِّثى أيضاً.

● **أسباب قِلَّة إنتاج الخوارج فى التفسير:**

وأنت ترى أن هذه الكتب المذكورة، ما وُجد منها وما لم يُوجد، كلها للإباضية وحدهم، ولعل السر فى ذلك: أن جميع فِرَق الخوارج ماعدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر.

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، ومذهبهم منتشر فى بلاد المغرب، وحضرموت، وعُمان، وزنجبار.

ولكن بقى بعد هذا سؤال يتردد فى نفسى، ولعله يتردد فى نفس القارئ أيضًا وهو: ما السر فى أن الخوارج قَلَّ إنتاجهم فى التفسير؟

والجواب عن هذا السؤال - كما أعتقد - ينحصر فى أُمور ثلاثة وهى ما يأتى:

أولاً: أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية، ومن قبائل تميم على الأخص، وقليل منهم كان يسكن البصرة والكوفة مع احتفاظه ببداوته، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى، والعلمى، والاجتماعى، وكانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته، وعلى فطرته، بدون أن تشوبه تعاليم الأُمم الأُخرى. أضف إلى ذلك: احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير، وضيق التصور، والبُعْد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم.

ثانيًا: أنهم شُغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم. وكانت حروبًا قاسية وطويلة، ومتتابعة .. أسلمتهم حروب علىّ إلى حروب الأمويين، وأسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار، وتؤذن بالفناء، فكان من الطبيعى أن لا تدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث والتصنيف.

ثالثًا: أن الخوارج - مع ما هم عليه من شذوذ - كانوا يخلصون لعقيدتهم، ويتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير، ويرون أن الكذب جريمة من أكبر الجرائم، وبه - عند جمهورهم - يخرج الإنسان من عِداد المؤمنين - فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض فى تفسير القرآن، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه، مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله .. وقد سُئل بعضهم: لمَ لَمْ تُفسِّر القرآن؟ فقال: «كلما رأيت قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] .. أحجمت عن التفسير».

من أجل هذا كله لم يكن يُنتظر من الخوارج أن يُؤَلِّفوا لنا فى التفسير كما ألفَ غيرهم، وليس التفسير وحده هو الذى حُرِم من تصنيف الخوارج وتأليفهم، بل كل العلوم فى ذلك سواء، وما وُجِد لهم من مؤلفات فى علم الكلام، أو الفقه، أو الأُصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم، لأن هذه الفرْقة هى التى عاشت وانتشرت فى كثير من بلاد المسلمين، واستمرت إلى يومنا هذا، وتأثرت بتعاليم المعتزلة وغيرهم، وسايرت التطور العلمى والاجتماعى.

وبعد .. فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير، وهو تراث نادر عزيز، وما وُجِد منه أندر وأعز، وأرى أن أكتفى بالكلام عن «هميان الزاد إلى دار المعاد» وحده، وعذرى

فى ذلك: أن ما وجدناه من تفسير هود بن محكم، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافى الذى يعطينا فكرة واضحة عنه، وعن مؤلِّفه، وذلك راجع إلى رداءة خطه، وضياع بعض أوراقه، وتآكل بعضها.

وما وجدناه من تفسرير «داعى العمل ليوم الأمل». لم يكن أكثر حظًا من تفسير هود بن محكم.

وأما «تيسير التفسير» .. فهو فى الحقيقة خلاصة لما تضمنه «هميان الزاد» فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عند مُفسِّره على الأقل.

* * *

هميان الزاد إلى دار المعاد
لـ (محمد بن يوسف إطفيش)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير** [(١)]:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبى [(٢)]، الإباضى، وهو من وادى ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب. نشأ بين قومه، وعُرِف عندهم بالزهد والورع. واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وانكبَّ على القراءة والتأليف، حتى قيل إنه لم ينم فى ليلة أكثر من أربع ساعات. وله من المؤلفات فى شتَّى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلَّف.. فمن ذلك: نظم المغنى لابن هشام خمسة آلاف بيت .. وكان ذلك فى شبابه، وشرح كتاب التوحيد للشيخ عيسى بن تبغورين وهو من أهم مؤلفاته فى علم الكلام، وشرح كتاب العدل والإنصاف فى أُصول الفقه لأبى يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلانى، وله فى الحديث: وفاء الضمانة بأداء الأمانة، وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات، وجامع الشمل فى حديث خاتم الرسل، وهو مطبوع فى مجلد واحد. وله فى الفقه شرح كتاب النيل. وهو مطبوع فى عشر مجلدات، وله مؤلفات أخرى فى النحو والصرف، والبلاغة، والفلك، والعروض، والوضع، والفرائض، وغيرها.

وأما التفسير فله فيه «داعى العمل ليوم الأمل»، لم يتم .. و«هميان الزاد إلى دار المعاد»، وهو ما نحن بصدده .. و«تيسير التفسير»، وهو مختصر من السابق. هذا، وقد توفى المؤلف سنة ١٣٣٢ هـ (اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة)، وله من العمر ست وتسعون سنة.

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يُصور لنا حالة التفسير عندهم فى عصورهم الأولى، وذلك لقرب عهد مؤلفه، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، والذين خالفوه فيه.

ولقد جرت سُنَّة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم، وصاحبنا فى تفسيره هذا، استمد من كتب مَن سبقه من المفسِّرين على اختلاف نِحَلهم ومشاربهم وإن كان يدَّعى فى مقدمته أنه لا يُقلِّد فيه أحداً إلا إذا

---

(١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على ما حدَّثنا به الشيخ ابراهيم إطفيش، وهو تلميذ المؤلف وابن أخيه.

(٢) الوهبى نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبى، الزعيم الأول للخوارج.

حكى قولاً، أو قراءة، أو حديثًا، أو قصة، أو أثرًا لسَلَف. وأما نفس تفاسير الآى، والرد على بعض المفسرين، والجواب، فمن عنده إلا ما نسبه لقائله. كما يَدَّعى أنه كان ينظر بفكره فى الآية أولاً، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشرى، والقاضى البيضاوى - وهو الغالب - وتارة يخالفهما، ويوافق وجهًا أحسن مما أثبتناه أو مثله.

ومهما يكن من شئ فلا يسعنا إلا أن نقول: إن الرجل - وقد قرأ الكثير من كتب التفسير - تأثر بما جاء فيها، واستفاد الكثير من معانيها مما يدعونا إلى القول بأن تفسيره يمثل التفسير المذهبى للخوارج الإباضية فى أواخر عصورهم فقط، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التى مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن.

نقرأ فى هذه التفسير فنجد أن صاحبه يذكر فى أول كل سورة عدد آياتها، والمكى منها والمدنى، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهداً لذلك فى الغالب بالأحاديث الموضوعة فى فضل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجَّالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحًا وافيًا، فيُسهب فى المسائل النحوية، واللُّغوية، والبلاغية، ويفيض فى مسائل الفقه، والخلاف بين الفقهاء، كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، وهو مكثر إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات التى يؤيدها الشرع، ولا يصدقها العقل، كما يطيل فى ذكر تفاصيل الغزوات التى كانت على عهد رسول الله ﷺ. ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها فى جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، وجعلها دليلاً عليه، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا تلَّمس لها كل ما فى طاقته من تأويل، ليتخلص من معارضتها .. وقد يكون تأويلاً متكلفًا، وفاسداً، لا ينجيه من معارضة الآية له، لكنه التعصب الأعمى .. يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، ويطرح تفكيره الصائب، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ وتفكير خاطئ!!.

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير، لتقف على مسلك صاحبه فى فهمه لآيات القرآن الكريم:

● **حقيقة الإيمان:**

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢ - ٣) من سورة البقرة: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾. نراه يقرر: «أن الإيمان يُطلق على مجموع الاعتقاد، والإقرار، والعمل»، ثم يقول: «فمَن أخلَّ بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضًا من حيث أنه أظهر ما ليس فى قلبه، ومَن أخلَّ بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا. وقال القليل: إنه إذا أخلَّ بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخلَّ به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة، وإن أخلَّ بالعمل فقط،

فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفراً دون شرك غير مؤمن الإيمان التام» .. ثم قال: «واختلف الخوارج .. وهم الذين خرجوا عن ضلالة عليّ، فقالت الإباضية الوهبية، وسائر الإباضية فيمن أخلَّ بواحد من الثلاثة: ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، وينافق بترك العمل. ويثبتون الصغيرة. وقال الباقون كذلك وإنه لا صغيرة. ومذهب المحدثين أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن. ونحن نقول: انضمامهما إليه ركن، وهما جزء ماهيته» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ ... الآية، نراه يحاول محاولة جدية فى تحقيق أن العمل جزء من الإيمان، ولا يتحقق الإيمان بدونه. فيقول: «ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله - عَزَّ وجَلَّ - الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونا بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة مَن يجب الإيمان به وهو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلاً سلطانًا لا يعتقد بوجوده، وثبوت سُلْطته، فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظل المانع للحر، والبرد والمضرات، والإيمان أُس، ولا ينفع الأُس بلا بناء عليه، ولو بنى الإنسان أُلوفًا من الأُسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص، والحر، والبرد، وغير ذلك، فإن ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح. وإذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان، إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده. وفى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان، دليل على أن كلاً منهما غير الآخر، لأن الأصل فى العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات، إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان» (٢).

● **موقفه من أصحاب الكبائر:**

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلَّد في النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨١) من سورة البقرة: ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .. يقول: ﴿ **سَيِّئَةً** ﴾ خصلة قبيحة، وهى الذنب الكبير، سواء أكان نفاقًا أو إشراكًا، ومن الذنوب الكبيرة: الإصرار. فإنه نفسه كبيرة، سواء أكان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة: الكبيرة قوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ .. ويحتمل وجه آخر وهو أن السيئة: الذنب صغيراً أو كبيراً، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله: ﴿ **وَأَحَاطَتْ بِهِ**

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٠٠.

(٢) الجزء الأول ص ٣٦٠ - ٣٦١.

خَطِيئَتُهُ﴾ : وإن قلت روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السيئَةَ هنا الشرك. وكذا قال الشيخ هود - رحمه الله - إنها الشرك. قلت: ما ذكرته أولى مما ذكراه، فإن لفظ السيئة عام، وحمله على العموم أولى، إذ ذلك تفسير منهما لا حديث، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار، ولم يحصروا دخولها على الشرك، ومعترفون بأن لفظ الخلود يُطلق على المكث الكبير، سواء أكان أبديًا، أو غير أبدى، وادعاء أن الخلود فى الموحِّدين بمعنى بمعنى المكث الطويل، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم، استعمكال للكلمة فى حقيقتها ومجازها، وهو ضعيف، وأيضًا ذكر إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره، لكنه أنسب بغيره، لأن الشرك أقوى ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ .. ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق، أو حائط السجن، وذلك بأن مات غير تائب » [١].

● **حملته على أهل السُّنَّة:**

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السُّنَّة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يُعذَّب فى النار على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، ندَّد بهم ولمزهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ .. يقول: « .. وترى أقوامًا ينتسبون إلى المِلَّة الحنيفية يضاهئون اليهود فى قولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات » [٢].

● **مغفرة الذنوب:**

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها، ويحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة وإن لم يتب.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٨٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يقول: «ولا دليل فى الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها، كما زعم غيرنا، لحديث: هلك المُصِرُّون » [٣].

(١) الجزء الثانى صفحة ١٤٠.
(٢) الجزء الأول صفحة ٢٢٨.
(٣) الجزء الثالث صفحة ٤٤٣.

وعند قوله تعالى فى الآية (١٢٩) من سورة آل عمران: ﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ .. يقول: «يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة، ويُعذِّب مَن يشاء تعذيبه بأن لا يوفقه، وليس من الحكمة أن يُعذِّب المطيع الموفى، وليس منها أن يرحم العاصير المُصِّر، وقد انتفى الله من أن يكون ظالمًا، وعد من الظلم: النقص من حسنات المحسن، والزيادة فى سيئات المسئ، وليس من الجائز عليه ذلك، خلافًا للأشعرية فى قولهم: يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين، والنار جميع الأبرار. وقد أخطأوا فى ذلك ..» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ .. يقول: «بشرط التوبة منها بدليل التقييد بها في مواضع من القرآن والسُّنَّة، والمطلق يُحمل على المُقَيَّد. وقد ذُكرت فى القرآن مرارا شرطًا للغفران، فذكرها فيما ذكرت. ذكر لها فيما لم تذكر، وإنما تحذف لدليل والقرآن في حكم كلام واحد لا يتناقض حاشاه، وأيضا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها لأن ذلك يؤدي بهم إلي الاجتراء عليها وقد أخفي الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث أنه غفرها، ويدل كذلك. تعقيب الآية بقوله: ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم** ﴾ [الزمر: ٥٤] لئلا يطمع طامع كالقاضى – يريد البيضاوى • فى حصول المغفرة بلا توبة. ويدل له أيضًا قراءة ابن مسعود وابن عباس: «يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء» أى لمن يشاؤه بالتوبة، .. وأما قوله: ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة، أى يغفرها، ويقبل التوبة منها. لأن من شأنه الغفران العظيم والرحمة العظيمة وملكه وغناه واسع لذلك، والمراد بالآية: التنبيه على أنه لا يجوز لمن عصى الله – أى عصيان كان – أن يظن أنه لا يغفر له، ولا يقبل توبته، وذلك مذهبنا معشر الإباضية، وزعم القاضى وغيره: أن الشرك يُغفر بلا توبة، ومشهور مذهب القوم: أن الموحِّد إذا مات غير تائب: يُرجى له، وأنه إن شاء عذَّبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة. وإن شاء غفر له. ومذهبنا: أن مَن مات على كبيرة غير تائب: لا يُرجى له» (٢).

● **رأيه فى الشفاعة:**

ويرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحِّدين، ولا لأصحاب الكبائر، ومن خلال رأيه هذا ينظر آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا ما يتفق ومذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿ **واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون** ﴾ .. يقول: « .. وإن قلت: فهل الشفاعة والفداء بالعدل واقعان ولكن لا يُقبلا؟ أم غير واقعين؟ قلت: غير واقعين، أما مَن تأهل للشفاعة من الملائكة والأنبياء والعلماء

---

(١) الجزء الرابع ص ٢٤٠ – ٢٤١.

(٢) الجزء الثانى عشر صفحة ٧٢.

والصالحين، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم. فإن تعرَّضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم، قيل لهم: إنهم بَدَّلُوا وغيَّروا، وليسوا أهلاً لها، فيتركوا التعرض لها. وأما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدرى ما يفعل به » (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من السورة نفسها: ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ .. يقول .. ﴿ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ لعدمها هناك، فالمراد أنه لا شفاعة تنفعها، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها، وليس المراد أنه هناك شفاعة لا تُقبل. وإنما ساغ ذلك، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع، كما تصدق بنفى المحمول، فكما تقول: ليس زيد قاعداً فى السوق، وتريد أنه فيها لكنه قائم، كذلك تقول: ليس زيد قاعداً فيها، وتريد أنه ليس فيها أصلاً، وذلك مخصوص بالمشرك، فإنه لا شفاعة له هنالك إلا شفاعة القيام لدخول النار، ولا نفع له فى دخول النار، وإنما الشفاعة للموحِّد التائب » (٢).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ... الآية، يقول: « فالآية نَص - أو كالنص - فى أن لا شفَاعة لأهل الكبائر. أى أنت برئ منهم على كل وجه، وقد علمت عن عمر وأبى هريرة أن الآية فى أهل البدع من هذه الأمة » (٣).

● **رؤية الله تعالى:**

ويرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقًا، ويُصرِّح بذلك فى تفسيره لآيات الرؤية، ويرد على أهل السُّنَّة الذين يقولون بجوازها فى الدنيا، ووقوعها للمؤمنين فى الآخرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ... الآية، نراه يذكر ما ورد من الروايات فى هذا الباب، ومن الروايات رواية تفيد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، يعقب عليها فيقول: « وهذه الرواية تقتضى أن موسى يجيز الرؤية، حتى سألها ومُنعَها .. وليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك وحرَّمه، أو سكت انتظاراً للوحى فى ذلك، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذى يقمعكم لا لجواز الرؤية، فتجلَّى للجبل بعض آياته فصار دكًا، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها

(١) الجزء الثانى صفحة ١٧.
(٢) الجزء الثانى صفحة ٢٩٩.
(٣) الجزء السادس صفحة ٢٧٤.

اللون، والتركيب، والتحيز، والحدود، والحلول، وذلك كله يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله، وإذا كان ذلك مستلزمًا عقلاً لم يختلف دنيا وأخرى، فالرؤية محال دنيا وأخرى، ولا بالإيمان، والكفر، والنبوة، وعدمها » (١).

وعند قوله تعالى في الآية (١٥٣) من سورة النساء: ﴿ **يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ ... الآية، يقول: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ** ﴾ إذ سألوا رؤية الله جَلَّ وعَلا الموجبة للتشبيه .. وقالت الأشعرية: الصاعقة إنما هى من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية، لا من أجل طلب الرؤية. وهو خلاف ظاهر الآية، مع أن الرؤية توجب التحيز، والجهات، والتركيب، والحلول، واللون، وغير ذلك من صفات الخلق. ويدل لما قلته قوله تعالى: ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والأشعرية لما أُفحموا قالوا: بلا كيف. وحديث الرؤية - إن صح - فمعناه: يزدادون يقينًا بحضور ما وعد الله فى الآخرة، فلا يشكون فى وجود الله وكمال صدقه، وقدرته، كما لا يشكون فى البدر » (٢).

● **أفعال العباد:**

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحيانًا، فإنه يُصرِّح بمخالفتهم فى بعض المسائل، فمثلاً نراه يقرر: أن فعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لا يخلق أفعال نفسه. ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة، فمثلاً عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ ... الآية، يقول: « ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئًا، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيئته، وفيه رد على المعتزلة فى قولهم: لم يرد معصية العاصى .. وزعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك. ولزم عليهم أن يكون مغلوبًا على أمره إذا عُصى ولم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع - تعالى الله عن ذلك - والحق أن المعصية بإرادته ومشيئته، مع اختيار العاصى، لا جبر، للذم عليها والعقاب والنهى عنها » (٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٢) من سورة الزمر: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ .. يقول: « من إيمان، وكفر، وخير، وشر، مما هو كائن دنيا وأخرى » (٤).

---

(١) الجزء الثانى صفحة ٤٢.

(٢) الجزء الخامس صفحة ١٧٣.

(٣) الجزء السادس صفحة ٦٨.

(٤) الجزء الثانى عشر صفحة ٧٧.

● **موقفه من المتشابه:**

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، ويعيب على مَن يقول بالظاهر، وإن فوض علمه وكيفيته لله.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ .. يقول: ﴿**إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ**﴾ على حذف مضاف: أى أمر الله. بدليل قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل: ٣٣] .. والحاصل، أن مذهبنا ومذهب هؤلاء – يريد المعتزلة ومَن وافقهم – تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة المائدة: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ .. نراه يذكر الحديث القائل: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»، ثم يقول: «ويمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين فى الأمر الحسن، ودل لذلك قوله: «وكلتا يديه يمين»، والتأويل فى مثل ذلك هو الحق. وأما قول سَلَف الأشعرية فى مثل ذلك: إنَّا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله، ونقول: هو على معنى يليق به .. وكذا طوائف من المتكلمين، فجمود وتعام عن الحق» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ... الآية، يقول: «واستوى: بمعنى استولى بالملك، والغلبة والقوة، والتصرف فى كيف شاء، و«العرش»: جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة، وأبى المعالى وغيره من حُذَّاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته» (٣).

● **موقفه من تفسير الصوفية:**

ونجد المؤلف يبدى رأيه فى تفسير الصوفية بصراحة تامة، ويحمل على مَن يُفسِّر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾: « .. قيل: ويحتمل أن يُراد الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال، والعلم، وقوة البدن، والجاه، وفصاحة اللسان .. ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز، وقيل: المعنى: ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله – جَلَّ وعَلا – يفيضون .. وهذا القول والذى قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف،

---

(١) الجزء الثانى صفحة ١٥٧.

(٢) الجزء الخامس صفحة ٣٣٩.

(٣) الجزء السادس صفحة ٣٦١.

وليس تفسير الصوفية عندى مقبولاً إذا خالف الظاهر، وكان تكلفًا، أو خالف أُسلوب العربية ولا أعذر مَن يُفسِّر به ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه، فإنه ولو كان فى نفسه حقًا لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التى يتخاطبون بها وتكلف من التكلف الذى يبغضه الله، فإن القولين وإن ناسبهما قوله ﷺ: «إنَّ علمًا لا يقال به ككنز لا يُنفق منه» الذى رواه الطبرى فى الأوسط، لكن لا يصحان تفسيرًا للآية، إذ لا يتبادر ذلك ولا يجرى على أسلوب العرب والقول الأخير أبعد، وأنا أعد اعتقادى ذلك نورا ومعرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم علىّ. وقد أقبل القول الذى قبله لأنه قريب من أسلوب العرب. قليل التكلف، والصحيح أن المراد: النفقة الواجبة وغير الواجبة من المال» (١).

● **موقفه من الشيعة:**

وصاحبنا لا يُسلِّم للشيعة استدلالهم على إمامة علىّ بقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾.. بل نراه يفند إحتجاجهم بالآية فيقول: «وزعم الشيعة أن: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** ﴾ .. إلى: ﴿ **رَاكِعُونَ** ﴾ المراد به على ابن أبى طالب، وأن جملة ﴿ **وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ حال من واو ﴿ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ وهى مقارنة، وأنه أعطى الزكاة وهو فى الصلاة راكع، سأل سائل وهو فى ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه فى حال ركوعه وأراد به الزكاة، وعبَّر عنه بالجمع تعظيمًا، وهى دعوى بلا دليل عليها والأصل العموم، والأصل أن لا يُطلق لفظ الجمع على المفرد، ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولى - فى الآية - المتولى للأمور المستحق للتصرف فيها، وأن هذه الآية دليل على إمامة علىّ.. وهذا أيضًا تكلف بلا دليل» (٢).

● **رأيه فى التحكيم:**

ونرى المؤلف يتأثر فى تفسيره هذا بعقيدته فى مسألة التحكيم بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما، فيفر من الآيات التى تعارضه، ويمكن أن تكون مستندًا لمخالفيه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النساء: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ ... الآية، نراه يقول: «ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكَمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها، وأيضًا المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق» (٣).

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢٢٠.

(٢) الجزء الخامس صفحة ٣٧٦.

(٣) الجزء الرابع صفحة ٤٧٨.

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٩ – ١٠) من سورة الحجرات: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ ... إلى قوله: ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ .. يقول: والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله .. ثم يقول: وسمع عليّ رجلاً يقول في ناحية المسجد: «لا حكم إلا لله» فقال: كلمة حق أُريد بها باطل .. لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم في أيدينا، ولا نبدأكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم في مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان عليّ أعلم عالم. ثم قال: قيل: وفي الآية دليل ،علي أن البغي لا يزيل اسم مؤمن لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين وسماهم أخوة مؤمنين قلت: لا دليل أما: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين** ﴾ فتسميتهم فيه مؤمنين: باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغى، أما: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة: باعتبار ما ظهر لنا قبل البغى، فقوله: ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ في معنى اهدوهم إلى الحال التى كانوا عليها قبل: أو المراد بالمؤمن: الموحد لا الموفى، بدليل: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». وأما لفظ: آمن وإيمان، فلا يختصان بالموفى » (١).

● **إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعليّ ومن والاهما:**

ثم إنه لا تكاد تأتى مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا لذكر عليّ، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا وغضّ من شأنهم، ورماهم بكل نقيصة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٠٥ – ١٠٦) من سورة آل عمران: ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ ... إلخ، نراه يعيب على من يقول من المفسرين: إن الذين تفرقوا واختلفوا هم من خرج على عليّ عند قبوله التحكيم، ويقول: إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية، بل في إمارة عليّ، ﴿ **تفرقوا واختلفوا** ﴾ صيغتان ماضويتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر، بل دلت الآية على خلوصهم من ذلك، وعلى أنهم المحقون الذين تبيض وجوههم فمن خالفهم فهو داخل فى قوله تعالى: ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .. وهو يعم كل من كفر بعد إيمانه. واعلم أنه قد خرج على عليّ حين أذعن للحكومة صحابة كثيرون – رضى الله عنهم – وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمون ويشتمون من خرج عنه، ويلعنونه، غير الصحابة الذين خرجوا عنه، والخروج واحد: إما حق فى حق الجميع، وإما باطل فى حق الجميع .. فإذا كان حقاً فى جنب الكل، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة، وإن كان باطلاً فى جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضاً ... عافاهم الله، ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح

---

(١) الجزء الثاني عشر صفحة ٥١٧ .

الحديث ويزيدون فيه.، وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا». ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التي حملت عليهم، وردها بعدم صحتها، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية، أو بحملها على مَن قبل التحكيم. ثم قال: «والدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا ولا فيمن اقتدينا بهم، وأن الراضين بالتحكيم هم المبطلون، ما رواه أبو عمر، وعثمان بن خليفة: أن رجلاً من تلاميذ أبي موسى الأشعرى – عبد الله ابن قيس – لقيه بعد ما وقع فيما وقع من أمر التحكيم، فقال له: قف يا عبد الله بن قيس أستفتك، فوقف .. وكان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيكون فى هذه الأمة حَكَمان ضالان مُضلان يضلان ويضل مَن اتبعهما» قال: فلا تتبعهما وإن كنت أحدهما. ثم قال له التلميذ: إن صدقت فعليك لعنة الله، وإن كذبت فعليك لعنة الله.

ومعنى ذلك: إن كانت الرواية التى رواها عن رسول الله ﷺ صحيحة ثم وقع فيها، فعليه لعنة الله، وإن كان كاذبا على رسول الله ﷺ، فعليه لعنة الله، لنقله الكذب عن رسول الله، لا محيص عن الأمرين جميعًا» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة التوبة ﴿**إلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ .. الآية، نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذى بذل ماله فى غزوة تبوك دفاعًا عن رسول الله ﷺ، ونُصْرة لدين الله فيقول: «.. وعن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذى يَدَّعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم، وجهَّز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبى ﷺ ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهَّز عيراً إلى الشام، فقال: يا رسول الله؛ هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أُوقية. قال صاحب المواهب: قال عمران ابن حصين: فسمعته يقول: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها» – والعُهْدة على القسطلانى وعمران – فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة. وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهَّز جيش العُسرة، فنثرها فى حجره – ﷺ –، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها فى حجره ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»، فإن صح هذا فذلك أيضًا دعاء، وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٣) وما بعدها من سورة الكهف: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿**ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا**

(١) الجزء الرابع ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٢) الجزء السابع صفحة ٣١٣.

كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ [الكهف: ١٠٦] .. يقول: .. وزعم عليّ أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه، لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم. وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء. وسُئل: أهم مشركون؟ فقال: لا، فقال: أمنافقون؟ فقال: لا، بل إخواننا بغوا علينا .. وذلك خطأ تشهد به عبارته، لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنًا أو مشركًا أو منافقًا، فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون. والمؤمن لا يُوصف بالبغى وهو مؤمن، ومَن بغى دخل فى حدود النفاق. وأيضًا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، والسافك دماء مَن لم يتبعه على هذه الزلّة. وأيضًا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله، ولا بلقائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث. والأخسرون أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء، ولست أقول ذلك معجبًا بنفسى، ولا متعجبًا ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرَّحتُ بــه » (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ... الآية، يقول: «قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. وإن استخلافهم: إمامتهم العظمى، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعليّ فى ذلك .. ثم قال: وفى أيام أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. وبعدهم، كانت الفتوح العظيمة، وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعليّ. فإنهما وإن كانت خلافتهما برضا الصحابة، لكن ما ماتا إلا وقد بدَّلا وغيَّرا فسحقًا .. كما فى أحاديث عنه - ﷺ - أنهما مفتونان » (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية السابقة: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .. يقول: «أقول - والله أعلم بغيبه - إن أول مَن كفر بتلك النعمة وجحد حقها: عثمان بن عفان؛ جعله المسلمون على أنفسهم، وأموالهم، فخانهم فى كل ذلك. زاد فى مسجد رسول الله ﷺ ووسَّعه، وابتاع من قوم وأبى آخرون فغصبهم، فصاحوا به فسيَّرهم للحبس، وقال: قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلَّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، وقد جمع فى ذلك: غصب المال، وقذف عمر رضى الله عنه. واستعمل أخاه لأمه وهو الوليد بن عُقبة. ونزل: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] بحضرة أبى بكر، وعمر - رضى الله عنهما - وعثمان، وعليّ ، فقال لعثمان: «بك تفتح وبك تُشَب »، وقال لعليّ: «أنت إمامها وزمامها

---

(١) الجزء العاشر ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٢) الجزء العاشر ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

وقائدها، تمشى فيها مشى البعير فى قيده» وقال: «لَضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أُحُد». وقال: «يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى، ألا إن أوليائى المتقون» .. إلى آخر ما ذكره من النقائص فى حق علىّ وعثمان - رضى الله عنهما» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ ... الآية، يقول: «فمودَّة قرابته ﷺ مَن لم يُبدِّل منهم ولم يُغيِّر، مثل فاطمة، وحمزة، والعباس، وابنه - رضى الله عنهم - واجبة» ... ثم ذكر روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودَّتهم ... وبعدما فرغ منها قال: «لكن المراد بآله: آله الذين لم يُبَدِّلوا، فخرج علىّ ونحوه ممن بَدَّل، فإنه قتل مَن قال ﷺ: «لا يدخل قاتله الجنة». ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية: أنه لما نزلت قيل: مَن قرابتك الذين تجب علينا مودَّتهم؟ فقال: «علىّ، وفاطمة، وابناهما» (٢).

● اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين:

هذا .. وإن المؤلف ليفخر كثيراً فى مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحْلته، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق، والدين القويم، والتفكير السليم، وأما مَن عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «واعلم أن الحق هو القرآن والسُّنَّة، وما لم يخالفهما من الآثار، فمَن قام بذلك. فهو الجماعة والسواد الأعظم، ولو كان واحداً، لأنه نائب النبى ﷺ والصحابة، والتابعين الذين اهتدوا، وكل مهتد. ومَن خالف ذلك، فهو مبتدع ضال، ولو كان جمهوراً. هذا ما يظهر لى بالاجتهاد، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف .. فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السُّنَّة ولو كانوا أقل الناس. لأنهم المصيبون فى أمر التوحيد، وعلم الكلام، والولاية، والبراءة، والأصول دون غيرهم» (٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من سورة هود: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «واعلم يا أخى - رحمك الله - أنى

---

(١) الجزء العاشر ص ٢٨٢ - ٢٨٣.
(٢) الجزء الثانى عشر صفحة ٢٢٧.
(٣) الجزء الثانى ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية، ومذهب المالكية، ومذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، ومذهب الحنبلية، بالمنقول والمعقول، فلم أر مستقيماً منها فى علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل. حُججه لا تقاومها حُجَّة. ولا تثبت لها، والحمد لله وحده» (١).

هذا هو مُفسِّرنا الإباضى، وهذا هو تفسيره الذى ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجاراة المعتزلة فى بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التى جرت على ألسن وُضَّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويُرَوِّجوا له بين الناس.

* * *

(١) الجزء الثامن صفحة ٢١٣.

الفصل الخامس
تفسير الصوفية

● أصل كلمة تصوف:

وقع الاختلاف فى أصل هذه الكلمة « تصوف » فقيل: إنها مشتقة من الصوف، وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فى لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفاً وزهداً. وقيل: إنه من الصفاء، وذلك لصفاء قلب المريد، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه. وقيل: إنه مأخوذ من الصُفَّة التى يُنسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصُفَّة. ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق. قال القشيرى رحمه الله: « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب. ومَن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصُفَّة فبعيد من جهة القياس اللُّغوى. قال: وكذلك من الصوف، لأنهم لم يُختصوا به » (١).

● معنى التصوف:

وأما معنى التصوف .. فقيل: « هو إرسال النفس مع الله على ما يريده » (٢).

وقيل: « هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفى هذه المناجاة طُهرة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس، وفى تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة، وصعود إلى عالَم الفيض والإلهام. وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض. بَيْد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر. فمَن شاء لنفسه صفاءً ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف إذن: فكر، وعمل، ودراسة، وسلوك » (٣).

● نشأة التصوف وتطوره:

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام، فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين فى العبادة، فكان منهم مَن يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم مَن يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه، غير أنهم لم يُعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢.
(٢) دائرة المعارف للبستانى – المجلد السادس – ص ١٣٣.
(٣) دروس فى تاريخ الفلسفة للدكتور مدكور، ويوسف كرم ص ١٤٠.

اللقب فيما بعد مَن عُرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى، وكان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى، وأول من سُمِّي بالصوفي: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ (خمسين ومائة من الهجرة) (١).

وفى هذا القرن وما بعده تولَّدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها. وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات.

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكوَّنوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السُّنَّة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها .. وما زال أهل السُّنَّة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى.

ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلَّوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأُميين يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هى دائرة الأوراد والأذكار وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث.

● **أقسام التصوف:**

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين:

تصوف نظرى: وهو التصوف الذى يقوم على البحث والدراسة.

وتصوف عملى: وهو التصوف الذى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى طاعة الله. وكل من القسمين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم، مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضاً إلى قسمين: تفسير صوفى نظرى، وتفسير صوفى فيضى أو إشارى .. وسنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه:

أولاً التفسير الصوفى النظرى

وُجِدَ من المتصوفة - كما قلنا - مَن بنى تصوفه على مباحث نظرية، وتعاليم

(١) كشف الظنون: ١ / ١٥٠.

فلسفية، فكان من البدهى أن ينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم، وتتفق وتعاليمهم.

وليس من السهل أن يجد الصوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التى يقول بها، إذ أن القرآن عربى جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربما كانت فى الغالب مستحدَثة وبعيدة عن روح الدين وبداهة العقل.

غير أن الصوفى حرصًا منه على أن تسلم له تعاليمه ونظرياته، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحًا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع، وتشهد له اللُّغة.

● **ابن عربى شيخ هذه الطريقة:**

ونستطيع أن نعتبر الأستاذ الأكبر محيى الدين بن عربى شيخ هذه الطريقة فى التفسير، إذ أنه أظهر مَن خَبَّ فيها ووضع، وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظرى. وإن كان له من التفسير الإشارى ما يجعله فى عداد المفسِّرين إن لم يكن شيخهم أيضًا.

● **تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:**

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يُشَك فى نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، وفى الكتب التى تُنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، والفصوص، فنراه يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية.

فمثلاً يُفسِّر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام: ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ .. نجده يقول: «وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالَم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر»..

ثم ذكر الأفلاك التى تحته، والتى فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا - أعنى المحمدين - كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٥] فى هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة» (١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٨٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ** ﴾ ... إلى قوله: ﴿ **كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٠١]

---

(١) الفصوص: ١/ ٢٦.

يقول: « .. والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعَّال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى » (١).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (١٩ - ٢٠) من سورة الرحمن: ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ** ﴾ .. يقول: ﴿ **مرج البحرين** ﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأُجاج، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفُرات، ﴿ **يلتقيان** ﴾ فى الوجود الإنسانى، ﴿ **بينهما برزخ** ﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجرَّدة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها، ﴿ **لاَّ يبغيا** ﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديًا ... سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء » (٢).

● **تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود:**

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه، فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية، حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى فى أول سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ .. الآية، نجده يقول: ﴿ **اتَّقُوا رَبَّكُمُ** ﴾ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقايته فى الذم، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين » (٣).

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩ - ٣٠) من سورة الفجر: ﴿ **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ ... يقول: ﴿ **وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ التى هى سترى، وليست جنتى سواك، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية فلا أُعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بى، فمَن عرفك عرفنى، وأنا لا أُعرف فأنت لا تُعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أُخرى، غير المعرفة التى عرفتها حين عرفتَ ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من

---

(١) تفسير ابن عربى: ١ / ٥١.
(٢) تفسير ابن عربى: ٢ / ٢٨٠.
(٣) الفصوص: ١ / ٥٠.

حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت ربًا، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد » ... إلخ (١).

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ .. يقول : « أي شيئًا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك، ﴿ سبحانك ﴾ ننزهك أن يُوجد غيرك، أى يُقارِن شئ فردانيتك أو يُثَنِّى وحدانيتك » (٢).

ومثلاً عند قوله تعالى في الآيتين (٩ - ١٠) من سورة الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .. يقول: « تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها، فيه تشريف وتعظيم فى ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، والصورة فى الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله. والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر، ولولا أنه هكذا فى نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود، ولذلك خاب مَن دسَّاها، لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسَّها فى هذا النعت، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله. لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا، ولذلك قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا الله، أو لما كان عند الله، وما ثَمَّ إلا الله، أو ما هو عنده، فخزائنه غير نافدة، فليس إلا صور تعقب صوراً » (٣).

وغير هذا كثير من قسر الآيات وإخضاعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها ابن عربى.

● **قياسه الغائب على الشاهد:**

كذلك نجد ابن عربى يفهم بعض النصوص القرآنية فهمًا خياليًا منتزعًا من المشاهد المحسوس، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٩]. يقول ما نصه: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على أى قلب نزل، ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ فعيَّن له الصنف المنزَّل عليه، ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أى نزَّل له البيان، فأبان عن المراد الذى فى الغيب، ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ميزان حركات الأفلاك، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ لهذا الميزان، أى

(١) الفصوص: ١/ ١٩١ - ١٩٣.
(٢) تفسير ابن عربى: ١/ ١٤١.
(٣) الفتوحات: ٤/ ١١٩.

من أجل هذا الميزان، فمنه ذو ساق وهو الشجر، ومنه ما لا طاق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان، ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وهى قبة الميزان، ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ليزن به الثقلان، ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ بالإفراط والتفريط من أجل الخسران، ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ مثل اعتدال نشأة الإنسان، إذ الإنسان لسان الميزان، ﴿ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .. فاعلم أنه، ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علماً وعملاً، فللمعانى ميزان بيد العقل يُسمى المنطق، يحتوى على كفَّتين تُسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يُسمى النحو يُوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللِّسان، ولكل ذى لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٢٧] .. وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفَّتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمة ذاته. فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القَبَّان، ولهذا وُصفَ بالثقل والخفة، ليجمع بين الميزان العدى وهو قوله تعالى: ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾، وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا فى القَبَّان، فلذلك لم يعين الكفَّتين، بل قال: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [القارعة: ٦] فى حق السعداء، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [القارعة: ٨] فى حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما مَن ثقلت كفَّة حسناته فهو كذا، وأما مَن ثقلت كفَّة سيئاته فهو كذا. وإنما جعل ميزان الثقل هو عَيْن ميزان الخفة كصورة القَبَّان، ولو كان ذا كفَّتين لوصف كفَّة السيئات بالثقل أيضاً إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القَبَّان ..» [١].

● **إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:**

وكذلك يخضع ابن عربى التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية، أحياناً، ولكنه خضوع يكيفه الصوفى على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه، فنجد ابن عربى مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ .. يقول: «وقوله: ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ العامل فى هذا الظرف فى طريقنا قوله: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾، أى مَن يعظمها عند ربه، أى فى ذلك الموطن، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى؟ .. كالصلاة مثلاً، فإن المُصَلِّى يناجى ربه، فإذا عظَّم حُرمة الله فى هذا الموطن كان خيراً له .. والمؤمن إذا نام

---

(١) الفتوحات: ٣/٦.

على طهارة فروحه عند ربه، فيُعَظِّم هناك حُرمة الله، فيكون الخير الذى له فى مثل هذا الموطن المبشرة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيره. والمواطن التى يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيُعَظِّم فيها حُرمات الله على الشهود» (١).

● التفسير الصوفى النظرى فى الميزان:

من هذه الأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر فى صراحة واطمئنان: أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن - فى الغالب - عن هدفه الذى يرمى إليه!! .. يقصد القرآن هدفًا معينًا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفى هدفًا معينًا بأبحاثه ونظرياته. وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفى إلا أن يُحوِّل القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه على أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئًا، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد فى آيات الله!!

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبى يزيد البسطامى، والحلاج، وغيرهما، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبًا منه. ووحدة الوجود - عندهم - معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالَم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود الحق، وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز، وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله فى أئمتهم، وصوَّروه - أعنى الصوفية - بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة، وإن اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ! (٢).

هذا المذهب الذى خَوَّل لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربى أن يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحَلَّ فيها، والذى جرَّه فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يُذهب بالدين من أساسه .. هل يكون سائغًا ومقبولاً أن نجعله أصلاً نبنى عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم؟ .. وهل يليق بابن عربى وهو الأستاذ

---

(١) الفتوحات: ٤/١١٥.

(٢) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون إلى فريقين: فريق يقول بالحلول، وفريق لا يقول به (انظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧).

الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى في الآيتين (٦ - ٧) من سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾.

فيقول شارحًا لهذا النص القرآني: « يا محمد؛ إن الذين كفروا ستروا محبتهم فى، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به، أو لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك، فإنهم لا يعقلون غيرى، وأنت تنذرهم بخلقى وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمتُ على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعًا لغيرى، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلامًا فى العالَم إلا منى، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى، فلا يبصرون سواى، ولهم عذاب عظيم عندى .. أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى، كما فعلتُ بك بعد قاب قوسين أو أدنى قُرْبًا .. أنزلتك إلى مَن يُكَذِّبك، ويرد ما جئتَ به إليه منى فى وجهك، وتسمع فىَّ ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائك؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضاى عنهم » (١).

وهل يجدر بمثل هذا الصوفى الكبير أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾: « .. فعلماء الرسوم يحملون لفظ « قضى » على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفا وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زُلْفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهر بصورة مَن استنابهم، وما ثَمَّ صورة إلا الأُلوهية فنسبوها إليهم. ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يُهتضم، وإن أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام، ولهذا قال: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا** ﴾ [النجم: ٢٣] .. أى أنتم قلتم عنها إنها آلهة، وإلا فسَمُّوهم، فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان، فتتميز عندهم بالإسمية، إذا ما كان حجر عُبد ولا اتُخذ إلهًا، ولا كل شجر، ولا كل جسم منير، ولا كل حيوان، فللَّه الحُجَّة البالغة عليهم بقوله: ﴿ **قُلْ سَمُّوهُمْ** ﴾ (٢).

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ .. قال: « إن الله تعالى خاطبهم فى هذه الآية المسلمين، والذين عبدوا غير الله قُربة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾ [الزمر: ٣] فأكدوا ذكر العِلَّة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذى يطلب

---

(١) الفتوحات: ١ / ١١٥.

(٢) الفتوحات: ٣ / ١١٧ - والآية من سورة الرعد: ٣٣.

المشرك القُربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم فى أحديته.. فقال: ﴿ وإلهكم ﴾ فجمعنا وإياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم. ومَن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا مَن ظهر أنه قصد، كما يقال: مَن صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولَّى بانقضائه، ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة. وما أُخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾؟ ونبههم فقال: ﴿ قُلْ سمُّوهُمْ ﴾ فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً، أو مبيناً، لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة، لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يُغنى عنهم من الله شيئًا، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم. ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الأُلوهية لهم أى جعلوهم كالنتوَّاب لله والوزراء، كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون فى رتبة مَن استخلفه عند المستخْلَف عليه، فلهذا نسبوا الأُلوهية لهم ابتداءً من غير نظر فيمن جعل ذلك. وقول مَن قال: ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص: ٥]، إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلِّى، ومعلوم عند مَن يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها: إنها الله. لكن لما كان هذا من عند الله، وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك، كما ثبت فى قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].. هذا حقيقة، فوجه الله موجود فى كل جهة يتولَّى أحد إليها، ومع هذا لو تولَّى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تُقبل صلاته، لأنه ما شُرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولَّى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة، فإن الله يقبل ذلك التولِّى، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولَّى إليها ما فيها وجه الله لكان كافراً وجاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله، ولهذا اختلفت الشرائع، فما كان محرَّمًا فى شرع ما، حلله الله فى شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عَيْن ذلك المحكوم عليه، قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جعلْنا منكُمْ شرْعةً ومنْهاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، فما نسخ من شرع واتبعه مَن اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود: ﴿ إِنَّا جعلْناك خليفةً في الأَرْضِ فَاحكُم بيْن النَّاس بالْحقّ ﴾ يعنى الحق الذى أنزلته إليك، ﴿ ولا تتَّبِعِ الْهوَىٰ ﴾ وهو ما خالف شرعك، ﴿ فيُضلَّك عن سبيل اللَّه ﴾ [ص: ٢٦] وهو ما شرعه الله لك على الخصوص. فإذا علمت هذا وتقرر لديك،

علمت أن الله إله واحد فى كل شرع عيناً، وكثير صورة وكوناً، فإن الأدلة العقلية تُكَثِّره باختلافها فيه، وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلِّى فى الصورة كثرة أيضاً لاختلافها. والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟ أو كيف يصح لى أن أُخَطِّئ قائلاً؟ ولهذا لا يصح الخطأ من أحد فيه، وإنما الخطأ فى إثبات الغير وهو القول بالشريك، فهذا القول بالعدم، لأن الشريك ليس ثَمَّ، وذلك لا يغفره الله، لأن الغفر الستر، ولا يُستر إلا مَن له وجود، والشريك عدم يُستر.. فهى كلمة تحقيق، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء: ١١٦]، لأنه لا يجده. فلو وجده لصح وكان للمغفرة عَيْن تتعلق بها، وما فى الوجود مَن يقبل الأضداد إلا العالَم من حيث ما هو واحد وفي هذا الواحد ظهرت الأضداد، وما هى إلا أحكام عَيْن الممكنات فى عَيْن الوجود التى بظهورها عُلمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها» (١).

● **رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:**

ورأيى الذى أدين لله عليه: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله.

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا في الطبيعة، وما وراء الطبيعة، والذي جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية. لانقبله على أنه تفسير موافق لمراد لله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله، وإن كنا نقبله – إن صح – على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه. على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنيا، وقد يظهرخطؤه فى يوم من الأيام، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة، فهذا أيضا ضرب من التخمين، والتخمين لايجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم صلى لله عليه وسلم.

وأما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق والسباق قبل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر ويقويه الدليل.

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى، وليس لدينا من المعاذير ما نستطيع ان نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه. وإذا صح – وما أرانى أرتضى ذلك – أن نغض الطرف عما

---

(١) الفتوحات: ١/١٠٦، ١٠٧.

قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها وسفليها، وحقائق الملائكة، والروح، والعرش، والكرسى، وأمثال ذلك، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه من التفسير المبنى على وحدة الوجود. وإذا أمكننا – على كره – أن نتسامح فى بعض عبرات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد، وارتفع به الحال ، وغاب عن نفسه، وشاهد ما لا نشاهد، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله : أنا الحق، أو أنا الله، فليس فى مقدورنا أن نتسامح فى مثل هذه التفاسير التي جرت بها ألسنة القوم وأقلامهم وهم فى حالة الهدوء النفسى ، يقدرون ما يقولون، ويشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون.

هذا.. ولم نسمع بأن أحدا ألف فى التفسير الصوفى النظرى كتابا خاصا يتتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى ، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى، وكتاب «الفتوحات المكية» له ، وكتاب «الفصوص» له أيضا، كما يوجد بعض من ذلك فى كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب.

* * *

ثانيا : التفسير الصوفي أو الإشارى

● **حقيقته :**

التفسير الفيضي أو الإشاري . . هو تأويل آيات القرآن الكريم علي خلاف ما يظهر منها بمقتضي إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة .

● **الفرق بينه وبين التفسير الصوفي النظري :**

وعلي هذا فالفرق بين التفسير الصوفي الإشاري والتفسير الصوفي النظري من وجهين :

أولا : أن التفسير الصوفي النظري، ينبي علي مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

أما التفسير الإشاري . . فلا يرتكز علي مقدمات علمية بل يرتكز علي رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتي يصل إلي درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل علي قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية .

ثانيا : أن التفسير الصوفي النظري ، يري صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعاني، وليس وراءه معني آخر يمكن أن تحمل الآية عليه . . هذا بحسب طاقته طبعاً .

أما التفسير الإشاري . . فلا يري الصوفي أنه كل ما يراد من الآية، بل يري أن هناك معني آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شئ ، وذلك هو المعني الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره .

● **هل للتفسير الإشاري أصل شرعي ؟**

ربما يجول بخاطر القارئ الكريم هذا السؤال وهو : هل للتفسير الإشاري أصل شرعي يقوم عليه، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة وذيوع طريقتهم؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول :

لم يكن التفسير الإشاري بالأمر الجديد في إبراز معاني القرآن الكريم بل هو أمر معروف من لدن نزوله علي رسول الله ﷺ أشار إليه القرآن ونبه عليه الرسول عليه الصلا والسلام، وعرفه الصحابة رضوان الله تعالي عليهم وقالوا به .

أما إشارة القرآن إليه، ففي قوله تعالي في الآية (٧٨) من سورة النساء : ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ ، وقوله في الآية (٨٢) منها أيضا : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ ، وقوله في الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾

فهذه الآيات كلها تشير إلي أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالي حيث ينعي علي الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً ، ويحضهم علي التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم علي فهم ظاهره لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك. وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب وحضهم علي أن يتدبروا في آياته حتي يقفوا علي مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم. (١)

وأما تنبيه الرسول ﷺ ، فذلك في الحديث الذي أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، وكل حد مطلع) وفي الحديث الذي أخرجه الديلمي من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعا إلي رسول الله ﷺ أنه قال: (القرآن تحت العرش ، له ظهر وبطن يحاج العباد).

ففي هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء في بيان ذلك:

فقيل: ظاهرها - أي الآية - لفظها . وباطنها: تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القصص التي قصها الله تعالي عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين ،وحديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم.. ،ولكن هذا خاص بالقصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

وحكي ابن النقيب قولاً ثالثا: وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل في معني الظهر والبطن. وأما قوله في الحديث الأول: « ولكل حرف حد » فمعناه علي ما قيل: لكل حرف حد، أي منتهي فيما أراد الله من معناه، أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب والأول أظهر، وقوله: « ولكل حد مطلع ».، معناه علي حكم ما قيل أيضا: لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلي معرفته ويوقف علي المراد به. وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة . والأول أظهر أيضاً.

وأما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل علي أنهم عرفوا التفسير الإشاري وقالوا به، أما الروايات الدالة علي أنهم يعرفون ذلك فمنها:

---

(١) انظر الموافقات: ٣ / ٣٨٢ - ٣٨٣.

ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أخبر فيه بعنف هوي، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء».

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتي يجعل للقرآن وجوهاً».

وعن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن». وهذا الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وأما الروايات الدالة علي أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشاريا، فما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما أنه قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١].. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئافقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا . قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:٣].. فقال عمر: ما أعلم إلا ما تقول» (١).

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس وعمر، فقد فهما معني آخر وراء الظاهر، هو المعني الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وأيضا ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالي في الآية (٣) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾. فرح الصحابة وبكي عمر رضي الله تعالي عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة: «أن عمر رضي الله تعالي عنه لما نزلت الآية بكي، فقال النبي ﷺ (ما يبكيك)؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شئ قط إلا نقص، فقال عليه الصلاة والسلام: «صدقت» (٢).

---

(١) البخاري، باب التفسير: ٦/ ١٧٩.
(٢) تفسر الألوسي: ٦/ ٦٠.

فعمر رضي الله عنه أدرك المعني الإشاري: وهو نعي رسول الله ﷺ وأقره النبي علي فهمه هذا.. وأما باقي الصحابة، فقد فرحوا بنزول الآية لأنهم لم يفهموا أكثر من المعني الظاهر لها.

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن.. ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي... وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور. ولقد فهم ابن مسعود أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً فقال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» وإلي هذا أشار الله تعالي بقوله: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [يوسف:١١١].

● **التفاوت في إدراك المعاني الباطنة وإصابتها:**

غير أنه هذه المعاني المتكاثرة التي يشمل عليها باطن القرآن لم تكن في متناول المفسرين جميعاً، كما أنهم لم يكونوا متساوين في القدر الذي أدركوه منها، بل تفاوتوا في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعاً مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، بل أصابوا في بعض منها وأخطأوا في بعض آخر، وما أخطأوا فيه: بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر علي ما به، قالوا بالباطن أيضا، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن علي ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة.. والباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن علي ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية.. أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا، فبينما تجد لهم أفهاماً مقبولة سائغة، تجد لهم بجوارها أفهاماً لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضي بها الشرع، ولهذا أري أن استعرض بعض ما للقوم من أفهام في التفسير، ثم أحكم عليها حكما مجرداً عن كل شئ إلا عن الحق والإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشاري، وهي الشروط التي إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة في نفوسنا أو في نفوس القوم.

● **التفسير الإشاري في الميزان:**

قلنا: إن القرآن له ظهر وبطن وذكرنا لك أهم الأقوال في معني الظاهر

والباطن، ومهما يكن من شئ فإن ظاهر القرآن - وهو المنزل بلسان عربي مبين - هو المفهوم العربي المجرد. وباطنه هو مراد الله تعالي وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، هذا هو خير ما يقال في معني الظاهر والباطن.

وعلي ذلك نقول: إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، والمنازع البلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الإنسان مثلاً الفرق بين (ضيِّق) في قوله تعالي في الآية (١٢٥) من سورة الأنعام ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلَّه يجعل صدره ضيِّقا حرجا كأنَّما يصَّعَّد في السَّماء** ﴾. وبين (ضائق) في قوله تعالي في الآية (١٢) من سورة هود: ﴿ **فلعلَّك تاركٌ بعض ما يوحىٰ إليك وضائقٌ به صدرك أن يقولوا لولا أُنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ** ﴾.. وعرف أن (ضيِّق) صفة مشبهة دالة علي الثبوت والدوام في حق من يرد الله أن يضله، وأن (ضائق) اسم فاعل يدل علي الحدوث والتجدد وأنه أمر عارض له ﷺ إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذن فلا يشترط في فهم ظاهر القرآن زيادة علي الجريان علي اللسان العربي، وإذن كل معني مستنبط من القرآن غير جار علي اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شئ.. لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به. ومن ادعي فيه ذلك فهو مبطل في دعواه.

أما المعني الباطن، فلا يكفي فيه الجريان علي اللسان العربي وحده، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالي في قلب الإنسان يصير به نافذ البصر سليم التفكير، ومعني هذا أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجا عن مدلول اللفظ القرآني، ولهذا اشترطوا لصحة المعني الباطن شرطين أساسين.

أولهما: أن يصح علي مقتضي الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري علي المقاصد العربية.

وثانيهما: أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً، إذ ليست نسبته إليه علي أنه مدلوله أولي من نسبة ضده إليه. ولا مرجح يدل علي أحدهما، فإثبات أحدهما تحكم وتقول علي القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم.

وأما الشرط الثاني: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان وله معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعي علي القرآن، والدعوي المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء (١).

إذا توافر هذان الشرطان في معني من المعاني الباطنة قُبل، لأنه معني باطن صحيح، وإلا رفض رفضا باتا، لأنه معني باطن فاسد وتقوُّل علي الله بالهوي والتشهي.

إذا عرفنا هذا كله ثم ذهبنا نستعرض علي ضوئه أقوال القوم في معاني القرآن الباطنية، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح، وكثير منها أيضا هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض، وكبري المشاكل أن بعضها منسوب إلي رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية ودينية في نفوسنا، بل وبعضها منسوب إلي رجال من الصحابة، وهم أعرف الناس بكتاب الله وما يحويه من المعاني والأسرار.

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول: ما جاء في قوله تعالي في الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾.. من قول سهل التستري: ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾ أي أضداداً، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء المتطلعة إلي حظوظها ومناها بغير هدي من الله) (٢).

فهذا القول من سهل يشير إلي أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد حتي لو فصل لكان المعني: فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنماً، ولا شيطاناً، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا.. وهذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل علي أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنماً أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخذوها أرباباً من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك:

إن الناظر في القرآن الكريم، قد يأخذ من معني الآية معني باب الاعتبار، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه،وسهل التستري - رحمه الله - حين قال في الآية ما قال، لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتي بما هو ند في الاعتبار الشرعي، وذلك أن حقيقة الند: أنه المضاد لنده الجاري علي مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعني به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعني بعينه، وعلي هذا فلا غبار علي قول سهل في الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين

---

(١) الموافقات: ٣ / ٣٩٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤.

– جهة حمل الأنداد علي الأنفس الأمارة – اعتباراً، وجهة كون الخطاب – وإن كان موجهاً للمشركين – فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولي: فقوله تعالي في الآية (٣١) من سورة التوبة: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ .. وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله. ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾. وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوي نفسه.

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية: فهو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** ﴾؟ وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالي: ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ** ﴾ [الأحقاف: ٢٠]... الآية، فعمر رضي الله عنه، له في الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معني أجري الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذراً منه وخوفا أن يكون التوسع في المباحات سبباً في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمر رضي الله عنه أن ينزل الآية علي المتوسعين في المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضا أن ينزل الآية علي النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك.

ومن ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ .. من قول سهل رحمه الله: «لم يرد الله معني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معني مساكنة الهمة لشئ هو غيره.. أي لا تهتم بشئ هو غيري، قال: فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كل من ادعي ما ليس له وساكنه قلبه ناظراً إلي هوي نفسه، لحقه الترك من الله عز وجل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله، فيعصمه من تدبيره وينصره علي عدوه وعليها.. قال وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلي تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة،ألا تري أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلي ما وسوست به نفسه، فغلب الهوي والشهوة العلم والعقل والبيان ونور القلب، لسابق القدر من الله تعالي، كما قال عليه السلام، «الهوي والشهوة يغلبان العلم والعقل» (١).

وبالنظر في كلام سهل هذا نري أنه ادعي في الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص١٦ – ١٧.

المراد النهي عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله. وإن كان هذا منهياً عنه أيضاً، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذي قاله سهل وجه يجري عليه، وذلك أن النهي في الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجرداً، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة، ولأنه لم يقل به أحد، وإنما النهي عن معنى في القرب وهو إما التناول والأكل. وإما غيره وهو شئ ينشأ الأكل عنه.

وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل في تحصيل الأكل، ولاشك في أن السكون لغير الله لجلب منفعة أو دفع مفسدة منهي عنه.

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول: لم يقع النهي عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهي الله عنه لكان ساكناً لله وحده، فلما لم يفعل وسكن إلى أمر في الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود في الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال في الآيتين (١٢١ - ١٢٢) من سورة طه: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾.

مثل هذا - وهو كثير في كلام الصوفية - لا نعدم له وجهاً نحمله عليه حتى يكون تفسيراً صحيحاً ومقبولاً.

ولكن هناك أقوال لهم في التفسير الإشاري يقف أمامها العقل حائراً وعاجزاً عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة، فمن ذلك.

ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر ﴿الم﴾ فقال: (الألف: الله، واللام جبريل، والميم: محمد ﷺ.. وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام)(١).

وهذا إن صح نقله فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهوداً في كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظي أو الحالي كقول الشاعر:

* فقلت لها قفي فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شراً فا ... ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شراً فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألا تا ... قالوا جميعاً كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون. قالوا: ألا فاركبوا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص١٢.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «كفي بالسيف شا» أراد شافياً [١].

.... ولكن أين الدليل علي ما ذكر في قوله: ﴿ آلم ﴾؟

علي أنه لم يقم دليل من الخارج يدل علي هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي علي نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه.... ولما لم يثبت شئ من ذلك دل علي أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

ومثل هذا المروي عن ابن عباس – ولعله أشكل منه – ما قاله سهل التستري في تفسيره للبسملة حيث قال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾. الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، والله هو الاسم الأعظم الذي حوي الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكني غيب من غيب إلي غيب، وسر من سر إلي سر، وحقيقة من حقيقة إلي حقيقة لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الأخذ من الحلال قواماً ضرورة الإيمان، والرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكني بين الألف واللام، والرحيم: هو العاطف علي عباده بالرزق في الفرع، والابتداء في الأصل، رحمة لسابق علمه القديم» [٢].

وما فسر به ﴿ آلم ﴾. فاتحة البقرة وهو قوله: ﴿ آلم ﴾ اسم الله عز وجل، فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة، فأما هذه الحروف إذا انفردت، فالألف: تأليف الله عز وجل. ألف الأشياء كما شاء، واللام: لطفه القديم. والميم: مجده العظيم)، وقال: (لكل كتاب أنزله الله تعالي سر، وسر القرآن فواتح السور، لأنها أسماء وصفات، مثل قوله: ﴿ آلمص ﴾، و﴿ آلر ﴾، و ﴿ آلمر ﴾، و ﴿ كهيعص ﴾، و﴿ حمعسق ﴾، و ﴿ طسم ﴾، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلي بعض كانت اسم الله الأعظم، أي إذا أخذ من كل سورة حرف علي الولاء، أي علي ما أنزلت السورة وما بعدها علي النسق: ﴿ آلم ﴾، و﴿ حم ﴾، و﴿ ن ﴾ معناه: الرحمن وقال ابن عباس والضحاك: ﴿ آلم ﴾: معناه أنا الله أعلم. وقال علي رضي الله عنه: هذه أسماء مقطعة، إذ أخذ من كل حرف حرفاً لا يشبه صاحبه فجمعن كان اسم من أسماء الرحمن، إذا عرفوه ودعوه به كان الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب» [٣].

وكما قاله أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير: ﴿ آلم ﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: ﴿ آلم ﴾.. قيل: إن الألف ألف الوحدانية، واللام: لام اللطف والميم: ميم الملك، معناه: من وجدني علي الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له.. فأخرجته من

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١/ ١٥٥ – ١٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري: ٩ –١٢.

(٣) المرجع السابق.

رق العبودية إلي الملأ الأعلي، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشئ من الملك.. وقيل: ﴿آلم﴾ .. معني الألف: أي أفرد سرك، واللام: ليت جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفات الأنس بي، والمشاهدة إياي والقرب مني»(١).

فهذا الذي قاله سهل التستري والذي قاله أبو عبد الرحمن السلمي مشكل كالمروي عن ابن عباس، بل وأعظم منه إشكالاً حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلي أسرار غيبية ومعان مكنية، وإذا جمعت هذه الحروف علي طريقة مخصوصة كان كذا وكذا، بل ويدعون أحيانا أن هذه الحروف هي أصل العلوم ومنبع المكاشفات علي أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلي أنه مراد الله تعالي في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئاً من ذلك، وهذه كلها دعاوي يدعونها علي القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلي دليل برهاني أو إقناعي، وكل ما أقوله فيها: إنها دعاوي محالة علي الكشف والإطلاع، ودعوي الكشف والإطلاع لا تصلح دليلاً شرعياً بحال من الأحوال.

ومن المواضع المشكلة أيضاً، ولكنها أخف إشكالاً مما مر.. ما جاء عنهم من نحو تفسير سهل التستري لقوله تعالي في الآية (٩٦) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ... الآية، بقوله: «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس»(٢).

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة النساء: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ .. حيث يقول - بعد ذكره للتفسير الظاهر: «وأما باطنها، فالجار ذي القربي: هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله» (٣).

وتفسيره لقوله تعالي في الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ .. بقوله: (مثل الله الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر، وهم أعم نفعاً وأكثر خطراً، هذا هو باطن الآية، ألا تري أن القلب إنما سمي قلباً لتقلبه وبعد غوره»؟ (٤).

وتفسير ابن عطاء الله السكندري لقوله تعالي في الآية (٣٣) من سورة يس: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بقوله: «القلوب

---

(١) حقائق التفسير ص٩.
(٢) تفسر القرآن العظيم للتستري ص٤١ - ٤٥.
(٣) المرجع السابق.
(٤) تفسير القرآن العظيم للتستري ص٤١-٤٥.

الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حباً معرفة صافية تضئ أنوارها علي الظاهر والباطن» (١).

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التي تحمل عليها لا غير، لكان هو بعينه مذهب الباطنية، وذلك لأن المعاني التي حملوا عليها الألفاظ في الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقي ولا بالوضع المجازي المناسب، وليس في مساق الآيات ما يدل علي هذه المعاني المذكورة ومعلوم أن القرآن عربي ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفاً لا يفهم منها العربي أكثر من المعاني المتبادرة إلي فهمه ، والتي تنساق إلي ذهنه ابتداء فلا يفهم من البيت الحرام، ولا من الجار ذي القربي، والجار الجنب، والصاحب بالجنب . وابن السبيل ولا من البر والبحر، ولا من الأرض والحب، إلا ما يفهمه العربي من هذه الألفاظ، وما وراء ذلك فليس عليه دليل.

وأيضاً لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفا لنقل ، لأنهم أدري بمعاني القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة، وغير معقول أن يأتي آخر هذه الأمة بأهدي مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدري بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلي لغتهم.

ولكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين ووثوقنا بهم من الناحية العلمية والدينية واعترافهم في تفاسيرهم – التي نقلنا عنها – بالمعاني الظاهرية للقرآن وإنكارهم علي من يقول بباطن القرآن دون ظاهره.. كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم ، فنحمل أمثال هذه المعاني علي أنها ليست من قبيل التفسير، وإنما هي ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير كما قال ابن الصلاح في فتاواه (٢).

● **مقالة الشاطبي في التفسير الإشاري:**

ولزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبي في هذا الموضوع:

قال رحمه الله: الاعتبارات القرآنية الواردة علي القلوب، الظاهرة. للبصائر، إذا صحت علي كمال شروطها فهي علي ضربين:

أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

---

(١) حقائق التفسير للسلمي ص٢٨٤.   (٢) فتاوي ابن صلاح ص٢٩.

والثاني: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئيها أو كليها، ويتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول.. فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآن قلما يجده إلا من كان من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه، ويلزمه من ذلك أن يكون معتداً به، لجريانه على مجاريه. والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثاني.. فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره في فهم القرآن، فنقول:

إن تلك الأنظار الباطنة في القرآن في الآيات المذكورة - يريد: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء:٣٦] وما ذكره معها - مما تقدم لنا ذكره - إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهي راجعة إلى الاعتبار غير القرآني وهو الوجودي (١) ويصح تنزيله على معاني القرآن لأنه وجودي أيضا. فهو مشترك من تلك الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطلبه المربي، وهو أمر خاص منفرد بنفسه، لا يختص بهذا الموضع. فلذلك يوقف على محله، فكون القلب جاراً ذا قربى، والجار الجنب هو النفس الطبيعي.. إلى سائر ما ذكر يصح تنزيله اعتباريا مطلقا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض في هذا النمط صحيح وسهل جداً عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ.

---

(١) مثال الاعتبار الخارجي: ما يروونه عن بعضهم في معنى قوله تعالى في الآية (٣) من سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: ألف شهر: هي مدة الدولة الأموية، لأنها مكثت ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وأن ذلك من الله تسلية لرسوله ﷺ حيث أطلعه على ملوك بني أمية واحدا واحدا، فسري عنه بهذه السورة.

هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج والواقع في ذاته، بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه. لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود» (انتهى من هامش الموافقات:٣/ ٤٠٤).

وأيضا فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعني المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه وسكت عن كونه هو المراد، وإن جاء شئ من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآني والوجودي، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد في السلوك، سائر علي الطريق، لم يتحقق بمطلوبه. ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم »(١).

فالشاطي – رحمه الله – يقرر في كلامه هذا: أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلي الاعتبار غير القرآني، ومع ذلك يمكن تنزيله علي معاني القرآن، كما أنه يقرر: أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله علي أنه تفسير للآية وبيان للمقصود منها، وهذا من حسن ظنه بالقوم.

● **مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري:**

وإذا نحن رجعنا إلي أقوال العلماء التي قالوها في تفسير الصوفية وجدناها جميعاً تقوم علي حسن الظن بهم، وإليك بعضاً منها:

* **مقالة ابن الصلاح:**

قال ابن الصلاح في فتاواه – وقد سئل عن كلام الصوفية في القرآن «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالي أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي(حقائق التفسير)، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في الآية المذكورة – يريد قوله تعالي في الآية (١٢٣) من سورة التوبة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ** ﴾ .. فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»(٢).

* **مقالة سعد الدين التفتازاني:**

وقد علق التفتازاني علي قول النسفي في كتابه (العائد): «والنصوص علي ظواهرها، فالعدول عنها إلي معان يدعيها أهل الباطن إلحاد» فقال رحمه الله: «وسموا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست علي ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية».. ثم قال: «وأما ما يذهب إليه بعض

---

(١) الموافقات: ٣/٤٠٣ – ٤٠٥.

(٢) فتاوي ابن صلاح ص٢٩.

المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلي دقائق تنكشف علي أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»(١) .

* **مقالة ابن عطاء الله السكندري:**

ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري أنه قال في كتابه (لطائف المنن) «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله ولكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن»، فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله.. فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معني للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر علي ظواهرها مراداً بها موضاعاتها ويفهمون عن الله تعالي ما أفهمهم» (٢) .

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التي قالوها في القرآن علي أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو علي أنها إشارات خفية، ومعان إلهامية، تنهل علي قلوب العارفين، وتزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقي لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التي نقلت عنهم، وهذا عمل حسن وصنع جميل من هؤلاء العلماء، وقد تابعناهم عليه حملاً لحال المؤمن علي الصلاح.. ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم علي أثر تلك المقالة التي قرأناها لابن عربي في فتوحاته.. وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية في كتاب الله ليست إلا تفسيراً حقيقياً لمعاني القرآن، وشرحاً لمراد الله من ألفاظه وآياته، ويذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية والمدارة لعلماء الرسوم أهل الظاهر..، وفي هذه المقالة يحمل حملة شعواء علي أهل الرسوم – علي حد تعبيره – الذين ينكرون عليه وعلي غيره من الصوفية. وإليك ما قاله بالنص لتقف علي رأيه الصريح الذي لا مواربة فيه ولا التواء.

* **مقالة ابن عربي في التفسير الإشارى:**

قال رحمه الله: «اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطواراً، فمنا العالم والجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه، ومنا الرئيس والمرؤوس، ومنا الأمير والمأمور،

---

(١) العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازاني ص١٤٢ .

(٢) الاتقان: ٢ / ١٨٥ .

ومنا الملك والسوقة، ومنا الحاسد والمحسود.. وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم علي أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام. لما كان الأمر في الوجود الواقع علي ما سبق به العلم القديم - كما ذكرنا - عدل أصحابنا إلي الإشارات. فكلامهم - رضي الله عنهم - في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلي نفسهم مع تقريرهم إياه في العموم، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالي: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ [فصلت:٥٣].. يعني الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه في نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلي ذلك، ولايقولون في ذلك إنه تفسير، وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا في ذلك بسنن الهدي، فإن الله كان قادراً علي تنصيص ما تأوله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل، بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم.

ولو كان علماء الرسوم ينصفون، لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك، ويعلو بعضهم علي بعض في الكلام في معني تلك الآية، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها، وكلهم في مجري واحد. ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك. ينكرون علي أهل الله إذا جاءوا بشئ مما يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء، وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف، وصدقوا، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحماني الرباني قال تعالي ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق:١-٥] فأنه القائل: ﴿ **أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ [النحل:٧٨] وقال تعالي: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن:٣-٤] فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، والله يقول في حق الرسول: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ** ﴾ [النساء:١١٣]، وقال في حق عيسي: ﴿ **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ [آل عمران:٤٨]، وقال

في حق خضر صاحب موسي عليهما السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥].. فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا: إن العلم لا يكون إلا بالتعلم، وأخطأوا في اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبي ولا رسول، يقول الله: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة:٢٦٩] وهي نكرة. ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا علي الآخرة، وآثروا جانب الخلق علي جانب الحق، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم، ورأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولي الله تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه وعلي ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لايشك مؤمن في كمال علمه ولا غير مؤمن، فإن الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه، وإنما قصدوا بذلك أنه تعالي لا يتجدد له علم بشئ، بل علمها مندرجة في علمه بالكليات، فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه سبحانه في ذلك وإن أخطأوا في التعبير عن ذلك، فتولي الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس:٨]، في أثر قوله: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** ﴾ [الشمس:٧]، فبين لها الفجور من التقوي إلهاما من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوي.

وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله علي أنبيائه، كان تنزيل الفهم علي قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت علي الله ما لم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها، ولا تعلمت فيه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالي: ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾، وقال فيه: إنه ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. (علي التقديم والتأخير) وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله، لا من فكر الإنسان ورويته - وعلماء الرسوم يعلمون ذلك - فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضاً تنزيلاً من عند الله علي قلوب أهل العلم كما كان الأصل. وكذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب: «ما هو إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن». فجعل ذلك عطاء من الله، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولي به من غيرهم، فلما رأي أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم، وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون - وهم في إنكارهم علي أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعاً - سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل، كما قال القائل:

سوف تري إذا انجلي الغبار أفـرس تحتـك أم حمـار

كما يتميز المحق من أهل الله، من المدعي في الأهلية غدا يوم القيامة وقال بعضهم:

فإذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكي ممن تباكي

أين عالم الرسوم من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقراً؟ هل هذا إلا من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن؟ فاسم الفقيه أولي بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].. فأقامهم مقام الرسول في التفقه في الدين والإنذار ، وهو الذي يدعو إلي الله علي بصيرة كما يدعو رسول الله ﷺ علي بصيرة، لا علي غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله علي بصيرة منه في دعائه إلي الله وهو علي بينة من ربه، وبين من يفتي في دين الله بغلبة ظنه».

ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهمني ربي،، ويري أنه أفضل منه، وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقي في سري مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه في هذا المقام – يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. عن فلان: وأين هو؟ قالوا: مات. وكان الشيخ أبو مدين – رحمه الله – إذا قيل له: قال فلان، عن فلان، عن فلان يقول: «ما نريد نأكل قديداً أئتوني بلحم طري – يرفع همم أصحابه – فأولئك أكلوه لحماً طرياً، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد».

والفيض الإلهي والمبشرات ما سد بابها، وهي من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع ، والله يهرول لتلقي من أتي إليه يسعي، وما يكون من نجوي ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب – مع دعواك العلم بذلك والإيمان به – لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه، فتكون حديث عهد بربك»[1].

(١) الفتوحات المكية:١/٢٧٩–٢٨٠.

● **رأينا في مقالة ابن عربي:**

ونحن لا ننكر علي ابن عربي أن ثم أفهاماً يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبابه .، ويخصهم بها دون غيرهم، علي تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبياناً لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربي القرآني ، وأن يكون لها شاهد يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله علي أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالي، لأن القرآن عربي قبل كل شئ كما قلنا، والله سبحانه وتعالي يقول في شأنه: ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [فصلت:٣]. وحاشا لله أن يلغز في آياته، أو يعمي علي عباده طريق النظر في كتابه، وهو يقول: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧] (١).

هذا هو ما أدين الله عليه بالنسبة لكلام الصوفية .، وعذري في ذلك أني لم أسلك مسلك القوم، ولم أذق ذوقهم، ولم أعرف اصطلاحاتهم التي يصطلحون عليها، ولعلي إذا سلكت هذا الطريق، وانكشف لي من آستار الغيب ما انشكف لهم، أو علي الأقل فهمت لغة القوم ووقفت علي مصطلحاتهم . لعلي إذا حصل لي شئ من هذا تبدل رأيي وتغير حكمي فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيدا وغريباً، وقد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائبة ابن الفارض فقال له: «دع هذا، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأي ما رأوا» (٢).

يقولون: إنهم يدركون بعض المعاني بعين اليقين، وما من شأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، إذن فلابد لمن يريد أن يحكم علي القوم حكماً صحيحاً أن يجتهد في الوصول إلي ما وصلوا إليه بالعيان ، دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، والشاعر يقول:

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف (٣)

ويقول ابن خلدون: «وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات» (٤).

ويقول الألوسي في مقدمة تفسيره (الجزء الأول ص ٨) «فالإنصاف كل الإنصاف

---

(١) وفي مواضع أخري من السورة نفسها.
(٢) شذرات الذهب: ٥/ ١٩١.
(٣) كشف الظنون: ١/ ٢٢٢.
(٤) مقدمة ابن خلدون ص٥٢٥.

التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه، و اتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل – لكثرة العوائق – إليه:

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

ويقول الألوسي أيضا بعد أن نقل عن ابن عربي ما قاله في تفسير الفاتحة في فتوحاته: « فإذا وقع الجدار، وانهدم الصور، وامتزجت الأنهار والتقي البحران، وعدم البرزخ، وصار العذاب نعيماً، وجهنم جنة، ولا عذاب ولا عقاب، إلا نعيم وأمان، بمشاهدة العيان » .. إلخ. يقول الألوسي بعد نقله لهذا الكلام الغريب: « وهذا وأمثاله محمول علي معني صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافي ما وردت به القواطع: ثم قال: وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، ،وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالي، فسلمه لهم بالمعني الذي أرادوه، مما لا تعلمه أنت ولا أنا لا بالمعني الذي يتقدح في عقلك، المشوب بالأوهام، فالأمر والله وراء ذلك » (١).

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا علي قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت في البعد والغرابة، وتورط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير ما لهم في نفوسنا من المكانة العلمية والدينية، ومهما يكن من شئ فأنا عند رأيي لا أتحول عنه، حتي إذا ما جعت جوع القوم وسهرت سهرهم، ووجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل ما يقولون (ومن ذاق عرف).

والخلاصة .. أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، ولم يذيعوها علي الناس فيوقعوهم في حيرة واختلاف، منهم من يأخذها علي ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير علي خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبها علي الإطلاق، ويري أنها تقول علي الله وبهتان، ليتهم فعلوا ذلك، إذن لأراحونا من هذه الحيرة، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، وقذف البعض لهم الكفر والإلحاد في آيات الله!!

● شروط قبول التفسير الإشاري:

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشاري منه ما هو مقبول، ومنه ما ليس بمقبول، فعلينا بعد ذلك أن نذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في التفسير الإشاري – وإن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق – حتي يكون تفسيراً مقبولاً وإليك هذه الشروط:

أولا: أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني الكريم .

---

(١) تفسير الألوسي: ١ / ١٤٢ – ١٤٣ .

ثانياً: أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

ثالثاً: أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

وهذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلي إعادة توضيحها.

رابعاً: أن يدعي أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، بل لابد أن نعترف بالمعني الظاهر أولاً، إذ لا يطمع في الوصول إلي الباطن قبل أحكام الظاهر «ومن ادعي فهم أسرار القرآن ولم يحكِّم التفسير الظاهر فهو كمن ادعي البلوغ إلي صدر البيت قبل أن يجاوز الباب» (١).

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض المتصوفة من أنه فسر قوله تعالي في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ فقال: معناه: (من ذل) من الذل (ذي) إشارة إلي النفس (يشف) من الشفاء(ع) أمر من الوعي(٢).

وما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالي في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. فجعل (لمع) فعلاً ماضياً بمعني أضاء، و(المحسنين) مفعوله (٣).

هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله، والله تعالي يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ [فصلت: ٤٠].. قال الألوسي في تفسير هذه الآية: «أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها علي المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: «يضعون الكلام في غير موضعه»(٤).

هذه هي الشروط التي إذا توفرت في التفسير الإشاري كان مقبولاً، ومعني كونه مقبولاً عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية.

وأما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم علي دليل ولا تستند إلي برهان، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه، وسر بينه وبين ربه. فله أن يأخذ به ويعمل علي مقتضاه، دون أن يلزم به أحداً من الناس سواه.

* * *

---

(١) الإتقان: ٢ / ١٨٤.
(٢) الإتقان: ٢ / ١٨٤.
(٣) مبادئ التفسير للخضري ص ٩.
(٤) تفسير الألوسي: ٢٤ / ١١٢.

أهم كتب التفسير الإشاري

من العلماء مَن وجه همته إلي التفسير الظاهر ولم يتعرض للتفسير الإشاري كالبيضاوي ، والزمخشري مثلاً .

ومنهم من جعل غالب همه في التفسير الظاهر وتعرض للتفسير الإشاري بقدر، كما فعل النيسابوري، والألوسي .

ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشاري، ومع ذلك فهو يتعرض أحياناً للتفسير الظاهر،كما فعل سهل التستري .

ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشاري، ولم يحم حول المعاني الظاهر، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي .

ومنهم من أعراض عن الظاهر وجمع في تفسيره بين التفسير الصوفي النظري والتفسير الصوفي الإشاري، كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربي .

وليس ضرورياً أن نتكلم عن تفسير النيسابوري والألوسي من ناحية ما فيهما من التفسير الإشاري، لأنهما أقرب إلي أهل الظاهر منهما إلي أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشاري أمراً عارضاً وتابعاً لغيره، وقد سبق الكلام عنهما في كتب التفسير بالرأي المحمود .

ويكفي هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم أو جلها نحو التفسير الإشاري . وإليك أهم هذه الكتب :

* * *

١ - تفسير القرآن العظيم (للتستري)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير :**

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسي بن عبد الله، التستري، المولود بتُستَر [١] سنة ٢٠٠ هـ (مائتين) وقيل سنة ٢٠١ (إحدي ومائتين من الهجرة) .

كان – رحمه الله – من كبار العارفين، ولم يكن له في الورع نظير وكان صاحب كرامات، ولقي الشيخ ذا النون المصري – رحمه الله – بمكة وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة . أقام بالبصرة زمناً طويلاً، وتوفي بها سنة٢٨٣هـ (ثلاث وثمانين ومائتين) قيل سنة ٢٧٣هـ (ثلاث وسبعين ومائتين)، فرحمه الله رحمة واسعة . [٢]

---

(١) تستر– بضم التاء الأولي، وسكون السين المهملة، وفتح التاء الثانية – بلد من الأهواز .

(٢) انظر وفيات الأعيان : ١ / ٣٨٩ .

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة. ويظهر لنا أن سهلاً - رضي الله عنه - لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هي أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، المذكور في أول الكتاب، الذي يقول كثيراً: قال أبو بكر: سئل سهل عن معني كذا. فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فتجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معني ظاهر القرآن وباطنه، ومعني الحد والمطلع، فيقول: «ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب علي المراد بها. فقهاً من الله عز وجل. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص.. قال تعالي في الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾: أي لايفقهون خطابا»(١).

ويقول في موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالي ما استولي ولياً من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن، إما ظاهرا وإما باطناً. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد»(٢).

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلا التستري يري: أن الظاهر هو المعني اللغوي المجرد، وأن الباطن هو المعني الذي يفهم من اللفظ ويريده الله تعالي من كلامه.. كما نأخذ منه: أنه يري أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليها كل من يعرف اللسان العربي، أما المعاني الباطنية، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه. كذلك نجد سهلاً - رضي الله عنه - لم يقتصر في تفسيره علي المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحيانا المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعاني الإشارية، وقد يقتصر أحيانا علي المعني الإشاري وحده، كما يقتصر أحيانا علي المعاني الظاهري، بدون أن يعرج علي باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعاني الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله، بل تارة بالمعاني الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله تعالي، وذلك كالمعاني التي نقلناها عنه

---

(١) ص ٣.

(٢) ص ٧ ولعلك تجد في هذه العبارة ما يؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع أحد تلاميذه: أبو بكر محمد بن أحمد البلدي.

سابقاً في معني البسملة و(آلم) فاتحة البقرة، وتارة يأتي بالمعاني الغريبة التي يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره.

كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحي تزكية النفوس، وتطهير القلوب، والتحلي بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة.. وكثيراً ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره، كما أنه يتعرض في بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد علي ظاهر اللفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره.

في سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٤٨): ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ** ﴾ يقول ما نصه: «عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس»(١).

وفي سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٧٨ – ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾.. يقول ما نصه: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ أي الذي خلقني لعبوديته يهديني إلي قربه، ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** ﴾ قال: يطعمني لذة الإيمان ويسقيني شراب التوكل والكفاية ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ قال يعني إذا تحركت بغيره لغيره عصمني، وإذا ملت إلي شهوة الدنيا منعها علي، ﴿ **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ قال: الذي يميتني ثم يحييني بالذكر، ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ قال: أخرج كلامه علي شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة»(٢).

وفي سورة الصافات عند قوله تعالي في الآية (١٠٧): ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ قال ما نصه: «إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتي أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم»(٣).

فهذه المعاني كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلي اللفظ القرآني بدون

---

(١) صفحة: ٦٠ (٢) صفحة: ١٠٦. (٣) صفحة: ١٢٠.

معارضة شرعية أو عقلية.. والكتاب – في الغالب – يسير علي هذه الطريقة، وهي لا شوب فيها.

٢ – حقائق التفسير (للسلمي)

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسي الأزدي السلمي، المولود سنة ٣٣٠هـ (ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك.

كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولي في التصوف، والعلم الغزير، والسير علي سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه فكان موفقاً في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف. وكان علي جانب عظيم من العلم بالحديث، حتي قيل: إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة. وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنف سنناً لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيري، وغيرهما، ولقد خلف – رحمه الله – من الكتب ما يزيد علي المائة: منها ما هو في علوم القوم، ومنها ما هو في التاريخ ومنها ما هو في الحديث، ومنها ما هو في التفسير.

ولكن السلمي مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه،قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابوري القيطان: كان السلمي غير ثقة، يضع للصوفية، وكأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: «قدر أبي عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محموداً صاحب حديث».

قال ابن السبكي صاحب طبقات الشافعية: «قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه» هذا.. وقد كانت وفاته سنة ٤١٢هـ (اثنتي عشرة وأربعمائة من الهجرة)، فرحمه الله رحمة واسعة [١].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يقع هذا التفسير في مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

قرأت في هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويغضي عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جري في جميع ما كتبه علي نمط واحد، وهو التفسير الإشاري،

---

(١) رجعنا في هذه الترجمة إلي طبقات المفسرين للسيوطي ص٣١، وإلي طبقات الشافعية للسبكي: ٣/ ٦٠ – ٦٢.

وهو إذ يقتصر علي ذلك لا يعني أن التفسير الظاهر غير مراد، لأنه يصرح في مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمي. لم يكن له مجهود في هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلي بعض، ورتبها علي حسب السور والآيات، وأخرجها للناس في كتاب سماه (حقائق التفسير).

وأهم من ينقل عنه السلمي في حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندري، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله في مقدمته لتعلم أن السلمي حين اقتصر علي المعاني الإشارية لم يجحد المعاني الظاهرة للقرآن، ولتعلم أيضا أن مجهوده في هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب.

قال رحمه الله: « . . لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه علي لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلي أبي العباس ابن عطاء، وآيات ذكر أنها عن جعفر ابن محمد، علي غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلي مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلي ذلك، وأرتبه علي السور حسب وسعي وطاقتي، واستخرت الله في جمع شئ من ذلك، واستعنت به في ذلك وفي جميع أموري، وهو حسبي ونعم المعين» (١).

● طعن بعض العلماء علي هذا التفسير:

غير أن الاقتصار علي المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالاً للطعن علي هذا التفسير وعلي صاحبه من أجله، فالجلال السيوطي رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمي في كتابه (طبقات المفسرين) ضمن من صنف في التفسير من المبتدعة ويقول: «وإنما أوردته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود» (٢). والحافظ الذهبي رحمه الله يقول عن السلمي: « . . وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه. فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فستري العجب» (٣). ويقول السبكي في (طبقات الشافعية): »وكتاب حقائق

---

(١) ص: ١، ٢.
(٢) طبقات المفسرين ص٣١.
(٣) طبقات الشافعية للسبكي: ٣ / ٦١.

التفسير، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه علي ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها اللفظ » (١).

وقد مر بك آنفا أن الإمام أبا الحسن الواحدي قال: « صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر ».

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن علي تفسير السلمي من ناحية أخري فيقول: « وما ينقل في حقائق السلمي عن جعفر الصادق عامته كذب علي جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك » (٢).

● **رأينا في هذه الطعون:**

هذا.. وإن عد السيوطي السلمي في ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وما قاله الذهبي من أن ما في الحقائق تحريف وقرمطة - يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية - فهذا غير صحيح، لأن الرجل يقر الظواهر علي ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما ما قاله السبكي من أن السلمي قد اقتصر في حقائقه علي تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدي: إنه لو اعتقد أن ما في الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبدالرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، وإنما قال إنه إشارات تخفي وتدق إلا علي أربابها، كما صرح بذلك في مقدمة حقائق التفسير (٣).

وأما قول ابن تيمية: إن ما ينقل في حقائق السلمي من التفسير عن جعفر عامته كذب علي جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية، إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، ولست أدري كيف اغتر السلمي وهو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلفة الموضوعة.

● **نماذج من تفسير السلمي:**

وإذ قد فرغنا من الحديث علي حقائق التفسير فاسمع بعض ما جاء فيه لتحكم أنت بدورك عليه.

في سورة النساء عند قول الله تعالي في الآية (٦٦): ﴿ **لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ** ﴾.. يقول « قال محمد بن الفضل: ﴿ **اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ بمخالفة هواها، ﴿ **أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم** ﴾ أي أخرجوا

(١) طبقات الشافعية للسبكي: ٣ / ٦١. (٢) منهاج السنة: ٤ / ١٥٥. (٣) ص١.

حب الدنيا من قلوبكم﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في العدد ،كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة » (١).

وفي سورة الرعد عند قوله تعالي في الآية (٣): ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾.. يقول: «قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة فمن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومن كان بغتيه لغيرهم خاب وخسر. سمعت علي بن سعيد يقول: سمعت أبا محمد الحريري يقول: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعا من الأرض عالياً، فاستقبلني بوجهه وقال: يا أبا محمد إني لراجع إلي تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعراً:

وما أسفي من فراق قوم هم المصابيح والحصون
والمدن والمزن والرواسي والخير والأمن والسكون
لم تتغير لنا الليالي حتي توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب وكل ماء لنا عيون (٢)

وفي سورة الحج عند قوله تعالي في الآية (٦٣): ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.. يقول قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة، وفتح إلي قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فأخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلي سيدها، واشتاقت إلي ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، ذاك أواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس» (٣).

وفي سورة الرحمن عند قوله تعالي في الآية (١١): ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾.. يقول: «قال جعفر: جعل الحق تعالي في قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد فهم يجنون ثمار الأنس في كل أوان، وهو قوله تعالي: ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ أي ذات الألوان، كل يجتني منه لوناً علي قدر سعته، وما كوشف له من بوادي المعرفة وآثار الولاية» (٤).

وفي سورة الانفطار عند قوله تعالي في الآيتين (١٣، ١٤): ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ

---

(١) صفحة: ٤٩. (٢) صفحة ١٣٨. (٣) صفحة ٢١٢.
(٤) صفحة ٣٤٤.

* ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. يقول :قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس، فإن لها نيران تتقد » (١).

وفي سورة النصر عند قوله تعالى في أولها: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. يقول :« قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالي، والفتح هو النجاة من السجن البشري بلقاء الله تعالي » (٢).

٣ - عرائس البيان في حقائق القرآن (لأبي محمد الشيرازي)

● **التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبي النصر، البقلي، الشيرازي الصوفي، المتوفي سنة ٦٦٦هـ (ستة وستون وستمائة من الهجرة النبوية) (٣).

● **التعريف بهذا التفسير:**

جري مؤلف هذا التفسير علي نمط واحد وهو التفسير الإشاري ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لابد منه أولاً، يدل علي ذلك قوله في المقدمة: (ولما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يلغ أحد إلي كماله وغاية معانيه ، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من بحار الأسرار، ونهراً من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم، وكمال لا نهاية لصفاته.. قال الله تعالي: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧]، وقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ [الكهف:١٠٩]، فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت في حقائق القرآن، ولطائف البيان وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ،ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها ألطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم،وتركت كثيراً منها ليكون كتابي أخف محملاً وأحسن تفصيلاً، واستخرت الله تعالي في ذلك، واستعنت به، ليكون موافقاً لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيف.. وسميته بـ (عرائس البيان في حقائق القرآن).... إلخ (٤).

(١) صفحة:٣٨٥. (٢) صفحة:٤٠٢.
(٣) كشف الظنون:٢ / ٢١ ولم نقف علي أكثر من هذا في ترجمته.
(٤) الجزء الأول ص٢ ، ٣.

فأنت تري من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعاني الظاهرة للقرآن ويقرر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوائح سنحت له من حقائق القرآن وإشارات تجلت له من جانب الرحمن، كما تري فيها وصفه لكتابه والمسلك الذي سلكه فيه، غير أني ألحظ في قوله: (واستعنت به لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله) أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيراً لكتاب الله وبيانا لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نسلمه له، لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآني، ولا يعقل أن تكون مراده لله تعالي من خطابه لأفراد الأمة، وحسبه أن نقره علي أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

في سورة التوبة عند قوله تعالي في الآية (٩١) ﴿ **لَيْس عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ** ﴾.. يقول (وصف الله زمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات. والمستغرقين في بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأنس ورياض الإيقان، وقال: ﴿ **ليس على الضُّعَفاء** ﴾ يعني الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ﴿ **وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ** ﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات ﴿ **وَلا على الَّذين لا يجدون ما ينفقون** ﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد، ﴿ **حَرَجٌ** ﴾: عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا » (١).

وفي سورة النحل عند قوله تعالي في الآية (٨١): ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾.. يقول: « يعني ظلال أوليائه، ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان لأنهم ظلال الله في أرضه، لقوله عليه السلام: « السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم »، ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** ﴾ أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلي الله، ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ** ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الأنس، لئلا يحترقوا

(١) الجزء الأول ص٣٣٩.

بنيران القدس ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١).

وفي سورة النمل عند قوله تعالى في الآيتين: ٢٠، ٢١): ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾.. يقول: «إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائباً في غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده. فتعجب من شأنه.. أين قلبه إن لم يكن معه؟.. فظن أنه غائب عن الحق وكان في الحق غائبا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله، فقال ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾: لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية،، وألقينه في بحر النكرة من المعرفة، ليفني ثم يفني عن الفناء، أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل...» (٢).

هذا.. والكتاب مطبوع في جزءين و يضمها مجلد كبير، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

٤ - التأويلات النجمية
(لنجم الدين داية، وعلاء الدولة السمناني)

● **التعريف بمؤلِّفي هذا التفسير:**

ألف هذا التفسير نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فأكمله من بعده علاء الدولة السمناني، وسنوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير،

إذن فقد اشترك نجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني في هذا التفسير، وإذن لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

* **أما نجم الدين داية:**

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهدر الأسدي الرازي المعروف بـ (داية)، المتوفي سنة ٦٥٤ هـ (أربع وخمسون وستمائة من الهجرة).

كان من خيار الصوفية «أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبي الجناب المعروف بالبكري، وكان مقيماً أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيز خان إلي بلاد الروم، وهناك لقي صدر الدين القنوي وأخذ عنه، ويقال: إنه استشهد في حروب

---

(١) صفحة: ٥٣٤ - ٥٣٥. (٢) الجزء الثاني ص٨١٣.

جنيكز خان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السري السقطي والجنيد »[١].

* وأما علاء الدولة السمناني:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني، البيانانكي، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩هـ (تسع وخمسين وستمائة). تفقه وطلب الحديث علي كثير من شيوخ عصره، حتي برع في العلم، قال الذهبي: « كان إماماً جامعاً.، كثير التلاوة، وله وقع في النفوس، وكان يحط علي ابن عربي ويكفره، وكان مليح الشكل، حسن الخلق غزير الفتوة، كثير البر، يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفاً فينفقها في القرب. أخذ عن صدر الدين بن حمويه، وسراج الدين القزويني، وإمام الدين بن علي مبارك البكري. وذكر أن مصنفاته تزيد علي ثلاثمائة » [٢].

وذكره الأسنوي في طبقاته وقال: « كان عالماً مرشداً، له كرامات وتصانيف في التفسير والتصوف وغيرهما » [٣]، ومن مصنفاته مدارج المعارج وتكملة التأويلات النجمية. وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيراً كبيراً في ثلاثة عشر مجلداً [٤]، ولكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير علي طريقة القوم أو طريقة المفسرين. وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات في رجب سنة ٧٣٦ هـ (ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:**

يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهي التي رجعنا إليها. ينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالي في الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الذاريات: ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾.. وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير كتبه علاء الدولة وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: « .. ولا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان.. » [٥]، ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة علي طريقة القوم، مع

---

(١) انظر نفحات الأنس ص٤٩١.
(٢) الدرر الكامنة: ١/ ٢٥٠ – ٢٥٢.
(٣) طبقات المفسرين للداودي ص٢٨.
(٤) كشف الظنون: ١/ ٢٣٨.
(٥) الجزء الخامس. ويلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات. لأن النسخة التي بأيدينا لم ترقم صفحاتها.

أن نجم الدين فسرها أول الكتاب. ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهي عند آخر القرآن. ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذي يقرأ في هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية، وبين ما كتبه السمناني، يلحظ أن هناك فرقاً بين التفسيرين، ذلك أن الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحيانا للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً: والإشارة فيه إلي كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ، لأنه لا يقوم علي قواعد من الفلسفة الصوفية. كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه علي المعاني الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التي في الجانب الذي كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر في ذلك: أنه بناه علي قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة، وهي يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفي أن أشير هنا إلي بعض منها.

فمثلاً نراه يقرر في هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر. فالمعني الذي يجري علي هذا البطن يغاير المعني الذي يجري علي البطن الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القالبية، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية، وبطن مخصوص باللطفية السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطفية الحقية، ولتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ﴾.. الآية، علي هذه البطون السبعة سبع تفسيرات، كل يخالف الآخر. ثم هو لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلي القول بأن لكل آية سبعين بطناً بل سبعمائة، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره.

وعلي الجملة.. فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشاري، وهو أقرب إلي الفهم من غيره لولا هذه التكملة. وإليك نماذج منه. بعضها لنجم الدين وبعضها لعلاء الدولة، لتعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين:

● **من تأويلات نجم الدين:**

في سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (٢٤٩) ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** ﴾.. يقول: «والإشارة فيها: أن الله تعالي ابتلي الخلق بنهر الدنيا، وماء

زينتها، وما زين للخلق فيها، لقوله تعالي :﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِين ﴾ . . . . . الآية [آل عمران :١٤]، ليظهر المحسن من المسئ، وليميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالي :﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف :٧] . .ثم امتحنهم وقال تعالي :﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ يعني من أوليائه، ومحبي وطلابي، وله اختصاص بقربي، وقبولي، والتخلق بأخلاقي، ونيل الكرامة مني، كان النبي ﷺ يقول : «أنا من الله، والمؤمنون مني »، ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ : يعني : من قنع من متاع الدنيا علي ما لابد منه : من المأكول والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق. علي حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبي ﷺ وأصحابه، وكان يقول :« اللهم ارزق آل محمد قوتاً » - أي ما يمسك رمقهم »(١) .

وفي سورة التوبة عند قوله تعالي في الآية (١٢٣) :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . . يقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي صدقوا محمداً ﷺ فيما دلهم إلي الله بإذنه، ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ أي جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديلها وحملها علي طاعة الله،والمجاهدة في سبيله، فإنها تحجبك عن الله ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها، ومنازعتها في هواها، وحملها علي المتابعة في طلب الحق، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه كما يتقي المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف » (٢) .

وفي سورة يوسف عن قوله تعالي في الآيتين (٣٠، ٣١) : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . يقول « يشير بالنسوة إلي صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعة، والشيطانية في مدينة الجسد، ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ﴾ وهي الدنيا، ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ تطالب عبدها وهو القلب. كان عبداً في البداية لحاجته إليها للتربية. فلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهي ،فتجلي له الرب تبارك وتعالي فتنور القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شئ، وسجد له حتي الدنيا، ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي أحبته الدنيا غاية الحب، لما تري عليه آثار جمال الحق،

---
(١) الجزء الأول. (٢) الجزء الثاني.

ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا الدنيا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ في ملامتها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي الصفات، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وهو سكين الذكر، ﴿وَقَالَتِ﴾ زليخا الدنيا ليوسف القلب، ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وهو إشارة إلي غلبة أحوال القلب على صفات البشرية، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ أي وقعن على جماله وكماله، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أكبرن جماله أن يكون جمال البشر، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي جمال بشر، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ما هذا إلا جمال ملك كريم، والله تعالى بقراءة من قرأ ملك – بكسر اللام» (١).

وفي سورة النمل عند قوله تعالي في الآيتين (١٧، ١٨): ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. يقول: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي صفته الشيطانية، ﴿وَالْإِنسِ﴾ أي صفته النفسانية، ﴿وَالطَّيْرِ﴾، أي صفته المالكية، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وهو هوي النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وهي النفس اللوامة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أي الصفات النفسانية، ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ محالكم المختلفة وهي الحواس الخمس، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لايهلكنكم، ﴿سُلَيْمَانُ﴾ القلب، ﴿وَجُنُودُهُ﴾ المسخرة له، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم الحق، وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهي لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها» (٢).

● **من تأويلات السمناني:**

في سورة التحريم عند قوله تعالي في الآية (١١): ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.. يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني القوي المؤمنة من قوي النفس اللوامة، ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة، ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هي بنفسها ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة في مناجاتها مع

---

(١) الجزء الثالث. (٢) الجزء الرابع

ربها: ابن لي بيتا في أخص أطوار القلب، وقالت أيضا في مناجاتها: نجني من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها. ونجني من أنوائها وقواها الظالمة..»[١].

وفي سورة الشمس عند قوله تعالي في الآيات (١١) وما بعدها ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** * ﴾.... «إلي آخر السورة يقول: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ يعني إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلي الطاغية انبعث أشقي قوي النفس علي إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها ﴿ **فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ** ﴾ أي اللطيفة، ﴿ **نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا** ﴾ أي احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر، ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا** ﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق ﴿ **فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ** ﴾، أي أهلكهم الله، ﴿ **فَسَوَّاهَا** ﴾ أي عمهم بذلك العذاب ﴿ **وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ ولا يخاف القوي العاقرة في عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه».

٥ - التفسير المنسوب لابن عربي

● من مؤلف هذا التفسير؟

هذا التفسير طبع مجردا من مجلدين، وطبع علي هامش عرائس البيان في حقائق القرآن، لأبي محمد بن أبي النصر الشيرازي، الصوفي، الذي تكلمنا عنه فيما مضي. وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربي، وبعض الناس يصدق هذه النسبة، ويعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربي نفسه، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربي، بل يري أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني، وإنما نسب لابن عربي ترويجاً له بين الناس، وتشهيراً له بشهرة ابن عربي. وممن يري هذا الرأي الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده في مقدمة التفسير التي اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه، ورواها عنه بالمعني، ووضعها في مقدمة تفسير المنار. وذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشاري، ثم يقول: «وقد اشتبه علي الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك: التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز»[٢].

ونحن مع الأستاذ الإمام في أن هذا التفسير للقاشاني، لا (لابن عربي) وإن كنا لا نوافقه علي دعواه أن القاشاني من الباطنية، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالي.

---

(١) الجزء الخامس.　　(٢) تفسر المنار: ١/ ١٨.

هذا.. وإني حين أميل لهذا الرأي - أعني كون التفسير للقاشاني - أؤيده بما يأتي:

أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني، والاعتماد علي النسخ المخطوطة أقوي، لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانيا: قال في كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشاني، هو تفسير بالتأويل علي اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبي الغنائم عبد الرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفي سنة ٧٣٠هـ (١) (ثلاثين وسبعمائة)، أوله: الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته.. » إلخ (٢)، وقد رجعنا إلي مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثا: في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالي في الآية (٣٢) ﴿ **وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ** ﴾ يقول: « .. وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه.. إلخ » (٣).

ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد ابن علي النطنزي الأصفهاني، والمتوفي في أواخر القرن السابع، وكان شيخاً لعبد الرزاق القاشاني، المتوفي سنة ٧٣٠هـ (ثلاثين وسبعمائة من الهجرة) كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس(٤) في مناقب الأولياء (ص٥٣٤ - ٥٣٧)، وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي المتوفي في أواخر القرن السابع الهجري شيخاً لابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨هـ (ثمان وثلاثين وستمائة من الهجرة).

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وإنما هو لعبد الرزاق القاشاني الصوفي.

- **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفي النظري، وبين التفسير الإشاري، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال.

أما ما فيه من التفسير الصوفي النظري: فغالبه يقوم علي مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذي كان له أثره السيئ في تفسير القرآن الكريم.

---

(١) في الأصل سنة (٨٨٧) وهو خطأ.

(٢) كشف الظنون ص ١٨٧ . ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير، والكتاب من أوله إلي آخره يسير علي طريقة واحدة.

(٣) تفسير ابن عربي: ٢/ ١١٦.

(٤) هذا الكتاب باللغة التركية، وقد رجعنا إليه بمعونة الأستاذ الشيخ زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقاً.

وأما ما فيه من تفسير إشاري ، فكثير منه لا نفهم له معني ، ولا نجد له في سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه، ولو أن المؤلف – رحمه الله – كان واضحاً في كلامه، كما كان التستري واضحاً، أو جمع بين التفسير الظاهر والتفسير الباطن لهان الأمر، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، مما جعل الكتاب مغلقاً، وموهماً لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه، كما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال الأستاذ الإمام في القاشاني : إنه باطني . وأنا مع اعترافي بأن الكتاب في جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية، من ناحية ما فيه من المعاني التي تقوم علي نظرية وحدة الوجود، وما فيه من المعاني الإشارية البعيدة – مع اعترافي بهذا – أخالف كل من يقول: إن القاشاني من الباطنية، ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع، وأيضا فإنا نعلم أن الباطنية ينكرون المعاني الظاهرية للقرآن ويقولون: إن المراد هو الباطن وحده، أما صاحبنا، فلم يذهب هذا المذهب: بل نجده في مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولابد منه أولاً، كما نبه علي أنه لا يحوم في كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر، ولعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتني بالظواهر دون الإشارات، فأراد هو أن يعتني بالناحية الإشارية، دون الناحية الظاهرية للقرآن، فألف كتابه علي النحو الذي نراه، وإليك بعض ما جاء في هذه المقدمة، لتعلم أن الرجل ليس باطنيا، ولتعلم أيضا منهجه الذي نهجه في تفسيره، وطريقته التي سار عليها في شرحه لكتاب الله. قال رحمه الله.

« وبعد . . فإني طالما تعهدت تلاوة القرآن وتدبرت معانيه بقوة الإيمان وكنت مع المواظبة علي الأوراد، حرج الصدر، قلق الفؤاد، لا ينشرح بها قلبي ولا يصرفني عنها ربي، حتي استأنست بها فألفتها، وذقت حلاوة كأسها وشربتها،فإذا أنا بها نشيط النفس، فلج الصدر، متسع البال، منبسط القلب، فسيح السر، طيب الوقت والحال، مسرور الروح بذلك الفتوح، كأنه دائما في غبوق وصبوح، تنكشف لي تحت كل آية من المعاني ما يكل بوصفه لساني لا القدرة تفي بضبطها وأحصائها، ولا القدرة تصبر عن نشرها وإفشائها، فتذكرت خبر من أتي ما ازدهاني، مما وراء المقاصد والأماني، قول النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق :« ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع » وفهمت منه أن الظهر: هو التفسير، والبطن: هو التأويل، والحد: ما يتنتهي إليه المفهوم من معني الكلام، والمطلع: ما يصعد إليه منه فيطلع علي شهود الملك العلام، وقد نقل عن الإمام المحقق الساق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: لقد تجلي الله لعباده في كلامه، ولكن لا يبصرون، وروي عنه عليه السلام أنه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة فسئل

عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتي سمعتها من المتكلم بها... فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لي في الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود، فإنه قد عين لها حد محدد، وقيل: من فسر برأيه فقد كفر، وأما التأويل فلا يبقي ولا يذر، فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع وأوقاته، في مراتب سلوكه وتفاوت درجته، وكلما ترقي عن مقامه انفتح له باب فهم جديد، واطلع به علي لطيف معني عتيد، فشرعت في تسويد هذه الأوراق بما عسي يسمح به الخاطر علي سبيل الاتفاق، غير حائم بقيعة التفسير، ولا خائض في لجة من المطلعات ما لا يسعه التقرير مراعيا لتطق الكتاب وترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه في أساليبه، وكل ما لا يقبل التأويل عندي، أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلاً ولا أزعم أني بلغت الحد فيما أوردته كاملاً، فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت وعلم الله لا يتقيد بما علمت، ومع ذلك فما وقف الفهم مني علي ما ذكر فيه، بل ربما لاح لي فيما كتب من الوجوه ما تهت في محاويه، وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلاً، ليعلم به أن للفهم إليه سبيلاً، ويستدل بذلك علي نظائرها إن جاوز مجاوز عن ظواهرها، إذ لم يكن في تأويلها بد من تعسف، وعنوان المروءة ترك التكلف، وعسي أن يتجه لغيري وجوه أحسن منها طوع القياد، فإن ذلك سهل لمن تيسير له من أفراد العباد. ولله تعالي في كل كلمة كلمات ينفد البحر دون نفادها، فكيف السبيل إلي حصرها وتعدادها.. ولكنها أنموذج لأهل الذوق والوجدان، يحتذون علي حذوها عند تلاوة القرآن، فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه، ويتجلي عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه، والله الهادي لأهل المجاهدة، إلي سبيل المكاشفة و المشاهدة، ولأهل الشوق إلي مشارب الذوق، إنه ولي التحقيق، وبيده التوفيق» (١).

فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم علي القاشاني بأنه صوفي لا باطني، كما أنك تجد فيها منهجه الذي سار عليه في تفسيره، ولو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار علي الطريقة التي رسمها لنفسه ولم يحد عنها، وإليك نماذج منه:

● نماذج من التفسير الإشاري:

في سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (١٢٦): **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**.. يقول ما نصه: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذي هو حرم القلب، بلدا آمنا من استيلاء صفات

(١) الجزء الأول ص ٣-٥.

النفس، واغتيال العدو اللعين، وتخطف جن القوي البدنية أهله، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره، ﴿ **مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ من وحد الله منهم وعلم المعاد، ﴿ **قَالَ وَمَن كَفَرَ** ﴾أي: ومن احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقي إلي المقام العين لاحتجابهم بالعلم الذي وعاؤه الصدر،فأمتعه قليلاً من المعاني العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح علي قدر ما تعيشوا به، ثم أضطره إلي عذاب نار الحرمان والحجاب ، وبئس المصير مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم) (١).

وفي سورة الأنعام عند قوله تعالي في الآية (٩٥) :﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾ .. ،يقول ما نصه:«إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف.. ونور النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حي القلب عن ميت النفس تارة استيلاء نور الروح عليها ومخرج ميت النفس عن حي القلب أخري بإقباله عليها، واستيلاء الهوي وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر علي تقليب أحوالكم، وتقليبكم في أطواركم، فأني تصرفون عنه إلي غيره» (٢).

● **نماذج من التفسير المبني علي وحدة الوجود:**

في سورة آل عمران عن قوله تعالي في الآية (١٩١) :﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾.. يقول: «ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا، أي شيئا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك. سبحانك: ننزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شئ فردانيتك أو يثني وحدانيتك...» (٣).

وفي سورة الواقعة عند قوله تعالي في الآية (٥٧) :﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ** ﴾.. يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا في صوركم» (٤).

وفي سورة الحديد عند قوله تعالي في الآية (٤) :﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ .. يقول:«وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره في مظاهركم» (٥)

وفي سورة المجادلة عند قوله تعالي في الآية (٧) ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾... الآية، يقول:«لا بالعدد والمقارنة، بل بامتيازهم عنه بتعيناتهم. واحتجابهم عنه بماهياتهم ونياتهم، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم لماهياتهم وهوياتهم، وتحققهم بوجوبه اللازم لذاته واتصاله بهم بهويته المندرجة في هوياتهم، وظهوره في

---

(١) الجزء الأول ص٥٧ .
(٢) الجزء الأول ص٢١٥ .
(٣) الجزء الأول ص ١٤١ .
(٤) الجزء الثاني ص٢٩١ .
(٥) الجزء الثاني ص٢٩٤ .

مظاهرهم، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة.، وإقامتها بعين وجوده، وإيجابهم بوجوبه، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم، ولهذا قيل: لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة» (١).

وفي سورة المزمل عند قوله تعالي في الآيتين (٨، ٩): ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾.. يقول: «واذكر اسم ربك الذي هو أنت – أي اعرف نفسك – واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها، ﴿ **رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾ أي الذي ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذي اختفي بوجودك، وغرب نوره فيك واحتجب بك» (٢).

هذ بعض النماذج التي تكشف لك عن روح هذا التفسير، ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم في الغالب علي مذهب صاحبه في وحدة الوجود، ولعل هذا هو السر الذي من أجله نسب الكتاب لابن عربي، فإن ابن عربي يقول بوحدة الوجود، ويبني كثيراً من تفسيره لبعض الآيات علي هذا المذهب، فلاتحاد المذاهب وتشابه التفسير وقع الالتباس، فنسب التفسير لابن عربي، أوقصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا، وأمن من فعل ذلك من افتضاح أمره، اعتمادا علي الاتحاد في المذهب، والتشابه في التفسير.

وإذ قد جرَّنا الحديث إلي ابن عربي، فأري إتماما للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل، وعن مذهبه في التفسير، وليقف القارئ بعد ذلك علي مقدار التشابه بين ابن عربي والقاشاني في فهم كتاب الله تعالي، والكشف عن معانيه.

ابن عربى ومذهبه في تفسير القرآن الكريم

● **ترجمة ابن عربي:** (٣)

هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي، الأندلسي، المعروف بابن عربي– بدون أداة التعريف – كما اصطلح علي ذلك أهل المشرق، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي صاحب أحكام القرآن. وكان بالمغرب يعرف بابن العربي – بالألف واللام – كما كان يعرف في الأندلس بـ(ابن سراقة).

ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ(ستين وخمسمائة من الهجرة) ثم انتقل إلي إشبيلية سنة

---

(١) الجزء الثاني ص٣٠٠. (٢) الجزء الثاني ص٣٥٢.

(٣) رجعنا في هذه الترجمة لترجمته المذكورة في آخر الفتوحات، وهي ملخصة من نفح الطيب، وإلي شذرات الذهب: ٥/ ١٩١، وإلي دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول، العدد الثالث، ودائرة المعارف للبستاني المجلد الأول ص٥٩٩.

٥٦٨هـ (ثماني وستين وخمسمائة) وبقي بها نحواً من ثلاثين عاماً ، تلقي فيها العلم علي كثير من الشيوخ حتي ظهر نجمه، وعلا ذكره، وفي سنة٥٩٨هـ (ثمان وتسعين وخمسمائة) نزح إلي المشرق وطوف في كثير من البلاد، فدخل الشام، ومصر، والموصل، وآسيا الصغري، ومكة وأخيراً ألقي عصاه واستقر به النوي في دمشق، وتوفي بها في سنة ٦٣٨هـ (ثمان وثلاثين وستمائة)، ودفن بها، فرحمه الله رحمة واسعة.

• ابن عربي بين أعدائه ومريديه :

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته،وكان له أتباع ومريدون، يعجبون به إلي حد كبير، حتي لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، والعارف بالله.

كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمونه بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة، فمن المعجبين بابن عربي : قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس، وقد كتب كتاباً يدافع فيه عنه، رداً علي رضي الدين به الخياط الذي كتب عن عقيدة ابن عربي ورماه بالكفر. وكمال الدين الزملكاني، من أكابر مشايخ الشام، والشيخ صلاح الدين الصفدي، والحافظ السيوطي، الذي ألف في الدفاع عنه كتابا سماه(تنبيه الغبي علي تنزيه ابن عربي)، وسراج الدين البلقيني، وتقي الدين بن السبكي، وغيرهم.

ومن الناقمين عليه : ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبي وابن تيمية عدو الصوفية علي الإطلاق، ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربي أنهم حاولوا اغتياله بمصر، ولكن الله سلمه وأنجاه.

• مكانته العلمية :

لم تقتصر براعة ابن عربي علي التصوف، بل برع مع ذلك في كثير من العلوم، فكان عارفا بالآثار والسنن. أخذ الحديث عن جمع من علمائه، وكان شاعراً وأديباً، ولذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك الغرب. وقد بلغ مبلغ الاجتهاد والاستنباط، وتأسيس القواعد والمقاصد التي لا يحيط بها إلا من طالعها، ووقف علي حقيقتها. ويقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم ومذهبه الظاهري، ولكنه مع ذلك أبطل التقليد.

• مذهب ابن عربي في وحدة الوجود :

أما مذهبه في وحدة الوجود فهو : أنه يري أن الوجود حقيقة واحدة ويعد التعدد

والكثرة أمرا قضت به الحواس الظاهرة «وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلي قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم، وصور جميع المعبودات والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه وإنما الباطل من العبادة: أن يقصر العبد ربه علي مجلي واحد دون غيره، ويسميه إلهاً»(١).

(وبالجملة، فمنزلة ابن عربي العلمية كبيرة، ولا أدل علي ذلك من مؤلفاته الكثيرة التي تدل علي سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة، وقد بلغ ما بقي منها إلي اليوم مائة وخمسون كتاباً، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربي في الواقع» (٢). وأهم هذه المؤلفات (الفتوحات المكية) الذي ذاع صيته. و كلف به كثير من الرجال، ثم (فصوص الحكم) ،وله ديوان في الأشعار الصوفية، وكتاب (الأخلاق)، وكتاب (مجموع الرسائل الإلهية) وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات يوجد في تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة، التي سببت خوض الناس في عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ علي ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها. حتي لا يدعيها الكذابون. وقد قال السيوطي في كتابه (تنبيه الغبي علي تنزيه ابن عربي»: (والقول الفصل في ابن عربي) : اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. قال السيوطي: وذلك لأن الصوفية تواضعوا علي ألفاظ اصطلحوا عليها. وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم علي معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص علي ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، من حمله علي ظاهره كفر» (٣).

ومما استدلوا به علي أن ابن عربي لا يريد الظاهر الموهم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يا من يراني ولا أراه   كم ذا أراه ولا يراني

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال مرتجلاً:

---

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص٢٣٣.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٦.
(٣) شذرات الذهب: ٥/ ١٩١.

يا من يراني مجـرماً   ولا أراه آخــــذا
كم ذا أراه منعمـــا   ولا يراني لائذا [١]

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به.

ومن العلماء من ينزه ابن عربي عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون في ذلك أن الشعراني الذي اختصر الفتوحات قال: «وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة. فحذفتها من هذا المختصر وربما سهوت فتبعت ما في الكتاب، كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محيي الدين حتي قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبي الطيب المدني المتوفي سنة ٩٥٥ هـ (خمسة وخمسون وتسعمائة من الهجرة) فذاكرته في ذلك، فأخرج إلي نسخة من الفتوحات التي قابلها علي النسخة التي عليها خط للشيخ محيي الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا علي الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره» [٢].

ومهما يكن من شئ، فابن عربي معقد في أفكاره، موهم في ألفاظه وتعابيره، مشكل في أكثر ما يقول. ومع كل هذا فلا أتهمه في عقيدته لجهلي باصطلاحات القوم ورموزهم. وكلمة الإنصاف فيه - كما أعتقد - قول الحافظ الذهبي عنه: «وله توسع في الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة وتدقيق في التصوف، وتآليفه جمة في العرفان، ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس» [٣].

● مذهب ابن عربي في تفسير القرآن الكريم:

يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالبا علي نظرية وحدة الوجود التي يدين بها، وعلي الفيوضات والوجدانيات التي تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهي، وتنقذف في قلبه من ناحية الإشراق الرباني.

أما من الناحية الأولي: ناحية التأثير، بمذهب وحدة الوجود. فإنا نراه في كثير من الأحيان يتعسف في التأويل، ليجعل الآية تتمشي مع هذه النظرية. وهذا- فيما أعتقد - منهج كله شر في التفسير، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته، ويقسرها علي

(١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات: ٤ /٥٥٧.
(٢) خاتمة الفتوحات ص٥٥٥.
(٣) دائرة المعارف للبستاني ص٥٩٩.

أن تتضمن مذهبه، وتكون أسانيد له، وهذا ليس من شأن المفسر المنصف، الذي يبحث في القرآن بحثاً مجردا عن الهوي والعقيدة.

وأما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهي، فهو واسع الباع فيها، وقد مرت بك مقالته في التفسير الإشاري، ورأيت كيف ادعي أن كل ما يجري علي لسان أهل الحقيقة من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله وإنما عبر عنها بالإشارة. تقية من أهل الظاهر، ورأيت كيف ادعي أن أهل الله – وهم الصوفية – أحق الناس بشرح كتابه، لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون في القرآن علي بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يري فرقاً بين القرآن نفسه، وبين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلا منهما حق ثابت، وصدق لا يعتريه شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها منزلة علي قلوبهم من عند الله.

يقرر ابن عربي كل هذه المبادئ، ويصرح بها في فتوحاته، وأنا لا زلت واقفاً عند رأيي الذي قررته آنفا، وهو: أن دعوي الفيض والإلهام لا يصح أن تكون أصلا يحكم به علي كتاب الله تعالي.

هذا.. وإن ابن عربي لم نظفر له بكتاب في التفسير، ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: إنه «صنف تفسيراً كبيراً علي طريقة أهل التصوف في مجلدات. قيل إنه في ستين سفراً، وهو إلي سورة الكهف، وله تفسير صغير في ثمانية أسفار علي طريقة المفسرين» (١)، وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإنا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآيات التي وجدناها متفرقة في غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات إليك بعضا منها لتكون علي بصيرة، ولتطمئن إلي حكمي علي الرجل في شرحه لكتاب الله تعالي.

● **نماذج من التفسير الصوفي النظري له:**

في سورة نوح عند قوله تعالي في الآية (٢٥) ﴿ **مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا** ﴾.. يقول: ﴿ **مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا** ﴾ فهي التي خطت بهم فغرفوا في بحار العلم بالله وهو الحيرة، ﴿ **فَأُدْخِلُوا نَارًا** ﴾ في عين الماء، ﴿ **فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا** ﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلي الأبد» (٢).

وعند قوله تعالي في الآيتين (٢٧، ٢٨) من سورة نوح أيضا: ﴿ **إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا**

(١) كشف الظنون: ١ / ٢٣٣.

(٢) فصوص الحكم: ١ / ٢١٩.

وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاّ تبارا ﴾ يقول ما نصه: ﴿ إنّك إن تذرهم ﴾ أي تدعهم وتتركهم، ﴿ يضلّوا عبادك ﴾ أي يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلي ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا، بعدما كانوا عبيداً، فهم العبيد الأرباب، ﴿ ولا يلدوا إلاّ فاجرا ﴾ أي لا ينتجوا ولا يظهروا، ﴿ إلاّ فاجرا ﴾ أي مظهرا ما ستر، ﴿ كفّارا ﴾ أي ساترا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر فيهم، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، ولا يعرف قدر الفاجر في فجوره، ولا الكافر في كفره، والشخص واحد، ﴿ ربّ اغفر لي ﴾ أي استرني واستر من أجلي، فيجهل مقامي وقدري، كما جهل قدرك – ﴿ وما قدروا اللّه حقّ قدره ﴾ [الزمر:٦٧]– ﴿ ولوالديَّ ﴾ كنت نتيجة عنهما، وهما العقل والطبيعة، ﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ أي قلبي، ﴿ مؤمنا ﴾ أي مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية، وهو ما حدثت به أنفسهم، ﴿ وللمؤمنين ﴾ من العقول، ﴿ والمؤمنات ﴾ من النفوس، ﴿ ولا تزد الظّالمين ﴾ من الظلمات أهل الغيب المكتنفين خلف الحجب الظلمانية، ﴿ إلاّ تبارا ﴾ أي هلاكا، فلا يعرفون نفوسهم وشهودهم وجه الحق دونهم » (١).

وفي سورة النساء عند قوله تعالي في الآية (٨٠) ﴿ من يطع الرّسول فقد أطاع اللّه ﴾ .. يقول: « لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته » (٢).

● **نماذج من التفسير الإشاري له:**

في سورة الأعراف عند قوله تعالي في الآيتين (٥٧، ٥٨): ﴿ وهو الّذي يرسل الرّياح بشرا بين يدي رحمته حتّىٰ إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثّمرات كذلك نخرج الموتىٰ لعلّكم تذكّرون * والبلد الطّيّب يخرج نباته بإذن ربّه والّذي خبث لا يخرج إلاّ نكدا كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ ..

نراه يذكر: أنه لما أدركته الفطرة التي لابد منها لكل داخل في الطريق وتحكمت فيه، رأي الحق سبحانه، فتلا عليه هاتين الآيتين، قال: فعلمت أني المراد بهذه الآية، وقلت: ينبه بما تلاه علينا علي التوفيق الأول الذي هدانا الله به علي يد عيسي وموسي ومحمد سلام الله عليهم جميعهم، فإن رجوعنا إلي هذا الطريق، كان بمبشرة علي يد عيسي، وموسي، ومحمد عليهم السلام، ﴿ بين يدي رحمته ﴾ وهي العناية بنا، ﴿ حتي إذا أقلّت سحابا ثقالا ﴾ وهو ترادف التوفيق، ﴿ سقناه لبلد ميّت ﴾ وهو أنا ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ [فاطر:٩] – وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول،

---

(١) فصوص الحكم: ١/ ١٢٣.

(٢) الفتوحات: ٤/ ١٢٢.

والعمل الصالح، والتعشق به. ثم مثل فقال: ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يشير بذلك إلي خبر ورد عن النبي ﷺ في البعث - أعني حشر الأجسام - من أن الله يجعل السماء تمطر مثل مني الرجال... (الحديث). قال ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ وليس سوي الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ ﴾ وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع، وهو معتني به في نفس الأمر، ﴿ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ مثل قوله: «إن لله عباداً يقادون إلي الجنة بالسلاسل» وقوله في الآية (١٥) من سورة الرعد: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فقلنا: طوعاً يا إلهنا» (١).

وفي سورة الحج عند قوله تعالي في الآيتين (٣٢، ٣٣): ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.. نجده يفسر: ﴿ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ فيقول ﴿ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ أعلامه، وأعلامه الدلالة الموصلة إليه، ويفسر قوله ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.. فيقول: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله» (٢).

وفي سورة لقمان عند قوله تعالي في الآية (١٦): ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾... الآية، نجده يفسر قوله تعالي: ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾.. فيقول: « أي عند ذي قلب قاس لا شفقة له علي خلق الله. قال تعالي: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤] (٣).

- **نماذج من التفسير الظاهر لابن عربي:**

في سورة الأنعام عند قوله تعالي في الآية (١٥٣): ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.. يقول: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فأضافه إليه، ولم يقل: صراط الله، ووصفه بالاستقامة.. ثم قال: ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ الضمير يعود علي صراطه، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يعني شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هي شرائع لهم، إلي إن وجد حكم فيها من شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعا لهم، ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ يعني تلك الشرائع، ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي عن طريقه الذي جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله، لأن الكل سبيل الله، إذ كان الله غايتها، ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشي علي غيره» (٤).

(١) الفتوحات: ٤ / ١٧٢.
(٢) الفعتوحات: ٤ / ١٠٩.
(٣) الفتوحات: ٤ / ١١٤.
(٤) الفتوحات: ٢ / ٢١٧.

وهذا تفسير مقبول، لجريانه علي مقتضي الظاهر من الآية، ولكن نجد صاحبنا أحيانا يشطح في فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلمها له علي ظاهرها، وإنما أقول(علي ظاهرها) لأنه ربما كان يعني من وراء هذا الظاهر معني لا غبار عليه - أراده هو، وجهلته أنا فمن ذلك أنه يقول: «اعلم . وفقك الله - أن الله أخبر عن نبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام في كتابه أنه قال: ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود:٥٦]، فوصف نفسه بأنه علي صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول في هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلا بعد قوله: ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ فما ثم إلا من هو مستقيم علي الحقيقة علي صراط الرب، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو علي صراط مستقيم، ونكر لفظ (دابة) فعم، فأين المعوج حتي نعدل عنه؟ فهذا جبر، وهذه استقامة فالله يوفقنا في إنزال كل حكمة في موضعها».

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربي . ومنها تستطيع أن تحكم علي فهمه لمعاني القرآن، كما تستطيع أن تقارن بينها وبين ما في تأويلات القاشاني المنسوبة لابن عربي، لتقف علي مقدار التشابه بين التفسيرين، وتأثر كل منهما بعقيدته في وحدة الوجود.

وبعد.. فهذا هو تفسير الصوفية، وهؤلاء هم أهم مفسريه، وهذه هي أهم الكتب المؤلفة فيه، ولعلي أكون قد أوفيت البحث حقه، وألممت بالموضوع من جميع نواحيه.

* * *

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

• كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة؟

في إبان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلي اللغة العربية، ويرجع الفضل الأكبر في هذا العمل إلي العباسيين وحدهم إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبلغ بها المأمون - خاصة - القمة، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

ولكي يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس والهنود والصابئة والمسيحيين، الذين كانوا علي اتصال وثيق بالدراسات القديمة فنقلوا إلي اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمين فقرأوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذي لم يكن لهم به عهد من قبل.

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث، لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، ولا تتفق معه بحال من الأحوال، فكرسوا حياتهم للرد عليها، وتنفير الناس منها، وكان علي رأس هؤلاء: الغزالي، والفخر الرازي، الذي تعرض في تفسيره لنظريات الفلاسفة التي تبدو في نظره متعارضة مع الدين، ومع القرآن علي الأخص فردها وأبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة، وانقاد له الدليل.

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلي حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التي لا يلحقها الشك، ولا تحوم حولها الشبهة.. نعم أعجبوا بها رغم هذا، لأنهم وجدوا أن في مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة والعقيدة، أو بين الفلسفة والدين، وأن يبينوا للناس أن الوحي لا يناقض العقل في شئ، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس، وثبت أمام الخصوم.. رأوا أن هذا في مقدورهم، فبذلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلسفة بالدين، ويؤاخوا بينهما، حتي يصبح الدين فلسفة، والفسلفة ديناً، وفعلا وصل فلاسفة المسلمين إلي هذا التوفيق، ولكنه توفيق إن أرضي بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم، ذلك لأنهم لم يصلوا في توفيقهم إلا إلي حلول وسطي، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويراً يبعد كثيرا عن الصور الثابتة المأثورة، ومثل هذه

الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبين متقابلين وطرفين متنافرين، ولذلك لم يجد الغزالي ومن لف لفه صعوبة في الرد علي هؤلاء الفلاسفة الموفقين، وإبطال محاولاتهم، التي ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده وتعاليمه.

● كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة:

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين والفلسفة، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما في توفيقهم.

يعني في كلتا الطريقتين تكون الآراء الفلسفية هي الأساس ؟ ! !

أما الطريقة الأولي: فهي طريقة التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية، ومعني هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلي هذه الآراء حتي تسايرهم وتتمشي معها.

وأما الطريقة الثانية: فهي شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية، ومعني هذا أن تطغي الفلسفة علي الدين وتتحكم في نصوصه، وهذه الطريقة أخطر من الأولي، وأكثر شراً منها علي الدين.

● الأثر الفلسفي في تفسير القرآن الكريم:

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعاً علي مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض وعدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها والقبول لها، وكان من هؤلاء وهؤلاء أثر ظاهر في تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأي من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير. إما علي طريق الدفاع عنها وبيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده والمسلمة لديه، وإما علي طريق الرد عليها وبيان أنها لا يمكن أن تساير نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات التي لا يسلمها ولا يقول بها.

وهو في الحال الأول يشرح القرآن علي ما يوافق هذه النظريات التي لا يراها متعارضة مع الدين، وفي الحالة الثانية لا يمشي علي ضوء النظريات الفلسفية في تفسيره، بل يفسر النصوص علي ضوء الدين والعقل وحدهما، دون أن يكون للرأي الفلسفي دخل في شرح النص القرآني وبيان معناه، وممن فعل هذا في تفسيره الإمام فخر الدين الرازي، ودونك التفسير فستري فيه ما ذكرنه.

وأما الفريق المسالم للفلسفة، المصدق بكل ما فيها من نظريات وآراء فإنه لما فسر القرآن سلك طريقا كله شر وضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينه، ثم نظر من

خلالها إلي القرآن . فشرح نصوصه علي حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شئ إلا من التعصب الفلسفي .

وأخيرا وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن ، هي في الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية ، قصد بها تدعيم الفلسفة وخدمتها علي حساب القرآن الكريم ، الذي هو أصل الدين ومنبع تعاليمه .

● **من تفسير الفارابي :**

فمن هذه الروح التي طغت عليها الفلسفة ، ما تجده للفارابي المتوفي سنة ٣٣٩هـ (تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة) في كتابه (فصوص الحكم) ، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التي جاء بها القرآن . تفسيرا فلسفياً بحتاً فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرية الواردة في قوله تعالي في الآية (٣) من سورة الحديد : ﴿ **الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ تفسيرا أفلوطونياً مبنياً علي القول بقدم العالم فيقول : أنه « الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه ، أول من جهة أن كان زماني ينسب إليه بكون ، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشئ ، ووجد إذ وجد معه لا فيه . هو أول ، لأنه إذا اعتبر كل شئ كان فيه أولاً أثره ، وثانياً قبوله لا بالزمان . هو الآخر ، لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب ، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقة في كل طلب ، فالغاية مثل السعادة في قولك : لم شربت الماء؟ فتقول : لتغيير المزاج ، فيقال : ولم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول : للصحة ، فيقال : لم طلبت الصحة؟ فتقول : للسعادة والخير ، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه ، لأن السعادة والخير تطلب لذاته لا لغيره .. فهو المعشوق الأول ، فلذلك هو أخر كل غاية ، أول في الفكرة آخر في الحصول ، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه ، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق .. » (١) .

ويشرح الظاهر والباطن الوارد في قوله تعالي في الآية (٣) من سورة الحديد أيضا : ﴿ **وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ .. فيقول : « لا وجود أكمل من وجوده ، فلا خفاء به من نقص الوجود فهو في ذاته ظاهر ، ولشدة ظهوره باطن ، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفي وتستبطن لا عن خفاء » (٢) .

كما يشرح هذه الجملة مرة أخري فيقول : « هو باطن لأنه شديد الظهور ، غلب ظهوره علي الإدراك فخفي ، وهو ظاهر من حيث أن الآثار تنسب إلي صفاته ، وتجب عن ذاته فتصدق بها » (٣) .

---

(١) فصوص الحكم ص ١٧٤ – ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبي نصر الفارابي .

(٢) فصوص الحكم ص ١٧٠ .

(٣) فصوص الحكم ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

ويفسر الوحي بقوله: «والوحي لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، وذلك هو الكلام الحقيقي، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطب في باطن المخاطَب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطِب عن مس باطن المخاطَب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيرا من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار. وإذا كان المخاطَب لا حجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس علي الماء الصافي فانتقش منه، لكن المنتقش في الروح من شأنه أن يسيح إلي الحس الباطن إذا كان قويا، فينطبع في القوة المذكورة فيشاهد ، فيكون الموحي إليه يتصل بالملك باطنه، ويتلقي وحيه الكلي بباطنه» (١).

كما يشرح الملائكة بأنها «صورة علمية، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها، تلحظ الأمر الأعلي فينطبع في هويتها ما تلحظ، وهي مطلقة لكن الروح القدسية تخاطبها في اليقظة، والروح البشرية تعاشرها في النوم» (٢).

● من تفسير إخوان الصفا :

ومن الشروح الفلسفية للقرآن أيضا ما نجده في رسائل إخوان الصفا، الذين لا زلنا نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم وتكوينهم، والذين كانوا يمتون في أغلب الظن بصلة إلي الباطنية الإسماعيلية.

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة والنار، بما يفهم منه أن الجنة هي عالم الأفلاك، وأن النار هي عالم ما تحت فلك القمر، وهو عالم الدنيا، ففي حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلي عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلي ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف، ويقولون: «إن النفس إذا فارقت هذه الجنة، ولم يعقها شئ من سوء أفعالها، أو فساد آرائها، وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها، فهي هناك في عالم الفلك في أقل من طرفة عين بلا زمان، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه ، فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد ومعشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية، وشهواتها هذه الزينات الجسمانية، فهي لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلي عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقي تحت فلك القمر سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة، تارة من الكون إلي الفساد، وتارة من الفساد إلي الكون: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ في الآية (٥٦) من سورة النساء، ﴿ **لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ – الآية (٢٣) من سورة النبأ – ما دامت السموات والأرض لا يذوقون فيها برد عالم الأرواح الذي هو الروح والريحان، ولا يجدون لذة

---

(١) فصوص الحكم ص ١٦٣ . (٢) فصوص الحكم ص ١٤٦ .

شراب الجنان المذكور في القرآن: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ - الآية (٥٠) من سورة الأعراف - الظالمين لأنفسهم.. ويروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجنة في السماء، والنار في الأرض»(١).

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: «إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته.. خلقهم الله تعالي لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه، وسياسة بريته، وهم خلفاء الله في أفلاكه، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه» (٢).

كذلك يري إخوان الصفا «أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلي ملكوت السماء وتدخل في زمرة الملائكة، وتحيا بروح القدس، وتسبح في فضاء الأفلاك. في فسحة السموات، فرحة، مسرورة، منعمة، متلذذة، مكرمة، مغتبطة»، ويقولون إن ذلك هو معني قول الله عز وجل في الآية العاشرة من سورة فاطر: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾(٣).

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحاً فلسفياً بحتاً لا يتفق مع ما جاء به الدين فيقولون: «إن الله أشار إلي النفوس ووساوسها بقوله - في الآية (١١٢) من سورة الأنعام: ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ فشياطين الجن هي النفوس المفارقة الشريرة التي قد استجنت عن إدراك الحواس، وشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد»(٤).

ثم يقولون «يأمثال هذه النفوس التي ذكرناها - يعنون النفوس الخبيثة هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل» (٥).

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء في قوله في الآية (٦٩) من سورة النساء: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ بهذا الاسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولي، ويعنون بها جنة الدنيا ونعيمها» (٦).

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ١ / ٩١ - ٩٢ المطبعة العربية سنة ١٩٢٨.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٩٨.

(٣) نفس المصدر: ٤ / ١١٠، ١١١. مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.

(٤) رسائل إخوان الصفا: ٤ / ١٧٢، مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.

(٥) المرجع السابق: ٤ / ١٧٤. (٦) نفس المرجع: ٤ / ١٨٦.

العامة، ويقولون: إن النبي ﷺ يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح في السر والعلن، غير مرموز ولا مكتوم، ثم يشير إليها، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة، والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور، وتقبلها نفوسهم [١]، وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة.

هذه بعض شروح الفلاسفة من المسلمين لآيات القرآن الكريم، وهي كما تري شروح تقوم علي نظريات فلسفية بحتة، لا يمكن أن يحتملها النص القرآني بحال من الأحوال.

هذا.. ولم نسمع أن فيلسوفاً من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة في عقولهم، ألف لنا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، وكل ما وجدناه لهم في ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة في كتبهم التي ألفوها في الفلسفة وأكثر من وجدنا له أثرا في التفسير من هؤلاء الفلاسفة هو الرئيس أبو علي ابن سينا، إذ قد عثر له علي تفسير قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النور ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾.... الآية [٢] وعلي تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين [٣] وبعض آيات أخري، ولهذا ساعتبر ابن سينا الشخصية الأولي التي كان لها أكبر أثر في التفسير الفلسفي، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه في التفسير فأقول:

● **ترجمة ابن سينا:**

هو الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا. كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلي بخاري، وفي قرية من قراها ولد له أبو علي ابن سينا سنة ٣٧٠هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة). ثم انتقل مع أهله إلي بخاري، ثم طوف أبو علي بعد ذلك في البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصل كثيرا من الفنون. حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب والجبر، ثم تعلم المنطق علي أبي عبد الله الناتلي، وفاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية، ثم رغب في علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه، حتي أصبح بارعاً لا يعدله أحد فيه. كل هذا ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم التي عاناها، مما يدل علي ذكائه الخارق وذهنه الثاقب، أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، ومن أهمها: كتاب الشفاء في الحكمة،

---

(١) المرجع نفسه: ٤ / ١٨٥.

(٢) يوجد هذا التفسير فى كتاب جامع البدائع.

(٣) يوجد تفسير هذه السور الثلاث في رسائل ابن سينا.

والنجاة، والإشارات، والقانون، وغير ذلك من كتبه القيمة، التي انتفع الناس بها كثيرا.

ولقد جمع أبو علي ابن سينا إلي شهرته العلمية شهرة أخري سياسية، إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، ولما اضطربت أمور الدولة أخرج أبو علي من بخاري، وطوف ببلاد كثيرة حتي وصل إلي همدان، وهناك تقلد الوزارة لشمس الدولة. ثم ثار الجند عليه، وأغاروا علي داره، ونهبوها، وقبضوا عليه، وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتواري، ثم أعاده شمس الدولة وزيرا بعد ذلك،ولما مات شمس الدولة توجه إلي أصبهان، ثم أدركه مرض شديد مات علي أثره، وكانت وفاته بهمدان سنة ٤٢٨هـ (ثمان وعشرين وأربعمائة من الهجرة)، ودفن بها، فرحمه الله (١).

● **مسلك ابن سينا في التفسير**

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن، وفيلسوف محب للفلسفة حريص علي سلامة ما فيها من آراء، كان حريصا كل الحرص علي أن يوفق بين الدين والفلسفة، حتي يرضي ناحيته الدينية والفلسفية. وكان طبيعيا – والقرآن هو الدعامة الأولي من دعائم الإسلام – أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن والنظريات الفلسفية التي تبدو معارضة لها، وفعلاً قام بهذه العملية التي كانت – فيما أعتقد – شرا علي الدين، وإبطالاً لحقائق القرآن الصريحة الثابتة.

نظر ابن سينا إلي القرآن، ونظر إلي الفلسفة، فحكم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية، فشرحها شرحا فلسفيا بحتا، وكانت طريقته التي يسلكها في شرحه غالبا هي شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبي ﷺ لحقائق تدق علي أفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدراكها، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفي عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، وهو يقول: «إن المشترط علي النبي أن يكون كلامه رمزا، وألفاظه إيماء، وكما يذكر أفلاطون في كتاب النواميس: أن من لم يقف علي معاني رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهي، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون في كتبهم الرموز والإشارات، التي حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون.. وما كان يمكن النبي محمدا ﷺ أن يوقف علي العلم أعرابيا جافيا، ولا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثا إليهم كلهم» (٢).

وعلي هذا الأساس نظر ابن سينا إلي نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا

---

(١) انظر وفيات الأعيان ص٢٧١ – ٢٧٥، وشذرات الذهب: ٣ / ٢٣٤ – ٢٣٧.

(٢) رسائل ابن سينا ص١٢٤– ١٢٥، مطبعة هندية سنة ١٩٠٨.

الخواص أمثاله ففسرها تفسيرا حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية، فكان في عمله هذا فاشلا، وبعيداً عن حقيقة الدين، وروح القرآن الكريم.

وإليك بعض ما قاله ابن سينا في بعض نصوص القرآن الكريم، لتقف علي مقدار تهافته، وبعده عن حقائق القرآن الثابتة.

عرض ابن سينا لشرح قوله تعالي في الآية (١٧) من سورة الحاقة: ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾.. ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، وفسر الملائكة الثمانية التي تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع. وإليك عبارته بنصها:

قال: «وأما ما بلغ النبيﷺ عن ربه عز وجل من قوله: ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ (فنقول: إن الكلام المستفيض في استواء الله تعالي علي العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، وتدعي المشبهة من المتشرعين أن الله تعالي علي العرش لا علي سبيل حلول. هذا، وأما في كلام الفلسفي فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، ويذكرون أن الله تعالي هناك، وعليه لا علي حلول، كما بين أرسطو في آخر كتاب سماع الكيان. والحكماء المتشرعون أجمعوا علي أن المعني بالعرش هو هذا الجرم. هذا.. وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس، لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية. والذاتية إما طبيعية، وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفني ولا تتغير أبد الدهر، وقد ذاع في الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعا، لا يموتون كالإنسان الذي يموت فإذا قيل أن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحي الناطق الغير الميت يسمي ملكا، فالأفلاك تسمي ملائكة. فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول علي ثمانية، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك. والحمل يقال علي وجهين: حمل بشري، وهو أولي باسم الحمل كالحجر المحمول علي ظهر الإنسان، وحمل طبيعي كقولنا: الماء محمول علي الأرض، والنار علي الهواء. والمعني هنا الحمل الطبيعي لا الأول. وقوله: يومئذ، والساعة، والقيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته، ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة آكد جعل الوعد والوعيد وأشباههما إلي ذلك الوقت»[١].

كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة والنار والصراط تفسيرا فلسفيا بعيدا عن المأثور الثابت الصحيح، فيقسم العوالم إلي ثلاثة أقسام: عالم حسي، وعالم خيالي وهمي، وعالم عقلي، والعالم العقلي عنده هو الجنة، والعالم الخيالي هو النار، والعالم الحسي

---

(١) رسائل ابن سينا ص١٢٨ – ١٢٩.

هو عالم القبور. أما الصراط فيقول في شرحه: «اعلم أن العقل يحتاج في تصور أكثر الكليات إلي استقراء الجزئيات، فلا محالة أنها تحتاج إلي الحس الظاهر، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلي الخيال إلي الوهم، وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب حتي يبلغ ذاته العقل، فهو إذن يري كيف الحد صراطا وطريقا في عالم الجحيم، فإن جاوزه بلغ عالم العقل، فإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلاً، وما يشير إليه حقاً، قد وقف علي الجحيم، وسكن في جهنم وهلك، وخسر خسرانا مبينا».

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالي في الآية (٣٠) من سورة المدثر: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ تفسيرا فلسفيا بعيدا عن هدف القرآن، فيقرر أن النفس الحيوانية هي الباقية الدائمة في جهنم، وهي منقسمة إلي قسمين: إدراكية، وعملية. والعملية: شوقية، وغضبية، والعلمية: هي تصورات الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، وتلك المحسوسات ستة عشر، والقوة الوهمية الحاكمة علي تلك الصور حكما غير واجب واحدة – ذاتيان، وستة عشر، وواحدة تسعة عشر. ثم يقول: «وأما قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً**﴾ [المدثر: ٣١]، فمن العادة في الشريعة تسمية القوي اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة» (١).

كما يفسر أبواب الجنة الثمانية، وأبواب النار السبعة تفسيرا فلسفيا صرفا، فيقول: «وأما ما بلغ النبي محمد عن ربه عز وجل أن للنار سبعة أبواب، وللجنة ثمانية أبواب، فإذ قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهي خمسة، وإدراكها الصور مع المواد، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزانة الحواس المسماة بالخيال، و قوة حاكمة عليها حكما غير واجب وهو الوهم، وقوة حاكمة واجبا وهو العقل، فذلك ثمانية. فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلي السعادة السرمدية، والدخول في الجنة وإن حصل سبعة منها لا تتسم إلا بالثامن أدت إلي الشقاوة السرمدية. والمستعمل في اللغات أن الشئ المؤدى إلي الشئ يسمي باباً، فالسبعة المؤدية إلي النار سميت أبوابا لها، والثمانية المؤدية إلي الجنة سميت أبوابا لها» (٢).

ويفسر ابن سينا قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ**

---

(١) رسائل ابن سينا ص١٣١ – ١٣٢. (٢) المرجع السابق ص١٣٢.

تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فيقول: «النور اسم مشترك لمعنيين: ذاتي ومستعار، والذاتي هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاطاليس، والمستعار علي وجهين: إما الخير، وإما السبب الموصل إلي الخير، والمعني ههنا هو القسم المستعار بكلي في قسميه. أعني أن الله تعالي خير بذاته وهو سبب لكل خير كذلك الحكم في الذاتي وغير الذاتي. وقوله: ﴿ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ عبارة عن الكل، وقوله: ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ فهو عبارة عن العقل الهيولاني والنفس الناطقة، لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهئ للاستضاءة، لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد، والضوء أكثر. وكما أن العقل بالفعل مشبه بالنور، كذلك قابله مشبه يقابله وهو المشف، وأفضل المشفات الهواء، وأفضل الأهوية هو المشكاة، فالمرموز بالمشكاة هو العقل اليهولاني الذي نسبته إلي العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلي النور، والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل، لأن النور كما هو كمال للشف كما حد به الفلاسفة ومخرج له من القوة إلي الفعل، ونسبة العقل المستفاد إلي العقل الهيولاني كنسبة المصباح إلي المشكاة. وقوله: ﴿ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ لما كان بين العقل الهيولاني والمستفاد مرتبة أخري وموضع آخر نسبته كنسبة الذي بين المشف والمصباح، فهو الذي لا يصل في العيان المصباح إلي المشف إلا بتوسط وهو المسرجة، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للضوء. ثم قال بعد ذلك: ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ ليجعلها الزجاج الصافي المشف، لا الزجاج الذي لا يستشف، فليس شئ من المتلونات يستشف، ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ يعني به القوة الفكرية التي هي موضوعة ومادة للأفعال العقلية، كما أن الدهن موضوع ومادة للسراج..»[1] وهكذا استمر ابن سينا في شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت، وستري أن شرحه هذا مزيج من فكرتي أفلاطون وأرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير بـ (الخير) و (الكل)، وما يعرف لأرسطو من أقسام العقل.

ويقول في تفسير قوله تعالي في الآية (٤) من سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾: «قوله تعالي: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ إشارة إلي القوة النباتية: فإن النباتية موكلة بتدبير البدن ونشوه ونموه، والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلي الانفكاك، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنا حيوانياً. والنفاثات فيها هي القوي النباتية، فإن النفث سبب لأن يصير

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٥ – ١٢٨.

جوهر الشئ زائدا في المقدار من جميع جهاته أي الطول والعرض والعمق. وهذه القوي هي التي تؤثر في زيادة الجسم المغتذي والنامي من جميع الجهات المذكورة».. إلخ[١].

ويفسر قوله تعالي في الآية (٥) من سورة الفلق أيضا: ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.. فيقول: «عني به النزاع الحاصل بين البدن وقواه كلها، وبين النفس»[٢].

وفي سورة الناس يفسر قوله تعالي في الآية (٤): ﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾.. فيقول: «هذه القوة التي توقع الوسوسة هي القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية، ثم إن حركتها تكون بالعكس فإن النفس وجهها إلي المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلي الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنس – أي تتحرك – بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلي العكس، فلهذا سمي خناساً»[٣].

ويفسر قوله تعالي في الآية (٦) من سورة الناس أيضا: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾.. فيقول: «الجن هو الاستتار، والإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هي الحواس الباطنة، والمستأنسة هي الحواس الظاهرة»[٤].

● **رأينا في تفسير الفلاسفة:**

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا في شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم، وهو كما تري عين ما يذهب إليه الباطنية في تأويلاتهم للآيات القرآنية، ولا أحسب أن مسلما مهما كان محبا للفلسفة والفلاسفة يقر ابن سينا وأمثاله علي دعوي أن الحقائق القرآنية رموز وإشارات لحقائق أخري، دقت عن أفهام العامة، وخفيت علي عقولهم القاصرة، فرمز إليها النبي بآيات القرآن الكريم.

هذا.. ولعل القارئ الكريم يلحظ معي أن الإمامية الإثنا عشرية والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفي الصوفية، ورجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسيرون علي نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز أو الإشارة أو الباطن. ويظهر لنا أنها عدوي سرت إلي المسلمين من قدماء الفلاسفة[٥]، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب، وتقبلتها بقبول حسن لأنهم رأوا فيها عونا كبيرا علي ترويج بدعهم، ونشر ضلالاتهم بين المسلمين!!

---

(١) جامع البدائع ص ٢٧، ٢٨ – مطبعة السعادة سنة ١٩١٧.
(٢) المرجع السابق ص ٢٨. (٣) جامع البدائع ص٣١.
(٤) المرجع السابق ص٣١، ٣٢.
(٥) انظر ما قلناه عن (فيلون) اليهودي عند كلامنا عن البابية.

الفصل السابع

تفسير الفقهاء

● **كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي :**

١ - التفسير الفقهي من عهد النبوة إلي مبدأ قيام المذاهب الفقهية :

نزل القرآن الكريم مشتملا علي آيات تتضمن الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم ، وكان المسلمون علي عهد رسول الله ﷺ يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضي سليقتهم العربية وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلي رسول الله ﷺ .

ولما توفي رسول الله ﷺ جدت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكما شرعيا صحيحا، فكان أول شئ يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم، ينظرون في آياته ويعرضونها علي عقولهم وقلوبهم،فإن أمكن لهم أن ينزلوها علي الحوادث التي جدت فبها ونعمت، وإلا لجأوا إلي سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يجدوا فيها حكما اجتهدوا وأعملوا رأيهم علي ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة، ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلي الحكم عليه.

غير أن الصحابة في نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون أحيانا علي الحكم المستنبط، وأحيانا يختلفون في فهم الآية، فتختلف أحكامهم في المسألة التي يبحثون عن حكمها، كالخلاف الذي وقع بين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها، فعمر رضي الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، وعلي حكم بأن عدتها أبعد الأجلين: وضع الحمل، ومضي أربعة أشهر وعشرة أيام. وسبب هذا الخلاف تعارض نصين عامين في القرآن، فإن الله سبحانه جعل عدة المطلقة الحامل وضع الحمل وجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا من غير تفصيل، فذهب علي رضي الله عنه إلي العمل بالآيتين معا، وأن كل آية منهما مخصصة لعموم الأخري وذهب عمر رضي الله عنه إلي أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة، وقد تأيد رأي عمر رضي الله عنه بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها، فوضعت الحمل بعد خمسة وعشرين يوما من موته، فأحلها رسول الله ﷺ للأزواج (١).

وكالخلاف الذي وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت في تقسيم ميراث من مات عن زوج وأبوين، فابن عباس رضي الله عنه أفتي بأن للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأب

---

(١) انظر تاريخ التشريع للخضري ص ١١٣ .

الباقي تعصيبا، وتمكسا بظاهر قوله تعالي في الآية (١١) من سورة النساء: ﴿ **فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث** ﴾، وزيد بن ثات رضي الله عنه ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقي بعد فرض الزوج، نظرا لأن الأب والأم ذكر وأنثي ورثا بجهة واحدة فللذكر مثل حظ الأنثيين (١).

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة رضي الله عنهم حسبما يفهمه كل منهم في النص القرآني، وما يحيط به من أدلة خارجية، ومع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده، فإن ظهر له أنه في جانب من خالفه رجع إلي رأيه وأخذ به.

● **التفسير الفقهي في مبدأ قيام المذاهب الفقهية:**

ظل الأمر علي هذا إلي عهد ظهور أئمة المذاهب – الأربعة وغيرها – وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، لأنها لم تكن علي عهدهم، فأخذ كل إمام ينظر إلي هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذي ينقدح في ذهنه، ويعتقد أنه هو الحق الذي يقوم علي الأدلة والبراهين وكانوا يتفقون فيما يحكمون به أحيانا، وأحيانا، يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الإدلة، غير أنهم مع كثرة اختلافهم في الأحكام لم تظهر منهم بادرة للتعصب للمذاهب، بل كانوا جميعا ينشدون الحق ويطلبون الحكم الصحيح، وليس بعزيز علي الواحد منهم أن يرجع إلي رأي مخالفه إن ظهر له أن الحق في جانبه، فهذا هو الشافعي رضي الله عنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيي، وكان يقول: الناس عيال في الفقه علي أبي حنيفة، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه في الفقه: إذا صح الحديث عندك فأعلمني به، وكان يقول: إذا ذكر الحديث فمالك النجم الثاقب... إلي غير ذلك مما يدل علي انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء، وهذه هي سنة أسلافهم من الصحابة والتابعين (٢).

● **التفسير الفقهي بعد ظهور التقليد والتعصب المذهبي:**

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة.. التقليد الذي يقوم علي التعصب المذهبي، ولا يعرف التسامح ولا يطلب الحق لذاته ولا ينشده تحت ضوء البحث الحر، والنقد البرئ.

ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلي أن نظروا إلي أقوال أئمتهم كما ينظرون إلي نص الشارع، فوقفوا جهدهم العلمي علي نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبذلوا كل

---

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للأساتذة: السبكي والسايس والبربري ص٩٦.
(٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ٣٥٣، ٣٥٤.

ما في وسعهم لإبطال مذهب المخالف وتفنيده، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلي آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، وإلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلا يجعلها به لا تصلح أن تكون في جانب مخالفيه، وأحيانا يلجأ إلي القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل، فهذا عبد الله الكرخي المتوفي سنة ٣٤٠ هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبي حنيفة يقول: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ» (١).

ومع هذا الغلو في التعصب المذهبي، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر في أقوالهم نظرة الباحث الحر الذي يساير الدليل حتي يصل به إلي الحق أيا كان قائله.

وكان لهؤلاء وهؤلاء – أعني المتعصبين وغير المتعصبين – أثر ظاهر في التفسير الفقهي، فالمتعصبون ينظرون إلي الآيات من خلال مذهبهم فينزلونها عليه، وغير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوي المذهبي فينزلونها علي حسب ما يظهر لهم، وينقدح في ذهنهم.

● **تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:**

وإذا نحن تتبعنا التفسير الفقهي في جميع مراحله، وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء والأغراض من مبدأ نزول القرآن إلي وقت قيام المذاهب المختلفة ثم بعد ذلك يسير تبعاً للمذاهب، ويتنوع بتنوعها، فلأهل السنة تفسير فقهي متنوع بدأ نظيفاً من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا وللظاهرية تفسير فقهي يقوم علي الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها وللخوارج تفسير فقهي يخصهم، وللشيعة تفسير فقهي يخالفون به من عداهم.. وكل فريق من هؤلاء يجتهد في تأويل النصوص القرآنية حتي تشهد له أو لا تعارضه علي الأقل... مما أدي ببعضهم إلي التعسف في التأويل والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها.

● **الإنتاج التفسيري للفقهاء:**

هذا وإنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات في التفسير الفقهي ، فإنا لا نكاد نعثر علي شئ من ذلك قبل عصر التدوين. اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء علي اختلاف مذاهبهم في التفسير الفقهي.

● **فمن الحنفية:**

ألف أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص والمتوفي سنة ٣٧٠ هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة): (أحكام القرآن) وهو مطبوع في ثلاث مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي للأساتذة: السبكي والسايس والبربري ص ٢٨١.

وألف أحمد بن أبي سعيد المدعو بـ (ملاجيون) من علماء القرن الحادي عشر الهجري : (التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية) وهو مبطوع بالهند في مجلد كبير، ومنه نسخة في مكتبة الأزهر، وأخري في مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) .

* **ومن الشافعية :**

ألف أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي المتوفي سنة ٥٠٤هـ (أربع وخمسمائة من الهجرة) : كتابه (أحكام القرآن)، وهو مخطوط في مجلد كبير، وموجود في دار الكتب المصرية، وفي المكتبة الأزهرية .

وألف شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي، المعروف بالسمين، والمتوفي سنة ٧٥٦هـ (ست وخمسين وسبعمائة من الهجرة) : كتابه (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) ويوجد منه في مكتبة الأزهر الجزء الأول، وهو ينتهي عند قوله تعالي في الآية (١٩٤) من سورة البقرة : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ .... الآية، وهو مخطوط بخط المؤلف .

وألف علي بن عبد الله محمود الشنفكي من علماء القرن التاسع الهجري كتابه (أحكام الكتاب المبين) وتوجد منه نسخة في المكتبة الأزهرية، مخطوطة بخط المؤلف، في مجلد متوسط الحجم .

وألف جلال الدين السيوطي، المتوفي سنة ٩١١هـ (إحدي عشرة وتسعمائة من الهجرة) : كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل)، وهو موجود في المكتبة الأزهرية، ومخطوط في مجلد متوسط الحجم .

* **ومن المالكية :**

ألف أبو بكر بن العربي المتوفي سنة ٥٤٣ هـ (ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة) : كتابه (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين ومتداول بين أهل العلم .

وألف أبو عبد الله القرطبي المتوفي سنة ٦٧١هـ (إحدي وسبعين وستمائة من الهجرة) : كتابه (الجامع لأحكام القرآن) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلي الآن أربعة عشر جزءاً ينتهي الجزء الرابع عشر آخر سورة (فاطر) وما بقي منه علي أهبة الطبع[1] .

---

(١) كان هذا وقت تأليف الكتاب، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير ولما نفدت نسخه أخذت دار الكتب في طبعه للمرة الثانية، كما قامت دار الشعب بطبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب) .

* **ومن الزيدية :**

ألف حسين بن أحمد النجري، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه (شرح الخمسمائة آية) ولم يصل إلي أيدينا هذا التفسير.

وألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجري: (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة) ومنه نسخة في دار الكتب المصرية، مخطوطة في ثلاث مجلدات، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني منه في مجلد واحد مخطوط.

وألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادي عشر الهجري كتابه (منتهي المرام، شرح آيات الأحكام) ولم نقف علي هذا التفسير.

* **ومن الإمامية الإثنا عشرية :**

ألف مقداد السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه (كنز الفرقان في فقه القرآن) ومنه نسخه بدار الكتب المصرية، مطبوعة في مجلد صغير علي هامش تفسير الحسن العسكري.

وهناك كتب أخري في تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون لا نطيل بذكرها، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، ويكفي أن نعرض لأهمها وهو ما يأتي:

١ - أحكام القرآن - للجصاص (الحنفى)

● **ترجمة المؤلف :**

هو أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص [١] ولد رحمه الله تعالي ببغداد سنة ٣٠٥ هـ (خمس وثلاثمائة من الهجرة).

كان إمام الحنفية في وقته، وإليه انتهت رياسة الأصحاب. أخذ عن أبي سهل الزجاج، وعن أبي الحسن الكرخي، وعن غيرهما من فقهاء عصره. واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان علي طريق الكرخي في الزهد، وبه انتفع، وعليه تخرج، وبلغ من زهده أنه خوطب في أن يلي القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل. أما مصنفاته فكثيرة أهمها كتاب(أحكام القرآن) وهو ما نحن بصدده الآن، وشرح مختصر الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد ابن الحسن الشيباني، وكتاب أصول الفقه، وآخر في أدب القضاء، وعلي الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل في تدعيم مذهب الحنفية علي البراهين والأدلة.

---

(١) الجصاص نسبة إلي العمل بالجص.

هذا وقد ذكر المنصور بالله في طبقات المعتزلة (١)، وسيأتيك في تفسيره ما يؤيد هذا القول.

أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضي عنه (٢).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصا عند الحنفية، لأنه يقوم علي تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه. وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط، وهو – وإن كان يسير علي ترتيب سور القرآن – مبوب كتبويب الفقه، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التي يتعرض لها المؤلف في هذا الباب.

● **استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:**

هذا... وإن المؤلف – رحمه الله – لا يقتصر في تفسيره علي ذكر الأحكام التي يمكن أن تستنبط من الآيات – بل نراه يستطرد إلي كثير من مسائل الفقه والخلافيات بين الأئمة مع ذكره للأدلة بتوسع كبير، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، وكثيرا ما يكون هذا الاستطراد إلي مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد.

فمثلاً نجده عندما عرض لقوله تعالي في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ يستطرد لمذهب الحنفية في أن من قال لعبيده: من بشرني بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحداً بعد واحد أن الأول يعتق دون غيره (٣).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٦) من سورة يوسف ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ** ﴾ .... الآية، نجده يستطرد لخلاف الفقهاء في مدعي اللُّقطة إذا ذكر علامتها، وخلافهم في اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة في جسده، وخلافهم في متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه وادعته الزوجة لنفسها، وخلافهم في مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر .. وغير ذلك من مسائل الخلاف التي لا تتصل بالآية إلا عن بعد (٤).

● **تعصبه لمذهب الحنفية:**

ثم إن المؤلف – رحمه الله وعفا عنه – متعصب لمذهب الحنفية إلي حد كبير، مما جعله في هذا الكتاب يتعسف في تأويل بعض الآيات حتي يجعلها في جانبه،

---

(١) شرح الأزهار: ٢/٤.

(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٧ – ٢٨.

(٣) الجزء الأول ص٣٣.

(٤) الجزء الثالث ص ٣١٠ – ٣١٢.

أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه، ،والذي يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه في كثير من المواقف.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ** ﴾.. نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة علي أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه (١).

ومثلاً عند ما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٣٢) من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ** ﴾.... الآية،نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه علي أن للمرأة أن تعقد علي نفسها بغير الولي وبدون إذنه (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢) من سورة النساء: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ** ﴾...الآية، وقوله في الآية (٦) منها: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾.... الآية، نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلا لمذهب أبي حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمسا وعشرين سنة، وإن لم يؤنس منه الرشد (٣).

● **حملة الجصاص علي مخالفيه:**

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه في التأويل، ليس عف اللسان ~~مع اللسان~~ مع الأمام الشافعي رضي الله عنه ولا مع غيره من الأئمة، وكثيرا ما نراه يرمي الشافعي وغيره من مخالفي الحنفية بعبارات شديدة، لا تليق من مثل الجصاص في مثل الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله.

فمثلا عندما عرض لآية المحرمات من النساء في سورة النساء نجده يعرض للخلاف الذي بين الحنفية والشافعية في حكم من زني بامرأة، هل يحل له التزوج ببنتها أو لا؟ ثم يذكر مناظرة طويلة جرت بين الشافعي وغيره في هذه المسألة، ويناقش الشافعي فيما يرد به علي مناظره، ويرميه بعبارات شنيعة لاذعة كقوله: « فقد بان أن ما قاله الشافعي وما سلمه له السائل كلام فارغ لا معني تحته في حكم ما سئل عنه » (٤).

وقوله: « ما ظننت أن أحدا ممن ينتدب لمناظرة خصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلي مثل هذا، مع سخافة عقل السائل وغباوته » (٥).

---

(١) الجزء الأول ص ٢٧٤ – ٢٨٥.
(٢) الجزء الأول ص٤٧٢ – ٤٧٤.
(٣) الجزء الثاني ص ٥٦ – ٥٩.
(٤) الجزء الثاني ص١٤٣.
(٥) الجزء الثاني ص ١٤٣.

وقوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعي علي سؤال مناظره: «ولو كلم بذلك المبتدئون من أحداث اصحابنا لما خفي عليهم عوار هذا الحجاج وضعف السائل والمسئول فيه» (١).

ومثلاً عند ذكره لمذهب الشافعي في الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول: «وهذا القول مما خرج به الشافعي عن إجماع السلف والفقهاء» (٢) كأن الشافعي في نظر الجصاص ممن لا يعتد برأيه، حتي ينعقد الإجماع بدونه.

● **تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة:**

كذلك نجد الجصاص يميل إلي عقيدة المعتزلة، ويتأثر بها في تفسيره فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ** ﴾.... الآية، نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: «متي أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات» (٣)، كما ينكر حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ، ويقر أنه من وضع الملاحدة (٤).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾.... الآية، نجده يقول: «معناه لا تراه الأبصار. وهذا تمدح بنفي رؤية الأبصار كقوله تعالي – في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ – وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال.... فلما تمدح بنفي رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال، إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصا بقوله تعالي في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾؛ لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روي عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملا للتأويل لم يجز الاعتراض به علي ما لا مساغ للتأويل فيه. والأخبار المروية في الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، وهو علم الضرورة الذي لا تشوبه شبهة، ولا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعني العلم مشهورة في اللغة» (٥).

● **حملة الجصاص علي معاوية رضي الله عنه:**

كما أننا نلاحظ علي الجصاص أنه تبدو منه البغضاء لمعاوية رضي الله عنه، ويتأثر بذلك في تفسيره. فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآيات (٣٩ – ٤١) من سورة الحج ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا**

---

(١) الجزء الثاني ص ٢٤٥. (٢) الجزء الثاني ص ٤٤٠ –٤٤١.

(٢) الجزء الأول ص٤٨. (٤) الجزء الثاني ص٥٥.

(٥) الجزء الثالث ص٥.

من ديارهم بغير حق ﴾ إلي قوله: ﴿ **الَّذين إن مَّكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ . . . يقول: « . .وهذه صفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله في الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وفيه الدلالة الواضحة علي صحة إمامتهم، لإخبار الله تعالي بأنهم إذا مكنوا في الأرض قاموا بفروض الله عليهم،وقد مكنوا في الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجره ونواهيه، ولا يدخل معاوية في هؤلاء، لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء» [١].

ومثلا في سورة النور عند قوله تعالي في الآية (٥٥): ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ** ﴾ . . .الآية يقول: «وفيه الدلالة علي صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضاً، لأن الله استخلفهم في الأرض ومكن لهم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية، لأنه لم يكن مؤمنا في ذلك الوقت» [٢].

وفي سورة الحجرات عند قوله تعالي في الآية (٩): ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا** ﴾ . . .الآية، نجده يجعل علياً رضي الله عنه هو المحق في قتاله، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية. كذلك كل من خرج علي عليّ» [٣]. وما كان أولي بصاحبنا أن يترك هذا التحامل علي معاوية الصحابي ويفوض أمره إلي الله، ولا يلوي مثل هذه الآيات إلي ميوله وهواه.

هذا. . والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

٢ - أحكام القرآن - للكيا الهراسى (الشافعى)

● **ترجمة المؤلف:**

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكيا [٤] الهراسي، الفقيه الشافعي، المولود سنة ٤٥٠هـ (خمسين وأربعمائة من الهجرة). أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلي نيسابور، وتفقه علي إمام الحرمين الجويني مدة حتي برع، ثم خرج من نيسابور إلي بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلي العراق، وتولي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلي أن توفي سنة ٥٠٤هـ (أربع

---

(١) الجزء الثالث ص ٣٠٣ - ٣٠٤ . (٢) الجزء الثالث ص٤٠٦ .

(٣) الجزء الثالث ص٤٩٢ .

(٤) الكيا - بكسر الكاف وفتح الياء المخففة - معناه في اللغة العجمية: الكبير القدر المقدم بين الناس (وفيات الأعيان: ١ / ٥٩٠).

وخمسائة من الهجرة). وكان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثا، يستعمل الأحاديث في مناظراته، ومجالسه، فرضي الله عنه وأرضاه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - أهمية هذا التفسير ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعي:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية وذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام علي وفق قواعد مذهبه الشافعي، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون في جانب مخالفيه.

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التي يقرر فيها: «إن مذهب الشافعي رضي الله عنه أسد المذاهب وأقوامها، وأرشدها وأحكمها، وإن نظر الشافعي في أكثر آرائه ومعظم أبحاثه يترقي عن حد الظن والتخمين، إلي درجة الحق واليقين، والسبب في ذلك أنه – يعني الشافعي – بني مذهبه علي كتاب الله تعالي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه، والغوص علي تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالي فتح له من أبوابه ويسر عليه من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عداه» (٢).

يقرر صاحبنا هذا، وأنا لا أنكره عليه، ولا أغض من مقام الشافعي رحمه الله، ولكنني أقول: إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام ناطق بأن الرجل متعصب لمذهبه، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك في تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعي، وفروع مذهبه، وإن أداه ذلك إلي التعسف في التأويل.

وإذا لم يكفك هذا دليلا علي تعصب الرجل فدونك الكتاب، لتقف بعد القراءة فيه علي مبلغ تعصب صاحبه وتعسفه.

● تأدبه مع الأئمة وحملته علي الجصاص:

غير أن الهراسي – والحق يقال – كان عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخري، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخص فيهم كما خاض الجصاص في الشافعي وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفاً كان فيه شديد المراس، قوي الجدال، قاسي العبارة إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعي، ففند كل شبهة أوردها، ودفع كل ما وجهه إلي مذهب الشافعي، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه

---

(١) انظر وفيات الأعيان: ١/ ٥٨٧ – ٥٩٠. (٢) صفحة: ٢.

اقتص للشافعي من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة، والألفاظ المقذعة(والجزاء من جنس العمل).

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٣) من سورة النساء: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ** ﴾ . . . الآية، نجده يرد علي الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل بأن الزنا بامرأة يحرم علي الزاني أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص علي الشافعي في هذه المسألة، ثم يقول في شأن الجصاص: « إنه لم يفهم معني كلام الشافعي رضي الله عنه، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال، ولتفهم معاني كتاب الله رجال، وليس هو منهم » (١) .

كما يقول :« وقد ذكر الشافعي مناظرة بينه وبين مسترشد طلب الحق في هذه المسألة، فأوردها الرازي متعجبا منها، ومنبها علي ضعف كلام الشافعي فيها، ولا شئ أدل علي جهل الرازي وقلة معرفته بمعاني الكلام من سياقه لهذه المناظرة، واعتراضاته عليها » (٢) .

ويقول بعد قليل :« ولم يعلم هذا الجاهل معني كلام الشافعي رضي الله عنه فاعترض عليه بما قاله، وعجب الناس من ذلك، فقال : في هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل . فكان كما قال القائل:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيمَ »(٣)

كما يقول في موضع آخر: « وكيف يتصدي للتصنيف في الدين من هذا مبلغ علمه ومقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول . . ثم يعترض للطعن فيمن لو عمر عمر نوح ما اهتدي إلي مبادئ نظره في الحقائق، فنسأل الله تعالي التوفيق، ونعوذ به من عمي البصيرة واتباع الهوي » (٤) .

هذا . وإن المؤلف – رحمه الله – ليبين لنا في مقدمة تفسيره الحامل له علي تأليفه، ومنهجه الذي سلكه، وتقديره لكتابه فيقول :« ولما رأيت الأمر كذلك – يريد رجحان مذهب الشافعي علي غيره – أردت أن أصنف كتابا في أحكام القرآن، أشرح ما ابتدعه الشافعي رضي الله عنه من أخذ الدلائل في غوامض المسائل، وضممت إليه ما نسجته علي منواله، واحتذيت فيه علي مثاله، علي قدر طاقتي وجهدي ، ومبلغ وسعي وجدي . . ولا يعرف قدر هذا الكتاب، وما فيه من العجب العجاب، ولباب الألباب، إلا من وفر حظه من علوم المعقول والمنقول، وتبحر في الفروع والأصول ، ثم انكب علي مطالعه هذه الفصول، بمسكة صحيحة، وقريحة همة غير قريحة » (٥) .

---

(١) صفحة : ٢١٣ . (٢) صفحة : ٢١٤ . (٣) صفحة : ٢١٥ .
(٤) صفحة : ٢٢٦ . (٥) صفحة : ٢ .

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما في جميع السور. والكتاب مخطوط في مجلد كبير،وموجود في دار الكتب المصرية، وفي المكتبة الأزهرية.

٣ - أحكام القرآن - لابن العربي (المالكي)

● ترجمة المؤلف:

هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، الأندلسي، الإشبيلي، الإمام، العلامة، المتبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها.. وكان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هـ (ثمان وستين وأربعمائة من الهجرة)، وتأدب بلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلي مصر، والشام، وبغداد، ومكة. وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتي أتقن الفقه، والأصول، وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر.. وأخيرا عاد إلي بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلي المشرق.

وعلي الجملة.. فقد كان - رحمه الله - من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، والجمع لها، متقدما في المعارف كلها، متكلما في أنواعها، نافذا في جمعها، حريصا علي أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلي ذلك كله اداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود سكن بلده ،وشُوورَ فيه، وسمع، ودرس الفقه والأصول - وجلس للوعظ والتغسير، ورُحل إليهَ للسماع، قال القاضي عياض - وهو ممن أخذوا عنه - : (استقضي ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل علي نشر العلم وبثه».

هذا.. وقد ألف رحمه الله - تصانيف كثيرة مفيدة، منها (أحكام القرآن) وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب المسالك في شرح موطأً مالك، وكتاب القبس علي شرح موطأمالك بن أنس،وعارضة الأحوذي علي كتاب الترمذي، والقواصم والعواصم، والمحصول في أصول الفقه، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وتخليص التخليص، وكتاب القانون في تفسير القرآن العزيز، وكتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن. وقيل: إنه ألفه في عشرين سنة، ويقع في ثمانين ألف ورقة، وذكر بعضهم أنه رأي هذا التفسير وعد

أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلدا، وبالجملة فقد خلف - رحمه الله - كتبا كثيرة، انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه في حياته. وهذا.. وقد كانت وفاته - رحمه الله - سنة ٥٤٣هـ «ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة» منصرفه من مراكش، وحمل ميتاً إلي مدينة فاس ودفن بها. فرضي الله عنه وأرضاه»(١).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية.. قائلا: الآية الأولي وفيها خمس مسائل (مثلا) الآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلا)... وهكذا حتي يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة

● **تفسير ابن العربي بين انصافه واعتسافه:**

هذا.. وإن الكتاب يعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه، فظهرت عليه في تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشتط في تعصبه إلي الدرجة التي يتغاضي فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي، ولم يبلغ به التعسف إلي الحد الذي يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيهاً ومقبولاً، والذي يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفيه أحيانا، كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التي تستولي علي صاحبها فتجعله أحيانا كثيرة يرمي مخالفه وإن كان إماما له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح. ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه،فأحيانا يتغلب العقل علي التعصب، فيصدر حكمه عادلا لا تكدره شائبة التعصب، وأحيانا - وهو الغالب - تتغلب العصبية المذهبية علي العقل، فيصدر حكمه مشوبا بالتعسف،بعيدا عن الإنصاف.

● **طرف من إنصافه:**

وإذا أردت أن أضع يدك علي شئ من إنصاف الرجل واستعماله لعقله، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ**﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة السادسة عشرة: قوله تعالي: ﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾: الاعتكاف في اللغة هو اللبث، وهو غير مقدر عند الشافعي، وأقله لحظة، ولا حد لأكثره. وقال مالك وأبو حنيفة: هو

(١) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٢٨١ - ٢٨٤.

مقدر بيوم وليلة، لأن الصوم عندهما من شرطه. قال علماؤنا: لأن الله تعالي خاطب الصائمين. وهذا لا يلزم في الوجهين: أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالي لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه، لأنها حال واقعة لا مشترطة، وأما تقديره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدرة بشرطها، ألا تري أن الطهارة شرط في الصلاة، وتنقضي الصلاة، وتبقي الطهارة..»؟ (١).

فأنت تري أن المؤلف - رحمه الله لم يرقه هذا الاستدلال الذي أظهر بطلانه، وهذا دليل علي أنه يستعمل عقله الحر أحيانا، فلا يسكت علي الزلة العلمية فيما يعتقد، وإن كان فيها ترويج لمذهبه.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ** ﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة والعشرون في قوله تعالي: ﴿ **برءوسكم** ﴾، ثم يذكر أن العلماء اختلفوا في مسح الرأس علي أحد عشر قولا، ثم يأخذ في بيانها واحدا واحدا، ثم يقول: «ولكل قول من هذه الأقوال، مطلع من القرآن والسنة» ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: «وليس يخفي علي أحد عند اطلاعه علي هذه الأقوال والأنحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة، ولا جاوز طرفيها إلي الإفراط، فإن الشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف في التكليف، والآخر طرف الاحتياط في العبادات، فمن احتاط استوفي الكل، ومن خفف أخذ بالبعض» (٢).

فأنت تري أنه يصوب كل ما قيل في مسح الرأس.

وانظر إليه في الآية السابقة حيث يقول: «المسألة السادسة والأربعون: نزع علماؤنا بهذه الآية إلي أن إزالة النجاسة غير واجبة، لأنه قال: ﴿ **إذا قمتم إلي الصلاة** ﴾، تقديره - كما سبق (وأنتم محدثون)، ﴿ **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم** ﴾ فلم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء، ولو كان واجبا لكان أول مبدوء به.. وهي رواية أشهب عن مالك. وقال ابن وهب: لا تجزئ الصلاة بها لا ذاكرا ولا ناسيا.. والصحيح رواية ابن وهب، ولا حجة في ظاهر القرآن، لأن الله سبحانه وتعالي إنما بين في آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، وللصلاة شروط: من استقبال الكعبة، وستر العورة، وإزالة النجاسة... وبيان كل شرط منها في موضعه» (٣).

فأنت تري أنه لا يميل إلي رواية أشهب عن مالك ولا يري في ظاهر الآية ما يشهد له.

● طرف من تعصبه لمذهبه:

وإن أردت أن أضع يدك علي شئ من تعصب ابن العربي، فانظر إليه عندما تعرض

(١) الجزء الأول ص ٤٠. (٢) الجزء الأول ص٢٣٥، ٢٣٦. (٣) الجزء الأول ص ٢٤٠.

لقوله تعالي في الآية (٨٦) من سورة النساء: ﴿ **وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ . . . الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة: إذا كان الرد فرضا بلا خلاف، فقد استدل علماؤنا علي أن هذه الآية دليل علي وجوب الثواب في الهبة للعين، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة، وقال الشافعي: ليس في هبة الأجنبي ثواب.. وهذا فاسد، لأن المرء ماأعطي إلا ليعطي، وهذا هو الأصل فيها، وإنا لا نعمل عملا لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض»؟(١).

● **حملته علي مخالفي مذهبه:**

وإن أردت أن تقف علي مبلغ قسوته علي أئمة المذاهب الأخري وأتباعهم فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا** ﴾ . . . الآية، حيث يقول: «المسألة الرابعة عشرة: هذا يدل علي أن الخلع طلاق، خلافا لقول الشافعي في القديم إنه فسخ. وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخاً لم يعد طلقة. قال الشافعي: لأن الله تعالي ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقوله تعالي ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾[البقرة: ٢٣٠].

وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كل مذكور في معرض هذه الآيات لا يعد طلاقا لوقوع الزيادة علي الثلاث لما كان قوله تعالي ﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ طلاقاً، لأنه يزيد به علي الثلاث، ولا يفهم هذا إلا غبي أو متغاب . . . .إلخ» (٢).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً** ﴾ . . . الآية، حيث يقول: «المسألة الثامنة والعشرون: قوله تعالي: (ماء) . . قال أبو حنيفة: هذا نفي في نكرة وهو يعم لغة، فيكون مفيداً جواز الوضوء بالماء المتغير وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه . . قلنا: استنوق الجمل إلي أن يستدل أصحاب أبي حنيفة باللغات، ويقولون علي ألسنة العرب وهم ينبذونها في أكثر المسائل بالعراء. واعلموا أن النفي في النكرة يعم كما قلتم، ولكن في الجنس، فهو عام في كل ما كان من سماء، أو بئر، أو عين، أو نهر، أو بحر عذب أو ملح، فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء» (٣).

ونجده في موضع من كتابه يرمي أبا حنيفة بأنه كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص

---

(١) الجزء الأول ص١٩٤، ١٩٥.

(٢) الجزء الأول ص٨٢.

(٣) الجزء الأول ص ١٨٦.

للأقيسة [١]، ويقول عنه في موضع آخر إنه: «سكن دار الضرب فكثر عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك، لما صدر عنه إلا إبريز الدين وإكسير الملة، كما صدر عن مالك» [٢].

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾... الآية، حيث يقول في تعريض ساخر: (المسألة الحادية عشرة: قوله عز وجل: ﴿ **فَاغْسِلُوا** ﴾، وظن الشافعي – وهو عند أصحابه معد بن عدنان في الفصاحة بله أبي حنيفة وسواه – أن الغسل صب الماء علي المغسول من غير عرك، وقد بينا فساد ذلك في مسائل الخلاف. وفي سورة النساء، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء، أو ما في معني اليد» [٣].

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣) من سورة النساء ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾.. حيث يقول: «المسألة الثانية عشرة: قوله تعالي﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾ اختلف الناس في تأويله علي ثلاثة أقوال: الأول أن لا يكثر عيالكم، قاله الشافعي. الثاني: أن لا تضلوا، قاله مجاهد. الثالث: أن لا تميلوا، قاله ابن عباس والناس.. قلنا: أعجب أصحاب الشافعي بكلامه هذا، وقالوا هو حجة، لمنزلة الشافعي في اللغة، وشهرته في العربية، والاعتراف له بالفصاحة، حتي قال الجويني: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه علي المعاني ومعرفته بالأصول.. واعتقدوا أن معني الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم، فذلك أقرب إلي أن تنتفي عنكم كثرة العيال... قال ابن العربي: «كل ما قاله الشافعي، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو كله جزء من مالك ونغبة من بحره، ومالك أوعي سمعاً، وأثقب فهماً، وأفصح لسانا، وأبرع بيانا، وأبدع وصفا، ويدلك علي ذلك مقابلة قول بقول في كل مسألة وفصل».

ثم تكلم بعد ذلك عن معني لفظ (عال) في اللغة. ثم قال: «والفعل في كثرة العيال رباعي لا مدخل له في الآية، فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنفع الضاد المنطوق بها علي الاختصاص» [٤].

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٥) من سورة النساء ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾.. الآية، حيث يقول: «المسألة الخامسة: قال أبو بكر الرازي إمام الحنفية في كتاب أحكام القرآن: ليس نكاح الأمة ضرورة، لأن الضرورة ما يخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، وليس في مسألتنا

---

(١) الجزء الأول ص١٧٦.
(٢) الجزء الأول ص٣١٨.
(٣) الجزء الأول ص ٢٣٢.
(٤) الجزء الأول ص ١٣١.

شئ من ذلك. قلنا: هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع، أو متهكم لا يبالي بموارد القول. نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا: إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة، ولكل واحد منهما حكم يختص به. وحالة يعتبر فيها. ومن لم يفرق بين الضرورة والحاجة التي تكون معها الرخصة، فلا يعني بالكلام معه، فإنه معاند أو جاهل، وتقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به» (١).

فأنت تري من هذه الأمثلة كلها. أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي، الذي يقود صاحبه إلي ما لا يليق به، ويدفعه إلي الخروج عن حد اللطافة والكياسة.

● **احتكامه إلي اللغة:**

ثم إن المؤلف - رحمه الله - كثيرا ما يحتكم إلي اللغة في استنباط المعاني من الآيات، وفي الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة (٢).

● **كراهته للإسرائيليات:**

كما أنه شديد النفرة من الخوض في الإسرائيليات، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة البقرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾... الآية، نجده يقول: «المسألة الثانية: في الحديث عن بني إسرائيل: كثر استرسال العلماء في الحديث عنهم في كل طريق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» ومعني هذا الخبر: الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم، لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلي العدالة، والثبوت إلي منتهي الخبر، وما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء علي نفسه أو قومه فهو أعلم بذلك، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزمه قبوله، ففي رواية مالك عن عمر رضي الله عنه أنه قال: رآني رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفا قد تشرمت حواشيه، قال: ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة، فغضب وقال: «والله لو كان موسي حيا ما وسعه إلا اتباعي» (٣).

● **نفرته من الأحاديث الضعيفة:**

كذلك نجد ابن العربي شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، وهو يحذر منها في

---

(١) الجزء الأول ص١٦٤.

(٢) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالي في سورة النساء: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**﴾ [النساء:٣] الجزء الأول، ص١٣١، وما قاله عند تفسير قوله تعالي في الآية ٣٤ من سورة النساء أيضا: ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ**﴾ الجزء الأول، ص١٧٥.

(٣) الجزء الأول ص١١.

تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله ﷺ توضأ مرة وقال« هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به »، وتوضأ مرتين مرتين، وقال: « من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين »، ثم توضأ ثلاثا ثلاثا، وقال: « هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم » يقول لهم بعد ما بين ضعف هذا الحديث :« وقد ألقيت إليكم وصيتي في كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده »[(١)].

هذا والكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

٤- الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبد الله القرطبى (المالكي)

● **ترجمة المؤلف :**

مؤلف هذا التفسر : هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح - بإسكان الراء والحاء المهملة - الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي القرطبي المفسر.

كان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الأخرة، وبلغ من زهده أن أطرح التكلف، وصار يمشي بثوب واحد وعلي رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلي الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخري، حتي أخرج للناس كتبا انتفعوا بها. ومن مصنفاته: كتابه في التفسير المسمي بـ(الجامع لأحكام القرآن)، وهو ما نحن بصدده، وشرح أسماء الله الحسني، وكتاب التذكار في أفضل الأذكار، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة، وكتاب شرح التقصي، وكتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة. قال ابن فرحون: لم أقف علي تأليف أحسن منه في بابه وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة.

سمع من الشيخ أبي العباس بن عمر القرطبي، مؤلف «المفهم في شرح صحيح مسلم» بعض هذا الشرح، وحدث عن أبي علي الحسن بن محمد البكري، وغيرهما. وكان مستقرا بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها في شوال سنة ٦٧١هـ(إحدي وسبعين وستمائة من الهجرة) فرحمه الله رحمة واسعة »[(٢)].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :**

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال:« هو من أجل التفاسير وأعظمها

---

(١) الجزء الأول ص٢٤١.

(٢) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧، ٣١٨.

نفعا،و أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ » (١)، وذكر المؤلف رحمه الله في مقدمة هذا التفسير السبب الذي حمله علي تأليفه، والطريق الذي رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، وشروطه التي اشترطها علي نفسه في كتابه فقال:« وبعد . . . فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلي أمين الأرض رأيت أن اشتغل به مدي عمري، وأستفرغ فيه منيتي » (٢)، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير ، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد علي أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبينا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف . . وشرطي في هذا الكتاب : إضافة الأقوال إلي قائليها، والأحاديث إلي مصنفيها، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلي قائله، وكثيرا ما يجئ الحديث في كتاب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع علي كتب الحديث، فيبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتي يضيفه إلي من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلي جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلا ما لابد منه، وما لا غني عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلي مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول ، والتفسير، والغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل . . . وهكذا إلي آخر الكتاب، وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان » (٣).

والذي يقرأ في هذا التفسير يجد أن القرطبي – رحمه الله – قد وفي بما شرط علي نفسه في هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، وبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيرا إلي اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد علي المعتزلة، والقدرية، والروافض ، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم

---

(١) الديباج المذهب ص ٣١٧ .

(٢) المنـــة : القوة.

(٣) القرطبي : ١ / ٢، ٣ .

يسقط القصص بالمرة، كما تفيده عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما ذكر في مقدمة تفسيره، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروي أحيانا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلي.

هذا.. وإن المؤلف - رحمه الله - ينقل عن السلف كثيرا مما أثر عنهم في التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلي قائله وفاء بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه في التفسير، خصوصاً من ألف منهم في كتب الأحكام، مع تعقيبه علي ما ينقل منها، وممن ينقل عنهم كثيرا: ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، والكيا الهراسي، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحية الأحكام فإنا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

● **إنصاف القرطبي وعدم تعصبه:**

وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتي يصل إلي ما يري أنه الصواب أيا كان قائله.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾.. نجده عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير، ويذكر أقوال من يجيزها ومن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكا، والثوري وأصحاب الرأي، ولكنا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل علي جوازها، وذلك حين يقول: «قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحي إليه كذا.. أوحي إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام فكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند نبي الله حقا، قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنا» فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا، لما كنت أتلقي من الركبان. فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشئ فرحي بذلك القميص»[1].

---

(١) الجزء الأول ص ٣٥٣.

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٧٣) من سورة البقرة ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ .. نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية في اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية فيذكر أن مالكا حظر ذلك عليه. وكذا الشافعي في أحد قوليه، وننقل عن ابن العربي أنه قال: «عجبا ممن أبيح له ذلك مع التمادي علي المعصية وما أظن أحدا يقوله، فإن قاله فهو مخطئ قطعا» ثم يعقب القرطبي علي هذا كله فيقول: « قلت: الصحيح خلاف هذا. فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالي في الآية (٢٩) من سورة النساء: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ وهذا عام ولعله يتوب في ثاني الحال فتمحو التوبة عنه ما كان» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾ ... الآية، نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التي تتعلق بهذه الآية في اختلاف العلماء في حكم صلاة عيد الفطر في اليوم الثاني، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلي صلاة العيد في غير يوم العيد، ويذكر عنه أيضا أنه قال: «لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تقضي، فهذه مثلها»، ثم يعقب القرطبي علي هذا فيقول: «قلت: والقول بالخروج – يعني لصلاة العيد في اليوم الثاني – إن شاء الله أصح، للسنة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثني الشارع من السنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يصل ركعتي الفجر فليصلهما بعد ما تطلع الشمس» قلت: وقد قال علماؤنا: من ضاق عليه الوقت: وصلي الصبح، وترك ركعتي الفجر، فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصلهما حينئذ، ثم إذا قلنا يصليهما.. فهل ما يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتي الفجر؟ قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجاري علي أصل المذهب، وذكر القضاء تجوز قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني علي هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة، مع ما ثبت من السنة، ثم روي عن النسائي بسنده: «أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبي ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلي العيد من الغد، وفي رواية: ويخرجوا لمصلاهم من الغد» (٢).

ومثلا نجده عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٧) من سورة البقرة ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ** ﴾.. الآية، نجده في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه

---

(١) الجزء الثاني ص٢٣٢ .
(٢) الجزء الثاني ص٣٠٤ – ٣٠٥ .

الآية يذكر خلاف العلماء في حكم من أكل في نهار رمضان ناسيا.. فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء، ولكنه لا يرضي ذلك الحكم فيقول: «وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيا لصومه. قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه، وإن صومه تام، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل الصائم ناسيا، أو شرب ناسيا فإنما هو رزق ساقه الله تعالي إليه، ولا قضاء عليه» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، نجده يذكر في المسألة السادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء في حكم المتعة، فيذكر من يقول بوجوبها ويذكر من يقول بندبها، ويعد في ضمن القائلين بالندب مالكا رحمه الله، ثم يقول: (تمسك أهل القول الأول بمقتضي الأمر، وتمسك أهل القول الثاني بقوله تعالي: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢٤١].

ولو كانت واجبة لأطلقها علي الخلق أجمعين. والقول الأول أولي لأن عمومات الأمر بالامتناع في قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وإضافة الإمتاع إليهم بـ (لام التمليك) في قوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ [البقرة: ٢٤١] أظهر في الوجوب منه في الندب. وقوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢٤١] تأكيد لإيجابها، لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراك به ومعاصيه، وقد قال تعالي في القرآن في الآية (٢) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

● **موقفه من حملات ابن العربي علي مخالفيه:**

كذلك نجد القرطبي – رحمه الله – كثيرا ما يدفعه الإنصاف إلي أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانا، علي ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين، الذاهبين إلي ما لم يذهب إليه.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣) من سورة النساء: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.. نراه يروي عن الشافعي أنه فسرها علي معني: ألا تكثر عيالكم، ثم يقول: «قال الثعلبي: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربي: أن عال علي سبعة معان لا ثامن لها، يقال عال: مال، الثاني: زاد، الثالث: جار.

---

(١) الجزء الثاني ص ٣٢٣.

(٢) الجزء الثالث: ص٢٠٠

الرابع: افتقر. الخامس: أثقل.. حكاه ابن دريد. قالت الخنساء: «ويكفي العشيرة ما عالها). السادس: عال: قام بمؤنة العيال، ومنه قوله عليه السلام: (وابدأ بمن تعول). السابع: عال: غلب، ومنه: عيل صبره أي غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله. وأما (عال) بمعني كثر عياله فلا يصح، قلت: أما قول الثعلبي: (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطني في سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد.. فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه. وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكرنا: عال الأمر: اشتد وتفاقم.. حكاه الجوهري. وقال الهروي في غريبه: «وقال أبو بكر: يقال: عال الرجل في الأرض يعيل فيها: إذا ضرب فيها. وقال الأحمر: يقال: عالني الشئ يعيلني عيلا ومعيلا: إذا أعجزك، وأما (عال): كثر عياله، فذكره الكسائي وأبو عمرو الدوري وابن الأعرابي. قال الكسائي أبو الحسن علي ابن حمزة: العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أي كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا.. ولعله لغة. قال الثعلبي المفسر: قال أستاذنا أبو القاسم ابن حبيب: سألت أبا عمرو الدوري عن هذا - وكان إماما في اللغة غير مدافع - فقال: هي لغة حمير وأنشد:

وإن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشي وعالا

يعني: وإن كثر ماشيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتي خشيت أن آخذ علي لاحن لحنا. وقرأ طلحة بن مصرف: (ألا تعيلوا) وهي حجة الشافعي رضي الله عنه. وقدح الزجاج وغيره في تأويل (عال) من العيال بأن قال: إن الله تعالي قد أباح كثرة السراري وفي ذلك تكثير العيال. فكيف يكون أقرب إلي ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن السراري إنما هي مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. وحكي ابن الأعرابي: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة النحل: ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾.. نراه يعيب علي ابن العربي تشنيعه علي من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: «وهذا تشنيع شنيع، حتي يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار» (٢).

وعلي الجملة.. فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.

---

(١) الجزء الخامس ص ٢١، ٢٢.
(٢) الجزء العاشر ص ١٣٠.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلي زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أولي العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه، فتم منه إلي الآن أربعة عشر جزءا تنتهي بآخر سورة فاطر، وعسي أن يعجل الله بإتمام ما بقي منه،حتي يتم به النفع، إنه سميع مجيب (١).

٥ – كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري (من الإمامية الإثنا عشرية)

● **ترجمة المؤلف:**

مؤلف هذا التفسير، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري (٢) أحد علماء الإمامية الإثنا عشرية، والمعروف بينهم بالعلم والفضل، والتحقيق والتدقيق، وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره هذا، ومنها التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائع وشرح مبادئ الأصول.. وغير ذلك، وكان في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري (٣).

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمشي مع القرآن سورة سورة علي حسب ترتيب المصحف ذاكراً ما في كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص وابن العربي مثلا، بل طريقته في تفسيره: أنه يعقد فيه أبوابا كأبواب الفقه، ويدرج في كل باب منها الآيات التي تدخل تحت موضوع واحد، فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد في الطهارة من الآيات القرآنية، شارحا كل آية منها علي حدة، مبينا ما فيها من الأحكام علي حسب ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية في فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخري، ورده علي من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية.

هذا.. وإن طريقته التي يسلكها في تدعيم مذهبه وترويجه، وإبطال مذهب مخالفيه، لا تخرج عن أمرين اثنين:

أولهما: الدليل العقلي.

ثانيهما: دعوي أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت.

أما الدليل العقلي، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه في صحة ما يشذ به.

---

(١) وقد حقق الله الرجاء وتم طبع الكتاب كما قدمنا.

(٢) السيوري: نسبة إلي السيور، وهو ما يقد من الجلد، أو إلي بلد من بلاد اليمن كما في روضات الجنات.

(٣) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦، ٥٦٧.

وأما دعوي أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت، فتلك دعوي كثيراً ما تكون كاذبة، يلجأ إليها الشيعة عندما يعوزهم الدليل، وتخونهم الحجة وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف علي مقدار شذوذ صاحبه:

فمثلاً عند قوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾.. يقول: ﴿ **فَتَيَمَّمُوا** ﴾: أي فتعمدوا واقصدوا، ﴿ **صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾: أي شيئا من وجه الأرض – كقوله: ﴿ **صَعِيدًا زَلَقًا** ﴾ [الكهف: ٤٠]: **(طَيِّبًا)** أي طاهرا، ولذلك قال أصحابنا: لو ضرب المتيمم يده علي حجر صلب ومسح: أجزأه، وبه قالت الحنفية. وقالت الشافعية: لابد أن يعلق باليد شئ، لقوله ﴿ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ** ﴾ [المائدة: ٦] وفيه نظر، لجواز كون (من) هنا ابتدائية. والوجه المراد بغضه، وهو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام. فمسح الجبهة إلي طرف أنفه الأعلي، وكذا المراد باليدين: ظهراليد من الزند إلي أطراف الأصابع» (١).

ويقول عندما تعرض لآية التيمم في سورة المائدة: «وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنتان للغسل»، ثم يرد علي الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخري لليدين، وأن المراد بالوجه كله، وباليدين إلي المرفقين... يرد عليهم فيقول: «وروايات أهل البيت تدفع ذلك» (٢).

وعندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٣٠) من سورة البقرة: ﴿ **فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾.. يقول: «مدلول الآية أنه إذا طلقها الزوج عقيب الطلقتين تنكح زوجا غير ذلك المطلق، وهذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة، فإن ذلك يحرم في التاسعة أبدا – وطلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها علي الشرائط ثم يراجعها في العدة، ثم يطلقها مرة ثانية ويفعل كما فعل أولاً، ثم يطلقها ثالثة، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبداً» (٣).

وهكذا يسير الولف بهذا الشذوذ في كثير من الأحكام، وبهذا التعسف والتخبط في فهم نصوص القرآن، والذي يقرأ الكتاب يري الكثير من ذلك، ويعجب من محاولاته الفاشلة في استنباط ما يشذ به من الآيات التي تجبهه، ولا يمكن أن تتمشي مع مذهبه بحال من الأحوال. هذا... وإن الكتاب مطبوع علي هامش تفسير الحسن العسكري، وموجود بدار الكتب.

* * *

(١) صفحة: ٨، ٩. (٢) صفحة: ٨، ٩. (٣) صفحة: ٢٥٢.

٦ - الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلائي (الزيدي)

● **ترجمة المؤلف:**

مؤلف هذا التفسير هو شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عثمان الثلائي، الزيدي الفقيه، أحد أصحاب الإمام المهدي، وأحد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه. ارتحل الناس إليه من الأقطار إلي (ثلا)، وكان إذا قرأ امتلأ الجامع بالطلبة، وباقيهم بكتبهم في الطاقات من خارج المسجد.

أخذ عن الفقيه حسن النحوي وله تصانيف، منها: الزهور والرياض، و (الثمرات اليانعة)، وهو أجل مصنف عند الزيدية، وهو ما نحن بصدده الآن، وتوفي رحمه الله بـ(ثلا) في شهر جمادي الآخرة سنة ٨٣٢هـ (اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة)[١].

● **التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

يقع هذا التفسير في ثلاثة أجزاء كبار، ومنه نسخة خطية كاملة بدار الكتب المصرية، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني فقط، وهو مخطوط في مجلد كبير، يبدأ من قوله تعالي في الآية (٤) من سورة المائدة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ** ﴾ .. الآية، وينتهي عند قوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة النور: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾.

قرأت في هذا التفسير فوجدت المؤلف يقتصر علي آيات الأحكام، متمشياً مع ترتيب المصحف في سوره وآياته. ويذكر الآية أولاً، ثم يذكر ما ورد في سبب نزولها إن كان لها سبب، ثم يقول: ولهذه الآية ثمرات هي أحكام شرعية: الأولي: كذا، والثانية: كذا.. إلي أن ينتهي من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام.

● **اعتماد المؤلف علي الروايات التي لا تصح:**

ويلاحظ علي هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحري الصحة فيما ينقله من الأحاديث. وما يذكره من ذلك يمر عليه مرا سابريا بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾.. نراه يذكر الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية، ويذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت في علي بن أبي طالب لما تصدق بخاتمه في الصلاة وهو راكع[٢]. وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، ولكن

---

(١) انظر شرح الأزهار: ١/ ٤٣.
(٢) الجزء الثاني ص ٥٨.

المؤلف يذكرها، ثم يأخذ في تفريع الأحكام علي هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

● **تقديره لكشاف الزمخشري:**

كذلك يلاحظ علي المؤلف في تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشري، مما يدل علي أنه معجب به وبتفسيره إلي حد كبير، ولعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمذهب بمذهب الاعتزال.

● **مسلكه في أحكام القرآن:**

أما مسلك المؤلف في أحكام القرآن، فإنه يسرد أقوال السلف والخلف في المسألة، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين، ويعرض لمذهب الشافعية والحنفية، والمالكية، والظاهرية، والإمامية... وغيرهم من فقهاء المذاهب ذاكرا لكل مذهب دليله ومستنده في الغالب. كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم في المسألة التي يعرض لها، مع الإفاضة في بيان أدلتهم التي استندوا إليها، والرد علي من يخالفهم فيما يذهبون إليه.. كل هذا بدون أن نلحظ علي الرجل شيئا من القدح في مخالفيه، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم. وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف علي مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه، وعمله علي تأييده بالبراهين والأدلة:

* **رأيه في نكاح الكتابيات:**

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ إلي قوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾... الآية، نراه يعرض لأقوال العلماء في حكم نكاح الكتابيات فيقول: «ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية، وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن علي، والصادق، والباقر، واختاره الإمام يحيي بن حمزة وقال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهي نصرانية، فلما توفي عثمان خطبها معاوية، فقالت: وما يعجبك مني؟ قال: ثنياتك، فقلعتهما وأمرت بهما إليه، ونكح طلحة نصرانية، ونكح حذيفة يهودية. وقال القاسم، والهادي، والناصر، ومحمد بن عبد الله، وعامة القاسمية وهو مروي عن ابن عمر: إنه لا يجوز لمسلم نكاح كافرة، كتابية كانت أو غيرها، واحتجوا بقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ [البقرة: ٢٢١].. قالوا هذا في المشركات لا في الكتابيات قلنا: اسم المشرك ينطلق علي أهل الكتاب، بدليل قوله تعالي - بعد ذكر اليهود والنصاري في قوله: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وعن ابن عمر: لا أعلم شركا أعظم من قول النصاري إن ربها عيسي. وعن عطاء: قد كثر الله المسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ. قالوا: إنه تعالي عطف أحدهما علي الآخر فدل أنهما غيران حيث قال تعالي: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ [البينة:١].. قلنا هذا كقوله تعالي ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠].. قالوا: الآية مصرحة بالجواز في قوله تعالي: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [المائدة:٥].. قلنا قوله تعالي في سورة الممتحنة: ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله تعالي في سورة النور: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦]، وقوله تعالي في سورة النساء: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ [النساء:٢٥]. فشرط الإيمان في هذا يقتضي التحريم، فتتأول هذه الآية بأنه أراد المحصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلموا، لأنهم كانوا يتكرهون ذلك، فسماهم باسم ما كانوا عليه. وقد ورد مثل هذا في كتاب الله تعالي، قال الله تعالي: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة:١٢١]، وقوله تعالي: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦]، وقوله تعالي: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٩٩] - قالوا: سبب النزول وفعل الصحابة يدل علي الجواز، وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالي: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ [البقرة:٢٢١] عام ونخصه بقوله تعالي: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة:٥]. أو نقول: أراد بالمشركات الوثنيات، وبالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر. أو يكون قوله تعالي: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ ﴾ ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾.. قلنا: نقل ما ذكرتم بما روي أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبي ﷺ وآله عن ذلك فقال: «إنها لا تحصن ماءك». ويروي أنه نهاه عن ذلك. وبأنا نتأول قوله تعالي: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾، فنجمع ونقول: وتخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب متراخ، والبيان لا يجوز أن يتراخي.. قالوا: روي جابر بن عبد الله عن النبي عليه السلام أنه قال: «أحل لنا ذبائح أهل الكتاب وأحل لنا نساؤهم، وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا»، قال في الشفاء: قال علماؤنا: هذا حديث ضعيف النقل. قالوا: قوله صلي الله عليه وآله وسلم في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»... الخبر، فأفاد جواز

ذبائحهم، ونكاح نسائهم. قلنا: الجواز منسوخ بأدلة التحريم. ثم إنا نقوي أدلتنا بالقياس، فنقول: كافرة فأشبهت الحربية، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس. قالوا: لا حكم للاعتبار مع الأدلة»(١).

* **رأيه في المسح علي الخفين:**

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٧) من سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ** ﴾ . . الآية، نراه يعرض لمسألة المسح علي الخفين فيقول: «إن المسح علي الخفين والجوربين لا يجوز ، وهو مروي عن علي عليه السلام وابن عباس، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة، وعائشة. وقال عامة الفقهاء: إنه يجوز المسح عليهما. حجتنا هذه الآية وهي قوله تعالي: ﴿ **وأرجلكم** ﴾ فأمرت بتطهير الرجلين، والماسح علي الخفين لا يكون مطهرا لهما، وكذلك الأخبار التي دلت علي الغسل للقدمين فأما ما روي أنه صلي الله عليه وآله مسح علي الخفين وأمر به، فهذه الأخبار كانت بمكة وبعد هجرته صلي الله عليه وآله، ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخة، ويدل علي هذا ما رواه زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: لما كان في ولاية عمر جاء سعد بن أبي وقاص فقال: يا أمير المؤمنين، ما لقيت من عمار، قال: وما ذاك؟ قال: خرجت وأنا أريدك ومعي الناس ، فأمرت مناديا فنادي بالصلاة، ثم دعوت بطهور فتطهرت ومسحت علي خفي، وتقدمت أصلي، فاعتزلني عمار، فلا هوي اقتدي بي ولا هو تركني، فجعل ينادي من خلفي : يا سعد؛ أصلاة من غير وضوء؟ فقال عمر: يا عمار؛ اخرج مما جئت به، فقال: نعم . . كان النسخ قبل المائدة، قال عمر: يا أبا الحسن؛ ما تقول؟ قال: أقول إن المسح كان من رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم في بيت عائشة، والمائدة نزلت في بيتها، فأرسل عمر إلي عائشة فقالت: كان المسح قبل المائدة، فقل لعمر: والله لأن يقطع قدماي بعقبهما أحب إلي من أن أمسح عليهما، فقال عمر: لا نأخذ بقول امرأة، ثم قال: أنشد الله امرءاً شهد المسح من رسول الله لما قام، فقام ثمانية عشر رجلا كلهم رأي رسول الله صلي الله عليه وآله يمسح وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فأخرج يده من تحتها ثم مسح علي خفيه، فقال عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال سلهم" أقبل المائدة أم بعدها؟ فسألهم، فقالوا: ما ندري، فقال علي عليه السلام: أنشد الله أمرءا مسلما علم أن المسح قبل المائدة لما قام، فقام اثنان وعشرون رجلا، فتفرق القوم وهؤلاء يقولون: لا نترك ما رأينا.

---

(١) الجزء الثاني ص ٦، ٧.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: والله ما مسح رسول الله بعد المائدة ولأن أمسح علي ظهر عير بالفلاة أحب إلي من أن أمسح علي الخفين. وعن علي عليه السلام، سبق الكتاب الخفين – قيل معناه: قطع – وعن أبي هريرة ما أبالي علي خفي مسحت أو علي ظهر حمار. فثبت للنسخ بما ذكر وأما قول جرير: رأيت رسول الله يمسح، وكان إسلامه بعد المائدة فروايته لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين، لأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحاً. هذا كلام أهل المذهب والمسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام»(١).

وهكذا نجد المؤلف – رحمه الله – يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخري مناقشة حادة، وإن دلت علي شئ فهو قوة ذهن الرجل، وسعة اطلاعه. هذا.. ولا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافا كبيرا للمذاهب الفقهية الأخري، كما هو الشأن في كتب التفسير الفقهي للإمامية الإثنا عشرية، وهذا راجع إلي تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة

* * *

(١) الجزء الثاني ص ١٨، ١٩.

الفصل الثامن

التفسير العلمي

● **معني التفسير العلمي:**

نريد بالتفسير العلمي: التفسير الذي يحكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

● **التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به:**

وقد وقع هذا النوع من التفسير، واتسع القول في احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل - إلي جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعلمية - سائر علوم الدنيا علي اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.

● **الإمام الغزالي والتفسير العلمي:**

ويظهرلنا- علي حسب ما قرأنا - أن الإمام الغزالي كان - إلي عهده أكثر من استوفي بيان هذا القول في تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل علي ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية، علي رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن.

وبين أيدينا كتاب (الإحياء) للغزالي نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن، في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل وفيه ينقل عن بعض العلماء «أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع» (١)، ثم يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد علم الأولين و الآخرين فليتدبر القرآن» (٢)، ثم يقول بعد ذلك كله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلي مجامعها» (٣)، ثم يزيد علي ذلك فيقول: «بل كل ما أشكل فهمه علي النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات، والمعقولات في القرآن إليه رمز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها» (٤).

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذي ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذي قرره في الإحياء بيانا وتفصيلا، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها،ويكفي أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلي قسمين:

---

(١) الإحياء :٣/ ١٣٥ مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦هـ .

(٢) المرجع السابق. (٣) نفس المرجع. (٤) المرجع نفسه.

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللغة. وعلم النحو، وعلم القرآءات، وعلم مخارج الحروف. وعلم التفسير الظاهر.

والثاني: علم اللباب. وجعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك (١)

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات.. وغير ذلك، ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخري، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلي ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتماري فيها أن في الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد في هذه الأعصار علي بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها، ويحظي بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان في حق الآدمي محدود والإمكان في حق الملك محدود إلي غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهي العلم في حقه» (٢).

ثم يقول بعد ذلك: «ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالي، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالي وهو بحر الأفعال - مثلاً - الشفاء والمرض كما قال الله تعالي حكاية عن إبراهيم: ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معني للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه، ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالي: ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ [الرحمن: ٥] وقال: ﴿ **وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾ [يونس: ٥] وقال ﴿ **وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾ [القيامة: ٨-٩]، وقال: ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩] وقال: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [يس: ٣٨].. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما

---

(١) جواهر القرآن ص ٢١ - ٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩هـ.

(٢) جواهر القرآن ص ٣١ - ٣٢.

علي الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معني قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار:٦ -٨] إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنا وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها. وقد أشار في القرآن في مواضع إليها وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين. وكذلك لا يعرف معني قوله: ﴿ **سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [الحجر:٢٩، ص:٧٢] ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلي مجامعها.. فتفكر في القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين » (١).

• الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحي الغزالي في القول بالتفسير العلمي، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع في كتابه (الإتقان) في النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضا بمثل هذا الوضوح والتوسع في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به علي أن القرآن مشتمل علي كل العلوم.

فمن الآيات: قوله تعالي في الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾، وقوله في الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ (٢).

ومن الأحاديث: ما أخرجه الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: « ستكون فتن »، قيل: وما المخرج منها؟ قال: « كتاب الله.. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم » (٣).

وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة » (٤).

ومن الآثار: ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: « من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » (٥).

وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شئ، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن) (٦)

---

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ – ٣٤.
(٢) الإتقان: ٢ / ١٣٥.
(٣) الإتقان: ٢ / ١٣٦.
(٤) الإكليل ص٢.
(٥) الإتقان: ٢ / ١٢٦.
(٦) الإكليل ص ٢.

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالي في الآية (١١) من سورة المنافقون: ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها** ﴾، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بـ (التغابن) ليظهر التغابن في فقده » [١].

● **أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي:**

ثم ذكر عن أبي الفضل المرسي أنه قال في تفسيره: « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالي، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس حتي قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالي ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتني قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات . . . إلي غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة ، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتني النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال. واللازم، والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتي إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتني المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظا يدل علي معني واحد، ولفظا يدل علي معنيين، ولفظا يدل علي أكثر، فأجروا الأول علي حكمه، وأوضحوا معني الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني ، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتني الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالي: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ [الأنبياء: ٢٢] . . . إلي غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة علي وحدانية الله، ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي

(١) الإكليل ص ٢ والإتقان :٢/ ٢٦.

الخصوص، إلي غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ.. إلي غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتي ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ .وتنبه آخرون لما فيه من الحكم، والأمثال، والمو اعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد، والوعيد والتحذير، والتبشير، وذكر الموت، والمعاد، والنشر، والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، فصولا من المواعظ، وأصولا من الزواجر فسموا بذلك الخطباء والوعاظ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلي اصطلاح العوام في مخاطبتهم وعرف عاداتهم، الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [لقمان:١٧].

أخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك، علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلي ما فيه من الآيات الدالات علي الحكم الباهرة، في الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ومنازله، والبروج، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلي ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين في الخطاب والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك واستنبطوا منه المعاني، والبيان، والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات،وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاما اصطلحوا عليها، مثل: الفناء، والبقاء، والحضور. والخوف، والهيبة، والأنس، و الوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه، وقد احتوي علي علوم أخر من علوم

الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة،و النجامة، وغير ذلك من العلوم.

أما الطب: فمداره علي نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالي: ﴿ **وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان:٦٧]، وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالي ﴿ **شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ [النحل:٦٩].. ثم زاد علي طب الأجسام بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله تعالي: ﴿ **انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** ﴾ [المرسلات:٣٠ – ٣١].. فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئا كثيرا، ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة. وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضي وما بقي، مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة: ففي قوله تعالي: ﴿ **أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ** ﴾ [الأحقاف:٤]، فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليه، كالخياطة في قوله: ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ** ﴾ [الأعراف:٢٢، طه:١٢١]، والحدادة: ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** ﴾ [الكهف:٩٦] والبناء في آيات، والنجارة: ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [هود:٣٧]، والغزل: ﴿ **نَقَضَتْ غَزْلَهَا** ﴾ [النحل:٩٢]، والنسج: ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا** ﴾ [العنكبوت:٤١] والفلاحة: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ** ﴾ ... الآيات [الواقعة ٦٣، ٦٤]، والصيد في آيات والغوص: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾ [ص:٣٧]، ﴿ **وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً** ﴾ [النحل:١٤]، والصياغة: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا** ﴾ [الأعراف:١٤٨] والزجاجة: ﴿ **مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ** ﴾ [النمل:٤٤]، ﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي**

زُجَاجَةٍ﴾ [النور:٣٥]، والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص:٣٨]، والملاحة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾... الآية [الكهف:٧٩]، والكتابة ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] وفي آيات أخر، والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ [يوسف:٣٦]، والطبخ: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]، والقصارة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ [آل عمران:٥٢] [المائدة:١١٢] [الصف:١٤] وهم القصارون، والجزارة: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣]، والبيع والشراء في آيات، والصبغ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٨]، ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر٢٧]، والحجارة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمي: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠].

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معني قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]. قال السيوطي: انتهي كلام المرسي ملخصا مع زيادات (١).

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة، نجده يذكر عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه (قانون التأويل): « علوم القرآن خمسين علما، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، علي عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينهما من روابط، وهذا مالا يحصي، وما لا يعلمه إلا الله» (٢).

وأخيرا عقب السيوطي علي هذه النقول وغيرها فقال: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز علي كل شئ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصلا إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلي وما تحت الثري و ....و..... إلي غير ذلك مما يحتاج شرحه إلي مجلدات» (٣).

ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين في تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما جد وما يجد إلي يوم القيامة.

ولو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة – نزعة التفسير العلمي – تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلي يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن،

---

(١) الأكليل ص٢ –٥، والإتقان:٣ /١٢٦ – ١٢٨.

(٢) الإتقان:٢/١٣٨. (٣) الإتقان: ٢/١٢٩ – ١٣٢.

وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة علي لسان الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسيوطي، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت علميا، وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيرا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التي تسير علي ضوء هذه الفكرة. ونري أن نؤجل البحث عن التفسير العلمي في هذه المرحلة الأخيرة إلي خاتم الرسالة، حيث نعرض لألوان التفسير في العصر الحديث إن شاء الله تعالي.

• إنكار التفسير العلمي:

إذا كانت فكرة التفسير العلمي قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجا عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجا عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجا عند بعض المتأخرين منهم أيضا.

• إنكار الشاطبي للتفسير العلمي:

ويظهر لنا علي حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسي الشاطبي، الأندلسي، المتوفي سنة ٧٩٠هـ (تسعين وسبعمائة من الهجرة)، وذلك أنا نجده في كتابه (الموافقات) يعقد بحثا خاصا لمقاصد الشارع، وينوع هذه المقاصد إلي أنواع تولي شرحها وبيانها، والذي يهمنا هنا النوع الثاني منها وهو «بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للأفهام» وفي المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن «هذه الشريعة المباركة أمية، لأن أهلها كذلك (١) فهو أجري علي اعتبار المصالح» (٢).. ثم دلل علي ذلك بأمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عقب بفصل ذكر فيه: «إن العرب كان لها أعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه»، ثم ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها: علم النجوم وما يختص به من الاهتداء في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعني. ثم قال: «وهو معني مقرر في أثناء القرآن

---

(١) يريد أن تنزيل الشريعة علي مقتضي حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع الحكيم (انتهي من الشارح: ٢/٦٩).

(٢) الموافقات: ٢/٦٩).

في مواضع كثيرة كقوله تعالي :﴿ وَهُوَ الَّذي جعل لَكُمُ النُّجُومَ لتَهْتَدُوا بهَا في ظُلُمَات البَرِّوالْبحرِ ﴾ [الأنعام:٩٧]، وقوله : ﴿ وعَلامات وبالنَّجم هم يهْتدون ﴾ [النحل:١٦]، وقوله ﴿ والشَّمس تجري لمستقرٍّ لَّها ذلك تقدير العزيز العليم * والْقمر قدَّرْناه منازل حتَّىٰ عاد كالعرجون القديم * لا الشَّمْسُ ينبغي لَها أَن تدرك الْقمر ولا اللَّيْلُ سابقُ النَّهار وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ [يس:٣٩ - ٤٠] ، وقوله ﴿ هو الَّذي جعل الشَّمس ضياء والْقمر نورا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السِّنين والْحساب ﴾ [يونس:٥]، وقوله ﴿ وجعلنا اللَّيل والنَّهار آيتين فمحونا آية اللَّيل وجعلنا آية النَّهار مبصرة ﴾ ... الآية [الإسراء:١٢]، وقوله : ﴿ ولقد زيَّنَّا السَّماء الدُّنيا بمصابيح وجعلناها رجوما لِّلشَّياطين ﴾ [الملك:٥]، وقوله : ﴿ يسأَلُونَكَ عَنِ الأَهلَّة قُلْ هي مواقيت للنَّاس والْحجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] ... وما أشبه ذلك من الآيات.

وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن مثل قوله تعالي ﴿ هو الَّذي يريكُم الْبرق خوْفا وطمعا وينشئُ السَّحاب الثِّقال * ويسبِّح الرَّعْد بحمده ﴾ .. الآية [الرعد:١٢ - ١٣]، وقوله: ﴿ أفرأَيْتمُ الْماء الَّذي تشربون * أَأَنتم أنزلتموه من الْمزْن أم نحن الْمنزلون ﴾ [الواقعة:٦٨ - ٦٩]، وقوله: ﴿ واللَّه الَّذي أرسل الرِّياح فتثير سحابا فسقناه إلىٰ بلد ميِّت فأحْيينا به الأرض بعد موتها ﴾ [فاطر:٩] ... وغير ذلك من الآيات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، وفي القرآن من ذلك ما هو كثير... قال تعالي :﴿ ذلك من أنباء الْغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذْ يلْقون أقلامهم أيُّهم يكْفل مريم ﴾ .. الآية [آل عمران:٤٤]، وقال تعالي : ﴿ تلْك من أنْباء الْغيْب نوحيها إلَيْك ما كنت تعْلمها أنت ولا قومك من قبْل هذا ﴾ [هود :٤٩].

وذكر علم الطب، وبين أنه كان في العرب منه شئ مبني علي تجارب الأميين، لا علي قواعد الأقدمين. قال :« وعلي ذلك المساق جاء في الشريعة لكن علي وجه جامع، شاف، قليل يطلع منه علي كثير، فقال تعالي : ﴿ وكُلُوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [الأعراف:٣١].

وذكر التفنن في علم فنون البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام.. قال: « وهو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن، قال تعالي: ﴿ قُل لَّئن اجتمعت الإنس والْجنُّ علىٰ أن يأتُوا بمثْل هذا الْقرْآن لا يأْتُون بمثْله ولوْ كان بعْضهم لبعْض ظهيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]..

وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالي: ﴿ ولَقَدْ ضربْنا للنَّاس في هذا الْقُرْآن من كلِّ مثل ﴾ [الروم:٥٨]..

وذكر من العلوم التي عني بها العرب وأكثرها باطل أو جميعها : علم العيافة. والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصي، والطيرة، قال : « فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل، ونهت عنه كالكهانة ، والزجر، وخط الرمل. وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب، فإن الكهانة والزجر كذلك ، وأكثر هذه الأمور تخرص علي علم الغيب من غير دليل، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، وهو الوحي والإلهام، والفراسة » (١).

ثم بعد هذا البيان الذي أوضح فيه الشاطبي أن الشريعة في تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلي ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابا وإيضاحا، ويتوجه باللوم إلي من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين، مفندا هذا الزعم، الذي اعتقد أن قائليه قد تجاوزوا به الحد في دعواهم علي القرآن. وذلك حيث يقول في المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني من المقاصد – أعني مقاصد وضع الشريعة للإفهام – « ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية علي مذاهب أهلها – وهم العرب – ينبني عليه قواعد: منها : أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوي علي القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه علي ما تقدم لم يصح » (٢).

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن فيقول :« .. إن السلف الصالح – من الصحابة والتابعين ومن يليهم – كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شئ من هذا المدعي سوي ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا علي أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل علي أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل علي أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ مما زعموا. نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب أو ما ينبني علي معهودها مما يتعجب منه أولوا الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، وأما أن فيه ما ليس من ذلك فلا » (٣).

ثم أخذ الشاطبي بعد هذا في ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمي من الأدلة فقال : « وربما استدلوا علي دعواهم بقوله تعالي : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ**

---

(١) الموافقات :٢ / ٧١ – ٧٦ .
(٢) الموافقات : ١ / ٧٩ .
(٣) الموافقات :٢ / ٧٩ ، ٨٠ .

شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقوله:﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]. ونحو ذلك، وبفواتح السور – وهي ما لم يعهد عند العرب – وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكي من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء» (١).

ثم أخذ الشاطبي رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال:

(فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد،أو المراد بالكتاب في قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور.. فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهدا كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالي، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها علي ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلي القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة علي فهمه علي كل ما يضاف علمه إلي العرب خاصة، فبه يوصل إلي علم ما أودع من الأحكام الشرعية، من طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول علي الله ورسوله فيه، والله أعلم وبه التوفيق) (٢).

هذه هذ الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبي في هذا الموضوع، وذلك هو رأيه، في التفسير العلمي الذي شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين وأحسب أني – وقد وضعت بين يدي القارئ مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة – قد أنرت له الطريق، وأوضحت له السبيل، ليختار لنفسه ما يحلو، بعد أن يحكم علي أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلا.

● **اختيارنا في هذا الموضوع:**

أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله، لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل. ولأن ما أجاب به علي أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقي معها مدعاهم.

وهناك أمور أخري يتقوي بها اعتقادنا أن الحق في جانب الشاطبي ومن لف لفه، فمن ذلك ما يأتي:

أولا – الناحية اللغوية:

وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معني واحد من لدن استعمالها إلي اليوم،

---

(١) الموافقات: ٢ / ٨٠.
(٢) الموافقات: ٢ / ٨١ – ٨٢.

بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، ونحن وإن كنا لا نعرف شيئا عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعاني للكلمة الواحدة حادث بإصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعاني كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرا لحدوثه وطروه علي اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل علي معان جدت باصطلاح حادث، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالي إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعاني التي حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، في الوقت الذي نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتليت أول ما تليت علي من كان حول النبي ﷺ؟.. أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلي من سفه نفسه، وأنكر عقله.

ثانيا - الناحية البلاغية:

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضي الحال، ومعلوم أن القرآن في أعلي درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمي وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعاني المستحدثة لأوقعنا أنفسنا في ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن أو يذهب بفطانة العرب، وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم علي ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوي علوم الأولين والآخرين؟ ولم لم تقم نهضتهم علي هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟.. وهذا أيضا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثا - الناحية الاعتقادية:

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلي عقول الناس جميعا من لدن نزوله إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم شرائع السموات إلي أهل الأرض.

هذا ما يجب علي كل مسلم أن يعتقده ويدين به، حتي يسلم له دينه، ولا يرتاب

فيه، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شئ، وجعلناه مصدرا لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلي ذلك من العلوم المختلفة، لكنا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها ولا بقاء، فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير، لأنه ظهر له خطؤها .وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملا لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية علي ما بينها من التنافي والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولا، فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون علي يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ .

الحق أن القرآن لا يعني بهذا اللون من حياة الناس، ولا يتعهده بالشرح ولا يتولاه بالبيان، حتي يكون مصدرهم الذي يرجعون إليه في تعرف حياتهم العلمية الدنيوية .

ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة - فكرة التفسير العلمي - لم يقولوا بها، ولم يعملوا علي تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم . وبيان صلاحيته للحياة،وتمشيه معها علي اختلاف أحوالها وتطور أزمانها . ولكن « ما هكذا ياسعد تورد الإبل » فإن إعجاز القرآن غني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف، الذي قد يذهب بالإعجاز، وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل علي محمد ﷺ .

وإذا كان أرباب هذا المسلك في التفسير يستندون إلي ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده، ودعوة الله لهم بالنظر في كتاب الكون وآياته التي بثها في الآفاق وفي أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلي مثل هذا في دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، فهم مخطئون ولا شك، وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلي النظر في ملكوت السموات والأرض وفي أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس، وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلي مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلي آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة في النفس وجلال في اللب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة .

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي

يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي، في إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلي الله تعالي.

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضا، أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحي في تفسيرهم، رغبة منهم في إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشي مع التطور الزمني، وحسبهم أن لا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية، تقوم علي أساس من الحق، وتستند إلي أصل من الصحة.

* * *

الخاتمة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث

● **التفسير بين ماضيه وحاضره:**

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميه، إذ أنهم نظروا إلي القرآن باعتباره دستورهم الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن علي تدرج ملحوظ، وتلون بألوان مختلفة مرت بك كلها. أو مر بك علي التحقيق ما وصلنا إليه في دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة.

والذي يقرأ كتب التفسير علي اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية،والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية، الفلسفية. كل هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسرون الأول بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلي ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم إلا عملا ضيئلا لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدمين، أو شرحا لغامضها، أو نقدا وتفنيدا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحا لرأي علي رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

● **مميزات التفسير في العصر الحديث:**

ولقد ظل الأمر علي هذا، وبقي التفسير واقفا عند هذه المرحة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعداها، ولا يحاول التخلص منها. حتي جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلي أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير علي ما دونه الأوائل في التفسير - أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن تأثيرا لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل علي التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حشرت في التفسير حشرا ومزجت به علي غير ضرورة لازمة، والعمل علي تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة علي رسول الله ﷺ، أو علي أصحابه عليهم رضوان الله تعالي، وإلباس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا،

يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، علي تفاوت بين الموفقين في الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشي مع الزمن في جميع أطواره ومراحله.. وهناك غير هذه الآثار آثار أخري ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي، والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام علي حرية الرأي الفاسد.

● **ألوان التفسير في العصر الحديث:**

وعلي ضوء ما تقدم، نستطيع أن نجمل ألوان التفسير في العصر الحديث في الألوان الأربعة الآتية وهي أهمها:

أولا: اللون العلمي. **ثانيا**: اللون المذهبي.

ثالثا: اللون الإلحادي. **رابعا**: اللون الأدبي الاجتماعي.

وسأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير في العصر الحديث، علي حسب ترتيبها، وبمقدار ما استفدت من قراءتي في كتب التفسير وما يتصل به من مؤلفات جدت في هذا العصر، والله ولي التوفيق:

اللون العلمي للتفسير في عصرنا الحاضر

تكلمنا عن التفسير العلمي فيما سبق، وبينا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين، فمنهم من أيده وقال به، ومنهم من فنده ومنع منه.

وقلنا: إن التفسير العلمي كان أكثر رواجا وأعظم قبولا لدي المتأخرين وأجملنا القول في هذه النقطة الأخيرة. ووعدناك بالتوسع فيها عندما نعرض لهذه الخاتمة التي نحن بصددها، ووفاء بوعدي أقول:

● **رواج التفسر العلمي في عصرنا الحاضر:**

إن هذا اللون من التفسير - أعني التفسير العلمي الذي يرمي إلي جعل القرآن مشتملا علي سائر العلوم ما جد منها وما يجد - قد استشري أمره في هذا العصر الحديث، وراج لدي بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت علي قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيرا من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحمِّلوا القرآن كل علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقادا منهم - كما قلنا - أن هذا بيان لناحية من أهم نواحي صدقه، وإعجازه، وصلاحيته للبقاء.

● أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون:

ومن أهم هذه الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل، والطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري، وهو كتاب كبير الحجم، يقع في ثلاثة مجلدات. ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧هـ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

ورسالة عبد الله باشا فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة، بالوارد في النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.

وبين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) لرجل الإصلاح الإسلامي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي، وهو عبارة عن مجموع مقالات له، نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨ هـ، وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك) وفي هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - ينحاز انحيازا بليغا إلي هذا اللون من ألوان التفسير، فيصف القرآن بأنه « شمس العلوم وكنز الحكم » (١)، ويقرر بأن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسمي الآلاء والأخلاق من القرآن،وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو (أنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون) ، ثم يقول:(وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهي أهم مسألة في الدين، لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا علي ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحته، وبلاغته، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون » (٢).

ثم نراه يأخذ في بيان اشتمال القرآن علي ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: «إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات، لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز.. لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن علي إعجازه بصدق قوله تعالي: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].. برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان، ومثال ذلك، أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة، تعزي لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنه كلام رب لايعلم الغيب سواه.

---

(١) صفحة: ٢٢. (٢) صفحة :٢٣.

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١].

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾إلي أن يقول: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.. [يس:٣٣ - ٤٠].

وحققوا أن الأرض منفتقة من النظام الشمسي، والقرآن يقول:﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء:٣٠].

وحققوا أن القمر منشق من الأرض، والقرآن يقول:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد:٤١]، ويقول: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر:١].

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول:﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢].

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضي الثقل النوعي أن تميد الأرض، أي ترتج في دورتها، والقرآن يقول:﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل:١٥، لقمان:١٠].

وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيماوي - بل والمعنوي - ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد:٨]..

وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور، والقرآن يقول:﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

وحققوا أن العالم العضوي - ومنه الإنسان - ترقي من الجماد، والقرآن يقول:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنين:١٢].

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات، والقرآن يقول: ﴿ خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ ﴾ [يس:٣٦] ويقول:﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه:٥٣]، ويقول: ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥]، ويقول:﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد:٣].

وكشفوا طريقة إمساك الظل - أي التصور الشمسي - والقرآن يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ [الفرقان:٤٥].

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، والقرآن يقول - بعد ذكره الدواب والجواري بالريح- : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤٢].

وكشفوا وجود الميكروب وتأثيره كالجدري وغيره من المرض، والقرآن يقول:﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل: ٣]: أي متتابعة مجتمعة ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل:٤]: أي من طين المستنقعات اليابس.. إلي غير ذلك من

الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية، وبالقياس علي ما تقدم ذكره يقتضي أن كثيرا من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون، تجديدا لإعجازه ما دام الزمان وما كر الجديدان » (١).

وبين أيدينا كتاب (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفي صادق الرافعي وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية ومن المؤيدين لها، وفي هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - يعقد بحثا خاصا لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن القرآن (بآثاره النامية، معجزة أصلية في تاريخ العلم كله علي بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلي ما شاء الله) (٢)، ثم يستطرد إلي ذكر بعض ما نقله السيوطي في الإتقان والإكليل عن العلامة المرسي في اشتمال القرآن علي سائر العلوم، وهنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول :(قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه في القرآن بقوله تعالي : ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** ﴾ [غافر:١٥] . . قال: فإن عدد ﴿ **رَفِيع** ﴾ بحساب الجمل ثلاثمائة وستون، وهي عدد درج الليل والنهار) ثم يقول الرافعي نفسه بعد هذا :« وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، وتواريخها، وأسرارها، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث »(٣) .

ثم نري الرافعي - رحمه الله - يسترسل في حديثه إلي أن يقول :(وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلي مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه (٤) . علي أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن، وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلي حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها »، ثم يقول : « وقد أشار القرآن إلي نشأة هذه العلوم وإلي تمحيصها وغايتها علي ما وصفناه آنفا، وذلك قوله تعالي :﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالي : ﴿ **فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخري،

---

(١) صفحة ٢٣ - ٢٥ . (٢) صفحة :١٠٨ .

(٣) صفحات ١١٣، ١١٤ (هامش) مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩هـ.

(٤) وهنا نري المؤلف يعلق علي قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبي من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.

فإن لم يكن هذا التعبر من الإعجاز الظاهر بذاهة فليس يصح في الأفهام شئ » [١] .

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف ينحاز إلي هذا اللون من ألوان التفسير في كتابه(الإسلام والطب الحديث)، الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر. وبين أيديها هذا الكتاب وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سصنة ١٣٥٧هـ ، وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن « ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحيانا إلي سنن طبيعية ترجع إلي هذه العلوم » [٢] ، كما يقرر أن كثيرا من آيات القرآن « لا يفهم شيئا من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة » [٣] .

كما يؤكد أن العلم الحديث « كشف عن معني بعض الآيات، وسينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلي الدين » [٤] .

وفي هذا كما تري اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض الآيات القرآنية، لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة، وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله ﷺ ، وسلف الأمة رضوان الله عليهم.

وإذا نحن تتبعنا ما في هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لايقصده القرآن، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية.

فمثلا نجده يعرض لقوله تعالي في الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿ **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ .. تحت عنوان: (الحياة تحت ضوء القرآن).

وفيه يقول: « .. هذه الآية الكريمة معناها – والله أعلم – (وتأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان .. إلخ، أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة، وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع، لأن هذا يجب أن لا يكون سببا مهما للأفضلية ... » .

ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية، وما فيها من نسبة المواد الزلالية. ثم يقول: « وقد اهتدت أخيرا لجنة الأبحاث بإنجلترا إلي أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها، وفي المقدار منها الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالي:

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

---

(١) صفحات: ١٢٤ – ١٢٦ . (٢) صفحة: ١ . (٣) صفحة: ١ . (٤) صفحة: ١١٢ .

ثم يقول: «إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف - واعجب لقوله: لخصها القرآن الشريف - لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة»(١).

وغير هذا كثير في كتاب (الإسلام والطب الحديث) مما لا نصدق أنه مراد لله من خطابه للعرب بالقرآن، وإن كان لا يتعارض - كما قلنا - مع ما ثبت من ذلك علميا وتحققت صحته.

هذا.. وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعا للنزعة التفسيرية العلمية، وأكثرهم إنتاجا لهذا التفسير العلمي، هو المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري، إذ أنه علي حسب ما رأينا أكثر من جمع في هذا وأطال في تفسيره (الجواهر) الذي يقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا، والمطبوع بمصر سنة (١٣٤١هـ - ١٣٥١ هـ) ولهذا أري أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقه مؤلفه ومنهجه الذي سلكه فيه.

* * *

(١) صفحات: ١٣ - ١٥.

الجواهر في تفسير القرآن الكريم
(للشيخ طنطاوي جوهري)[١]

● الدوافع التي حملت المؤلف علي كتابة هذا التفسير:

خلق الفيلسوف الإسلامي المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري – كما يقول هو عن نفسه – « مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية، مشوقا إلي ما في السماء من جمال، وما في الأرض من بهاء وكمال »، ثم كان منه – كما يقول – أنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية، ألفي أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعاني معرضين، وعن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم وما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلي أن ألف كتبا كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعل آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق، وكان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم والأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و (النظام و الإسلام) و (الأمة وحياتها) ولكنه وجد أن هذه الكتب – رغم كثرتها، وانتشارها، وترجمتها إلي اللغات الأجنبية، لم تشف غليله، فتوجه إلي ذي العزة والجلال، أن يوفقه إلي أن يفسر القرآن تفسيرا ينطوي علي كل ما وصل إليه البشر من علوم، فاستجاب الله دعاءه، وتم له ما أراد.

● متي وكيف شرع المؤلف في كتابة هذا التفسير؟

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرسا بمدرسة دار العلوم ، فكان يلقي تفسير بعض آيات علي طلبتها . وبعضها كان يكتب في مجلة الملاجئ العباسية ثم والي سيره في التفسير حتي أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة.

● غرض المؤلف من تفسيره:

ولقد أمل المؤلف – رحمه الله – من وراء هذا التفسير – كما يقول – « أن يشرح الله به قلوبا، ويهدي به أمما، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية »، وقال « وإني لعلي رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج علي منوال هذا التفسير المسلمون، وليقرأن في مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهم إلي العلا وليكونن داعيا حثيثا إلي درس العوالم العلوية والسفلية،

---

(١) ولد سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وتوفي سنة ١٣٥٨هـ (١٩٤٠م) عن كتاب الأعلام للزركلي: ٣/٣٣٣، ٣٣٤. طبعة ثانية. وفي كتاب الأعلام الشرقية للأستاذ (زكي مجاهد) :٢/١١٦، ١١٧ طبع القاهرة: أنه توفي في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٣٩م) ، وفيه نظر.

وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات».

● مسلك المؤلف في تفسيره:

ولقد وضع المؤلف في تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق مما يشوق المسلمين والمسلمات – كما يقول – إلي الوقوف علي حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات، والأرض والسموات.

هذا.. وإن المؤلف – رحمه الله – ليقرر في تفسيره أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو علي سبعمائة وخمسين آية، في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة علي مائة وخمسين آية، كما يقرر «أن الإسلام جاء لأمم كثيرة وأن سور القرآن متممات لأمور أظهرها العلم الحديث» [١].

وكثيرا ما نجد المؤلف – رحمه الله – في تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلي علوم الكون، ويحثهم علي العمل بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات علي كثرتها، وينعي علي من أغفلها من السابقين الأولين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة.

نجد المؤلف يكرر هذه النغمة في كثير من مواضع الكتاب فيقول في موضع منه: «يا أمة الإسلام؛ آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعري.. لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ولكني أقول: الحمد لله.. الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عين علي كل قادر ... إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن، هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم» [٢].

ويقول في موضع آخر: «إن نظام التعليم الإسلامي لابد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن، بل هي علوم لفظه، وما نكتبه اليوم علوم معناه، وانطباقها علي العلوم التي أظهرها الله في الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من

---

(١) رجعنا في هذا إلي مقدمة الكتاب وخاتمته وجمعناه ملخصا.

(٢) الجواهر: ٣/ ١٩.

قوله تعالي: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة:١٩] فإن البيان المذكور في سورة القيامة فسر بمعني أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقراك جبريل، وبمعني أنه إذا أشكل شئ من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر في هذا التفسير وما لم يذكر، من البيان الذي أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام، فالحمد لله الذى وفق في هذا التفسير لبعض العرفان تصديقا لما ذكر الله من أن عليه البيان » (١).

ويقول في موضع آخر: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه.. وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة. وهناك آيات أخري دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. ويجهلوا علما آياته كثيرة جدا؟ إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات.. لنقم به لترقي الأمة» (٢).

● لم يلق تفسير الجواهر قبولا لدي كثير من المثقفين:

هذه المقالات – وغيرها كثير في تفسير الجواهر – نجد أغلبها قد صدر من المؤلف في مقام الرد علي من كان يوجه إليه اللوم والاعتراض علي ما كان منه من تحميل القرآن الكريم علوما ونظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها، ولا صلة للقرآن بشئ منها.

ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف – رحمه الله – لاقي الكثير من لوم العلماء علي مسلكه الذي سلكه في تفسيره، مما يدل علي أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولا لدي كثير من المثقفين.

● مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر:

ولعل هذا المنزع في تفسير القرآن الكريم هو السر الذي من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلي بلادها، كما يجد القارئ ذلك في نص الكتاب المرسل من المؤلف إلي الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد والحجاز (ص ٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين).

● طريقة المؤلف في هذا التفسير:

هذا وإني – بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير – أستطيع أن أعطيك صورة

---

(١) الجواهر: ٢٥/ ٤٠.

(٢) الجواهر: ٢٥/ ٥٣.

واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التي سلكها فيه، وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيرا لفظيا مختصرا، لا يكاد يخرج عما في كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظيا، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو (لطائف) أو (جواهر) . . هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، أتي بها المؤلف ، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلي هذه الأبحاث ونبه علي تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة .

ثم إننا نجد المؤلف – رحمه الله – يضع لنا في تفسيره هذا كثيرامن صور النباتات، والحيوانات، ومناظرة الطبيعة، وتجارب العلوم، بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس.

كذلك نجد المؤلف – رحمه الله – يستشهد أحيانا علي ما يقول بما جاء في الإنجيل، واعتماده فيما ينقل علي إنجيل(برنابا) لأنه – كما يري – أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قبل.

وكثيرا ما نري المؤلف – رحمه الله – يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم وهو حين ينقلها يبدي لنا رضاه عنها، وتصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ .

كما أنه يستخرج كثيرا من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذي لا نصدق أنه يوصل إلي حقيقة ثابتة، وإنما هي عدوي تسربت من اليهود إلي المسلمين، فتسلطت علي عقول الكثير منهم .

هذا. .وإنا لنجد المؤلف – رحمه الله – يفسر آيات القرآن تفسيرا علميا يقوم علي نظريات حديثة، وعلوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل، ولست أري هذا المسلك في التفسير إلا ضربا من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله .

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

● **نماذج من هذا التفسير :**

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦١) من سورة البقرة : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ﴾ . . .

الآية، نجده يقول: «(الفوائد الطبية في هذه الآية) ثم يأخذ في بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية، ويذكر مناهج أطباء أوروبا في الطب، ثم يقول: «أو ليست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن؟ أو ليس قوله: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ رمزا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى.. وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقي والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم، والإكثار من ألوان الطعام، مع الذلة، وجوز الحكام، والجبن وطمع الجيران من الممالك، فتخطفكم في حين غفلة وأنتم لا تشعرون بمثل هذا تفسير هذه الآيات. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾... الآيات إلى آخر القصة، نجده يعقد بحثا في عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر – فيما يذكر – علم تحضير الأرواح فيقول: «... وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه، إن هذه الآية تتلى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا، ثم بسائر أوروبا ثانيا».. ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، ثم قال أخيرا: «ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة للعزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم.. وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السووة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها. فلا تيأسوا من ذلك، فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزير، وإبراهيم، وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠] (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿**الٓمٓ**﴾ نجده يعقد بحثا طويلا عنوانه: «الأسرار الكيميائية، في الحروف الهجائية، للأمم الإسلامية، في أوائل السور القرآنية» وفيه يقول: «انظر رعاك الله – تأمل – يقول الله: ﴿**أ. ل. م**﴾، ﴿**طس**﴾، ﴿**حم**﴾.. وهكذا يقول لنا أيها الناس؛ إن الحروف الهجائية، إليها تحلل

---

(١) الجواهر: ١/ ٦٦ – ٦٧. (٢) الجواهر: ١/ ٧١ – ٧٧.

الكلمات اللغوية، فما من لغة في الأرض إلا وأرجعها أهلها إلي حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية، أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية، فلا صرف، ولا إملاء، ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلي حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون.

ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم، لأنها وسيلة إلي معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلي أصولها فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهي أولي بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلي أصولها الأولية التي لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلابمعرفة العناصر وتحاليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلي تحليل العلوم» (١).

ومثلا نراه يعرض لقوله تعالي في الآية (٢٤) من سورة النور: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾..

وقوله في الآيات (٢٠ - ٢٢) من سورة فصلت: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾.

وقوله من الآية (٦٥) من سورة يس: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

ثم يقول: «أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام، وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة، هو نفس الذي صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للإنسان: ﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الإسراء: ١٤]، والقائل: ﴿ **بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾ [القيامة: ١٤] أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلي أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين؟ وأن هناك ما هو أفضل منها؟. وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها. ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدي فيها أسرار، وفي الأرجل أسرار، وفي النفوس أسرار: فالأيدي لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا علي الجانين والسارقين بآثارهم.. أو ليس في الحق أن أقول: إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها» (٢).

---

(١) الجواهر: ٢/ ١٠- ١١. (٢) الجواهر: ٣/ ٩.

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيتين (٥، ٦) من سورة طه ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾ .. نجده يقول: «قوله: ﴿ **وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ دخل في ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمي (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعية قديما وحديثا، وقوله: ﴿ **وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا في زماننا، وهما علم طبقات الأرض، المتقدم مرارا في هذا التفسير، وعلم الآثار، المتقدم بعضه في سورة يونس.. فالله هنا يقول: ﴿ **وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾ ليحرص المسلمون علي دراسة علوم المصريين التي تظهر الآن تحت الثري» (١).

ومثلا عند قوله تعالي في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا** ﴾ .... الآية، يقول «ها أنت قد اطلعت علي ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أن السموات والأرض - أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم - كانت ملتحمة ففصلها الله تعالي، وقلنا إن هذه معجزة، لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا في هذه العصور، ألا تري أن كثيرا من المفسرين قالوا: إن الكفار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم، فكان جوابهم علي ذلك أنهم أخبروا به في نفس هذه الآية، فكأن الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به، وذلك أن هذه الأمور لم تخلق. وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتي لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله، وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله، علي أيدي الفرنجة، كما نطق القرآن هنا، كأنه يقول: سيري الذين كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالي: ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ** ﴾ [أول سورة النحل].. وهذه معجزة تامة للقرآن، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا» (٢).

ومثلا عند قوله تعالي في الآية (١٥) من سورة الرحمن: ﴿ **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ .. نجده يقول: «والمارج المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه. فلفظ المارج يشير إلي تركيب الأضواء من ألوانها السبعة، وإلي أن اللهب مضطرب دائما، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلي أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلي التهذيب والتكميل. تأمل في مقال علماء الأرواح الذين

---

(١) الجواهر: ١٠ / ٦٤، ٦٥.
(٢) الجواهر: ١٠ / ١٩٩.

استحضروها إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة » (١).

وعند قوله تعالي في الآية (٣٥) من السورة نفسها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ . . يقول :« إنه عبر هنا بـ ﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وفيما تقدم بقوله :﴿ من مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ ، والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل الجان مخلوقا من مارج ولم يقل من شواظ؟ فاعلم أن المارج فيه معني الاضطراب كما تقدم.

وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح، وأيضا اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل.. وهذه الفكرة لم تعرف قط إلا في زماننا هذا ، فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط ، والاطلاع علي عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة، لم يكن إلا في زماننا، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس أو لأبي العلاء، أو المتنبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم؟ كلا.. فهذه بلاغة لا تخطر ببالهم، وأني لهم علم الروح حتي يخصنصوها بلفظ مارج؟ وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ » (٢).

ومثلا في سورة الزلزلة نجده يفسرها تفسيرا لفظيا مختصرا، ثم يذكر ما فيها من لطائف، مستعرضا ما وقع من حوادث الزلزال في إيطاليا، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض وما كثر في هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض، مثل ما كشف في مصر من آثار قدمائها، ثم يقول- بعد ما يفيض في هذا وغيره :« ألست تري أن هذه السورة – وإن كانت واردة لأحوال الآخرة – تشير من طرف خفي إلي ما ذكرنا في الدنيا؟ فالأرض الآن كأنها في حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها، كنوزها وموتاها وغيرها، والناس الآن يتساءلون، وها هم أولاء يلهمون الاختراع، وها هم أولاء مقبلون علي زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها، وكل إنسان في عمله الخاص به وينتفع به » (٣).

ومثلا نجده بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، يذكر لنا بحثا مستفيضا عنوانه: « تطبيق عام علي سورة الكوثر والنصر وما بينهما » وفيه نجدة يتأثر بنزعته التفسيرية العلمية إلي درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من

---

(١) الجواهر:٢٤ /١٧ . (٢) الجواهر:٢٤ /٢٧ .
(٣) الجواهر :٢٥ /٢٤٩ – ٢٥١ .

المعاني الرمزية ما يستبعد أن يكون مرادا لها. وذلك أنه يقرر أولا أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة، ولا بفتح مكة ونصر جيشها، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور في أول عمرها، وسيطول إن شاء الله، وكم سيكون لها من فتوح وانتصارات.

ثم قال: «وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب، وورثة النبي الذي جاء منا ﷺ، ولغتنا في مصر، والشام، والعراق، وشمال إفريقيا، هي لغة القرآن فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها، خوفا من أهل زمانهم، ولكنا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، وقسطها من الإصلاح».

ثم أخذ يبين لنا الكوثر، وأوصاف كيزانه، وطيره، وأوصاف من سيرد عليه من المسلمين، بما جاء في الأحاديث عن رسول الله ﷺ. ثم قال - بعد هذا كله: «اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقي مما يراها الذين لا يفكرون، كم أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة، وصورة مفرحة، وبهجة وجمال. ولا نزال نري كل أمة حاضرة كفائتة. جميعهم يصيغون ما يريدون من الجمال، والحكمة والعلم، وأرقي الأمة بهيئة تسر الجمهور».

ثم يقول: «الجاهل يسمع الدر والياقوت، وشرابا أحلي من العسل، فيفرح ويعبد الله ليصل إلي هذه اللذات التي تقر بها عينه.. والعالم ينظر فيقول: إن هذا القول وراءه حكمة ووراءه علم، لأني أري في خلال القول عجائب. فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء! وأي دخل لنجوم السماء هنا؟ ولماذا عبر به»؟.. ثم يقول: «لماذا ذكر أن الذين يردون الحوض عليهم آثار الوضوء؟ولم؟.. ولم؟.. الحق أن نبينا محمدا ﷺ يريد أمرين: أمرا واضحا جليا يفرح به جميع الناس، وأمرا يختص بالقواد والعظماء.

إن النبوة بأمر الله، والله جعل في أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر، وحكماء يستخرجون علوما، وكل لا يعرف إلا علمه، فالطبيب يشارك الفلاح في أنه يأكل، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطيبة. وهكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء في أنهم يفهمون الحوض كما فهموه، ويردونه معهم كما يردونه، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها. فماذا يقولون؟ يقولون إن النبي ﷺ يريد معاني أرقي. إن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علي قلب بشر، فليس الماء الذي هو أحلي من العسل وأبيض من الثلج كل شئ هناك، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها، وأي شئ عدد

نجوم السماء؟ ولماذا اختصت التجوم بالعدد والوضوء بالأثر؟ والذي نقوله: إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه علي ظاهره، فلا المسك الإذفر، ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت، ولا حلاوة العسل الذي في ذلك الماء، ولا اتساع الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج، العذبة المشارب، السارة للناظرين..»، ثم يخلص من هذا كله إلي الاستدلال علي أن ما ذهب إليه من قبيل الكناية التي هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعني الأصلي، ثم يقول - بعد بيان هذه الكناية: «.. هنا يكون النصر ولا يكون إلا بعد أن يتجافي الناس عن أفعال الملحدين والكافرين، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة الكافرون. هنا يكون نصر الله والفتح، ويدخل الناس في هذه العلوم الحقيقية أفواجا. وعلي حكماء المسلمين الذين بعدنا متي نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم علي الجهل في العالم الإنساني، وأصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم رحمة للعالمين، متي رأي العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر في زماننا، وهو الفتح، وإذن فعلي القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه»... إلخ (١).

هذا هو تفسير الجواهر، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ، ليقف علي مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية علي قلم مؤلفه وقلبه.

والكتاب - كما تري - موسوعة علمية، ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي، فقيل عنه: «فيه كل شئ إلا التفسير» بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولي به، وإذا دل الكتاب علي شئ، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرا ما يسبح في ملكوت السموات والأرض بفكره، ويطوف في نواح شتي من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق في نواح شتي من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنا لكل ما جاء ويجئ به الإنسان من علوم ونظريات، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقا لقول الله تعالي في كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].. ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه وقد عرفت رأينا في المسألة فلا نعيده.

● إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير:

لم يقف العلماء في هذا العصر موقف الإجماع علي قبول هذا اللون من التفسير،

---

(١) الجواهر: ٢٥/ ٢٦٩ - ٢٧٣.

بل نراهم مختلفين في قبوله والقول به، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين..

وإذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلي هذه الفكرة في التفسر وتأثر بها في مؤلفاته، فإنا نجد بجوار هؤلاء أيضا كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسير، ولم تستسغ أن تشرح به كتاب الله تعالي، ولم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة علي أهلها وتناولهم إياها بالنقد والتفنيد.

نجد هذه المعارضة في كثير من المحاورات والاعتراضات التي وجهت إلي صاحب الجواهر، وذكرها لنا في تفسيره.

كما نجد بعض أساتذنا المعاصرين ينعون علي من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت. فقد تناول هذا الموضوع بالبحث في العدد (٤٠٧)، (٤٠٨) من السنة التاسعة لمجلة الرسالة – إبرايل سنة ١٩٤١ – وفيه يرد علي من يذهب إلي هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولي يتناول هذا الموضوع في كتابه «التفسير: معالم حياته. منهجه اليوم» وفيه يرد علي أنصار هذا المذهب في التفسير بحجج قوية واضحة،استفدنا منها كثيرا في تأييد ما اخترنا من المذهبين.

وهذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا. نجده في مقدمة تفسيره ينعي علي من تأثروا في تفسيرهم بنزعاتهم العلمية، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو، والفقه، ونكت المعاني، والبيان، والإسرائيليات... وغير ذلك ويعد هذا صارفا يصرف الناس عن القرآن وهديه، ثم ينعي علي الفخز الرازي ما أورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة، ويعد هذا صارفا يصرف الإنسان عن القرآن وهديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم علي من قلد الفخر الرازي في مسلكه من المعاصرين، وأظنه أراد صاحب الجواهر وذلك حيث يقول: «وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن، هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة • بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض – من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن»(١).

وأخيرا.. فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغي – رحمه الله رحمة واسعة – نجده في تقريظه لكتاب (الإسلام والطب الحديث) لا يرضي عن هذا المسلك في التفسير، رغم أنه مدح الكتاب وأشاد بمجهود مؤلفه،

---

(١) تفسير المنار: ١ / ٧.

وذلك حيث يقول: «لست أريد من هذا – يعني ثناءه علي الكتاب ومؤلفه – أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل علي جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتي بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه» (١).

وفي موضع آخر يقول: «يجب أن لا نجر الآية إلي العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلي الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها» (٢).

ومن هذا كله يتبين أن التفسير العلمي في العصر الحديث إن كان قد لقي قبولا ورواجا عند بعض العلماء، فإنه لم يلق مثل هذا القبول والرواج عند كثير منهم، وقد علمت فيما سبق أي الرأيين أقرب إلي الحق وأحري بالقبول

اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر

لم يبق من الفرق المنسوبة إلي الإسلام في هذا العصر الحديث من له كيان أو شئ من الكيان – حسبما نعلم – إلا أهل السنة، والإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعلية، والزيدية، والإباضية من الخوارج، والبهائية من الباطنية.. هذه هي الفرق التي لا تزال في اعتبارنا قائمة إلي يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التي تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها.

وإذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق في عصورها السابقة علي عمل ظاهر في تفسير كتاب الله، وشرحه علي حسب ما تمليه عقيدة المفسر، وما يوحي به إليه، فإنا لا نعدم هذا اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم في هذا العصر الحديث، ولكن بمقدار ما بقي من هذه المذاهب قائما إلي هذا العصر الذي نتكلم عنه، ونتحدث عن ألوان التفسير فيه.

نعم.. بقي اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم قائما في هذا العصر الحديث، بمقدار ما بقي قائما من المذاهب الإسلامية.

فأهل السنة فسروا القرآن، وألفوا الكتب فيه بما يتفق وعقيدتهم، كما نري ذلك واضحا فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب في التفسير.

والإمامية الإثنا عشرية فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشي مع مذهبهم، ويتفق مع أهوائهم ومشاربهم، ومن أحدث كتبهم التي اطلعنا عليها في التفسير:

---

(١) الإسلام والطب الحديث ص (د).　　(٢) المرجع السابق ص ٣.

كتاب(بيان السعادة في مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراساني، من أهل القرن الرابع عشر الهجري، وقد سبق لنا الكلام عنه مفصلا، وكتاب (ألاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفي، المتوفي سنة ١٣٥٢ هـ، وقد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام علي أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية.

والإباضية من الخوارج فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك في كتاب (هميان الزاد إلي دار المعاد) للشيخ محمد بن يوسف إطفيش، المتوفي سنة ١٣٢٢هـ ، وقد مر الكلام عنه أيضا.

والبهائية من الباطنية نظروا إلي القرآن من خلال عقيدتهم، فأولوا وحرفوا كما نجد ذلك جليا في رسائل أبي الفضائل الجرفادقاني، أحد رجال البهائية في هذا العصر.

أما الزيدية فهي وإن كانت لا تزال قائمة إلي يومنا هذا، إلا أنا لم نقف لها علي شئ في التفسير في هذا العصر الحديث.

وأما المعتزلة . . فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها في هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومقومات، إلا إنا نري أثرا كبيرا لتعاليمها في تفسير القرآن في العصر الحديث،كما يظهر ذلك جليا في تفاسير الإمامية الإثنا عشرية، والإباضية،ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة في هذا العصر، أضفت علي التفسير لونا مذهبيا، يقوم علي تأييد العقيدة، وخدمتها علي حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيري، إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التي ذكرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبي في هذا العصر.

* * *

اللون الإلحادي للتفسير في عصرنا الحاضر

مني الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون علي هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التي طرقوها ليصلوا منها إلي نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم علي وجوه غير صحيحة، تتنافي مع ما في القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء، وتهدف إلي ما سولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!!

مني الإسلام بهذا من أيامه الأولي، ومني بمثل هذا في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن علي غير تأويله، ويلوونه إلي ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن أراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

● **الباعث علي هذا اللون من التفسير:**

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلي ما ذهبوا إليه من أفهام زائغة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته،فأخذ يثور علي قدماء المفسرين ويرميهم جميعا بالسفه والغفلة ثم طلع علي الناس بجديده في تفسير كتاب الله.. جديد لا تقره لغة القرآن ، ولا يقوم علي أصل من الدين.

ومنهم من تلقي من العلم حظا يسيرا، ونصيبا قليلا، ولا يرقي به إلي مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسي أنه قل في علم اللغة نصيبه، وخف في علم الشريعة وزنه فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأي أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة، تتنافي مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلي حجة، ولا تتكئ علي دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر علي عقيدة معروفة ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلطت علي قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلي القرآن وهو يحمل في قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلا لا يقرره العقل ولا يرضاه الدين.

هؤلاء جميعا خاضوا في القرآن علي عماية، فلم يراعوا في فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلي تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق.

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالا يدرسونه ببصائر تنفذ إلي لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلي أن يبعدوا عنه هذه الخبائث ، التي يراد أن تلصق به أو تنزل في

رحابه .. لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة في الأرض وفساد كبير.

وأنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير، لا أريد أن أذكر أحدا من أصحابه باسمه ولقبه، إذ ربما كان هذا سببا للفتنة، وباعثا علي العداوة، وكثير منهم أحياء يرزقون، ويكفي أن أضع يد القارئ علي المراجع التي أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم، وآراءهم في القرآن الكريم، وهي مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها ويطلع عليها.

وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجلا يكتب بحثا طويلا تحت عنوان: (القرآن والمفسرون) وفيه يعرض لنواحي التقصير في تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالي، ويحمل عليهم حملة شديدة نكراء، ويوجه إليهم جميعا نقده الساخر، ولومه اللاذع، بدون أن يستثني منهم مفسرا واحدا علي كثرتهم، وكثرة المعتدلين منهم.

رأيناه يتهم المفسرين جميعا بأنهم تأثروا في تفاسيرهم بعقائدهم، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، في تعسف ظاهر، وتكلف غير مقبول [١]. ورأيناه يرميهم جميعا بأنهم كثيرا ما يكتفون بذكر إسرائيليات ليس لها سند أصلا، فضلا عن طمعهم في تصحيح هذه الأسانيد المكذوبة، ونراه يذكر لهذا الاتهام الأخير مثلا من أقوالهم في تفسير قصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ في تفنيد ما ذهبوا إليه، وإبطال ما قالوا به، بأدلة كثيرة ذكرها، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالي في الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة (ص): ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾.

تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعا، مدعيا أن ما ذهب إليه هو الذي يساير كل ما ورد من آيات القصص في القرآن، ومؤكدا أنه هو الذي يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال: «يجب أن ننظر في الآية نظرة أخري - يعني خلاف ما عليه المفسرون - تساير بها نظائرها من آيات القصص، ونحن إذا التفتنا إلي ما في هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عزي النصب والعذاب للشيطان فقال: ﴿ **مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ كان ذلك مانعا كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون .. إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه، ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلي الشر، وعن العزم في سبيل الغاية إلي التردد والهزيمة، وإنه ما من نبي ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب .. مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين، وصد

---

(١) انظر مجلة الإيمان، العدد الثاني من السنة الثانية، سنة ١٣٥٤هـ.

الشيطان لهم عن سبيل الله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبيٍّ ﴾.... الآية [الحج:٥٢]، وما كانت شكوي الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذي كان يبلغ أحيانا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء في سير الدعوة إلي الله تعالي، انظر قوله تعالي: ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله تعالي: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦].

ولما كانت الشكوي تشعر بوهن في العزيمة، وضعف في الثقة، وعدم القوة في السير إلي الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ فالمراد بالركض هنا، عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلي الغاية، فهي كناية من أعذب الكنايات وأروعها، وهي من وادي - شمر عن ساعد الجد. شمر عن ساقيك - غير أنها أوفر منها صياغة وترفعا. إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلي جهة بغير تردد، بل بقوة وعزيمة، تري لرجليه ضربا، وتسمع لقدميه علي الأرض وقعا، ولما كان تردد المرء في غايته ووهن عزيمته إليها وضعف ثقته بها، صدأ يغشي الأرواح، ومرضا يتعب النفوس ويضايق الصدور كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلا للروح من صدئها وشفاء للنفس من مرضها، ونفعا لغلة الصدور لذلك قال الله لرسوله أيوب: ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾، الآية كما تري ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركض المفهوم من قوله: ﴿ ارْكُضْ ﴾ المكني به عن توثيق العزم، والأخذ بالحزم، كما هومقتضي النظم الكريم، الجاري لقواعد اللغة، التي تأبي أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين، كما يقتضيه تفسير المفسرين، إذ ليس في النظم ما يدل عليهما بأي وجه من وجوه الدلالة ولما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولا لابد أن يأتمر في إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بيّن الله ثمرة جهاده وصبره، ومضاء عزمه، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أي هدينا له أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد، بل هبة الهداية والإرشاد، بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية والولد، كما في قوله تعالي: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم:٥٣]، إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدي الله بهم، لا أن يولد لهم. ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيي لزكريا، وإسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين، الأول: أنه قد ولد لإبراهيم ولزكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط.

والثاني: أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادي.

فموضع المنة في هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين».

«ثم بين الله بعد ذلك سيرة أيوب التي أمره أن يسير بها في قومه، وهي اللين في القول، والرفق في الدعوة، والعظة بالحسني، وتلك هي الخطة التي رسمها الله لجميع

أنبيائه، انظر كيف يقول لموسي وهارون: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٣ - ٤٤] ويقول لرسوله الكريم: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥] وبين الله ذلك فقال: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص:٤٤]، أي لا ترفع في وجوه قومك رمحا ولا عصا، ولا تغلظ لهم القول، ولا تخاشنهم في الطلب، بل لوح في وجوههم بالرياحين والأزهار ولا تأثم بالغلظة والجفوة، فإنك بخفض الجناح والجدال بالتي هي أحسن تبلغ منهم ما لا تبلغه بالسيف، والعصا، والخشونة، والغلظة.. فانظر إلي ما في الآية من كناية ما أجملها وأعلاها، وما أخصبها وأرواها، وانظر كم تعطيك علي هذا الوجه من فنون البلاغة، وكم تمنحك من جزالة في الأسلوب، ثم هم - يريد المفسرين - بعد ذلك يمسخونها ويشوهونها، فيجعلونها منقطعة عما قبلها، وما بعدها، فتقلق في مرقدها، وتنبو في مضجعها، إذ يجعلونها متوقفة في فهمها علي معونة أجنبية من الكلام الذي هي فيه، وذلك من أدعي الدواعي لانحطاط الكلام عن المستوي العالي لكلام البشر، فضلا عن مستوي الإعجاز الذي يجب أن يكون عليه القرآن الكريم».

«هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استنادا إلي ما جري عليه قصص القرآن، وتحاميا لما يترتب علي ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام،، باعتباره نبيا رسولا، ومن منافاة ذلك لحكمته السامية، وتفاديا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادي، وهو أن شخصا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه.. ذلك الحديث الذي لا يتحدث به عظيم من الناس فضلا عن الله تعالي، ولا يحدث به عن رجل عادي فضلا عن أيوب الرسول الكريم» (١).

هذا هو التفسير الصحيح في نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد في الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره الذي عرف منذ عهد الصحابة والتابعين، وأي شئ يقف في سبيل المعني الظاهر حتي نعدل عنه إلي مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول؟ اللهم لا شئ إلا دعوي التجديد، والثورة علي القديم، والعمل علي هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، ودفاعهم عن الدين.

ولا أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأي الشاذ وما يحمله من دعاوي غير صحيحة علي المفسرين جميعا، فقد سبقني إلي هذا أحد أساتذتي الأجلاء ولست ببالغ مبلغه من العلم، ولا بآت بأكثر مما أتي به في الرد علي صاحب هذا الرأي (٢).

---

(١) مجلة الإيمان، العدد الثالث من السنة الثانية، سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) صاحب الرد المفحم هو أستاذنا العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، وقد نشره في مجلة الهداية الإسلامية - العدد العاشر والثاني عشر من المجلد السابع - والعدد الثاني والثالث والرابع من المجلد الثامن.

ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلا آخر دفعه حب التجديد المزيف إلي أن يساير روح الإلحاد ويجاري من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة في أحكامها وحدودها. فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوي أصحابه، فحمل الأمر فيها علي الإباحة.. وجعل الأمر في ذلك مفوضا إلي رأي ولي الأمر وحده، وهو وإن كان قد استعمل الأسلوب اللولبي فيما أبداه، وطرح الموضوع الذي عالجه في صورة سؤال ألقاه شخص خالي الذهن ليتعرف وجه الحق في المسألة، وهو وإن كان قد فعل ذلك مفضوح أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه،و ويفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها علي الإباحة، وإليك ما جاء في هذه المقالة لتقف علي حقيقة الأمر، ولتعرف نية الكاتب وما يهدف إليه في مقاله..

قال هذا الكاتب تحت عنوان(التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي):

«قرأت في السياسة الأسبوعية الغراء مقالا بهذا العنوان [١]، حوي أفكارا أثارت في نفسي من الرأي ما كنت أريد أن أرجئه إلي حين، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد، حتي إذا ظهر المجتهد في هذا العصر برأي جديد، كتلك الآراء التي كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون في عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ، لأن الناس في تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد وكانوا يألفون شذوذه وخطأه، إلفهم لصوابه وتوفيقه، أما في هذا العصر، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد،حتي صار كل جديد يظهر فيه شاذا في نظرهم، وإن كان في الواقع صوابا، وما أسرعهم في ذلك إلي التشنيع والطعن في الدين، والمحاربة في الرزق، فلا يجد من يري شيئا من ذلك إلا أن يكتمه أو يظهره بين أخصائه، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم، وتضيع بهذا علي الأمة آراء نافعة في دينها ودنياها، ولكي سأقدم علي ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلي حين، وسأجتهد ما أمكنني في أن لا أدع لأحد مجالا في ذلك التشنيع الذي يقف عقبة في سبيل كل جديد».. ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال:

«ولكن يبقي بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذى سنثيره فيها، ليبحث في هدوء وسكون فقد نصل فيه إلي تذليل تلك العقبة التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد.. وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة، وسأقتصر في ذلك – الآن – علي ذكر ما ورد في تلك الحدود من

(١) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٧٣).

النصوص القرآنية، وذلك قوله تعالي في حد السرقة: ﴿ **والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله تعالي في حد الزنا: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النور:٢] .. فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو قوله تعالي: ﴿ **فَاقْطَعُوا** ﴾، والأمر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالي: ﴿ **فَاجْلِدُوا** ﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالي ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأعراف:٣١]، فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضا، لا يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقة، بل يكون القطع في السرقة هو أقصي عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلي عقوبات أخري رادعة، ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولي الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان. وهكذا في حد الزنا سواء أكان رجما أم جلدا، مع مراعاة أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج، لعدم النص عليه في القرآن الكريم، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي، مع أنا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا ولا ألغينا حدا، وإنما وسعنا الأمر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إيثار التيسير علي التعسير. والتخفيف علي التشديد» (١).

فأنت تري من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة علي كتاب الله، إذ أول آية السرقة وآية الزنا تأويلا غير مقبول بأي حال من الأحوال ومن ينظر إلي آية السرقة وآية الزنا لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا، وذلك الأمر في قوله تعالي: ﴿ **فَاقْطَعُوا** ﴾، وقوله: ﴿ **فَاجْلِدُوا** ﴾ وارد في الوجوب القاطع، فإن بناء الأمر بالقطع في آية السرقة علي قوله: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ** ﴾، وبناء الأمر بالجلد في آية الزنا علي قوله: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي** ﴾ يصرفه عن احتمال الإباحة إلي الوجوب، وهذا لأن تعليق الحكم علي شخص، موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضي للحكم هو ذلك الوصف الذي قام بالشخص، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنا ووضع الشارع لهما حكما في صيغة الأمر ولم يذكر حكما غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر في قوله: ﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾.. الآية.

---

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (فبراير سنة ١٩٣٧).

ثم إن قوله تعالي في آية السرقة: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ وقوله في آية الزنا: ﴿ **وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ** ﴾، وقوله ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحة.

ثم إن هناك من سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين.

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم علي آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره اللغة. ولا تقره السنة ولا يتفق وحكمة التشريع؟ اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأقلاهم، فقام كثير منهم بالرد علي صاحبه، وتفنيد ما ذهب إليه [1].

ولقد تنبه القائمون علي أمر الأزهر حينئذ إلي خطر هذا الرأي وما يجره علي الدين من بلاء، فجوزي صاحب المال علي ما كان منه جزاء إن كان بسيطا في حد ذاته، فهو يدل علي أن أفكار الكاتب لم تلق قبولا ولم تجد رواجا في محيط العلماء.

ووجدنا غير هذا وذاك من تأثر ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية الثابتة، ويتأول ما ورد منها في القرآن بما يتمشي مع مذاهب الفلاسفة، فأنكر حقيقة الشيطان، وتأول ما جاء من لفظ الشيطان في قوله تعالي في الآية (١١٧) من سورة النساء: ﴿ **إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا** ﴾، فقال ما نصه: «والمعني أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعي العقل أو داعي الفطرة، وإنما أجابوا نزعات الشر المنبثة في العالم علي مقتضي سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير وعوامل الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريا علي عادة العرب المألوفة، إذ كانوا يتصورون قوي الشر شياطين تتحدق وتناجي وتغري وتدفع إلي ما تريد».

ثم قال: «هذا هو الشيطان الذي يلبي المشرك بإشراكه أمره، ويتخذه وليا يأمره وينهاه»[2].

وفي موضع آخر[3] نجد صاحب هذا الرأي يعود إليه فيؤكده، ولست أدري ماذا يفعل في سياق الآية. وفي القرائن التي احتفت بها، والصفات التي انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس، ذلك الكائن الخارجي المستقل المستتر عن أعين الناس، كما

---

(١) خير من رد عليه أستاذنا الشيخ محمد الخضر حسين في مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧).

(٢) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢١ ص ١١.

(٣) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤.

لا أدري كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ والتي تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجي.

وأنكر بعضهم وجود عالم الجن، وتأول ما جاء من ذلك صريحا في آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالى في أول سورة الجن: ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾... الآية، بأن الجن قبيلة من العرب (١).

وهذا تأويل ينافي صريح القرآن في مواضع كثيرة، فضلا عن أنه لا يقوم علي دليل يصححه.

ووجدنا غير هؤلاء جميعا رجلا نكس علي رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض في تفسير كتاب الله علي ما به من غواية وعماية، وأخيرا طلع علي الناس بكتاب مختصر في تفسير القرآن الكريم، تفسيرا جمع فيه الكثير من وساوسه وأوهامه، ثم سول له الغرور أن يسميه (**الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن**).

أحدث هذا التفسير ضجة كبري في المحيط العلمي، وقام رجال الأزهر وقعدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر في هذا الكتاب ثم لتحكم عليه بما تري فيه، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه (أفاك خراص، اشتهي أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفي بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلي الحديث في شأنه وترديد سيرته).

ثم صودر الكتاب واختفي عن أعين الناس ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد:١٧].

قرأت ما جاء في تقرير اللجنة الأزهرية، ولكنني أردت أن أطلع علي الكتاب نفسه، فعملت كل ما أستطيع حتي استصدرت تصريحا من دار الكتب المصرية بالاطلاع علي هذا الكتاب الذي منع من التداول بين الناس.

● **حملته علي جميع المفسرين:**

جاءني الكتاب وقرأت فيه، فوجدت مؤلفه قد قدم له بمقدمة عاب فيها المفسرين وكتب التفسير جميعا فقال: «وقد بلغ الدس والحشو في التفاسير أنك لا تجد أصلا من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة، لهدمه وتبديله، والمفسرون قد وضعوا هذا في كتبهم من حيث لا يشعرون» (٢).

● **طريقته في التفسير:**

ثم قال بعد ذلك: «فهذا كله – يعني الدس والحشو في التفاسير – دعاني إلي

---

(١) انظر مجلة الهداية الإسلامية، المجلد الثامن، العدد الحادي عشر. (٢) صفحة (ب).

تفسيري، وأن تكون طريقتي فيه كشف الآية، وألفاظها بما ورد في موضوعها من الآيات والسور، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، ويكون القرآن هو الذي ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله في الكون ونظامه في الاجتماع، وقد اخترت أن تكون علي عدد الآيات في المصحف لتبقي الهداية بالترتيب الذي اختاره الله، وليمكن الباحث عن معني الآية أن يلاحظ سياقها فيقرأ ما سبقها وما لحقها من الآيات ليكون علي علم تام وهداية واعظة » (١).

ولعل القارئ الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يرمي من وراء قوله « .. ويكون القرآن هو الذي يفسر نفسه كما أخبر الله، ولا يحتاج إلي شئ من الخارج غير الواقع الذي ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله في الكون ونظامه في الاجتماع ». أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، وينفي أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين. والله تعالي يقول: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤].

ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله ﷺ، ولا يعترف بما لها من مكانة في تفسير القرآن الكريم، فقال مقالته السابقة كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة في التشريع الإسلامي فقال في قوله تعالي في الآية (٦٣) من سورة النور: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾: « يفيدك أن المخالفة المحذورة هي التي تكون للإعراض عن أمره، وأما التي تكون للرأي والمصلحة فلا مانع منها بل هي من حكمة الشوري » (٢).. فأنت تري أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالي ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧] ولغير هذا من الآيات التي وردت في وجوب طاعته - عليه السلام وهي كثيرة. ثم أي مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله ﷺ؟

هذا.. ولا أريد أن أطيل بذكر ما جاء في هذا الكتاب من أباطيل وأضاليل ويكفي أن أذكر طرفا مما حواه من ذلك ليتبين القارئ أن الرجل « جامد علي المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم ».

● إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفا شاذا غريبا يقوم علي إنكارها وجحدها والذهاب بها - عن طريق التأويل الفاسد - إلي أن تكون من قبيل الممكن الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، رسول أو غير رسول، وهو يصرح بهذا

---

(١) صفحة (جـ) و (د). (٢) صفحة ٢٨١.

في كثير من المواضع، فيقول في بعض المواضع: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادي الناس بأنهم لا ينبغي أن ينتظروا من الرسول آية علي صدقه في دعوته غير ما في سيرته ورسالته» (١).

وفي موضع آخر يقول: «واعلم أن آيات الله في نصر أنبيائه لا تناقض سنته في خلقه وكونه» (٢).

وفي موضع ثالث يقول: «وقد كانت كل آياتهم حججا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم. فلا يمكن أن يأتوا بدليل علي صدقهم من غير الدعوة ودليلها فتدبر» (٣).

وفي موضع رابع يقول: «وإن آيتهم علي صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبدل سنته ونظامه في كونه» (٤).

علي هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقي الذي أراده الله تعالي.

● **موقفه من معجزات عيسي عليه السلام:**

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٤٩) من سورة آل عمران في شأن عيسي عليه السلام: ﴿**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.. نجده يقول ما نصه: ﴿**كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾ يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلي خفة العلم ونوره، ﴿**الْأَكْمَهَ**﴾ من ليس عنده نظر، ﴿**وَالْأَبْرَصَ**﴾ المتلون بما يشوه الفطرة، فهل عيسي يبرئ هذا بمعني أنه يكمل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة؟ أم بمعني أنه يكمل التكوين الروحي والفكري بالهداية الدينية؟ ﴿**فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ يعلمهم التدبير المنزلي» (٥).

وإذا كان المؤلف قد تردد في معني إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة، وبين تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، فإنه ليس تردد الشاك في أي الأمرين كان. وإنما هو تردد يبدو به في صراحة ووضوح ميله إلي أن المراد هو التكوين الروحي لا غير، وإنك لتجده يصرح في موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، وذلك عندما تعرض لقوله تعالي في الآية

---

(١) صفحة ١٦١. (٢) صفحة ٢٩٠. (٣) صفحة ٢٩٧.
(٤) صفحة ٢٠٦. (٥) صفحة ٤٥.

(١١٠) من سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ : « من هذا تعرف أن عيسي نبي أرسله الله إلي يني إسرائيل ليشفي نفوسهم، ويحيي موت قلوبهم، فآيته في دعوته وسيرته وهدايته. عاش ومات كغيره من الأنبياء في بشريته، فلم يكن خارقا في سنته، ولا ممتازا بما يدعو إلي ألوهيته وعبادته » [١].

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسي عليه السلام قد تكلم في المهد وذلك حيث يؤول قوله تعالي في الآية (٤٦) من سورة آل عمران: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ما نصه: « في المهد: في دور التمهيد للحياة وهو دور الصبا، علامة علي الجرأة وقوة الاستعداد في الصغر. وكهلاً: علامة علي أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر – ويصح أن يكون المعني: يكلم الناس الصغير منهم والكبير، علامة علي تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه » [٢].

وتأول أيضا قوله تعالي في الآية (٢٩) من سورة مريم: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ فقال: « أي كان ذاك النهار ولدا صغيرا فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم فهذا ابن حرام » [٣].

ولما رأي أن قوله تعالي قبل ذلك في الآية (٢٧) : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ لا يتفق مع تأويله السابق أيضا فقال: « تحمله علي ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنه كان في سياحة طويلة » [٤].

● **موقفه من معجزات موسي عليه السلام:**

وعندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٦٠) من سورة الأعراف ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ .. قال: « ويصح أن يكون الحجر اسم مكان، واضرب بعصاك الحجر، معناه: اطرقه واذهب إليه، والغرض أن الله هداه إلي محل الماء وعيونه » [٥].

وعندما تعرض لقوله في الآية (٦٣) من سورة الشعراء: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ قال ما نصه: ﴿ الْبَحْرَ ﴾ الماء الواسع، ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ اطرقه واذهب إليه، ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة، راجع (١٦٠ في الأعراف)، ثم راجع (طه في ٧٧، ٧٨) ولتعرف كيف

---

(١) صفحة ٩٧ .
(٢) صفحة ٤٤ .
(٣) صفحة ٢٣٩ .
(٤) صفحة ٢٣٩ .
(٥) صفحة ١٣١

اهتدي إلي طريق يبس مر منه، واقرأ استعمال الضرب في السير في قصة أيوب في (سورة ص)[(١)].

وفي سورة الأعراف عند قوله تعالي في الآيتين (١٠٧، ١٠٨) ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾[(٢)].

وعند قوله تعالي في الآيات (١١٨ – ١٢٢) من نفس السورة ﴿ **فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .. إلي قوله: ﴿ **رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** ﴾ .. يقول: «يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتي سلموا له وآمنوا به»[(٣)].

● **موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:**

وعندما عرض لقوله تعالي في الآية (٦٩) من سورة الأنبياء: ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ .. إلخ، نجده ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقي في النار وخرج منها سالما، وذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول: ومعناه نجّاه من الوقوع فيها – راجع (٦٤ – المائدة)، (٢٦ – النحل) وترى فى الآية وباقي القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم»[(٤)].

● **موقفه من معجزات داود عليه السلام:**

وعندما عرض لقوله تعالي في الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ .. يقول: ﴿ **يُسَبِّحْنَ** ﴾ يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داود في صناعتها الحربية، ﴿ **وَالطَّيْرَ** ﴾ يطلق علي ذي الجناح وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية»[(٥)]

● **موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:**

وعندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٨١) من سورة الأنبياء: ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ نجده يقول: ﴿ **تَجْرِي بِأَمْرِهِ** ﴾ الآن تجري بأمر الدول الأوروبية وإشارتها، في التلغرافات والتليفونات الهوائية.. اقرا سبأ»[(٦)].

وفي سورة النمل عند قوله تعالي في الآية (١٦): ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ .. يقول: ﴿ **مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ كل من يربي الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقه وماذا يريد، ويمكنهم أن يستعملوه في الرسائل وغيرها»[(٧)].

وفي قوله تعالي في الآية (١٨) من السورة نفسها: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ**

---

(١) صفحة ٢٩٠. (٢) صفحة ١٢٦. (٣) صفحة ١٢٦.
(٤) صفحة ٢٥٦. (٥) صحة ٢٥٧. (٦) صفحة ٢٥٧.
(٧) صفحة ٢٩٧.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ نجده يقول ﴿نَمْلَةٌ﴾ قبيلة، ﴿النَّمْلِ﴾ قبائل الوادي» (١).

وفي قوله تعالي بعد ذلك في الآية (٢٠) من السورة أيضا ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.. نجده يقول: ﴿الْهُدْهُدَ﴾ اسم طائر فهل يكون من ذوي الجناحين؟ ويكون كلامه كناية عما يحمل من رسائل؟ أم من الخيالة؟ السواري؟ أو الطيارين الآخرين؟.. راجع الأنبياء» (٢).

وفي قوله بعد ذلك في الآيات من (٣٨ - ٤٢) من السورة نفسها: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾. في هذه الآيات نراه يقول: ﴿بِعَرْشِهَا﴾ بملكها، يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول في البلاد، فطلب الخريطة التي فيها مملكة سبأ ليهاجمها، ويريها أنه جاد غير هازل، ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أحد القواد، ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلي الذي ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من الكتابة والرسم والتخطيط، ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الغرض أنه يأتي به حالا وقد أتي به، ويحتمل أنه رسمه في الحال أو كان عنده مرسوما، ولو كان عهد الفوتوغرافيا قديما لصح أن يكون ذلك الرسم بها، وتري أن سليمان يشكر الله علي ما في المملكة من العلماء العاملين في كل فن، ونأخذ من القصة أن الله يعظم شأن العلم ويدعونا إلي التمسك بالأسباب الكونية لتشييد الملك وإقامة الدولة، ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ يؤيد لك أن المسألة علمية، ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لله، يعني أنهم جمعوا بين العلم والتربية علي الخلق العظيم، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة» (٣).

● **موقفه من معجزة الإسراء:**

وعندما تعرض لقوله تعالي في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. نجده يقول: ﴿أَسْرَىٰ﴾ الإسراء يستعمل في هجرة الأنبياء.. انظر (٧٧ في طه)، (١٣٨ في الأعراف) و (٥٢ في الشعراء) و (٢٣ الدخان) و (٨١ في هود)

---

(١) صفحة ٢٩٧. (٢) صفحة ٢٩٧. (٣) صفحة ٢٩٨، ٢٩٩.

و(٦٥ في الحج) ، ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء : ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الذي له حرمة يحترم بها عند جميع الناس (٢١٧ ، ٢١٨ في البقرة) و (٢٥ في الحج) ، ﴿ الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ الأبعد ، مسجد المدينة قد بارك الله حوله ، فكان للنبي ﷺ هناك ثمرة وقوة ، وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان ذلك من آيات الله . . انظر (٢٠ يس) و(١٠٨ التوبة) ثم ارجع إلي الإسراء فاقرأ إلي (٦٠ ، ٩٣) (١) .

● **إنكاره للملائكة والجن والشياطين :**

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة ، والجن ، والشياطين ، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة .

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ . . نجده يقول : ﴿ **لِلْمَلائِكَةِ** ﴾ رسل النظام وعالم السنن ، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له . . راجع (٢٩ في البقرة) ، ثم انظر (الملك فى ١٥) ، ﴿ **إِبْلِيسَ** ﴾ اسم لكل مستكبر علي الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان ، وهو النوع المستعصي علي الإنسان تسخيره » (٢) .

وعند قوله تعالي في الآية (٧١) من سورة الأنعام : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ** ﴾ . . الآية ، نجده يقول : ﴿ **الشَّيَاطِينُ** ﴾ تطلق علي الحيات والثعابين ، تستهوي من يتبعها ليقتلها فيهوي معها وتضله بتعرجها . . راجع (٢٧٥ في البقرة) (٣) .

وعند قوله تعالي في الآيتين (٢٦ ، ٢٧) من سورة الحجر : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ . . يقول : « يمثل لك بوصف الإنسان ، النوع الهادئ صاحب الطبع الطيني الذي تشكله كما تريد ، ﴿ **وَالْجَانَّ** ﴾ النوع المتشرد صاحب الطبع الناري ، إذا قاربته يؤذيك ويغويك ، ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله ، والنوعان موجودان في كل أمة ، فتدبر السياق من أول السورة وراجع القصة في البقرة » (٤) .

وعند قوله تعالي في الآية (١٧) من سورة النمل : ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ . . . . يقول : ﴿ **الْجِنِّ** ﴾ يطلق علي العالم الخفي والظاهر القوي ، وجن كل شئ أوله ومقدمته ، وجن الجيش قواده ورؤساؤه ، ﴿ **وَالإِنسِ** ﴾ طائعوه ومرءوسوه . . اقرأ الجن » (٥) .

---

(١) صفحة ٢١٩ . (٢) صفحة :٧ . (٣) صفحة ١٠٥ . (٤) صفحة ٢٠ .
(٥) صفحة ٢٩٧ .

وعند قوله تعالي في الآية (١٥٨) من سورة الصافات: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.. يقول «الجنة أو الجن: سادتهم وكبراؤهم» (١).

وعند قوله تعالي في الآيتين (٣٧، ٣٨) من سورة (ص): ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾.. نجده يقول: ﴿ الشَّيَاطِينَ ﴾ يطلقون علي الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين، ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ مسلوكين في القيود، ومنها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم» (٢).

● **إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:**

ولقد سولت للمؤلف نفسه أن يتأول بعض آيات الأحكام علي غير ما أراد الله، وعلي مقتضي هواه الذي لا يخضع لقواعد اللغة ولا لأصول الشريعة !!

● **حد السرقة:**

فمثلا عند قوله في الآية (٣٨) من سورة المائد: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾... الآية، يقول: «واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معني التعود. أي أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعني: أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده، لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه» (٣).

● **حد الزنا:**

وعند قوله تعالي في الآية (٢) من سورة النور: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾... الآية، نجده يقول: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ يطلق هذا الوصف علي المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنا وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد» (٤).

● **تعدد الزوجات:**

في الآية (٣) من سورة النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾.. الآية، نجده يقول: ﴿ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ نساء اليتامي الذين فيهم الكلام - هكذا بالأصل - لأن الزواج منهن يمنع الحرج في أموالهن، ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التي يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررا علي المجتمع من تركه، لتعلم أن التعدد لم

---

(١) صفحة ٢٥٦. (٢) صفحة: ٣٥٩. (٣) صفحة ٨٨.
(٤) صفحة ٢٧٤.

يشرع إلا في هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا ﴾ : (فإن خفتم ألا تعدلوا) [١] .

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامي في حجره، وأمن من نفسه عدم الجور، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقا، ومن يطلع علي سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط في التعدد .

● **التسري :**

وعند قوله تعالي في نفس الآية السابقة : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ .. نجده يقول : انظر آية (٢٥ : ٢٨ من النساء) [٢]

وفي الآية (٢٥) وهي قوله تعالي : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .. يقول : « فيه عناية بالخادمات، وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات علي ذوات البيوتات، انظر (٣٣ في النور)، (٦٠ في الكهف) ثم (٣٠، ٣٦، ٤٢، ٦٣ في يوسف) ، ﴿ الْعَنَتَ ﴾ الحرج : انظر (٢٢٠ في البقرة) و (٧ في الحجرات) ، (١٢٨ في التوبة) و(١١٨ آل عمران) وفي هذه الآية رد علي الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات، بحجة أنهن مشتريات بالمال، أو أسيرات بالحرب، فليس في الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج، مملوكة كانت أو مالكة، فتدبر ذلك في الآيات » [٣] .

وفي قوله تعالي في الآيتين (٥، ٦) من سورة المؤمنون : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ .. الآية، يقول : « اقرأ المعارج، والنور، وأوائل البقرة » [٤]

ثم قال في المعارج عند قوله تعالي في الآيتين (٢٩، ٣٠) : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ ما نصه : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون في الإنسان فروج – أي عيوب ونقائص – يسيئه أن يراها الناس فيه، ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه » [٥] .

فأنت تري من هذا أنه يحرم التسرّى، ويفسر الفروج بالعيوب، وهذا بعد عن قوانين اللغة، ومبادئ الشريعة .

● **الربــا :**

كذلك نجد المؤلف يميل إلي أن الربا المحرم شرعا هو الفاحش فقط، ولهذا نراه عندما

---

(١) صفحة ٦١ . (٢) صفحة ٦١ . (٣) صفحة ٤٥٥ .
(٤) صفحة ٢٦٧ . (٥) صفحة ٤٥٥ .

يعرض لآيات الربا في سورة البقرة يفسر (الربا) فيقول: « الربا هو الزيادة من الربح في رأس المال، وهو معروف ومقيد بالآية (١٣٠ في آل عمران)، فانظرها أولاً » [١] يريد قوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ .. ثم يقول بعد ذلك: ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ، ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ [البقر:٢٧٩]، ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [البقرة:٢٨٠]. كل ذلك يفيدك أن الكلام في المعاملة الحاضرة، ويبشر من يتوب بأنه لا يحاسب علي ما كسبه من قبل، ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة:٢٧٥].. انظر (٣٨ في الأنفال) [٢] يريد قوله تعالي ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾.

ثم قال بعد ذلك عندما عرض لقوله تعالي في الآية (١٣٠) من سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾: ﴿ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ أي الربا الفاحش وبمعني آخر: الربح الزائد عن حده في رأس المال. وتقدره كل أمة بعرفها. راجع في جزائه أواخر البقرة، وقصة اليهود في أواخر النساء، ثم ارجع إلي (٥ في النساء و ٤٣)[٣].

● زكاة الزروع:

كذلك نجد المؤلف يذهب في زكاة الزروع مذهبا لم يقل به أحد من المجتهدين فضلا عن أنه يصادم ما جاء من السنة الصحيحة في بيان المقدار الواجب في زكاة الزروع، وذلك حيث يفسر قوله تعالي في الآية (١٤١) من سورة الأنعام: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .. فيقول: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ ﴾ يفيد أن في كل هذا الخارج من الأرض حقا لا بد من إعطائه، ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ زمن تحصيله، وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق، أمر الحاكم العام بأخذه، والعمل علي جبايته لبيت المال، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال» [٤].

«أقول: وليس للأمة دخل في تقدير مقررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول عليه الصلاة والسلام، وقررها علي الأمة».

● مصارف الزكاة:

كذلك تخبط المؤلف في شرحه لبعض مصارف الزكاة، وذلك حيث فسر قوله تعالي في الآية (٦٠) من سورة التوبة ﴿ ..... وَفِي الرِّقَابِ ﴾، فقال: « في خلاصها من الاستعباد. وفي هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم، وفي الزكاة حق لهذا التعاون» [٥].

---

(١) صفحة ٣٧. (٢) صفحة ٣٨. (٣) صفحة ٥٣. (٤) صفحة ١١٣.
(٥) صفحة ١٥٠.

● **الطـــلاق:**

كذلك نجد المؤلف يذهب إلي أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرا يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول في قوله تعالي في الآية (١) من سورة الطلاق: ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ ما نصه: ﴿ **بيوتهن** ﴾ بيوت الزوجية.. راجع (البقرة من ٢٢٦ – ٢٤٢)، و(الأحزاب ٤٠)، و(التحريم ٥)، و (النور ٥ – ١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان في يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية » [١].

هذا بعض ما جاء في هذا الكتاب الذي هذي به صاحبه، وفيه غير هذا كثير مما يدل علي أن الرجل قد ركب متن الغواية، ومشي يخبط خبط الأعشي في مهمه متسع من الضلالة!!

وحسبي أن أكون قد أطلعت القارئ علي بعض ما جاء في هذا الكتاب ولست في حاجة إلي أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها، فإني لست في مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا في مقام بيان لون من ألوان التفسير في هذا العصر، وإذا كان القارئ الكريم يود أن يقف علي إبطال هذه المزاعم التي حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلي قرار اللجنة الأزهرية، التي ألفت للرد علي هذا الكتاب [٢]، وليرجع إلي ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد الخضر حسين في الجزء الثالث من رسائل الإصلاح [٣]، ولا شك أنه سيجد فيما كتب هنا وهناك ما يكفي لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح، وما ينادي بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدي، فهوى إلي مكان سحيق..

* * *

(١) صفحة ٤٥٥.

(٢) العدد الثالث والرابع من المجلد الثانى من مجلة نور الإسلام (الأزهر سنة ١٣٥٠هـ).

(٣) ص ١٤٠ – ١٦٠.

اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر وتلون بلون يكاد يكون جديدا وطارئا علي التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولا وقبل كل شئ علي إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآني علي ما في الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.

● **مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأثرها في التفسير:**

وإذا كان هذا اللون الأدبي الاجتماعي يعتبر في نظرنا عملا جديدا في التفسير، وابتكارا يرجع فضله إلي مفسري هذا العصر الحديث، فإنا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل في هذا اللون التفسيري يرجع إلي مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير. هذه المدرسة التي قام زعيمها - ورجالها من بعده - بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالي، وهداية الناس إلي ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة.

نعم .. قامت هذه المدرسة بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالي مجهود نحمد لها الكثير منه، ولا نوافقها علي بعض منه قليل.

● **محاسن هذه المدرسة:**

فالذي نحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلي الدرجة التي تجعل القرآن تابعا لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلا متكلفا وبعيدا.

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تشوه التفسير بما شوه به في كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرأت الطاعنين عليه!!

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كان لها أثر سئ في تفسير القرآن الكريم!!

ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث

الموضوعة. أنها لم تخض في تعيين ما أبهمه القرآن،ولم تجرؤ علي الخوض في الكلام عن الأمور الغيبية، التي لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملا ومنعت من الخوض في التفصيلات والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزا منيعا دون تسرب شئ من خرافات الغيب المظنون إلي المعقول والعقائد .

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التي زج بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلي حسب الضرورة فقط.

ثم إن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجا أدبيا اجتماعيا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيري الدنيا والآخرة، ووفقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة،وجلت لناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبشري، إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه علي القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأهام، بحجج قوية قذفت بها علي الباطل فدمغته فإذا هو زاهق.. كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوي القارئ، ويستولي علي قلبه، ويحبب إليه النظر في كتاب الله ويرغبه في الوقوف علي معانيه وأسراره.

هذا ما نحمده لهذه المدرسة، ولا نستطيع أن نغمطها عليه أو نقلل من فضلها فيه.

● **عيوب هذه المدرسة:**

أما ما نأخذه علي هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلي المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب ، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن.

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها. وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودا عند العرب في زمن نزول القرآن وطعنت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها

أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالي بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

وما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعا. فيه نظر من وجوه:

الأول: أن دعوي الإجماع باطلة، فإن للعلماء أربعة أقوال في إفادة خبر الواحد العلم:

١ – يفيد الظن مطلقا.

٢ – يفيد العلم بقرينة.

٣ – يفيد العلم من غير قرينة باطراد.

٤ – يفيد العلم من غير قرينة لا باطراد.

الثاني: إذا جرينا علي أن خبر الواحذ يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا علي أنه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن – علي المختار – لإفادته العلم حينئذ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأن أحاديث الصحيحين التي لم تنتقد عليهما تفيد العلم، فإن الأمة قد تلقتهما بالقبول، وهي معصومة من الخطأ، وظن المعصوم لا يخطئ [1].

الثالث: أنه ليس المراد من العقيدة كل ما يعتقد،وإلا لتناول ذلك الفروع الفقهية، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها، و إنما المراد بالعقائد أصولها، وهو ما كان الإخلال بها موجبا للكفر، كالإيمان بالله وباليوم الآخر. وأما الأحاديث الواردة في الحوادث الماضية، أو المستقبلة، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر وما فيه، فلا يشترط فيها التواتر، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التي يترتب علي عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالي، ولكن يكتفي فيها بأن تكون من طريق صحيح.

- **أهم رجال هذه المدرسة:**

هذا.. وإن أهم رجال هذه المدرسة، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغي. وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسم خطا الأستاذ الإمام، وسار على منهجه وطريقته في التفسير.

---

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ١٤ – ٣٥.

ولست أري القارئ بحاجة إلي أن أترجم لحياة هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب، وليس يخفي علي من له صلة بالحركة العلمية في هذا العصر شئ من معالم حياتهم، ويكفي أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم في التفسير وعن منهجه الذي سلكه فيه، وسيقف القارئ - إن شاء الله تعالي - علي ما قلته عن هذه المدرسة، وما ذكرته لها من أثر محمود فى التفسير، وما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها ولا يحمد لها.

* * *

١ - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١)

● **إنتاجه في التفسير :**

إذا نحن ذهبنا نستقصي ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل في التفسير فإنا نجد له تفسير المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذي ألفه بمشورةمن بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء، وعاملا للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١هـ (إحدي وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة)، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول : « في أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه في الإعراب، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان » (٢) .

كذلك نجد له تفسيرا مطولا لسورة(العصر) كان قد ألقاه علي هيئة محاضرات، أو دروس علي علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة ١٣٢١هـ (سنة ١٩٠٢م) (٣) - ويقول الأستاذ الإمام: إنه قرأ تفسير هذه السورة في سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة ونصف (٤) .

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ردفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالي في الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾، وقوله في الآية (٧٩) من السورة نفسها : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا** ﴾ وجمعه بينهما . وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلي الله تعالي، وتارة إلي العبد .

وكشرحه لقوله تعالي في الآية (٥٢ - ٥٥) من سورة الحج: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ ... إلي قوله: ﴿ **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾، وإبطاله لقصة الغرانيق، وتفنيده لما بني عليها من

---

(١) ولد سنة ١٨٤٨، وتوفي في سنة ١٩٠٥ .

(٢) مقدمة تفسر جزء (عم) صفحة ٢ .

(٣) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، للشيخ محمد رشيد رضا .

(٤) تفسير المنار: ١ / ١٣ .

تفسير يذهب بعصمة النبي ﷺ، ويرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله بحفظه.

وكتفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾، ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة، تصور النبي ﷺ بصورة الرجل الشهواني، وإبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة – قصة زيد وزينب – من مطاعن رمي بها رسول الله ﷺ زوراً وبهتانا.

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف علي تلاميذه ومريديه، وكان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا، وإقناعه به، كما يقول هو في مقدمة تفسيره [١].

وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهي عند تفسير قوله تعالي في الآية (١٢٦) من سورة النساء: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا** ﴾.. وذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفي – رحمه الله – لثمان خلون من جمادي الأولي من السنة نفسها [٢].

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقي هذه الدروس في التفسير علي طلابه ولم يدون شيئا، فإنا لا نري حرجا من جعلها أثرا من آثاره في التفسير.

وذلك لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب في أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمده بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب في مجلته (المنار) وكان – كما يقول هو في مقدمة تفسيره – يطلع الأستاذ الإمام علي ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات. قال: «ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيا بالمكتوب، معجبا به» [٣].

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وهو وإن كان إنتاجا يعد قليلا بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه – والحق يقال – كان له أثر بالغ في تطور التفسير واتجاهاته، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالي.

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤.
(٢) تفسير المنار: ١/ ٤.
(٣) تفسير المنار: ١/ ١٥.

● **منهجه في التفسير :**

كان الأستاذ الإمام هو الذي قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلي التجديد، والتحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر في كتاباته وبحوثه، ولم يجر علي ما جمد عليه غيره من أفكار المتقدمين، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، وجمعت حوله قلوب مريديه والمعجبين به.

هذه الحرية العقلية، وهذه الثورة علي القديم، كان لهما أثر بالغ في المنهج الذي نهجه الشيخ لنفسه، وسار عليه في تفسيره.

وذلك أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدءا يسير عليه في تفسير القرآن الكريم، ويخالف به جماعة المفسرين المتقدمين. وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلي ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، وذلك لأنه كان يري أن هذا هو المقصد الأعلي للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله [١].

يقرر الأستاذ الإمام هذا المبدأ في التفسير، ثم يتوجه باللوم إلي المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن، وهو ما فيه من هداية وإرشاد وراحوا يتوسعون في نواح أخري من ضروب المعاني، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التي يري الأستاذ الإمام أن الإكثار في مقصد منها « يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي » [٢].

لهذا نري الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلي قسمين:

أحدهما: جاف مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية. قال: وهذا لا ينبغي أن يسمي تفسيرا. وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون، كالنحو، والمعاني، وغيرهما.

وثانيهما: ذهاب المفسر إلي فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، علي الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلي العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معني قوله تعالي: ﴿ **وهدى ورحمة** ﴾ [الأنعام: ١٥٧] ونحوهما من الأوصاف.. قال الأستاذ الإمام: « وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير » [٣]

---

(١) تفسير المنار: ١ / ١٧.

(٢) تفسير المنار: ١ / ١٨.

(٣) تفسير المنار: ١ / ٢٥.

هذا.. وإن الأستاذ الإمام لا يريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلا في تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر – مثلا – من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعني، وعلي الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته. وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة.

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام – وقد وضع لنفسه هذه الخطة في التفسير – يشترط شروطا لابد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرا يحقق الغرض منه، وقد ذكرناها بجملتها عند كلامنا عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر.

● **القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن:**

ويري الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذي توزن به العقائد لتعرف قيمتها، ويقرر أنه يجب علي من ينظر في القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، ويستنبط منه الرأي، وينعي علي ما كان من أكثر المفسرين، من تسلط العقيدة عليهم، ونظرتهم للقرآن من خلالها، حتي تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم، ويتمشي معها، وفي هذا يقول: «إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالي، من غير أن ندخلها أولا فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن، وحشرناها فيه أولا، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون به.

«أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذي يحمل عليها. ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جري عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون» (١).

● **كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه:**

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس، أما ناحية التأليف، فمحدودة ضيقة، كما ظهر لك فيما سبق، وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلي حد ما من ناحية التأليف، فقد ألقي – رحمه الله – دروسا في التفسير بالجامع الأزهر الشريف، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن، كما ألمعنا إليه فيما تقدم.

كذلك ألقي دروسا في التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب، كما ألقي دروسا في التفسير أيضا في مساجد بيروت. في المسجد الكبير، وفي مسجد (الباشورة) (٢)

وكان من عادة الأستاذ الإمام في دروسه: أنه يراعي حال من يستمعون إليه، فإذا

---

(١) تفسير سورة الفاتحة ص ٥٤.

(٢) محمد عبده، لعثمان أمين ص١٠١.

حضره جماعة من البلداء الخاملي الفكر شرح لهم المعني بكلمات قليلة، وإذا كان هناك من يتنبه لما يقول ويلقي له بالا، يفتح الله عليه بكلام كثير بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه (١).

ويحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقة الأستاذ الإمام في دروس التفسير فيقول: «كانت طريقته في قراءة الدرس علي مقربة مما ارتآه في كتابه التفسير وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، والإعراب، ونكت البلاغة وفي الروايات التي تدل عليها، ولا تتوقف علي فهمها الآيات» (٢).

وكان الأستاذ الإمام يعتمد في دروسه وكتابته في التفسير علي عقله الحر وكان - كما يقول عنه بعض الكاتبين - «لا يلتزم في التفسير كتابا، وإنما يقرأ في المصحف، ويلقي ما يفيض الله علي قلبه» (٣).

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلي كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتي لا يتأثر بفهم غيره، وكل ما كان منه أنه إذا عرض له وجه غريب من الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة رجع إلي بعض كتب التفسير، ليري ما كتب في ذلك، وقد حدث عن نفسه بذلك فقال: «إنني لا أطالع عندما أقرأ، لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب من الإعراب أو كلمة غريبة في اللغة» (٤).

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان «يتوكأ في ذلك - يعني في دروسه في التفسير - علي عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرها، أو ينتقد منها ما يراه منتقدا ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معني واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة» (٥).

وسواء أقلنا إن الأستاذ الإمام كان يرجع إلي كتب التفسير أم لا يرجع إليها، فإنه كان يحكِّم عقله فيما يلقي وفيما يكتب، غير ملتفت إلي ما سبق به من أقوال في التفسير، ولا بواقف عند اعتبارات المؤلفين وأفهامهم وقوف من يخضع لها، ويسلم بها، علي ما فيها من غث وسمين.

نعم.. لم يجمد الأستاذ الإمام علي ما في كتب قدماء المفسرين، ولم يلغ عقله أمام عقولهم، بل علي العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفي في التفسير بالنظر

---

(١) تفسير المنار: ١/ ١٤.
(٢) المرجع السابق ص١٥.
(٣) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١١.
(٤) تفسير المنار: ١/ ١٤ ويظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة (قبل أن أقرأ) كما نبه علي ذلك في حاشية الكتاب.
(٥) تفسير المنار: ١/ ١٥.

في أقوال المتقدمين فيقول: «التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون، هو عبارة عن الإطلاع علي ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير، علي ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢]، وليت أهل العناية بالاطلاع علي كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معني تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب، ثم يبثونه في الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل.

«إن الله تعالي لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبينا الذي بين لنا ما نزل إلينا ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤]..

«يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟ وهل علمتم بإرشاد القرآن، واهتديتم بهدي النبي، واتبعتم سنته؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فيا للغفلة والغرور» (١).

كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول: «.. وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه. لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمي من الكتب أخذا جافا، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان، اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر» (٢).

ومما يذكر في هذا المقام أنه «لما أبدي الأستاذ الإمام رأيا طريفا في تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجَمَلْ - يعني بالجَمَل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي علي تفسير الجلالين - فقال الأستاذ علي الفور: إنني أقرر ما يدل عليه المعني الجليل، والكلام البليغ ولا يعنيني أوافق عليه الجَمَل أو الحمار» (٣).

كل هذا يدلنا علي أن الأستاذ الإمام كان حرا في تفكيره وفهمه للقرآن صريحا في نقده ونصحه للتفسير والمفسرين، جريئا في ثورته علي القديم ودعوته إلي التحرر مما أحاط بالعقول من القيود، وما أوغلت فيه من الركود والجمود.

هذا.. و إن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٢٧. (٢) تفسير المنار: ١/ ٢٧.

(٣) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١٢٥.

فجعلوا منها شروحا لمبهمات القرآن، بل وجدناه علي العكس من ذلك نفورا منها، وشرودا من الخوض فيها، لاعتقاده أن الله تعالي لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهما في كتابه، ولو أراد منا ذلك لدلنا عليه في كتابه أو علي لسان نبيه، وهو يصزح بأن هذا هو « مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعي لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف علي سواه » (١).

وإذا نحن تتبعنا أقواله في مبهمات القرآن وجدناه محافظا علي هذا المبدأ لا يعدل عنه ولا يحيد، إلا في مواضع قليلة نادرة.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيتين: (١٠، ١١) من سورة الأنفطار: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ** ﴾.. نجده يقول: « ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أي شيء خلقوا، وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا.. وهو يبعد فهمه؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال؟ وهل الحروف والصور التي ترسم هي علي نحو ما نعهد؟ أو إنما هي أرواح تتجلي لها الأعمال فتبقي فيه بقاء المداد في القرطاس إلي أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلي الله، والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا، هو: أن أعمالنا تحفظ وتحصي، لا يضيع منها نقير ولا قطمير » (٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** ﴾... إلي آخر القصة يقول: « أما تعيين أصحاب الأخدود، وأين كانوا؟ ومن هم أولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصاري نجران، وعندما كان دينهم دين التوحيد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية، غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلي أن يعرف القوم، والجهة، وخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء، حتي يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات، وإنما الذي عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا، ولو علم الله خيرا في أكثر من ذلك لتفضل علينا به » (٣).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيتين (٦، ٧) من سورة الفجر ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾.. نجده يقول: « وقد يروي المفسرون هنا حكايات

---

(١) تفسير المنار: ١ / ٣٢٠. (٢) تفسير جزء عم ص ٣٦. (٣) تفسير جزء عم ص ٥٩.

في تصوير إرم ذات العماد، وكان يجب أن ينزه عنها كتاب الله. فإذا وقع إليك شئ من كتبهم، ونظرت في هذا الموضع منها، فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه » (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيات(٦- ٩) من سورة القارعة ﴿ **فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ** ﴾.. نجده يقول: « وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء في ذلك اليوم، إنما يكون علي حسب ما يعلم، لا طريقة ما نعلم، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه علي الإيمان به، ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين: « إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله » فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتي يفوض العلم فيه إلي الله؟ والكلام فيه جرأة علي غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، ولم يرد في الكتاب إلا كلمة (ميزان) وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد، وما عدا ذلك فعلمه إلي الله سبحانه. وقد قالوا: إن منكر الميزان بالمعني المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفي ببيان الموزون. أفيأبي الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدي العلم عقول البشر إلي ما هو أدق منه؟ أيابي عالم الغيب والشهادة أن يستعمل في وزن المعاني والمعقولات إلا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وماسيبلغ بأهل العصور المقبلة؟ علي أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف، وإنما هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة، وهلا يكون الأليق بالمقام الإلهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه أسمي وأعلي من أن يكون علي نمط ما يستعمله البشر، مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرؤ علي القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تزل في مهد الإنسانية الأولي؟.. ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب، ولا لحياء العقل من الله، وإطراقه عن أن ينظر إلي ما تشامخ من غيوب الله تعالي علمه، وتعاظمت قدرته.

« عليك أيها المؤمن المطمئن إلي ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال، ويميز لكل عمل مقداره. ولا تسل كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢).

---

(١) تفسير جزء عم ص ٧٩.
(٢) تفسير جزء عم ص ١٤٧

● معالجته للمسائل الاجتماعية:

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجا للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض في ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويرشده إلي وسيلة علاجها والتخلص منها، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقي به علي أسماع المسلمين وغير المسلمين، رجاء أن يعودوا إلي الصواب، ويثوبوا إلي الرشاد.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾.. نجده يقول: «والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضا بما يكره في سبيل الحق. وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، وما أُتي الناس من شي مثل ما أُتوا من فقد الصبر او ضعفه. كل أمة ضعف الصبر في نفوس افرادها. ضعف فيها كل شي، وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلا: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعيف الصبر، فإن من عرف بابا من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبرا علي التوسيع فيه، والتعب في تحقيق مسائله، وينام علي فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعبأ، ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتخذهم أسوة له في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين.

«ثم هو إذا تعلم لا يجد صبرا علي مشقة دعوة الناس إلي علم ما يعلم وحملهم علي عرفان ما يعرف، ولا جلدا علي تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متي لاقي أول معارضة قبع في بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون.

«يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه إلي حرفه أخري يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب، ويذهب في الجهل كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصبر.

«يبخل البخيل بماله، ويجهد نفسه في جمعه وكنزه، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا ينفق درهما في شئ منها، فيؤذي بذلك وطنه وملته،ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته، ولو نظرنا إلي ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، ولو صبر علي محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله.

«يسرف المسرف في الشهوات، ويتهتك المتهتك في المنكرات، حتي ينفد المال،

وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغني، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره في مقاومة الهوي، وضبط نفسه عن مواقع الردي، ولو صبر في مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله، وأفسد حاله.. وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، وأبحث عن عللها الأولي، لوجدتموها تنتهي إلي ضعف الصبر أو فقده، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذي تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعا سوي الصبر، أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يخص بالذكر» (١).

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلي الخير فيقول: «.. يجب علي العلماء ومن يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، علي حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب عليهم في ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق وأحوال النفس، وعلم الحس والوجدان ونحو ذلك مما لابد منه في معرفة مداخل الباطل إلي القلوب، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق، وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والأخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلي جانب الخير، فإن لم يحصلوا علي ذلك كله فوزر العامة عليهم. ولا تنفعهم دعوي العجز، فإنهم ينفقون من أزمانهم في القيل والقال، والبحث في الألفاظ والأقوال ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، وأعلام هدي ورشد، فليطلبوا العلم من سبله التي قام عليها السلف الصالح، والله كفيل أن يمدهم بمعونته، أما وقد انقطعوا إلي ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذرا، بل فليتربصوا حتي يأتي أمر الله.

«لو قضي الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان في الأرض ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف علي ما فيها مما ينفعه فيستعمله، وما يخشي ضرره علي قومه فيدفعه، لوجب علي أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم في سلف الأمة من القرون الأولي: إلي نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، وأفضل قدوة، وكل ما يهونون به علي أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هي وساوس شيطان. يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن» (٢).

ومثلا عند قوله تعالي في الآية (١٣) من سورة الانفطار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.. نراه يوضح معني البر وما يكون به الإنسان من الأبرار، ثم يقول: «فلا يعد

---

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧ - ٨٩.

(٢) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٩٩، ١٠٠.

الشخص برا ولا بارا حتي يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالي الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحدة منهم بشأن الدين قام أم أسقط، ارتفع أو انحط. ومع حرصه وطمعه لما في أيدي الناس، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم، لا لشئ سوي أنهم عاملوه في كسب المال وهو غير عامل، وهم يجرون علي سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل، فهؤلاء ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في أول سورة العاديات: ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** ﴾ [العاديات: ١ - ٥]. نجده يقول: «وكان في هذه الآيات القارعات، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفيما ورد في الأحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين علي أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل، ويبعث القادرين منهم علي قنية الخيل علي التنافس في عقائلها، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقانا. أفليس من أعجب العجب عندهم أن تري أمما هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية، إلي أن صار يشار إلي راكبيها بينهم بالهزء والسخرية، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلي بلاد أخري؟ أليس أغرب ما يستغرب أن أناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيال، وأبعدهم عن صفات الرجولية، حتي وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه في منافع بعض العلوم وفوائدها في علم الدين أن قال: «إذا كان كل ما يفيد في الدين نعلمه لطلبة العلم، كان علينا إذن أن نعلمهم ركوب الخيل»! يقول ذلك ليفحمني وتقوم له الحجة علي، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغي لطلبة العلم، وهم يقولون إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟ أنصف ثم احكم» (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣) من سورة الماعون ﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾.. نجده يقرر: أن قوله: ﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾، كناية

---

(١) تفسير جزء عم ص ٣٧.
(٢) تفسير جزء عم ص ١٤٢.

عن الذي لا يجود بشئ من ماله علي الفقير المحتاج إلي القوت الذي لا يستطيع له كسبا ».

ثم يقول: « وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين، ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه. وفيه حث للمصدقين بالدين علي إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهي طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله تعالي في الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الفجر: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، ونعمت الطريقة هي لإغاثة الفقراء، وسد شئ من حاجات المساكين » (١).

ومن أجل هذه الروح التي تسيطر علي الأستاذ الإمام في تفسيره، نجد الشيخ المراغي رحمه الله يقول: « وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيها تطبيق القرآن علي معارفهم » (٢)

● تفسيره للقرآن علي ضوء العلم الحديث:

كذلك نجد الأستاذ الإمام – رحمه الله – يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحا يقوم علي أساس من نظريات العلم الحديث، وغرضه بذلك: أن يوفق بين معاني القرآن التي قد تبدو مستبعدة في نظر بعض الناس، وبين ما عندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم، أو هي مسلمة بالفعل، وهو – وإن كان يرمي من وراء ذلك إلي غرض نبيل – يخرج أحيانا بمثل هذا الشرح والبيان عن مألوف العرب، وما عهد لديهم وقت نزول القرآن.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في أول سورة الانشقاق: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾.. نجده يقول: « انشقاق السماء، مثل انفطارها الذي مر تفسيره في سورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾، وهو فساد تركيبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليه سير العالم، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره »(٣).

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه، إذ غرضه من ذلك تقريب معاني القرآن وما يخبر به من عقول الناس، بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم.

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢.
(٢) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١٢٢.
(٣) تفسير جزء عم ص ٤٩.

ولكن هل لابد في فساد الكون من أن يترتب علي مثل هذه الظاهرة الكونية؟ وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمر آخر غير ذلك؟ أليس الأولي بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن، ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلا، ولا يريده علي أنه لابد منه.

ومثلا عندما يعرض لتفسير سورة الفيل، بعد أن ذكر ما قيل فى إرسال الطير علي أبرهة، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبة يقول: «وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت علي أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن يكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالي في قهر الطاغين علي أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا علي أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا علي أن يكون له ألوان خاصة به، ولا علي معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فلله جند من كل شئ.

وفي كل شئ له آية تدل علي أنه الواحد» (١)

وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته في مبهمات القرآن فراح يخوض في التفصيلات والجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هي ما يسمي اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، وهذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلي تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون.

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطي لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم، فإنا نجده يغرق في هذه الحرية ويتوسع فيها، إلي درجة وصلت به إلي ما يشبه التطرف في أفكاره، والغلو في آرائه.

● **موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس:**

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيات (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة:

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٥٨.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ . . إلي آخر القصة، نجده يقول: «وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معني الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقه حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك، فيه إيماء إلي الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخة الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسم هذه المعاني القوي الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة. والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه، هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، إن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا، وزعم أنه لا دليل علي وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات، وإن كان المؤمن بالغيب يري للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها، ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، وكل يقر بوجود شئ غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، ولا يصل بعقله إلي إدراك كنهه؟ وماذا علي هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب - وقد اعترف بما غيب عنه - لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدر قدره، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد علي لسان صاحب الوحي، ويحظي بما يحظي به المؤمنون؟

«يشعر كل من فكر في نفسه، ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها علي مجلس شوري. فهذا يورد وذاك يدفع، واحد يقول افعل، وآخر يقول لا تفعل، حتي ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين، فهذا الشئ الذى أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرا، وهي في الحقيقة معني لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميه الله ملكا، أو يسمي أسبابه ملائكة، أو ماشاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها علي الناس، فكيف يحجر يها علي صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ والعلم الواسع» (١).

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك (٢) «فإذا صح الجري علي هذا التفسير، فلا

---

(١) تفسير المنار: ١/ ١٦٧، ١٦٨.

(٢) غالب ما ينسب للإمام في هذا التفسير مروي بالمعني عنه.

يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلي أن الله تعالي لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوي الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوي مخصوصا بنوع من أنوع المخلوقات، لا يتعداه ولا يتعدي ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوي وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوي بالسجود الذي يفيد معني الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له، والتصرف الذي لم يعط لغيره، خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في الأرض، واستثني من هذه القوي قوة واحدة، عبر عنها بإبليس، وهي القوة التي لزها الله بهذا العالم لزا، وهي التي تميل بالمستعد للكمال، أو بالكامل إلي النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلي العدم، أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود إلي الفناء، أو التي تعارض في اتباع الحق، وتصد عن عمل الخير، وتنازع الإنسان في صرف قواه إلي المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته، فيصل إلي مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدا للوصول إليها، تلك القوة التي ضللت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إلها يسمي إله الشر، وما هي بإله، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو».

قال: «ولو أن أنفسنا مالت إلي قبول هذا التأويل، لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة علي اطمئنان القلب، وركون النفس إلي ما أبصرت من الحق» (١).

ثم يعود في موضع آخر إلي تقرير التمثيل في القصة فيقول: «وتقرير التمثيل في القصة علي هذا المذهب هكذا: أن أخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوي هذا العالم وأرواحه، التي بها قوامه ونظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ، ويعطي استعدادا في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شئ في هذه الأرض، وانتفاعه به فى استعمارها، وعرض الأسماء علي الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدي وظيفته وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوي له، ينتفع في ترقية

(١) تفسير المنار: ١/ ٢٦٩.

الكون بمعرفة سنن الله تعالي في ذلك. وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، وإبطال داعية خواطر السوء، التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض ولولا ذلك لجاء علي الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري » (١).

والذي ينظر في هذا التأويل الذي جوزه الشيخ، وفي سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاورة ومقاولة، لا يسعه إلا أن يرده، وإن حاول قائله أن يروج له بجعله الأوامر التي وردت في الآية من قبيل الأمر التكويني، لا الأمر التكليفي.

● **موقفه من السحر:**

ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة في فهم القرآن الكريم أنا نجده يخالف رأي جمهور أهل السنة، ويذهب إلي ما ذهب إليه المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٤) من سورة الفلق: ﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** ﴾ .. نجده بعد أن يفسر معني النفث والعقد، يفسر المراد بالنفاثات في الآية فيقول: « المراد بهم هنا هم النمامون، المقطعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم، وإنما جاءت العبارة كما في الآية، لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه – مثلا – فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها، ليكون ذلك حلا للعقد التي بين الزوجين. والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلي عداوة، بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق » (٢).

● **إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة:**

ثم راح الشيخ – رحمه الله – يرد ما جاء من الروايات في سحر الرسول ﷺ فقال: « وقد رووا هنا أحاديث في أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وأثَّر سحره فيه، حتي كان يخيل له أنه يفعل الشئ وهو لا يفعله، أو يأتي شيئا وهو لا يأتيه، وأن الله أنبأه بذلك، وأخرجت مواد السحر من بئر، وعوفي – ﷺ – مما كان نزل به من ذلك، ونزلت هذه السورة، ولا يخفي أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتي يصل به الأمر إلي أن يظن أن يفعل شيئا وهولا يفعله، ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية، بل هو ماس بالعقل، آخذ بالروح، وهو مما يصدق قول المشركين فيه: ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا** ﴾ [الفرقان: ٨]، وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله، وخيل له أن

---

(١) تفسير المنار: ١/٢٨١، ٢٨٢.

(٢) تفسير جزء عم ص ١٨١.

شيئا يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحي إليه، ولا يوحي إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها: أن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فليزم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح في نظر المقلد بدعة – ونعوذ بالله – يحتج بالقرآن علي ثبوت السحر، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه – ﷺ –، وعدة من افتراء المشركين عليه، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون: إن الشيطان يلابسه عليه الصلاة والسلام، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلي لبيد، فإنه خولط في عقله وإدراكه في زعمهم .

«والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم – ﷺ –، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته، وعدم الاعتقاد بما ينفيه، وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلي المشركين أعدائه، ووبخهم علي زعمهم هذا، فإذن هو ليس بمسحور قطعا. وأما الحديث – فعلي فرض صحته – هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها الظن والمظنون، علي أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد، إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أما من قامت له الأدلة علي أنه غير صحيح، فلا تقوم به عليه حجة، وعلي أي حال، فلنا – بل علينا – أن نفوض الأمر في الحديث، ولا نحكمه في عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فإنه إذا خولط النبي في عقله – كما زعموا – جاز عليه أن يظن أنه بلَّغ شيئا وهو لم يبلغه، أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه، والأمر ظاهر لا يحتاج إلي بيان...» إلخ (١).

وهذا الحديث الذي يرده الأستاذ الإمام رواه البخاري وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة، وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة، فإن السحر الذي أصيب به عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر علي شئ من العقل، وقد قالوا إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعا من أنواع العقد عن النساء وهو الذي يسمونه(رباطا) فكان يخيل إليه أن عنده قدرة علي إتيان إحدي نسائه، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك، أما السحر

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١ – ١٩٢.

الذي نفي عنه - ﷺ - فمراد به الجنون، وهو مخل ولا شك بمقام النبوة وقد قالوا﴿ يا أيُّها الَّذي نُزِّلَ عَلَيْه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦].

ثم إن الحديث رواية البخاري وغيره من كتب الصحيح، ولكن الأستاذ الإمام ومن علي طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره، فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري، كما أنه - لو صح في نظرهم - فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن، وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب في منزلة المبيِّن من المبيَّن، وقد قالوا: إن البيان يلتحق بالمبين، وليس هذا الحديث وحده هو الذي يضعفه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسي، فمن ذلك أيضا حديث الشيخين: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها» .. فإنه قال فيه: «إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة» (١).

فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة - علي فرض الصحة -، بجعل الحديث من باب التمثيل، وهو ركون إلي مذهب المعتزلة. الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له علي الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط.

وبعد .. فهذا هو إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وهذا هو مسلكه ومنهجه فيه، ولعلي أكون قد أرضيت الحقيقة، ولم أتجن علي الشيخ، أو أتهمه بما هو منه برئ.

٢ - السيد محمد رشيد رضا (٢)

● كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشام، وفيها تلقي العلم عن شيوخها وعلمائها، وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفي هذه الأثناء وقع في يده نسخة من جريدة (العروة الوثقي)، التي كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما في الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجابا شديدا، ورغب في الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغاني فلم يسعده الحظ ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ في هذه المرة، واتصل بالشيخ في رجب سنة ١٣١٥هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه أن يكتب تفسيرا للقرآن علي نهج ما كان يكتب في جريدة (العروة الوثقي)، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروسا في التفسير

---

(١) تفسير المنار:٢/ ٣٩٠.

(٢) ولد في سنة ١٢٨٢هـ، وتوفي في سنة ١٣٥٤هـ.

بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلا حتي قام بإلقاء دروسه في التفسير علي طلابه ومريديه.

وكان الشيخ رشيد – رحمه الله – ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم علي تلقيها وضبطها، فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب علي الناس في مجلته (المنار) ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب، وتناوله له بالتنقيح والتهذيب (١) .

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعي ما أخذ ، وألف في حياته وبعد وفاته، فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره. وليس غريبا ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام – رحمه الله – كان يقول: « صاحب المنار ترجمان أفكاري » (٢)، كما أنه ليس غريبا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيد بأنه « متحد معه في العقيدة ، والفكر والرأي، والخلق. والعمل » (٣) .

● **إنتاج الشيخ رشيد في التفسير :**

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجا في التفسير، وذلك أنه كتب تفسيره المسمي بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار. . ابتدأ بأول القرآن وانتهي عند قوله تعالي في الآية (١٠١) من سورة يوسف: ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ . . ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله .

هذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلدا كبارا، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالي في الآية (٥٣) من سورة يوسف: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** ﴾ . . . الآية.

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا. . و قد فسرالشيخ من القصار : سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص،

---

(١) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار: ١ / ١٠ – ١٥ .

(٢) الجزء الثاني صفحة ٤٩٨ .

(٣) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم في مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد ١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام.

والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجا في التفسير أكثر من هذا وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلي روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هي المصادر، والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هي الأفكار، ولا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر.

● **مصادره في التفسير:**

أما مصادره في التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن علي فهم بعض آخر منه، خصوصا إذا تكررت الآيات في موضوع واحد، وكان يستعين أيضا بما صح عنده من بيان رسول الله ﷺ، وبما جري عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه (١)، ومستعينا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه علي الأخص، ويحدثنا بعض تلاميذه: «أنه كان لا يراجع ما يكتب في التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه في الآية، حذرا من تأثير أقوال المفسرين علي نفسه، وإذا آتاه الله فهما في القرآن لم يسبق إليه، أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلي إخوانه شاكرا، وقد يقصه علي أهل بيته مغتبطا مسرورا» (٢).

● **هدفه من التفسير:**

وأما هدفه في التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو «فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلي ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة» (٣). فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك في كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلي من حشروا في التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: «إن حاجة الناس صارت شديدة إلي تفسير تتوجه العناية الأولي فيه إلي هداية القرآن علي الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه. وما أنزل لأجله، من الإنذار، والتبشير، والهداية، والإصلاح» (٤).

يريد أنه سيعمل تفسيره علي هذا النمط ليسد حاجة الناس، ويقول في موضع آخر، «إن قصدنا من التفسير بيان معني القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان» (٥).

---

(١) انظر تفسير المنار: ٦/ ١٩٦.

(٢) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد من مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد (١٢ سنة ١٣٥٤هـ).

(٣) تفسر المنار: ١/ ١٧. (٤) تفسير المنار: ١/ ١٠. (٥) تفسير المنار: ٤/ ٤٢.

● **منهجه في التفسير :**

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة في نص القرآن، ولا خوض في إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون ولا رجوع بالنص إلي اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع وكشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، و بيان لهدايته، ودلالة إلي عظيم إرشاده، وتو قيف علي حكم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله في خليقته.

ولكنه نجد الشيخ رشيد رحمه الله – يحيد عن هذا المنهج بعض الشئ وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويحدثنا هو بذلك فيقول :–

« وأنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه – رحمه الله تعالي – بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء أكان تفسيرا لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية،والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلي تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أويقوي حجتهم علي خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها. بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس » (١).

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذي كان من الشيخ رشيد – خصوصا في المسائل الاجتماعية – لم يدفعه إليه إلا كونه رجلا (صحفيا) اتصل عن طريق مجلته بالناس علي اختلاف منازعهم ومشاربهم، وفيهم المتدين، والملحد والكافر، فأراد أن يتمشي بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين علي دينه، وير د الملحد عن إلحاده، ويكشف عن محاسن الإسلام، لعل الكافر أن يثوب إلي رشده ويرجع عن كفره (٢).

● **آراؤه في التفسير :**

أما آراؤه في التفسير فهي كآراء شيخه، تقوم علي حرية واسعة في الرأي واعتداد عظيم بالفهم، وثقة قوية بما عنده من العلم، وعدم تقيد ببعض المسلَّمات عند العلماء، ولهذا نجد له أفكارا غريبة في تفسير القرآن استقل ببعض منها، وقلد شيخه في بعضها الآخر.

---

(١) تفسير المنار: ١ / ١٦ .

(٢) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه في التفسير تباعا بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب في كتاب واحد هو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

● **رأيه في أصحاب الكبائر:**

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة في شأن المرابين: ﴿**وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.. نجده يخالف أهل السنة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التي في درجه أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد في النار ولا يخرج منها أبدا فيقول: «أي: ومن عاد إلي ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذي لا ينهاهم إلا عما يضرهم في أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين.

«وقد أول الخلود المفسرون، لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار، فقال أكثرهم: إن المراد: ومن عاد إلي تحليل الربا واستباحته اعتقادا، ورده بعضهم بأن الكلام في أكل الربا، وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعني استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرا علي الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد علي أكله بالفعل.

«والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء.. يجب إرجاع كل قول في الدين إليه، ولا يجوز تأويل شئ ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد، وليس هناك شبهة في اللفظ علي إرادة الاستحلال. ومن العجيب أن يجعل الرازي الآية هنا حجة علي القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار انتصارا لأصحابه الأشاعرة وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث، أما عنه فنقول: ما كل ما يسمي إيمانا يعصم صاحبه من الخلود في النار، الإيمان إيمانان إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان مؤثرة في النفس بمقتضي الإذعان، حاكمة علي الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها في كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان. وليس الربا من المعاصي التي تنسي، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها في غمرة النيسان كالغيبة والنظرة، فهذا هو الإيمان الذي يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود في سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام علي كبائر الإثم والفواحش عمدا، إيثارا لحب المال واللذة، عن دين الله وما فيه من الحكم والمصالح. وأما الإيمان الأول: فهو صوري فقط، فلا قيمه له

عند الله تعالي، لأنه تعالي لا ينظر إلي الصور والأقوال، ولكن ينظر إلي القلوب والأعمال كما، ورد في الحديث، والشواهد علي هذا الذي قررناه في كتاب الله تعالي كثيرة جدا، وهو مذهب السلف الصالح، وإن جهله كثير ممن يدعون اتباع السنة حتي جرأوا الناس علي هدم الدين، بناء علي أن مدار السعادة علي الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به، حتي صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إنني لا أنكر أنني آكل الربا ولكنني مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، وبأنه يرضي أن يكون محاربا لله ولرسوله، وظالما لنفسه وللناس كما سيأتي في آية أخري، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟: نعوذ بالله من الخذلان» (١).

● **تقليده لشيخه في قصة آدم:**

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه في موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول:

«وهذا التفصيل مبني علي كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه وبين إبليس. وأما علي القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين، فالمعني: أنه تعالي جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التي عليها مدار نظامها كما قال: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾ [النازعات:٥] مُسَخَّرَة لآدم وذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالي فيها، وبعلمه بمقتضي هذه السنن كخواص الماء، والهواء، والكهرباء، والنور، والأرض: معادنها، ونباتها، وحيونها، وإظهاره لحكم الله تعالي وآياته فيها، ومستعدا لاصطفاء الله بعض أفراده، واختصاصهم بوحيه ورسالته، وإقامة من اهتدي بهم لدينه وميزان شرعه، وقد أشير إلي ذلك في الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالي: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾، إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردا علي الإنسان بل عدوًّا له من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين علي طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين روح الجن الذي يغلب علي شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان. وقد أعطي الإنسان إرادة واختيارا من ربه في ترجيح ما به يصعد إلي أفق الملائكة وما به يهبط إلي أفق الشياطين» (٢).

---

(١) تفسير المنار: ٣/٩٨ - ٩٩، وراجع أيضا ما كتبه عن قتل العمد: ٥/٣٣٩ - ٣٤٥.
(٢) تفسير المنار: ٨/٣٣٢.

● **تذرعه بالمجاز والتشبيه:**

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، ويعدل بها إلي ناحية المجاز أو التشبيه، وذلك فيما يبدو مستبعدا ومستغربا لو أجري علي حقيقته، وهذا المسلك الذي جري عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلا للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن، ولا تعجز عنها قدرة الله، وإن بعدت عن منال البشر.

فمثلا نجد صاحب المنار عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٤٧) من سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا**﴾... الآية، نراه يستظهر أن المعني المراد هنا هو: «آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها في كيد الإسلام، ونردها خاسئة خاسرة إلي الوراء،بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذي جاء به الأنبياء، وقد كان لهم عند نزول الآية شئ من المكانة والمعرفة والقوة، فهذا ما نفسرها به، علي جعل الطمس والرد علي الأدبار معنويين».. ثم سرد بعض أقوال المفسرين في هذه الآية، ثم بين أن ما اختاره هو رأي شيخه الذي مال إليه في دروسه (١).

● **رأيه في السحر:**

ثم إن صاحب المنار لا يري السحر إلا ضربا من التمويه والخداع،وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله، ولهذا نراه عندما فسر قوله تعالي في الآية (٧) من سورة الأنعام: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾.. نجده يقول: «والآية تدل علي أن السحر خداع باطل، وتخييل يري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق» (٢).

هذا.. ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ كما فعل شيخه، ولكنه تأول الحديث علي أنه كان من قبيل العقد عن النساء، وبين أن عذر من طعن في الحديث هو أن هشاما – راوي الحديث عن أبيه عن عائشة – مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل (٣).

---

(١) تفسير المنار: ٥/١٥٤، ١٤٦.
(٢) تفسير المنار: ٧/٣١١.
(٣) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة (تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن) ص ١٢٩ – ١٣٤.

● **رأيه في الشياطين:**

وهو يري أن شياطين الجن لا تسلط لها علي الإنسان إلا بالإغواء فقط ويقول: «كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان علي بعض الناس، وقدرتهم علي نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم» (١).

● **رأيه في الجن:**

كما يري أن الجن لا تري للإنسان علي أي حال من الأحوال، ويرجح أن من ادعي رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل ولا حقيقة له في الخارج، أولعله رأي حيوانا غريبا كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن (٢). يقول هذا ثم يعرض في (الهامش) لذكر حديث أبي هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة وإخبار النبي له بأنه شيطان - وهوفي البخاري - ولغيره من الأحاديث التي تدل علي أن الإنسان يري الجني و يبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات: «والصواب أنه ليس في هذه الروايات كلها حديث صحيح» (٣).

بل ونجده يزيد علي ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعا من الجن. وذلك حيث يقول عندما تعرض لتفسير قوله تعالي في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿**الَّذين يأْكُلُون الرِّبَا لا يقُومُون إلاَّ كمَا يقُوم الَّذي يتخبَّطه الشَّيطانُ من الْمَسِّ**﴾.. الآية: «... المتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا تُري، وقد قلنا في المنار غير مرة: إنه يصح أن يقال إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمي بالميكروبات، يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض» (٤).

● **رأيه في معجزات النبي ﷺ:**

ولقد نجد صاحب المنار يذهب في معجزات النبي ﷺ مذهبا بعيدا، فيقرر أنه لا معجزة للنبي ﷺ غير القرآن الكريم وينكر بعض معجزاته الكونية، ويتأول ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها من الأحاديث، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو في نظره إكرام للنبي من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحجة علي صدق دعوته.

يذهب إلي هذا ويستدل له بمثل قوله تعالي في الآية (٥٩) من سورة

---

(١) تفسير سورة الناس من (مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن) ص١٤١.

(٢) انظر تفسير المنار: ٧ / ٥١٦.

(٣) المرجع السابق (هامش).

(٤) تفسير المنار: ٣ / ٩٦.

الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ ... الآية، وبمثل قوله عليه السلام من رواية أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة على مدعاه فيقول: «وقد يعارضه – يعني الحديث السابق – آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشا سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللا في متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية، وعقلية، وتاريخية، فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار، وبينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شئ» (١).

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلص في موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسر انشقاق القمر بظهور الحجة»!! (٢).

● **رأيه في مسائل من الفقه:**

كذلك نجد صاحب المنار يعطي نفسه حرية واسعة في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما جعله يخالف جمهور الفقهاء، يسفههم فيما ذهبوا إليه، وإذا أردت مثالا لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾، فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث: «لا وصية لوارث» الذي جنح الشافعي في الأم إلى أن متنه متواتر (٣)، فراح – رحمه الله – يؤكد بكل ما يملك من حجة: أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باق لم ينسخ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور. ولا أطيل بذكر ما قاله في هذا الموضوع، ويكفي أن أقول لك: إنه أنهى البحث في هذه المسألة بقوله: «وصفوة القول: أن الآية

---

(١) تفسير المنار: ١١ / ٣٣٣، وانظر الوحي المحمدي للمؤلف ص٦٩، ٧٠ مطبعة المنار سنة ١٣٤٥هـ.

(٢) انظر القول الفصل ص ١٦٣.

(٣) نيل الأوطار للشوكاني: ٦ / ٤٠، المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧هـ.

غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل علي أنها بعدها، ولا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهي محكمة، وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصا بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روي عن بعض الصحابة، وإن تجعله علي إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوي النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، ولا سيما بعد ما أكده بقوله: ﴿ **حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ (١).

وإن أردت مثالا آخر فارجع إلي ما ذهب إليه في آية التيمم من سورة النساء فستري أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافرا، ويخالف بذلك جماعة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر علي من استشكل الآية من المفسرين، ويقول فيما يقول: « سيقول أدعياء العلم من المقلدين: نعم، إن الآية واضحة المعني، كاملة البلاغة علي الوجه الذي قررتم، ولكنها تقتضي عليه أن التميم في السفر جائز ولو مع وجود الماء، وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا، فكيف يعقل أن يخفي معناها هذا علي أولئك الفقهاء المحققين؟ وكيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهر ما أرجعوها إليه؟.. ولنا أن نقول لمثل هؤلاء – وإن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له –: وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلا مشكلا؟ وأي الأمرين أولي بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن وبيانه. لحمله علي كلام الفقهاء؟ أو تجويز الخطأ علي الفقهاء، لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر التي فيها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر في رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين ».

إلي أن قال: « ألا إن أعجب العجب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هي أظهر وأولي من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام.. ».

ثم قال: « وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التي توسعوا في بنائها علي اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه في السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث » (٢).

---

(١) تفسير المنار: ١/ ١٤١.
(٢) تفسير المنار: ٥/ ١١٨ – ١٢٢.

● **حملته علي بعض المفسرين:**

هذا.. ولا يفوتنا أن نقول: إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانا قدماء المفسرين، خصوصا الفخر الرازي منهم، مع قسوة منه عليهم في الكثير الغالب(١).

● **حملته علي البدع والخرافات:**

كما أنه كان كثير الاستطراد إلي تتبع بدع المسلمين والكشف عن عوارها والإرشاد إلي علاجها، مع تشدد وتعسف منه في كثير من الأحيان.

● **شرحه لمبهمات القرآن بما جاء في التوراة والإنجيل:**

كذلك لا يفوتنا أن ننبه علي أن صاحب المنار كان مع شدة لومه علي المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحا لكتاب الله، يخوض هو أيضا فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحا لكتاب الله، وذلك أنه كثيرا ما ينقل عن الكتاب المقدس أخباراو آثارا يفسر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها علي أقوال بعض المفسرين (٢)، وكان الأجدر بهذا المفسر الذي يشدد النكير علي عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصا وهو يعترف أنه قد تطرق إليها التحريف والتبديل.

● **دفاعه عن الإسلام:**

وأخيرا فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل، وقد استعمل في ذلك لسانه وقلمه، وضمنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يحمد عليها، ولا ننسي ما له من أفكار جريئة ومتطرفة.

* * *

---

(١) انظر ما عقب به علي الزمخشري وغيره من المفسرين الذين فسروا(الركون): بالميل اليسير في قوله تعالي في الآية (١١٣) من سورة هود: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾.

(٢) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه(٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٣) واستشهاده علي ما فسر به استجابة الله لدعاء موسي وهارون حيث قالا كما جاء في الآيتين (٨٨ ، ٨٩) من سورة يونس: ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** ﴾.. الآية، بما جاء في سفر الخروج(١١ / ٤٧٤).

٣ - الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغي (١)

● **الأستاذ المراغي في مدرسة الشيخ محمد عبده :**

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلا تأثر بروح الأستاذ الإمام، ونهج علي طريقته من التجديد واطراح التقليد، والعمل علي تنقية الإسلام من الشوائب التي ألصقت به، وتنبيه الغافلين عن هديه وإرشاده، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغي عليه رحمة الله ورضوانه.

تربي هذا الرجل في مدرسة الأستاذ الإمام، وتخرج منها وهو يحمل بين جنبيه قلبا مليئا بالرغبة في الإصلاح، والثورة علي كل ما يقف في سبيل الإسلام والمسلمين.

هذا القلب الفتي، العامر بما فيه من حب للخير ورغبة في الإصلاح دفع بالرجل إلي ميدان الحياة الاجتماعية، وترقي به في مراتب المناصب الدينية، وأخيرا وقف به عند الغاية، فإذا بالرجل شيخا للأزهر، وإذا بروح الإصلاح والتجديد تتدفق من فوق منبره، وعلي قلوب طلابه وغير طلابه، ثم تنساب جارفة إلي نواح من الحياة مختلفة، فتعمل فيها عمل السحر، والحياة والنور.

لم يلازم الشيخ المراغي أستاذه الإمام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد، ولم يجلس إليه كثيرا مثلما جلس، ولكنه كان علي رغم ذلك أعمق أثرا وأكثر تحقيقا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الإصلاح وصنوف التجديد، والسر في ذلك - كما يظهر لنا - هو تقلب الشيخ في مختلف المناصب الدينية الكبيرة، ثم ما كان فيه من جاذبية وقدرة علي استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، والأمير، والوزير، والشيخ الكبير، والطالب الصغير، ورجل الشارع.

جلس هؤلاء جميعا يستمعون إليه ويأخذون عنه، فكان الميدان فسيحا أمام الشيخ، يلقي فيه بآرائه وأفكاره، فتجد الدعوي قبولا من مستمعيه، ورواجا عند مريديه.. ثم لا تلبث أن تنتشر فتعم كل شئ.

وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذي شرعه الله تعالي للأمة الإسلامية، وجعل فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذي يصل منه الشيخ إلي ما يرجوه من خير، وما يهدف إليه من إصلاح.

● **إنتاجه في التفسير :**

طرق الشيخ هذا الباب، فعقد دروسا دينية في تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس علي اختلاف طبقاتهم، من الملك إلي رجل الشارع كما قلت، وأذعيت هذه الدروس أيضا في كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام، وأخيرا طبعت هذه الدروس، ووزعت علي الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها.

---

(١) ولد في سنة ١٨٨١، وتوفي في سنة ١٩٤٥.

لم تكن هذه الدروس علي شئ من الكثرة، ولم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير، الذي كنا نرغب ونطمع في أن تزود به المكتبة الإسلامية.

نعم.. لم تتناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقدارا قليلا، وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثر من شرحه لقوله تعالي في الآية (١٧٧) من سورة البقرة: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾... إلي قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [(١)].

وشرحه لقوله تعالي في الآيات (١٣٣- ١٣٨) من سورة آل عمران ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** ﴾.. إلي قوله: ﴿ **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [(٢)]

وشرحه لقوله تعالي في الآيتين (١٣، ١٤) من سورة الشوري: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا** ﴾... إلي قوله: ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** ﴾ [(٣)].

وشرحه لقوله تعالي في الآيات (١٥١ - ١٥٣) من سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ﴾.. إلي قوله: ﴿ **ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [(٤)].

وشرحه لقوله تعالي في الآيات (١٨٣ - ١٨٦) من سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾... إلي قوله: ﴿ **وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [(٥)].

وشرحه لقوله تعالي في الآيات: (٢٤ - ٢٩) من سورة الأنفال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾.. إلي قوله: ﴿ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [(٦)].

وشرحه لسورة الحجرات [(٧)]، وشرحه لسورة الحديد [(٨)]، وشرحه لسورة لقمان [(٩)].

---

(١) ألقي هذا الدرس بمسجد البوصيري بالإسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٢) ألقي هذا الدرس بمسجد الحسين بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٣) ألقي هذا الدرس بمسجد السلطان أبي العلاء بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٤) ألقي هذا الدرس بمسجد السلطان الحنفي بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٥) ألقي هذا الدرس بمسجد السيدة زينب بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٦) ألقي هذا الدرس بمسجد البوصيري بالإسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٧) في دروس ثلاثة في شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ.

(٨، ٩) ألقي تفسير هذه السورة في رمضان سنة ١٣٥٩، ١٣٦٠هـ.

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١٦٠ – ١٦٥) من سورة الأنعام: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ . . .إلي آخر السورة (١) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١٩٩ – ٢٠٦) من سورة الأعراف: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ . . إلي آخر السورة (٢) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (٣٠ – ٣٤) من سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ . . . إلي قوله ﴿ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وشرحه لأوائل سورة الأعراف إلي قوله في الآية (٩) : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾(٤) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات(١٢٢ – ١٢٣) من سورة هود﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ . . إلي آخر السورة (٥) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيتين (٥٨، ٥٩) من سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . . .إلي قوله: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٦) .

وشرحه لقوله تعالى في الآية (١٧) من سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ . . إلي قوله: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٧) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (٨٣ – ٨٨) من سورة القصص: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . . إلي آخر السورة (٨) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١– ١٠) من سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ . .إلي قوله: ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾(٩) .

وشرحه لقوله تعالى في الآيات(٦٣ – ٧٧) من سورة الفرقان أيضا: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ . . إلي قوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (١٠) .

(١، ٢) ألقي تفسيرها في رمضان سنة ١٣٦١هـ.

(٣) ألقي هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦١هـ.

(٤) ألقي هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

(٥) ألقي هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

(٦) ألقي هذا الدرس في رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٧) ألقي هذا الدرس في رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٨) ألقي هذا الدرس في رمضان سنة ١٣٦٣ هـ ، وقد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن قصة قارون مع قومه وبين موضع العبرة فيها .

(٩) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٦٠هـ.

(١٠) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٥٩هـ.

وشرحه لسورة العصر [١]. وشرحه لسورة الملك [٢].

هذا هو كل ما للأستاذ المراغي – رحمه الله – من إنتاج في التفسير، وهو على قلته عمل كبير وعظيم، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، وما يحمل في طياته من توجيه حسن في التفسير.

وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثير من المسلمين إلي القرآن بعد أن أعرضوا عن هديه، وضلوا عن إرشاده، وتلك حسنة نرجو له برها وذخرها عند الله.

● منهجه في التفسير:

يتتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر في التفسير، ويستقصي ما عرض له من آيات القرآن الكريم، فيلحظ أن الشيخ – رحمه الله تعالي – كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلي فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته وما تظهر فيه وسائل هداية البشر، ومواضع العظة والعبرة، كما يلحظ أيضا أنه وجه جانبا كبيرا من عنايته إلي الآيات التي يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربي، ليظهر للناس أن القرآن لا يقف في سبيل العلم، ولا يصادم ما صح من قواعده ونظرياته، ،وذلك بما يهديه الله إليه من الدقة في التوفيق بين قضايا القرآن، وقضايا العلم الحديث.. دقة لا يبلغ شأوها ولا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه، وكد فهمه في هذا السبيل.

● مصادره في التفسير:

وأعتقد أن الشيخ – رحمه الله – كان يستند في تحضير دروسه علي كتاب الله تعالي بجمع ما كان من الآيات في موضوع واحد، لعل ما أجمل في موضع فسر في موضع آخر، وما أبهم في آية بين في آية أخري، وكان يستند أيضا إلي ما صح من بيان الرسول ﷺ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ثم علي أساليب اللغة وسنن الله في الكون، ثم علي ما كتبه قدماء المفسرين، ولكنه لم يلغ عقله في هذا كله، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره، ويعرض ما فيها علي قلبه وعقله، فما أعجبه منها أقره، وما لم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه.

لم نسمع عن الأستاذ المراغي – رحمه الله – أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولا فيما كتبه المفسرون، ولم يبلغنا عنه أنه ادعي لنفسه أنه أتي بما لم يأت به الأوائل في التفسير، بل علي العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل للأقدمين، ولا ينسي ما

---

(١) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٦١هـ.

(٢) وهو آخر دروسه في التفسير رحمه الله، إذ توفي في رمضان سنة ١٣٦٤هـ، ولم يقع لنا تفسير هذه السورة، وقد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها علي ما سمعته بنفسي من دروسه في تفسيرها.

كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود، وذلك حيث يقول عن تفسيره: «ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، وزهرات من رياضهم» (١).

لم يتحامل الشيخ – رحمه الله – علي المفسرين كما تحامل غيره، ولم يرم في وجوههم بالعبارات القاذعة، اللاذعة بل كان عفا في نقده، نزيها في عبارته، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء، وبخاصة مع أسلافنا ومتقدميهم.

● **موقفه من مبهمات القرآن:**

هذا .. وإن الأستاذ المراغي – رحمه الله – قد نهج في تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض في مبهمات القرآن بالتفصيل، ولا يدخل في جزئيات سكت عنها القرآن، وأعرض عنها الرسول ﷺ، فلا الروايات الموضوعة أو الضعيفة بكافية عنده حتي يزج بها في تفسيره، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه، حتي يجعل منها شروحا لما أجمله القرآن وسكت عن تفصيله، فلهذا نراه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾. نجده يقول بعد أن ينتهي من تفسير الآية ما نصه: «والآية تدل بظاهرها علي أن الجنة مخلوقة الآن، لأن الفعل الماضي يفهم هذا. غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالي: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ**﴾ [الزمر:٦٨]، فلا يدل علي خلقها الآن، والبحث في هذا لا فائدة له، ولا طائل تحته» (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٣) من سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾.. الآية، وجدناه يقول: «.. ونحن لا نعلم ما هو الذي فرضه الله علي الأمم السابقة من قبل أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس؟ أم غيره؟ وليس لنا ما يهدينا إلي شئ معين من دليل يطمئن إليه القلب. والتشبيه لا يدل علي المماثلة في كل شئ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض علي الأمم السابقة، لا نعلم مقداره ولا كيفيته. ولا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخري علي أوضاع مختلفة» (٣).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٢) من سورة لقمان: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**﴾.. الآية، وجدناه يقول ما نصه «اختلف الناس في لقمان هذا هو من هو؟ ومن أي الأمم هو؟ فقيل: إنه من بني إسرائيل، وقيل: إنه كان عبدا حبشيا. وقيل: إنه أسود من سودان مصر. وقيل: إنه يوناني. ومن الناس من

(١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد.

(٢) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨م.

(٣) ص ٦ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ، مطبعة الأزهر سنة ١٩٣٩م.

جعله نجارا، ومنهم من جعله راعي غنم، ومنهم من قال إنه نبي، ومنهم من قال إنه حكيم، وكل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، وبعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيا مملوكا » (١).

● **عنايته بإظهار أسرار التشريع :**

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم في تفسيره اهتماما كبيرا بإظهار سر التشريع الإسلامي، وحكمة التكليف الإلهي، ليظهر محاسن الإسلام، ويكشف عن هدايته للناس.

فمثلا عندما تعرض لآيات الصوم في سورة البقرة، نجده يفيض في سر الصوم وحكمته فيقول : « الصيام أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، وهو رياضة بدنية، وتهذيب خلقي، وتطهير روحي، وذلك أن الاسترسال في الشهوات، والانغماس في اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهي، يعوقها عن تلقي الإلهام وعن لذة الاتصال ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلي الصوم، كلما أحسوا بعدا عن الذات الإلهية، وانزعج خاطرهم شوقا إلي القرب منها.

« وفي الصبر علي الحرمان من اللذات التي تنازع إليها النفس، وتقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، وتقوية علي المضي في العزم، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود، لما فيها من المشقات، وفي تقوية الإرادة علي هذا النحو إعداد لتلقي التكاليف الإلهية بالقبول والطمأنينة وتثبت لملكة المراقبة والخوف من الله، وتقوية لخلق الحياة، وفي هذا كل الخير، وبه تتحقق تقوى الله، وتستعد النفس للسخاء والبذل والتضحية، إذ دعا الداعي، وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم، وبين كرامهم وأنذالهم.

« وليس يخفي أن كل شئ في هذه الحياة ممكن، الفقر بعد الغني والمرض بعد الصحة، والذلة بعد العز، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها، وتغلب الأعداء بعد الغلب عليهم وقهرهم.. وما إلي ذلك ما هو بسبيل أن يعرض للإنسان. وعروض هذه الأشياء علي نفس مدللة، وجسم مترف، ينام بقدر، ويأكل بقدر، ويمرح في اللذات بين الأهل والعشيرة قد يصدمه صدمة لا يقوي علي احتمالها، أو يسوق إليه الجزع ويورثه اليأس.

لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يجعل من العبادات ما يروض

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٨ - مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢.

الأجسام ويهذب الأخلاق، ويطهر الأرواح ويزكيها.. وكان من هذه العبادات الصوم.

«وكما عني الإسلام بتزكية الأرواح وتهذيب الأخلاق، فقد عني بتربية الأجسام، وحرم كل ما هو ضار بها، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد، ذلك أن الإسلام يريد رجلا عاملا في الحياة، مهذب الأخلاق، طاهر الأعراق، قويا لا يهاب الموت، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن، ويذود عن العشيرة، ويريد رجلا رحيما حسن المعاشرة، سلس القياد لأهله، وعشيرته، وبني وطنه، يريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه..» إلخ (١).

● **معالجته للمشاكل الاجتماعية:**

كذلك نجد الشيخ المراغي - رحمه الله - يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط في دول الإسلام، فيعالج كل ذلك بما يفيضه الله علي قلبه وعقله ولسانه، من هداية القرآن وإرشاده.

ولقد كان الأستاذ - رحمه الله - بصيرا بمواطن الداء، وأسباب الشفاء، فكان يهدف في دروسه إلي علاجها واستئصالها، وكان كثيرا ما يوجه الخطاب إلي أرباب الحل والعقد في الدولة - وهم غالبية المستمعين له - ويلفت أنظارهم إلي ما في أعناقهم من أمانات، وما عليهم من تبعات، ثم يأخذ بيدهم إلي حيث يكون صلاحهم، وصلاح من تحت إمرتهم ورعايتهم.. يدفعه في هذا كله إخلاصه لربه، ولوطنه، ولأمته.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٣) من سورة الشوري: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا** ﴾.. الآية، نجده يقول: «.. والحكمة في هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلي مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة، وكان أشقي من أنواع الحيوان، وشقاوة يكون من ناحية العقل نفسه، فقد دلت التجارب علي أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهي يذهب مذاهب شتي، منها الصواب ومنها الضلال، وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه. وهذه آراء العلماء في الفلسفة والأخلاق، يشبه بعضها هذيان المحموم، وبعضها لا يدرك له محصل علي كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين. وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلي الحكيم وقد دلت التجارب أيضا علي أن الأمم التي عملت بالهدي كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدي الذي عملت به.

«وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها علي قصرها مملوءة

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧هـ، ص ٦، ٧.

بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع، إلي مرض مزمن، ومن فقد الأهل والعشيرة، إلي فقد العزة والجاه، ومن شرف رفيع، إلي ذلة ومهانة.. واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس في طاقة الإنسان، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش، ويجعل المؤمن في سعادة نفسية، ويقويه علي احتمال الصعاب، وعلي الصبر علي معاشرة الناس، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما، فإن دائرة العقل محدودة، وهي قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل.

« وإذا قيل: إن التدين مقيد للحرية، ومانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوي والعزاء؟ فالجواب: أن الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث، ولم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان، وليست السعادة في حرية البهائم، بل في حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه، وقوام آداب الأمم وفضائلها، التي قامت عليها صروح المدنية الحقة مستند إلي الدين، وبعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين، وبناءها علي أساس العقل والعلم، غير أنه لا شبهة في أن الأمم التي تروم هذا التحول تقع في اضطراب وفوضي لا تعلم عاقبتهما، وليس من الميسور أن تُبني للعامة قواعد الفضيلة علي أساس علم الأخلاق أو أية قاعدة علمية أخري، ولكن من الميسور دائما أن تبني قواعد الفضيلة علي أساس العصمة للدين، فالذي يحاول العلماء: وهمٌ وخيال ».(١)

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ** ﴾.. نجده بعد أن يشرح الآية، ويذكر ما في القرآن من هداية يقول: « هذا هو القرآن الذي سعد به المسلمون بحياة روحية هي المثال الأعلي للنفس الإنسانية، وبحياة جثمانية طاهرة بريئة، وبحياة علمية لا يزال ما بقي من نورها يستمتع به الناس، وهو موضع للعجب، ومثار للإكبار والإجلال ».

« سعدوا به حقبة، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان، حتي أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم، وصاروا في حاجة إلي غيرهم في كل مرافق الحياة، ووصل بهم الجهل إلي حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب، وكل ما عندهم شر ينبذ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة.. القدوة حتي فيما علم غيرهم شره وفساده، وحاولوا نبذه وطرحه، وقد أصبح المسلمون مُثلا سيئة للإسلام، يحتج بهم عليه والدين منهم برئ ».

« الدين يطلب رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضي نحبه ومنهم من

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٣٦٥هـ، ص ٣٤ - ٣٦.

ينتظر، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، رجالا خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله في الأرض، يعلمون سرها، ويسخرونه للخير ودفع الأذي، يدفعون عوادي الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفوم للكرامة قدرها، وللعزة موضعها، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل، وأن الآخرة خير وأبقي » (١).

وعندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٥) من سورة الحديد: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ .. الآية.

وجدناه يقول بعد ما شرح الآية: « ذكر الله - سبحانه - الكتاب والميزان والحديد وقرنها بعضها ببعض، فالكتاب: إشارة إلي الأحكام المقتضية للعدل و الإنصاف. والميزان: إشارة إلي سلوك الناس علي وفق هذه الأحكام والحديد: إشارة إلي ما يجعلهم علي اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا، والله سبحانه - وهو العليم الحكيم - لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم، وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه، وغيرهم لابد له من وازع، وهو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد، ولذلك وجدت التعاذير في الإسلام، ووجدت الحدود. أما ترك الناس أحرارا من غير وازع. فهو ضار بالمجتمع الإنساني، وموجب للتراخي في إقامة العدل واتباع القانون، جرب هذا في العصور المختلفة، وقامت الشواهد الناطقة في العصر الحديث عليه. وعلم أن الأمم التي لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت إلي الدرك الأسفل وأضلتها الشهوات وقد كانت درة (عمر) سلكا قويا للنظام الإسلامي فلما رفعت ضعف ذلك الرباط » (٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦) من سورة لقمان: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ .. الآية، نجده يقول: « .. من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا وبرسالة محمد، ويعظمهما ويجلهما فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق؟ وتحد القاذف؟ ولم لا تحكم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم أو زاد: إنها رجعية لا يحتملها تمدين العصر الحديث!!.. أليس هذا استهزاء بالآيات؟ واشتراء للباطل؟ وضلالا عن سبيل الله؟

«هناك مقلدين للمذاهب في العقائد والأحكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة علي فساد مذاهبهم، ولوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها، بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعا للحق بغير علم؟

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧هـ، ص ١٥، ١٦.

(٢) تفسير سورة الحديد ص٤٢، ٤٣.

« هناك مذاهب ابتدعت في الدين للضلال والإضلال بسبب السياسة، وفسر مبتدعوها الآيات في التأويل ليردوها إلي مذاهبهم المبتدعة وجاء أتباعهم فقلدوهم ».

(أما المبتدعون فأمرهم واضح . . . اشتروا الضلالة بالهدي!

وأما الاتباع فكان عليهم أن ينظروا في الايات ويتدبروها عملا بقوله سبحانه: ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ [النساء:٥٩]، فهم أيضا اشتروا الضلالة بالهدي ولهم بعض العذر » (١).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦) من سورة الحجرات ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ ... الآية، نجده يقول: « .. وللتثبت في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفي على أشد الناس تثبتا من الأخبار »

« وكثيرا ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم وهو مدخل للخطر عظيم ».

« والذين هم في أشد الحاجة إلي العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور؟ وبيدهم الضر والنفع، أما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء.

« والآية – علي العموم – أدب عظيم لابد منه لتكميل النفس، وإعدادها لتعرف الحق والبعد عن مواطن الباطل »(٢).

● **توفيقه بين القرآن والعلم الحديث:**

هذا.. وإن الأستاذ المراغي – رحمه الله – كان مع اعتقاده أن القرآن قد أتي بأصول عامة، لكل ما يهم الإنسان معرفته والعلم به، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية، إلى العلوم أو العلوم إلى الآية ، كي يفسرها تفسيرا علميا يتفق مع نظريات العلم الحديث.

نعم.. كره الشيخ هذا المسلك في التفسير، وجهر بخطأ أصحابه المولعين به، وكرر هذا في مواضع كثيرة، فكان مما قاله في بعض المواضع من دروسه في التفسير: « وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية. ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليهم وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم علي الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد علي هذيان المصاب بالحمي، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله » (٣)

ولكن الأستاذ المراغي مع هذا كله كان يري أن يكون مفسر كتاب الله علي شئ من

---

(١) تفسير سورة لقمان: ٩، ١٠.
(٢) تفسير سورة الحجرات ص ١١.
(٣) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، ص ٤٢.

العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلا علي قدرة الله، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة.

كان الشيخ يري هذا، ويعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم، فجهر به في أحد دروسه في التفسير فقال: «ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات، ومادته، وأبعاده، وأقداره، وأوزانه، لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به علي القدرة الإلهية ويشيرإليه للعظة والاعتبار» (١).

ثم وجدنا الأستاذ المراغي بعد هذا يشرح قوله تعالي في الآية (١٠) من سورة لقمان ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ شرحا يقوم علي هذا المبدأ الذي ارتضاه فقال: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ السموات مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات، ونجوم وسدائم وهي مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة في الفضاء، كل شئ منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلهي ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد، والله هو ممسكها ومجريها إلي الأجل المقدر لها.. فإذا قيل: إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهي قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول: إن لها عمدا غير منظورة، وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شئ مادي تعتمد عليه، وجب أن نقول: إنه لا عمد لها، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها، والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء».

ثم قال: «قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءا من السموات وانفصلت عنها، وقرر الكتاب الكريم أن الله ﴿**اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت:١١]، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم وقد قال العلماء: إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات.. فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هي مركز هذه المجموعة، والشمس وتوابعها قوي صغيرة في العالم السماوي، وأين هي من الشعري اليمانية التي قال الله سبحانه فيها: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ**﴾ [النجم:٤٩]، فهذا النجم قدرته علي إشعاع الضوء تساوي قوة الشمس (٢٦) مرة، وقدرته علي إشعاع الحرارة مثل قدرته علي إشعاع الضوء، فلو فرض أن الشعري اليمانية حلت محل الشمس يوما من الأيام، لانتهت الحياة فجأة، بغليان الأنهار، والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين،

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣، ١٤.

وضوء الشعري اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق فانظر إلي هذا البعد السحيق.

«وليست الشعري اليمانية أكبر نجم في السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد علي قدرة الشعري أكثر من عشرة آلاف مرة.

«وعظمة السماء ليست في الشمس وتوابعها، كلا.. إن عظمتها في مدنها النجومية، في أقدارها، وأوزانها، وأضوائها،وأبعادها، علي اختلاف أنواعها».

«وهناك نجم يسمي (الميرة) أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليونا من المرات، وهناك السدائم، وهي قريبة من الخلق أول الأمر، ثم يقف علم الإنسان، والله تعالي وحده الذي يعلم خلقه: ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠]: أي خلق الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب، ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس، وعكوفها علي الدوران حولها علي بعد منها، وصلت بعض موادها إلي حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة علي القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولي نتوء القشرة الصلبة التي غلفت الأرض، وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحر، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات. حتي صارت كأوتاد مغروزة فيها».

«والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية علي جدرانها، وتوزعها، وتغير اتجاهها، وتكسر حدتها، وتساعد بذلك علي بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، والتي يتغذي بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تمور».

«فالجبال أولا حبست النار في جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجئ بأسباب من داخل الأرض، والذي يجئ بسبب العواصف والرياح»... وهكذا مشي الشيخ إلي آخر الآية (١).

● **حرية الرأي في تفسيره:**

ثم إن الشيخ المراغي – رحمه الله – كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة، ولا يقف عند مذهب مخصوص، ولا يقول برأي معين إلا إذا اقتنع به، وإلا فلا عليه أن يتركه إلي ما هو صواب في نظره.

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣– ١٥.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٤) من سورة البقرة ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ .. نجده يقول بعد أن يذكر خلاف علماء الفقه في السفر المبيح للفطر: «وقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال. وروي عن ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر في الميل الواحد، وإذا نظرنا إلي أن نص القرآن مطلق، وأن كل ما رواه في التخصيص أخبار آحاد، وأنهم لم يتفقوا في التخصيص، جاز لنا أن نقول: إن السفر مطلقا مبيح للفطر، وهذا رأي أبي داود وغيره من الأئمة» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٢٧) من سورة لقمان: ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾ ... الآية، نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة في الآية مراد به الكثرة يقول: «وعلي هذا يمكن أن يقال في أبواب النار، أما الأبواب الثمانية للجنة، فقد أريد بالزيادة فيها علي النار أن يدل علي أن مسالكها أكثر من مسالك النار، لراحة أهلها، وزيادة العناية بهم.

«وكذلك يقال في السموات السبع، والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة، وتذكر السبعين للكثرة كذلك، ومنه: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٨٠]، ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم في السبعين، ولا في السبعة الآلاف، ونظيره: ﴿ **فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ** ﴾ [الحاقة: ٣٢] يراد في سلسلة طويلة هائلة، ولا يراد التقدير بهذا العدد» (٢).

والواقع أن هناك فرقا بين ما ورد من نحو قوله: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ ... إلخ، وقوله: ﴿ **فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا** ﴾، وبين ما ورد في عدة أبواب الجنة والنار، وعدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر في مقام التهويل، فلا يراد التحديد وإنما يراد الكثيرة، بخلاف الثاني فإنه ليس كذلك.

ومثلا نجد الأستاذ المراغي في دروسه الأخيرة عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٥) من سورة الملك: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ﴾ .. الآية، يشرح كون النجوم رجوما للشياطين بما معناه: «أن ما فى السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زَيَّن السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيئات مخصوصة ونظام مُحكم، لتكون

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ، ص ١١.

(٢) تفسير سورة لقمان ص٣٦.

حُججا دامغة، وأدلة قوية على مَن يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده». سمعناه يقول ما هذا معناه، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون: «ألقمته حجراً» يعنى أقمت عليه الحُجَّة فلم يحر جواباً، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن فى القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى فى الآيات (٦ - ١٠) من سورة الصافات: ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾، وكقوله في الآيتين (٨ - ٩) من سورة الجن: ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا**﴾.. يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: «وهناك آيات أخرى فى هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى، ولكن يمكن حملها عليه، وليس فى الوقت متسع لذلك، وسنعرض لها فى موضع غير هذا».

ولست أدرى كيف كان يستطيع الشيخ - رحمه الله - أن يحمل كل الآيات الواردة فى هذا الموضوع على المعنى الذى قاله حملاً صحيحاً، وهى كما ترى صريحة فى أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع، ثم مُنِعوا من ذلك عند رسالة محمد ﷺ، فمَن حاول منهم استراق السمع - كما كانوا يفعلون من قبل - رُمِى بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد.

وخاتمة المطاف فى هذه الدروس التى ألقاها الأستاذ الأكبر فى التفسير: أنه كان منها - كما قيل - أمران عظيمان لهما خطرهما فى الحياة الدينية: كانت عاملاً قوياً فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الدينى، ولفت أنظارهم إلى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم، وأدب جم كريم، وإرشاد قَيِّم مفيد، فحببَتْ إليهم الدين، وزيَّنته فى قلوبهم وهرعوا إليه يتعرفون حكمه وأحكامه، ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية، أساسها الدين والخُلُق الكريم.

وكانت هذه الدروس أيضاً: منار هدى وإرشاد، يلقى أشعته الوضَّاءة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن، فيضىء لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله، واستخلاص آدابه وأحكامه، خالصة مما جاورها من إسرائيليات وتأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، وشغلتهم فى تفسير القرآن بما لا يَمُت إلى روحه ومعناه،

وكذلك صوَّرت الدين لغير أهله الذين يتحسسون له عيباً صورة لا تتفق وما له من جلال وجمال (١).

هذا .. وإنَّا لنرجو للشيخ المراغى عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده فى التفسير وهو:

أن يضعه الله سبحانه فى كفَّة الحسنات من ميزان أعماله، وأن يجعله ضياءً ونوراً يسعى بين يديه: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [الحديد: ١٢]

* * *

(١) مقدمة الشيخ شلتوت لتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغى.

رجـــاء واعتـــذار

وبعد .. فهذا ما يسَّره الله لى وأعاننى عليه، ولَعلَّى أكون وقد طوَّفتُ بالقارىء الكريم فى نواح شتَّى من مناهج التفسير، وأخذتُ بيده إلى حيث أطلعته على ألوان مختلفة منه، من مبدأ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، وكشفتُ له عن طرائق القوم فى فهمهم لنصوص كتاب الله، وأريته كيف حاول كل ذى نحْلة أن يقيم نحْلته على أساس من القرآن. وكيف تحايل على فهم آياته، وتصرَّف فى تأويل عباراته، كل مَن حاول أن يجعل القرآن شاهداً له، ودليلاً على ما يهدف إليه، من حق تبلج، أو باطل تلجلج .. لَعلَّى بعد هذا كله أكون قد أرضيتُ عُشَّاق التفسير خاصة، وأهل العلم عامة، وحققتُ رغبة طالما ترددت فى صدورهم، وقضيتُ حاجة كثيراً ما تطلعت لها نفوسهم، وأشرأبت إليها أعناقهم.

ولَعلَّى بعد ذلك أن لا أكون قد أسأمت القارىء الكريم، من طول دعتنى إليه ضرورة البحث، ودفعتنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء.

واعتقادى - رغم هذا الطول - أن فى هذا البحث تركيزاً كبيراً، واختصاراً كثيراً، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتاباً وحده، وكتاباً موسعاً مُسهباً.

وأرجو، أن يهىء الله لى رشداً من أمرى، ومتسعاً من وقتى، لأجعل من هذا الكتاب كتباً متعددة، فيها إسهاب أوسع من هذا الإسهاب، واستيفاء أشمل من هذا الاستيفاء.

وحسبى بهذا العمل الذى يُعتبر باكورة عملى فى التأليف أن أكون قدَّمت إلى المكتبة الإسلامية بحثاً فيه جدة وطرافة، وفيه متعة علمية، ولذَّة روحية، تستهوى القارىء، وتستحوذ على مشاعره وحسه.

حسبى هذا، وحسبى أن أكون قد أرضيتُ رغبتى العلمية، التى لم آل فى إرضائها جهداً، ولم أدخر فى إشباعها وسعاً، فإن رَضِىَ الناس بعد ذلك، فذلك من فضل الله، وإن كانت الأخرى، فذلك هو جَهْدُ المُقِل، وطاقة الناشىء، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملاً فسيحاً، وكمالاً صريحاً.

هذا.. ولا يفوتنى أن أعتذر إلى القارىء الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخفى على فطانته، ولا تدق عن إدراكه، فإنْ مرَّ بها فرجائى إليه أن يتلمس لها عذراً، وأن يصححها مشكوراً، وتلك شيمة الكرام أهل الخُلُق الطاهر والأدب الحميد، وأن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر:

فإن رأوا زلَّة طـاروا بها فرحـاً عنى وما وجدوا من صالح دفنوا

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، وأن ينفع به أناساً أخلصوا قلوبهم لله، وأن ينفعنى به فى دنياى وآخرتى، وأن يحقق لى به ما تصبو إليه نفسى، وتسمو إليه همتى.. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

حدائق حلوان فى عصر الجمعة ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ .

الموافق (٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦١)

محمد حسين الذهبى

* * *

المراجـــع

● **كتب التفسير بالمـأثور :**

١ – جامع البيان فى تفسير القرآن : ابن جرير الطبرى، الأميرية ١٣٢٣ هـ.

٢ – بحر العلوم : أبو الليث السمرقندى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣).

٣ الكشف والبيان عن تفسير القرآن : أبو إسحاق الثعلبى، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١

٤ – معالم التنزيل : الحسين بن مسعود البغدادى، المنار ١٣٤٥ هـ.

٥ – المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : ابن عطية الأندلسى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (١٠) ٣٥٦

٦ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير : للحافظ عماد الدين ابن كثير، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦ هـ.

٧ – الجواهر الحسان : عبد الرحمن الثعالبى، طبع الجزائر ١٣٢٣ هـ.

٨ – الدر المنثور : جلال الدين السيوطى، الميمنية ١٣١٤ هـ.

٩ – تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : أبو طاهر الفيروزآبادى، الأزهرية ١٣٤٤هـ.

● **كتب التفسير بالرأى المحمود :**

١ – مفاتيح الغيب : الفخر الرازى، الأميرية ١٢٨٩ هـ.

٢ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوى، دار الكتب العربية ١٣٣٠ هـ.

٣ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفى، السعادة ١٣٢٦ هـ.

٤ – لباب التأويل فى معانى التنزيل : الخازن، التقدم ١٣٢١ هـ.

٥ – البحر المحيط : أبو حيان، السعادة ١٣٢٨ هـ.

٦ – تفسير الجن : الجلال المحلى والجلال السيوطى، دار إحياء الكتب ١٣٤٥ هـ.

٧ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : النيسابورى، الأميرية ١٣٢٣ هـ.

٨ – السراج المنير : الخطيب الشربينى، الأميرية ١٢٩٩ هـ.

٩ – إرشاد العقل السليم : أبو السعود، المصرية ١٣٤٧ هـ.

١٠ – روح المعانى : الألوسى، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأخيرة.

● **كتب تفسير المعتزلة :**

١ – تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضى عبد الجبار، الجمالية ١٣٢٩ هـ.

٢ – أمالي الشريف المرتضى : الشريف المرتضى، السعادة ١٣٢٥ هـ .
٣ – الكشاف : الزمخشرى، مطبعة مصطفى محمد ١٣٠٨ هـ .

● **كتب تفسير الإمامية الإثنا عشرية :**

١ – مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار : عبد اللطيف الكازرانى، طبع العجم ١٣٠٣ هـ.
٢ – تفسير العسكرى : الحسن العسكرى، طبع تبريز ١٣١٤ هـ.
٣ – مجمع البيان : أبو عليّ الطبرسى، طبع طهران ١٣١٤ هـ.
٤ – الصافى : ملا محسن الكاشي، طبع فارس ١٢٤٤ هـ.
٥ – تفسير القرآن : السيد عبد الله العلوى، طبع طهران ١٣٥٢ هـ.
٦ – بيان السعادة : سلطان الخراسانى، طبع طهران ١٣١٤ هـ.

● **كتب تفسير الزيدية :**

١ – فتح القدير : الشوكانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩ هـ.

● **كتب تفسير الخوارج :**

١ – هميان الزاد إلى دار المعاد : محمد إطفيش، طبع زنجبار ١٣١٤ هـ.

● **تفاسير الصوفية :**

١ – تفسير القرآن الكريم : سهل التسترى، السعادة ١٩٠٨ هـ.
٢ – حقائق التفسير : أبو عبد الرحمن السلمى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٣).
٣ – عرائس البيان فى حقائق القرآن : أبو محمد روزبهان، طبع الهند ١٣١٥ هـ.
٤ – التأويلات النجمية : نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٢٦) م.
٥ – تفسير ابن عربى (تأويلات القاشانى) : عبد الرزاق القاشانى، الأميرية ١٢٨٣هـ.

● **تفاسير الفقهاء :**

١ – أحكام القرآن (حنفى) : الجصَّاص، البهية المصرية ١٣٤٧ هـ.
٢ – أحكام القرآن (شافعى) : الكيا الهراسى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦
٣ – الإكليل فى استنباط التنزيل (شافعى) : الجلال السيوطى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت .
٤ – أحكان القرآن (مالكى) : أبو بكر بن العربى، السعادة ١٣٣١ هـ.

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن (مالكى) : القرطبى، دار الكتب ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥ م.

٦ ـ كنز العرفان فى فقه القرآن (إثنا عشرى) : مقداد السيورى، طبع تبريز ١٣١٤هـ.

٧ ـ الثمرات اليانعة (زيدى) : الفقيه يوسف الثلاثى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١) م.

● **كتب التفسير فى العصر الحديث :**

١ ـ الجواهر في تفسير القرآن الحكيم، طنطاوى جوهرى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٢ ـ الهداية والعرفان : أبو زيد الدمنهورى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩ هـ.

٣ ـ تفسير جزء « عم » : الشيخ محمد عبده، مطبعة مصر ١٣٤١ هـ.

٤ ـ تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، المنار ١٣٥٣ هـ.

٥ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : السيد محمد رشيد رضا، المنار ١٣٤٦هـ.

٦ ـ الدروس الدينية : الشيخ محمد مصطفى المراغى، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٤ هـ.

● **علوم القرآن :**

١ ـ مقدمة التفسير : الراغب الأصطفهانى، الجمالية ١٣٢٩ هـ.

٢ ـ مقدمة فى أصول التفسير : ابن تيمية، الترقى بدمشق ١٩٣٩ م.

٣ ـ جواهر القرآن : الغزالى، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ.

٤ ـ الإتقان : الجلال السيوطى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٥ م.

٥ ـ الفوز الكبير فى أصول التفسير : ولى الله الدهلوى، إدارة الطباعة المنبرية ١٣٤٦ هـ.

٦ ـ مبادىء التفسير : محمد الخضرى الدمياطى، التيل ١٣٢١ هـ.

٧ ـ المدخل المنير : محمد حسين مخلوف العدوى، مطبعة المعاهد ١٣٥١ هـ.

٨ ـ التفصيل فى الفرق بين التفسير والتأويل : حامد العمادى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣٤٤٤) مجاميع.

٩ ـ التفسير : معالم حياته.. منهجه اليوم : أمين الخولى، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤ م.

١٠ ـ المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم (جزء أول) : جولدزيهر، تعريب على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٤ م.

١١ – إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى، الاستقامة ١٩٤٠ م.
١٢ – منهج الفرقان : محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا ١٩٣٨ م.
١٣ – مناهل العرفان : عبد العظيم الزرقانى، مطبعة شبرا ١٣٥٩ هـ.

● **كتب الحديث وعلومه :**

١ – صحيح البخارى : أبو عبد الله البخارى، الخيرية ١٣٢٠ هـ.
٢ – صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
٣ – سنن الترمذى : أبو عيسى الترمذى، الأميرية ١٢٩٢ هـ.
٤ – مسند الإمام أحمد : الإمام أحمد بن حنبل، الميمنية ١٣١٣ هـ.
٥ – نيل الأوطار. الشوكانى، العثمانية ١٣٥٧هـ.
٦ – فتح البارى، شرح البخارى : ابن حجر العسقلانى، الخيرية ١٣١٩ هـ.
٧ – إرشاد السارى، شرح البخارى : القسطلانى، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
٨ – شرح صحيح مسلم : محيى الدين النووى، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
٩ – تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة، كردستان ١٣٢٦ هـ.
١٠ – منهاج السُّنَّة : ابن تيمية، الأميرية ١٣٢٢ هـ.
١١ – معرفة علوم الحديث : الحاكم النيسابورى، دار الكتب المصرية ١٩٣٧ م.
١٢ – مقدمة ابن الصلاح : أبو عمر بن الصلاح، طبع الهند ١٣٥٧ هـ.
١٣ – تدريب الراوى : الجلال السيوطى، الخيرية ١٣٠٧ هـ.
١٤ – هدى السارى مقدمة فتح البارى : ابن حجر العسقلانى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ هـ.
١٥ – الأسلوب الحديث : أمين الشيخ، مطبعة شبرا ١٩٤٠ م.

● **كتب اللُّغة :**

١ – القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزآبادى، المصرية ١٩٣٥ م .
٢ – تاج العروس شرح القاموس : السيد مرتضى الزبيدى، الخيرية ١٣٠٦ هـ.
٣ – لسان العرب : ابن منظور، الأميرية ١٣٠٢ هـ.
٤ – أساس البلاغة : الزمخشرى، الأميرية ١٣٢٧ هـ.

● **كتب الفقه والأُصول :**

١ – فتاوى ابن تيمية : ابن تيمية، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ.
٢ – أعلام الموقعين : ابن القيم، مطبعة فرج الله الكردى ١٣٢٥ هـ.
٣ – الموافقات : أبو إسحاق الشاطبى، مطبعة المكتبة التجارية، الطبعة الأخيرة.
٤ – المستصفى : أبو حامد الغزالى، الأميرية ١٣٢٤ هـ.

٥ – مسلم الثبوت وشرحه: محب الله عبد الشكور وعبد العلى الأنصارى، الأميرية ١٣٢٤ هـ.
٦ – شرح التلويح: سعد الدين التفتازانى، دار الكتب العربية ١٣٢٧ هـ.
٧ – جمع الجوامع وشرحه: ابن السبكى، والجلال المحلى، الأزهرية ١٢٣١ هـ.

● **كتب التاريخ والرجال:**

١ – الإصابة فى تمييز الصحابة: أحمد بن على العسقلانى، الشرقية ١٩٠٧ م.
٢ – أُسد الغابة فى معرفة الصحابة: اين الأثير الجزرى، الوهيبة ١٢٨٠ هـ.
٣ – تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٢٥ هـ.
٤ – ميزان الاعتدال: الحافظ الذهبى، السعادة ١٣٢٥ هـ.
٥ – لسان الميزان: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٣١ هـ.
٦ – خلاصة تذهيب الكمال: صفى الدين الخزرجى، الخيرية ١٣٢٢ هـ.
٧ – طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكى، الطبعة الأولى.
٨ – الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون، السعادة ١٣٢٩هـ.
٩ – نيل الابتهاج: أحمد باب التبنكى، السعادة ١٣٢٩ هـ.
١٠ – الفوائد البهية فى تراجم الحنفية: محمد اللكنوى، السعادة ١٣٢٤ هـ.
١١ – الفهرست: ابن النديم، الرحمانية ١٣٤٨ هـ.
١٢ – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوى، مطبعة القدسى ١٣٥٥ هـ.
١٣ – شذرات الذهب: عبد الحى بن العماد، مطبعة القدسى ١٣٥٠ هـ.
١٤ – مروج الذهب: أبو الحسن المسعودى، البهية ١٣٤٦ هـ.
١٥ – مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، الشرفية ١٣٢٧ هـ.
١٦ – طبقات المفسِّرين: الجلال السيوطى، طبع ليدن ١٨٣٩ م.
١٧ – طبقات المفسِّرين: الداودى، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة (١٦٨).
١٨ – تهذيب الأسماء واللُّغات: محيى الدين النووى، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأخيرة.
١٩ – وفيات الأعيان: ابن خلكان، الأميرية ١٢٩٩ هـ.
٢٠ – فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبى، الأميرية ١٢٨٣ هـ.
٢١ – العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم: علىّ بن لالى بالى، الميمنية ١٣١٠ هـ.
٢٢ – معجم الأدباء: ياقوت الحموى، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٦ م.

٢٣ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٤٨ هـ.

٢٤ - روضات الجنَّات فى أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسوى، طبع فارس ١٣٠٧ هـ.

٢٥ - بُغية الوعاة فى طبقات النحاة: الجلال السيوطى، السعادة ١٣٢٦ هـ.

٢٦ - أعيان الشيعة: السيد محمد الأمين الحسينى، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٢٥٣ هـ.

٢٧ - ترجمة الرجال المذكورة فى شرح الأزهار: أحمد بن عبد الله الجندارى، التمدن ١٣٣٢ هـ.

٢٨ - تاريخ التشريع الإسلامى: محمد (بك) الخضرى، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٠ م.

٢٩ - مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى: السبكى، السايس، البربرى، وادى الملوك ١٩٣٦ م.

٣٠ - نظرة عامة فى تاريخ التشريع الإسلامى: على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٢ م.

٣١ - تاريخ الجدل: محمد أبو زهرة، العلوم ١٩٣٤ م.

● **كتب التوحيد والملل والنحل :**

١ - الفَرْق بين الفرَق: أبو منصور البغدادى، المعارف ١٣٢٨ هـ.

٢ - التبصير فى الدين: أبو المظفر الإسفرايينى، الأنوار ١٩٤٠ م.

٣ - شرح المواقف: السيد الشريف، السعادة ١٩٠٧ م.

٤ - تبيين كذب المفترى: ابن عساكر، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ.

٥ - إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليمانى، الآداب ١٣١٨ هـ.

٦ - شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٢١هـ.

٧ - الإكليل فى المتشابه والتنزيل.. ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية، العامرة الشرفية ١٣٢٣ هـ.

٨ - الفصَل: علىّ بن حزم، الأدبية ١٣٢٠ هـ.

٩ - المِلَل والنحل: محمد الشهرستانى، الأدبية ١٣٢٠ هـ.

١٠ - كشف أسرار الباطنية: محمد بن مالك اليمانى، الأنوار ١٣٥٧ هـ.

١١ - فضائح الباطنية: أبو حامد الغزالى، طبع ليدن ١٩١٦ م.

١٢ - تعريف الشيعة: عبد الرزاق الحسنى، العرفان ١٣٥٢ هـ.

١٣ – الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة: موسى جاد الله، الشرق ١٣٥٥ هـ.
١٤ – كتاب بهاء الله: بهاء الله، السعادة ١٩٢٠ م.
١٥ – رسائل أبى الفضائل: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٠ م.
١٦ – مفتاح باب الأبواب: ميرزا محمد مهدى خان، المنار ١٣٢١ هـ.
١٧ – خطابات ومحادثات عبد البهاء: عبد البهاء عباس، جمع ع. ج. س، السعادة ١٩٢٠م.
١٨ – المبادئ البهائية: معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية، رعمسيس ١٩٢١م.
١٩ – الحجج البهية: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٥م.
٢٠ – محاضرة عن البهائية: عبد العزيز نصحى، السَلَفية ١٣٥٢ هـ.

● كتب التصوف:

١ – الفتوحات المكية: ابن عربى، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.
٢ – الفصوص: ابن عربى، الزمان ١٣٠٤ هـ.
٣ – إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالى، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦ هـ.
٤ – تلبيس إبليس: ابن الجوزى، النهضة ١٩٥٢م.

● كتب الفلسفة:

١ – رسائل إخوان الصفا: إخوان الصفا، الآداب ١٣٠٦ هـ.
٢ – فصوص الحكم: الفارابى، السعادة ١٩٠٧م.
٣ – رسائل ابن سينا: أبو علىّ بن سينا، مطبعة هندية ١٩٠٨م.
٤ – جامع البدائع: ابن سينا، السعادة ١٩١٧م.
٥ – تاريخ الفلسفة: الدكتور مدكور، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

● كتب المعلومات العامة:

١ – الكتاب المقدَّس: المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٠م.
٢ – شرح نهج البلاغة: ابن أبى الحديد، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.
٣ – الحيوان: الجاحظ، السعادة ١٣٢٥ هـ.
٤ – الكامل: المبرد، الخيرية ١٣٠٨ هـ.
٥ – كشف الظنون: ملا كاتب جلبى، دار الطباعة ١٢٧٤ هـ.
٦ – فجر الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥م.

٧ – ضحى الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣ هـ.
٨ – رسائل الإصلاح: محمد الخضر حسين، مطبعة القدس ١٣٥٨ هـ.
٩ – القول الفصل: شيخ الإسلام صبرى، مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦١ هـ.
١٠ – الرسالة المستطرفة: محمد الكتانى، طبع بيروت ١٣٢٢ هـ.
١١ – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: عبد الرحمن الكواكبى، الجمالية.
١٢ – اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم: أبو عليان، الحسينية ١٣٢٥ هـ.
١٣ – المبادئ النصرية: نصر الحويجى، الخيرية ١٣٢٠ هـ.
١٤ – محمد عبده: عثمان أمين، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٤٤م.
١٥ – الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل (باشا)، الاعتماد ١٣٥٧ هـ.
١٦ – النماذج الخيرية: منير الدمشقى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ.
١٧ – دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشنتناوى وآخرين، مطبعة لجنة الترجمة ١٩٣٣م.
١٨ – دائرة المعارف للبستانى: المعلم بطرس البستانى، طبع بيروت ١٨٧٦م.
١٩ – مجلة الإيمان: علماء الوعظ والإرشاد.
٢٠ – مجلة نور الإسلام: علماء الوعظ والإرشاد.
٢١ – مجلة نور الإسلام (الأزهر): الأزهر الشريف.
٢٢ – مجلة الهداية الإسلامية: جمعية الهداية الإسلامية.
٢٣ – مجلة المقتطف: دار المقطم.
٢٤ – مجلة السياسة الأسبوعية: محمد حسين هيكل (باشا).

(مجموع المراجع ١٧١ مرجعًا)

* * *

محتويات الكتاب

مطبعة المدنى
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١